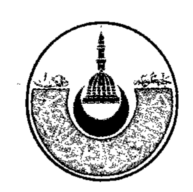
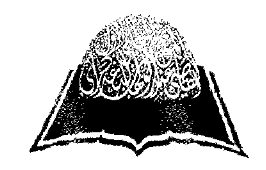








المجلد الثاني

انعقد بدبي في الفترة من ١٣ إلى ١٩ المحرم ١٤٢٤ هجري الموافق ١٦ إلى ٢٢ مارس ٢٠٠٣م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مراحل تأسيس المدرسة الفقهية المالكية بالعراق ومميزاتها

إعداد

أ. مختار بن عبد الرحمن نصيرة*

* أستاذ مساعد بجامعة الأمير عبد القادر بالجزائر، حصل على الماجستير من جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية في الحديث وعلومه عام (١٩٩٨م) وكان عنوان رسالته: «المنهج النقدي عند الإمام أبي داود في سننه». له العديد من الكتب والدراسات.

المؤتمر العلمي لدار البحوث

الملتقى الأول

القاضي عبد الوهاب البغدادي

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث

الإمارات العربية المتحدة - دبي - هاتف: ٣٤٥٦٨٠٨، فاكس: ٣٤٥٣٢٩٩، ص ب: ٢٥١٧١
الموقع www.bhothdxb.org.ae البريد الإلكتروني irhdubai@bhothdxb.org.ae

ملخص البحث:

إن الشخصية التي كان يتمتع بها الإمام مالك بن أنس، والقائمة على علمي الحديث والفقه، وبروزه فيها، والبلد الذي كان يقطنه - مدينة رسول الله ﷺ - جعلاه قبلة لكثير من التلاميذ من مختلف البلدان، فأخذوا وحملوا عنه الموطأ، الذي يعتبر كنزاً من كنوز السنّة النبوية، وسِفراً من أسفار فقهه واجتهاداته وأصوله.

ولما رجعوا إلى بلدانهم، وفي نفوسهم تلك المكانة لشيخهم وفقهه، فأخذوا في نشر مذهبه، ويروون الموطأ، فتصدروا مجالس التدريس، وحلق الرواية، ودار الإفتاء، بل منهم من تولى القضاء فطبّق أصول المذهب المالكي في الأحكام والمنازعات وغيرها مما زاد الركائز الأولية لفقه مالك رسوخاً وانتشاراً ووقعاً في القلوب.

ولما كان مذهب الإمام مالك أحد المذاهب المنتشرة في الأصقاع، و قد هيمن على المدينة المنورة،والحجاز، ومصر قبل دخول المذهب الشافعي عليها، وإفريقيا، وبلاد المغرب، والأندلس.

وكان في بعضها منافساً لمذهب آخر كما هو الشأن في العراق، لأن العراق عرف فقه الإمام أبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ) قبل فقه مالك؛ لأنه أسس هناك على يد إمام المذهب، وفيه ظهرت أصوله وقواعده، ومن ثمّ كان فقه أبي حنيفة ينسب للعراق، وكانت الكوفة أهم مدينة علمية في العراق، وفيها نشأ الفقه الحنفي، حتى يطلق على الأحناف فقهاء الكوفة.

ولعلّ أهم الأسباب التي جعلت العراق يعرف بالازدهار الكبير في المجال الفكري والعلمي وغيرها من المجالات الحضارية، هو أنّ بني العباس قد اتّخذوا بغداد عاصمة لهم، فأصبحت وجهة للعلماء والأدباء والمفكرين، ومجمعاً للمذاهب الاعتقادية والفلسفية والسياسية وغيرها من نتاج الفكر البشري.

وكان في مقدّمة العلماء، الفقهاء الذين تقدموا وتولوا الصدارة، وأصبحت كلمتهم لها وزنها، فبذلوا كل ما يملكون للتصدي للتيارات الاعتقادية والفلسفية، وحاربوا البدع والمنكرات.

وقد شارك في هذه الحركة العلمية الواسعة كل المذاهب الفقهية: المذاهب الأربعة، والظاهرية وغيرهم.

وكان المذهب المالكي في مقدّمة المذاهب التي حظيت بقبول واسع بعد المذهب الحنفي، سواء على المستوى الاجتماعي، أو العلمي، أو السياسي.

ونستطيع أن نقسم دخول الفقه المالكي إلى العراق وانتشاره في أرجائه إلى مراحل عدّة، وذلك باعتبار طبقات أئمة المذاهب الذين عملوا على نشره والتأصيل لمسائله والدفاع عنه.

خطة البحث:

وفي هذه المداخلة نفصّل في مراحل تأسيس الفقه المالكي بالعراق، وفي كل مرحلة نذكر من أخذ براية المذهب في نشره ودافع عنه، والقاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي يعتبر حلقة مهمة من حلقات هذا التأسيس، كما أركز في كل مرحلة على المميزات والخصائص التي تميزت بها، وأختم مداخلتي بذكر ما استفادته المدارس الفقهية المالكية الأخرى من المدرسة العراقية.

أولاً ـ مراحل تأسيس الفقه المالكي بالعراق:

المرحلة الأولى :

أخذ المذهب المالكي طريقه إلى العراق عن طريق جماعة من أصحاب مالك الكبار الذين لقوه وسمعوا منه، وذلك بدءاً بالبصرة وانتهاءً ببغداد العاصمة.

وكان في طليعة هؤلاء التلاميذ جماعة نذكر تراجمهم موجزة فيما يلي :

١- أبو عبد الرحمن، عبد الله بن مسلمة بن قعنب[١]، التميمي الحارثي، أصله مدني، سكن البصرة فعُدَّ من أهلها.

روى عن مالك، وابن أبي ذئب، وشعبة، والليث، والداروردي، والحمادين، وغيرهم وروى عنه أبوزرعة وأبو حاتم الرّازيان، وأبو داود، وأخرج له البخاري ومسلم.

حكى أبو علي الغساني عنه أنه قال : «لزمت مالكاً عشرين سنة حتى قرأت عليه الموطأ».

وقال ابن شاهين فيما يحكي عن الحسيني : «كنا عند مالك رحمه الله تعالى فجاءه رجل أخبره بقدوم القعنبي، فقال : متى يقرب قدومه ؟ فقال : قوموا بنا إلى خير أهل الأرض نسلّم عليه».

قال عنه أبوزرعة: «ما كتبت عن أحد أجلّ في عيني منه». توفي سنة (٢٢٠ هـ) بمكة.

٢- سليمان بن بلال[٢]، أبو أيوب، مولى عبد الله بن أبي عتيق المدني سمع يحيى ابن سعيد، وزيد بن أسلم، وعبد الله بن دينار، وربيعة وغيرهم، وروى عنه ابن إدريس، وخالد بن مخلد المقري، وابن وهب، وأشهب، وابن القاسم، والقعنبي وغيرهم.

---

(١) ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ١/٣٩٧-٣٩٩ .

(٢) المصدر السابق، ١/٢٩٧-٢٩٨ .

شارك مالكاً في كثير من رجاله، وكان من أجلّ أصحابه وأخصّهم، وهو أوّل من جلس معه حين انعزل عن مجلس ربيعة.

وعدّه ابن حبيب في الطبقة التي صار إليها فقه مالك بالمدينة بعد مالك، وعدّه القاضي عياض من الطبقة الأولى في المدرسة البغدادية لتوليه القضاء بها للرشيد، وتوفي عليه، وصلى عليه الرشيد.

مجمع على توثيقه، وأخرج له البخاري ومسلم.

توفي سنة (١٧٦ هـ)، وقيل (١٧٧ هـ)، وقيل غير ذلك.

٣- عبد الرحمن بن مهدي[١] بن حسان العنبري، يُكَنى بأبي سعيد، بصري.

سمع السفيانين، والحمادين، ومالكاً وشعبة، وشريكاً وغيرهم.

روى عنه أحمد بن حنبل، وابن وهب، ويحيى بن سعيد القطان، وابن المدني، وابنا شيبة، وغير هؤلاء كثير.

وأخرج له البخاري ومسلم في صحيحيهما.

ولازم مالكاً فأخذ عنه كثير الفقه والحديث وعلم الرّجال، وله معه حكايات.

كان عبد الرحمن يجالس الشافعي مع أحمد بن حنبل، فكان يقول لهما: «ما صح عندكما من الحديث فاعلماني لأتّبعه لأنّكما أعلم منّي بالحديث».[٢]

وقال علي بن المديني غير مرّة: «لو أُخِذْت فحلفت بين الركن والمقام لحلفت بالله أني لم أر أحدا قط أعلم بالحديث من ابن مهدي».[٣]

وقال يحيى القطان: «ما قرأ ابن مهدي على مالك أثبت مما سمع عنه الناس».[٤]

توفي ابن مهدي بالبصرة في جمادى الثانية سنة (١٩٨ هـ).[٥]

---

(١) ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ١/٣٩٩-٤٠٠.
(٢) المصدر السابق، ١/٤٠٠-٤٠٢.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق، ١/٤٠٠.

٤- يحيى بن يحيى بن بكير[١] بن عبد الرحمن التميمي الحنظلي مولاهم، روى عن مالك الموطأ، وقيل قرأه عليه، وهذا الذي يدل عليه حديثه في صحيح مسلم. ولازمه طويلاً فعدّ من أصحابه.

روى عن الليث، والحمادين، وأبي عوانه، وابن لهيعة، وابن عيينة، وغيرهم.

روى عنه إسحاق بن راهويه، وغيره، وأخرج له البخاري ومسلم.

وصفه إسحاق بن راهويه فقال: «لم أكتب العلم على أحد أوثق في نفسي منه»، وقال خلاد الرامهرمزي: «رحل يحيى إلى مصر والشام واليمن والعراق، وكان من ورعه يشك في الحديث كثيراً حتّى سمّوه الشّكاك».

قال البخاري: توفي سنة (٢٢٦ هـ).

٥- محمد بن عمر بن واقد الواقدي [٢] مولى بني سهم بن أسلم، أبو عبد الله، دني، عداده في البغداديين، روى عن مالك الحديث والفقه، وولّى القضاء للمأمون والرّشيد.

قال ابن المبارك: «محمد بن سعد كتابه في تاريخه الكبير، كان عالماً بالمغازي والسير والفتوح، واختلاف النّاس في الحديث والأحكام ...».

وُصف حديثه بكثرة المنقطعات والغرائب، وانفراده بمسائل غريبة في المذهب.

توفي وهو على القضاء في ذي الحجة سنة (٢٠٧ هـ).

٦- هارون بن عبد الله بن محمد بن معن بن عبد الرحمن بن عوف المكي [٣]، نزل ببغداد، عداده في الطبقة الصغرى من أصحاب مالك.

سمع من مالك، وابن وهب، وابن أبي حازم وغيرهم، وروى عنه يحيى بن عمر، ويونس بن عبد الأعلى، والوليد بن مسافر وغير هؤلاء كثير.

قال الشيرازي: «هو أعلم من صنّف الكتب في مختلف قول مالك»[٤].

(١) ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ١/٤٠٧-٤٠٩.
(٢) المصدر السابق، ١/٤٠٧.
(٣) المصدر السابق، ١/٤١٥.
(٤) المصدر السابق.

وقال الزبير أبو مصعب : « كان من الفقهاء وكان يقوم بنصرة أهل المدينة فيحسن »[١].

وقال القاضي وكيع : « كان هارون الزهري من الفقهاء لمذهب أهل المدينة من أصحاب مالك، ومن أهل الأدب الواسع »[٢].

تولى القضاء للمأمون في عدّة جهات، كان آخرها قضاء مصر، ثم صرف. كانت وفاته سنة (٢٢٨ هـ)[٣].

٧- قتيبة بن سعيد [٤] بن جميل بن طريف بن عبد الله الثقفي، البلخي، كنيته أبو رجاء، وقتيبة لقبه، واسمه يحيى، له عن مالك : كثير من الأحاديث والمسائل الجيّدة.

روى عن عبد الله بن الزبير الحميدي، وابن حنبل، وابن معين، وغيرهم. سمع من مالك، والليث، وابن لهيعة، وغيرهم. أخرج له البخاري ومسلم فأكثرا عنه. ولي القضاء ببغداد.

قال البخاري : « توفي قتيبة غرّة شعبان سنة أربعين ومائتين، وهو ابن اثنتين وتسعين سنة »[٥].

من خلال التراجم المتقدمة تتبلور المميزات الأساسية للمرحلة الأولى، والمتمثلة فيما يلي :

أولاً - إن أصحاب مالك تمتعوا بالازدواجية العلمية، فجمعوا بين الفقه، والحديث، فكانوا أئمة مثلوا إمامهم -إمام دار الهجرة- في الديار العراقية، وسيتبين في المراحل القادمة أن هذه الصفة يتحلى بها كل أئمة المذهب في بغداد.

ثانياً - كان نشر المذهب المالكي -فقهاً وحديثاً- بالطريقة الشفوية لأقوال مالك ومروياته في المجالس وحلق العلم.

---

(١) ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ١ /٤١٥ .
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر:المصدر السابق،١ /٥١٦-٥١٨ .
(٤) المصدر السابق،٢ /٥٢١ - ٥٢٣، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ١٢ /٤٦٤ - ٤٧٠ .
(٥) ترتيب المدارك،٢ /٥٢٣ .

ثالثاً – تولى أصحاب الإمام مالك القضاء بالعراق وضواحيه، مما جعل الفقه المالكي ينتشر بصورة سريعة، وذلك بتطبيقه في مجالس القضاء.

المرحلة الثانية :

لقد غادر جماعة من أصحاب مالك المدينة، ومالك على قيد الحياة يعقد المجالس للفقه والرواية، وربّما فات تلك الجماعة بعض المسائل والأحاديث التي ذكرها بعد رحيلهم إلى حين وفاته، ولا يتأتى الاطلاع على جديد فقهه، إلاّ عن طريق من تتلمذ على أصحابه الذين لازموه إلى حين وفاته.

وكان من هؤلاء أئمة من أهلة العراق الذين حملوا لواء نشر فقه مالك عن الطبقة الأولى من أصحابه، وكان على رأسهم :

١– أحمد بن المعذّل (٢) بن غيلان بن الحكم بن المختار، يكنى بأبي الفضل، بصري وأصله من الكوفة.

– قال الشيرازي : «هو من أصحاب عبد المالك بن الماجشون، ومحمد بن مسلمة، وكان مفوهاً، ورعاً متبعاً للسنّة، وله مصنّفات : كتاب "الحجّة"، وكتاب "الرّسالة" ...»(٢).

وعليه تفقه جماعة من أئمة المذهب المالكي كإسماعيل بن إسحاق القاضي، وأخيه حماد، ويعقوب بن شيبة.

– قال أبو سليمان الخطابي : «أحمد بن المعذّل، مالكي المذهب، يُعد في زهّاد البصرة وعلمائها»(٣).

– وقال الحسن بن عبد الرحمن بن عبيد البصري : «كان فقيهاً يقول بقول مالك، لم

(١) ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ٢/ ٥٥٠ ـ ٥٥١ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق، ٢/ ٥٥٢ .

يكن لمالك بالعراق أرفع منه، ولا أعلى درجة، ولا أبصر بمذهب أهل الحجاز منه»[١].

٢- يعقوب بن إسماعيل[٢] بن حماد بن زيد بن درهم، أبو يوسف البصري، مولى آل جرير بن حازم الأزدي.

ولي القضاء بمدينة الرسول ﷺ.

وقدم بغداد، وحدّث بها عن سفيان بن عيينة، ويحيى القطان، وابن مهدي، وغيرهم.

روى عنه عبد الله بن أبي سعيد الوراق، وإسماعيل بن إسحاق القاضي، وغيرهم.

كانت وفاته سنة (٢٤٦ هـ)، وهو على قضاء بلد فارس.

٣- إسحاق بن إسماعيل[٣] بن حماد بن زيد البصري، أبو يعقوب الأزدي الجهني مولاهم، والد إسماعيل القاضي.

ولي المظالم بمصر أيام المأمون والخطابة والإشراف على المعتصم.

تجرّد آله وولده لمذهب مالك في أيامه وتفقهوا فيه.

وكان مولده سنة (١٧٦ هـ)، وتوفي بالبصرة سنة (٢٣٠ هـ).

٤- الحارث بن مسكين[٤] بن محمد بن يوسف، أبو عمرو المصري، رأى الليث ومالك، والمفضل بن فضالة، وسمع سفيان بن عيينة، وابن وهب، وغيرهم.

كان فقيهاً على مذهب مالك، وكان ثقة ثبتاً في الحديث.

حمله المأمون إلى بغداد وسجنه، لأنه لم يجب إلى القول بخلق القرآن، فلم يزل محبوسا إلى أن ولي جعفر المتوكل فاطلقه وأطلق جميع من كان في السجن.

وحدّث الحارث ببغداد فسمع منه حمدان بن علي الوراق، والقاسم بن المغيرة الجوهري، ويعقوب بن شيبة، وعبد الله بن أحمد وغيرهم، ورجع إلى مصر وكتب إليه المتوكل بعهده على قضاء مصر، ثمّ صرف عنه سنة خمس وأربعين ومائتين[٥].

---

(١) ترتيب المدارك، للقاضي عياض، ٢/٥٥٠-٥٥١.

(٢) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد، ١٤/٢٧٥-٢٧٦، وانظر: ترتيب المدارك، ٢/٥٦٠.

(٣) ترتيب المدارك، ٢/٥٥٨-٥٥٩.

(٤) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد، ٨/٢١٦.

(٥) المصدر السابق.

قال علي بن الحسين بن حيّان : «وجدت في كتاب أبي بخط يده، قال أبو زكريا : الحارث بن مسكين خير من أصبغ بن الفرج ، وأفضل من عبد الله بن صالح، كاتب الليث، وكان أصبغ من أعلم خلق الله كلّهم برأي مالك، يعرفها مسألة مسألة متى قالها مالك، ومن خالفه فيها»(١).

وقال ابن فرحون : «سمع من ابن القاسم وابن وهب وأشهب ودوّن أسمعتهم وبوبها، وبهم تفقه، وعُدّ في أكابر أصحابهم، وله كتاب فيما اتفق عليه رأيهم الثلاثة ... وأثنى عليه خيراً، وقال ابن معين: لا بأس به ...»(٢). توفي في شهر ربيع الأول سنة (٢٥٠ هـ).

والذي يظهر من خلال تتبع تراجم أعلام هذه الطبقة، أنّ التأليف بدأ مع هذه الطبقة، سواء أكان ذلك في الفقه، أو في سائر العلوم،ومصنّفات أحمد بن المعذّل والحارث بن مسكين خير دليل على ذلك.

المرحلة الثالثة :

ثمّ تحولت الرّيادة من الطبقة الثانية إلى طبقة ثالثة، وكان منهم :

١- أبو يوسف، يعقوب بن شيبة السدوسي، من أهل البصرة.

سمع علي بن عاصم، ويزيد بن هارون، وعفان بن مسلم، ويحيى بن بُكير، وأبا أحمد الزبيري وغيرهم.

روى عنه حفيده محمد بن أحمد، ويوسف بن يعقوب بن إسحاق وغيرهم.

كان سكن بغداد وحدّث بها، وصنّف مسنداً معللاً، إلاّ أنه لم يتمّه.

قال جماعة منهم أبو الحسن الدارقطني : «لو أن كتاب يعقوب بن شيبة كان مسطوراً على حمام لوجب أن يكتب»(٣).

---

(١) تاريخ بغداد، ٨/٢١٧.

(٢) الديباج المذهب، لابن فرحون ١٠٧.

(٣) تاريخ بغداد، ١٤/ ٢٨١-٢٨٣.

وقال ابن كامل الفرضي القاضي: «كان من فقهاء البغداديين على قول مالك، من كبار أصحاب أحمد بن المعذّل والحارث، وكان من ذوي السند وكثرة الرواية، ويعقوب هذا أحد أئمة المسلمين، وأعلام أهل الحديث المسندين»[١].

وقال ابن الحارث: «إنه كان بارعاً في مذهب مالك، وألّف فيه تآليف جليلة، أخذ ذلك ابن المعذّل، وأصبغ بن الفرج، والحارث بن مسكين ...»[٢].

وكان ممن يقف في القرآن تقية، ورماه أحمد بن حنبل بالبدعة والهوى لذلك. توفي أبو يوسف شهر ربيع الأول، سنة (٢٦٢ هـ)[٣].

٢- أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن ضمره النيسابوري[٤]، المعروف بالعطار، كان من فقهاء المالكية الخراسانيين فيهم، درس المذهب بنيسابور.

قال ابن ماكولا: «هو آخر من درس مذهب مالك، وتفقه بعبد الله بن عبد الحكم، وسمع أبا عبد الله ابن أخي ابن وهب، ويونس بن عبد الأعلى، وأحمد ابن منيع، ومحمد بن رافع».

توفي سنة (٢٢٩ هـ).

المرحلة الرابعة:

ثمّ ازدادت مكانة المذهب المالكي رسوخاً، وازداد ذلك النفوذ ظهوراً وتوسعاً حينما انتقلت رئاسة المذهب وريادته إلى الطبقة الرابعة، والتي كان في طليعتها آل حماد بن زيد الذين يرجع إليهم الفضل في ترسيخ دعائم المذهب المالكي في العراق، وتبويئه مكان الصدارة والحكم حتى صار منصب قاضي القضاة يسند إليهم[٥].

---

(١) ترتيب المدارك، ٣/٥٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) تاريخ بغداد، ١٤/٢٨٢.

(٤) المصدر السابق، ٣/٥٩.

(٥) انظر: قواعد الفقه الإسلامي من خلال كتاب الإشراف على مسائل الخلاف للدكتور محمد الروكي، ٣٣.

نبذة عن أسرة بني حماد وفضلهم :

كانت أسرة بني حماد من أجلّ بيوت العلم بالعراق، وأرفع مراتب السؤدد في الدين والدنيا، وعلى عواتقهم نشر مذهب مالك في العراق، و منهم اقتبس، فمنهم من نبغ في الفقه، ومنهم من اشتهر صيته في الحديث، ومنهم من جمع بين الفقه والحديث، وترددت الرّيادة في طبقاتهم نحو ثلاثمائة عام، من جدّهم حماد بن زيد وأخيه سعيد – وكان مولدهما نحو المائة – إلى وفاة آخر من وصف منهم بالعلم، المعروف بابن أبي يعلى، ووفاته قرب عام أربعمائة (١).

قال أبو محمد الفرغاني في التاريخ : «نال بنو حماد من الدنيا منزلة ومزية رفيعة ... ولم يبلغ أحد ممن تقدم من القضاة ما بلغوا من اتّخاذ المنازل، والضياع والكسوة، والآلة ونفاذ الأمر في جميع الآفاق، فكان لا يبقى أمير في أقطار الأرض شرقاً وغرباً إلاّ كاتبوهم...»(٢).

١- ترجمة إسماعيل بن إسحاق القاضي :

إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد بن درهم ابن بابك الجهضمي الأزدي، أصله من البصرة، وبها نشأ، واستوطن بغداد.

اسم أمّه وأم أخيه شاخة بنت معاذ السدوسية، وقيل شُحَيْمَة (٣) .

سمع محمد بن عبد الله الأنصاري، ومسلم بن إبراهيم الفراهيدي، وسليمان بن حرب، وحجاج بن منهال الأنماطي، وعمرو بن مرزوق، ومحمد بن كثير، ومسدد، والقعنبي، وأبو الوليد الطيالسي، وعلي بن المديني، وخلق كثير.

---

(١) ترتيب المدارك، بتصرف، ٣/ ١٦٦ - ١٦٧، وانظر: الديباج المذهب، ١٠٧.

(٢) نقلا عن ترتيب المدارك، ٣/ ١٦٧.

(٣) تاريخ بغداد، ٦/ ١٩٠.

وممن تفقه عليه، وروى عنه ابن أخيه، وإبراهيم بن حماد، وابنا بكير، والنسائي، وأبو بشر الدولابي، وأبو فرج القاضي، وأبو الفضل بن راهويه، ومحمد بن أحمد الدينوري وآخرون كثيرون.

وروى عنه موسى بن هارون الحافظ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل، وأبو القاسم البغوي وابن عمه يوسف، وإسماعيل الصفّار وغيرهم (١).

- قال الشيرازي: «إن القاضي إسماعيل يقول: أفخر على النّاس برجلين بالبصرة بابن المعذّل يعلمني الفقه، وابن المديني يُعلمني الحديث».

- قال الخطيب البغدادي: «كان إسماعيل فاضلا عالما، متفننا، على مذهب مالك، شرح مذهبه، ولخّصه واحتجّ له، وصنّف المسند وكتبا عديدة في علوم القرآن، وجمع حديث مالك، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وأيوب السختياني»(٢).

- وقال طلحة بن أبي جعفر الشاهد: «إسماعيل بن إسحاق كان منشؤه بالبصرة، وأخذ الفقه على مذهب مالك عن أحمد بن المعذّل، وتقدّم في هذا العلم حتّى صار علما فيه، ونشر من مذهب مالك وفضله ما لم يكن بالعراق في وقت من الأوقات، وصنّف في الاحتجاج لمذهب مالك والشرح له ما صار لأهل هذا المذهب مثالا يحتذون به، وطريقاً يسلكونه، وانضاف إلى ذلك علمه بالقرآن فإنه ألف في القرآن كتباً تتجاوز كثيراً من الكتب المصنّفة فيه ...»(٣).

- وقال أبو إسحاق الشيرازي: «كان المبرّد يقول: لولا شغله برئاسة العلم والقضاء لذهب برئاسة النحو والأدب ...»(٤).

- وقال أبو حازم القاضي الحنفي: «لبث إسماعيل أربعين سنة يميت ذكر أبي حنيفة من العراق»(٥).

---

(١) المصدر السابق، ٦/٢٨٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق، ٦/٢٨٥-٢٨٦.
(٤) ترتيب المدارك، ٣/١٦٩-١٧٠.
(٥) المصدر السابق، ٣/١٧٠.

والذي ساعده على ذلك تتلمذه على أصحاب مالك بالمدينة، فقد أدرك بعضهم، وتفقه بهم، كإسماعيل ابن أبي أويس زوج ابنة مالك (ت ٢٢٦ هـ)، وأبي مصعب أحمد ابن القاسم الزهري قاضي المدينة (ت ٢٤٢ هـ)، وعبد الجبّار بن سعيد الماسحقي (ت٢٢٦ هـ).

وكان إلى جانب فقهه وعلمه بالحديث والقراءات والآداب وغيرها، ورعاً تقياً صالحاً محمود السيرة، شديداً على أهل البدع والأهواء.

ولايته للقضاء :

ولاية إسماعيل للقضاء لم تبلغ مدّتها خمسين سنة.

– وأوّل ما ولّي في خلافة المتوكّل لمّا مات سوار بن عبد الله، وكان قاضي القضاة بسر من رأى : جعفر بن عبد الواحد الهاشمي، فأمره المتوكل أن يولّي إسماعيل قضاء الجانب الشرقي من بغداد.

– وصرف عن القضاء سنة خمس وخمسين.

– وأعاده المعتمد للقضاء على الجانب الشرقي ببغداد في سنة ست وخمسين ومائتين وبقي على القضاء بها إلى غاية اثنتين وستين ومائتين.

– ثمّ جمعت له بغداد بأسرها، وصُرف القاضي البرتي من قضاء الغربية، فكان إسماعيل القاضي قاضي القضاة إلى أن توفي لم يجمع قضاء بغداد لأحد قبله (١).

مؤلفاته :

ألف القاضي إسماعيل كتباً كثيرة ومتنوعة، تبرز مكانته العلمية، وتمكنه من فقه مالك وغيره من العلوم. ونذكر مؤلفاته فيما يلي :

أحكام القرآن، القراءات، معاني القرآن وإعرابه، الرد على محمد بن الحسن ولم يتمّه، المبسوط في الفقه، ومختصره، الأموال والمغازي، الصلاة على النبي ﷺ ، الفرائض،زيادات الجامع من الموطأ، شواهد الموطأ، مسند يحيى بن سعيد الأنصاري، مسند حديث أبي

---

(١) تاريخ بغداد،٦ / ٢٨٧ - ٢٨٨ .

هريرة، جزء حديث أم زرع، كتاب الأصول، الاحتجاج بالقرآن، كتاب السنن، الشفعة، جزء في مسألة المني يصيب الثوب (١).

وفـــاته :

– روى الخطيب بسنده إلى أحمد بن كامل، قال : « توفي إسماعيل وهو قاضٍ على الجانبين جميعاً فجأة وقت صلاة العشاء الآخرة ليلة الأربعاء لثمان بقين من ذي الحجّة سنة اثنتين وثمانين ومائتين »(٢).

– وقال ابن أزهر الكاتب : « ارتفع المطر فخرج إسماعيل إلى المصلّى، فصلى ركعتين بـ« سبح »، و« هل أتاك »، ثمّ صعد المنبر، وخطب خطبتين، وحوّل رداءه، وحدّث بحديث طويل، خشع له الناس، وبكى الناس، وانصرف خاشعا، فلما كان إلى أيام صلى في مسجده العصر، وهو صحيح، وحَكَم، ثمّ انصرف إلى داره ووجد للمغرب ضعفا فعهد إلى ابنه الحسن، وإلى ابن عمه يوسف بن يعقوب، وتوفي تلك الليلة »(٣).

– وفي رواية أخرى توفي من ليلة يوم استسقائه، وصلى عليه ابن عمه يوسف، توفي وهو ابن اثنتين وثمانين سنة (٤).

٢– يوسف بن يعقوب بن إسماعيل بن حماد (٥) :

والد القاضي أبي عمر، كان أكثر تفقهه مع ابن عمه إسماعيل.

سمع مسلم بن إبراهيم، وسليمان بن حرب، ومحمد بن كثير، وغيرهم.

كان الغالب عليه الحديث، وكان مسنداً فاضلاً، سمع منه الناس ببغداد قراءة وإملاءً، أخذ عنه ابنه القاضي، وابن السماك، وابن قانع، وأبو بكر الشافعي.

قال ابن كامل : « إنه كان غير مطعون عليه في الحديث، ضعيف الفقه، وإنه كان لا يغيّر شيبه. و ألف فضائل أزواج النبيﷺ، ومسند شعبة، وكتاب الصيام والدعاء والزكاة ».

---

(١) ترتيب المدارك، ٣/١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) تاريخ بغداد،٦/ ٢٩٠.

(٣) نقلا عن ترتيب المدارك، ٣/ ١٨٠ - ١٨١ .

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق، ٣/ ١٨٢ - ١٨٧.

تولى الحسبة، وولي أيضا النفقات، وتولى القضاء لما استعفي القاضي إسماعيل أيام المعتضد، ثمّ ولي البصرة بعد ابن عمه محمد بن حماد مع قضاء سائر عمله، ثم بغداد، وكان فقيهاً سرياً عالماً متفنناً، وولي بعدها المظالم ببغداد.

ولما مات إسماعيل بن إسحاق القاضي قسّم عمله فقلّد يوسف قضاء الجانب الشرقي.

قال ابن عرفة: «فحمدت مذاهبه، وحسن حكمه، واستقامت طريقته، وكثر الشّاكر له».

وقال طلحة بن محمد: «كان يوسف بن يعقوب هذا رجلاً صالحاً، عفيفاً، خيّراً، حسن العلم بصناعة القضاء، شديداً في الحكم، لا يراقب فيه أحداً، وكانت له هيبة، ورئاسة، وكان ثقة أميناً».

انعزل القضاء بعد أن صرفه المقتدر عنه إلى أن توفي سنة (٢٩٧ هـ).

٣- حماد بن إسحاق، شقيق إسماعيل القاضي(١):

سمع من شيوخ أخيه، وذُكر أنه سمع ابن أبي أويس، وأبا شاكر بن محمد بن مسلمة المخزومي وغيرهما، وتفقه بابن معذّل.

وألّف كتبا كثيرة، منها: كتاب المهادنة، وكتاب الرد على الشافعي.

كان ذا مكانة عند بني العباس، صحب أبا أحمد بن المتوكل، وجرى مجرى صحابته.

روى عنه ابنه قوله: «إنّي لأستعين بكلمة مالك -رحمه الله- عند فتياه، وهي كما شاء الله، لا حول ولا قوة إلاّ بالله، إذا صعبت عليّ المسألة، فإذا قلتها انكشفت لي». توفي في جمادى سنة (٢٦٧ هـ)(٢).

٤- محمد بن حماد بن إسحاق(٣):

ولّي قضاء البصرة في عهد الموفق، وولاه قضاء عسْكر البصرة، وواسط، وكور دجلة، وكان يصحب الموفّق حيث كان.

وكان كتب علماً كثيراً. وتوفي سنة (٢٧٦ هـ).

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ١٨١-١٨٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ترتيب المدارك، ٣/ ١٨٢.

مميزات هذه المرحلة وأهميتها :

تبرز أهمية هذه المرحلة من تاريخ الفقه المالكي وتطوره بالعراق، من خلال المميزات الآتية :

أولاً ـ كثرة المؤلفات وتنوعها حتّى وصفت بأنّها أصول في أبوابها ؛ وذلك لأنّها مبتكرة لم يسبق أصحابها أحد من أصحاب الطبقات السابقة. الشيء الذي جعلها قاعدة أساسية لكل من ألّف في المذهب فيما بعد.

ثانياً – من خلال موضوعات تلك المؤلفات يتبيّن معنى الابتكار، فهو مسار جديد لدى مالكية العراق، يتمثل في الاحتجاج للمذهب المالكي وشرحه وبيان أدلته، وأصوله، بكلّ بسط وتفصيل، ويعتمد المصدرين الأولين –القرآن والسنّة– في شرحها، وإعمال النظر فيها (١) .

ثالثاً – ويتمثل الابتكار أيضا في مناقشة المذاهب الأخرى، وخاصة الحنفية والشافعية، ومقارنة أقوالهم بأقوال الإمام مالك وأصحابه، ونقد أدلتهم والرّد عليها (٢).

رابعاً – التوسع في رواية السّنة النبوية، عدا ما أخرجه مالك في موطئه،و الرحلة إلى علمائها.

خامساً – يعد كتاب «المبسوط» أشهر كتب القاضي إسماعيل، جمع فيه معارفه الفقهية، وهو يمثّل منهج البغداديين في التأليف الفقهي، ويعتبر مدوّنتهم الفقهية التي اعتمدوها فترة من الزمان، قبل أن تبرز لديهم قيمة كتاب ابن عبد الحكم (٢١٤ هـ)، ومدوّنة سحنون (ت ٢٤٠ هـ) وغيرها، ومن ثمّ تحول كتاب «المبسوط» إلى مرجع من المراجع المعتمدة لدى مالكية بغداد، كما صار مرجعاً أساسياً لدى المدارس الفقهية المالكية الأخرى، فاقتبس منه ابن أبي زيد (ت ٣٨٦ هـ) في كتابه «النوادر والزيادات» واقتفى أثره من جاء

---

(١) الإشراف على نكت مسائل الخلاف، مقدمة المحقق الحبيب بن طاهر، ١ / ٣١ .

(٢) المصدر السابق.

بعده من أهل المدارس المالكية الأخرى كأبي الوليد الباجي (ت ٤٧٤ هـ) في كتابه «المنتقى»(١).

فهذه المميزات زادت من دعم مركز المذهب المالكي بالعراق، خاصة أمام المذهب الحنفي المهيمن على العراق، والمذهب الشافعي الذي له أنصار كثيرون فيه.

المرحلة الخامسة :

ثمّ انتقلت ريادة الفقه المالكي بالعراق إلى طبقة خامسة، جلّهم من أصحاب القاضي إسماعيل بن إسحاق، وكان منهم من ينتمي إلى عائلة بني حماد، وآخرون غيرهم، ونذكر من أصحاب هذه الطبقة ما يلي :

١- محمد بن القاضي يوسف بن القاضي يعقوب بن إسماعيل (٢) : بن حماد بن زيد، أبو عمر قاضي القضاة.

قال أبو القاسم عبد الله بن محمد البغدادي الشافعي : «كان من أحذق من رأينا من أحداث المالكيين، وقال ابن الحارث : «كان ذكياً فطناً أخذ من كل علم بنصيب».

قال الشيرازي : «وناظر أبا بكر الصيرفي، فقيه الشافعية».

له كتاب في الرّد على من أنكر إجماع أهل المدينة، ونقض كتاب الصيرفي، وله كتاب آخر: «الفرج بعد الشدة».

تتلمذ على أبيه، وكبار أصحاب إسماعيل بن إسحاق القاضي.

ويعتبر أحد شيوخ أبي بكر الأبهري.

كان يخلف أباه في القضاء وهو صغير السنّ، ثمّ ولي قضاء مدينة المنصور، وبعد وفاة أبيه تقلد منصبه في القضاء عدا قضاء القضاة، التي وُلّي إياها بعد.

---

(١) المصدر السابق، ١/ ٣٣.

(٢) ترتيب المدارك، ٣/ ١٧٨ - ١٨١.

ثمّ قلّد الخطبة في مجلس الخلفاء سنة ست وعشرين.

توفي ببغداد وهو يتولى القضاء سنة (٣٢٨ هـ).

٢- ابناه أبو نصر يوسف، وأبو محمد الحسين (١) :

ذكر هذا القاضي عياض، وأشار إلى أن الشيرازي عدّ أبا نصر في طبقة أبيه فقط.

قال أبو إسحاق عن أبي نصر : «وكان أبو نصر فقيهاً فاضلاً، وهو آخر من ولّي القضاء ببغداد من ولد حماد بن زيد».

قال الخطيب البغدادي : «ولي أبو نصر القضاء في حياة أبيه، وبعد وفاته».

هذا وتشير المصادر إلى أنّهما عزلا عن القضاء في آخر حياتهما.

وزعم أبو بكر بن الأخضر الداودي القاضي انّ أبا نصر هذا انتقل آخراً عن مذهب مالك إلى مذهب داود، وتمّم كتاب «الإيجاز» لمحمد بن داود.

وأنشد لهُ الخطيب أبو بكر، فقال في مطلعه :

يا محنة الله كفّي إن لم تكفي فخفّي

ما آن أن ترحمينا من طول هذا التشفّي

توفي أبو نصر سنة (٣٥٦ هـ)، وكان قد ولد سنة (٣٠٥ هـ).

٣- هارون بن إبراهيم (٢) بن حماد بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد، كنيته أبو بكر، ولّي قضاء مصر سنة (٣١٣ هـ) وهو ببغداد عدّة مرات متقطّعة، وتوفي سنة (٣٢٨هـ)، وسنّه يوم مات (٥٨ سنة).

٤- أحمد بن إبراهيم (٣)، أخو هارون، كنيته أبو عثمان، روى عن أبيه وأبي جعفر الطحاوي وغيرهم، وحدّث عنه أبو محمد بن أبي زيد، وخلف أخاه على قضاء مصر.

توفي بمصر سنة (٣٢٩ هـ)، وكان مولده سنة (٢٧٥ هـ).

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ٢٨٢ - ٢٨٤.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ٢٨٥ - ٢٨٦.

٥- عبد الصمد بن الحسين بن يوسف بن يعقوب [١]، أبو الحسن، سمع من عمه القاضي أبي عمر، وذكر أنه سمع من إسماعيل.

٦- أبو الطاهر الذهلي [٢] : محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن يحيى بن عبدالله بن صالح بن أسامة الذهلي.

سمع منه أبو الحسن الدارقطني، وعبد الغني بن سعيد، وأبو القاسم الجوهري، وانتخب له أبو الحسن الدارقطني وعبد الغني جزءاً من حديثه.

كان أبوه من شيوخ القضاة بالعراق، وولّي بها جليل الأعمال، كالبصرة وواسط.

قال الفرغاني : «كان أبو طاهر مسنداً في الحديث، فقيها بمذهب مالك ثبتاً أديباً، كاملاً ... وكان من شهود القاضي أبي الحسن بن حماد».

وتولى قضاء دمشق ثم مصر.

و كان مولده سنة (٢٧٧هـ)، و توفي سنة (٣٦٩هـ).

٧ ـ أبو عبد الله التستري [٣]: محمد بن أحمد القاضي، من أهل البصرة، وهو قريب لسهل بن عبدالله التستري العابد، ذي الأقاصيص العجيبة.

- أخذ عن إبراهيم بن حماد، والبرنكاني، وغيرهما من المالكيين.

- وسمع من أبيه، وأحمد بن علي بن الحسن، وإبراهيم بن محمد الحلواني، وجرير بن محمد الغطفاني، وأبي عبد الله الزبيري، والحسن بن المثنى، واللؤلؤي وغيرهم.

- وكان له اتّساع في الرواية والحديث، وكان ملازما للسّنة، نافراً من البدعة.

- قال الفرغاني : «وكان أبو عبد الله هذا عالمًا بمذهب مالك، شديد التعصّب له، ووضع في مناقبه عشرين جزءاً، وقد طالعتها وانتقيت في هذا الكتاب من أخبار مالك

---

(١) المصدر السابق، ٣/ ٢٨٧.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ٢٨٦-٢٨٨.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ٢٨٨-٢٩٠.

عيونها، وقد أدخل جميع ماله فيها صاحب الاستيعاب في جامعه. وله كتاب «فضائل أهل المدينة»، و«الحجة».

تولى قضاء المدينة، ثم البصرة، ومات ببغداد بعد محنة مع المعتزلة سنة (٣٤٥ هـ).

٨- بكر بن محمد بن العلاء بن محمد بن زياد القشيري [١]، كنيته أبو الفضل، أمه من ولد عمران بن حصين الصحابي، من أهل البصرة، انتقل إلى مصر، وهو من أكثر فقهاء المالكيين رواية للحديث.

روى عن إسماعيل إجازة إذ قد أدركه بالسن فقط، وسمع من كبار أصحاب إسماعيل وغيرهم إلى ابن حسام والبرنكاني وغيرهم من أئمة الحديث.

حدّث عنه خلق كثير من المصريين والأندلسيين والقرويين وغيرهم.

- قال الفرغاني: «كان من كبار الفقهاء المالكيين بمصر، وتقلّد أعمالاً للقضاء ... وكان قد ولي القضاء ببعض نواحي العراق».

- وألّف بكر كتبًا منها: «الأحكام»؛ «المختصر من كتاب إسماعيل بن إسحاق» و«كتاب الرّد على المزني» و«الأشربة» وهو نقيض كتاب الطحاوي، وكتاب «أصول الفقه»، و«القياس» و«مسائل الخلاف» و«الرد على الشافعي» و«الرد على القدرية» و«الرد على من غلط في التفسير والحد» و«مسألة الرضاع» وغيرها.

- توفي سنة (٣٤٤ هـ) بمصر، وقد تجاوز الثمانين سنة.

٩- أحمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري [٢]، أبو جعفر بن قتيبة، البغدادي النسابة، مالكي المذهب من أهل العلم والحفظ لكتب أبيه من حفظه، حفّظها أبوه إياها في اللّوح، وعدّتها إحدى وعشرون مصنّفا منهاً:

كتاب «المشكل» و«معاني القرآن» و«غريب القرآن» و«عيون الأخبار» و«مختلف

---

(١) المصدر السابق،٣/ ٢٩٠-٢٩١.

(٢) المصدر السابق،٣/ ٢٩٢-٢٩٣.

الحديث» و«غريب الحديث» و«التفسير» و«الفقه» و«المعارف» و«أعلام النبوة» و«العرب والعجم» و«الأنواء» و«الميسر» و«طبقات الشعراء» و«الشعر» و«كتاب القرآن».

سمع منه خلق عظيم من أهل العراق ومصر كأحمد بن ولاء وأبي جعفر النّحاس.

ولّي قضاء مصر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

وتوفي سنة (٣٢٢ هـ).

مميّزات هذه المرحلة :

أولاً – التداول على القضاء مما ساعد في انتشار المذهب المالكي وتقريبه من الطبقة العامة أكثر.

ثانياً – الاعتناء بفقه الخلاف والرّد على المسائل التي خالفهم فيها الشافعية والحنفية، كما صنع ذلك بكر بن محمد القشيري في كتبه :

«الرد على المزني» و«مسائل الخلاف» و«الرد على الشافعي» و«الأشربة» وهو نقيض كتاب الطحاوي لمحمد بن يوسف القاضي كتاب «الرد على من أنكر إجماع أهل المدينة».

ثالثاً – لم يكن نبوغهم في هذا الجانب فقط من الخلاف الفقهي بل تعداه إلى مسائل العقيدة، والأدب وغيرها من العلوم.

وقد ألّف في ذلك بكر القشيري كتابه «الرد على القدرية» و«الرد على من غلط في التفسير والحد».

رابعاً – عملوا على إبراز فضائل فقه مالك وأهل المدينة، وذلك من خلال المؤلفات في ذلك، وقد ألّف فيه أبو عبد الله التستري كتاب «فضائل أهل المدينة».

المرحلة السادسة :

ثمّ آلت رئاسة المذهب المالكي بالعراق إلى طبقة أخرى، نذكر على رأسهم :

١- أبو بكر الأبهري (١)، محمد بن عبد الله بن صالح بن عمر بن حفص بن عمر بن مصعب بن الزبير بن كعب بن زيد بن مناة بن تميم.

سكن بغداد، وحدّث بها عن ابن أبي عروبة، ومحمد بن محمد الباغندي، وعبد الله ابن زيدان الكوفي، وابن أبي داود، وخلق سواهم من بغداديين وغرباء.

قال القاضي عياض : «رأيت سماعه بخط الأصيلي في كتابه، من صحيح البخاري، ومن مجلّد بن سفهود وغيرهم».

حدّث عنه إبراهيم بن مخلد، وابنه إسحاق بن إبراهيم، والبرقاني، وأحمد بن علي، ومحمد بن المؤمل الأنباري، وعلي بن محمد بن الحسن الحربي المالكي، والقاضي أبو القاسم التنّوخي، والحسن بن علي الجوهري، وغيرهم.

وحدّث عنه أيضا أبو بكر الحسن الدارقطني، والباقلاني، وأبو محمد بن نصر القاضي، وغيرهم.

قال أبو إسحاق الشيرازي : «وجمع بين علوم القرآن وعلوّ الإسناد والفقه الجيّد، وشرح المختصر الصغير والكبير لابن عبد الحكم، وانتشر عنه مذهب مالك في البلاد»(٢).

وقال ابن مفرح القيسي : «كان القيّم برأي مالك بالعراق في وقته».

وقال أبو بكر الخطيب : «قال القاضي أبو العلاء الواسطي : كان أبو بكر الأبهري معظما عند علماء المسلمين في وقته، لا يشهد محضراً إلاّ كان هو المقدّم فيه، وإذا جلس قاضي القضاة المعروف بابن أم شيبان الهاشمي أقعده عن يمينه» (٣).

---

(١) المصدر السابق،٤/ ٤٦٦-٤٦٧.
(٢) المصدر السابق،٤/ ٤٦٧.
(٣) المصدر السابق.

وذكر أبو القاسم الوهراني أبا بكر الأبهري في جزء أملاه من أخباره، قال: « ... لقد رأيت أصحاب الشافعي وأبي حنيفة، إذا اختلفوا في أقوال أئمتهم، يسألونه، فيرجعون إلى قوله، وكان يحفظ أقوال الفقهاء حفظاً مشبعاً، وكان أبو إسحاق الطبري –من أصحابنا– وحفاظ الحديث – يجالسه ويسأله عن أحاديث كثيرة، فيقول له: من قطع حديث كذا؟ من وقف حديث كذا ؟ ومن وصله؟ فيجيبه، وكان الموافقون يقولون بفضله».

وقال : «سمعته يقول : كتبت بخطّي المبسوط والأحكام لإسماعيل ... وموطأي الإمام مالك وابن وهب، ومن كتب الفقه والحديث نحو ثلاثة آلاف جزء بخطي، ولم يكن لي شغل قط إلاّ العلم، ولي في هذا الجامع –يعني جامع المنصور ببغداد– ستون سنة أدرّس النّاس وأفتيهم» (١).

وكان الأبهري أحد أئمة أهل القرآن، والمتصدرين لذلك، والعارفين بوجوه القراءات.

وبعد أن ذكر أبو عمر من تتلمذ عليه، قال في طبقات المقرئين : « ... ولم ينجب أحد من الأصحاب بعد إسماعيل القاضي ما أنجب أبو بكر الأبهري، كما أنه لا قرين لهما في المذهب بقطر من الأقطار، إلاّ سحنون بن سعيد في طبقته، بل هو أكثر الجمع أصحاباً وأفضلهم أتباعا، وأنجعهم طلابا»(٢).

من أخباره :

قال أبو بكر الخطيب : «سئل الأبهري أن يلي القضاء ببغداد، فامتنع، فاستشير فيمن يصلح لذلك، فأشار بأبي بكر الرّازي، وكان حال الرّازي يزيد على حال الرّهبان في العبادة، وكان حنفي المذهب، فامتنع وأشار بالأبهري، فلم يجب أحد منهما إلى القضاء، ولكن غيرهما»(٣).

(١) المصدر السابق،٤ / ٤٦٨ .

(٢) المصدر السابق،٤ / ٤٦٩-٤٧٠ .

(٣) المصدر السابق،٤ / ٤٧٢-٤٧٣ .

وبعد موت الأبهري ضعف مذهب مالك بالعراق، لاتّباع الناس لأهل الرئاسة، والقضاء قد خرج من أيديهم إلى غيرهم من الشافعية والحنفية.

قال الأبهري: «الدين عز، والعلم كنز، والحلم حرز، والتوكل قوّة».

قال الوهراني: «سألت الأبهري عن سنّه، فقال لي: قال مالك: سؤال الشيوخ عن أسنانهم من السفه».

ولد قبل سنة (٢٩٠ هـ)، وتوفي سنة (٣٧٥ هـ)، وسنّه نيف وثمانون سنة [١].

٢- أبو بكر بن علوية الأبهري [٢]: أخذ عنه أبو سعيد، وتفقه عنه الصفايحي، ونقل عنه الكثير من كتبه.

له كتاب «مسائل الخلاف»، وكان من الفقهاء النّظار المحققين، وجلّة أئمة المالكيين.

وقد ذكر له المسائل التي تدل على نبوغه وتحقيقه تلميذه أبو سعيد القزويني -رحمه الله تعالى-.

٣- أبو الحسن بن أم شيبان [٣]، محمد بن صالح بن محمد بن صالح، قاضي القضاة، يروي عن السّعدي، وإبراهيم بن حماد، حدّث عنه أبو عبد الله، والكرخي، ومحمد بن حميد الخزان، وأبو القاسم الوهراني.

ولّي قضاء الكوفة سبع سنين، ومنها أصله.

وولّي قضاء القضاة ببغداد.

وكان يجتمع عنده أصحاب أبي بكر الأبهري من المالكية ببغداد للنظر.

٤- أبو الحسن علي بن ميسرة القاضي [٤]: ذكره ابن الحارث في هذه الطبقة، وأنه لم يسمع من إسماعيل، وولّي قضاء انطاكية.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق٤ /٤٧٣-٤٧٤.
(٣) المصدر السابق،٤ /٤٧٤-٤٧٥.
(٤) المصدر السابق،٤ /٤٧٥.

وله مؤلف في إجماع أهل المدينة.

٥- أبو الحسن، عمر بن محمد بن أحمد المالكي[١]؛ ولّي القضاء، حدّث عنه الدارقطني، يروي عن أبيه، ومحمد بن إسماعيل الدولابي، والحسن بن المبارك الطوسي، واللؤلؤي وغيرهم.

٦- محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد الطائي[٢]: المتكلم، صاحب أبي الحسن الأشعري، بصري سكن بغداد، وعليه درس أبو بكر الباقلاني الكلام.

وله كتب حسان في الأصول، وكان مالكي المذهب، إماماً فيه، مقدّماً، غلب عليه علم الكلام والأصول، وله كتاب في أصول الفقه على مذهب مالك، ورسالته المشهورة في الاعتمادات على مذهب أهل السّنة التي كتب بها إلى أهل باب الأبواب، وكتاب «تهدية المتبصّر، ومعونة المستنصر»، وغيرها.

سمع صحيح البخاري من أبي زيد المروزي.

٧- أبو العلاء عبد العزيز بن محمد البصري[٣]: أحد فقهاء المالكية.

له كتاب «إثبات القياس»، وكتاب «في مسائل الخلاف».

٨- أبو العلاء، الحسن بن محمد العباس القاضي البغدادي: [٤]

له كتاب مختصر المبسوط سماه «المقتضب من المبسوط»، وكتاب في الفروق.

٩- أبو إسحاق الطبري[٥]: ذكره الوهراني في جلساء الأبهري وقال: «كان من أصحابنا، ومن أهل العلم بالحديث، وحفاظه، وكان الأبهري يتذاكر معه فيه».

(١) المصدر السابق، ٤/ ٤٧٦.

(٢) المصدر السابق، ٤/ ٤٧٦-٤٧٨.

(٣) المصدر السابق، ٤/ ٤٧٨-٤٧٩.

(٤) المصدر السابق، ٤/ ٤٧٩.

(٥) المصدر السابق، ٤/ ٤٨٠.

١٠- أحمد بن محمد بن عمر الدّهان البصري (١) : له كتاب في نقض كتاب الشافعي في ردّه على مالك، وغيره من التآليف.

١١- أبو عبد الله الواسطي (٢) : وقد ألّف في مسائل الخلاف، وشرح كتاب أبي مصعب الزهري.

١٢- أبو علي الدّهان (٣) : له أيضا مسائل الخلاف، وربّما يكون هو الأول.

١٣- محمد بن جعفر البصري (٤) : له أيضاً في مسائل الخلاف، وشرح مختصر ابن عبد الحكم الكبير.

وقال أبو بكر الأبهري : ولم يشرح المختصر الكبير إلا الخفّاف، وضعّف فقهه الأبهري، وقال : لم يكن يعرف.

١٤- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر بن رجاء البصري (٥)، المالكي : فقيه نظار محقق، له كتاب في أصول الربا وتعليله على مذهب مالك وأجاد فيه.

١٥- أحمد بن محمد بن جامع البصري (٦) : قال ابن الحارث : رأيت له كتاباً في الوصايا، ذكر أنه اقتنصه من المبسوط، وسمّاه بذلك، وعدّه في الفقهاء العراقيين المتأخرين.

المرحلة السابعة :

ثمّ انتهى المذهب بعد الطبقة السادسة إلى طبقة أخرى، وكان أكثرهم من أصحاب أبي بكر الأبهري -رحمه الله-، ومن هؤلاء :

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق،٤ / ٤٨٠-٤٨١.
(٤) المصدر السابق،٤ / ٤٨١.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق٤ / ٥٨٥.

١- الباقلاني (١)، أبو بكر محمد بن الطيّب بن محمد القاضي، الملقب بشيخ السنة ولسان الأمة، المتكلم على مذهب المثبتة وأهل الحديث، وطريقة أبي الحسن الأشعري.

- درس على أبي بكر بن مجاهد الأصول، وعلى أبي بكر الأبهري الفقه، إليه انتهت رئاسة المالكيين في عصره، وكان حسن الفقه، عظيم الجدل، له حلقة عظيمة بجامع المنصور ببغداد.

- قال ابن عمار الميورقي: «كان ابن الطيّب مالكيا، فاضلا متورعا، ممن لم تحفظ له قطّ زلّة، ولا نسبت إليه نقيصة، وكان يلقب بشيخ السّنة، ولسان الأمة ... وما سرّ أهل البدع بشيء كسرورهم بموته».

- وذكره ابن عمران الفاسي فقال: «سيف أهل السّنة، وإمام متكلمي أهل الحق في وقتنا».

- أخذ عنه جماعة لا تعد، منهم: أبو محمد عبد الوهاب بن نصر المالكي، وعلي بن محمد الحربي، وأبو عبد الله الأودي وغيرهم.

- قال أبو عمران الفاسي: «رحلت إلى بغداد، وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس عند أبي الحسن القابسي، وأبي محمد الأصيلي، وكانا عالمين بالأصول، فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر، ورأيت كلامه في الأصول والفقه، والمؤلف والمخالف، حقرت نفسي وقلت: لا أعلم شيئا من العلم، ورجعت عنده كالمبتدئ». وتفقه عنده القاضي أبو محمد ابن نصر، وعلق عنه وحكى في كتبه ما شاهد من مناظراته في الفقه بين يدي ولي العهد ببغداد للمخالفين.

- قال الميورقي: «حسبت تواليف القاضي، وإملاءاته، فسميت على أيام عمره، من مولده إلى موته، فوجد أنه يقع لكل يوم منها عشرون».

(١) المصدر السابق، ٤/ ٦٠٢.

كانت له مناظرات مع المعتزلة في مجلس الملك عضد الدولة، ولما أعجب به اختصّه الملك لمناظرة مجلس ملك الروم ليظهر رفعة الإسلام.

وقد ألّف فأكثر، نذكر منها: «الإبانة عن إبطال مذهب أهل الكفر والضلالة»، «الاستشهاد»، و«إكفار الكفار المتأولين وحكم الدار»، «التعديل والتجريح»، «التمهيد»، «شرح اللمع»، «الإمامة الكبيرة»، «الإمامة الصغيرة»، «شرح أدب الأجل»، «الأصول الكبير في الفقه»، «مسائل الأصول»، «أمالي إجماع أهل المدينة»، «فضل الجهاد»، «المقدمات في أصول الديانات»، «المقنع في أصول الفقه»، «الانتصار للقرآن»، «نقض الفنون للجاحظ»، «تصرف العباد»، «الاكتساب»، «مناقب الأئمة»، «التبصرة»، وغيرها.

توفي الباقلاني سنة (٤٠٣ هـ).

٢- أبو الحسن القصار [١]، علي بن عمر بن أحمد، بغدادي، تفقه بالأبهري.

قال أبو إسحاق الشيرازي: «له كتاب في مسائل الخلاف، لا أعرف للمالكيين كتابا في الخلاف أحسن منه. وكان أصوليا نظارا، وولّي بغداد».

قال القاضي عبد الوهاب: «تذاكرت مع أبي حامد الإسفراييني الشافعي أهل العلم، وجرى ذكر أبي الحسن بن القصّار، وكتابه في الحجّة لمذهب مالك، فقال لي: ما ترك صاحبكم لقائل ما يقول». توفي سنة (٣٧٨ هـ) [٢].

٣- أبو جعفر الأبهري [٣]، محمد بن عبد الله، يُعرف بالأبهري الصغير، تفقه بالأبهري، ورحل إلى مصر وتفقه بها على كثير من العلماء.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المصدر السابق، ٤/ ٦٠٣.
(٣) المصدر السابق، ٤/ ٦٠٤.

له كتاب في مسائل الخلاف الكبير نحو مائتي جزء، وكتاب تعليق المختصر الكبير، وكتاب الرد على ابن علية فيما أنكره على مالك. توفي سنة (٣٦٥ هـ).

٤- أبو سعيد القزويني [١]، أحمد بن محمد بن زيد.

قال الشيرازي : « صنّف في المذهب والخلاف، وكان زاهداً عالماً بالحديث ... وله كتاب المعتمد في الخلاف، وهو من أهذب كتب المالكية، وله كتاب الإلحاق في مسائل الخلاف ».

توفي في نيف وتسعين وثلاثمائة.

٥- أبو بكر بن أبي موسى الهاشمي، القاضي [٢]، أحمد بن محمد بن أبي موسى، كان ثقة مأموناً ،كتب عنه الناس بانتخاب الدارقطني، وكان مالكي المذهب، وتقلد القضاء بالمدائن وسرّ من رأى وغيرها.

توفي سنة (٣٩٠ هـ).

٦- أبو القاسم بن الجلاب [٣] : اسمه عبيد الله، تفقه بالأبهري، أخذ عنه القاضي أبو محمد بن نصر الطابثي وغيره.

له كتاب في مسائل الخلاف، وكتاب التفريع في المذهب، وهو مشهور، قال أبو القاسم الهمداني :

« كان من أحفظ أصحاب الأبهري وأنبلهم ». توفي سنة (٣٧٨ هـ).

٧- أبو تمام علي بن محمد بن أحمد البصري [٤] : من أصحاب الأبهري، وكان جيّد النظر حسن الكلام حاذقاً بالأصول.

له كتاب مختصر في الخلاف، سماه « نكت الأدلة »، وكتاب آخر في الخلاف كبير، وكتاب في أصول الفقه.

---

(١) المصدر السابق، ٤ / ٦٠٤-٦٠٥.

(٢) المصدر السابق، ٤ / ٦٠٥.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق، ٤ / ٦٠٦.

٨- أبو بكر بن خُويْز منداد (١) : تفقه بالأبهري أيضاً.

له كتاب كبير في الخلاف، وكتاب في أصول الفقه، وفي أحكام القرآن، وله اختيارات وتأويلات على المذهب في الفقه، والأصول، ولم يرجع عليها حذاق المذهب.

لم يكن بالجيّد النظر، ولا بالقوي في الفقه، كما قال القاضي عياض. وكذا تكلم فيه أبو الوليد الباجي بقوله : «وكان يجانب الكلام جملة، ولم أسمع له في علماء العراق بذكر...».

٩- الحسين بن علي (٢) : أبو عبد الله، ذكره أبو عمر الداني في طبقاته، وقال : "انتحل المذهب المالكي، وسمع الأبهري"، توفي في حدود الأربعمائة.

١٠- أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى بن القاسم بن الصلت (٣) : يُعرف بالمجبّر، قال أبو ذر الهروي : لا بأس به ... حدّث عنه القاضي أبو محمد بن نصر وإبراهيم بن عبد الصمد.

١١- أحمد بن عيسى بن عبد الله بن عبد الوهاب السعدي البغدادي (٤) : من بيت جلال وقضاء ببغداد، سمع منه مشيخة عبد الغني بن سعد الحافظ.

١٢- الوليد أبو بكر بن مخلد النحوي (٥) : أبو العباس، أصله أندلسي، سكن المشرق، كان من أهل الحديث، وألّف كتاب «الوجارة في صحة القول بالإجارة» روى عنه أبو ذر الهروي وغيره.

١٣- أبو عبد الله بن دُوست (٦) : أحمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن دوست البزاز البغدادي.

---

(١) المصدر السابق، ٤/ ٦٠٦-٦٠٧.

(٢) المصدر السابق، ٤/ ٦٠٧.

(٣) المصدر السابق، ٤/ ٦٠٨-٦٠٩.

(٤) المصدر السابق، ٤/ ٦٠٩.

(٥) المصدر السابق، ٤/ ٦٠٩-٦١٠.

(٦) المصدر السابق، ٤/ ٦١٠-٦١١.

حدّث عنه الأزهري، والحسن الخلاّل، وحمزة بن محمد الدّقاق، وهبة الله الطبري وغيرهم.

كان مكثرا من الحديث حافظاً له عارفاً به، مكث سبع عشرة سنة يملي، عارفا بالفقه على مذهب مالك، وكان له عن «الصفّار» وحده ملء صندوق، وكان يذاكر بحضرة الدارقطني ويتكلم في علم الحديث، وتكلم فيه الدارقطني لذلك، وتكلم فيه أيضاً الأزهري فقال: «هو ضعيف رأيت كتبه كلها طرية».

١٤- أبو الحسين بن فارس [١]: أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي الرّازي، غلب عليه علم الفقه والأدب.

وذكر أبو ذر أنّه كان مالكياً، قال أبو الوليد الباجي: «كان فقيهاً مالكياً، وحقق لي ذلك بعض من ذاكرته من شيوخنا المغاربة الراحلين». وحكى لي بعض من لقيته من أهل المشرق أنه شافعي المذهب...».

١٥- محمد بن عبد الله البصري [٢]: من أصحاب الأبهري، كان فقيراً مقتنعاً متنسكاً، كان يأوي إلى المسجد، ويودع كتبه عند إخوانه، وكان الأبهري يحبه ويجلّهُ.

المرحلة الثامنة:

ثمّ انتهى الفقه المالكي بعد الطبقة السابعة إلى طبقة أخرى، كان في طليعتها:

١- أبو محمد عبد الوهاب بن نصر القاضي [٣]:

سمع أبا عبد الله بن العسكري، وعمر بن محمد بن سَبَنْك، وأبا حفص بن شاهين.

---

(١) المصدر السابق،٤/ ٦١١.

(٢) المصدر السابق،٤/ ٦٩١-٦٣٣.

(٣) تاريخ بغداد، ١٢/ ١١٦.

قال الخطيب البغدادي : « كتبت عنه ولم ألق في المالكيين أفقه منه، وكان حسن النظر جيّد العبارة، ولّي للقضاء بالدينور وغيرها »(١).

تفقه على كبار أصحاب الأبهري : أبي الحسن بن القصّار، وأبي القاسم بن الجلاّب، ودرس الفقه والأصول والكلام على القاضي أبي بكر الباقلاني وصحبه.

وعلى يده تتلمذ أبو الفضل مسلم الدمشقي، وابن قشير الدمشقي، وروى عنه عبد الحق بن هارون الفقيه وأبو عبد الله المازري البغدادي، وأبو بكر الخطيب، وجماعة كثيرون.

تولى القضاء في بادرايا وباكُسايا والدّينور، وكلّها من أعمال العراق، وولّي قضاء مصر عندما رحل إليها، حيث ولّي قضاء المالكية بها إلى أن مات.

لم يكن عبد الوهاب القاضي صاحب مال بل هو من عداد الفقراء، وكان كثير الشكوى من ضيق حاله وقلّة ذات يده، وقد ذكر ذلك في شعر، من ذلك شكواه :

يا لهف نفسي على شيئين لو جُمعا عندي لكنت إذًا من أسعد البشــر

كفاف عيش يقينــي كل مســألة وخدمة العِلم، حتّى ينقضي عُمري

ويقول ابن خلدون في ذلك : « وارتحل إليها -يعني مصر- القاضي عبد الوهاب من بغداد آخر المائة الرابعة -على ما أعلم- من الحاجة والتقليب في المعاش، فتأذن خلفاء العبيديين بإكرامه وإظهار فضله، نعياً على بني العباس في اطراح مثل هذا الإمام والاغتباط به » وهذا الذي اتفقت عليه المصادر التاريخية(٢).

---

(١) انظر: المصدر السابق، ١١ / ٣١ ، وفيات الأعيان، لابن خلكان ٣ / ٢١٩ .

(٢) ترتيب المدارك، ٤ / ٦٩٢ .

مؤلفاته :

خلّف القاضي عبد الوهاب كتباً عظيمة في الفقه والأصول، وعلم الخلاف والتنظير والتقعيد، فصارت أصولاً يعتمد عليها المالكية في دراساتهم ومؤلفاتهم، نذكر منها ما يلي :

١-" الإشراف على مسائل الخلاف" : عرض فيه حجج المالكية في مسائل تقرب ألف مسألة في كل الأبواب الفقهية، ويتطرق لحجج المخالفين، والكتاب مطبوع بمطبعة الإرادة بتونس، وهي قديمة جدًا.

وطبعة حديثة بتحقيق الحبيب بن طاهر، طبع بدار ابن حزم (١٩٩٩م). ويظهر هذا الكتاب تمكن المؤلف وقدرته على التنظير والاحتجاج وتمكنه من الفقه المالكي وأصوله.

٢- « التلقين » : وهو كتاب في فروع الفقه المالكي، واسمه الكامل « تلقين المبتدي وتذكرة المنتهي » وهو صغير الحجم، اعتمد عليه الفقهاء كثيراً.

٣- « شرح التلقين » : إلاّ أنه لم يتمّه.

٤- « اختصار عيون الأدلة » : اختصر فيه كتاب شيخه ابن القصّار، المسمى « عيون الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمصار ».

٥- « المعونة لدرس مذهب عالم المدينة » .

٦ - « شرح رسالة أبي زيد القيرواني »[١].

٧- « شرح المدوّنة »، إلاّ أنه لم يتمّه [٢].

٨- « أوائل الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الملّة » في الفقه المقارن [٣].

٩- « عيون المسائل »[٤].

١٠- « النصرة لمذهب إمام دار الهجرة » لم يكتب له البقاء.

---

(١) ترتيب المدارك، ٤ / ٦٩٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

١١- كتاب «الفروق في مسائل الفقه».

١٢- «الإفادة في أصول الفقه»(١).

١٣- «الملخص في أصول الفقه»(٢).

١٤- «الرد على المزني» (٣)

١٥- «غرر المحاضرة ورؤوس مسائل المناظرة»: ذكره الزركلي في الأعلام (٤).

فالقاضي عبد الوهاب إذا مجتهد داخل المذهب المالكي ومنتصر له، ومجدد له على رأس المائة الرابعة، وقد عرف بشدّة تمسكه بفقه مالك ومذهبه والدفاع عنه والانتصار له.

ويؤكد هنا ما قلنا، كلامه المنقول في شرح الحديث المشهور عن النبي ﷺ قوله: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم، أو يلتمسون العلم، فلا يجدون أعلم من عالم المدينة».

قال القاضي عبد الوهاب: «واجتمع تأويل أئمة أهل العلم ورؤسائهم وساداتهم وكبرائهم لهذا الحديث على أن المعنيّ: أبو عبد الله مالك بن أنس إمام دار الهجرة ـ رضي الله عنه ـ»(٥).

٢- أبو الحسن علي بن القاسم بن محمد بن إسحاق الطافي (٦): وطافة قرية من قرى البصرة، نزل مصر.

له عدّة كتب في الفقه.

٣- المسدد بن أحمد بن جعفر بن محمد بن أيوب البصري (٧): سمع من خاله أبي القاسم بن الجلاّب، وشرح كتابه المسمى بالتفريع.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الأعلام، للزركلي، ٤/ ٣٣٥

(٤) انتصار الفقير السالك، ١٢٩.

(٥) ترتيب المدارك، القاضي عياض، ٤/ ٦٩٥.

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

٤- أبو بكر محمد بن الحسن بن أحمد الفارقي، يعرف بابن البغدادي (١).

٥- أبو ذر الهروي (٢) : عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عفير بن عراك.

تمذهب بمذهب مالك، وأخذ عن أبي الحسن القصّار، وأبي بكر الأبهري وغيرهما، وسمع من أبي الحسن الدراقطني، وأحمد بن عبد الله الشيرازي وغيرهما.

ألّف لشيوخه كتابين، أحدهما فيمن روى عنه الحديث،اشتمل على نحو ثلاثمائة اسم أو أزيد من الفقهاء والمحدثين، والآخر فيمن لقيه ولم يرو عنه حديثاً.

٦- علي بن محمد بن الحسن الحربي (٣) : أخذ عن أبي بكر الأبهري.

٧- الشهرزوري، محمد بن منصور، مالكي بغدادي(٤).

٨- محمد بن إسماعيل النصيبي، أبو بكر (٥) : يُعرف بالعربي، كان واثق المعرفة ذا ضبط وفهم، ثقة ثبتًا. توفي بعد عشرين وأربعمائة.

وبعد هذه الإطلالة السريعة على طبقات أئمة الفقه المالكي بالعراق نجد أنه دخل إلى العراق والفقه الحنفي في أوجه، ثم ملك زمام الأمور الفقه المالكي بعد جهاد مرير قضاه أئمة فقه أهل المدينة طبقة بعد أخرى، فبلغ المراتب العليا فأصبحت أحكامه تنفذ في ديار القضاء ويفتون الناس به، وأصحابه مبجلون على غيرهم بما ملكوا من الوسائل الضرورية لذلك من علم بالفقه والحديث، وبراعة في اللغة والأدب، وصيانة لسان وغيرها.

---

(١) ترتيب المدارك، القاضي عياض،٤/ ٦٩٥-٦٩٦.
(٢) المصدر السابق،٤/ ٦٩٨.
(٣) المصدر السابق،٤/ ٦٩٨-٦٩٩.
(٤) المصدر السابق،٤/ ٦٩٨.
(٥) نقلا عن الإشراف على نكت مسائل الخلاف، مقدمة المحقق الحبيب بن طاهر، ١/ ٤٥.

ويظهر تمكن هذا المذهب في الديار العراقية تلك المؤلفات التي لم يُر لها مثيل حتى اندهش لها أهل المدارس المالكية في البلدان الأخرى، وبرزوا في مجال لم ينافسهم فيه غيرهم كفقه الخلاف والجدل والنصرة لمذهب أهل المدينة بالحجة والدليل.

ومادام أن الناس تبع للحكم في دار القضاء، فإنّ المذهب المالكي بدأ في تراجع بعد طبقة القاضي عبد الوهاب البغدادي، وذلك بعد أن سُلبت منهم ولاية القضاء، وأسندت لأئمة المذهب الشافعي.

وفيما يلي نعرّج الى تأثر المدرسة البغدادية بالمدارس المالكية الأخرى.

استفادة المدرسة المالكية بالعراق من المدارس المالكية الأخرى :

إنّ أوّل ما بدأ النّاس سماعه بالعراق من الفقه المالكي، هو كتاب "الموطأ" للإمام مالك، وكان ذلك عن طريق محمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩ هـ) صاحب أبي حنيفة، وروايته للموطأ معروفة.

كذلك أصحاب مالك الذين رحلوا إلى العراق وسكنوا به، وكانت لهم روايات للموطأ، كعبد الله بن المبارك (ت ١٨١ هـ)، وإسحاق بن عيسى الطبّاع (ت ٢١٥ هـ)، وأصحاب الطبقة الأولى الذين سبق ذكرهم.

ومن تلاميذ أصحابه بالعراق من رحل إلى المدينة وسمع من أصحاب مالك المدنيين من الطبقة الصغرى، وفيهم من رحل إلى مصر وسمع من أئمة المدرسة المصرية، فتكوّنت لديهم سماعات من مدارس مختلفة، فكوّنوا من ذلك نسيجاً متماسكاً لبناء المدرسة المالكية وتطويرها.

وما قام به القاضي إسماعيل بن إسحاق من تاليف كتابه «المبسوط» خير دليل على ذلك، إذ جمع فيه كل ما سمع فجاء في كتاب ضخم، وهوذو قيمة كبيرة إذ اعتبره المالكية سادس الدواوين الموثوق بها في المدرسة المالكية، وهي : «المدونة»، «الواضحة»، «العتبية»، «الموازية»، و«المجموعة»، بالإضافة إلى «المبسوط». ثم تأتي بعدها الكتب التي ألّفت في السماعات عن مالك وأقوال أصحابه.

وقد أخذ العلماء من المالكيين تلك المدونات التي أنتجتها المدارس المالكية الأخرى، وذلك عن طريق الارتحال والاتصال والسماع، ووضعوا تلك المدونات في المنزلة التي تستحقها، والاعتماد عليها في حالات، وترجيحها على غيرها من المذاهب.

ومن هذه المؤلفات «المختصر الكبير» و«المختصر الصغير» لعبد الله بن عبد الحكم المصري اللذان يعتبران من أهم ما اهتمّ به العراقيون من الكتب التي ألّفها أعلام المدارس المالكية الأخرى.

ويعتبر عبد الله بن عبد الحكم المصري أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله، وقد سجّل أسمعته من شيخه مالك، ومن كبار أصحابه : ابن القاسم، وابن وهب، وأشهب، وقد بلغت مسائل «المختصر الكبير» ثمانية عشر ألف مسألة، و«المختصر الصغير» ألفاً ومائتي مسألة، وبهذا كان رئيسا للفقه المالكي في طبقته بمصر.

ومن أبرز الذين درسوا مختصري ابن عبد الحكم، أبو عبد الله محمد البريكاني (ت ٣١٩ هـ)، من أصحاب القاضي إسماعيل، له شرح على المختصر الكبير، استدل فيه لمسائله من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

قال أبو عبد الله محمد البريكاني : " عرضت مختصر عبد الله بن عبد الحكم على كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ، فوجدت لكلّها أصلاً خلا اثني عشرة مسألة فلم أجد لها أصلا" .

وشرح أيضا أبو بكر بن الجهم (ت ٣٢٩ هـ) – وهو من أصحاب القاضي إسماعيل– «المختصر الصغير» لابن عبد الحكم.

كما شرح الشيخ أبو بكر الأبهري المختصرين معاً.

ولقيمة المختصر قُدّم على غيره في بغداد، يقول ابن ناجي :

«إنّ أهل بغداد اعتنوا بمختصر ابن عبد الحكم أكثر من غيره، فهم إذا وجدوا في المسألة قولين لمن ذكر قدّموا قول ابن عبد الحكم، ولكثرة اعتناء القرويين بابن القاسم جروا على العكس»[١].

---

(١) ترتيب المدارك، ٤ /٤٦٨ .

لكن هذه القيمة للمختصر لم تعمّر طويلاً، فما أن جاءت «الأسدية» ثم «المدوّنة»، حتى احتلت المكانة المميزة لدى البغداديين، وقدّموها على مختصرات ابن عبد الحكم، ويشهد على الاهتمام بالمدونة والعناية بها قول أبي بكر الأبهري: «قرأت مختصر ابن عبدالحكم خمسمائة مرّة، والأسدية خمساً وسبعين مرّة، والموطأ خمساً وأربعين مرّة، وقرأت المبسوط ثلاثين»(١).

وبالدراسة المستمرة لها من طرف البغداديين واهتمامهم بها، أخذت مكان الصدارة، وتقدمت على غيرها.

واهتمّ بها وأعطاها عناية فاقت العناية بغيرها القاضي عبد الوهاب البغدادي، وخالف بذلك شيوخه، وغيّر من اتّجاه المدرسة البغدادية، وجعلها تنفتح أكثر على المدارس الأخرى، المصرية، والإفريقية، والأندلسية، وذلك في اعتماد ابن القاسم مرجعاً أساسياً لأقوال مالك.

والسبب الذي دفع بابن نصر البغدادي إلى مثل هذا الصنيع، ما رآه من انفراد ابن القاسم بمالك وطول صحبته له، وأنه لم يخلط به غيره، إلاّ يسيراً، خلافا لغيره من تلاميذ مالك، حيث انشغلوا به وبغيره.

هذا وقد وصلت بغداد جميع الدواوين بأسمعتها التي وضعها مؤلفوها في عهد الشيخ الأبهري، لكن وصلتهم مجمَّعة في كتاب واحد جمعه أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني، الملقب بمالك الصغير، وقطب المذهب، وسماه «النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات» حيث جمع فيه جميع ما ألّف، عدا المدونة السحنونية، من أوّل من ألّف في أقوال مالك وأقوال أصحابه وتلاميذهم إلى عصره، دون أن ينقلها بتمامها، وإنما قام بتلخيصها وترتيبها حسب الموضوعات والمسائل (٢).

قال ابن خلدون : «جمع ابن أبي زيد جميع ما في المذهب من المسائل والخلاف

(١) الإشراف على نكت مسائل الخلاف،مقدمة المحقق الحبيب بن طاهر، ١/٤٥-٤٦.
(٢) المصدر السابق، ١/٤٦ .

والأقوال في كتاب «النوادر» فاشتمل على جميع أقوال المذهب وفرّع الأمهات كلّها في هذا الكتاب».

ومن المؤلفات التي تضمنها «النوادر»:

- «الواضحة» لعبد الملك بن حبيب.
- «العتبية» لمحمد بن العتبي (ت ٢٥٥ هـ).
- «المجموعة» لمحمد بن عبدوس (ت ٢٦٠ هـ).
- «الموازية» لمحمد بن إبراهيم المعروف بابن المواز (ت ٢٦٩ هـ).
- والكتب التي ألفها محمد سحنون (ت ٢٥٦ هـ) عدا المدونة.

كما أنه لم يهمل أقوال معاصريه كأبي بكر الأبهري، وبكر بن محمد بن العلاء القشيري، وأبي بكر بن الجهم، وأبي إسحاق بن شعبان المعروف بابن القرطي (ت ٣٥٥ هـ).

ولما لاقى هذا الكتاب إعجاب مدرسة العراق، سارعوا للحصول على نسخ منه، وكاتبوا مؤلفه في ذلك لكي يجيزهم.

ذكر القاضي عياض أنّ محمد بن مجاهد وجّه كتابا إليه يطلب منه أن يتفضل بإنفاذ «المختصر» و«النوادر»، فردّ عليه الشيخ أنه سيرسل إليه وإلى الشيخ الأبهري الكتابين المذكورين.

وقد تولى أبو بكر الأبهري شيخ المدرسة العراقية في طبقته تتبع الرسالة فرفعها إلى النبي ﷺ أو من يليه، وسمى تتبعه هذا بـ«مسلك الجلالة في مسند الرّسالة».

كما شرح القاضي عبد الوهاب «الرّسالة»، ويعتبر أول من قام بشرحها، وشرح أيضاً المختصر و سماه «الممهد في شرح مختصر أبي محمد»، لكنه لم يتمّه.

قال الحبيب بن طاهر: «لا بد أن نلاحظ أنّ تأثير المدارس المالكية في المدرسة البغدادية في هذه المرحلة لم يكن على مستوى المنهج في دراسة المذهب ونصرته، وإنما كان على مستوى منهج الترجيح بين أقوال مالك المختلفة، كما كان أيضا على مستوى المضمون بإثراء المسائل وتفريعها، وتوسيع المادة الفقهية، وتمكينهم من تحصيلها»(١).

(١) المصدر السابق، ١/ ٥٤.

وقد ذكرنا سابقاً أن المدرسة البغدادية تأثرت كثيراً بالمدرسة المدنية، وذلك راجع لكثرة الرحلات العلمية للمدينة والتفقه على أئمة المذهب هناك، لكن هذا التأثر بدأ بالتراجع عند انفتاح المدرسة العراقية على باقي المدارس، والاطلاع على مكنونها العلمي وما أنتجه أصحاب مالك وتلامذتهم، وعن طريق المقارنة بين الأقوال والآراء والترجيح تبيّن لهم حقيقة مذهبه فقدّموا روايات ابن القاسم على غيره فلحقت بذلك المدارس الأخرى التي لا ترى مسلكاً إلا الترجيح بين الأقوال.

ثانياً ـ مميّزات المدرسة البغدادية :

بتتبع طبقات أعلام المدرسة المالكية ببغداد، وما ألّفوه من مدوّنات وكيف نصروا فقه إمام دار الهجرة واحتجّوا له، نجد وسيلتهم في ذلك تتميز بأمرين اثنين : التأصيل، والخلاف والجدل.

أولاً - التأصيل :

لقد شاع القول بين كثير من طلبة العلم أن المذاهب الفقهية لم يكن لديها مرجع استدلالي لمسائلها الفقهية من القرآن والسنّة، ويخصّون بالذكر المذهب المالكي والحنفي، بل فيهم من يعمّ بقوله كل المذاهب.

لكن هذا الادعاء يبطله العلم بأطوار التشريع، وكيف انبنت كل مدرسة ومذهب، والأصول التي اعتمدها للتدليل على مسائله وكيف استنبط و منهجه في ذلك.

والإمام مالك هو أحد هؤلاء الأئمة، الذين ملكوا الوسائل التي وجب توفرها فيمن يتعامل مع نصوص الكتاب والسّنة، والتي بها يتمكن من الاستنباط، والترجيح بين الأدلة التي ظاهرها التعارض، وكيفية التعامل مع واقع الفتاوى المختلفة التي تعرض عليه.

وفي القرن الهجري الثاني لم تبق المجادلات والتحاور سجين المسائل الفقهية، بل تعدت ذلك إلى القواعد والأدلة، فقد يعتمد الإمام مالك دليلاً في استخراج الأحكام، ويخالفه آخر، وقد ظهر هذا الثوب الجديد للفقه واضحاً فيما كان يدور بين أئمة المذاهب من مناظرات،

ومراسلات كتابية، من ذلك الرسالة المشهورة بين الإمام مالك إمام المدينة والليث بن سعد إمام مصر في الاحتجاج بعمل أهل المدينة، فكان مالك يثبته فيما نفاه الليث.

أو ما ورد في كتاب «الأم» للإمام الشافعي من المناقشات التي دارت بينه وبين الإمام مالك في مسألة عمل أهل المدينة.

أو ما ورد بين الإمام مالك وبين الإمام محمد بن الحسن الشيباني في مسألة الاستحسان.

كما أن الإمام الشافعي ويعدّ متأخراً عن أبي حنيفة ومالك، ما ألّف في أصول الفقه وقواعد الاجتهاد إلاّ بعد اطّلاعه على أصول الإمامين، ومنها ما لا يراها صالحة لتبنى عليها أحكام اجتهاديته، فألّف في الأدلة التي رآها صالحة لذلك، وبها تأسس مذهبه المخالف لهما.

والذي يمتاز به الإمام الشافعي عن غيره أن كامل أصوله مدونة، ودافع عنها، في حين كان اهتمام الإمام مالك بالأصول على شكل إشارات في موطئه بين ثنايا المسائل الفقهية.

قال ابن العربي: «إذ بناه مالك ـ رضي الله عنه ـ على تمهيد الأصول للفروع، ونبّه فيه على معظم أصول الفقه التي ترجع إليها مسائله وفروعه»(١).

وقال الشيخ أبو زهرة: «إنّ مالكا لم ينصّ على أصوله نصا صريحا واضحا متّصل الأجزاء، كما فعل تلميذه الشافعي، إذ دوّن أصول الاستنباط التي قيّد نفسه بها، ولكن مع ذلك يستطيع القارئ المتتبع باستقراء الموطأ أن يعرف أصول مالك التي كان يجتهد في دائرتها، وعلى الطرائق التي حدّها له لا يعدوها»(٢).

وقال الحبيب بن طاهر: «كما كشفت لنا كتب المذهب القديمة التي امتدّت إليها يد التحقيق حديثاً عن مجموعة من القواعد الأصولية التي نُقلت عن إمام المذهب، الأمر الذي يؤكّد أن قواعد أصول المذهب المالكي ليست كلها مستنبطة ومخرّجة من فتاوى الإمام مالك.

ومن هذه الكتب «المقدّمة في الأصول» للقاضي أبي الحسن بن القصّار (ت ٣٩٧ هـ) و«إحكام الفصول في أحكام الأصول» لأبي الوليد الباجي (٣).

---

(١) الإمام مالك، ص١٦.

(٢) الإشراف على نكت مسائل الخلاف، مقدمة المحقق الحبيب بن طاهر، ١/ ٥٤.

(٣) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ٤/ ٤٦٨.

وقد ألّف في المذهب أصبغ بن الفرج المصري «كتاب الأصول» ولكن لم يكتب له البقاء.

وقد نقل القاضي عياض أن «الرّسالة» للإمام الشافعي، قد ابتدأ بها الإمام عبد الرحمن ابن مهدي المالكي»(١).

وقد برزت المدرسة العراقية في هذا الجانب على المدارس المالكية في الأقطار الأخرى حيث اتجهت أنظار أئمة المذهب إلى التأصيل والتقعيد انطلاقاً من كلام إمام المذهب وأصحابه.

وظهر جلياً هذا الصنيع بداية من طبقة القاضي إسماعيل وانتهاءً بالقاضي عبد الوهاب، وقد سبق ذكر مؤلفاتهم في أصول الفقه.

وقام عملهم هذا على استقراء فتاوى إمام المذهب، وتقسيمها إلى مجموعات من المسائل من أبواب مختلفة، وتتفق كل مجموعة في الدليل كأن يكون دليلها مثلاً: عموم النّص، أو عمل أهل المدينة، أو أحاديث مرسلة، وهكذا فيقعدون قواعد على هذا المنوال أن تلك الأدلّة هي أصول اعتمدها الإمام مالك في اجتهاده، و من ثمّ يدرسون كل دليل على حده؛ قيوده وشروطه، وهذا بعد تحديد ماهيته.

وهذا العمل يكون في استنباط الأصول والقواعد التي لم ينص عليها الإمام، أمّا ما نصّ عليه الإمام؛ فعملهم يكون تأكيدا لعمل إمام المذهب.

والذي يميّز المدرسة البغدادية على غيرها أيضا هو تأثر أعلامها بالبيئة الفكرية في بغداد والتي تقوم على إعمال الفكر و العقل، واستعمال القياس، مما نمّى فيهم القدرة على الاستنباط والتحليل أكثر من غيرهم، ولهذا استعملوا علم الكلام لنصرة العقيدة التي ينتمون إليها، ونصرة مذهبهم الفقهي.

(١) انظر: الإشراف على نكت مسائل الخلاف، مقدمة المحقق الحبيب بن طاهر، ١/٥٤-٥٥.

وقد برع في هذا الإمام الباقلاني -رحمه الله تعالى- إذ مزج بين أساليب النظر في علم الأصول، وأساليب النظر في علم العقيدة، فسعى إلى استغلال المناهج التي يقوم عليها علم الكلام في تأصيل المسائل الفقهية وتقعيد قواعده (١).

وقد سار على هذا النهج تلميذ الباقلاني القاضي عبد الوهاب البغدادي ناصر مذهب أهل المدينة، وقد كان شيخه معجباً به كثيراً، فقال لتلميذه أبي عمران الفاسي: «لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب بن نصر -وكان إذ ذاك بالموصل- لاجتمع فيها علم مالك، أنت تحفظه، وهو ينصره، لو رآكما مالك لسرّ بكما»(٢).

في حين نجد أن هذا الاهتمام في المدارس الأخرى لم يكن بهذا الحرص، فأشهب تكلم في الأصول والاحتجاج، وأصبغ بن الفرج كان كذلك وله كتاب «الأصول»، إلاّ أنّ هذا لم يدم طويلا ولم ينضج إلى أن نبغ أعلام منهم وتفقهوا على أئمة المدرسة العراقية وأخذوا منهم ما انفردوا به عن غيرهم.

كالإمام عبد الله بن العاص القرطبي (ت ٣٣٠ هـ) وصف بكونه نظاراً، وله مؤلف يسمى «الدلائل والإعلام على أصول الأحكام»، وكتاب «الرّد على من أنكر على مالك ترك العمل بما رواه» فإنه تتلمذ في بغداد على ابن جهم وأبي يعقوب الرّازي وغيرهما.

والذي يؤكّد هذه الميزة للمدرسة البغدادية ما ذكرناه في طبقات الأعلام أنّ أبا عمران الفاسي القيرواني أنه قال: «رحلت إلى بغداد، وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس، عند أبي الحسن القابسي، وأبي محمد الأصيلي، وكانا عالمين بالأصول، فلمّا حضرت مجلس القاضي أبي بكر ورأيت كلامه في الأصول والفقه، والمؤالف والمخالف، حقرت نفسي، وقلت: لا أعلم شيئا من العلم، ورجعت عنده كالمبتدئ» (٣).

وبذلك يبرز الفرق بين عمل البغداديين وجهد غيرهم، ففي الوقت الذي انكب فيه أعلام المدارس على جمع أقوال مالك وأصحابه وتصحيح الروايات، وضبط ألفاظها،

---

(١) ترتيب المدارك، القاضي عياض، ٤/ ٧٠٤.

(٢) المصدر السابق، ٤/ ٥٨٧.

(٣) نقلا عن الإشراف على نكت مسائل الخلاف، مقدمة المحقق الحبيب بن طاهر، ١/ ٥٩.

وشرحها، اتّجه البغداديون إلى الاستدلال والتعليل، وتحليل النصوص واستخراج الأدلة والقواعد التي تصلح أن تكون أدلّة وأصولاً للمذهب.

وقد نقل محقق كتاب «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب، في مقدمة تحقيقه عن المقري، قوله :

«فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس، وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس، ولم يعرّجوا على الكتاب بتصحيح الروايات، ومناقشة الألفاظ، ودأبهم القصد إلى إفراد المسائل، وتحرير الدلائل على رسم الجدليين وأهل النظر من الأصوليين»(١).

ويقول عن بقية المدارس ممثلة في مدرسة القيروان : «أما الاصطلاح القروي، فهو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الروايات، وبيان وجوه الاحتمالات، والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الأبواب، واختلاف المقالات، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع، وافق ذلك عوامل الإعراب أو خالفها»(٢).

وهذا الذي جعل أصحاب المنهج القروي لا يستطيعون مواجهة المخالفين ومناظرتهم في تأييد مذهب إمامهم.

ويؤكّد هذا النقص في الاستدلال لفقه مذهبهم ما ذكره القاضي عياض عن أبي عمران الفاسي قوله :

«ولما دخل بغداد شاع أن فقيهاً من أهل المغرب مالكيّا قدم، فقال النّاس : لسنا نراه إلاّ عند القاضي أبي بكر الباقلاني، وهو إذ ذاك شيخ المالكية بالعراق، وإمام النّاس، فنهض من أهل بغداد جماعة لمجلس القاضي أبي بكر - ومعه أصحابه وأبو عمران - فجرت مسائل حتى

(١) المصدر السابق .
(٢) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ٤/ ٧٠٤ .

استأنسوا، ثم سأله رجل شافعي عن مسألة من الاستحقاق، فأجابه أبو عمران بجواب صحيح مجرّد، فطالبه السائل بالحجة عليه، فأطرق الشيخ أبو عمران، فرفع رأسه شاب من أهل بغداد من المالكية، فقال للسائل : أصلحك الله هذا شيخ من كبار شيوخنا، ومن الجفاء أن تكلفه المناظرة من أوّل وهلة، ولكن أنا أخدمه في نصرة هذه المسألة وأنوب عنه فيها، الدليل على صحة ما أجاب به الشيخ حرسه الله تعالى : كذا وكذا، وما اعترضه الشافعي فيه، ثمّ انفصل المالكي في اعتراضه، حتى خلص الدّليل، فلما أجمل الكلام على المسألة قام إليه الشافعي، وقبّل رأسه، وقال : أحسنت يا سيّدي وحبيبي، أنت والله شيخ المذهب، حين نصرته ...».

وهذا لا يعني التجرّد الكلي الذي تتصف به تلك المدارس من الأدلة لمسائل المذهب، بل يحتجّون ويدلّلون بالأثر ويعتمدونه بالتفسير والتحليل والبيان.

وإذا ما استعملوا الأدلة العقلية والفكرية فإنّ ذلك مستمد من اتّصالهم بفقهاء بغداد وتتلمذهم على أعلام المذهب بها.

ثانياً- الخلاف والجدل :

ذكرنا في مدخل هذا الموضوع أن بغداد كانت مجمعاً علمياً كبيراً في عصر العباسيين فكانت بذلك ملتقى المذاهب الفكرية والاعتقادية من جهة، والمذاهب الفقهية من جهة أخرى، وكان كل منهم يسعى ليسيطر مذهبه ويحوز بالمكانة العليا لدى بني العباس فيلقى بذلك قبولاً لدى عامّة الناس. ولا يتأتى ذلك إلاّ بإبراز الأصول التي يعتمدها كل صاحب مذهب والقواعد التي يستنبط بها الأحكام، مع الرّد على مخالفيه ونقض آرائهم.

وقد ساهم أصحاب المذهب المالكي في تنشيط ذلك الجو العلمي من خلال المناظرات والمناقشات التي تدور بينهم وبين غيرهم وخاصة الشافعية والحنفية.

وهذا الطابع هو الغالب على ما دوّنوه على اختلاف طبقاتهم، فاكتست مؤلفاتهم طابع المقارنة بين آراء مالك، وأصحابه، ومواقف غيرهم من المذاهب الأخرى، ثمّ يردّون تلك

الآراء وينتصرون لمذهبهم بالاستدلال والتأصيل بجانبيه النقلي -الكتاب والسّنة- والعقلي، وسواء أكان ذلك في ميدان الفقه ومسائله أو الأصول وما يتعلق به من قواعد.

وعناوين مؤلفاتهم المثبتة في كتب التراجم والفقه تدل على ذلك، حيث نجدها في غالبها منصبّة حول مسائل الخلاف بين المالكية وغيرهم.

ولهذا تميّزت المدرسة العراقية بإبراز الجانب العقلي في المذهب المالكي، وبذلك جمع بين الأثر وإعمال العقل في أصوله النظرية، وبذلك امتاز على المذهب الحنفي باعتماده الأثر في غالب مسائله وأصوله.

وهذا الذي جعل فقه أهل المدينة يتبوء الصدارة ليس في العراق والمشرق فقط بل في كثير من الربوع الإسلامية.

مناقشات وتعقيبات

د. ميكلوش موراني:

لقد ذكر بعض المتحدثين في هذه الجلسة الصباحية عدة كتب لقدماء المالكيين اسماً وعنواناً، وذلك كما هو العادة، وكما جاء ذكر هذه المؤلفات في كتب الطبقات والفهارس، وأنا أتساءل وأتساءل منذ حين: ما الفائدة من تكرار هذه العناوين، وتلك المؤلفات التي مازالت أغلبيتها في حكم المفقود، ولا يصف محتواها إلا مؤلفو كتب الطبقات، وهي مصدرنا الوحيد لكي نتعرف عليها قليلاً، غير أن لدينا عدة نسخ من أمهات هذا المذهب، وهي مخطوطة في مكتبات المشارقة والمغاربة على السواء، لقد ذكر مثلاً شرح المختصر للأبهري مراراً فما ميزة هذا الكتاب ومنه نسخ معروفة منذ زمن طويل، إن الأبهري يحيل في بداية كل فقرة إلى أصله حرفاً حرفاً أي هو يذكر نص المختصر نفسه الذي لا يزال مفقوداً إلا القليل النادر منه، وهذا القليل يتماشى نصه بما جاء عند الأبهري بالضبط، وهكذا الأمر بالنسبة للمختصر الصغير الذي شرحه ابن البرقي، وهو محفوظ في السلمانية في اسطنبول، أما أحكام القرآن للقاضي إسماعيل الجهضمي، وقد أضافه البعض في هذه الندوة إلى كتب جدلية، ويذكره الآخرون اسماً فقط حسب الطبقات، في الحقيقة هذا الكتاب تفسير للقرآن بالمأثور ولا شيء غير ذلك، وأضاف المؤلف إلى تفسيره الأحكام الفقهية المالكية، وذكر أيضاً كتاب الاقتداء بأهل المدينة لابن أبي زيد القيرواني، وقد يظن البعض بل الأغلبية أن ذلك كتاب، غير أنه ليس بكتاب بل إنه لا يزيد على أكثر من نصف صفحة صغيرة ضمن مخطوط وحيد لكتاب فقه موطأ مالك، فهو بين خمسة عشر إلى عشرين سطر، وقد آن الأوان اليوم لأن لا نقلد أسماء الكتب بل نرجع إلى المراجع قدر المستطاع، وإنني أوصي إليكم الرجوع المتواصل إلى هذه الأصول من هذا التراث، لأنكم أنتم أهل هذا التراث وأنتم أصحابه لكي نزداد معرفة وحكمة بما ترك لنا هؤلاء القدماء المتقدمون من علوم، وشكراً.

المراتب العلمية والإدارية
لمؤسسي المدرسة المالكية بالعراق

إعداد

أ.د . عزت علي عيد عطية*

* رئيس قسم الحديث وعلومه بكلية اصول الدين بجامعة الأزهر – القاهرة. حصل على الماجستير من جامعة الأزهر في الحديث وعلومه عام (١٩٦٩م) وكان عنوان رسالته: «منهج الإمام مسلم في صحيحه»، وحصل على الدكتوراه من الجامعة نفسها والتخصص نفسه عام (١٩٧٢م) وكان عنوان رسالته: «البدعة تحديدها وموقف الإسلام منها». له العديد من الكتب والدراسات.

بين يدي البحث

قبل البدء في البحث يسعدنا أن ننوه بهذا المؤتمر الكبير الذي يؤصل لفترة زاهرة في حياة الأمة الإسلامية في مجال من أهم المجالات لخدمة الإسلام في مجال المعرفة بأحكامه وتوجيهاته والتطبيق العملي لمبادئه وأحكامه، ونشكر القائمين على هذا المؤتمر الذي يخدم الناس جميعاً فضلاً عن المسلمين لما للفقه الإسلامي وبخاصة المالكي من أثر في القوانين التي يحتكم إليها العالم كله في دوله الخاصة وفي علاقاته العامة، ونسأل الله سبحانه أن يوفق هذا المؤتمر ويحقق أهدافه الخيرة ومقاصده السامية في ظل الرعاية الرائدة للنشاط العلمي والعملي في خدمة الإسلام من سمو أمير هذه الإمارة التي تمثل جوهرة زاهية في عقد الإمارات العربية المتحدة ومعاونيه، امتداداً لما تقوم به دولة الإمارات العربية المتحدة برعاية رئيسها المحبوب، والله ولي التوفيق.

تمهيد

كان للمناصب الإدارية والعلمية لعلماء المالكية أبلغ الأثر في انتشار المذهب المالكي بالعراق، وساعد على ذلك أن هذه المناصب كانت تقتصر على القمم العلمية المبرزة في العلوم الدينية تحصيلاً واستنباطاً، فازدهرت بهم الحياة العلمية وحلقوا نجوماً ساطعة وكواكب منيرة في سماء العلم ببغداد في ذروة الخلافة العباسية، وحفظ الله بهم دينه، وبارك لهم في العلم والعمل.

قال القاضي عياض ما حاصله: كان ينبوع هذا المذهب (مذهب مالك) بالمدينة، فيها تفجر، ومنها انتشر، واستقر ببلاد العراق بالبصرة، فغلب عليها بابن مهدي والقعنبي وغيرهما.

ثم بأتباعهم من ابن المعذّل ويعقوب بن شيبة وآل حماد بن زيد.

وغلب هذا المذهب في العراق وفشا أيام قضاء آل حماد بن زيد.

وانقطع ببغداد فلم يبق له بها إمام من نحو الخمسين والأربعمائة عند وفاة أبي الفضل ابن عبدوس ثم سكنها ابن صالح بعد التسعين.. (١).

وللمذهب المالكي خصائص انفرد بها من أهمها اعتماد ما عليه العمل باعتباره آخر ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم عملاً في مجاله، فإذا ورد ما يخالف العمل المستقر بالمدينة ترجح العمل على الحديث.

قال ابن المعذّل: سمعت إنساناً سأل ابن الماجشون: لم رويتم الحديث ثم تركتموه؟. قال: ليعلم أنا على علم تركناه..

وقال ابن مهدي: السنة المتقدمة من سنة أهل المدينة خير من الحديث، أي المخالف لهذه السنة.

وقال مالك: مات النبي صلى الله عليه وسلم وبالمدينة من الصحابة نحو عشرة آلاف، وباقيهم تفرق بالبلدان، فأيهم أحرى أن يتبع ويؤخذ بقولهم: من مات عندهم النبي

(١) المدارك للقاضي عياض ج ١ ص ٥٣.

صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين ذكرت أو من عندهم واحد أو اثنان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم[١].

فإذا اضفنا إلى ذلك أن المدينة كانت في قلب العالم الإسلامي، وكان العلم بها في غاية الازدهار، وأن باقي الأقطار الإسلامية لم تكن متفرغة تمام التفرغ للعلم الديني كالمدينة، أدركنا ما يريد المالكية أن يقرروه.

وأجاد القاضي عياض في عرضه لمكانة الإمام مالك، ومجالات تفوقه بالنسبة لأصحاب المذاهب المنتشرة بين المسلمين. ونقل كلام الإمام الشافعي في تفضيل مالك في مجال الفقه في الدين. وقال:

سلّمنا لأبي حنيفة والشافعي رحمهما الله حسن الاعتبار، وتدقيق النظر، والقياس، وجودة الفقه، والإمامة فيه، لكن ليس لهما إمامة في الحديث، ولا معرفة به، ولا استقلال علمه، لا يدعيانه ولا يدعى لهما، وقد ضعّفهما فيه أهل الصنعة.

كما أن أحمد وداود من العارفين بعلم الحديث ولا تنكر إمامة أحدهما فيه، لكن لا يسلّم لهما الإمامة في الفقه ولا جودة النظر في مأخذه.

أما مالك فيما قرره الشافعي وغيره فكان عالماً بالكتاب والسنة مبرزاً في فقه ما جاء فيهما، وكان ماهراً في القياس، لكنه كان يتوقى ويتحرى ويريد التأسي بمن تقدمه.

وتأسف القاضي عياض للأسباب التي دفعت الإمام الشافعي إلى انفصاله بأصحابه عن المالكية ولسان حاله يقول: لقد فقد المذهب المالكي عَلَماً من أعلامه لكن مذهبه رافد من الروافد التي استقت من مذهب مالك[٢].

والمذاهب الأربعة بينها من الروابط والاتصال أضعاف أضعاف ما بينها من التفرق والاختلاف. لكن التنازع على المناصب الدنيوية عمق ما بينها من خلاف، وأثار كثيراً من التحامل والتعصب باعد بين المتمذهبين بها.

---

(١) المدارك ج ١ ص ٦٦.

(٢) نفسه: ج ١ ص ٩٢.

ولما انفصل القضاء عن قواعده من المذاهب ظهرت الحاجة الماسة إلى الربط بين هذه المذاهب بجمع ما اتفقت عليه وربطه بأصول من القرآن والسنة، وحصر ما اختلفت فيه مع عرض وجهة النظر المذهبية، ومحاولة الترجيح إن تيسر الترجيح.

ذلك أن إقبال الناس على دراسة هذه المذاهب، ومتابعة ما قامت عليه من أسس، وما أنتجته من قواعد، وما قررته من أحكام، ضعف؛ لعدم إسناد القضاء إلى الشيوخ، وتحول الاهتمام بها إلى المتجردين للدراسات الدينية.

والأمل كبير في أن يكون إحياء الدراسات العلمية المالكية مجالاً رائداً لتنشيط الدراسات الإسلامية على وجه العموم، وحافزاً دافعاً إلى اهتمام جهات أخرى بإحياء الدراسات العلمية لباقي المذاهب.

من خصائص المدرسة المالكية بالعراق

لم تكن مدرسة الفقه المالكي بالعراق خالصة للفقه وأصوله، بل انطلقت من دراسة الكتاب والسنة إلى دراسة الفقه المالكي، فكشفت الأصول التي استند إليها الإمام مالك فيما اختاره من الآراء، واعتمده من الأحكام.

كما أنها عرضت لما خالف فيه أصحاب المذاهب الأخرى مذهب مالك، وقارنت وعللت ورجحت على أساس علمي متجرد يبغي الحق دون سواه، ويظهر ذلك في أئمة المذهب من المحدثين كابن مهدي والقعنبي ويعقوب بن شيبة.

كما وصل إلى أوجه وذروته على يد إسماعيل القاضي وأهل بيته ومن تابعهم من الفقهاء بالعراق.

فإسماعيل بن إسحق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الأزدي شرح - كما قال الخطيب البغدادي - مذهب مالك ولخصه واحتج له وجمع حديثه وكان من رواة الحديث المشاهير.

ولم يقتصر نشاطه على رواية الحديث، بل مهر في علومه، ونشط في معرفة علله، وتخرج في ذلك كلّه على علماء من أشهرهم علي بن المديني، وكان ابن المديني متمكناً في

معرفة علوم الحديث، واستخلاص ما يعتمد على قواعد المحدثين من الروايات، ومعرفة علل الحديث أي العيوب الخفية القادحة التي لا تظهر إلا للمتبحرين الذين وصلوا إلى أقصى ما يصل إليه دارس الحديث في علومه المختلفة المتنوعة.

وأضاف إلى ذلك معرفة علوم القرآن وقراءاته، والتبحر في دراسة علوم اللغة حتى كان يقارن بأساطينها كالمبرّد وثعلب، قال المبرد: لولا شغله برئاسة العلم والقضاء لذهب برئاسة النحو والأدب.

وتحصل له بذلك وسائل الاجتهاد، لكنه كان محتاجاً إلى التدرب على ممارسته فهيأ الله له صحبة أحمد بن المعذّل، وكان فقيهاً متميزاً على مذهب الإمام مالك، جمع بين العلم والعمل، قال عبيد الشافعي: كان من العلماء الأدباء الفصحاء النظّار، وقال الشيرازي: كان مفوّها ورعاً متَّبِعاً للسنّة، وقال أبو العباس: كان من الأبهة، والتمسك بالمنهاج، والتجنب للعيب، والتعرض لما في أيدي الناس، وإضمار الزهد فيه على غاية(١)، وكان الخليفة يقدّره ويعرف له منزلته ومكانته، فيسّر له ذلك استثمار علومه المتنوعة في خدمة المذهب المالكي.

يقول إسماعيل: أفخر على الناس برجلين: ابن المديني يعلّمني الحديث، وابن المعذّل يعلمني الفقه.

وأصبح إسماعيل في مجال الاجتهاد والتدريس وتأليف الكتب في علوم القرآن والحديث والفقه ذروة ينتهي إليها الفقيه المجتهد الجامع بين العلم والعمل، والمؤيد بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، مسدداً في فقهه، معتمَداً في بحثه، مبرزاً بين أهل الاجتهاد، يحترمون رأيه ويحترم آراءهم، ويحتج لرأيه بما يترجح به على آراء الآخرين.

لقد جمع إسماعيل أدوات الاجتهاد ووسائله، وتأهل للإمامة العامة كمالك وغيره من الأئمة، لكنه اختار مذهب مالك، وتوصل بالممارسة العملية في مجال الاجتهاد إلى أنّ ما ينتهي إليه في اجتهاده لن يخالف ما وصل إليه إمام مذهبه، فركّز نشاطه في إطار ما انتهى إليه المذهب على يد صاحبه، ومن أخذ عنه كابن الماجشون، ومن تفقه به كابن المعذّل، وبنى على ذلك ما استجد له من اجتهاد فيما لم يجتهد فيه الإمام وأهل مذهبه.

---

(١) ترتيب المدارك ج ١ ص ٥٥٠ - ٥٥٥.

فأما ما وافق فيه إمامه فرجع إلى المذهب تأصيلاً واستدلالاً وكشفاً لوجوه الاجتهاد، ومقابلة لاجتهاد المذاهب الأخرى، وكشف عن عمق وأصالة المذهب المالكي فيما انفرد به من آراء، وأما ما انفرد به دون إمامه فانضمّ إلى المذهب منسوباً إليه كعماد من أعمدة المذهب ورأس من رؤوسه.

يقول طلحة بن محمد الشاهد: إسماعيل بن إسحق أخذ الفقه على مذهب مالك على أحمد بن المعذّل، وتقدم في هذا العلم حتى صار علماً فيه، ونشر من مذهب مالك وفضله ما لم يكن في العراق في وقت من الأوقات، وصنف في الاحتجاج لمذهب مالك والشرح له ما صار لأهل هذا المذهب مثالاً يحتذونه وطريقاً يسلكونه.

وانضاف إلى ذلك علمه بالقرآن، وله كتاب أحكام القرآن لم يسبقه أحد من أصحابه إلى مثله.

وبلغ من العمر ما صار واحداً في عصره في علوم الإسناد.

وكان الناس يصيرون إليه فمن قوم يحملون الحديث، ومن قوم يحملون علم القرآن والقراءات والفقه.

لقد كان مجتهداً استند في اجتهاده إلى اجتهاد مالك رحمه الله وعيون أتباعه، وتداخل اجتهاده في اجتهادهم فازدهر المذهب بجهوده، يقول الباجي: لم تحصل درجة الاجتهاد بعد مالك إلا لإسماعيل بن إسحق.

ويقول طلحة الشاهد: فأما سداده في القضاء وحسن مذهبه فيه وسهولة الأمر عليه فيما كان يلتبس على غيره فشيء شهرته تغني عن ذكره.

وكان القضاء بالعراق معتمداً على المذهب الحنفي ليس لغيره سبيل إليه، فلما برز إسماعيل بعلمه بالأصول وفقهه بمذهب مالك اكتسح المجال وظهر أثره فيه.

يقول إسماعيل: دخلت يوماً على يحيى بن أكثم وعنده قوم يتناظرون في الفقه وهم يقولون: قال أهل المدينة، فلما رآني مقبلاً قال: قد جاءت المدينة.

ويحيى بن أكثم ولي القضاء للمأمون، وكان كما قال طلحة بن محمد بن جعفر من أعلام الدنيا، واسع العلم بالفقه، عرف المأمون من حاله وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ

بمجامع قلبه حتى قلّده قضاء القضاة[١]، وكان ممن سمع كتب عبد الملك بن الماجشون كتب عنه أربعمائة مجلداً أو مائتي مجلداً شك الراوي. . وقال: ما رأيت مثل عبد الملك.

قال ابن اللباد: كان يحيى بن أكثم القاضي مع عبد الملك على سريره، وهما يتذاكران مذهب أهل العراق وأهل المدينة ويتناظران في ذلك، فقال ابن أكثم: يا أبا مروان، رحلنا إلى المدينة في العلم قاصدين فيه، وكنتم بالمدينة لا تعنون به، وليس من رحل قاصداً فيه كمن كان فيه وتوانى، فقال عبد الملك: اللهم غفراً، يا أبا محمد، ادع لي أبا عمارة المؤذن من ولد سعد، فجاء شيخ كبير، فقال له: كم لك تؤذن؟ فقال: سبعين سنة، أذنت مع آبائي وأعمامي وأجدادي، وهذا الأذان الذي أوذن به أخبروني أنهم أذنوا به مع ابن أم مكتوم.

قال عبد الملك: تقولون توانيتم وتركتم، هذا الأذان ينادي به على رؤوسنا كل يوم خمس مرات متصلاً بأذان النبي صلى الله عليه وسلم فترى أنّا كنا لا نصلي، فقد خالفتمونا فيه، فأنتم في غيره أحرى أن تخالفونا، فخجل ابن أكثم ولم يردّ عليه جواباً[٢].

فإذا قال ابن أكثم عن إسماعيل: جاءت المدينة، فهو عارف بما يقول، غير مبالغ في تقديره.

وإذا قال أبوحازم القاضي الحنفي: لبث إسماعيل أربعين سنة يميت ذكر أبي حنيفة من العراق، فهو مدرك للأثر الذي حدث للمذهب الحنفي ببروز إسماعيل بمذهب مالك، يؤصل مسائله، ويبين ما استند إليه من القرآن والسنة، على وجه يكتسح ما يقابله إذا لم يكن في مرتبته في الكلام على المسائل.

وهذه القوة العلمية تعدُّ إبرازاً للحقائق، وتجلية للمسائل، على وجه يكشف ما يستند إليه الحكم من الأصول في استخراج دقيق، وتحرير واضح، وحجة ساطعة، وهي تأكيد لما يوافق ذلك من أقوال العلماء، ووضع لما يخالف ذلك في موضعه الذي ينبغي أن لا يتجاوزه.

فإذا قال الحنفي: يميت ذكر أبي حنيفة فليس ذلك مقصوداً من إسماعيل، ولكنه أثر من آثار تفوقه العلمي المكتسح لما يقف في طريقه مما يضعف من آراء. وقد ألف كتاب الرد على محمد بن الحسن في مائتي جزء ولم يتم، وكتب في الرد على أبي حنيفة.

(١) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٩٧ ـ ١٩٨.

(٢) المدارك ج ١ ص٢٠٣، ٣٦٤.

ومن جانب آخر ألف إسماعيل القاضي في الرد على الشافعي، ومخالفة الشافعي لمالك في بعض المسائل واعتراضه عليه فيها مشهور، فقام إسماعيل يقود من بعده بالرد عليه نيابة عن مالك رحمه الله.

ولم يشغله القضاء عن الدراسة والبحث ونشر العلم والتاليف، فكان كاتبه أبوالعباس أحمد بن سريج من أعلام مذهب الشافعي وكبار رجاله، وكان حاجبه ابن عمه أبو عمر محمد بن يوسف الذي تولى القضاء بعده يحمل عنه أكثر أمره من لقاء السلطان وغيره.

وأقبل إسماعيل بهمته على العلم والتعليم في مجال القرآن والحديث والفقه إضافة إلى قيامه بأمور القضاء، فدل ذلك على حسن إدارته وقوة شخصيته ومهارته في استغلال وقته بين العلم والعمل والوظيفة. وكان يقول: من لم يكن فيه فراسة لم يكن له أن يلي القضاء.

وقيل له: ألا تؤلف كتاباً في أدب القضاء. فقال: اعدل ومد رجليك في مجلس القضاء، وهل للقاضي أدب غير الإسلام.

ومما يدل على فقهه وقوة استنباطه أنه سئل: لم جاز التبديل على أهل التوراة ولم يجز على القرآن، فقال: قال الله تعالى في أهل التوراة: ﴿ **بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ** ﴾ فوكل الحفظ إليهم، وقال في القرآن: ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ فلم يجز التبديل عليهم.

ونضم إلى ما قاله أن كلام علماء أهل الكتاب له عندهم قوة النص المنزل على أنبيائهم، بل يدعون أنه أقوى من النص لأنه متأخر، والمتأخر ينسخ المتقدم ويزيل أثره من الوجود، أما كلام المسلمين فالنص قاضٍ عليه، وليس له اعتبار إذا خالف النص، قال تعالى: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾، أي جعلوا ما يقررونه نصاً يعمل به ويترك بسببه النص الذي أنزله الله، ومن هنا لم يحتاجوا إلى إسناد ولا إلى علوم تصحح نقل النصوص، لأنهم يجعلون نصوص العلماء في قوة النص الوارد في التوراة والإنجيل، ويعتبرون ما يعتمدونه من الأقوال في مجامع العلماء هو المعتمد في ذلك والقاضي على ما عداه.

ولم يحتاجوا إلى اجتهاد في فهم النص؛ لأن النص عندهم يتجدد على الدوام، والوحي بل الكلام الإلهي المباشر مستمر عندهم على مدى الأيام. وما ينتهي إليه علماؤهم نص أو في قوة النص المعصوم.

أما النصوص عند أهل الإسلام فلا تقبل زيادة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يعتمد منها إلا ما ثبت عنه منقولاً بالتواتر كالقرآن، أو بالسند المعتمد كالحديث الشريف، وضياعها أو ضياع شيء منها يضيع بسببه الدين أو أصل من أصوله.

ولما كان النص في الإسلام ثابتاً محدداً، وكانت الوقائع متجددة، كان الاجتهاد في فهم النصوص وتطبيقها على الحوادث المتجددة، وكانت المذاهب فيما يحتمل اختلاف الآراء.

ولم يفصل إسماعيل القاضي ما فصلناه لاكتفائه بالتلميح عن التصريح.

ودخل عنده عبدون بن صاعد الوزير وكان نصرانياً فقام له ورحب به، واستشعر إنكار الحاضرين لذلك فلما خرج قال: قد علمت إنكاركم وقد قال الله تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِن دِيَارِكُم**﴾ الآية، وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين وهو سفير بيننا وبين المعتضد، وهذا من البر... فسكتوا(١).

ولم يكن إسماعيل القاضي محجوباً عن المعتضد ولكنه كان مترفعاً عن الاتصال المباشر به فيما يتصل بالمطالب والأعمال، وكان حاجبه ينوب عنه في الدخول لطلب الحاجات وتحقيق المصالح، لكن الوزير كان متمكناً من التماس المقاصد وتحصيل ما يراد من الخليفة، فقدر إسماعيل له ذلك، وما كان ترفعه عن كبر لكنه كان عن اعتزاز بمسئوليته ليحفظ لقضائه مكانته ولا يتعرض لتأثير المصالح.

قال أبو العباس بن سريج: سمعت إسماعيل القاضي يقول: دخلت على المعتضد وعلى رأسه أحداث روم صباح الوجوه، فنظرت إليهم، فرآني المعتضد وأنا أتأملهم، فلما أردت القيام أشار إلي فجلست ساعة، فلما خلا قال لي: أيها القاضي والله ما حللت سراويلي على حرام قط(٢).

إن إسماعيل القاضي لم يمتنع من النظر إليهم، لأن النظر والمبالغة فيه كانت لإظهار الإنكار لتخصيص هؤلاء بخدمة الخليفة، وغيرهم ممن لا يفتن بهم أدعى إلى السلامة، فلما قال الخليفة ما قال عرف أن تعامله معهم في إطار الجد بعيداً عن مثارات الظنون.

---

(١) تاريخ بغداد، وترتيب المدارك في ترجمة المعتضد.

(٢) تاريخ بغداد، ونقله في البداية والنهاية ج ١١ ص ٨٧.

وانتباه الخليفة إلى ما يقصده، ونفيه الشبهة عن نفسه، مما يدل على مكانة إسماعيل عنده واحترامه لمكانته ومنزلته.

والحديث مشهور رواه البخاري وغيره، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ،وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً».

وعن ابن سريج أن القاضي إسماعيل بن إسحاق قال: دخلت يوماً على المعتضد فدفع إليَّ كتاباً فقرأته فإذا فيه الرخص من زلل العلماء قد جمعها له بعض الناس. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنما جمع هذا زنديق. فقال: كيف؟ فقلت: إن من أباح المتعة (أي زواجها) لم يبح الغناء، ومن أباح الغناء لم يبح إضافته إلى آلات اللهو، ومن جمع زلل العلماء ثم أخذ بها ذهب دينه، فأمر بتحريق ذلك الكتاب.

فبر القاضي إسماعيل الوزير النصراني لا عن تملق أو خوف، وإنما تقديراً لإنصافه وسعيه في مصالح المسلمين.

على أنه لم يكن يذهب إليه ليطلب وساطته، وإنما كان يراسله بما يريد منه فيستجيب ويكلمه إذا حصل بينهما لقاء فيستمع إليه وكان الوزير يعرف مكانة القاضي ومنزلته والدليل على ذلك إقدامه على زيارته.

ونورد مسألتين من مسائل الخلاف للتعرف على ما بذله القاضي إسماعيل من جهد في خدمة مذهب مالك متحرياً الانصاف ومراعياً آداب الخلاف، ولإبراز بعض جوانب نشاط مؤسسي المدرسة المالكية بالعراق في نشر المذهب وتأصيله والرد على المخالفين.

١ ـ هل يدخل النساء في طلب القصاص:

قال تعالى: **﴿وَلاَ تَقْتُلوا النَّفْسَ الّتِي حَرَّمَ اللهُ إلا بَالحقّ وَمَنّ قُتِل مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِف فِي القَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾**(١).

المراد بالولي قيل: هو الوارث مطلقاً، فكل من ورثه فهو وليه، وعلى ذلك ورد لفظ الولاية في القرآن.

(١) سورة الإسراء، الآية ٣٣ .

قال ابن العربي في الأحكام: وتحقيق ذلك أن الله تعالى أوجب القصاص ردعاً عن الإتلاف وحياة للباقين.

وظاهره أن يكون حقاً لجميع الناس كالحدود الزواجر عن السرقة والزنا حتى لا يختص بها غير مستحق.

بيد أن الباري تعالى استثنى القصاص من هذه القاعدة، وجعله للأولياء الوارثين، ليتحقق فيه العفو الذي ندب إليه في باب القتل.. ولم يجعل عفواً في سائر الحدود لحكمته البالغة وقدرته النافذة.. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «من قتل له قتيل فهو بخير النظر بين أن يقتل أو يأخذ الدية».. وهذه خاصية أعطيتها هذه الأمة تفضلاً وتفضيلاً وحكمة وتفصيلاً، فخص بذلك الأولياء ليتصور العفو أو الاستيفاء.

قال: واختلف قول مالك في دخول النساء في الدم، فإذا قال بدخولهن فلعموم الآية.

وإذا قال بخروجهن فلأن طلب القصاص مبناه على النصرة والحماية وليست المرأة من أهلها، وإليه وقعت الإشارة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾.

وقال الجصاص في الأحكام: قوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ اقتضى إثبات القصاص للنساء، لأن الولي هنا هو الوارث كما قال: ﴿وَالمؤمِنُونَ وَالمؤمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وقال: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيْلِ اللّهِ والَّذِيْنَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

وقال: ﴿وَالَّذِيْنَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِن وِلايَتِهِمْ مِنْ شَيءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ فنفى بذلك إثبات التوارث بينهم إلا بعد الهجرة.

ثم قال: ﴿وأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ المؤْمِنِينَ والمُهَاجِرِينَ﴾.

فاثبت الميراث بأن جعل بعضهم أولياء بعض.

وقال: ﴿وَالَّذِيْنَ كَفَرُوا بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فاثبت التوارث بينهم بذكر الولاية.

فلما قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ اقتضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة.

قال: ويدل أن الدم موروث عن المقتول، وأن الدية التي هي بدل من القصاص موروثة عنه للرجال والنساء، ولو لم تكن النساء قد ورثن القصاص لما ورثن بدله الذي هو المال...

قال: وكيف يجوز أن يرث بعض الورثة من بعض ميراث الميت، ولا يرث من البعض الآخر. هذا القول مع مخالفته لظاهر القرآن مخالف للأصول.

قال الجصاص: وقول مالك: إن النساء ليس إليهن من القصاص شيء، وإنما القصاص للرجال، فإذا تحول مالاً ورثت النساء مع الرجال.

وروي عن سعيد بن المسيب والحسن وقتادة والحكم: ليس إلى النساء شيء من العفو أو الدم.

قال: وقول أصحابنا (الحنفية): إن القصاص واجب لكل وارث من الرجال والنساء والصبيان بقدر مواريثهم.

وقد انتصر إسماعيل القاضي للقول الذي نقله الجصاص عن مالك، قال إلكيا الهراسي في الأحكام: ذكر إسماعيل بن إسحاق المالكي: في قوله (لوليه) ما يدل على خروج المرأة من مطلق الولي، فلا جرم ليس للنساء حق القصاص، ولا أثر لعفوها، وليس لها الاستيفاء.

ثم هاجم قوله فقال: ولم يعلم أن المراد بالولي هاهنا الوارث، واستدل إلكيا بما استدل به الجصاص على إثبات القود لسائر الورثة.

ثم قال: احتج إسماعيل في ذلك بوجوه ركيكة منها: أن الولي في ظاهره على التذكير، وهو واحد.

قال: ولم يعلم أن ما كان من الجنس استوى فيه المذكر والمؤنث.

قال: فلزم من ذلك إخراج الزوج من جملة الأولياء في القصاص.

قال: وعلى أنه لم يمتنع أن تكون المرأة بنفسها لا تستحق ولكنها مع غيرها كالورثة اعتذر بأن سبب الوراثة واحد، وقد اختلف السبب هاهنا، فلزم أن لا يثبت القصاص بين الزوج والأخ ولا الأخ من الأم.

قال: وذكر فيما ذكر أن المقصود من القصاص تقليل القتل، والمقصود بكثرة القتل الرجال دون النساء.

ولزم على هذا ألا يجب القصاص على المرأة بقتل الرجل، ولا على الرجل بقتل المرأة.

وقد انتصف أبو بكر بن العربي للقاضي إسماعيل فقال: لم يستوف الهراسي كلام إسماعيل، واستركه قبل استيفائه حين نقل قوله: الولي في ظاهره على التذكير، فالركيك هو قوله الذي لم يتم.. وتمام قول إسماعيل: إن الولي هاهنا على التذكير لأنه واحد في معنى الجنس كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾؛ فيمكن أن يكون ولي القتيل واحداً ويمكن أن يكون جماعة، ولا تدخل المرأة في جملة الأولياء كما دخلت في جملة الناس حين قال: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ لأنها في هذا الموضع معناه ومعنى الرجل سواء، إذ كان الخير وعمل الصالحات إنما هو شيء يخصّهما في أنفسهما، والولي يكون وليا لغيره وهو واحد أو أكثر، والمرأة لا تستحق الولاية كلها..

ثم علق على نقل الهراسي قول إسماعيل: إن المرأة لا تستحق كل القصاص والقصاص لا بعض له، فلزمه إخراج الزوج من ولاية القصاص فقال:

تبصر أيها الطبري ما قاله إسماعيل المالكي: إنما لا تستحق المرأة الولاية كلّها لأنها ليست بكاملة لا في شهادة ولا في تعصيب، فكيف تضعف عن الكمال في أضعف الأحكام ويثبت القصاص لها على الكمال؟

قال: وأما احتجاجك بالزوج فهو الركيك من القول، فإن الزوج لا مدخل له في ولاية الدم.

كما علق على ما نقله الهراسي عن إسماعيل من أن المقصود من القصاص تقليل القتل، والمقصود بكثرة القتل الرجال دون النساء، وتعليقه عليه بقوله: يلزم على هذا ألا يجري القصاص بين الرجال والنساء.

قال ابن العربي: إما أن فكيك ضعفا عن لوك ما قاله إسماعيل وإما تعاميت عمداً، وذلك لأن القتل والاعتداء إنما شأنه الغوائل والشحناء وهي بين الرجال دون النساء، ولا يقتل على الغائلة امرأة إلا دنيء الهمّة ويعيّر به بقية الدهر، فكان ذلك واقعاً في الغالب على الرجال دون النساء، فوقع القول بجزاء ذلك وهو القصاص على الرجال دون النساء، إذ خروج

الكلام على غالب الأحوال هي الفصاحة العربية والقواعد الدينية [١].

والمسألة هنا لها ارتباط قوي بالمقارنة بين الرجال والنساء في الإلزام والالتزام.

فالحنفية والشافعية يرون المساواة التامّة بين الرجال والنساء في مجال القصاص والديّة.

والمالكية يرون أن ذلك خاص بالرجال لما عللوا به، وأن استحقاق النساء من الورثة الدية من الرجال لتحول حق القصاص إلى مال للمقتول يشبه ما تركه من أموال.

واشتراك المرأة في الميراث مجمع عليه بين الجمع، لكن لا يقاس على اشتراكها فيه الاشتراك في كل ما يتصل بالميت من أمور؛ لأن الميراث أصل قائم بذاته لا يقاس على غيره ولا يقاس غيره عليه.

وأما اختلاف المرأة في الشهادة عن الرجل فمما لا يقاس عليه أيضاً.

ومن هنا كان الحكم باشتراك المرأة في طلب القصاص لا يتقيد إلا بتقييد الشرع، ولا يجري الأمر فيه على غالب الأحوال المعتادة، لعدم اعتماد الشرع فيما يختص بالفروق بين الرجال والنساء على القياس والاجتهاد، بل على النص المحدد تحديداً دقيقاً لهذه الفروق.

ومع تقديرنا لجهد العلماء البالغ في توضيح رأي المالكية والدفاع عنه والتعليل له، فقول الحنفية والشافعية ظاهر الترجيح، لعدم ورود نص يمنع استحقاق المرأة للاشتراك مع باقي الأولياء من الورثة في استحقاق القصاص.

٢ ـ اليمين الغموس هل تلزم فيها كفارة:

قال مالك في الموطأ: الذي يحلف على الشيء ويعلم أنه آثم، ويحلف على الكذب وهو يعلم ليرضي به أحداً أو ليعتذر به إلى معتذر إليه أو ليقطع به مالاً، فهذا أعظم من أن تكون فيه كفارة [٢].

وقال الشافعي في الأم: من حلف عامداً للكذب فقال والله لقد كان كذا وكذا، ولم يكن، أو والله ما كان كذا، وقد كان، كفَّر (فعل الكفارة)، وقد أثم وأساء حيث عمد الحلف بالله باطلاً.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي.

(٢) الموطأ ص ١٦٩ المكتب الإسلامي.

فإن قال: وما الحجة في أن يكفِّر وقد عمل الباطل؟

قيل: أقربها قول النبي صلى الله عليه وسلم «فليأت الذي هو خير، وليكفِّر عن يمينه». فقد أمره أن يعمد الحنث.

وقول الله عز وجل: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أُوْلِي القُرْبَى﴾ نزلت في رجل حلف أن لا ينفع رجلاً فأمره الله أن ينفعه..

وقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ القَوْلِ وَزُوْراً﴾ ثم جعل فيه الكفارة.

وقال: عقد اليمين أن يثبتها على الشيء بعينه أن لا يفعل الشيء فيفعله، أو ليفعلنه فلا يفعله، أو لقد كان وما كان، فهذا إثم، وعليه الكفارة لما وصفت من أن الله عز وجل قد جعل الكفارة في عمد المائم، فقال تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ البَرِّ مَا دُمْتُم حُرُماً﴾. وقال: ﴿لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنكُم مُتَعَمِّداً فَجَزَاءُ مِثْلِ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً﴾.

ومثل قوله في الظهار: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ القَوْلِ وَزُوْراً﴾ ثم أمر فيه بالكفارة.

ومثل ما وصفت من سنة النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير، وليكفّر عن يمينه».

أما ما لا كفارة فيه من الأَيْمان عند الشافعي فهو الذي يحلف عامداً للكذب استخفافاً باليمين بالله؛ لأن الذي يعرض من ذلك أعظم من أن يكون فيه كفارة، وإنه ليقال له تقرب إلى الله بما استطعت من خير(١).

لقد خالف الشافعي مالكاً ففرّق بين اليمين المنعقدة التي يثبتها المرء على الشيء بعينه إنه كان أو سيكون كاذباً في يمينه؛ لأن ما قال إنه كان لم يكن أو ما قال سيكون هو مصمم على عدم فعله وليس مستخفاً باليمين بالله، فرق بينها وبين اليمين كذلك مستخفاً باليمين

(١) الأم ج ٧ ص ٦٤، ٦٦ ط دار الفكر.

بالله، فخص الغموس التي لا تكفر بما فيه استخفاف، وألزم الكفارة في اليمين الغموس التي ليس فيها استخفاف، أما مالك فرأى أن كل يمين غموس فيها استخفاف باليمين بالله.

ووافق الشافعي مالكاً في أن الحلف بالله كاذباً على ماض أو مستقبل متعمداً للكذب مع استخفافه باليمين ليس فيه كفارة معللاً بنفس تعليل مالك، وهو أن هذا اليمين أعظم من أن تكون فيه كفارة، وزاد أن على الحالف أن يتقرب بما يستطيع من خير.. أي ليقاوم الإثم الذي وقع فيه.

أما إذا عقد اليمين على ما يعلم أنه كذب غير مستخف باليمين فعليه الكفارة عند الشافعي، أما مالك فكل غموس عنده فيها استخفاف باليمين بالله.

فمالك يستبعد عقد اليمين على كذب ماض أو مستقبل مع تعمده، أي اعتبارها منعقدة شرعاً يترتب على الحنث بها كفارة؛ لأن ذلك لا يخلو من استخفاف باليمين.

والشافعي لا يستبعد ذلك، ويبني عليه خلافه لمالك ومن قال بقوله.

قال في شرح المهذب: واختلف في اليمين الغموس هل هي يمين منعقدة أم لا؟

فمذهبنا - أي الشافعية - أنها يمين منعقدة، لأنها مكتسبة بالقلب معقودة بخبر مقرونة باسم الله تعالى، وفيها الكفارة.

وذهب مالك بن أنس ومن تبعه من أهل المدينة إلى أنها يمين مكر وخديعة وكذب فلا تنعقد، ولا كفارة فيها.

وعلى أساس ما اختاره الشافعي من التفرقة والقول بأن لليمين الغموس إذا لم يستخف باليمين بالله فيها كفارة إذا حنث فيها، وأنها تقع يميناً، ردّ إسماعيل القاضي عليه، قال إلكيا الهراسي: قال إسماعيل بن إسحاق المالكي في كتابه المترجم بأحكام القرآن في الرد على الشافعي: قال الشافعي: من حلف عامداً للكذب فقال: والله لقد كان كذا وما كان أو قال والله ما كان وقد كان كفّر، وقد أثم وأساء حيث حلف بالله باطلاً.

فإن قال قائل: ما الحجة في أن يكفّر وقد عقد الباطل؟

قيل: أقربها قول النبي صلى الله عليه وسلم «فليأت الذي هو خير، وليكفّر عن يمينه».. فقد أمره أن يعمد الحنث.

وقول الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي القُرْبَى﴾ نزلت في رجل حلف أن لا ينفع رجلاً فأمره الله أن ينفعه..

وقول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ القَوْلِ وَزُوراً﴾ ثم جعل فيه الكفارة.

لقد نقل إسماعيل بدقة ما قاله الشافعي في الأم، وهو ما يدل على تدينه وورعه.

ثم علق عليه بقوله: فشبه الشافعي بما لا يشبه؛ لأن الذي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي الذي هو خير وأن يكفر إنما أمره أن يستأنف بعد اليمين شيئاً كان حلف عليه ألا يفعله، ولم يكن الرجل كاذباً حين حلف، فجعلت كفارة يمينه إذا فعل ما حلف عليه ألا يفعله.

والذي كذب بعد علمه مخبر عن شيء مضى، كاذب فيه، حالف عليه، فكيف يشبه هذا بهذا.

قال إلكيا: ثم أردف إسماعيل هذا بأن الذي استشهد به أمر فيه بأن يتعمد الحنث فليؤمر في الماضي بمثله.. اهـ

لقد قرر إسماعيل فيما نقله إلكيا أن الحنث يكون إذا وقع الشيء في المستقبل على خلاف ما حلف عليه، وأن الأمر به ليحدث هذا الوقوع، فإذا كانت اليمين غموساً فكيف تنعقد ليؤمر بالحنث فيها ليقع خلاف ما انعقدت عليه، إن انعقادها يعني إقرار الكذب واعتماد تأكيده باليمين بالله، وهذا ما لا يجوز.

فإذا أمر الشارع بالحنث في اليمين المنعقدة وقال الشافعي بانعقاد اليمين الغموس فليأمر بالحنث فيها، والقول بالمشابهة بين اليمين المنعقدة والغموس في الأمر بالحنث غير مقبول؛ لإمكان الحنث في اليمين المنعقدة وعدم إمكانه في اليمين الغموس؛ لأنها لا تنعقد إلا من حيث صورة الكلام، أما حقيقتها فغير معتبرة شرعاً، والحنث فيها ليس حنثاً باليمين بل تأصيلاً لما ينبغي أن يكون عليه انعقاد اليمين.

ومع وضوح هذا الكلام وقوته فإن إلكيا أساء إلى إسماعيل وتهكم به واتهمه ثم رد عليه رداً يدل على عدم إنصافه فقال: أشار الشافعي إلى أن الكفارة في المستقبل ـ أي اليمين

على أمر مستقبل ـ ما وجبت إلا باعتبار الجناية، فإن الكفارة لا تكون جزاء على فعل مباح أو فعل واجب، وإنما هي جزاء على أمر مكروه منهي عنه. فإذا ثبت ذلك فمن حلف على ترك فعل مباح أو واجب في المستقبل ثم فعل، فلا يمكن أن يقال إن الكفارة لأجل ذلك الفعل المباح الذي ندبه الشرع إلى فعله، وإنما تجب الكفارة لأجل ما اتصفت به اليمين من صفة الحنث، فيقال صارت اليمين كاذبة بدل ما يقال إن اليمين صادقة، فإذا كانت الكفارة لأجل صفة الحنث لا لأجل الفعل المباح فوصف الحنث جناية عن اليمين، وذلك في الماضي والمستقبل واحد..

بهذا وضع إلكيا الأساس الذي استند عليه الشافعي، وادعى أن إسماعيل ردّ على الشافعي؛ لأنه لم يصل إلى هذا الفهم الذي تحدد على أساسه كلام الشافعي في الموضوع.

لكن هذا الكلام مردود؛ لأن الحنث ليس جناية على الدوام كما قرر.

إنه مندوب إليه، وخير من الاستمرار على انعقاد اليمين، وهذا ما يفيده لفظ الحديث، روى البخاري بسنده عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير، وكفّرت عن يميني».

فاليمين الأولى خير لأنها بالتأكيد أمر ثابت ومقرر، وقد انعقدت تأكيداً للصدق.

والحنث خير من الاستمرار على اليمين المنعقدة؛ لأنه وسيلة لخير لا يتم إلا به، لم يكن متيسراً حال انعقاد اليمين.

ولم يكتف إلكيا بما ردّ به بل قال: قال إسماعيل في الذي شبه الشافعي به: أمره أن يستأنف بعد اليمين شيئاً كان حلف فيه ألا يفعله، والذي حلف على كذب بعد علمه مخبر عن شيء مضى كاذب فيه.

قال: فلم يفهم المقصود، فجعل الفرق بينهما الماضي والمستقبل، وقال: يجب أن يؤمر بالحنث فيما مضى كما أمر به في المستقبل.

وادعى أنه لذلك لا يحل له أن يتصدر للتصنيف فضلاً عن أن يرد على الشافعي.

وهذا تجريح غير مقبول يجعل فهمه هو الفهم وما عداه ليس بفهم، ذلك أن إسماعيل

أراد أن يؤكد الفرق بين اليمين المنعقدة والغموس حيث أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالحنث في المنعقدة ليفعل الحالف شيئاً كالحلف أن لا يفعله أو يترك شيئاً كان عازماً على فعله، أما من حلف كاذباً على ما حلف عليه فكيف يؤمر بالحنث وهو حانث حال حلفه؟ جعل الله الكفارة عن اليمين فمن كفّر فلا إثم عليه، فينبغي أن يكون هذا في قول الشافعي لا إثم عليه.

فتنزل مع الشافعي قائلاً فإذا أمرته بالحنث من اليمين الغموس فكفَّر فهل يزول بهذه الكفارة عنه إثم تأكيد الكذب باليمين فيما حلف عليه؟ إنّ الكفارة إذا حنث في اليمين المنعقدة تجعل الحالف غير آثم في نظر إسماعيل بسبب حنثه؛ لأنها تزيل أثر الحنث فلتجعل ذلك في اليمين الغموس فتزيل أثر الكذب باليمين فضلاً عن الحنث فيه، إن القول بذلك يعطي الكفارة تأثيراً لم توضع له.

لكن إلكيا لا يفطن لما يقول إسماعيل فيقول: ظن إسماعيل أن الكفارة هي التي ترفع الإثم وقد بينّا في مواضع أن التوبة هي الرافعة، وأن الكفارة تجب في قتل العمد، والزنا في رمضان، والقتل بالمثقل، وإن لم يرفع الوزر قبل التوبة بمجرد الكفارة فاعلمه، وإنما الكفارة لأجل جبر صفة الحنث الحاصلة في الأيمان.

وكلام إسماعيل ظاهر في الرد على الشافعي؛ لأن الكفارة وإن جبرت ما ترتب على الحنث فعلى الشافعي وهو يقرر الكفارة على اليمين الغموس أن يسلّم بأن الكفارة ترفع الإثم المترتب على تأكيد الكذب بهذا الحلف فضلاً عن الاستخفاف باليمين الذي ينفرد بالقول بأنه غير موجود، ولا يستطيع أن يتحلل من هذا الالتزام لأن كلامه يستلزمه حيث قال: فهذا أثم أي بالكذب وعليه الكفارة. فما الذي تفيده الكفارة إن لم تتسبب في إزالة ذلك.

أما القول بأن الرافع للإثم هو التوبة فهذا فيما لم تشرّع الكفارة لإزالة أثر الذنب فيه، أما ما وردت فيه الكفارة كاختراق حرمة الصوم أو قتل الخطأ أو الظهار فالكفارة هي التوبة المعتبرة في إزالة أثره، ولا تقوم التوبة مكانها؛ لأن ترك فعل الكفارة معصية تحتاج إلى توبة، ولا يمكن أن يترتب على التوبة من ذنب معصية تحتاج إلى توبة.

وهذه المعاصي التي شرّعت لها كفّارة معينة تختلف عن كفارة اليمين كاختراق حرمة الصوم عمداً أو القتل الخطأ أو الظهار – لا يعني تكفيرها بكفارتها الخاصة تكفير غيرها من المعاصي بهذه الكفارة، أو أن كفارتها تكفّر الحنث باليمين المنعقدة، أو أن كفارة اليمين تقوم مقام كفارتها الخاصة. من هنا كان إلكيا بعيداً عن نقطة الخلاف، وهي تأكيد الكذب بالحلف بالله عامداً هل يجوز الاستمرار عليه أو تلزم التوبة منه على الفور، وإذا حنث في هذه اليمين هل تلزمه كفارة أو أن الحنث تصحيح لجناية وقعت فلا تتناسب معه الكفارة.

وأسوأ ما قاله أن الحنث باليمين يجعل اليمين كاذبة بعد أن كانت صادقة، ويوقع في جناية تلزم بسببها الكفارة، وهو ما لا يتفق مع مقام الرسول صلى الله عليه وسلم وأمره بالحنث في اليمين المنعقدة وإيثاره لذلك، أما قوله بأن الزنا في رمضان لا ترفع الكفارة فيه الوزر، وإنما ترفعه التوبة، فخلط بين حكمين: حكم الزنا عموماً في رمضان وغيره، وحكم اختراق حرمة الشهر بما يفطر، فاختراق حرمة الشهر تكفّره الكفارة أي تزيل أثره ولا تكفّره التوبة بمجردها، والزنا بمجرده لا تؤثر الكفارة في رفع الإثم المترتب عليه بل لابد من التوبة، والخلط بينهما لا يجوز؛ لأن للكفارة مجالاً، وللتوبة مجالاً، ولا يبطل واحد منهما تأثير الآخر ولا يقوم مقامه.

إن ما ذكرناه حول هذه المسألة نموذجٌ لما بذله إسماعيل في عرض مذهب مالك، وما أقامه من الأدلة على رجحانه على ما يخالفه، وهو ما أثار بعض أصحاب الشافعي عليه، ودفعهم إلى الرد عليه والخروج في بعض هذا الرد على ما يقتضيه الإنصاف.

على أن مالكاً لم ينفرد بذلك بل وافقه أبوحنيفة رحمه الله. وبذل الجصاص جهداً هائلاً للاستدلال على رجحان هذا الرأي ومما قاله في ذلك:

١ – إن الكفارة لا تجب في اليمين على الماضي؛ لأنها غير معقودة، وإنما هو خبر عن ماض، والخبر عن الماضي ليس يعقد سواء أكان صدقاً أو كذباً.

٢ – إن القصد إلى اليمين لا يتعلق به وجوب الكفارة، وحكم إيجابها متعلق باللفظ دون القصد في الأيمان التي يتعلق به وجوب الكفارة.

٣ ـ إن قوله تعالى: ﴿واحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ معناه راعوها لكي تؤدوا الكفارة عند الحنث فيها، لأن حفظ الشيء هو مراعاته، وليس المراد احذروا الحنث فيه؛ لأنه غير منهي عنه إذا لم يكن ذلك الفعل معصية، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير، وليكفّر عن يمينه» فأمره بالحنث فيها، وكذلك الأمر المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنكُمْ والسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي القُرْبَى..﴾ حيث حنث أبوبكر في يمينه. وهذا من الجصاص يؤكد أن الحنث لا يمكن أن يكون خلاف الأولى فضلاً عن أن يكون معصية، وهو ما يؤكد خطأ إلكيا في قوله بأنه معصية وبناء رده عليه(١).

ويطول بنا المقام لو استعرضنا المسائل التي دار فيها النقاش بين إلكيا والقاضي إسماعيل، لكن تهجمه عليه يدل على أنه من مقاصد تأليفه الانتصار للشافعي وتوهين رده عليه، يقول إلكيا في مقدمة كتاب أحكام القرآن:

أردت أن أصنف في أحكام القرآن كتاباً أشرح فيه ما انتزعه الشافعي رضي الله عنه من أخذ الدلائل في غوامض المسائل... ورأيت بعض من عجز عن إدراك ممتلكاته فهمه، ولم يصل إلى أغراض معانيه سهمه، جعل عجزه عن فهم معانيه سبباً للقدح في معاليه، ولم يعلم أن الدرّ درٌّ برغم من جهله، وأن آفته من قصور فهمه وقلة علمه، وما يضر الشمس قصور الأعمى عن إدراكها، والحقائق عجز البليد عن لحاقها..

وهو تعصب مذموم في مناقشة مسائل الاختلاف، والترجيح ينطلق من أن ما يقوله صواب، وما يقال في مقابله خطأ على الدوام.

وتتابع آل حماد بن زيد بعد إسماعيل على رعاية المذهب والعناية به، وساعدهم على ذلك صلتهم بالخلفاء وتوليهم للقضاء، وارتباطهم العلمي بعلماء عصرهم في الحديث والفقه، وما أنتجته المناظرة مع فقهاء المذاهب والمؤلفات في الدفاع عن المذهب من آثار طيبة أبرزت مكانة مذهب مالك وأهميته.

---

(١) راجع أحكام القرآن للجصاص ج ٤ ص ١١٤ ـ ١١٧.

ومن أشهر هؤلاء أخوه حماد بن إسحاق، وابن عمه يوسف بن يعقوب، وابنه القاضي أبو عمر، وأخوه أبو يعلي الحسين، وابن أبي عمر، وابنا عمر يوسف والحسين.

كما كان منهم القضاة بغير العراق كمصر وغيرها.

وبالجملة فقد كان آل حماد بن زيد كما قال عياض على كثرة رجالها وشهرة أعلامها من أجل بيوت العلم بالعراق، وأرفع مراتب السؤدد في الدين والدنيا، وهم نشروا هذا المذهب هناك ـ أي بالعراق ـ، ومنهم اقتبس، فكان منهم من أئمة الفقه والمشيخة في الحديث والسنن عدة، كلّهم أجلّة ورجال سنة، قال ابن الفرغاني: لا يقدر أحد على أن يدفع أمرهم أو يقصر في حوائجهم، وكان فيهم على اتساع الدنيا لهم رجال صدق وخير، وأئمة ورع وعلم وفضل.

وممن نشر علم مالك بالعراق جعفر بن محمد الفريابي قاضي الدينور من أصحاب إسماعيل القاضي، له كتاب مناقب مالك وكتاب السنن الكبير، وأثره في خدمة الحديث مشهور[١].

ومنهم أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح الأبهري، انتهت إليه رئاسة مذهب مالك بالعراق وانتشر عنه، وكان يفتي أصحاب الشافعي وأبي حنيفة، وينقل كتب إسماعيل القاضي وما نقل عن ابن القاسم وأشهب وابن وهب، ويروي موطأ مالك وموطأ ابن وهب وغيرهما بالمسجد الجامع ببغداد، وداوم على ذلك ستين سنة فخرّج كثيراً من الأئمة، وعُرض عليه القضاء فأبى، ولما ابتعد علماء المالكية عن القضاء قل العلماء في المذهب، وابتعد الناس عنه إلى الشافعية والحنفية لحبهم أهل الرئاسة والظهور[٢].

ومن مشاهير المالكية في العراق لسان الأمة محمد بن الطيب ابن الباقلاني كان حسن الفقه، وتخرّج على الأبهري فيه وفي أصول الفقه، وكان شيخاً للقاضي عبدالوهاب وغيره من الأئمة في أقطار الأرض، له مناظرات مع المبتدعة والروم تدل على ذكائه ودقته وإمامته[٣].

---

(١) ترتيب المدارك ج ٢ ص٢٩٠.

(٢) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٤٦٢ – ٤٦٤ والديباج المذهب.

(٣) ترتيب المدارك ج ٢ ص ٥٨٩ – ٦٠١ والديباج المذهب ص ٢٥٨.

ومن كتبه الإرشاد، والمقنع في أصول الفقه، والأحكام والعلل، وشرائع الإسلام، ووصف ما يلزم ما جرت عليه الأقلام من معرفة الأحكام.

ويطول بنا المقام لو استعرضنا جهود أئمة مذهب مالك في العراق ومكانتهم الدينية والدنيوية التي كفلت للمذهب الانتشار والتأثير في المذاهب الأخرى كالشافعية والحنفية، لكن المذهب في العراق تأصل وتوسع وبرزت مكانته في مجالات الاجتهاد، وكان رائداً وموجهاً ومستفيداً بالنسبة لغيره من المذاهب، وهو وإن لم يصادف جمهوراً واسعاً ببغداد لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية، لكنه أثرى المذهب بمؤلفات وجهود ساعدت على فهم آيات القرآن وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأرجعت المنصفين من كبار علماء الشافعية والحنفية عن آراء في مذاهبهم أو ألجأتهم إلى ذكر مذهب مالك في هذه المسائل لأنه مما لا يمكن إهماله أو عدم تقديره.

والأمل معقود في نشر نفائس المؤلفات لعلماء المدرسة العراقية للتعرف على أثرها الهائل في تحديد المفاهيم الإسلامية، والتعرف على علوم القرآن والحديث وما يلزم في العقيدة والفقه.

والله ولي التوفيق.




السمات الأساسية للمدرسة المالكية بالعراق ومظاهر الالتقاء والافتراق بينها وبين المدارس المالكية الأخرى

إعداد

أ. د. محمد حسين قنديل*

* رئيس قسم الفقه المقارن في كلية الشريعة بجامعة الكويت، ولد سنة (١٩٥١م) بدسوق - مصر، حصل على الماجستير في الفقه المقارن من جامعة الأزهر عام (١٩٨٣م) وكان عنوان رسالته: «تحقيق كتاب الذخيرة - كتاب الشركة - للقرافي»، وحصل على الدكتوراه من الجامعة نفسها عام (١٩٨٥م) وكان عنوان رسالته: «نظرية الشيوع في الملك في الفقه الإسلامي». له العديد من الكتب والدراسات.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين والمبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن الحديث عن المذهب المالكي: بين ملامح مدرسته الأولى، وخصائص المدرسة العراقية، يستدعي أولاً: بيان أهمية بغداد مركزاً للحركة العلمية، ودخول المذهب المالكي إليها، وانتشاره في العراق منها، فنقول: كانت بغداد عاصمة للخلافة العباسية فترة كبيرة، وتعد من أكبر البلاد الإسلامية التي نشطت فيها الحركة العلمية بكل أنواعها وفنونها.

كما كانت مركزاً عظيماً للرحلة العلمية انطلاقاً منها، واتجاهاً إليها، لطلاب العلم والمناظرات، والبحث عن كل جديد من أنواع المعرفة.

وقد انتشر المذهب المالكي في بلاد العراق في حياة الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ على يد أصحابه وتلاميذهم، ثم تطور الانتشار شيئاً فشيئاً، حتى أصبح في كل بلد مدرسة للمذهب المالكي.

وكان لكل مدرسة خصوصياتها التي تتميز بها عن غيرها، وقد تلتقي بعض المدارس في ميزة من المميزات، وتفترق في البعض الآخر، ويمكن أن تلتقي جميع المدارس وتمتزج في مرحلة من المراحل، كما سيتضح في تفصيلات البحث.

وقد ركزت على إبراز خصائص المدرسة المالكية ببغداد، وأوضحت مواطن الالتقاء والافتراق بينها وبين المدارس المالكية الأخرى، وذلك من خلال عرض تأثير المدرسة المالكية العراقية في المدارس المالكية الأخرى وتأثرها بهم، وتفصيل ما سبق وفق الخطة التالية:

مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مطالب، وخاتمة، وقائمة بأهم المراجع.

١ ـ المقدمة: وتتضمن أهمية البحث وخطته.

٢ ـ التمهيد: وذكرت فيه لمحة تاريخية عن نشأة المدرسة المالكية في العراق.

٣ ـ المطلب الأول: في بيان السمات الأساسية للمدرسة المالكية ببغداد.

٤ – المطلب الثاني: في تأثير المدارس المالكية غير العراقية في مدرسة بغداد المالكية.

٥ – المطلب الثالث: تأثير المدرسة المالكية ببغداد في المدارس المالكية الأخرى.

٦ – الخاتمة: وتتضمن أهم نتائج البحث.

٧ – قائمة بأهم المراجع.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به طلاب العلم والمسلمين آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم آمين.

إعداد
الأستاذ الدكتور / محمد حسين قنديل
أستاذ الفقه المقارن والسياسة الشرعية
بكلية الشريعة – جامعة الكويت

التمهيد

ويتضمن لمحة تاريخية عن نشأة المدرسة المالكية في العراق.

كان للإمام مالك تلاميذ كثيرون لازموه وأخذوا عليه العلم بجميع فروعه، فرووا عنه الحديث، وتفقهوا بمذهبه، والتزموا أحواله الاجتهادية.

ولما رجعوا إلى بلدانهم حملوا معهم ثروة علمية كبيرة، حملوا موطأ الإمام، وهو كتاب جمع فيه بين السنة النبوية ونقد مروياتها، وحملوا فقهه وأقواله وأصوله، وأخذوا ينشرون كل ذلك في بلدانهم وذلك بالتدريس والإفتاء ورواية السنة، وبعضهم تولى القضاء، فانتشر بذلك المذهب المالكي في شتى بلاد العالم الإسلامي: في مصر، وإفريقية والأندلس والعراق.

ففي مصر كان ابن القاسم[١] (ت١٩١هـ)، وأشهب[٢] (ت٢٠٤هـ).

وفي إفريقية أسد بن الفرات[٣] (ت٢١٤هـ).

وفي الأندلس يحيى بن يحيى الليثي[٤] (ت٢٢٤هـ).

وفي العراق انتشر المذهب المالكي عن طريق جماعة من أصحاب مالك منهم:

١ - سليمان بن بلال[٥] (ت١٧٦هـ)، وهو أول من جلس إلى مالك عندما تحول الإمام عن مجلس ربيعة وتصدر للتدريس، وقد ولاه الرشيد قضاء بغداد.

٢ - عبد الرحمن بن مهدي[٦] (ت١٩٨هـ)، عبد الله بن مسلمة القعنبي[٧] (٢٢١هـ)، سكنا البصرة.

---

(١) انظر ترتيب المدارك: ٣/٢٤٤ وشجرة النور: ص٥٨، وطبقات الفقهاء ص١٥٠.

(٢) انظر ترتيب المدارك: ٣/٢٦٢، وشجرة النور: ص٥٩، وطبقات الفقهاء ص١٥٠.

(٣) ترتيب المدارك: ٢/٢٩١ وما بعدها، شجرة النور ص٦٢.

(٤) شجرة النور ص٦٣-٦٤.

(٥) انظر ترتيب المدارك: ٣/٣٠-٣٢، شجرة النور: ص٥٧.

(٦) انظر ترتيب المدارك: ٣/٢٠٢، شجرة النور: ص٥٨.

(٧) انظر ترتيب المدارك: ٣/١٩٨، وشجرة النور: ص٥٧.

٣ - محمد بن عمر الواقدي[١] (ت٢٠٧هـ) سكن بغداد وتولى القضاء بها للرشيد والمأمون.

فعن هؤلاء العلماء بدأ انتشار المذهب المالكي في العراق وتفقه عليهم جماعة من كبار المالكية مثل:

١ - أحمد بن المعدل بن غيلان بن الحكم[٢] تفقه على مدنيين من أصحاب مالك.

٢ - محمد بن سلمة[٣] (ت٢١٦هـ).

٣ - عبد الملك بن الماجشون[٤] (ت٢١٣هـ)، كان أعلم أصحاب مالك بالعراق.

٤ - الحارث بن مسكين المصري[٥] تفقه على كبار أصحاب مالك المصريين كابن القاسم وغيره.

٥ - أسرة ابن حماد: نسبة إلى حماد بن زيد[٦]، وأصلها من فارس تحولت إلى بغداد وكانت قريبة من الخليفة المأمون، فساعد ذلك على انتشار المذهب المالكي في العراق.

وقد وصفهم القاضي عياض بأنهم أئمة هذا المذهب وأعلامه بالعراق، وهم الذين نشروه، ومنهم اقتبس، وتقلدوا ببغداد المظالم والفتيا والقضاء والتدريس.

وأشهر علماء هذه الأسرة هو القاضي إسماعيل بن حماد[٧] (ت٢٨٢هـ)، صاحب كتاب المبسوط الذي ذاع صيته بالعراق وخارجها، وتولى القضاء ببغداد مدة تزيد على ثلاثين سنة، وكان هو المؤسس الحقيقي لمدرسة المالكية ببغداد[٨]، ثم جاء من بعده إبراهيم ابن حماد ابن إسحاق[٩] (ت٣٢٣هـ)، والقاضي أبو الفرج عمر بن محمد الليثي

(١) انظر ترتيب المدارك: ٣/ ٢١٠.

(٢) انظر ترتيب المدارك: ٤/ ٥، وطبقات الفقهاء: ص١٦٤، شجرة النور: ص٦٤.

(٣) انظر ترتيب المدارك: ٢/ ١٣١، وشجرة النور: ص٥٦، وطبقات الفقهاء ص١٤٧.

(٤) انظر ترتيب المدارك: ٣/ ١٣٦، وشجرة النور: ص٥٦، وطبقات الفقهاء، ص١٦٨.

(٥) انظر ترتيب المدارك: ٤/ ٢٦، وشجرة النور: ص٦٧، وطبقات الفقهاء: ص ١٥٤.

(٦) انظر ترتيب المدارك: ٤/ ١٥.

(٧) انظر ترتيب المدارك: ٤/ ٢٧٨، وشجرة النور: ص٦٦، وطبقات الفقهاء: ص١٦٤.

(٨) انظر: الديباج المذهب: ١/ ٢٨٢، سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٣٤٠، شذرات الذهب: ٢/ ١٧٨.

(٩) انظر ترتيب المدارك: ٤/ ٢٩٤، وشجرة النور: ص ٦٥.

البغدادي[١] (ت٣٢١هـ)، وهما من أساتذة أبي بكر الأبهري[٢] (ت٣٧٥هـ) الذي بذل كل ما في وسعه لتدريس ونشر المذهب المالكي ومواصلة الطريق الذي ابتدأه العلماء السابقون له.

وكذلك فعل ابن الجلاب[٣] (ت٣٧٨هـ)، وابن القصار[٤] (ت٣٩٨هـ)، والباقلاني[٥] (ت٤٠٣هـ)، والقاضي عبد الوهاب البغدادي[٦] (ت٤٢٢هـ)، الذي تتلمذ وأخذ المذهب عنهم، وكانوا جميعاً لهم الفضل في تثبيت وتأصيل أركان المذهب المالكي في العراق، كما ساهموا وغيرهم من علماء المالكية في الحجاز ومصر والمغرب وإفريقية والأندلس في نشر المذهب وتعزيزه بعلمهم ومؤلفاتهم حتى قيل: (لولا الشيخان والمحمدان والقاضيان لذهب المذهب المالكي، فالشيخان: ابن أبي زيد وأبو بكر الأبهري، والمحمدان: محمد بن سحنون ومحمد بن المواز، القاضيان: أبو محمد عبد الوهاب وأبو الحسن بن القصار البغداديان)[٧].

وفي بداية القرن الخامس الهجري وقع النزاع بين المذاهب الفقهية في العراق، وخاصة الشافعية الذين قويت شوكتهم عند الخليفة بواسطة رئيسهم أبي حامد الإسفراييني

---

(١) انظر ترتيب المدارك: ٥/٢٢، وشجرة النور: ص٧٩.

(٢) انظر: تاريخ بغداد: ٥/٤٦١، وترتيب المدارك: ٦/١٨٨، وشذرات الذهب ٣/٨٥، وشجرة النور: ص٩١، والنجوم الزاهرة: ٤/١٤٧، وطبقات الفقهاء: ص ١٦٧، والعبر: ٢/٣٧١.

(٣) الديباج: ص١٥٩-١٦٠.

(٤) انظر: تاريخ بغداد ١٢/١٤، طبقات الفقهاء للشيرازي ص١٧٠، سير أعلام النبلاء ١٧/١٠٧، الكامل في التاريخ ٧/٢٣٤، الديباج ص١٩٩، شجرة النور ص٩٢، النجوم الزاهرة٤ /٢١٧، العبر ٢/١٩٠، هدية العارفين ١/٦٨٤، شذرات الذهب ٣/١٤٩، تاريخ التراث العربي ٢/١٦١.

(٥) تاريخ بغداد: ٥/٣٧٩، وترتيب المدارك: ٧/٤٤، ووفيات الأعيان: ٤/٣٦٩، وشذرات الذهب ٣/١٦٨، وشجرة النور: ص٩٢.

(٦) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٨/ ٥١٥-٥٢٩، تبيين كذب المفترى ص ٢٤٩، فوات الوفيات ٢/٤١٩ - ٤٢١، مرآة الجنان ٣/٤١، شرف الطالب ص ٥٣، معالم الإيمان ٣/١٣٧ - ١٤١، حسن المحاضرة ١/٣١٤، الفكر السامي ٢/٢٠٤ - ٢٠٥، أدب الفقهاء ص ٣٥ - ٣٨، طبقات المالكية ص ٢٤١ - ٢٤٤.

(٧) انظر: ترتيب المدارك: ١/٥٣، محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ص ٢٠-٢١، الديباج المذهب: ١/٦٥-٨١.

(ت٤٠٦هـ)، واستطاعوا إزاحة المالكية من تقلد المناصب العامة[١]، واضطر القاضي عبد الوهاب لترك بغداد والارتحال إلى مصر بسبب هذا العداء من الشافعية[٢].

وبدأ المذهب المالكي يضعف في العراق، ولم يظهر بها إلا نادراً بعد أن انتقلت الريادة إلى الشافعية والحنابلة والحنفية[٣].

(١) شذرات الذهب: ٣/١٧٨، سير أعلام النبلاء: ١٧/١٩٥.

(٢) انظر: ترتيب المدارك: ٧/٢٢٢.

(٣) ترتيب المدارك: ١/٥٣، ومحاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي ص٢١.

المطلب الأول
في
السمات الأساسية للمدرسة المالكية بالعراق

تعددت المدارس التي قامت من أجل المحافظة على المذهب المالكي ونشره في ربوع العالم الإسلامي، فكانت المدرسة المدنية، والمدرسة العراقية، والمدرسة المصرية، والمدرسة القيروانية، والمدرسة الأندلسية، وكان لكل مدرسة ـ في بداية عهد الانتشار ـ خصوصياتها المتمثلة في انفراد كل مدرسة برواياتها لبعض أقوال مالك وفتاواه دون بقية المدارس، وكذلك قيام رؤساء هذه المدارس من أصحاب مالك، وكذا كبار تلاميذهم بإصدار فتاوى مخالفة لبعض أقوال مالك، والإفتاء في القضايا التي طرأت، ولم يكن عندهم لمالك قول فيها، وكانت اجتهاداتهم هذه قائمة على ما يعتقدونه متفقاً مع قواعد الاستنباط لإمام المذهب[١].

كل هذا ساعد في إيجاد خصوصيات لكل مدرسة، نفصل منها ما يخص المدرسة العراقية.

السمة الأولى:

امتاز علماء المذهب المالكي بالعراق عن غيرهم من المغاربة والمصريين بسعة الاطلاع على نتاج ومؤلفات وكتب المذاهب الأخرى، والاقتباس من طرقها وأساليبها، كما أنهم نشروا قواعد المذهب على غرار الأصوليين الأحناف والشافعية، ودرسوا المذهب المالكي دراسة مقارنة بالمذاهب الأخرى، ولهم في هذا فضل السبق والابتكار.

ويتضح هذا فيما خلفوه من تراث فقهي ممثلاً فيما تركه القاضي إسماعيل بن إسحاق (ت٢٨٢هـ) من مؤلفات متنوعة، وصفت بأنها أصول في فنونها[٢]، أي أنها مبتكرة لم يسبق إليها أحد بالتأليف في موضوعها.

---

(١) الإشراف على نكت مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب البغدادي١ / ٢٦، قارن بين نسخه وخرج أحاديثه وقدم له الحبيب بن طاهر.

(٢) ترتيب المدارك ٤ / ٢٨٢.

ومن مؤلفاته: (الموطأ)، وكتاب (المبسوط في الفقه)، وكتاب (الأموال)، و(المغازي) وكتاب (الشفاعة)، وكتاب (الأصول)، وكتاب (الاحتجاج بالقرآن)، وكتاب (الشفعة وما ورد فيها من آثار) وكتاب (أحكام القرآن) وكتبه في الردّ على أبي حنيفة والشافعي، وغير ذلك كثير.

ويظهر لنا من هذا العرض معنى الابتكار، وهو أسلوب جديد في التأليف لدى مالكية العراق يعتمد على ذكر أدلة الأحكام الفقهية في المذهب المالكي من القرآن والسنة وإعمال النظر فيها، ويعتمد على مقارنة أقوال الإمام مالك وأصحابه ونقد أدلتهم والرد عليها.

ومن أشهر كتب القاضي إسماعيل كتاب (المبسوط)، الذي جمع فيه تراث المالكية الفقهي، وفي الوقت نفسه يمثل منهج العراقيين في التأليف الفقهي ومدونتهم الفقهية التي اعتمدوها فترة من الزمان قبل أن تبرز لديهم المصنفات المؤلفة في المذهب، كمختصرات ابن عبد الحكم[١] (ت٢١٤هـ)، ومدونة سحنون[٢] (٢٤٠هـ)، ومن ثم يتحول (المبسوط) إلى واحد من أهم المراجع المعتمدة عند مالكية بغداد، ومالكية المدارس المالكية الأخرى وخاصة عندما تتفتح المدارس على بعضها ويطلع كل طرف على ما لدى الطرف الآخر من معارف وتراث فقهي، فيأخذ منه ابن أبي زيد[٣] (ت٣٨٦هـ) في كتابه (النوادر والزيادات)، ويسير على منهجه نخبة من علماء المالكية الذين جاءوا بعده.

قال القاضي عياض مبيناً منهج القاضي إسماعيل وأثره في نصرة المذهب: (وهو أول من بسط قول مالك واحتج له وأظهره بالعراق).

ثم قال مبيناً تأثيره المنهجي على من بعده من المالكية: (وصنف في الاحتجاج له والشرح له ما صار لأهل هذا المذهب مثالاً يحتذونه وطريقاً يسلكونه)[٤].

ومما سبق يتضح لنا أن منهج التأليف الذي قام بتأسيسه القاضي إسماعيل يعتمد على ما يلي:

---

(١) انظر ترتيب المدارك: ٣/٣٦٣، وشجرة النور: ص٥٩، وطبقات الفقهاء: ص١٥٦.

(٢) انظر ترتيب المدارك: ٤/٤٥، وشجرة النور: ص٦٩، وطبقات الفقهاء: ص١٦٠.

(٣) انظر ترتيب المدارك: ٦/٢١٦، شجرة النور: ص٩٦، طبقات الفقهاء ص١٦٣.

(٤) ترتيب المدارك: ٤/ ٢٨٠ - ٢٨١.

١ – مقارنة أقوال المالكية بأقوال علماء المذاهب الأخرى، ثم مناقشتها والرد عليها، وبذلك يظهر إسهامه في تأسيس وتطوير علم الخلاف[١].

٢ – بيان الأصول والقواعد التي يعتمد عليها الفقه المالكي، والاستدلال على مشروعيتها، ونجدها في أقوال القاضي إسماعيل المنشورة في كتب الأصول المالكية والتي ألفت بعد رحيله ووصلت إلينا، كما في (إحكام الفصول في أحكام الأصول) للباجي.

٣ – الاستدلال لمسائل الفقه المالكي بمختلف الأدلة النقلية والعقلية.

وتأثر بهذا المنهج والتزم به نخبة كبيرة من علماء المالكية، منهم:

– أخوه حماد بن إسحاق[٢] (ت٢٦٧هـ) الذي ألف كتباً كثيرة، منها كتاب: (الرد على الشافعي).

– وقاضي القضاة أبو عمر محمد بن يوسف[٣] (ت٢٤٣هـ)، الذي تفقه بابن عم أبيه القاضي إسماعيل بن إسحاق وشرح للناس كتبه في الحديث والفقه.

– والقاضي أبو الحسن بن المنتاب البغدادي[٤]، من أصحاب القاضي إسماعيل، وتولى قضاء المدينة المنورة، وله كتاب في مسائل الخلاف والحجة لمالك.

– وإبراهيم بن حماد[٥] (ت٣٢٣هـ) تفقه على عمه إسماعيل بن إسحاق، وألف كتاب: (اتفاق الحسن ومالك).

– ومحمد بن كبير البغدادي[٦] (ت٣٠٥هـ)، تفقه بإسماعيل القاضي، وله كتب كثيرة منها: (في أحكام القرآن)، (الرضاع)، (مسائل الخلاف).

– وقاضي القضاة أبو الحسن عمر بن يوسف[٧] (ت٣٢٨هـ)، تفقه على أبيه وكبار أصحاب عمه إسماعيل القاضي، وله كتاب: (الرد على من أنكر إجماع أهل المدينة).

(١) انظر: الإشراف على نكت مسائل الخلاف ١/ ٣٢.

(٢) انظر ترتيب المدارك: ٤/ ٢٩٤، وشجرة النور: ص٦٥.

(٣) انظر ترتيب المدارك: ٥/ ٢، وشجرة النور: ص٧٨.

(٤) انظر ترتيب المدارك: ٥/ ١، وشجرة النور: ص٧٧.

(٥) انظر ترتيب المدارك: ٥/ ١٣، وشجرة النور: ص٧٨.

(٦) انظر ترتيب المدارك: ٥/ ١٦، وشجرة النور: ص٧٨.

(٧) انظر ترتيب المدارك: ٥/ ٢٥٦، شجرة النور ص ٧٨.

- وأبو بكر بن الجهم[١] (ت٣٢٩هـ) سمع إسماعيل القاضي وتفقه معه، احتج لمذهب مالك ورد على مخالفيهم، وكان له كتب منها: (الرد على محمد بن الحسن)، (بيان السنة)، (مسائل الخلاف)، (شرح المختصر الصغير) لابن عبد الحكم.

- وأبو الفرج عمر بن محمد الليثي البغدادي[٢]: (ت٣٣١هـ) تولى القضاء، وله كتاب (الحاوي) في مذهب مالك، وكتاب (اللمع في أصول الفقه).

- وبكر بن العلاء القشيري[٣] (ت٣٣٤هـ)، وهو من أهل البصرة، وانتقل إلى مصر، تفقه على كبار أصحاب القاضي إسماعيل، ويعد من كبار فقهاء المالكية، له كتب كثيرة منها: (الأحكام)، (الرد على المزني)، (الأشربة)، (أصول الفقه)، (مسائل الخلاف)، وغير ذلك كثير.

ومن خلال العرض السابق لهذه النخبة ومؤلفاتها التي تأثروا فيها بمنهج القاضي إسماعيل، نرى أن هذا المنهج أخذ يتطور ويتعمق ويبرز تميز المسالك الذي تمتاز به المدرسة المالكية ببغداد عن غيرها من المدارس المالكية الأخرى، في دراسة المذهب والاحتجاج له.

وأدى اهتمامهم بعلم الخلاف إلى التمرس في محاورة مخالفيهم والرد عليهم، ونقض آرائهم، ومناظرتهم.

كما أن اهتمامهم بأصول وقواعد المذهب دفعهم إلى التأليف في أصول الفقه المالكي، وانتصروا للأصول التي يختلفون فيها مع غيرهم من المذاهب، وسنوضح ذلك عند الحديث عن هذا باعتباره سمة خاصة بالمدرسة العراقية.

وقد أتاح تقلد بعضهم لمنصب القضاء فرصة لتطبيق آرائهم الفقهية والاجتهاد في القضايا المستحدثة والتي لا يوجد فيها رأي لمالك وأصحابه وذلك بإعمال قواعد المذهب وأصوله، أو تخريجها على أقوال الإمام.

وقد تطور منهج التأليف ووصل إلى أقصى مداه بعد ذلك على يد الطبقة الموالية والتي سيكون أعلامها أساتذة وشيوخاً للقاضي عبد الوهاب البغدادي، والذي سيكون هو أيضاً

---

(١) انظر ترتيب المدارك: ٥/١٩، شجرة النور: ص٧٨.

(٢) انظر ترتيب المدارك: ٥/٢٢، شجرة النور: ص٧٩.

(٣) انظر ترتيب المدارك: ٥/٢٧٠، شجرة النور: ص٧٩.

متوجاً لها، ومن هؤلاء النخبة:

١ - أبو بكر محمد بن عبد الله الأبهري[١] (ت٣٧٥هـ)، انتهت إليه الرئاسة في مذهب مالك، جمع بين القراءات وعلو الإسناد في الحديث والفقه، وكان أصحاب أبي حنيفة والشافعي يحتكمون إليه إذا اختلفوا في أقوال أئمتهم، وقد ذكر أنه جلس في جامع المنصور ستين سنة يدرس الناس ويفتيهم ويعلمهم السنة النبوية المطهرة، ومن مؤلفاته: في الحديث: كتابي (العوالي)، و (الأمالي)، وفي الفقه: (شرح المختصرين الكبير والصغير) لابن عبد الحكم، ويعتبر هذا الشرح من أهم الأعمال العلمية للمالكية بالعراق، وكان مدار الفقه عندهم على مختصري ابن عبد الحكم، وكتاب (مسلك الجلالة في مسند الرسالة)، وكتاب (إجماع أهل المدينة)، و (الرد على المزني)، و (الأصول).

٢ - أبو القاسم عبيد الله بن الجلاب[٢] (ت٣٧٨هـ)، من أحفظ أصحاب الأبهري، وله كتاب في (مسائل الخلاف) وكتاب (التفريع).

٣ - القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن القصار[٣] (ت٣٩٨هـ) من كبار أصحاب الأبهري، تولى قضاء بغداد، وكان أصولياً نظاراً، له كتاب (عيون الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمصار)، وقد نال ثناء كبيراً من العلماء حتى إن بعضهم قال[٤]: (ما ترك صاحبكم لقائل ما يقول)، وقد اختصره القاضي عبد الوهاب البغدادي، وسماه: (عيون المجالس)[٥]، ويدل كتاب (عيون الأدلة) على المستوى الرفيع الذي وصل إليه علماء المالكية في ذلك الوقت في الاحتجاج لمذهبهم، سواء في الفقه أو في الأصول بإيراد الأدلة على كل آرائهم ومناقشة مختلف المذاهب الأخرى في آرائهم وأدلتهم، وما ذلك إلا لأنهم توسعوا في

---

(١) تاريخ بغداد: ٥/٤٦، وترتيب المدارك: ٦/١٨٨، وشذرات الذهب: ٣/٨٥، وشجرة النور ص٩١، والنجوم الزاهرة: ٤/١٤٧، وطبقات الفقهاء: ص١٦٧، والعبر: ٢/٣٧١.

(٢) طبقات الفقهاء: ص ١٦٨، وترتيب المدارك: ٧/٧٦، وسير أعلام النبلاء: ١٦/٣٨٣، وشجرة النور: ص٩٢.

(٣) تاريخ بغداد: ١٢/٤١ - ٤٢، وطبقات الفقهاء: ص ١٦٨، وترتيب المدارك: ٧/٧٠ وشجرة النور: ص٩٢.

(٤) ترتيب المدارك ٧/٧١.

(٥) ترتيب المدارك ٤/٦٩٢، هدية العارفين ٥/٦٣٧، معجم المؤلفين ٦/٢٢٦ - ٢٢٧.

علم الخلاف، واطلعوا على أقوال المخالفين ومداركهم، وتناولوها بالنقد والتمحيص، حتى وقفوا على مكامن الضعف فيها من وجهة نظر المالكية، وتسنى لهم بذلك الاعتراض عليها وتضعيفها.

٤ - القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني[١] (ت٤٠٣هـ)، وهو من كبار أصحاب الأبهري، وكان إمام العلماء في أصول الدين، وأصول الفقه، من شيوخ القاضي عبد الوهاب البغدادي، وله مؤلفات كثيرة ومتنوعة، في علم الكلام وعلم أصول الفقه، وعلم الجدل، ومن مؤلفاته في غير علم الكلام: (المقنع في أصول الفقه)، و (التقريب والإرشاد في أصول الفقه)، و (أمالي إجماع أهل المدينة)، و (شرح أدب الجدل) وغير ذلك كثير.

٥ - القاضي أبو محمد عبد الوهاب البغدادي العراقي المالكي[٢] ولد ببغداد سنة اثنتين وستين وثلثمائة هجرية[٣]، وتوفي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة (٤٢٢هـ)[٤]، وله كتب كثيرة في أكثر من فن، ولكنه برز وتفوق في تأليف الأصول والفقه المذهبي والخلاف، ومن مؤلفاته: كتاب (التلقين)، وكتاب (المعين)، وكتاب (شرح المدونة)، وكتاب (الممهد)، وكتاب (شرح رسالة ابن أبي زيد)، وكتاب (المعونة)، وكتاب (الإشراف على مسائل الخلاف)، وكتاب (شرح فصول الأحكام)، وكتاب (التلخيص في أصول الفقه)، وكتاب (المفاخرة) وغير ذلك كثير.

ولقد كان أحد أركان المذهب المالكي، ومن الذين أسسوا المذهب وأصلوا له، فهو أحد أئمة المالكية ومصنفيهم، وإليه انتهت رئاسة المذهب[٥]، وكان بذلك شيخ المالكية في

---

(١) تاريخ بغداد: ٥/ ٣٧٩، وترتيب المدارك: ٧/ ٤٤، ووفيات الأعيان: ٤/ ٣٦٩، وشذرات الذهب: ٣/ ١٦٨، وشجرة النور: ص٩٢.

(٢) ترتيب المدارك ٧/ ٢٢٠، تاريخ بغداد ـ للخطيب البغدادي: ١١/ ٣١، تاريخ قضاء الأندلس ص ٤٠، الذخيرة في محاسن الجزيرة ٤/ ٥١٥، العبر: ٣/ ١٤٠، شذرات الذهب: ٣/ ٢٢٣، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: ١/ ٣١٤.

(٣) انظر: شذرات الذهب: ٣/ ٢٢٣، الوفيات: ٣/ ٢٢٢.

(٤) تاريخ بغداد: ١١/ ٣٢، ترتيب المدارك: ٧/ ٢٢٦، تاريخ قضاة الأندلس ص٤٢، شجرة النور الذكية ص١٠٤، شذارت الذهب: ٣/ ٢٢٤، مرآة الجنان: ٣/ ٤١، سير أعلام النبلاء: ١٧/ ٤٢٩.

(٥) شذرات الذهب ٣/ ٢٢٣.

عصره وعالمهم[١].

وقال القاضي عياض[٢] (ت ٥٤٤هـ) ـ رحمه الله ـ عنه: (وألف في المذهب والخلاف والأصول تواليف بديعة مفيدة)[٣]، وإليه يرجع فضل انتشار المذهب المالكي في مصر ثانية ـ بعد أن درس[٤].

ويظهر مما سبق أن شيوخ القاضي عبد الوهاب كان لهم فضل كبير في منهج التاليف والابتكار في شتى أنواع الفنون.

وقد كان القاضي عبد الوهاب بحق من أوائل من ألف في فني النظائر والفروق، وفي وضع القواعد الأصولية والفقهية.

يدل على ذلك ما وصل إلينا من كتبه في شتى أنواع الفنون.

كل ما سبق يبرز تميز المدرسة المالكية في العراق. ويدل على المدى الذي وصلت إليه في الإحتجاج لآراء المذهب بالأدلة النقلية والعقلية، ومناظرة علماء المذاهب الأخرى، والرد عليهم، ونقض مؤلفاتهم، مما يدل على أن هذه الحركة بلغت ذروتها في عهد القاضي عبد الوهاب، واستمرت بعد ذلك.

السمة الثانية:

ومن السمات الأساسية أيضاً ازدهار فن القواعد الفقهية في العراق على أيدي فقهاء الأحناف والشافعية والمالكية.

ويظهر ذلك خاصة من خلال المؤلفات الكثيرة للقاضي عبد الوهاب، والتي نثرت فيها القواعد التي يدور عليها الفقه، وتندرج تحتها جميع مسائله وخاصة كتابيه: (المعونة)، و (الإشراف) وقد قام محقق كتاب المعونة بحصر القواعد الأصولية والفقهية التي أوردها القاضي عبد الوهاب فيه (١ / ٨١-٨٩).

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٢٩، فوات الوفيات ٢/ ٤١٩، النجوم الزاهرة ٤/ ٤٧٦.

(٢) العبر ٢/ ٤٦٧، الديباج ص١٦٨، شذرات الذهب ٤/ ١٣٨.

(٣) تاريخ قضاة الأندلس ص٤١.

(٤) انتصار الفقير السالك للراعي ص ٣٠٧.

ولم يعتن المغاربة والمصريون من المالكية بهذا الفن إلا بعد عصر القاضي عبد الوهاب[١].

السمة الثالثة:

تميزت المدرسة المالكية بالعراق على غيرها بانه قد تأسس على أيديهم علم أصول الفقه المالكي، فألفوا فيه، وانتصروا للأصول التي يختلفون فيها مع غيرهم من المذاهب.

وقد بدأ الاهتمام بالأصول مع بداية نشأة المذهب في المدينة، فقد كان للإمام مالك اهتمام جزئي بتدوين أصول مذهبه، ويظهر هذا من خلال بعض القواعد التي سجلها في موطئه، قال ابن العربي: (إذ بناه مالك ـ رضي الله عنه ـ على تمهيد الأصول للفروع، ونبه فيه على معظم أصول الفقه التي ترجع إليها مسائله وفروعه)[٢].

وقال الشيخ أبو زهرة[٣]: إن مالكاً لم ينص على أصوله نصاً صريحاً واضحاً متصل الأجزاء، كما فعل تلميذه الشافعي، إذ دون أصول الاستنباط التي قيد نفسه بها، ولكن مع ذلك يستطيع القارىء المتتبع باستقراء الموطأ أن يعرف أصول مالك التي كان يجتهد في دائرتها، وعلى الطرائق التي حدها له لا يعدوها).

وهذا يؤكد على أن قواعد أصول المذهب المالكي ليست كلها مستنبطة ومخرجة من فتاوى الإمام مالك، بل كانت هناك قواعد وأصول للإمام يجتهد في دائرتها، وقد دلت على ذلك أيضاً كتب أصول المذهب، منها: (المقدمة في الأصول) لأبي الوليد الباجي (ت٤٧٤هـ).

ولم يلق هذا العلم قدراً كبيراً من الاهتمام الذي يليق بقيمته وأهميته العلمية، حتى اتجه إليه علماء المدرسة المالكية ببغداد واهتموا بتأصيل الأصول وتقعيد القواعد، وقد برز هذا الاهتمام جلياً بداية من القاضي إسماعيل بن إسحاق (ت٢٨٢هـ)، الذي ألف كتاب (الأصول)، ومروراً بالشيخ الأبهري وأصحابه، وانتهاء بالقاضي عبد الوهاب، وقد سبقت الإشارة إلى المؤلفات الأصولية التي دونها علماء المالكية ببغداد، بداية من عهد القاضي إسماعيل، مما يدل على تخصصهم في هذا العلم وانشغالهم بالتدوين فيه.

---

(١) المعونة على مذهب عالم المدينة ١/ ٦٠ تحقيق: حميش عبد الحق.

(٢) القبس ١/ ٧٥.

(٣) «مالك» لأبي زهرة: ص١٦.

وأما القاضي عبد الوهاب فقد ألف كثيراً في علم أصول الفقه، وأهم مؤلفاته الأصولية هي: كتاب (الملخص)، وكتاب (الإفادة)، و (المقدمات في أصول الفقه)، و(المفاخر)، و (المروزي في الأصول).

وقد كان منهجهم في تأليف كتب الأصول قائماً على دراسة فتاوى الإمام مالك وأقواله، والبحث عن أدلتها ومصادرها التي يظن أنها استقيت منها، ثم مقارنتها وتنظيرها، ثم استخلاص قاعدة عامة يقع تقريرها بأنها أصل من أصول المذهب المعتبرة في اجتهاد الإمام.

ويفيد هذا المنهج في استكشاف القواعد الأصولية التي لم ينص عليها الإمام أو لم يشر إليها، وأما ما وجد له تصريح منه أو إشارة، فإن استنباطها عن طريق هذا التتبع والاستقراء يكون لها تأكيد على تطبيق الإمام لها، ويصحح النقل عنه بقوله بها.

ثم يقومون بالاحتجاج لكل هذه القواعد، وبيان مشروعية العمل بها، بما يقفون عليه من الأدلة النقلية والعقلية[١].

وقد كان لعلماء المالكية من المدارس غير البغدادية اهتمام بأصول الفقه كأشهب الذي كان يتكلم بأصول العلم، ويفسر ويحتج[٢]، وأصبغ ابن الفرج[٣] (ت ٢٢٥هـ)، الذي كان يتكلم في أصول الفقه، وله كتاب (الأصول)، إلا أن هذا الاهتمام كان محدوداً، ولم يتواصل، ولم يتطور.

وقد كان بين الحين والحين يظهر اهتمام وانشغال بعض العلماء بعلم الأصول والتخصص فيه، ويرجع الفضل في ذلك إلى تأثرهم بالمدرسة البغدادية واتصالهم بعلمائها وأخذهم عنهم علم الأصول، كعبد الله بن العاص السعدي القرطبي[٤] (ت ٣٣٠هـ)، الذي وصف بكونه نظاراً، له كتاب (الدلائل والإعلام على أصول الأحكام)، وكتاب (الرد على

(١) الإشراف على نكت مسائل الخلاف ١/ ٥٦.

(٢) ترتيب المدارك ٣/ ٢٦٤.

(٣) ترتيب المدارك ٤/ ٢٠.

(٤) ترتيب المدارك ٦/ ١٤٥، شجرة النور ص ٨٧ ـ ٨٨.

من أنكر على مالك ترك العمل بما رواه)، وقدم إلى بغداد وسمع من علمائها (ابن الجهم، وأبي الفرج، وأبي يعقوب الرازي).

ومما يؤكد تفوق المالكية ببغداد في علم الأصول، ما جاء أن أبا عمران الفاسي القيرواني كان إماماً في كل علم، نافذاً في علم الأصول، مقطوعاً بفضله وإمامته[١]، وأنه قال: (رحلت إلى بغداد، وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس، عند أبي الحسن القابسي، وأبي محمد الأصيلي، وكانا عالمين بالأصول، فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر الباقلاني ورأيت كلامه في الأصول والفقه، مع المؤالف والمخالف، حقرت نفسي وقلت: لا أعلم من العلم شيئاً، ورجعت عنده كالمبتدىء)[٢].

السمة الرابعة:

ومن مميزات المدرسة المالكية ببغداد على غيرها من المدارس المالكية الأخرى أن علماءها استطاعوا أن يجمعوا بين الأثر والنظر في دراسة المذهب والتأليف فيه والاحتجاج له.

وقد تأتى لهم ذلك من النبوغ في علمي الجدل والخلاف، ودخولهم ميدان المناظرة مع المذاهب الأخرى بأسلحة عقلية مستندين في ذلك إلى الأدلة النقلية[٣]، ويتضح ذلك من خلال مؤلفاتهم في (علم الخلاف)، والذي سبقت الإشارة إليه في السمة الأولى للمدرسة العراقية.

ويتأكد هذا التفوق ويبرز حينما نقارن بين منهج المدرسة المالكية ببغداد، مع غيرها من المدارس المالكية الأخرى في منهجهم الدراسي للفقه المالكي.

فغير البغداديين اهتموا بالاستدلال والتعليل، وتحليل النصوص الدينية، وتوجيهها، وإقامة الأقيسة العقلية.

وقد تحدث المقرى(ت ٧٥٨هـ) عن الطريقتين، فقال:

عن المدرسة البغدادية[٤]: (أهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس، وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس، ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح

(١) ترتيب المدارك ٧/٢٤٧.

(٢) ترتيب المدارك ٧/٤٧.

(٣) الإشراف على نكت الخلاف ١/٣٨.

(٤) أزهار الرياض ٣/٢٢، مقدمة تحقيق كتاب (الفروق الفقهية لأبي الفضل الدمشقي ص ٢٣).

الروايات، ومناقشة الألفاظ، ورأيهم القصد إلى إفراد المسائل وتحرير الدلائل، على رسم الجدليين، وأهل النظر من الأصوليين).

وقال عن المدارس المالكية الأخرى ممثلة في مدرسة القيروان، واطلق عليهم الاصطلاحيين: (أما الاصطلاح القروي، فهو البحث عن الفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الروايات، وبيان وجوه الاحتمالات و والتنبيه على مافي الكلام من اضطراب الجواب، واختلاف المقالات، مع ما أضيف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع في السماع، وافق ذلك عوامل الإعراب أو خالفها).

وقد برز بعض علماء المدارس المالكية ـ غير البغدادية ـ في الاحتجاج للمذهب ونصرته والاستدلال لمسائله ووضع المؤلفات فيه، واستعملوا الأدلة العقلية في الاحتجاج، وملكوا أساليب الجدل والمناظرة.

ويرجع الفضل في ذلك لاتصالهم ببغداد وتأثرهم بالمنهج السائد فيها:

ومن هؤلاء: الحافظ عبد الله الأصيلي الأندلسي[١] (ت ٣٩٢هـ)، الذي وصف بأنه كان عالماً بالكلام والنظر، والقيام بمذهب مالك والجدل فيه على أصول البغداديين، وله كتاب (الدلائل)، وله رحلة إلى بغداد أخذ فيها عن الأبهري (ت ٣٧٥هـ).

---

(١) ترتيب المدارك ٧/ ١٣٨، شجرة النور ص١٠٠.

المطلب الثاني
في
تأثر المدرسة المالكية العراقية بثقافة المدارس المالكية الأخرى

ظهر تأثر المدرسة المالكية العراقية بثقافة المدارس المالكية الأخرى في جانبين:

الجانب الأول:

كان أصحاب مالك علماء في الحديث ورواة له، كما كانوا فقهاء، فقد أخذوا عن إمام المذهب ما كان مختصاً به، وهو الجمع بين إمامتي الفقه والحديث، وظل هذا المنهج متواصلاً عبر طبقات فقهاء المذهب بالمدرسة البغدادية وسائر المدارس المالكية الأخرى، حتى أثمر ثمرته في القاضي عبد الوهاب ومؤلفاته، وكذلك من بعده تلاميذه.

وقد تأثر تلاميذ أصحاب مالك الذين قاموا بنشر المذهب المالكي بالعراق بالمدرسة المدنية أكثر من غيرها، لأنهم في رحلاتهم العلمية اتصلوا بأصحاب مالك بالمدينة المنورة، وأخذوا عنهم فتاواهم ورواياتهم، ورجعوا إلى بلادهم يحملون ثروة علمية مدنية لم يكونوا يعرفونها من قبل، ولم يكن أصحاب مالك الذين استوطنوا العراق أيضاً يعرفونها

ومن التلاميذ البغداديين الذين تأثروا بالمدارس الأخرى:

١- أحمد بن المعذل، تفقه على مدنيين من أصحاب مالك.

٢- الحارث بن مسكين المصري (ت ٢٥٠هـ)، تفقه على كبار أصحاب مالك المصريين كابن القاسم (ت ١٩١هـ)، وابن وهب (ت ٢٦٢هـ)، وأشهب (ت ٢٠٤هـ).

٣- يعقوب بن شيبة (ت ٢٦٢هـ) أحد أئمة المسلمين وأعلام الحديث المسندين، أخذ عن ابن المعذل، والحارث بن مسكين، واتصل بأصبغ ابن الفرج المصري (ت ٢٢٥هـ) تلميذ ابن القاسم، واشهب، وابن وهب وأخذ عنه.

وعن طريق الحارث بن مسكين المصري، ويعقوب بن شيبة اتصل البغداديون بالمدرسة المصرية، واطلعوا من خلالها على أقوال كبار أصحاب مالك فيها.

وهذا لا يعني أن فقهاء المدرسة المالكية ببغداد قطعوا الاتصال بالمدرسة المدنية، أو قل اتصالهم بها، وإنما كانوا محافظين عليه وملتزمين به.

٤- إسماعيل بن إسحاق (ت ٢٨٢هـ)، أخذ عن جماعة كبيرة من تلاميذ الأصحاب المدنيين، وهو أول من بسط قول مالك واحتج له وأظهره بالعراق كما قال القاضي عياض[١].

وله مؤلفات كثيرة ومتنوعة سبق بيانها، أهمها كتاب (المبسوط) أشهر كتبه، جمع فيه معارفه الفقهية المالكية، وهو يمثل منهج البغداديين في التأليف الفقهي، ومدونتهم الفقهية التي اعتمدوها قبل أن تبرز لديهم قيمة مختصرات ابن عبد الحكم[٢] (ت٢١٤هـ)، ومدونة سحنون[٣] (ت ٢٤٠هـ).

ومن ثم يتحول المبسوط إلى واحد من المراجع المعتمدة لدى مالكية بغداد، كما يتحول أيضاً إلى مرجع أساسي من مراجع المدارس الفقهية المالكية الأخرى، وذلك عندما تنفتح المدارس على بعضها، ويطلع علماؤها على الإنتاج العلمي لبعضهم.

وعلى يد إسماعيل القاضي تتلمذ عدد كبير من أسرة بني حماد وغيرهم، وقد سبقت الإشارة إليهم، ونذكر أهم من تأثر بتأليف المدارس المالكية الأخرى:

- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن سهل البريكاني[٤] (ت ٣١٩هـ)، الذي قام بتأصيل مسائل مختصر ابن عبد الحكم.

- وأبو بكر بن الجهم[٥] (ت ٣٢٩هـ) الذي كان له كتاب (شرح المختصر الصغير) لابن عبد الحكم.

- وأبو بكر محمد بن عبد الله الأبهري[٦] (ت ٣٧٥هـ) وله كتاب:

(شرح المخصرين الكبير والصغير) لابن عبد الحكم.

ويعتبر هذان الشرحان من أهم الأعمال العلمية للمالكية بالعراق، فقد كان مدار الفقه عندهم على مختصري ابن عبد الحكم، وكتاب (مسلك الجلالة في مسند الرسالة)،

---

(١) ترتيب المدارك ٤ / ٢٨٠.

(٢) انظر ترتيب المدارك: ٣ / ٣٦٣، وشجرة النور: ص٥٩، وطبقات الفقهاء: ص ١٥٦.

(٣) انظر ترتيب المدارك: ٤ / ٤٥، وشجرة النور: ص٦٩، وطبقات الفقهاء: ص١٦٠.

(٤) انظر ترتيب المدارك: ٥ / ١٥، وشجرة النور: ص٧٨.

(٥) انظر ترتيب المدارك: ٥ / ١٩، وشجرة النور: ص٧٨.

(٦) تاريخ بغداد: ٥ / ٤٦١، وترتيب المدارك: ٦ / ١٨٨، وشذرات الذهب: ٣ / ٨٥، وشجرة النور: ص٩١، والنجوم الزاهرة: ٤ / ١٤٧، وطبقات الفقهاء: ص ١٦٧، والعبر: ٢ / ٣٧١.

والرسالة هي لابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ)، وقد تتبع الشيخ الأبهري جميع مسائلها التي تبلغ أربعة آلاف مسألة، فرفع لفظها ومعناها إلى النبي ﷺ، أو إلى أصحابه، رضوان الله عليهم[١].

مما سبق يتضح لنا أن أول وأهم ما تأثر به البغداديون من الكتب التي دونها أعلام المدارس المالكية الأخرى هما: المختصران الكبير والصغير لعبد الله بن عبد الحكم المصري، والذي سجل فيهما ماسمعه من شيخه مالك بن أنس، ومن كبار أصحابه الذين تفقه بهم، كابن القاسم، وابن وهب، وأشهب، وانتهت إليه رئاسة المالكية بمصر، وهو من أعلم أصحاب مالك بمختلف قوله، وقد بلغت مسائل المختصر الكبير ثمانية عشر ألف مسألة، والمختصر الصغير ألف ومائتي مسألة.

قال ابن ناجي مبرزاً قيمة مختصرات ابن عبد الحكم[٢]: (إن أهل بغداد اعتنوا بمختصر ابن عبد الحكم أكثر من غيره، فهم إذا وجدوا في المسألة قولين لمن ذكر، قدموا قول ابن عبد الحكم، ولكثرة اعتناء القرويين بابن القاسم جروا على العكس).

وظل الاعتماد على روايات ابن عبد الحكم وأقواله حتى جاءت الأسدية أولاً، ثم المدونة، فأخذت مكاناً بارزاً من اهتمام البغداديين وزاحمت مختصرات ابن عبد الحكم.

ويدل على هذا قول الأبهري[٣]: (قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمسمائة مرة، والأسدية خمساً وسبعين مرة، والموطأ خمساً وأربعين مرة، وقرأت المبسوط ثلاثين مرة).

وقد أخذت المدونة بعد ذلك مكان الصدارة، وتقدمت على غيرها، وأصبحت هي الراجحة على غيرها، وكان القائم على هذا الترجيح هو القاضي عبد الوهاب البغدادي، مخالفاً بذلك ما كان عليه شيوخه، وترتب على هذا التغيير التقاء المدرسة البغدادية مع المدارس المالكية الأخرى: (المصرية، والإفريقية ،الأندلسية) في اعتماد ابن القاسم مرجعاً أساسياً لأقوال مالك، وكان دافع القاضي عبد الوهاب إلى ذلك أنه رأى انفراد ابن القاسم بمالك وطول صحبته له، وأنه لم يخلط به غيره إلا في شيء يسير، خلافاً لغيره من تلاميذ

---

(١) انظر: الرسالة الفقهية مع غرر المقالة، مقدمة المحقق أبو الأجفان وحمو ص ٤٣، الإشراف ١ / ٤٠.

(٢) شرح (التفريع) مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم ٥٨٠٨ ورقة ١٧ وجه.

(٣) ترتيب المدارك ٦ / ١٨٦.

مالك، حيث انشغلوا معه بغيره[١].

وقد وصلت بقية الدواوين والكتب إلى البغداديين مجمعة في مدونة واحدة واطلعوا عليها في عهد الشيخ الأبهري.

وقد قام بهذا العمل الكبير عبد الله بن أبي زيد القيرواني، الملقب بمالك الصغير، وقطب المذهب، وذلك في كتاب (النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات).

ويضم هذا الكتاب جميع ما دون وكتب في أقوال مالك وأقوال أصحابه وأقوال تلاميذهم إلى عهد ابن أبي زيد القيرواني ـ عدا مدونة سحنون ـ قال ابن خلدون[٢]: (جمع ابن أبي زيد جميع ما في المذهب من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب (النوادر)، فاشتمل على جميع أقوال المذهب وفروع الأمهات كلها في هذا الكتاب).

كما ذكر في النوادر أقوال معاصريه من علماء المذهب بروايته عنهم، أو بكتابتهم بها إليه، كأبي بكر الأبهري، وأبي بكر بن الجهم، وابن القرطبي[٣] (ت٣٥٥هـ) وغيرهم.

فالنوادر بحق يعتبر موسوعة في الفقه المقارن داخل المذهب المالكي حتى عصر ابن أبي زيد. ولابن أبي زيد كتب كثيرة وهامة سبقت الإشارة إليها أهمها: كتاب (مختصر المدونة)، وكتاب (الرسالة).

وقد ذاعت شهرتها، وأقبل عليها علماء المدارس المالكية بما فيهم مالكية العراق، وألحوا في طلبها، وكاتبوا مؤلفها يلتمسون منه توجيهها إليهم وإجازتهم بها.

وقد ذكر القاضي عياض أن محمد بن مجاهد وجه كتاباً إليه يطلب منه فيه أن يتفضل بإنفاذ (المختصر) و (النوادر) إليه، وإجازتهما له ولغيره من أصحابه الذين يتطلعون إلى هذين الكتابين، فرد له الشيخ ابن أبي زيد أنه سوف يوجه إليه وإلى الشيخ الأبهري الكتابين المذكورين[٤].

---

(١) ترتيب المدارك ٧/ ٢٢٢، وشجرة النور ص١٠٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٤١٦.

(٣) انظر: ترتيب المدارك ٥/ ٢٧٤، وشجرة النور ص ٨٠.

(٤) انظر: ترتيب المدارك ٦/ ١٩٧ – ١٩٨.

وقد ترجم البغداديون إعجابهم وتقديرهم لابن أبي زيد ونتاجه العلمي، وذلك بأن قام أبو بكر الأبهري إمام المالكية بالعراق بشرح كتاب الرسالة، وسمى هذا العمل بـ (مسلك الجلالة في مسند الرسالة)[١]، وأول نسخة بيعت من الرسالة ببغداد في حلقة الأبهري بعشرين ديناراً ذهباً[٢].

كما قام القاضي عبد الوهاب البغدادي بشرح (الرسالة)، ويعتبر القاضي أول من قام بشرحها بإسهاب وإطناب[٣]، وشرح أيضاً (المختصر) وسماه (الممهد في شرح مختصر أبي محمد) وكتب نصفه ولم يتمه[٤].

الجانب الثاني:

وقد ظهر تأثير المدارس المالكية في المدرسة البغدادية أيضاً حينما تكلمنا سابقاً عن الترجيح بين أقوال مالك المختلفة، وقلنا: إن الإمام مالكاً قد جمع بين إمامتي الفقه والحديث، وأن تلاميذه اختلفوا في تأثرهم بهما.

فبعضهم تأثر بالجانب الفقهي، وكان تأثره بالحديث ضعيفاً، وبعضهم تأثر بالحديث وضعف تأثره بالفقه، والبعض الآخر كان جامعاً بين التخصصين مثل إمامه.

ومن المعلوم أيضاً أن الإمام مالكاً جمع في اجتهاده في مجال السنة بين الرواية والتفقه فيها، أي بين النظر والأثر، الأمر الذي جعله يقدم العمل، وأقوال الصحابة وآثار التابعين، وربما القياس أيضاً، ويعتمد ذلك في تفسير الحديث، وبيان محامله، ويقدمه عليه[٥].

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مبيناً منهج مالك في الترجيح[٦]: (كان بعد صحة سند الأثر يعرضه على عمل علماء المدينة من الصحابة والتابعين، وعلى قواعد الشريعة وعلى القياس الجلي، فكان لا يعمل بخبر الواحد إذا خالف واحداً من هذه الثلاثة، كما قال برد حديث خيار المجلس إذا حمل على ظاهر لفظه).

---

(١) انظر: (الرسالة الفقهية مع غرر المقالة، ابو الاجفان: ص٤٣.
(٢) انظر : معالم الإيمان ٣ / ١٣٧.
(٣) ترتيب المدارك ٧ / ٢٢٢، معالم الإيمان ٣ / ١٤١.
(٤) ترتيب المدارك ٧ / ٢٢٢، شجرة النور ص ١٠٤.
(٥) كشف المغطى: ص١١.
(٦) الإشراف ١ / ٤٩.

وقد اختل هذا المنهج في فهم السنة النبوية المطهرة من قبل بعض أصحاب مالك وخاصة المدنيين، وذلك بالعمل بالحديث دون النظر إلى أقوال الصحابة والتابعين من علماء المدينة، وقواعد الشريعة والقياس الجلي كما كان يفعل إمامهم.

وكان على رأس هؤلاء عالمان جليلان عرفا بالأخوين ـ لكثرة اتفاقهما ـ وهما: عبد الملك بن الماجشون، ومطرف بن عبد الله.

وقد ظهر هذا الخلل أيضاً لدى بعض أصحاب المدارس الأخرى كابن وهب في المدرسة المصرية.

ومع هذا ظلت المدرسة المدنية تقدم منهج إمامها الإمام مالك للطبقة الثانية من رجال بقية المدارس الذين اتصلوا بها ونهلوا من علمها كعبد الملك بن حبيب صاحب كتاب (الواضحة)، وأبي زيد عبد الرحمن بن إبراهيم (ت٢٥٨هـ) من الأندلس، والذي ألف كتاب (الثمانية) وجمع فيه أجوبة شيوخه المدنيين كابن الماجشون، ومطرف، وابن كنانة ونظرائهم[١].

وحماد بن يحيى السجلماسي من القيروان، والذي قال فيه القاضي عياض[٢]: (هو أول من قدم بفقهه ابن الماجشون القيروان).

واستمر التواصل بين مدرسة بغداد ومدرسة المدينة وذلك من خلال الرحلات المستمرة والتي كان هدفها الاطلاع والتزود من فقه الإمام ومنهجه بالمدينة المنورة، ونادراً ما كانت الرحلات تتجه نحو مصر، أو القيروان، أو الأندلس.

وقد حافظت المدارس الثلاث: المصرية، والقيروانية والأندلسية، على التوازن في فهم السنة النبويةوكان السبب في ذلك ابن القاسم زعيم المدرسة المصرية، الذي أثر في المدرسة القيروانية، والأندلسية من خلال مدونة سحنون، ومن خلال رحلات علمائها إلى مصر للتفقه.

وبمرور الوقت بدأ تأثير المنهج المدني في المدرسة البغدادية يتراجع، وذلك حينما تلاقت المدارس الفقهية وتبادلوا الرحلات والمؤلفات، التي مكنتهم من استعمال منهج

---

(١) ترتيب المدارك ٤/ ٢٥٨.

(٢) ترتيب المدارك ٤/ ٩٧.

المقارنة بين أقوال الإمام والوقوف على حقيقة مذهبه ومن يمثله أحسن تمثيل، حتى انتهى الأمر إلى تقديم ابن القاسم على غيره، بتقديم المدونة على غيرها في عهد القاضي عبد الوهاب، كما سبق.

وبذلك تلاقت المدرسة العراقية بالمصرية والقيروانية، والأندلسية في العمل بمنهج واحد في ترجيح الأقوال.

المطلب الثالث
في
تأثير المدرسة البغدادية في غيرها

كانت بغداد عاصمة الخلافة العباسية مركزاً للحركة العلمية، ونشطت فيها جميع التيارات العلمية بكل أنواعها، واتخذت كل طائفة من بغداد موطناً لها؛ لتثبت من خلاله وجودها، ولتقوم فيه بالدعاية لنفسها وتعرض فيه بضاعتها وتناظر غيرها.

كما كانت بغداد مركزاً عظيماً للرحلة العلمية انطلاقاً منها، واتجاهاً إليها لطلاب العلم والمناظرات، والبحث عن كل جديد من أنواع المعرفة، وظل هذا حالها منذ تأسيسها، واستمر إلى عصر القاضي عبد الوهاب، وإلى ما بعد ذلك.

ولم يكن اتصال علماء المالكية المصريين والقرويين والأندلسيين والفاسيين ببغداد واستفادتهم منها بقدر ما استفاد منهم البغداديون.

ولم يحدث التفاعل والامتزاج وتحقق الاستفادة من الحركة العلمية النشطة ببغداد إلا حينما تكشفت الرحلات العلمية لعلماء المدارس المالكية إلى بغداد، ووقع الاتصال بعلمائها وخاصة بالشيخ الأبهري (ت٣٧٥هـ) وتلاميذه من بعده، وأهمهم القاضي عبد الوهاب البغدادي (ت٤٢٢هـ).

وأشهر من قام بنقل المنهج البغدادي إلى المدارس المالكية الأخرى هو الباجي[١] (ت٤٧٤هـ)، الذي عاد إلى الأندلس بعد رحلته إلى بغداد وتحصيله المنهج البغدادي المالكي وغير المالكي من الدراسات الشرعية عموماً والأصولية خصوصاً.

وقد مكنه تسليحه بالمنهج البغدادي من التصدي لابن حزم الظاهري ومناظرته، ودفع هجومه على المذهب المالكي ورد ما قاله بشأنه، ولولا الإمام الباجي لكان للمذهب المالكي في الأندلس شأن آخر، وقد أثنى ابن العربي على الإمام الباجي فقال[٢]: (لم يأت قبلي إلى الأندلس بمثل ما أتيت به من علم المشرق إلا أبو الوليد الباجي).

---

(١) ترتيب المدارك ٨/١٢٢.

(٢) اعلام الفكر الإسلامي ص ٥٢.

وقد اشتهرت مؤلفات المالكية ببغداد وذاع صيتها، وسعى علماء المدارس المالكية الأخرى للحصول عليها واقتنائها، ومنها كتب القاضي عبد الوهاب والتي أحدثت تغييراً في اتجاه المدرسة البغدادية حول منهج ترجيح المدونة لتلتقي مع المدارس المالكية الأخرى.

وقد وصلت مؤلفات القاضي عبد الوهاب لعلماء المدارس المالكية عن طريق تلاميذهم، أو تلاميذ تلاميذهم، وكانت لهم إجازات بهذه الكتب تتصل بأسانيدها التي تلقوا بها كتب البغداديين في فهارسهم[١]، ومن هؤلاء:

١ - عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت٥٤١هـ)، له إجازة بكتاب (التلقين) وبقية كتب القاضي عبد الوهاب ورواياته.

٢ - القاضي عياض السبتي (ت٥٤٤هـ)، يذكر في (الغنية) أنه سمع تصانيف القاضي عبد الوهاب ورواياته عن ابن عتاب عن ابن الشماخ عن مؤلفها[٢].

٣ - الشيخ أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي، له أسانيد ببعض كتب القاضي عبد الوهاب منها: كتاب (شرح الرسالة)، وكتاب (الإشراف)، وكتاب (المعونة)، وغيرها[٣].

٤ - أبو العباس أحمد الغبريني (ت٧٠٤هـ) من أهل بجاية، وأبو عبد الله محمد المجاري الأندلسي (ت٨٦٢هـ) لكل منهما سند بكتاب (التلقين)[٤].

ومما سبق يتضح لنا مدى أهمية المدرسةالمالكية ببغداد ومؤلفاتها بالنسبة للمدارس المالكية الأخرى، وأن هناك علاقة وطيدة نشأت بين أعلام المدارس المالكية، أدت في النهاية إلى ازدهار وانتشار المذهب المالكي وبقائه.

---

(١) الإشراف ١/٧٥.

(٢) الغنية ص ١٩٩- ٢٨٦.

(٣) فهرس ابن خير ص ٢٤٥ - ٢٥٦.

(٤) عنوان الدراية ص ٣١٦، برنامج المجاري ص ١٠٣.

نتائج البحث

بعد استعراض هذه الدراسة المتعلقة بخصائص المدرسة المالكية بالعراق ومظاهر الالتقاء والافتراق بينها وبين المدارس المالكية الأخرى، نستطيع أن نستخلص النتائج الآتية:

١ - كانت بغداد عاصمة الدولة العباسية عاصمة علمية، ومركزاً عظيماً للرحلات العلمية انطلاقاً منها واتجاهاً إليها، يفد إليها طلاب العلم والمناظرات، وظل هذا حالها منذ تأسيسها وحتى عصر القاضي عبد الوهاب، وإلى ما بعد ذلك.

٢ - دخل المذهب المالكي العراق في حياة الإمام مالك على يد أصحاب الإمام وتلاميذهم، ثم تحول إلى مدرسة لها خصوصيتها في نشر المذهب والدفاع عنه من خلال المؤلفات والمنهج الذي تميزت بهما على بقية المدارس.

٣ - تميز أصحاب الإمام وتلاميذهم بما كان يتميز به إمامهم، وهو الجمع بين إمامتي الفقه والحديث، وظهر ذلك في مؤلفات المالكية ومنهجهم، وظل هذا متوارثاً عبر طبقات فقهاء المذهب بالمدرسة البغدادية وغيرها مع بعض التفاوت في درجة الجمع بين الفقه والحديث، إلى أن نجده متمثلاً في القاضي عبد الوهاب ومؤلفاته.

٤ - تأثر تلاميذ الأصحاب الذين قاموا بنشر المذهب المالكي بالعراق بمنهج المدرسة المدنية، وذلك من خلال رحلاتهم العلمية إليها والالتقاء بأصحاب مالك وأخذهم عنهم أقوال مالك ورواياته للحديث، كما أخذوا عنهم فتاواهم ورواياتهم، ثم رجعوا إلى بلادهم يحملون ثروة علمية مدنية لم يكونوا يعرفونها من قبل، وظلوا محافظين عليها، وملتزمين بها.

٥ - كتاب (المبسوط) من أشهر كتب القاضي إسماعيل، وهو يمثل منهج البغداديين المتميز في التأليف الفقهي، ومدونتهم الفقهية التي ظلت مرجعاً أساسياً ومعتمداً فترة من الزمن، ثم يتحول أيضاً إلى مرجع أساسي من مراجع المدارس الفقهية المالكية الأخرى، وذلك عندما يتم تبادل النتاج العلمي بين المدارس، وتنفتح على بعضها، فيقتبس منه ابن أبي زيد، وأبو الوليد الباجي في مؤلفاتهم.

٦ - تفوق علماء المدرسة المالكية بالعراق في الجمع بين الأساليب النقلية والعقلية للاستدلال على مذهبهم، والرد على المذاهب الأخرى، وقد مكنهم من ذلك نبوغهم في علمي الجدل والخلاف.

٧ - كان تبادل الدواوين والكتب بين المدارس الفقهية المالكية يتم عن طريق الرحلات والاتصالات التي كان يقوم بها علماؤها، ويتولون خلالها التعريف بمؤلفات مدارسهم والرواية لها، والإجازة بها، الأمر الذي أدى إلى التلاقح بين المدارس وتأثير بعضها في بعض.

٨ - تلاقت المدارس المالكية وامتزجت فيما بينها، من خلال المؤلفات التي مكنتهم من مقارنة الأقوال الواردة عن إمام المذهب ورواياته، والوقوف على حقيقة مذهبه، وعلى حقيقة من يمثله أحسن تمثيل، حتى انتهى الأمر إلى تقديم المدونة برواية ابن القاسم على غيرها ـ في عهد القاضي عبد الوهاب ـ وبذلك لحقت المدرسة العراقية بالمصرية، والقيروانية، والأندلسية في العمل بمنهج واحد في ترجيح الأقوال.

٩ - تميزت المدرسة المالكية ببغداد وتفوقت في التأليف في علم أصول الفقه وتقعيد قواعده، وقد ساعدهم على ذلك البيئة الفكرية السائدة في بغداد، والتي تقوم على الرأي وإعمال العقل، والتمرس على الأقيسة بكل أنواعها، وقد برز هذا التفوق بداية من القاضي إسماعيل، ومروراً بالشيخ الأبهري وأصحابه، وانتهاء بالقاضي عبد الوهاب.

١٠ - تميزت المدرسة المالكية ببغداد أيضاً بتطبيق قواعد الأصول في الاستدلال على المسائل الفقهية وذلك ببيان الأدلة، وإقامة مداركها، وتعليل أحكامها، وقد ساروا في ذلك على منهج تأصيل الأصول واستكشافها باعتماد الاستدلال الأثري والنظر العقلي معاً.

١١ - امتاز المنهج البغدادي في الدراسات الفقهية على غيره من مناهج المدارس المالكية الأخرى في الاحتجاج للمذهب بالأدلة النقلية والعقلية، وأحسن ما يمثل المنهج البغدادي، مؤلفات القاضي عبد الوهاب.

١٢ - استطاع علماء المدرسة المالكية ببغداد أن يتفوقوا على غيرهم من علماء المدارس المالكية الأخرى في إبراز الجانب العقلي في المذهب المالكي أصولاً وفروعاً، وأنه مع كونه مذهباً يقوم على الأثر رواية ودراية، فإنه أيضاً يقوم على الرأي وإعمال العقل، ويعرف ذلك من خلال أصوله النظرية، وأن المذهب الحنفي لا يمتاز عنه في ذلك بشيء، بل إن الغلبة

للمذهب المالكي لاعتماده الأثر على أوسع نطاق.

١٣ - أثرت المدرسة المالكية ببغداد في غيرها من المدارس المالكية عن طريق الرحلات العلمية، والمؤلفات التي سعى علماء المدارس في الحصول عليها، ومنها كتب القاضي عبد الوهاب البغدادي.

وقد عمل علماء المدارس المالكية الأخرى على تطوير منهجهم، وذلك بمزج أسلوبهم مع أسلوب أهل العراق في تفريع المسائل بالفرض والتقدير، وكان هذا طبيعياً للعلاقة الوطيدة التي نشأت بين أعلام المدرسة المالكية بالعراق وبين أعلام المدارس المالكية الأخرى.

١٤ - اهتم علماء المدرسة المالكية ببغداد بشرح مؤلفات المدارس المالكية الأخرى، كالمختصرين الكبير والصغير لعبد الله بن عبد الحكم المصري، والأسدية، والمدونة، وكتاب (النوادر والزيادات)، وقام القاضي عبد الوهاب بشرح مؤلفات ابن أبي زيد القيرواني، وهذا يدل على مدى إعجاب مالكية العراق بهذه الكتب ومؤلفيها.

قائمة بأهم المراجع

١ - أعلام الفكر الإسلامي، لمحمد الفاضل بن عاشور، مكتبة النجاح، تونس.

٢ - أزهار الرياض في أخبار عياض، لأبي العباس أحمد المقري التلمساني، صندوق إحياء التراث، الرباط ١٩٧٨م.

٣ - أدب الفقهاء لعبد الله كنون، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

٤ - الإشراف على نكت مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب البغدادي (ت٤٢٢هـ) تحقيق الحبيب بن طاهر، ط: دار ابن حزم.

٥ - انتصار الفقير السالك للراعي الأندلسي (ت٨٥٣هـ) دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١: ١٩٨١م.

٦ - برنامج المجاري لمحمد المجاري الأندلسي (ت٨٦٢هـ)، تحقيق محمد أبو الأجفاف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١: ١٩٨٢م.

٧ - ترتيب المدارك وتقريب السالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض (ت٥٤٤هـ)، ط: وزارة الأوقاف بالمغرب، ط: دار مكتبة الحياة بيروت، ط: دار مكتبة الفكر، ليبيا.

٨ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ)، دار الكتاب الغربي، بيروت.

٩ - تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م. ط: جامعة الإمام محمد بن سعود ١٩٨٣م.

١٠- تبيين كذب المفتري لابن عساكر الدمشقي (ت٥٧١هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت.

١١- تاريخ قضاة الأندلس لأبي الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي، ط١: دار الكتاب المصري ١٩٤٨م، ط: المكتب التجاري، بيروت.

١٢- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١: ١٩٦٧م، دار إحياء الكتب العربية، وعيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٣- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون (ت٧٩٩هـ)، مطبعة السعادة بمصر، ط: بتحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث بالقاهرة.

١٤- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسام السنتريني (ت٥٤٢هـ) تحقيق: إحسان عباس: الدار العربية للكتاب، ليبيا، وتونس، ط١: ١٩٧٩م.

١٥- الرسالة لابن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ) تحقيق: الهادي حمو ومحمد أبو الأجفان، دار المغرب الإسلامي بيروت، ط١: ١٩٨٦م. ومعها غرر المقالة في شرح غريب الرسالة لأبي عبيد محمد بن منصور ابن حمامة المغراوي.

١٦- سير أعلام النبلاء للذهبي (ت٧٤٨هـ) تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقوسي، مؤسسة الرسالة بيروت، ط١: ١٩٨٣م.

١٧- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ)، المكتبة التجارية بيروت، دار المسير بيروت.

١٨- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية للشيخ محمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية، دار الفكر.

١٩- شرف الطالب في أسنى المطالب لأحمد بن القنفذ (ت٨٠٩هـ)، دار المغرب، الرباط.

٢٠- طبقات المالكية ـ المؤلف مجهول ـ ميكروفيلم ٨٤، بدار الكتب الوطنية بتونس.

٢١- طبقات الفقهاء للشيرازي ٠ت٤٧٦هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي بيروت.

٢٢- العبر في خبر من غبر لشمس الدين محمد الذهبي (ت٧٤٨هـ)، تحقيق: صلاح المنجد وفؤاد السيد: دار الكتب العلمية بيروت، الكويت ١٩٦١م.

٢٣- الغنية : أبو الفضل عياض بن موسى السبتي، تحقيق : محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس ١٩٧٨م.

٢٤- الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي للحجوي (ت١٣١٦هـ)، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ١٩٧٧م.

٢٥- فوات الوفيات محمد بن شاكر الكتبي (ت٧٦٤هـ)، تحقيق : إحسان عباس، دار صادر بيروت.

٢٦- القبس في شرح موطأ مالك بن أنس لأبي بكر بن العربي المعافري (ت٥٤٣هـ)، تحقيق : محمد عبد الله ولد كريم، دار الغرب الإسلامي بيروت.

٢٧- الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري (ت٦٣٠هـ)، تحقيق : عبد الوهاب النجار ط١ : ١٤٠٧هـ، دار الكتب العلمية بيروت، دار الكتاب العربي.

٢٨- كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ لمحمد الطاهر بن عاشور، الشركة الوطنية للنشر بالجزائر، والشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٥م.

٢٩- مرآة الجنان لليافعي اليمني (ت٧٦٨هـ)، ط٢ : مؤسسة الأعلمي بيروت ١٩٧٠م.

٣٠- محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي لعمر الجيدي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ١٩٨٦م.

٣١- المعونة على مذهب عالم المدينة لعبد الوهاب البغدادي (ت٤٢٢هـ)، تحقيق : حميش عبد الحق، دار الفكر.

٣٢- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، مكتبة المثنى بيروت.

٣٣- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان للدباغ (ت٦٩٦هـ)، أبو القاسم التنوخي، المطبعة الرسمية العربية ١٣٢٠هـ، المكتبة العتيقة بتونس.

٣٤- المقدمة لابن خلدون، دار الشعب بالقاهرة.

٣٥- مالك، حياته وعصره وآراؤه، الشيخ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

٣٦- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، دار الثقافة بيروت.

٣٧- النجوم الزاهرة لجمال الدين أبو المحاسن الأتابكي (ت٨٧٤هـ)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، دار الكتب العربية.

٣٨- هداية العارفين لإسماعيل باشا، استنبول ١٩٥٥م.

٣٩- الوفيات لابن قنفذ القسنطيني، تحقيق: عادل نويهض، المكتب التجاري بيروت، ط١: ١٩٧١م.

٤٠- وفيات الأعيان لابن خلكان (ت٦٨١هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت.

مناقشات وتعقيبات

د. صديق عمر يعقوب:

بدا لي حتى في هذه الجلسة الأولى أن هناك نغمة لتبعيد أو توسيع الهوة بين الفقهاء حتى الأئمة الكبار منهم، وأنا أتصور أن الأئمة الكبار أولئك لم يكونوا لو كانوا معنا ليقروا هذه النغمة في الإبعاد بينهم. لا أدري كيف تأتّى للمرحوم العلامة ابن خلدون أن يصف المالكية بأنهم ليسوا أهل نظر، وهم يقعدون لمسألة المصالح المرسلة، وهي مسألة كلها نظر، إذن مسألة تصنيف المدارس الفقهية بين أثر ونظر دون تحديد أو تعليل أو بيان فيه غبط أو غمط لحقوق هؤلاء. ثم إن هناك ملاحظة أخيرة، لا أدري لعل هذه الجلسة أو في الجلسات الأخرى تتسع الدائرة ليشمل الحديث تعليقاً، أو تأسيساً مدارس أخرى ليست هي المالكية والشافعية والحنبلية والحنفية وإنما مدارس أخرى أسسها مسلمون فقهاء قدامى والآن، المدرسة الزيدية والمدرسة الإمامية والمدرسة الإباضية، ولا بد أن يتحرك البحث خصوصاً الآن ونحن نتابع مشكلات قائمة حول هذه الموضوعات وشكراً.

الجدل الفقهي عند مالكية بغداد

إعداد

د. محمد العلمي*

* أستاذ التعليم العالي المشارك في كلية الشريعة بفاس - المغرب. حصل على الماجستير في الفقه وأصوله من جامعة محمد الخامس بالرباط سنة (١٩٩٣م) وكان عنوان رسالته: «المدرسة البغدادية للمذهب المالكي - نشأتها، أعلامها، منهجها، أثرها»، وحصل على الدكتوراه من دار الحديث الحسنية في التخصص نفسه عام (٢٠٠١م) وكان عنوان بحثه: «الخلاف العالي في المذهب المالكي - تاريخه واتجاهاته المنهجية». له العديد من البحوث والدراسات.

مقدمة

ينتمي الجدل الفقهي إلى مجال النظر الفقهي والاستدلال، وهو القسيم المقابل لمجال التفريع والتطبيق والعمل ومنذ نشأة المذهب المالكي وتاريخه المبكر تخلقت فيه مدرستان للاشتغال والدرس والتأليف:

أولاهما: مدرسة النظر الفقهي والحجة، وتقوم على خدمة جوانب تأصيلية من المذهب وذلك بدءاً من استقراء أصوله وقواعده وفروقه، إلى الذب والمحاماة عنه،ومناظرة مخالفيه، إلى الاستدلال لأحكامه وفروعه، وقد عرف لهذه المدرسة أعلام ورموز مبثوثة في الربوع التي امتد فيها مذهب مالك وانتشر.

ينزع هذا الاتجاه إلى الاحتجاج والاستدلال بمفهومه الواسع، وإلى الجدل وسيلة للنظر في مسائله والبرهان عليها، وإلى الاستقراء أداة منهجية لأحكامه وتقريراته الكلية.

وقد أفرز نمطاً متفرداً من المصنفات في المذهب،هي مصنفات القواعد والأصول والحجة وأحكام القرآن وشروح الحديث والفروق، والرد والتوسط ومسائل الخلاف.

كما حفظ لنا فيه معجم من المصطلحات ميز درسه الفقهي وأعلامه ووجوه الاجتهاد فيه، منها: (النظر –القيام بالحجة– الاجتهاد – إنكار التقليد– موافقة الأصول – كان من النقاد – ضايقه في المناظرة –أليق بالأصول..)، إضافة إلى المصطلحات والمفاهيم المعرفة في علم الجدل: (الاعتراض–المعارضة–السؤال – الجواب – التسليم– النقض– الكسر..).

والمدرسة الثانية: هي مدرسة التفريع المذهبي وتطبيق المسائل على النوازل، وهي تهتم بالعمل بالمذهب، وذلك بالنظر في المسائل والفروع المروية فيه ، وتطبيق أحكامه على الوقائع والنوازل، وقد عرف لهذه المدرسة تيار مستقل داخل المذهب في كل أمصاره وطبقاته وينزع هذا الاتجاه إلى الإعداد المنهجي لمصادر الإفتاء ومدارك الأحكام، بدءاً من

ترتيب ما روي عن مالك وأصحابه من مسائل وأجوبة وتصنيفها وتوثيقها، إلى جمع النوازل والأحكام اللاحقة، ورصد ما جرى به العمل منها ليعتمد في الفتوى والحكم.

وقد أبقى لنا تراثاً واسعاً من المصنفات ينتظمها علم النوازل والأحكام والوثائق والشروط والتوقيت والفرائض، وعدداً واسعاً من كتب المسائل المروية عن مالك، ومن الجهود المختلفة عليها.

كما حفظ لنا فيه معجماً من المصطلحات الخاصة بتقويم الاشتغال الفقهي فيه ووصف أئمته وأعلامه وقضاياه المنهجية، مثل قولهم: (عليه العمل– به القضاء–كان أعلمهم بالوثائق وعللها – أبصرهم بقول مالك وابن القاسم– إليه انتهى علم الأقضية..)، ويستند في اشتغاله إلى جملة من المصطلحات والمفاهيم الأصولية المتفرعة من المصلحة المرسلة، والعرف والعمل والقياس: (التخريج–الإجراء–التوجيه – الاستقراء–مراعاة الخلاف – الخلاف في حال..)

وهذان المنهجان داخل المذهب لم يكونا منفصلين بل إن عدداً من المالكية برعوا في الاتجاهين واشتهروا بالطريقين، إلا أن المدرسة الحجة في اتجاه النظر لدى المالكية، هي مدرستهم العراقية، والمدرسة المرجوع إليها أكثر في الاتجاه التفريعي العملي هي مدرسة الأندلس، والتي ورثتها مدرسة المغرب الأقصى منذ عهد المرينيين، وبين المدرستين تقع مدرسة القيروان ومدرسة مصر.

وسبب وجود هذين المصرين: العراق والأندلس ، في الطرفين فيما يتعلق بخصائص الاشتغال الفقهي يعود قدر كبير منه إلى البيئة ، فالعراق في تاريخ الإسلام معدن العلم ومناخ الفنون ومحط ركاب العلماء من كل الأرجاء في كل المعارف ، وفي مثل هذا المعنى يقول عبد الله بن المقفع (ت ١٤٥): «إن في أهل العراق ..من الفقه .. والألباب والسنة

شيئاً لا يكاد يشك انه ليس في جميع من سواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه»[١] ، مما كان السبب في استفراد العراق بأهل النظر الألمعيين في كل العلوم ولكل المذاهب واتجاهات الرأي كما معروف ، مما ألمع إليه أبو بكر الخطيب البغدادي (ت٤٦٣) في تاريخ بغداد في "باب المحفوظ من مناقب بغداد وفضلها وذكر المأثور من أخلاق أهلها"[٢] .

في حين يعلل تبريز علماء الأندلس في فنون النظر التطبيقي والتفريع في المذهب المالكي والاهتمام به دون سواه والاقتصار عليه وعدم الخروج عليه إلى غيره من المذاهب[٣] ببيئتها وتاريخها الذي سمح بتفردها بهذا النمط، كما يحكيه ابن العربي في العواصم حيث يقول :"وكان سبب ذلك أن الفتن لما ضربت رواقها، و تقاتلت العباسية والأموية، وبعدت أقطار الإسلام...نفذ إلى هذه البلاد بعض الأموية فالفى هاهنا عصبية فثاروا بها... وقال: أحمى السنة فلا فقه إلا فقه أهل المدينة، ولا قراءة إلا قراءتهم، ولم يمكنهم من النظر

---

(١) رسالة الصحابة ص : ٧ .

(٢) تاريخ بغداد (١/٤٤) .

(٣) ما خالف فيه الاندلسيون مالكا وابن القاسم محصور عند علماء المذهب ، قال ابن هشام في المفيد للحكام فيما يعرض لهم من نوازل الحكام: "خالف اهل الاندلس مذهب مالك رحمه الله في أربع مسائل وهي: الا يحكموا بالخلطة ولا بالشاهد واليمين و أجازوا كراء الأرض بالجزء مما يخرج منها ، وهو مذهب الليث بن سعد،و أجازوا غرس الشجر في المساجد وهو مذهب الاوزاعي . وخالفوا مذهب ابن القاسم في ثمان عشرة مسالة وهي مراعاة الكفاءة في النكاح في المال والحال ، وان ما إلتزمته نفسها في الخلع من نفقة ابنها بعد لم يول عليه ، قاله مالك وهو دليل قوله في كتاب المديان ، فيمن ابتاع منه أو باع فهو مردود ، و أجازوا التفاضل في المزارعة إذا سلم المتزارعان من كراء الأرض بالطعام أو ببعض ما يخرج منها قاله عيسى بن دينار، ولا تنعقد المزارعة إلا بالشروع في العمل قاله ابن كنانة ، ولم يجيزوا القسمة حتى يصير لكل واحد من الشركاء من البيوت ما ينتفع به ويستتر فيه عن صاحبه ، و أوجبوا الشفعة فيما لا ينقسم ، قاله مالك و أوجبوها في الأموال الموظفة ، ولم يجيزوا الحميل بالحق إلا بشاهدين، قاله سحنون ، أوجبوا الحميل على من لا تعرف عينه لتشهد البينة على عينه وان عجز عنه وكانت البينة غائبة سجن، قاله أشهب ، ومنها الشيء المستحق يدخل في ضمان المستحق منه وتكون له الغلة ويجب توقيفه وقفا يحال بينه وبينه ، قاله =

والتخيير في مقتضى الأدلة متى خرج عن رأي المدينة..."[١].

والذي يهمنا من هذا التقديم أن نضع موضوع الجدل الفقهي عند مالكية العراق ضمن اتجاهه العام وسمته الكلية، ونحن نجمع عناصره وأطرافه في هذه الورقة من زاويتين، الأولى: الدلائل والعوامل،والثانية :الدرس الجدلي لدى علمائهم.

١-الدلائل والعوامل:

«أ» الدلائل:

لا يبذل الباحث كبير عناء إذا أراد الوقوف على المؤشرات التي تجعلنا نحكم على مالكية العراق بتفردهم بالجدل المذهبي وبفنون النظر الفقهي دون الفقه التطبيقي الذي عرف بالغرب الإسلامي بشكل أكثر وضوحاً.

فمشاركة العراقيين في التصنيف في فنون النظر الفقهي (وهي أحكام القرآن والحديث والأصول والفروق والجموع ومسائل الخلاف والحجة والرد على المذاهب الأخرى) أكثر من مشاركة الأندلسيين والقرويين والمصريين.

كما أن تصنيفاتهم في فنون الفقه التطبيقي كالنوازل والأحكام والوثائق والشروط والتوقيت والفرائض، هي أقل بكثير مما صنفه أعلام الغرب الإسلامي.

= أشهب ، ومنها الشيء المستحق يدخل في ضمان المستحق منه وتكون له الغلة ويجب توقيفه وقفا يحال بينه وبينه إذا ثبت بشاهدين ولم يجيزوا الشهادة على خط الشاهد إلا في الاحباس المعقبة قاله مالك في الموطأ وقاله الغير في المدونة ، و أوجبوا القسامة مع شهادة غير العدول من اللفيف ، ولم يجيزوا الشهادة على خط الشهادة إلا في الأحباس المعقبة الموقوفة إذا اقترن بها السماع الفاشي ، ومنعوا من النظر لأولاد محجورة إلا بتقديم مستانف و أوجبوا على الحالف إذا وجبت عليه اليمين أن يحلف قائما متوجه القبلة قاله ابن الماجشون المفيد لابن هشام تحقيق د: عبد القادر بوجلخة ، نسخة وجدة ص: ٧٢٩

(١) العواصم من القواصم ص: ٣٦٥

إضافة إلى هذا تفرد العراقيون باستقراء أصول المذهب وقواعده ولم ينافسهم في هذا من غيرهم إلا من تأثر بهم أو سلك منهجهم واعتبر امتداداً لمدرستهم كالباجي والطرطوشي والمازري وابن العربي.

أولاً: بيان أن العراقيين المالكية صنفوا أكثر من غيرهم في فنون النظر الفقهي:

نكتفي حرصاً على الاختصار بمقارنات من خلال ثلاثة من فنون النظر الفقهي:

أ-التأليف في أصول الفقه:

بالنسبة لأصول الفقه كان لمالكية العراق قصب السبق في تأصيل أصول المذهب والتأليف فيها، وتكفي الإشارة إلى أن الإمام الباجي (ت ٤٧٤) الذي يعد كتابه عمدة في أصول الفقه المالكي، اتكأ على البغداديين كإسماعيل القاضي (ت٢٨٢) وابن المنتاب وابن بكير وابن الجهم (ت٣٣٠) وأبي تمام والأبهري (ت ٣٧٥) وابن خويز منداد والباقلاني (ت ٤٠٣) والقاضي عبد الوهاب (ت ٤٢٢).

لقد كان علم أصول الفقه في مذهب مالك (بين القرنين الثالث والخامس) صناعة عراقية، أما عند المغاربة فقد كان أصول الفقه عندهم متوسط الحال، كما يقول المقري في نفح الطيب، أو كما قال ابن رشد الحفيد في فصل المقال: علم الأصول يروج في جميع البلدان ما عدا المغرب، وما ذكر المرحوم عمر الجيدي من تاليف يحي بن عمر الأندلسي (ت ٢٨٩) لكتاب في الأصول فذلك منه محض وهم، فإن المقصود بكتابه في الأصول ما ذكره ابن الحارث في أخبار علماء إفريقية أنه جملة "أوضاع .... على أصول السنن على معاني الأثر وما أتى فيها من أخبار، ككتاب الصراط وكتاب الميزان وكتاب النظر إلى الله تبارك وتعالى يوم القيامة"[1].

(١) أخبار علماء إفريقية ص: ١٨٦

لقد ألف البغداديون أزيد من عشرين مؤلفاً في أصول الفقه[١] ، جلها معتمد عند النظار وخاصة ما الف ابن خويز منداد والقاضي عبد الوهاب.

وما استقرءوه من أصول عن مالك عليه المعول والاعتماد ، ويكفي هنا الإشارة إلى أن ما حرره البغدادي أبو الحسن ابن القصار (ت ٣٩٨) في مقدمته في أصول الفقه من مسائل الاجتهاد والتقليد وما يجوز فيه التقليد(الصور الأربعة عشرة التي يجوز فيها التقليد مما استقرئ من أقوال مالك ورواياته) هو العمدة لدى اللاحقين، كما يلاحظ في كتاب الباجي وكتاب القرافي شرح تنقيح الفصول.

كما لا يمكن تجاوز تحرير البغداديين الأصولي الدقيق، لمسالة عمل أهل المدينة وإجماعهم حيث ميزوا بين ما هو مظنة نقل وتوقيف، فجعلوه حجة تنزيلاً له منزلة الخبر المتواتر ، وما كان مظنة اجتهاد فلم يجعلوه حجة، ولذلك فإنك تجد المسالة عند ابن القصار مبوبة في كتاب الأخبار، خلاف صنيع عدد من المصنفين الشافعية في الأصول الذين أدرجوها في مباحث الإجماع ، قصد التعريض بالمذهب والتاليب عليه ونسبة ما لا يقوله إليه حسب عبارة عياض[٢] .

تحرير البغداديين لعمل أهل المدينة هو المعتمد عند المالكية اللاحقين، ولم يعتمد ما ذهب إليه بعض المغاربة من اعتبار العمل حجة دون تفصيل ، وإياه امتدح ابن تيميه في رسالته في صحة أصول أهل المدينة ، حيث عقب على الرأي الضعيف عند المالكية بقوله : "ولعله يعده حجة بعض أهل المغرب وليس لهم عن الأئمة دليل إنما هم

---

(١) مؤلفاتهم في أصول الفقه

(٢) المدارك ١ /٤٧ جمهور المصنفين الشافعية في اصول الفقه بوبوا لإجماع اهل المدينة في أبواب الإجماع منهم الشيرازي في التبصرة ١ /٣٦٥ والآمدي في المسالة العاشرة من مسائل الإجماع ١ /٣٠٢ و الغزالي في المستصفى ١ / ١٤٧ و الرازي في المحصول المسالة الرابعة من مسائل الإجماع.

أهل تقليد"[١].

ب - التأليف في الفروق :

كان مالكية العراق أول من ألف في المذهب في الفروق، حيث ألف أبو العلاء الحسن ابن محمد بن العباس البغدادي من طبقة الأبهري كتاب" البروق في الفروق"[٢]، ذكر عياض أنه اطلع عليه[٣]، كما كانوا أكثرهم تاليفا فيها، إذ يوجد للمالكية بين مالك وعبد الحق الصقلي (ت ٤٦٦) سبعة كتب في الفروق، ألف منها القرويون اثنين، وألف البغداديون خمسة كتب، وكان درسهم الفقهي منذ القاضي إسماعيل متناولاً لفروق المذهب ونظائره[٤].

جـ - التصنيف في أحكام القرآن :

بالرغم من أن البغداديين لم يتميزوا على صعيد العدد في هذا الباب فإن مصنفاتهم اعتبرت أجود ما ألف في الأحكام لدى المالكية.

لقد ألف المالكية قبل القاضي أبى بكر بن العربي اثني عشر كتابا في أحكام القرآن[٥]، منها كتابان للقرويين، و أربعة كتب للأندلسيين، وكتابان للمصريين، و ألف العراقيون أربعة كتب، هي أجود ما ألف في المذهب، و أكثرها اعتماداً، وفي هذا المعنى يقول ابن العربي عن كتاب القاضي إسماعيل:

"وأعظم من انتقى منه الطبري بصيرة القاضي أبو إسحاق فاستخرج دررها واستحلب

---

(١) رسالة في صحة أصول أهل المدينة (ص ٤٤).

(٢) شجرة النور (ص ١٠٤).

(٣) المدارك (٧/ ٢٢٧).

(٤) انظر أمثلة لذلك في التمهيد لابن عبد البر (١٧/ ٢٤١- ١٦/ ٨١ - ٢٤/ ١٩) .

(٥) مؤلفات أحكام القران التي ألف المالكية هي.

دررها وإن كان غير أسانيدها لقد ربط معاقدها، فلم يأت بعدهما من يلحق بهما"[١]، كما يقول الذهبي عن أحكام تلميذه البغدادي محمد بن أحمد بن بكير (ت ٣٠٥) ومؤلفه في الأحكام نفيس"[٢] وبكتاب أحكام القاضي بكر بن العلاء القشيري (ت ٣٤٤) وشيخه إسماعيل أوصى ابن أبى زيد القيرواني بعض طلبته الراحلين إلى العراق أن يأخذ للتحقق بالنظر والرد على المخالفين حيث يقول : وإن كان لك رغبة في الرد على المخالفين من أهل العراق والشافعي فكتاب .. الأحكام لإسماعيل القاضي، وإلا اكتفيت باختصارها لبكر ابن العلاء[٣] .

وسنأتي إلى تفرد البغداديين المالكية في مسائل الخلاف والحجة والرد على مذاهب الرأي الأخرى.

ثانياً : دلائل تبريز الأندلسيين في فنون الفقه التطبيقي دون العراقيين:

ونكتفي من قواطع الأدلة على تبريز الأندلسيين في فنون الفقه التطبيقي دون العراقيين بثلاثة أمثلة:

أولاً: ان المالكية ألفوا من كتب النوازل والأحكام وأصول الأقضية والفتيا، أزيد من أربعين مؤلفاً منذ مالك إلى أبي الوليد بن هشام الازدي (ت ٦٠٦)[٤] أغلبها لمالكية الأندلس ثم إفريقية ومصر، أما العراقيون فلا يوجد لهم أي مؤلف فيها، والنسخ المنسوبة للقاضي عبد الوهاب من كتاب الأحكام في كل من الخزانة العامة

---

(١) الأحكام الصغرى (١ / ٢٨).

(٢) سير إعلام النبلاء (١٥/ ٥٣٨).

(٣) لوحة (١٠٣) من كتاب الذب عن مذهب مالك لابن ابي زيد مخطوط مكتبة سستر بيتي بأيرلندة رقم (١٤٧٥).

(٤) حقق بجامعة محمد الاول بوجدة بالغرب من طرف الباحث عبد القادر بو جلخة ، وسنقوم بمناقشتها بمعية الزميل د/ ادريس السفياني قريبا.

بالرباط[١] وخزانة القرويين[٢] إنما هي في الحقيقة نسخ لكتاب فصول الأحكام لأبي الوليد الباجي.

ثانياً: ألف المالكية بين مالك وأبي الحسن الغساني (ت ٦٠٩) حوالي أربعين كتاباً في الوثائق والشروط، كلها لمالكية الأندلس باستثناء أربعة[٣]، في حين لم يؤلف العراقيون أي مؤلف فيها.

ثالثاً: ألف المالكية في التوقيت والمناسك والفرائض حوالي أربعين كتابا إلى حدود القرن السادس الهجري، لم يشارك فيها العراقيون إلا بمؤلفين أحدهما: الفرائض للقاضي إسماعيل، والثاني مناسك أبي ذر عبد بن أحمد الهروي.

بيان ما تفرد به العراقيون في خدمة أمهات المذهب:

وتبقى هنا مقارنة لها ما وراءها من دلالات ألا وهو الاختلاف الموجود بين العراقيين والمغاربة في خدمة أمهات المذهب.

لقد اهتم المالكية بالمدونة اهتماماً لا يفوقه إلا اهتمامهم بالموطأ، وان كان عملهم بالمدونة هو العمدة كما هو معروف، حيث ظلت محور الدرس الفقهي وعنوان الانتماء المالكي عبر الأمصار.

لذلك أكثروا حولها الشروح والمختصرات، حيث ألفوا بين سحنون وابن عات النفزي (ت ٥٨٢) حوالي ستين شرحاً وتعليقاً واختصاراً[٤] على المدونة، ثلثاها من تاليف

---

(١) نسخة ضمن مجموع تحت عدد ١٠٢٤ واخرى ضمن مجموع تحت عدد ٣٢١٩ بالخزانة العامة بالرباط.

(٢) نسخة بالقرويين تحت عدد ٣٨٢.

(٣) وهي الشروط لمحمد بن عبد الحكم المصري والاشراط لابن شعبان والمحاضر لمحمد بن حارث الخشني والوثائق لأحمد بن زياد الفارسي (ت ٣١٩).

(٤) أهم مختصرات المدونة: اختصار المدونة حمديس بن ابراهيم بن ابي محرز اللخمي (ت ٢٩٩) =

....

= واختصارها لإبراهيم بن يحي بن برون الطليطلي، واختصارها لإبراهيم بن عنجس بن اسباط الزيادي الوشقي(ت ٢٧٣) واختصارها لابي عبد الله محمد بن احمد الجبلي(ت ٣١٠) ومختصر فضل بن سلمة ابن حريز ابي سلمة الجهني البجاني (ت ٣١٩) واختصار المدونة لمحمد بن رياح بن صاعد الاموي الطليطلي(ت ٣٥٨) واختصارها لمحمد بن اسحاق بن السليم(ت ٣٦٧) واختصارها لابن الطحان اسماعيل بن اسحاق بن ابراهيم القيسي (ت ٣٨٤) .

ومختصر المدونة لابن ابي زيد القيرواني (٣٠٧-٣٨٦) وعليه: الممهد للقاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي (ت٤٢٢) ، ومختصر بن ابي زيد على الولاء ، وزوائد مختصر ابن ابي زيد لمحمد بن الفرج مولى ابن الطلاع، واختصار كتاب محمد ابن ابي زيد على المدونة لاحمد بن ابي جعفر الزهري الاشيري (ت٤٣٥)، وشرح المختصر لعبد الله بن اسماعيل ابو محمد الاشبيلي (ت٤٩٧).

واختصار المدونة لعبد الله بن فرج الطوطالقي ابي مروان(ت ٣٨٦) والمقرب لمحمد بن عبد الله بن ابي زمنين المري، وعليه تاليف المقرب على الولاء لابي اسحاق ابراهيم بن جعفر اللواني بهذا المختصر.

مختصر المدونة لإبراهيم بن شنظير (ت٤٠٢) ، والتهذيب للبراذعي خلف بن ابي القاسم (ت٣٩٨) وعليه التذهيب على التهذيب لابن بشير ابو الطاهر ابراهيم بن عبد الصمد(ت بعد ٥٢٦) ، والعوفية شرح التهذيب لنفيس الدين العوفي، والمسائل المجموعة على كتاب البراذعي لسليمان بن عبد الواحد ابي الربيع الهمذاني الغرناطي (ت٥٩٩).

الملخص مختصر المدونة للبيدي ، واختصار المدونة لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي الشهير (ت٤٧٤)، ومختصر المختصر من مسائل المدونة للباجي ، ومختصر على المدونة لأبي مروان عبيد الله بن محمد الفرضي الشهير بابن مالك، اختصار المدونة لمار بن مسلم ابي حفص اللخمي، اما الشروح والتعليقات والاوضاع على المدونة فأشهرها: شرح محمد بن ابراهيم بن عبدوس ، والمنتخبة لمحمد بن يحي ابن لبابة الشهير بالبرجون(ت ٣٣٦) كتاب المستوعب لزيادات المبسوط لما ليس في المدونة لعبد الرحمن ابن محمد بن رشيق ابو القاسم القيرواني (ت ٣٨٠).

النوادر لابن ابي زيد القيرواني (٣٠٧- ٣٨٦) واختصار النوادر والزيادات لأبي عبدالله محمد بن يوسف بن الفخار المعروف بابن بشكوال (ت٤١٩) تمهيد مسائل المدونة للبرادعي، وعليه ترتيب ابن فرجوج للتمهيد للبرادعي على نسق المدونة .

تعليقة على المدونة لأبي عمران موسى بن عيسى الغفجومي الفاسي (ت ٤٣٠) وتعليقة على المدونة لعبد المنعم بن محمد ابي الطيب الكندي(ت٤٣٥) شرح مسائل المدونة وبسطها والتفريع عليها وزيادةالامهات ونوادر الروايات لأبي القاسم عبد الرحمن بن محمد اللبيدي (ت٤٤٠). =

الاندلسيين، يليهم في العدد القرويون الذين اعتبرت كتبهم أجود تأليفاً وأغزر علماً وأكثر اعتماداً[(١)] ، في حين لم يؤلف العراقيون أي شرح أو اختصار أو تعليق على المدونة ،

= تعليق ابي اسحاق ابراهيم بن اسحاق التونسي (ت ٤٤٣) وعليها الرد على تعليقة التونسي لابن الحكار، واكمال تعليق التونسي على المدونة لأبي عبد الله ابن بلال القروي(ت٤٨٦) والاستلحاق لكتاب الشيخ ابي اسحاق لابي محمد بن الصائغ عبد الحميد بن محمد القروي (ت ٤٨٦) واكمال تعليق التونسي على المدونة لأبي عبد الله محمد بن سعدون(ت ٤٨٦).

التقريب شرح المدونة لأبي القاسم خلف بن بهلول البربلي البلنسي (ت ٤٤٤) وتعليقة على المدونة لعثمان بن مالك (ت ٤٤٤) ، والتبصرة تعليق على المدونة لأبي القاسم عبد الرحمن بن محرز (ت ٤٥٠) والجامع لمسائل المدونة والمختلطة وزياداتها ونظائرها وشرح ما اشكل منها وتوجيهه والفرق بينه وبين ما شاكله ، مجموع بالاختصار واسقاط التكرار واسناد الاثار من امهات الدواوين للائمة المالكية" لأبي بكر محمد بن عبد الله بن يونس الصقلي(ت ٤٥١)، وتعليق على المدونة لأبي القاسم عبد الخالق بن عبد الوارث السيوري القيرواني (ت ٤٦٠) والنكت والفروق على مسائل المدونة وكتاب تهذيب الطالب وجزء في بسط الفاظ المدونة لعبد الحق بن محمد بن هارون الصقلي (ت ٤٦٦) شرح المدونة لابن الحكار عمر بن عبد النور ابي حفص ، والتبصرة لأبي الحسن اللخمي (ت ٤٧٨) والتعليقة على المدونة لأبي عبد الله المازري الشهير بالذكي ، وشرح المدونة لأبي الوليد الباجي ، وشرح على المدونة لعبد الله بن اسماعيل بن خزرج الاشبيلي (ت ٤٧٨) وشرح المدونة لأبن العاصي محمد بن خلف بن سعيد التميمي ، وتعليقة على المدونة لمحمد بن خلف المري المعروف بابن المرابط(ت ٤٨٥) وشرح المدونة لعبد الله بن اسماعيل الاشبيلي ابي محمد(ت ٤٩٧) كتاب المقدمات الممهدات لما في رسوم المدونة من احكام لأبي الوليد بن رشد الجد (ت٥٢٠) وجامع الامهات على المدونة لابن بشير ابراهيم بن عبد الصمد ابي الطاهر(ت بعد ٥٢٦) والتعليقة على المدونة لأبي عبد الله محمد بن علي المارزي (ت ٥٣٦) والطراز شرح المدونة سند بن عنان ابي على المصري (ت ٥٤١) ووضع على المدونة لأبي القاسم بن ورد، والتنبيهات على مشكل المدونة للقاضي عياض بن موسى اليحصبي(ت ٥٤٤) ، والجامع البسيط وبغية الطالب النشيط شرح المدونة لعاشر بن محمد بن خلف الانصاري ابي محمد الاندلسي (ت ٥٦٧) وتنبيهات على المدونة لهارون بن احمد بن جعفر بن عات النفزي ابو محمد (ت ٥٨٢).

(١) ولذلك فان الاندلسيين بالرغم من كثرة تاليفهم في خدمة المدونة فإن المنهج المعروف بالغرب الاسلامي في تدريسها هو ما هو عرف بالمصطلح القروي المقابل للاصطلاح العراقي والذي يقوم على التحقيق والتصحيح للمتن المروي عن مالك مقابل المصطلح العراقي القائم على القياس وتحرير المسائل على رسم النظار من اهل الجدل.

سوى شروع القاضي عبد الوهاب في شرح لم يكمله ، وشرح لمختصر الشيخ ابي محمد بن أبي زيد المعروف بالممهد[١] الذي عمل فيه نحو نصفه.

وهذا لا يعني أن العراقيين لم يكن لهم احتفال بالمدونة بل كانت لديهم مرجحة ومقدمة في الرواية لصحتها ووثوقها[٢] ، وإنما تفردوا بمنهج تدريسهم لها والقائم على الحجة والنظروالاعتلال للمذهب ، وهو ما عرف عندهم بالاصطلاح العراقي في تدريسها[٣] .

لكن العراقيين على صعيد التأليف والخدمة اهتموا أكثر من غيرهم بمختصرات عبد الله بن عبد الحكم المصري(ت ٢١٤)، وقد ذكر ابن عبد البر في الانتقاء أن على مختصراته" يعول البغداديون المالكية في المدارسة"[٤] ، كما ذكر ابن ناجي في شرح التفريع أن "أهل بغداد قد اعتنوا بمختصر ابن عبد الحكم أكثر من غيره"[٥] .

لذلك خدمه مالكية العراق وأكثروا عليه الشروح والتعليقات.

ولكن الذي لا بد من الإشارة إليه هنا أن العراقيين إنما اهتموا بمختصر ابن عبد الحكم لسببين يتعلقان بالنظر الفقهي : أولهما : تفرد مختصرات عبد الله بن عبد الحكم الثلاثة

---

(١) مخطوط بالازهر تحت عدد ٣٠١٠ رواق المغاربة.

(٢) قال القاضي عياض: " رجح القاضي ابو محمد عبد الوهاب البغدادي مسائل المدونة لرواية سحنون لها عن ابن القاسم لانفراد ابن القاسم بمالك وطول صحبته" ترتيب المدارك ٣ / ٢٤٦

(٣) قال المقري: "وقد كان للقدماء رضي الله عنهم في تدريس المدونة اصطلاحان – اصطلاح عراقي – واصطلاح قروي ، فاهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس وبنوا عليها فصول المذهب بالادلة والقياس ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات ومناقشة الالفاظ ودابهم القصد الى افارد المسائل وتحرير الدلائل على رسم الجدليين واهل النظر من الاصوليين..." ازهار الرياض في اخبار عياض (٣/ ٢٢).

(٤) الانتقاء (ص ٩٩) .

(٥) عن مقدمة شرح التفريع لابن سالم الدهماني.

(الصغير والاوسط والكبير) بأن أولى الجهود العلمية حولها اهتمت بخدمتها من جانب الخلاف العالي حيث زاد محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٦٨) في المختصر الصغير "خلاف أبي حنيفة والشافعي" وزاد فيه أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم البرقي (ت٢٤٩) قول سفيان وإسحاق والأوزاعي والنخعي"[١] .

والسبب الثاني : أن مختصر عبد الله بن عبد الحكم الكبير أخضع لتمحيص منهجي دقيق ونقد علمي صارم من طرف المالكي البغدادي أبي عبد الله البركاني (ت ٣٠٩)، الذي قال : "عرضت مختصر ابن عبد الحكم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يعني مسائله فوجدت لكلها أصلا إلا اثنتي عشرة مسألة فلم أجد لها أصلا، وعدد مسائله ثمانية عشر ألف مسألة"[٢] ولذلك فإن كل الشروح التي ألف البغداديون جاءت بعد البركاني فشرح المختصر الصغير أبو بكر بن الجهم (ت ٣٢٩) وأبو بكر محمد بن صالح الأبهري الكبير (ت ٣٧٥)[٣] وشرح المختصر الكبير أبو بكر محمد بن صالح الأبهري الكبير ، ومحمد بن جعفر البصري الخفاف[٤] وأبو جعفر الأبهري الصغير[٥] ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله، وأبو عبد الله الواسطي .

بهذه الدلائل والمؤشرات العامة يتبين أن المالكية بالعراق برزوا في النظر الفقهي دون الفقه التطبيقي الذي كان اختصاصاً اندلسياً وإفريقياً .

---

(١) المدارك (٣/ ١١٠).

(٢) ترتيب المدارك الديباج ص : ٢٤٣ط دار الكتب العلمية .

(٣) شيء منه مخطوط في : الازهر فقه مالكي تحت رقم ١٦٥٥ ، وجوتا تحت عدد ١١٤٣، بعنوان مسائل واجوبتها ، دراسات في مصادر الفقه المالكي (ص ٣٠).

(٤) ترتيب المدارك (٦/ ٢٠١).

(٥) وفيات الاعيان (٤/ ٢٩٦).

٢ـ العوامل العلمية للجدل الفقهي عند مالكية بغداد :

أشير في بداية هذه النقطة إلى أن الحجاج المذهبي عند مالكية العراق نشأ نشوءاً وئيداً ولم يظهر طفرة، بحيث كانت المرحلة الاولى [بين الامام مالك والقاضي إسماعيل (ت ٢٨٢)] مرحلة بداية وتخلق للمنهج الجدلي وللدرس الخلافي المالكي ، أما استواء هذا الدرس على سوقه فقد كان بين القاضي إسماعيل والإمام أبي الفضل بن عمروس (ت ٤٥٠) تلميذ القاضي عبد الوهاب ، وهي المرحلة الثانية من تاريخ الجدل الفقهي بهذه المدرسة، وقد جمعت هذه الحقبة في قرنيها الطبقة العليا من صيارفة النظر وفرسان البحث وأعلام الجدل الفقهي المالكيين.

علم المرحلة الأولى في الخلاف والجدل اجتمع في شخص القاضي إسماعيل (ت٢٨٢) وأخيه حماد، ثم توزع الميراث العلمي في جيلين من تلاميذهما، جيل أبي بكر ابن الجهم المروزي (ت ٣٢٩) وجيل أبي الطاهر الذهلي(ت ٣٦٧) ليجتمع هذا العلم كرة أخرى في شخص ابي بكر محمد بن عبد الله بن صالح الابهري (ت ٣٧٥) الذي تتلمذت على يديه الطبقة الموالية من مالكية العراق الخلافيين ، كأبي القاسم عبيد الله بن الجلاب (ت ٣٧٨) وأبي الحسن علي بن عمر بن القصار (ت٣٩٨) لينتهي مرة أخيرة علم الخلاف المالكي إلى إمام المعي نظار هو القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر التغلبي البغدادي (ت ٤٢٢) ثم إلى تلميذه ابن عمروس (ت٤٥٠) الذي بوفاته انتهى العهد الذهبي لهذه المدرسة وانتقلت جذوتها إلى جارتها المصرية وإلى المغرب.

ومنذ القاضي إسماعيل اتضحت المعالم الجدلية للمدرسة العراقية المالكية ، وتبلور البعد الحجاجي في درسها الفقهي،وأنتجت فيه أعلاماً نظاراً كباراً، مراجع في الاستدلال والأصول، محكمين في حجاج المذاهب الأخرى والرد عليها، وأعطوا للدرس المالكي

اللاحق من المصنفات ما عول عليه اللاحقون من أهل الحجة والنظر ، الأمر الذي أقر لهم به شيوخ مدارس المذهب الأخرى ، وهذا واضح من الوصية التي أوصى بها ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦) بعض طلابه الرحالة حين أراد دخول العراق ، والأخذ عن علمائه ، إذ حضه على طلب مصنفات الخلاف والحجة التي ألف مالكية العراق تحديداً فقال : وإذا دخلت العراق ، فاكتب ما تجد لأهل الوقت من الخلاف والحجة، وإن كانت لك رغبة في الرد على المخالفين من أهل : العراق والشافعي فكتاب ابن الجهم ان وجدته، وإلا اكتفيت بكتاب الأبهري إن كسبته وكتاب الأحكام لإسماعيل القاضي ، وإلا اكتفيت باختصارها للقاضي ابن العلاء ، وكتاب الحاوي لأبي الفرج حول الأحكام إن كسبته، ففيه فوائد ، وإلا استغنيت عنه بمختصر ابن عبد الحكم وكتاب الأبهري..."[1] .

وتبلور المنهج الجدلي عند العراقيين يرجع إلى ما تميزت به بغداد من جمعها لكل المذاهب واتجاهات الرأي، ولأعلام المناظرة والمجادلة .

إذ كانت بغداد والبصرة وما والاهما من مدائن العلم، منتدى لفحول المناظرين من كل المذاهب ، في كل العلوم دون استثناء .

وإذا توقفنا قليلاً عند المذاهب الفقهية ، نجد أن هذه المذاهب قد أناخت بركابها العلمي بمخلاف العراق ، وكانت هذه المرحلة بالذات قمة من قمم الانتداء والمناظرة والحجاج بين مختلف الخصوم العلميين :

فمذهب الشافعي ناظر عليه واحتج له ونشره أبو عثمان الانماطي (ت ٢٨٨) الذي نشط الناس في عهده لمذهب الشافعي بالعراق[2] ، وفي حلقته تخرج مناظر المذهب الأكبر أبو العباس بن سريج (ت ٣٠٦) الملقب بـ "الباز الاشهب، والأسد الضاري على خصوم

(١) الوصية موجودة باللوحة ٩٩- ١٠١ بالجزء الثاني من كتاب الذب عن مذهب مالك لابن ابي زيد القيرواني مخطوط تحت رقم ١٠٠ بخزانة تشستر بيتي بإرلندة .

(٢) انظر طبقات الشافعية لابن السبكي (٢ / ٣٠١) (٧٠) .

المذهب ، شيخ المذهب وحامل لوائه.." كما يقول ابن السبكي[١] ، حتى إن الطبقة العليا من أهل النظر الشافعيين من درسه قاموا، وفي مجلسه تعلموا وعلى يديه تخرجوا: كالقفال الكبير (ت ٣٦٥)، وابن أبي هريرة (ت ٣٤٥) والصعلوكي وأبي بكر الصرفي (ت ٣٣٠) وابن الوليد النيسابوري (ت٣٤٩) وأبي إسحاق المروزي (ت ٣٤٠) وابن القاص الطبري (ت ٣٣٥) والزبيري ، وابن القطان (ت ٣٥٩) والخفاف وغيرهم.

ومذهب أبي حنيفة واصل بسطته العلمية على يد يحي بن أكتم (ت ٢٤٢) وأبي خازم والكرخي (ت٣٤٠) والبرتي والخصاف والإسكافي، وأبي جعفر الطحاوي(ت ٣٢١) الذي أكمل العدة الحديثية للمذهب وألف كتب الآثار المبسوطة لنصرته والتدليل لأحكامه.

ومذهب داود بن علي الظاهري (ت ٢٧٠) المرتد عن مذهب الشافعي ، نشأ نشوءاً على الجدل والمناظرة لإنكار القياس وإبطال التقليد ، ولداود وابنه محمد(ت ٢٩٤) وأصحابهما: القاشاني[٢] وابن المغلس[٣] وغيرهم، مناظرات مع جمهرة الشافعية وغيرهم[٤] ، وانتشر مذهبه بسرعة فائقة أتباع كثر من علماء المشرق والمغرب ، حتى لقد ولج مذهب أهل الظاهر وكتبه الأندلس في حياة إمامه.

ومذهب أحمد بن حنبل (ت ٢٤١) رغم انبنائه على الأثر والاتباع ، ظهر فيه أئمة نظار محققون ومنافحون كبار، أمثال أبي بكر الخلال (ت ٣١١) أول من جمع المذهب،

---

(١) طبقات الشافعي (٣/ ٢١) (٨٥).

(٢) بين القاشاني وابن سريج مناظرات طويلة الذيل جمعاها في مصنفات ، اذ الف بن سريج الف ورقة في اثبات القياس نازعا بقول ﷺ: «فاعتبروا يا اولي الابصار»، والف القاشاني الف ورقة في انكار القياس نازعا بقوله ﷺ: «او لم يكفهم انا انزلنا اليك الكتاب». البحر المحيط للزركشي (٧/ ٢٨).

(٣) قال الشيرازي : ابو بكر محمد بن اسحاق القاشاني حمل العلم عن داود الا انه خالفه في مسائل كثيرة من الاصول والفروع ونقض عليه ابو الحسن ابن المفلس بكتاب سماه القامع للمتحامل الطامع" طبقات الفقهاء (ص ١٧٦).

(٤) انظر بعضها في طبقات الشافعية لابن السبكي (٣/ ٢٦)، وساشير لبعض مناظراتهم مع المالكية في هذا العرض .

حيث "لم يكن قبله للإمام مذهب مستقل" كما يقول الذهبي[١] ، وكإبراهيم الحربي (ت ٢٨٥) أحد عمداء الخلاف والآثار بالعراق ، وكالإمام النجاد صاحب أول مصنف في الخلاف على مذهب الإمام أحمد.

إضافة إلى هذا كانت العراق فضاء واسع الجنبات لمناظرات المحدثين واهل الأصول والكلام. مما لا يسعنا تتبعه في هذا المختصر.

وينضاف إلى هذا العامل عامل خاص ذو اتصال به ، ألا وهو تحصيل المالكية للردود والانتقادات التي وجهها إلى مالك ومذهبه جلة من الأئمة ، مما انعكس على تاليفهم في الخلاف والجدل ، ومناظراتهم مع المذاهب الأخرى ، وعلى رأس هؤلاء الأئمة:

– محمد بن الحسن الشيباني الذي تعقب آراء مالك ورد عليه في أزيد من أربعمائة مسألة في كتابه الحجة على أهل المدينة[٢] .

– الإمام محمد بن إدريس الشافعي ، الذي استقرأ المسائل التي اعتبر فيها مالكاً مخالفاً السنة، والتي خالف فيها السلف من أهل المدينة في كتابه اختلاف مالك[٣] .

(١) سير اعلام النبلاء (١٤/ ٢٩٨).

(٢) عدد المسائل التي جاءت في الحجة ، والتي رد في عمومها على مالك واهل المدينة كما يلي : الطهارات والصلاة :٩٥ مسالة– الصيام ١٧ مسالة – الزكاة ٢٥ مسالة –زكاة الفطر ٨ مسائل – الحج ٢٦ مسالة – البيوع: ٥٥ مسالة – المضاربة ٢٠ مسالة – الحبس ٦ مسائل – الشفعة ١١ مسالة – النكاح والطلاق ٨٤ مسالة – المساقاة : ٥ مسائل – الفرائض : ٥ مسائل – الديات ٢٢ مسالة.

(٣) تبع الشافعي ما خالف فيه مالك السنة ، أي ظاهر خبر الواحد ، وعددها في كتاب الشافعي (اختلاف مالك) ثلاث واربعون مسالة وتتبع ما خالف فيه الصحابة : فذكر واحدا وثلاثين مسالة فيما خلاف مالك فيه ابا بكر او عمر او عثمان ، وذكر مسالتين فيما خالف فيه عائشة ، وذكر اربع مسائل فيما خالف فيه مالك عبد الله بن عباس ، وذكر في خلافه زيدا مسالتين ، وفي خلافه انسا مسالة واحدة.
ثم تتبع الشافعي في هذا الكتاب ما خالف فيه مالك اهل المدينة من التابعين والسلف ، فذكر خلاف مالك لعمر بن عبد العزيز وذلك خمس مسائل ، وذكر خلافه سعيد بن المسيب ، وذلك مسالتان ، ثم عطف عنان القول الى احصاء ما خالف فيه مالك عبد الله بن عمر ، فذكر ازيد من اربعين مسالة.

– الامام الليث بن سعد المصري(ت ١٧٥) صاحب الرسالة المشهورة إلى مالك ، حيث حدث عبد الله بن غانم الرعيني القاضي المالكي" عن الليث بن سعد ، أنه قال أحصيت على مالك سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبي ﷺ، مما قال فيها مالك برأيه ، قال : ولقد كتب اليه في ذلك"[(١)] .

– الامام ابن أبي ذئب الذي قال ما قال في مالك تعليقاً على رأيه واختياره في خيار المجلس[(٢)] .

هذه العوامل وما يجري مجراها ، جعلت الطابع العام للاشتغال الفقهي عند المدرسة المالكية العراقية يتسم منذ نشأتها وطيلة تاريخها بصبغة جدلية ظاهرة.

٣– الدرس الجدلي عند مالكية بغداد :

أود في بداية مدخل هذا المحور أن أثير الإنتباه إلى العمق الزمني لمدرسة بغداد المالكية، إذ أن اقتران نشأتها برمزها الألمعي إسماعيل بن إسحاق القاضي (ت ٢٨٢) ترك وهما لدى جملة من الدارسين أنه ابتدأها وأنشأها إنشاء[(٣)] .

---

(١) جامع بيان العلم (٢/ ١٤٨).

(٢) قال ابن عبد البر: "وقال ابن ابي ذئب .. من قال ان البيعان (كذا) ليسا بالخيار حتى يفترقا استتيب ، وجاء بقول فيه خشونة، تركت ذكره، وهو محفوظ عند العلماء " الاستذكار ٢٩٩٧٥ ، وقال احمد بن حنبل " بلغ ابن ابي ذئب ان مالكا لم ياخذ بحديث البيعان بالخيار ، فقال: يستتاب في الخيار ، فان تاب والا ضربت عنقه، ومالك لم يرد الحديث ولكنه تاوله على غير ذلك"طبقات الحنابلة لابن ابي يعلي (١/ ٢٥١).

(٣) منهم بكير محمود في كتابه تاريخ المدرسة المالكية بالمشرق بالفرنسية ط مطبعة الاتحاد التونسي للشغل بإذن من اكادمية باريس مبحث المالكية في العراق ، وركز فيه على دور القاضي اسماعيل في تأسيس المدرسة العراقية . ومنهم حسين بن سالم الدهماني محقق كتاب التفريع لابن الجلاب حيث يقول " فكانت المدرسة العراقية التي انشأها القاضي اسماعيل "التفريع قسم الدراسة (١ / ٩٤) ط دار الغرب الاسلامي ط (١/ ١٩٨٧م).

الدرس المالكي بالعراق قديم وأصيل ، نشأ مع تلاميذ مالك الأول الذين دخلوا العراق ممن ينتظم بعضهم في طبقة أقرانه وكبار تلاميذه ، وعلى رأسهم سليمان بن بلال أبو أيوب المدني (ت ١٧٧) الذي دخل بغداد وعين بها قاضياً، وأخذ عنه من أهل العراق المالكية ابن المبارك والقعنبي [١] ، ومنهم زكريا بن منظور بن ثعلبة شيخ هارون الزهري الذي "به تفقه" [٢] دخل بغداد قاضياً للرشيد، وسعيد بن داود بن أبي زنبر الذي استقر ببغداد وأخذ عنه بها من مالكية بغداد يعقوب بن شيبة بن أبي الصلت السدوسي (ت ٢٦٢).

كما دخل بغداد مع هؤلاء جماعة من تلاميذ مالك الكبار من العراقيين والخراسانيين الذين استقروا ببغداد [٣] أو استوطنوها ردحاً من الزمن وأقاموا درس المدنيين بها، وعلى رأسهم عبد الله بن المبارك المروزي (ت ١٨١) الذي انتقل من رأي الحنفية بعد فحولة وتبريز فيه إلى رأي مالك ، وعبد الرحمن بن مهدي (ت ١٩٨) المحدث الجامع بين الرواية والنظر، ويحي بن يحي النيسابوري (ت ٢٢٦) وقتيبة بن سعيد (ت ٢٤٠) شيخا خراسان في وقتيهما، ومحمد بن عمر الواقدي(ت ٢٠٧) الذي كان عمدة في رأي مالك وفي الاختلاف عند علماء العراق في وقته.

إن ذكر هذا الرعيل من علماء المالكية يفيدنا جداً في معرفة الجذور الأولى للدرس المالكي ببغداد، ولا يفوتنا هنا أان نشير إلى أن هناك علماء مالكية من غير المدنيين والعراقيين دخلوا بغداد وذاكروا بالمسائل المالكية في هذا الوقت المبكر ، وعلى رأسهم أسد ابن الفرات القروي (ت ٢١٣)، الذي كان حجة بحلقات الدرس الحنفي في مسائل مالك،

---

(١) انظر الجرح والتعديل لابن ابي حاتم الرازي (٤ / ١٠٣) ط ١ دار احياء التراث العربي ١٢٧٢ - ١٩٥٢ . سير اعلام النبلاء (٧/ ٤٢٥) وترتيب المدارك لعياض (٣/ ٣٠).

(٢) ترتيب المدارك (٣/ ١٦).

(٣) تاريخ بغداد (٩/ ٨١) الجرح والتعديل (٤/ ١٨) (٧٤) ترتيب المدارك (٣/١٥٧).

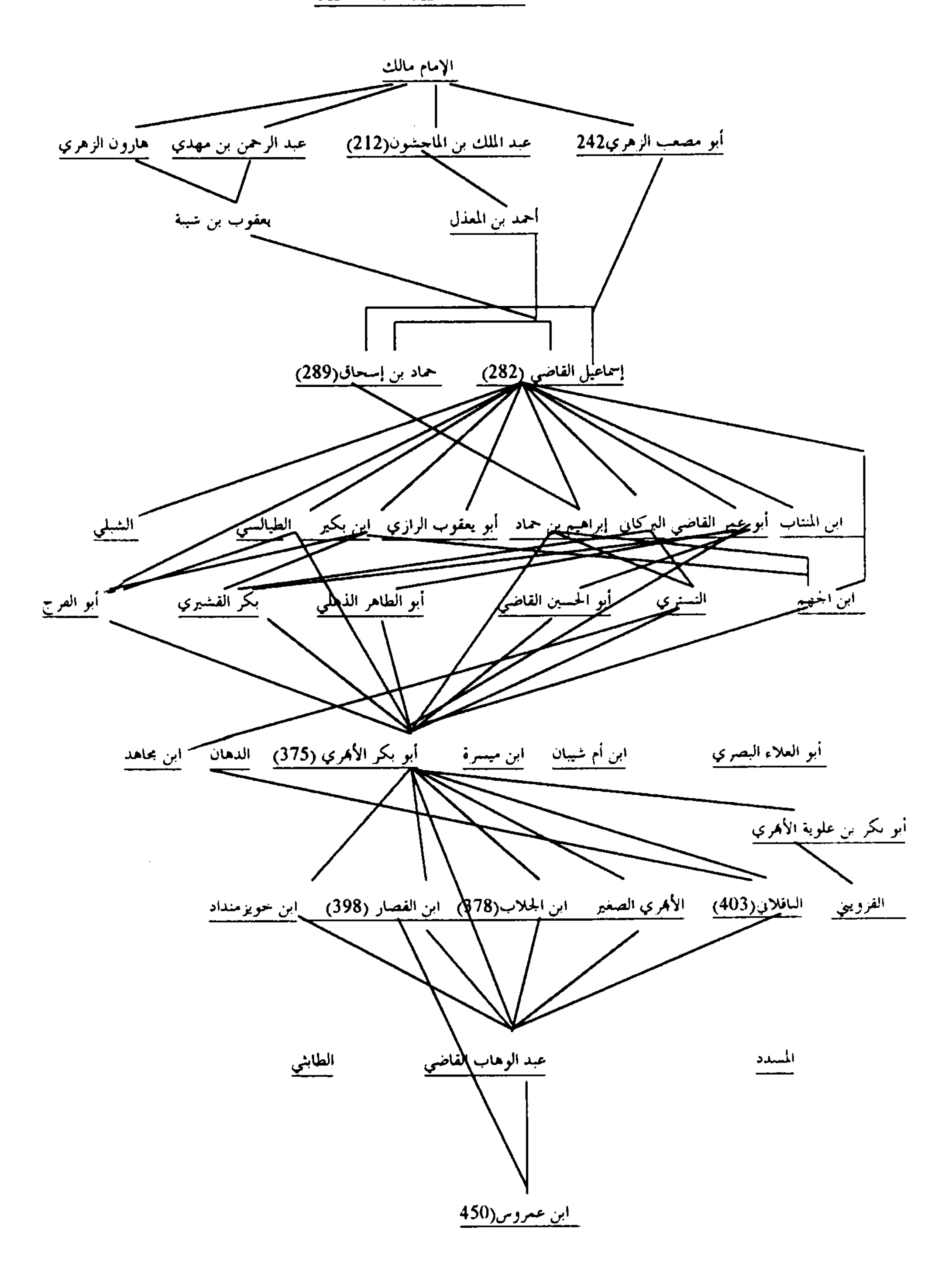
ومحمد بن عبد الحكم المصري(ت ٢٦٨) بعده الذي ناظر يحي بن ابي دؤاد في قول مالك ببغداد حين حمل اليها مع من حمل خلال محنة خلق القرآن.

وتؤكد كتب الطبقات المالكية على حقيقة تاريخية في منشأ مدرسة بغداد مفادهاأن المدنيين من تلاميذ مالك هم الجذر الملموس والحلقة الوثقى في سندها الفقهي، ويذكر فيهم محمد بن مسلمة ومحمد بن دينار (ت ١٨٢) وعثمان بن كنانة (ت١٨٦) والمغيرة بن عبد الرحمن المخزومي (ت ١٨٨) وسعيد بن سليمان المساحقي وأضرابهم.

ويبرز من هؤلاء الشيوخ جلة من الرواة الدراة شيوخ ابن المعذل البصري وتلميذه القاضي إسماعيل (ت٢٨٢) وطبقتيهما من ذوي المحل الوازن والمرجعية الراسخة في تصنيف قول مالك والذب عن مذهبه، وأعني بهم على الخصوص الأربعة المشاهير : عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون(ت٢١٢) وهارون بن عبد الله أبو يحيى الزهري (ت ٢٢٨) وأبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري (ت٢٤٢) وعبد الرحمن بن مهدي (ت ١٩٨) الذين كانوا أوثق مخارج السند البغدادي لمذهب مالك، المستند إلى النظر والتعليل والذي تطور إلى ما عرف بالاصطلاح العراقي في تلقين المذهب وخدمة أمهاته.

وبهذا تنظيم مدرسة بغداد شيوخاً وتلاميذ حسب الرسم التقريبي التالي :

طبقات الخلافيين البغداديين



المرحلة الأولى من تاريخ الجدل الفقهي عند مالكية بغداد

مرحلة ما قبل القاضي إسماعيل

لم تحفظ لنا مرحلة ما قبل القاضي إسماعيل تراثاً كبيراً من مؤلفات الجدل الفقهي بين المالكية وغيرهم وذلك للأسباب التالية:

أولاً: أن النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الاول من القرن الثالث لم يشهد من المؤلفات في تاريخ المعرفة الفقهية مثل ما جاء لاحقاً، بل كانت هذه المرحلة بالعراق والحجاز وخراسان مرحلة حاسمة في تاريخ الحديث الشريف جمعاً واستصفاءً، وتدويناً وارتحالاً ونقاداً، ولا بد من التنويه بأن المالكية العراقيين الأوائل كان جلهم محدثين ألمعيين كابن المبارك وقتيبة بن سعيد أبي رجاء البغلاني، ويحي بن يحي النيسأبوري وإسماعيل بن أبي أويس (ت ٢٢٦) وعبد الرحمن بن مهدي وعلي بن المديني ومعن بن عيسى القزاز (ت ١٩٨) وغيرهم.

ثانياً: أن الدرس المالكي ببغداد لم يكن مستقراً ومستوياً على سوقه بعد، بل كانت الحلقات المالكية بالعراق أجمع عبارة عن مجالس لعدد متفرق من العلماء الوافدين من المدينة أو خراسان لم تنظمهم الرابطة المذهبية انتظاماً يسمح بالتأليف في مسائل الخلاف.

ومع ذلك فإن هذه المرحلة سجلت مجموعة من المناظرات المذهبية والمواقف الأصولية في قواعد الجدل وشروطه من طرف المالكية البغداديين المتقدمين.

ولن نتعرض هنا لمناظرات متقدمي مالكية المدينة من مثل ما جرى بين المغيرة المخزومي وعبد الرحمن العمري وسعيد بن سليمان المساحقي مع أبي يوسف صاحب أبي حنيفة في

مجالس متفرقة من معارضات يحكيها محمد بن عمر الواقدي[١] ، بل سنقتصر على بعض المناظرات والمواقف الجدلية للأئمة من طبقة شيوخ ابن المعذل والقاضي إسماعيل.

ولقد كانت مناظراتهم في هذا التاريخ على صنفين: صنف غالب وهو مناظراتهم مع الحنفية على وجه الخصوص ثم مناظراتهم مع الشافعي ، والثاني : مناظراتهم عامة لهم مع أهل العلم اعتادتها مجالس الدرس بالعراق بين العلماء.

الصنف الأول : كانت المناظرة مع الحنفية مركزاً في الجدل الفقهي لمالكية العراق الأوائل ، وقد برز فيه من المالكية أبو مصعب الزهري الذي كان يقول : "يا أهل المدينة لا تزالون ظاهرين على أهل العراق ما دمت لكم حيا"[٢] ، كما برز فيها القاضي هارون الزهري، قال عنه الزبير بن بكار : "كان من الفقهاء ، وكان يقوم بنصرة قول أهل المدينة فيحسن"[٣] .

ارتكزت مناظرات المالكية على أمرين: أولهما الذب عن أصول مذهبهم، وخاصة عمل أهل المدينة، وتذكر هنا مناظرات لابن الماجشون مع الإمام الحنفي الكبير يحي بن اكثم (ت ٢٤٢) كانا "يتذاكران مذهب أهل العراق وأهل المدينة ويتناظران في ذلك"[٤] ، فاعترض عليه يحي بن أكثم بعدم اعتناء المدنيين بالعلم اعتناء من رحل إليه ، فمنعه ابن الماجشون من هذا الاعتراض ،واستدل عليه باتصال الرواية والعمل في ذلك إلى النبي ﷺ[٥] .

---

(١) ذكرها القاضي عياض في ترتيب المدارك (٣/ ٥) و(٢ / ١١٣).

(٢) ترتيب المدارك (٣/ ٣٤٧).

(٣) ترتيب المدارك (٣/ ٣٥٣).

(٤) رتيب المدارك (٣/ ١٤٢).

(٥) جاء في المدارك : "ذكر ابن اللباد ان يحي بن اكثم كان مع عبد الملك على سريره يعني وهما يتذاكران =

وكان من السؤالات التي توجهت على المالكية في هذه المناظرات لم يتركوا العمل بالحديث الصحيح للعمل، وفي هذا يحكي ابن المعذل عن ابن الماجشون أن " إنساناً سأله: لم رويتم الحديث ثم تركتموه؟ قال: ليعلم أنا على علم تركناه"(١) .

وفي السياق ذاته كان عبد الرحمن بن مهدي يقول: "السنة المتقدمة من سنة أهل المدينة خير من الحديث"(٢) وقال : "إنه ليكون عندي في الباب الأحاديث الكثيرة ، فأجد اهل العرصة على خلافه فيضعف عندي"(٣) ، كل هذا كان تضمه مجالس المناظرة.

ومن المذاكرات الفقهية في موضوع العمل أن الشافعي ناشب أبا مصعب الزهري المذاكرة في مقصود مالك بالعمل ، فبين أبو مصعب أن مقصوده اتصال السند إلى النبي ﷺ والخلفاء ، فاستقر للشافعي منها رأي فيه كان أساس قوله القديم بالعراق ومناظرته لمحمد ابن الحسن في علم مالك والمدنيين(٤) .

= مذهب اهل العراق واهل المدينة ، ويتناظران في ذلك ، فقال ابن اكثم: يا ابا مروان ، رحلنا الى المدينة في العلم قاصدين فيه ، وكتنم بالمدينة لا تعتنون به، وليس من رحل قاصدا كمن كان فيه و تواني ، فقال عبد الملك : اللهم غفرا يا ابا محمد ، ادعوا لي المؤذن من ولد سعد، فجاء شيخ كبير فقال له: كم لك تؤذن ؟ فقال سبعين سنة، اذنت مع ابائي واعمامي واجدادي ، وهذا الاذان الذي ينادي به على رؤوسنا خمس مرات ،متصلا باذان النبي ﷺ فترى انا كنا لا نصلي؟ فقد خالفتمونا فيه، فانتم في غيره احرى ان تخالفونا ، فخجل ابن اكثم ، ولم يذكر انه رد عليه جوابا " ترتيب المدارك (٣/١٤٢).

(١) ترتيب المدارك (١/٤٥).

(٢) رتيب المدارك (١/٤٥).

(٣) ترتيب المدارك (١/ ٤٥).

(٤) "قال الشافعي لأبي مصعب : الذي يقول مالك: امرنا والذي عليه اهل بلدنا والذي عليه ائمة المسلمين الراشدين المهديين، اي شيء هو ؟ فقال : اولهم رسول الله ﷺ ثم ابو بكر وعمر وعثمان الذين ماتوا بالمدينة فترك الشافعي ما كان فيه ، وسمع الموطا وسر به مالك ، ثم سار الشافعي الى العراق ، فلزم محمد ابن الحسن وناظره على مذهب اهل المدينة وكتب كتبه هناك ، والف هناك قوله القديم وهو كتاب الزعفراني .." ترتيب المدارك (٣/١٧٩).

وتوجد مذاكرات أخرى لعبد الملك بن الماجشون مع الشافعي ، قال عياض "روى انه كان اذا ذاكره الشافعي لم يعرف الناس كثيراً ما يقولان"[١] ، كما جمعتهما مناظرات أخرى، لكنها غير محفوظة ، كل ما ذكر عنها الذهبي نقلاً عن محمد بن عبد الحكم أن ابن الماجشون قطع الشافعي فيها، قال: "قدمت المدينة، فرأيت أصحاب عبد الملك بن الماجشون يغلون في صاحبهم ، يقولون : صاحبنا الذي قطع الشافعي"[٢] .

الصنف الثاني: انتقاد المالكية الأصول الفاسدة عند المذاهب الأخرى:

توجه شطر المناظرة المذهبية لدى مالكية العراق الأوائل إلى انتقاد الأصول الضعيفة لدى مذاهب الحنفية على وجه الخصوص ، وما حفظ لنا من مناظراتهم في هذا الجانب يتعلق بانتقاد الحيل واتباع الرأي الشاذ مقابل صحة الأثر وتقرر الأصول ، وهي على كل حال من ذيول النزاع القديم بين أهل الرأي والأثر[٣] .

وأورد للتمثيل مناظرة ومذاكرات في انتقاد هذه التمسكات الأصولية الضعيفة للحنفية وكلاهما عن ابن المبارك :

- أولاهما انتقاده اتباع الشاذ من العلم والتمسك بزلل العلماء: قال ابن المبارك : "كنا في الكوفة فناظروني في ذلك - يعني النبيذ المختلف فيه - فقلت لهم: تعالوا ، فليحتج المحتج منكم عمن شاء من أصحاب النبي ﷺ بالرخصة فإن لم نبين الرد عليه عن ذلك الرجل بشدة صحت عنه فاحتجوا فما جاؤوا عن واحد منهم برخصة إلا جئناهم

---

(١) ترتيب المدارك (٣/ ١٣٨).

(٢) سير اعلام النبلا (١٠/ ٥٣-٥٤).

(٣) ويؤكد هذا قول ابن المعذل في ذم الحنفية :

إن كنت كاذبة الذي حدثني فعليك إثم أبي حنيفة أو زفر

الواثبين على القياس تعديا والناكبين عن الحديث والأثر

جامع بيان العلم وفضله (١/ ٨٧).

بشدة، فلما لم يبق في يد أحد منهم إلا عبد الله بن مسعود، وليس احتجاجهم عنه في رخصة النبيذ بشيء يصح عنه، قال ابن المبارك : فقلت للمحتج عنه في الرخصة : يا أحمق ، عد أن ابن مسعود لو كان ههنا جالساً فقال لك: هو حلال ، وما وصفنا عن النبي ﷺ واصحابه في الشدة ، كان ينبغي لك أن تحذر أو تحير أو تخشى ، فقال قائلهم : يا أبا عبد الرحمن فالنخعي والشعبي ، وسمى عدة معهما ، كانوا يشربون الحرام؟ فقلت لهم : دعوا عند الاحتجاج تسمية الرجال ، فرب رجل في الإسلام مناقبه كذا وكذا، وعسى أن تكون منه زلة ، أفلاحد أن يحتج بها ؟ فإن، أبيتم فما قولكم في عطاء وطاووس وجابر بن زيد وسعيد بن جبير وعكرمة؟ قالوا: كانوا خيارا ، قال : فقلت: فما قولكم في الدرهم بالدرهمين يداً بيد ؟ قالوا: حرام فقال ابن المبارك: إن هؤلاء رأوه حلالاً فماتوا وهم يأكلون الحرام؟ فبقوا ، وانقطعت حجتهم"[1] قال الإمام الشاطبي معلقاً على هذه المناظرة: "والحق ما قال ابن المبارك" .

الثانية: "قال أحمد بن زهير بن مروان : كانت امرأة هنا بمرو ، أرادت أن تختلع من زوجها، فأبى زوجها عليها، فقيل لها لو ارتددت عن الإسلام لبنت منه ،ففعلت ، فذكرت ذلك لعبد الله بن المبارك فقال: من وضع هذا الكتاب فهو كافر ، ومن سمع به ورضي به فهو كافر ، ومن حمله من كورة إلى كورة فهو كافر ، ومن كان عنده ورضي به فهو كافر.."[2] .

أما النوع الثاني من المناظرات التي كان يشارك فيها مالكية العراق والمشرق، فهي المذاكرات التي كانت تغطي مجالس الدرس الحديثي والفقهي وهي من أعراف التواصل

---

(١) الموافقات (٤ / ١٧٢).

(٢) عن كتب حذر منها العلماء (١/ ١٧٩).

العلمي بين الأئمة وهي كثيرة، منها: مناظرات محفوظة لعبد الرحمن بن مهدي[١] ولقتيبة ابن سعيد وغيرهما.

٤- قواعد في أصول الجدل الفقهي: أثر العلماء عن مالكية العراق الأوائل جملة من قواعد النظر وأصول الجدل الفقهي، وقيمة الإشارة إلى هذه القواعد أنها أسس لأدب الجدل وأصول الاختلاف التي انتظمت في أصول الفقه والجدل لاحقاً، فمن ذلك ما أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم أن ابن الماجشون قال: " لا يكون إماما في الفقه من لم يكن إماما في القرآن والآثار، ولا يكون إماما في الآثار ما لم يكن إماما في الفقه"[٢]، وقال " لا يكون فقيها في الحادث من لم يكن عالما بالماضي"[٣]، وقال أبو على بن الحسين ابن شقيق: "سمعت عبد الله بن المبارك يسأل: متى يسع الرجل أن يفتي؟ قال: إذا كان عالماً بالرأي عالماً بالأثر"[٤]." وقال عبد الرحمن بن مهدي: لا يكون إماماً في العلم من

(١) تاريخ بغداد / ٢٤٠ الترجمة ٥٣٦٦. جاء في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت٤٦٣) "لما كان بعد سنة]الكلام هنا لعلي بن المديني [جاء سليمان الى الباب، فقال: امض بنا الى عبد الرحمن افضحه في المناسك، قال علي: وكان سليمان اعلم اصحابنا بالحج، قال: فذهبنا فدخلنا عليه، فسلمنا وجلسنا بين يديه، قال: هات ما عندكما، واظنك يا سليمان صاحب الخطبة؟ قال نعم، ما احد يفيدنا في الحج شيئا، فاقبل عليه بمثل ما اقبل علي، ثم قال: يا سليمان: ما تقول في رجل قضى المناسك كلها الا الطواف بالبيت، فوقع على اهله؟ فاندفع سليمان، فروى: يتفرقان حيث اجتمعا، ويجتمعان حيث تفرقا، قال: ارو متى يجتمعان ومتى يفترقان؟ قال فسكت سليمان، فقال اكتب، واقبل يلقى عليه المسائل، ويملي حتى كتبنا ثلاثين مسالة في كل مسالة يروي الحديث والحديثين ويقول سالت مالكا، وسالت سفيان، وعبيد الله بن الحسن، قال: فلما قمت قال: لا تعد ثانيا تقول مثلما قلت. فقمنا وخرجنا، فاقبل على سليمان فقال ايش خرج علينا من صلب مهدي هذا؟ كأنه قاعدا معهم، سمعت مالكا وسفيان وعبيد الله".

(٢) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٤٧).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٤٧).

(٤) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٤٧).

أخذ بالشاذ من العلم ، ولا يكون إماماً في العلم من روى كل ما سمع"[٣] ومنها ما أورده ابن حارث في أصول الفتيا : "قال ابن الماجشون : إذا ذهب القاضي إلى مذهب اختلف فيه الناس نفذ ، إلا أن يكون مما للنبي ﷺ فيه قضية ، مثل الشفعة في المقسوم، ومثل العبد إلى الشريكين يعتقه أحدهما وهو معسر فيعتق عليه ، ويأمره بالسعي"[٤] ، ومنها ما جاء عند ابن عبد البر في التمهيد، أن ابن المعذل قال عقب ذكر اختلاف العلماء في أكثر الحيض وأقله، وأن ذلك راجع إلى الاجتهاد قال : "وإنما ذكرت لك اختلاف أمر الحيض واختلاطه على العلماء لتعلم أنه أمر أخذ أكثره بالإجتهاد، فلا يكون عندك سنة قول أحد من المختلفين، فيضيق على الناس خلافهم"[٥] وغير هذا كثير ، وفي ما ذكرنا كفاية للتمثيل له .

---

(٣) جامع بيان العلم وفضله (٢ / ٤٨).

(٤) أصول الفتيا على مذهب مالك لمحمد بن حارث الخشني (ص ٣٢٤).

(٥) التمهيد لابن عبد البر (١٦ / ٨١).

المرحلة الثانية من تاريخ الجدل الفقهي عند مالكية بغداد

مرحلة ما بين إسماعيل القاضي والقاضي عبد الوهاب

مرحلة القاضي إسماعيل:

ان إسماعيل بن إسحاق أبا إسحاق القاضي (ت٢٨٢)، هو المنعطف الحاسم في تاريخ الفقه المالكي بالعراق، واستجمع من الشروط العلمية ما بوأه موقع الصدر في المذهب دون مدافع.

فهو الفقيه المشارك في العلوم والمجتهد الذي لم ينل هذه المرتبة أحد قبله بعد مالك، وكان أحد المالكية الأربعة الذين لم يحصل لأحد ما حصل لهم من التلاميذ والأصحاب، وهم: إسماعيل وسحنون وابن أبي زيد والأبهري (ت ٣٧٥).

إضافة إلى أن توليه القضاء للخلافة ببغداد قوى من تأثيره، ووسع دائرة اتصاله بالعلماء والقضاة وساعده أكثر على التمكين للمذهب.

فيما يتعلق بالجدل الفقهي تبلور في مجلس إسماعيل القاضي خط واضح في التناظر مع المذهبين الكبيرين المنتشرين بالعراق مذهب الشافعي وأبي حنيفة.

لقد استوعب القاضي إسماعيل مسائل الخلاف التي ضمها كتاب الحجة على أهل المدينة لمحمد بن الحسن الشيباني، وكتاب اختلاف مالك للإمام الشافعي وحصل من كتب المذهبين ما مكنه من استجماع نقط الضعف في مسائلهم الخلافيات.

وقد عرف عصر إسماعيل القاضي حدثين مهمين في الفقه والخلاف والجدل أولهما: الظهور المفاجيء لمذهب الظاهر ببغداد على يد داود بن علي الاصفهاني(ت٢٧٠)، وكان ظهوره غير منتظر لدى العلماء؛ لأنهم لم يتوقعوا أن يتحول الدفاع عن خبر الواحد والذب عن السنة واستقلالها بإفادة الأحكام من طرف الشافعي إلى التأصيل للاقتصار على ظاهره

وإلغاء المعاني والعلل،والغلو في الاستصحاب والتوسع في العموم ودليل الخطاب، وسائر الأصول التي أخرجها داود مرتداً عن مذهب الشافعي وناظر عليها مؤسساً لمذهب قوي وانتشر سريعا في المشرق والمغرب.

وحسبما ورد عن القاضي إسماعيل ، فإنه لم يقم مجالس للنظر في مذهب داود ، ولكن ما ذكره الذهبي أنه لم يعترض على داود ولا أنكر عليه[١] غير صحيح ، بل ذكر عياض في المدارك أنه (أخرجه من بغداد إلى البصرة لإحداثه منع القياس)[٢] ، كما ذكر بكر بن العلاء القشيري تلميذ القاضي إسماعيل أنه عزره وشدد في النكير عليه لبدعة نفي القياس، وإلغاء الاعتبار "قال ابن المنير في شرحه [أي على البرهان للجويني] : ذكر القاضي بكر ابن العلاء من أصحابنا أن القاضي إسماعيل أمر بداود منكر القياس ، فصفع في مجلسه بالنعال ، حمل إلى الموفق بالبصرة ليضرب عنقه ، لأنه رأى أنه جحد أمراً ضرورياً من الشريعة في رعاية مصالح الخلق، والجلاد في هؤلاء أنفع من الجدال"[٣] .

والحدث الثاني في هذه المرحلة ذو الأهمية البالغة في التأريخ للجدل الفقهي، هو ظهور أبي الحسن الأشعري بمذهبه الجديد في العقيدة راجعاً عن مذاهب الاعتزال، وتاريخ هذا الرجوع يعود إلى أخريات أيام القاضي إسماعيل أو إلى بعد وفاته ببضع سنين، وإذا كان مذهب الأشعري قد أثر في أصول الدين وأصول الفقه وقواعد الجدل الفقهي والمناظرة، فإن هذا التأثير لم يتجل إلا في وقت لاحق عن عصر القاضي إسماعيل.

(١) قال الامام الذهبي في السير: "ان داود كان يقرئ مذهبه ويناظر عليه ويفتي به في مثل بغداد وكثرة الأئمة بها وبغيرها فلم نرهم قاموا عليه ولا انكروا فتاويه ولا تدريسه ولا سعوا في منعه من بثه وبالحضرة مثل إسماعيل القاضي شيخ المالكية وعثمان ابن بشار الانماطي شيخ الشافعية والمروذي شيخ الحنبلية وابني الإمام احمد وأبي العباس احمد ابن محمد البرتي سيخ الحنفية واحمد ابن أبي عمران القاضي ومثل عالم بغداد إبراهيم الحربي بل سكتوا له " سير إعلام النبلاء (١٣/ ١٠٥).

(٢) ترتيب المدارك (٤/ ٢٩٠). الديباج ١٥٤ (١٦٧).

(٣) البحر المحيط للزركشي (٥/ ٣١).

الجدل الفقهي في مجلس القاضي إسماعيل:

كان مجلس القاضي إسماعيل مجلس نظر وحجة وجدال مع الخصوم الفقهيين ، خاصة مذهب الحنفية والشافعية ، قال الشيرازي : "ورد على المخالفين من أصحاب الشافعي وأبي حنيفة "[١] ، لكن ردوده على الحنفية كانت أربى من ردوده على الشافعية، "وكان أبو حاتم القاضي الحنفي يقول :

لبث إسماعيل القاضي أربعين سنة يميت ذكر أبي حنيفة من العراق" [٢] .وكان الحنفية يعرفونه مناظر أهل المدينة وشيخهم المحجاج " قال إسماعيل القاضي : دخلت يوماً على يحيى بن اكثم ، وعنده قوم يتناظرون في الفقه ، وهم يقولون : قال أهل المدينة ، فلما رآني مقبلاً قال : قد جاءت المدينة"[٣] ، وكانت له مناظرات ومقابسات مع يحي بن اكثم ذكر بعضها ابن عبد البر في التمهيد[٤] .

ولابد من الإشارة إلى أن رد إسماعيل القاضي على الحنفية قد صاحبته ردود أخرى من طرف مالكية أقران له في أمصار المذاهب الأخرى :حيث ألف عصريوه المصري محمد ابن عبد الحكم (ت ٢٦٨)، والقرويان محمد بن سحنون (ت٢٥٦) وتلميذه أبو العباس ابن طالب (ت ٢٩٧) ردوداً على الحنفية ، في حين لا نعلم ردوداً عليهم من طرف نظرائه الأندلسيين.

كما أن ردوده على الشافعية قد صاحبتها ردود أخرى على الشافعي من طرف نظرائه القرويين والأندلسيين والمصريين ، فقد ألف الرد على الشافعي كل من محمد بن

---

(١) ترتيب المدارك (٤ / ٢٨٠).

(٢) ترتيب المدارك (٤ / ٢٨١).

(٣) ترتيب المدارك (٤ / ٢٨١) . تاريخ بغداد (٦/ ٦ ٢٨) سير اعلام النبلاء (١٣ / ٣٤٠).

(٤) انظر التمهيد (١٥ / ١٠٠).

عبد الحكم ومحمد بن سحنون، وتلميذه أبي العباس بن طالب ويحي ابن عمر تلميذ القاضي إسماعيل وتلميذه ابن اللباد ، ويوسف بن يحيي المغامي الأندلسي (ت٢٨٩) نزيل القيروان.

وتتحصل لدينا هنا ملاحظة جديرة بالاقتناص ، أن الرد على الشافعي وعلى أبي حنيفة اشتركت فيه علماء المذهب من كل الأمصار ربما لشيوع كتبهم واعتراضاتهم على المذهب المدني ، لكن البغداديين تفردوا على صعيد الردود على المذاهب بما يلي:

أولاً: الرد على محمد بن الحسن الشيباني ، وفيه الف القاضي إسماعيل وتلميذه ابن الجهم كتباً كبيرة كما سيأتي معنا.

وثانياً: الرد على المزني، إذ ألف فيه عدد من البغداديين كبكر بن العلاء القشيري تلميذ إسماعيل القاضي وتلميذ بكر أبو بكر الأبهري (ت ٣٧٥) وتلميذ الأبهري القاضي عبد الوهاب.

وثالثاً: الرد على ابن علية ، حيث ألف فيه الأبهري الصغير كتاباً كما سيأتي.

أما الردود على الظاهرية فقد بدأت مع البغداديين أولاً بتاليف بكر بن العلاء كتاب القياس، وتأليف عبد العزيز بن محمد البصري إثبات القياس، ثم رد عليهم القرويون بتاليف ابن أبي زيد كتاب الذب عن مذهب مالك ، أما الأندلسيون فلم يؤلفوا ردوداً على أهل الظاهر إلا بعد ظهور ابن حزم خلال القرن الخامس.

رد القاضي اسماعيل على الحنفية:

أودع القاضي إسماعيل ردوده على الحنفية ثلاث كتب له شهيرة:

أولها: أحكام القرآن وهذا الصنف من الكتب لدى المذاهب الفقهية يتضمن أحكام المذهب وتأصيلها والرد على المخالفين ، وثانيها: كتاب الرد على الحنفية،

وثالثها : كتاب الرد على محمد بن الحسن .

والنقول الثابتة عن القاضي إسماعيل هي من أحكام القرآن والرد على محمد بن الحسن ، في حين لم أطلع على نقول أو إحالات على كتابه الرد على الحنفية .

فأما أحكام القرآن فإنه يعد من أهم وأجود الكتب المؤلفة في هذا الباب ، جود في مدحه ابن العربي في أحكامه الصغرى وفضله صحبة تفسير الطبري على سائر كتب الأحكام[١] ، واهتم المالكية به أيما اهتمام درساً وخدمة، وأعتقد أن ظهور اختصاره الشهير لبكر بن العلاء القشيري الذي يوجد الآن في طور التحقيق[٢] ، سيكشف منهجه، وسيوثق مرحلة مهمة من تاريخ الجدل المذهبي بين المالكية وغيرهم بالعراق .

وتبين النقول المبثوثة في مؤلفات المالكية من أحكام إسماعيل القاضي أنه كتاب احتجاج للمذهب ورد على المذاهب الأخرى .

ومن الفائدة في هذا الباب الإشارة إلى أن كتاب الأحكام لإسماعيل قد أسبقه بكتاب ألفه عن شيخه أحمد بن المعذل ، قال ابن النديم : "كتاب أحكام القرآن عن أحمد ابن المعذل "[٣] .

ومن ردود إسماعيل على الحنفية في أحكام القرآن ما ذكره القرطبي في الجامع قال : "ذكر القاضي إسماعيل في أحكامه : زعم بعض العراقيين : إذا زوج أمته من عبده فلا مهر، وهذا خلاف الكتاب والسنة ، وأطنب فيه"[٤] .

---

(١) الأحكام الصغرى لإبن العربي (١ /٢٨).

(٢) حققه الباحث محمد الدوسري بجامعة الامام محمد ابن سعود .

(٣) الفهرست (ص ٥٩).

(٤) (٥/ ٩٤) النساء الآية (٢٥) المسألة ١٢ .

ورد على الحنفية في قولهم برفض الحائض العمرة إذا حاضت ، تعلقاً بحديث عروة عن عائشة أن النبي ﷺ قال : "دع العمرة" قال إسماعيل : " لما اجتمع هؤلاء الثلاثة، يعني : القاسم والأسود وعمرة على أن عائشة كانت محرمة بحج لا بعمرة ، علمنا بذلك أن الرواية التي رويت عن عروة غلط "(١) ، وله عليهم غير ذلك من الردود(٢) .

وأما كتابه الرد على محمد بن الحسن فإن هذا الأخير ألف كتاب الحجة ، رد فيه على مالك في حوالي أربعمائة مسألة(٣) ، ولم يؤلف أي رد من المالكية على هذا الكتاب حتى انبرى له إسماعيل وتعقب مسائله في كتاب عرف بكتاب الرد على محمد ابن الحسن.

(١) الاستذكار ١٨٧٣٩ .

(٢) انظر امثلة لذلك في الجامع (٩/٢١٩) المائدة ١٠٣ المسالة ٤ (٦/٥٨) المائدة الاية ٦ المسالة ٦ والاستذكار (١٢٤٧- ١٨٧٣٩).

(٣) المسائل التي جاءت في الحجة ، والتي رد في عمومها على مالك واهل المدينة ، فوجدت عددها كما يلي : الطهارات والصلاة: ٩٥ مسالة - الصيام ١٧ مسالة - الزكاه ٢٥ مسالة - زكاة الفطر ٨ مسائل - الحج ٦٢ مسالة - البيوع : ٥٥ مسالة - المضاربة ٢٠ مسالة - الحبس ٦ مسائل- الشفعة ١١ مسالة - النكاح والطلاق ٨٤ مسالة - المساقاه: ٥ مسائل - الفرائض : ٥ مسائل- الديات ٢٢ مسالة . قلت ومع ردود محمد ابن الحسن على مالك فإن من انصافه ان رجح قول المدنيين واخطاره في غير ما موضع من كتابه اذكر من ذلك ما في التكبير ايام التشريق : ان قول اهل المدينة ان التكبير من صلا ة الفجر يوم عرفة إلى آخرأيام التشريق، فقال : "وهذا القول احب الينا من قول ابي حنيفة " الحجة ١/ ٣١٠ . وقال ايضا في الاستسقاء بعد ان اورد قول ابي حنيفة انه لا صلاه فيه : " لكن قول اهل المدينة الاخر احب الينا من قولهم الاول ومن قول ابراهيم النخعي وابي حنيفة ، لانه امر قد جاءت به الاثار ".الحجة ١/٣٣٤ . وقال في زكاة الحبوب والثمار ردا على قول ابي حنيفة وابراهيم بوجوبها في قليلها وكثيرها :" ولسنا ناخذ بهذا من قول ابي حنيفة وابراهيم ، لكنا ناخذ بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم : (ليس فيما دون خمسة او سق صدقة " الحديث.. وكذلك قال اهل المدينة "١/٥٠٧ وقال ايضا ردا على ابي حنيفة في قوله اذا وافق يوم الجمعة يوم عرفة اوالنحر او احد ايام التشريق فلا جمعة بمنى اذا كان صاحب الموسم سلطانا او وال: " قول أهل المدينة في هذا اعجب الي من قول ابي حنيفة " الحجة ٢/٤٣١ .

وقد ألف قبله شيخه أحمد بن المعذل كتاب الحجة ، ويرجح عندي أنه ألفه للرد والاحتجاج على الحنفية معارضة لكتاب الحجة لمحمد بن الحسن ، إذ توجد نقول عنه تفيد هذا المعنى وتؤكد هذا الملحظ(١) .

وقد وصف القاضي عياض كتاب الرد على محمد بن الحسن لإسماعيل القاضي بأنه " كتاب كبير مائتا جزء"(٢) ، والراجح أن يعود كبره إلى استيعابه لمسائل الحجة والرد عليها مفصلة ، اذ نستنتج من خلال النقول التي وردت عنه أن القاضي إسماعيل رد على محمد ابن الحسن في ردوده على مالك بالتحديد ، وتعقبها عليه وصحح المذهب فيها ، خاصة وأن اعتراضات محمد بن الحسن في كتاب الحجة كانت معتمدة لدى الحنفية في مجالس المناظرة والعراق ، إذ يذكر ان يحيى بن أكثم قد ناظر إسماعيل القاضي معتمداً إعتراضات محمد وإدخالاته على المالكية في كتابه الحجة ، قال ابن عبد البر:

"وقد قال هذا إسماعيل بن إسحاق ليحيى بن اكثم حيث أدخل عليه في مناظرته إياه ما أدخله محمد بن الحسن على مناظرة عن أهل المدينة في كتابه "(٣) .

---

(١) منها ما جاء في التمهيد : " وقال احمد ابن المعذل الذي كان عليه الجلة من العلماء في القديم ان الحيض يكون خمس عشرة ليلة لا تجاوز ذلك وما جاوزه فهو استحاضة قال وعلى هذا كان قول اهل المدينة القديم واهل الكوفة حتى رجع عنه ابو حنيفة لحديث بلغه عن الجلد ابن ايوب عن معوية ابن قرة عن انس ابن مالك انه قال في المستحاضة تنتظر عشرا لا تجاوز فقال ابو حنيفة لم ازل ارى ان يكون اقل الطهر اكثر من اكثر الحيض وكنت اكره خلافهم يعني فقهاء الكوفة حتى سمعت هذا الحديث عن انس فأنا اخذ به قال أحمد ابن المعذل واختلف قول اصحابه في عدد الحيض وانقطاعه وعودته اختلافا يدلك على أنهم لم يأخذوه عن اثر قوي ولا اجماع "التمهيد (١٦ / ٨٠) .

(٢) ترتيب المدارك (٤ / ٢٩١) .

(٣) تمام النص : " وجائز لها عندنا ان تنكح اذا دخلت في الحيضة واستيقنت ان دمها دم حيض وقد قال هذا اسماعيل ابن اسحاق ليحيي ابن اكثم حين ادخل عليه في مناظرته اياه ما ادخله محمد ابن الحسن على مناظرة عن اهل المدينة في كتابه فقال له اتحل ام الولد للازواج اذا دخلت في الدم من الحيضة فقال له اسماعيل نعم تحل للازواج لأن ظهور الدم براءة لرحمها في الاغلب المعمول به . التمهيد (١٥ / ١٠٠) .

وقد قام تلميذ القاضي إسماعيل أبو العباس بن سريج الشافعي (ت ٣٠٦) بتأليف كتاب " التوسط بين إسماعيل القاضي ومحمد بن الحسن " ، تفرد بذكره القاضي عياض في المدارك[(١)] .

وأختم هنا بمثال منقول عن هذا الكتاب ، يوضح أن إسماعيل في رده على محمد ابن الحسن إنما تعقب عليه رده على مالك في الحجة ، فقد قال محمد بن الحسن في كتاب الحجة رداً على أهل المدينة في مسألة النزول بالمعرس : " وقد بلغنا أن رسول الله ﷺ عرس به وأن عبد الله ابن عمرأناخ به ، وليس هذا عندنا من الأمر الواجب الذي لابد منه ، إنما هو منزل نزله رسول الله ﷺ .. ولو كان هذا من الواجب لقال فيه رسول الله ﷺ واصحابه قولاً أبين من الفعل حتى يعرفه الناس بالقول دون الفعل"[(٢)] ، وهذه المسألة هي التي رد إسماعيل القاضي عليه في هذه المسألة بقوله : " ليس نزوله بالمعرس كسائر منازل طرق مكة، لأنه كان يصلي الفريضة ، حيث أمكنه ، والمعرس إنما كان صلى فيه نافلة قال : ولا وجه لتزهيد الناس في الخير ، قال : ولو كان المعرس كسائر المنازل ما أنكر ابن عمر على نافع تأخره عنه ، وذكر حديث موسى ابن عقبة ، عن نافع أن ابن عمر سبقه إلى المعرس، فأبطأ عليه فقال له : ما حسبك ؟ فذكر عذراً ، فقال : ظننت أنك أخرت الطريق ، ولو فعلت لأوجعتك ضرباً ، وذكر حديث موسى ايضاً عن سالم عن أبيه أن النبي ﷺ أتى المعرس من ذي الحليفة في بطن الوادي ، فقيل له : إنك في بطحاء مباركة "[(٣)] .

---

(١) ترتيب المدارك (٤ / ٢٩١).

(٢) الحجة (٢ / ٤٧٧) وهي المسألة الثانية والستون في المجلد الثاني التي رد فيها محمد على مالك ، حسب ما أحصيته ، وموضوعها السهو عند تكبيرة الاحرام.

(٣) الاستذكار ١٨٥١٥ . هناك مثال ثان ورد ايضا في كتاب ابن عبد البر قال : "واما اختلاف فقهاء الأمصار في الذي تكلم وقد سلم من صلاته ، قبل ان يتمها وهو يظن انه قد اتمها ، فإن مالكا واصحابه اختلفوا في ذلك : فروى سحنون عن ابن القاسم عن مالك قال : لو ان قوما صلى بهم رجل ركعتين وسلم ساهيا، =

الرد على الشافعي:

رد القاضي إسماعيل على الإمام الشافعي في أحكام القرآن وفي كتابه الرد على الشافعي ، وهذا الكتاب اقتصر فيه على مسائل قليلة منها مسألة الخمس وغيره، ولذلك اشتهر بكتاب الخمس[١] .

وعلى كل حال فما نقل من رد على الشافعية كثير[٢] ، وقد كانت له مساجلات ونقوض مع كبار الشافعية بالعراق وعلى رأسهم زكريا الساجي (ت٣٠٧) في مسألة حديث القلتين التي قال بها الشافعية ، على ما يحكيه ابن عبد البر في كتابه إذ يقول : " وقد تكلم إسماعيل في هذا الحديث [حديث القلتين] ورده بكثير من القول في كتاب أحكام القرآن ، وقد رد الشافعيون عليه قوله في ذلك بدروب من الرد ، وممن نقض ذلك منهم أبو يحيي في كتاب أحكام القرآن"[٣] ، قال ابن عبد البر تعليقاً على قول إسماعيل: "وأما ما ذهب إليه الشافعي من حديث القلتين، فمذهب ضعيف من النظر غير ثابت من

= فسبحوا به فلم يفقه ، فقال له رجل من خلفه ممن هو معه في الصلاة : انك لم تتم صلاتك ، فالتفت الى القوم فقال : احق ما يقال هذا ؟ فقالوا : نعم قال : يصلي بهم الامام ما بقى من صلاتهم ويصلون معه بقية صلاتهم من تكلم منهم ، ومن لم يتكلم ، ولا شيء عليهم ، ويفعلون في ذلك ما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم ذي اليدين . هذا قول ابن القاسم في كتبه الاسدية ، وروايته عن مالك ، وهوالمشهور من مذهب مالك عند أكثر أصحابه ، وبه قال إسماعيل ابن إسحاق ، واحتج له في كتاب رده على محمد ابن الحسن .. "الاستذكار ٥٢٣٤ . واصل المسألة في الحجة على أهل المدينة هو في ١ / ٢٦٣ المسألة السابعة والخمسين ، السهو عند تكبيرة الاحرام.

(١) انظر النقل عنه في كتاب الاحكام لابن حزم ٣ / ٢٧٥

(٢) انظر أمثلة على ذلك في الاستذكار ١٥٨٨-١٢٤٧-٢٣١٥٤-١٧٣٢٠ ، وشرح التلقين بتحقيق السلامي ١/٤٦٨- ٤٦٩ .

(٣) الاستذكار ١٥٨٩ .

جهة الأثر :"[٤] .

ومنه رده عليهم في قولهم في حديث (الأيم أحق بنفسها من وليها) أن المقصود بالأيم هي الثيب ، وأن الولي هنا هو الأب [٢] ، وفي مسألة إحداث الطلاق ثلاثاً بلفظ واحد [٣] ، وغير ذلك.

---

(١) الجامع لأحكام القران ١٣ / ٣٠ . قال ابن العربي : "وقد رام الدارقطني على امامته ان يصحح حديث القلتين فلم يقدر .. وقد فوضت الطوسي الاكبر في هذه المسالة ، فقال ان اخلص المذاهب في اهذه المسالة مذهب مالك ، فان الماء طهور مالم تتغير احد اوصافه، اذ لا حديث في الباب يعول عليه ،وانما المعول على ظاهر القران ، وهو قوله تعالى ﴿ **وانزلنا من السماء ماء طهورا** ﴾ الجامع ١٣/٣٠ [الفرقان الاية ٤٨] المسالة٣ .

(٢) "وقال اسماعيل ابن اسحاق : الأيم هي التي لا زوج لها ، بالغا كانت او غير بالغة ، بكرا كانت او ثيبا ، قال ولم يدخل الاب في جملة الاولياء لأن امره في ولده اجل من ان يدخل في الاولياء الذين لا يشبهونه وليس لهم احكامه . قال :والدليل على ان الايم كل من لا زوج لها قوله تعالى (**وأنكحوا الأيامى منكم**) الاية ،يعني كل من لا زوج لها ، قال: وانما في الحديث معنيان : احدهما ان الايامى كلهن احق بانفسهن من اوليائهن ، وهم من عدا الاب من الاولياء .والمعنى الاخر : تعليم الناس كيف يستأذنون البكر ، وان اذنها صمتها ، لأنها تستحي ان تجيب بلسانها . قال :والدليل على ذلك ان الاب له ان يزوج الصغيرة اذا بلغت ، وانما جاز له بإجماع المسلمين ، ثم يلزمها ذلك، ولا يكون لها في نفسها خيار اذا بلغت . وانما جاز له ان يزوج الصغيرة لدخولها في جملة الايامى ، ولو كانت احق بنفسها لم يكن له ان يزوجها حتى تبلغ وتستاذن " الاستذكار ٢٣١٦١ .

(٣)"قال الشافعي : في حديث عبد الله بن عمر دليل على اباحة الثلاث في الطلاق في كلمة واحدة، لقول النبي ﷺ لعمر مره فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض ، ثم تطهر ، ثم ان شاء طلق بعد وان شاء امسك ، ولم يذكر عددا من الطلاق ، قال اسماعيل القاضي: يقال للشافعي النبي ﷺ [لم] ٩٣ينكر على عبد الله ابن عمر الطلاق ، وانما انكر عليه موقع الطلاق ، فعلمه موضعه ، وكيف يوقعه ، ولم يرد ان يعرفه عدد الطلاق ، اذ كان ابن عمر قد اصاب فيه ولا احسب الشافعي يكون اعلم بهذا من عمر وابن عمر ، وقد قالا جميعا : من طلق ثلاثا فقد عصى الله ، ولو كان من السنة اباحة طلاق الثلاث في كلمة كما قال الشافعي لبطلت الفائدة في قوله تعالى (**لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك امرا**) ، قال اهل التفسير : يعني الرجعة في العدة ،واي رجعة تكون بعد الثلاث الا ان تنكح زوجا غيره " تفسير الموطأ لأبي المطرف القنازعي (ت٤١٣) ص ١١٦ – ١١٧ .

وبالرغم من كثرة ردود القاضي إسماعيل على المخالفين فقد كان رجل حجة واتباع لما رجح عنده من الدلائل، ولذلك فانه خالف مالكاً ووافق الحنفية أو الشافعية في عدد من المسائل ، منها موافقتهما في ادخال المرفقين في حد التيمم قياساً على الوضوء ، في حين يرى مالك في المدونة أن ذلك استحباب [١] ، ومنها خلافه لمالك في زكاة العسل ، فقال مالك لا زكاة في العسل ، وقال إسماعيل : فيه الزكاه [٢] ، ومنها مخالفته الرواية المشهورة عن مالك أن "طواف الدخول إذا وصل بالسعي يجزيء عن طواف الإفاضة لمن تركه جاهلا أو لسنة " [٣] ، فقال القاضي إسماعيل : "لا يجزئ عن طواف الإفاضة إلا ما كان من الوقوف بعرفة قبل الجمرة أو بعدها" [٤] . وخالف مالكاً في توبة القاذف، فقال مالك : صلاح الحال والتوبة كافيان في قبول شهادته ، أكذب نفسه أم لم يكذب "وقال إسماعيل ابن إسحاق : "توبة القاذف لا تكون حتى يكذب نفسه ، وإكذابه كلام يتكلم به ، وإذا تكلم به وأصلح في حاله قبلت شهادته " قال ابن عبد البر تعليقاً: "قول إسماعيل هذا كقول الشافعي سواء ، وهو قول عمر بن الخطاب في جماعة الصحابة من غير نكير" [٥] وخالف مالكاً في عدة أم الولد ، اذا مات عليها زوجها وهي حائض ،فذهب مالك والشافعي في أحد قوليه إلى أنها تبتدئ حيضه جديدة ، "وقال الليث بن سعد تجزئها تلك الحيضة ، وقاله إسماعيل بن إسحاق " [٦] وخالفه في من اغتصب جلد ميتة غير مدبوغ ، فقال مالك: لا شيء عليه مطلقا ، وقال إسماعيل: عليه القيمة إن كان لمجوسي [٧] ،

---

(١) الجامع للقرطبي ٥ / ١٥٥ النساء الاية ٤٣ المسالة ٤٤ .

(٢) الاستذكار ١٣٣٤١ .

(٣) الاستذكار ١٦٨٩٤ قال ابن عبد البر :" ولا اعلم احدا قاله غير مالك ومن اتبعه ومن اصحابه" .

(٤) الاستذكار ١٦٨٩٥ .

(٥) الاستذكار ٣١٧٠٧ .

(٦) الاستذكار ٢٧٤٥٥ .

(٧) الاستذكار ٢٢٢٤٢ .

وخالف رواية ابن القاسم عن مالك: في الرجل يهدي بدنه ، قال مالك: لا يلزمه النزول عنها، وقال إسماعيل: يلزمه[(١)] . وخالف مالكاً في الذي يطأ النساء قبل الإفاضة بعد رمي الجمار ، وعلق على قوله "هذا قول ضعيف"[(٢)] ، وهكذا فإن مخالفة القاضي لمالك او لمشهور قول كثيرة ، يعسر استقصاؤها هنا[(٣)] ، وهي تدل على أن الجدل المذهبي عند مالكية العراق وجه من وجوه الاجتهاد لا وجه من أوجه التعصب المذهبي.

حماد بن إسحاق ت ٢٦٧ :

صحب القاضي إسماعيل في الاشتغال الفقهي ونصرة مذهب المدنيين بالعراق من طبقته أخوه حماد الذي شاركه في شيوخه قال عنه النقاد : "كان حسن القيام بمذهب مالك والاعتلال له والتصنيف لفنون من علم الاسلام " ، "ألف كتباً كثيرة " ، له من المؤلفات الجدلية كتاب رده على الشافعي.

الجدل الفقهي لدى تلاميذ إسماعيل القاضي:

تميز الجدل الفقهي في هذه المرحلة باستواء الدرس المالكي على سوقه، وانتشار

---

(١) قال القرطبي: "والمشهور انه لا يركبها الا ان اضطر اليها لحديث جابر ، فإنه مقيد والمقيد يقضي على المطلق، وبنحو ذلك قال الشافعي وأبو حنيفة ، ثم إذا ركبها عند الحاجة نزل، قاله القاضي إسماعيل وقوله (اذا الجات اليها حتى تجد ظهرا) ، يدل على صحة ما قاله الإمام الشافعي وأبوحنيفة رضي الله عنهما وما حكاه اسماعيل عن مذهب مالك"الجامع (١٢ / ٣٩) الحج الآية (٣٣ – ٣٤) المسالة ٥ .

(٢) "وتحصيل مذهب ابن القاسم عن مالك ان من وطئ بعد يوم النحر ، وان لم يرم الجمرة ، فليس عليه إلا الهدى والعمرة خاصة ، وانما يكون عندهم الهدى اذا وطئ بعد رمي الجمرة قبل الافاضة . قال عبد الملك ابن الماجشون : إنما جعل مالك عليه العمرة مع الهدى ليكون طوافه بالبيت في إحرام صحيح قال اسماعيل : هذا قول ضعيف ، لأن احرامه لعمرة يوجب عليه طوافا لها وسعيا ، فكيف يكون الطواف للعمرة والافاضة معا؟" الاستذكار ١٧٨٠٢ .

(٣) انظر امثلة اخرى في الاستذكار ١٣٣٤١– ٧٨٩٣–٧٨٩٤–٥٣٧٢–٣٦٣٩–١٧٩٥٧ . والجامع لأحكام القران (٧ / ٦٨) سورة الأنعام الآية ١٤١ المسالة ٦ .

مذهب مالك في ربوع العراق وأنحاء من خراسان وأقصى المشرق، وكان أصحاب إسماعيل القاضي من أنجب طلاب المذهب وأكثرهم حذقاً بالمذهب والأصول والخلاف .

كما أنجب مذهب الشافعي بالعراق طبقة من أكبر علماء المذهب كتلاميذ ابن سريج وأبي سعيد الأصطخري كالداركي (٣٧١) وابن الحداد المصري (ت ٣٤٥) وأبي حامد المروزي (ت ٣٦٢) ونظرائهم.

وظهر في هذا العهد الإمام أبو جعفر الطحاوي المختص في درء التعارض بين الحديث وبين مذهب أبي حنيفة في كتبه المبسوطة في مختلف الآثار ومشكلها والاختلاف .

واستوى في هذا الوقت مذهب أحمد بواسطة الخلال، وظهر الامام النجاد صاحب أول مؤلف في الخلاف في مذهب أحمد، وصار لمذهب أحمد أتباع بكثرة الوعاظ من أصحابه أمثال الحسن بن علي البربهاري (ت ٣٢٨) وغيره .

وأما مذهب الظاهر فقد كان في قمة نشاطه العلمي إذ كان جل أتباع داود نظاراً جدليين كباراً ، على رأسهم ابنه أبو بكر وابن المغلس والقاشاني وأبو بكر بن جابر بل إن مذهب الظاهر وجد طريقه إلى الأندلس[(١)] ، وأنجب فيها عبد الله بن قاسم بن هلال ومنذر ابن سعيد البلوطي .

---

(١) من أول من ادخل مذهب داود الى الاندلس عبد الله ابن قاسم ابن هلال ابو محمد (ت ٢٧٠) "كان يميل الى القول بالظاهر "جذوة المقتبس ٢٦٤ (٥٣٦) . "كان يميل الى علم داود والحجة " تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ١ /٢٥٧ (٦٥٥) ، قال عنه ابن حزم: "واذا نعتنا عبد الله ابن قاسم ابن هلال ، او منذر ابن سعيد لم نجار بهما الا ابا الحسن ابن المغلس والخلال والدياجي ، ورويم ابن احمد ، وقد شركهم عبد الله في محبة ابي سليمان ، وصحبته يعني داود ابن علي" جذوة المقتبس ٢٦٩ ، ثم بعده منذر ابن سعيد (ت٣٢٧) "كان مذهبه في الفقه مذهب النظر والاحتجاج ، وترك التقليد ، وكان عالما باختلاف العلماء ، وكان يميل الى رأي داود ابن خلف القياسي ، ويحتج له .. وكان بصيرا بالجدل .. وله كتب مشهورة كثيرة مؤلفة في القران والفقه والرد. معجم المؤلفين ٣/ ٩١١ (١٧٢٣) اخذها الناس عنه وقرؤوها عليه تاريخ العلماء والرواة بالاندلس ٢ /١٤٢- ١٤٣(١٤٥٤)قال ابن حزم :"كان مائلا الى القول بالظاهر ، قويا على الانتصار لذلك ، من مصنفاته الانباه على استنباط الاحكام من كتاب الله "جذوة المقتبس ٣٤٩(٨١١).

وفي هذا الوقت أيضا ظهرت الجهود الأولى في جدل الفقهاء على مستويين : المستوى الأول تأليف أولى مؤلفات مسائل الخلاف وكان مؤلف أبي الحسن بن المنتاب المالكي مسائل الخلاف والحجة لمالك وكتاب مسائل الخلاف للبرادعي الحنفي (ت٣١٧) من أولى مؤلفات هذا الشأن .

والمستوى الثاني : تأليف مؤلفات قواعد الجدل وأصول النظر والحقيقة أن التأليف في هذا الجدل قد ابتدأه أهل الغرب الاسلامي بتأليف محمد بن سحنون (ت٢٥٦) "رسالة في ادب المتناظرين ، جزآن"(١) ، وقد نص الحجوي الثعالبي أن هذا أول تأليف في هذا المجال(٢) ، أما بالمشرق فقد ألف فيه نظار الشافعية ، وهم ابن سريج الذي وصفوه بأنه أول من علم الفقهاء طريق الجدل الحسن،وتلميذه القفال الذي يعتبره الشافعية اول مؤلف في جدل الفقهاء، وأبو علي الطبري صاحب المحرر، قال الخطيب : "وهو اول كتاب صنف في الخلاف المجرد"(٣) .

محمد بن يوسف أبو عمر القاضي(ت٣٢٠) (ابن عم القاضي إسماعيل وحاجبه في قضائه) :

كان أبو عمر امتداداً لإسماعيل القاضي وأحد رواد كتبه، وكان مجلسه مجلس مناظرة بين مذاهب الرأي، فقد "كان يتناظر بين يديه أئمة المذاهب"(٤) ، وكانت المناظرات في مجلسه جامعة بين أهل الفقه وأهل الحديث، يحضر فيها أئمة الوقت في الآثار كابن

---

(١) ترتيب المدارك (٤/٢٠٧).

(٢) أنظر الفكر السامي (٣/٩٩- ١٢٩).

(٣) تاريخ بغداد ٨/٨٧ (٤١٨١).

(٤) ترتيب المدارك ٥/٣ الديباج ٣٤٠ (٤٥٢).

منيع وأبي بكر النيسابوري وابن صاعد وغيرهم[١] .

ويحكي المؤرخون أن أجود مناظرات مجلسه هي التي كان يحضر فيها أبو بكر بن داود وأبو العباس بن سريج ، " كان محمد بن داود وابن سريح إذا حضرا مجلس أبي عمر القاضي، لم يجر بين اثنين فيما يتفاوضانه أحسن مما يجري بينهما"[٢] .

وكان لأبي عمر مناظرات كثيرة مع ابن سريج يحكي بعضها ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى[٣] ، كما كانت له مناظرات ومدافعات فقهية مع فقيه الظاهرية وخلافيهم أبي إسحاق ابن جابر، قال تعليقاً عليها :" فما عثرنا عليه بخطأ "[٤] .

وتظل المناظرة الشهيرة لأبي عمر القاضي هي التي جمعته بأبي بكر الصيرفي الشافعي(ت٣٣٠) في عمل أهل المدينة ، وذلك أن عمل أهل المدينة ظل مسألة غير محررة، يقول فيها المالكية الأوائل بقول ذي إجمال وينقض عليهم الشافعية وغيرهم بردود غير دقيقة ، فلما جاء أبوبكر الصيرفي ألف كتاب الدلائل والأعلام ورد فيه على المالكية في العمل، قال الزركشي :"وصنف الصيرفي فيها وطول في كتابه الأعلام الحجاج مع الخصم .."[٥] ، وزاد الأمر إشكالا وتحاملاً بنسبته إلى مذهب مالك مالا يقول به ، فانبرى له القاضي أبو عمر وناظره، قال الزركشي :" ولم تزل هذه المسألة موصوفة بالإشكال وقد

---

(١) "ولم يرى الناس أحسن من مجلسه لم حدث ، وذلك ان العلماء واصحاب الحديث كانوا يتجملون بحضور مجلسه ، حتى انه كان يجلس للحديث وعن يمينه ابو القاسم ابن منيع ، وهو قريب السن والاسناد من ابيه ، وابن صاعد عن يساره وابو بكر النيسابوري بين يديه ، وسائر الحفاظ حول سريره " ترتيب المدارك ٥/٣ – ٤، سير اعلام النبلاء ١٤/ ٥٥٦ .

(٢) سير اعلام النبلاء ١٣ / ١١٠ .

(٣) طبقات الشافعية ٣/٤٥٦–٤٥٧ .

(٤) ترتيب المدارك ٥/ ٧ .

(٥) البحر المحيط ٤ /٤٨٣ .

دارت بين أبي بكر الصيرفي وأبي عمر من المالكية "[١] .

وما لم يذكره الزركشي هنا أن المناظرة في العمل بين أبي بكر الصيرفي وأبي عمر اعيدت فيها النقود والاعتراضات والانفصالات بين الصيرفي وبين ابن أبي عمر المذكور القاضي أبي الحسين الحمادي ، وهو الذي الف رداً على الدلائل والأعلام للصيرفي المعروف بمؤلفه " الرد على من أنكر إجماع أهل المدينة ، وهو نقض لكتاب أبي بكر الصيرفي "[٢] .

والجديد الذي حملته هذه المناظرات أن المالكية تجردوا لأول مرة لمسألة العمل بالاستقراء والتحديد والتفصيل، فلم يعودوا يحتجون على عمل أهل المدينة بإجمال وإطلاق ، إنما غدوا يميزون بين ما كان من مسائل العمل مظنة نقل وتوقيف فأجمعوا على حجيته تنزيلاً له منزلة الخبر المتواتر ، وبين ما كان مظنة اجتهاد ونظر، فاختار نظارهم البغداديون انه ليس حجة وقال بعضهم: هو حجة ولا تحرم مخالفته على ما هو مبسوط في أصول الفقه[٣] .

عبد الله بن المنتاب أبو الحسن :

من تلاميذ القاضي إسماعيل القاضي البغدادي الألمعي أبو الحسن بن المنتاب قاضي

---

(١) البحر المحيط ٤ / ٤٨٩ . انبه هنا على ان المحقق وضع بيانا لقول المصنف "ابي عمر" فزاد في قلب النص "ابن عبد البر" ، وهو خطأ من حيث انه تدخل في النص ، ومن حيث انه لا يجمل ان يشتبه عليه في هذا السياق ابو عمر القاضي (ت٣٢٠) بأبي عمر ابن عبد البر (ت٤٦٣) ، والتاريخ يحيل المنارة بين ابن عبد البر والصرفي م بجهتبي الزمان والمكان ، فأما الزمان فيزيد ما بينهما عن المائة عام واما المكان فابن عبد البر لم يرحل من الاندلس أصلا .

(٢) ترتيب المدارك ٥ / ٢٥٧ .

(٣) انظر في عمل اهل المدينةالمعونة للقاضي عبد الوهاب ٣ / ١٧٤٣ ، ورسالة "صحة اصول مذهب اهل المدينة" لابن تيمية (ت٧٢٨) ص ٣٦ وشرح تنقيح الفصول ص ٣٣٤ والمنهاج في ترتيب الحجاج للباجي ص١٤٣ (٢٩٢) ترتيب المدارك ١ / ٤٧ والبحر المحيط للزركشي ٤ / ٣٨٠ .

المدينة المنورة، وصفه العلماء بأنه من "فقهاء أصحاب مالك وحذاقهم ونظارهم وحفاظهم وائمة مذهبهم"[١] ، وألف أول كتاب في مسائل الخلاف في مذهب مالك وهو كتاب" مسائل الخلاف والحجة لمالك نحو مئة جزء "[٢] . وألف أيضاً كتاباً في الحجة بمذهب مالك وتفضيل مذهبه ، هو فضائل مالك ومناقبه [٣] .

محمد بن أحمد بن بكير أبو بكر التميمي (ت ٣٠٥) :

كان ابن بكير "فقيها جدليا"[٤] ، أخذ ذلك بتفقهه على القاضي إسماعيل "يروي عن القاضي إسماعيل ، وهو من كبار أصحابه الفقهاء"[٥] ، وكان من مناظراته ودروسه من "أحذق الناس بمذهب مالك"[٦] ، وقد ألف في الجدل الفقهي كتابين أولهما كتاب مسائل الخلاف [٧]، والثاني أحكام القرآن ، قال عنه الذهبي "ومؤلفه في الأحكام نفيس" [٨] ، "كان الشيخ أبو عمر بن عبد البر رحمه الله يقول : ثلاثة كتب مختصرة في معناها أوثرها وأفضلها ، مصنف أبي عيسى الترمذي في السنن، والأحكام في القرآن لابن بكير ، ومختصر ابن عبد الحكم "[٩] .

ومن المواقف الجدلية لابن بكير في كتبه: رده على الظاهرية في كفارة الخطأ في صيد

---

(١) ترتيب المدارك ٥/ ٢ .

(٢) رتيب المدارك ٥/ ٢ . الديباج ٢٣٧ (٣٠٠)

(٣) ترتيب المدارك ١/ ٩ .

(٤) رتيب المدارك ٥/ ١٦ .

(٥) رتيب المدارك ٥/ ١٦ .

(٦) الوافي بالوفيات ٢/ ٥٩ .

(٧) ترتيب المدارك ٥/ ١٧ . الديباج ٣٤١ (٤٥٤).

(٨) سير اعلام النبلاء ١٥/ ٥٣٨ .

(٩) فهرسة ابن خير ص ١٢١ .

الإحرام[(١)] ، ورد على بعض الحنفية والشافعية في قولهم بعدم حجية شرع من قبلنا[(٢)] ، كما رد على الحنفية في معرض قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾[(٣)(٤)] ، وعلى الشافعية في حديث القلتين[(٥)] ، ورد على الشافعية في قولهم بأن البسملة اية من الفاتحة[(٦)] .

وانقل هنا نصاً نفيساً عن ابن بكير يتضمن مقامات جدلية ومناظرة رفيعة للمخالف، أورده أبو المطرف عبد الرحمن بن مروان القنازعي (ت٤١٣) عنه في شرحه على الموطأ : "وقال ابن بكير البغدادي : قد عارض معارض في الزنديق الذي تأسره البينة، فيقول إني تائب ، فيقتل ، فقال المعارض : هل كافر أم غير كافر ؟ فإن كان كافرا فلا تورثونه ورثته المسلمين ، وإن كان غير كافر فلا يقتل ، قال ابن بكير : فيقال لمن قال هذا : قد حكم النبي ﷺ في ابن وليدة زمعة . . بأن ألحقه بزمعة ثم أمر أخته سودة بأن تحتجب منه لما رأى من شبهه بعتبة[(٧)] ، فهو لسودة أخ في النسب والموارثة، وحكمه في الحجاب غير حكم

---

(١) الجامع ٦ /١٩٩ المائدة الاية ٩٥ المسالة ١٠ .

(٢) الجامع ٧ /٢٥ الانعام الاية ٩٠ المسالة ١ .

(٣) سورة الأنعام الآية (١٤١).

(٤) "القاطع المعلوم ماذكره ابن بكير في أحكامه ان الكوفة افتتحت بعد موت النبي ﷺ وبعد استقرار الاحكام في المدينة ، افيجوز ان يتوهم متوهم او من له ادنى بصيرة ان تكون شريعة مثل هذه قد عطلت ، فلم يعمل بها في دار الهجرة ومستقر الوحي ، ولا في خلافة ابي بكر حتى عمل بذلك الكوفيون ، ان هذه لمصيبة فيمن ظن هذا وقال به . ."الجامع ٧ /٦٧المسالة ٦ .

(٥) الجامع ١٣ / ٣٠ الفرقان الاية ٤٨ المسالة ٣ .

(٦) الجامع ١ /٦٧المسالة الخامسة من البسملة ، وانظر نقولا اخرى عن ابن بكير في احكامه ، في الجامع ٥ / ٨١ النساء الاية ٢٤ المسالة ٢ ،والجامع ١٣ / ٣٠ الفرقان الاية ٤٨ المسالة ٣ ، الجامع١ / ٩١ الفاتحة تفسير امين المسالة ٦ .

(٧) جملة مشتبهة في الاصل رسمت كذا: (لما كان امن) .

الأخ، فكذلك الزنديق حكمه حكم الكافر في القتل، وحكمه حكم المسلم [١] في الميراث [٢].

محمد بن أحمد أبو بكر بن الجهم المعروف بابن الوراق المروزي (ت ٣٢٩) :

كان ابن الجهم من كبار تلاميذ القاضي إسماعيل وابن بكير وطبقتهما ومعه امتد الجدل الفقهي في مدرسة بغداد المالكية وقد تميز ابن الجهم بجمعه بين جودة النظر والاستبحار في الاثار (وكان صاحب حديث وسماع وفقه) [٣] (قال أبو الوليد الباجي : أبو بكر مشهور في أئمة الحديث) [٤] لذلك كانت مصنفاته جامعة بين نصرة المذهب والاحتجاج بالآثار ، قال الخطيب البغدادي (ت٤٦٣) : (له مصنفات حسان محشوة بالآثار يحتج لمالك وينصر مذهبه ، ويرد على من خالفه) [٥].

فقد تابع ابن الجهم جهود شيخيه إسماعيل القاضي وابن بكير في مسائل الخلاف ، فألف الرد على محمد بن الحسن ، وألف كتاب مسائل الخلاف والحجة لمالك وهو كتاب توجد عنه نقول كثيرة ، لكنه ما زال مفقوداً وما تذكره عدد من الدراسات والبحوث انه مخطوط بالقرويين وهم محض ممن نسبه إليه أول مرة [٦] ، فالكتاب المخطوط بالقرويين تحت عدد (٣٢٠٥) هو كتاب في مسائل الخلاف.

---

(١) في الاصل المسلم.

(٢) تفسير الموطا للقنازعي ص: ١٨١ .

(٣) ترتيب المدارك ٥/ ٢٠ .

(٤) ترتيب المدارك ٥/ ٢٠ .

(٥) تاريخ بغداد ١/ ٢٨٧(١٣٥) ترتيب المدارك ٥/ ٢٠ الديباج ٣٤١(٤٥٥) .

(٦) المطلع لاول وهلة علي المخطوط يقف على انه لبعض الشافعية بمطالعة اولي ورقاته ، فيقول صاحب مسائل الخلاف المذكور: (لا يجمع بين فرضين في التيمم خلافا له ، والمسالة غامضة والشافعي يعول فيها علي آثار.. (مسائل الخلاف خ القرويين ص: ٧، وهذه من المسائل التي اتفق فيها المذهبان المالكي والشافعي انظر التلقين ص: ٢١، لكنني اوردت هذا النص هنا لتنصيصه على الإمام الذي ينصر مذهبه اما المسائل التي ينصرها صاحب الكتاب والتي نختلف فيها مع المالكية فكثيرة اذكر منها : ما قال صاحب مسائل الخلاف : =

لبعض الشافعية ينتصر فيها لمذهب الشافعي على مذهب أبي حنيفة ، مورداً للاعتراضات والأجوبة على المسائل الخلافية بين المذهبين ، إضافة إلى أن اصطلاحاته وأسلوبه لا يصحح نسبة الكتاب لابن الجهم، فكتاب ابن الجهم مفعم بالآثار والأحاديث والعلل ، كما تدل عليه النقول الكثيرة في كتاب الذب عن مذهب مالك لابن أبي زيد،أما مسائل الخلاف المخطوط بالقرويين فذو لغة جدالية صناعية عديمة الاسناد قليلة الآثار يرجح كثيراً أن يكون مؤلفها من علماء الشافعية من القرن الخامس أو السادس.

وقد رد ابن الجهم في كتبه على المذاهب الأخرى، كقول المازري : " وهكذا اعتل ابن الجهم لما رد على الشافعي"[1] .

= (مسح الراس يستحب فيه التكرار خلافا له ..(مسائل الخلاف ص القريين ص: ٢، في حين يقول المالكية: (ولا فضيلة في تكرار مسح الراس والاذنين) التلقين ص: ر١٤ وقال ايضا "مسالة :لمس الرجل امراته ناقض للوضوء ، خلافا له، والمعتمد قوله تعالى او لامستم النساء ، واللمس حقيقة في انتقاء البشرتين والجس باليد "مسائل الخلاف خ القروين ص ٣ : في حين يقول المالكية : "تامل لمس النساء فيجب الوضوء منه اذا كان للذة .." التلقين ص : ١٥ ، ومنها قوله : " مسالة سؤر السباع كلها طاهرة الا سؤر الكلب والخنزير .. "–مسائل الخلاف خ القرويين ، ص :١١ ، في حين يقول المالكية " والحيوان كله طاهر العين طاهر السؤر ، الا مالا يتوقى النجاسة غالبا كالكلب والخنزير والمشركين ، فاسآرهم مكروهة ..ط"التلقين صفحة:١٧، ومنها قول صاحب مسائل الخلاف : "الصلاة تجب اول الوقت وجوبا موسعا، وقال ابو حنيفة لا تتصف بالوجوب الا في اخر الوقت.. " مسائل الخلاف خ القرويين ص :١٤ في حين قال الباجي ذاكرا المذاهب في هذه المسالة : "قال اصحاب الشافعي: انه يجب في اول الوقت ، وانما ضرب اخره توقيتا للاداء وتميزا له من القضاء، وقال اصحاب مالك رحمه الله: ان جميع الوقت وقت للوجوب ، وقال المتاخرون من اصحاب ابي حنيفة لا يجب باول الوقت ولا وسطه، وانمايجب بالوقت الذي اذا تركه كان اثما.."احكام الفصول ص: ٢١٥(٨٧) . والامثلة التي يقطع بها على ان الكتاب ليس لأبن الجهم ، وانما هو لأحد ائمة الشافعية ، يرد فيها على الاحناف كثيرة وما مثلنا به هنا حاسم في نفيه عنهم ، لا حاجة الى التطويل بإيرادها.

(١) المعلم للمازري ٢ / ١٤٠ .

ونظرا لاستبحاره في الحديث والأدلة وقيامه بالحجة فإنه طالما خالف مذهب مالك متبعاً ما أداه إليه اجتهاده فوافق الشافعية أو الحنفية ، كقوله بالمفاضلة بين الفارس والراجل بأكثرمن فرس واحد ، موافقا لمذهب أبي حنيفة، وعلل ذلك بأنه "أكثر عناء وأعظم منفعة"[١] قال ابن عبد البر: " وممن قال يسهم لفرسين: الحسن البصري ومكحول الشامي ويحيى ابن سعيد الانصاري ، واختاره محمد بن الجهم المالكي ، قال : وقد رأيت أهل الثغور يسهمون لفرسين، وتأملت أئمة التابعين بالأمصار ، فرأيت أكثرهم يسهمون لفرسين"[٢] ومنه ترجيحه قول أبي حنيفة إن: القصر في السفر واجب[٣] ، وتقلد ذلك رواية عن مالك[٤] ومنه اختياره قول داود وأحمد في التيمم،" فذهب مالك في المدونة إلى أن التيمم ضربتين للوجه وضربة لليدين. وقال ابن الجهم التيمم بضربة واحدة، وبه قال أحمد ابن حنبل" : وإسحاق وداود والطبري"[٥] ومنه اختياره خلاف مشهور المذهب ووفاق مذهب أبي حنيفة في الاعتكاف" اختلف في خروجه للجمعة، فقالت طائفة: يخرج للجمعة اذا سلم ،لأنه خرج إلى فرض، ولا ينتقض اعتكافه، ورواه ابن الجهم عن مالك ، وبه قال أبو حنيفة ، واختاره ابن العربي وابن المنذر"[٦] ، كما وافق ابن الجهم الشافعي وأحمد في وجوب العمرة كوجوب الحج[٧] .

---

(١) الجامع ٨/١٢ الانفال الاية ٤١ المسالة ١٥ .

(٢) الاستذكار ١٧٨٧٧ .

(٣) الاستذكار ٧٨٩٣ .

(٤) روي ذلك عن اشهب عن مالك انظر الجامع ٥/٢٢٦ النساء ١٠١ المسالة ١ .

(٥) الجامع ٥/١٥٦ النساء الاية ٤٣ المسالة ٤٥ .

(٦) الجامع ٢/٢٢٣ البقرة الاية ٨٧ المسالة ٣١ ، اشير هنا الى ان مشهور مذهب مالك ان الاعتكاف هو في المسجد الجامع.

(٧) الجامع ٢/٢٤٥ البقرة الاية ١٩٦ المسالة ٤ .

دلف بن جحدر أبو بكر الشبلي (ت٣٣٤) :

لئن كان الشبلي أوحد الوقت في الزهد والسلوك، فقد كان رأسا في الحديث والفقه على مذهب مالك ولم يتبع طريق القوم إلا بعد أن" كان عالماً فقيهاً على مذهب مالك وكتب الحديث"[١] .

وغرق في الدجلة سبعين قمطراً بخطه ، وحفظ الموطأ ، وقرأ بكذا كذا قراءة "[٢] ، "قال أحمد بن عطاء :سمعت الشبلي يقول: كتبت الحديث عشرين سنة وجالست الفقهاء عشرين سنة[٣] .

وكان الشبلي قوي العارضة في المناظرة، حاضر الحجة في المذاكرة، وتروى مناظرات جرت له مع أبي بكر بن مجاهد المقرئ وغيره ، كما يذكرون له مناظرة بهت خلالها أحد الشافعية"كان للشبلي يوم الجمعة نظرة بعدها صيحة فصاح يوما صيحة تشوش بها من حوله من الخلق ، فسأل عن ذلك ، فقيل له من صيحك ؟ وكان إلى جانبه حلقة أبي عمران الاشيب ، فقام إليه الشبلي ، فلما رآه أبو عمران قام إليه وأجلسه إلى جانبه ، فأراد بعض أصحاب أبي عمران ان يري الناس أن الشبلي جاهل، فقال له: يا أبا بكر إذا اشتبه على المرأة دم الحيض من دم الاستحاضة ما تصنع؟ فاجابه بثمانية عشر جوابا، فقام إليه أبو عمران وقبل رأسه ، وقال يا أبا بكر اعرف اثنتي عشرة وستة ما سمعت بها قط، وفي حكاية أبي القاسم القشيري أنه قال للشبلي : استفدت في هذه المسألة عشر مقالات لم أسمعها، وكان عندي من جملة ما قلت ثلاثة أقاويل"[٤] .

---

(١) ترتيب المدارك ٥/ ٣١ .

(٢) ترتيب المدارك ٥/ ٣٥ .

(٣) ترتيب المدارك ٥/ ٣٥ .

(٤) ترتيب المدارك ٥/ ٣٤ والحكاية مختصرة في سير اعلام النبلاء ١٥ / ٣٦٨ .

طبقة شيوخ الأبهري (ت٣٧٥) :

عمر بن محمد أبو الحسين القاضي :

هو ابن عمر القاضي في الطبقة السابقة ، كان أحد النجباء الموسوعيين في علوم الشريعة النقلية والعقلية [١] ، وارثا علم البيت الحمادي [٢] ، وكان له مجلس مستقر للمناظرة بين المذاهب قال أبو الفرج المعافي بن زكريا الجريري قال : (كنت أحضر مجلس أبي الحسين بن أبي عمر يوم النظر) [٣] .

وكان من أشهر مناظراته تلك التي جمعته مع أبي بكر الصيرفي في موضوع عمل أهل المدينة، قال الشيرازي : (ناظر أبا بكر الصيرفي فقيه الشافعية [٤] ، وعلى أثرها صنف أبو الحسين كتاباً في الرد على الصيرفي (الرد على من أنكر إجماع أهل المدينة وهو نقض لكتاب أبي بكر الصيرفي) [٥] .

وكتاب الصيرفي هذا هو كتاب الأعلام، ألفه الصيرفي بعد مناظرته أبا عمر القاضي أبا المترجم هنا، قال الزركشي : وصنف الصيرفي فيها وطول في كتابه الأعلام الحجاج مع

---

(١) (حفظ القرآن والعلم بالحلال والحرام، والفرائض والحساب والعلم باللغة والنحو والشعر والحديث والاخبار والنسب وأكثر ما يتعاطاه الناس من العلوم ، وكان فقيها على مذهب مالك واهل المدينة ، مع معرفة بكثير من الاختلاف والفقه وكان صنف مسندا وقد رايت بعضه وكان في نهاية الحسن وكان يذاكر به) تاريخ بغداد ١١ / ٢٣٠ .

(٢) قال الصولي عنه : (السالك مسلك سلفه والجاري على مذاهب اوله الحامل لعلوم قلما اجتمعت في مثله، من أهل زمانه ولا يعرف قاض في سنه ولا اعلي درجة منه ، ويشتغل بالعلوم التي يشتغل بها من حفظ للحديث، وعلم به واستبحار في الفقه واحتجاج له وتقدم في النحو واللغة). ترتيب المدارك ٥ /٢٥٧ .

(٣) تاريخ بغداد ١١ / ٢٣٣٢ وانظر طبقات الشافعية ٥ / ٤٩ .

(٤) ترتيب المدارك ٥ /٢٥٦ .

(٥) ترتيب المدارك ٥٢٥٧ .

الخصم ..)[(١)] فكان الرد على من أنكر إجماع أهل المدينة خلاصة مجموعة من المناظرات بين أبي بكر الصيرفي الشافعي وبين أبي عمر أولاً، ثم بينه وبين إبنه أبي الحسين ثانيا، وكان هذا الكتاب من أول ما حرر هذا الموضوع الذي أكثر الناس التحامل فيه على المذهب كما يقول عياض[(٢)].

محمد بن أحمد أبو الطاهر الذهلي (ت٣٧٦):

من أعلام الحجاج المذهبي المالكيين الإمام أبو الطاهر الذهلي الجامع بين الإسناد حيث (كان مسنداً في الحديث)[(٣)] (وكان محدث زمانه)[(٤)] وكان (ثقة ثبتاً كثير السماع) وبين جودة الاستنباط، حيث كان (متوسط في الفقه علي مذهب مالك)[(٥)].

كانت المناظرة المذهبية سنة في مجلسه، سواء في العراق أو في مصر حيث تولي القضاء بها مدة ثمان عشرة سنة، للخلافة العباسية أولاً[(٦)] وللعبيديين لما دخلوها واقروه على القضاء بها، قال الخطيب: (كان له مجلس يجتمع فيه المتخالفون ويتناظرون بحضرته ، فكان يتوسط بينهم كلاماً سديداً ويجري بينهم فيما يجرون فيه، على مذهب

---

(١) البحر المحيط ٤ /٤٨٣ .

(٢) انظر ترتيب المدارك ١ /٤٧ قال عياض: (اعلموا رحمكم الله ان جميع أرباب المذاهب من الفقهاء والمتكلمين وأصحاب الأثر والنظر إلب على أصحابنا في هذه المساله... فاوردوا عنّا في المسالة ما لا نقوله، واحتجوا علينا بما يحتج به على الطاعنين علي الإجماع)

(٣) ترتيب المدارك ٥ /٢٦٨ .

(٤) ترتيب المدارك ٥ /٢٦٧ .

(٥) ٥ /٢٦٧، قاله ابن ماكولا، وفي رواية الذهبي عنه: (كان الذهلي من المتثبتين) سير أعلام النبلاء ١٤/ ٩٦ .

(٦) تاريخ بغداد ١ /٣١٣ .

محمود وطريقة حسنة[١] ، قال المقريزي في المقفى الكبير، نقلا عن محمد بن نوح الدقاق : (حضرت يوماً عند أبي الطاهر وعنده أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني، وأبو بكر بن محمد بن غنيمة المعيطي، واخذوا في المذاكرة، فكأنما يجرى الدرّ من أفواههم ، وكان القاضي مفوها)[٢] وقال ابن زولاق وكان أبو الطاهر كثير الحديث والأخبار واسع المذاكرة[٣] (وكان حاضر الحجة)[٤] .

وكان من علم أبي الطاهر وجودة فقهه أنه كان يذهب ألى رأي مالك ويتخير، (ذكره ابن ماكولا، فقال : كان ثقة، وكان يذهب إلى قول مالك وربما اختار)[٥] ومما نقل من مخالفته للمذهب ما قاله المقريزي : (وكان يخالف قول مالك في الحكم باليمين مع الشاهد، ويحكي أن أباه وإسماعيل بن إسحاق كانا لا يحكمان به، وكانا مالكيين ، وكان اذا شهد عنده الشاهد الواحد ليس معه سواه رد الحكم)[٦] ، وكان الذهلي في معرفته بالمذاهب ذا اطلاع على المذهب الشافعي، حيث ألف (كتابا أجاب فيه على مسائل المزني على قول مالك)[٧] .

محمد بن أحمد أبو عبد الله التستري (ت ٣٥٤) :

كان التستري (عالماً بمذهب مالك شديد التعصب له)[٨] ، له في نصرته والحجة به

(١) تاريخ تغداد ١ / ٣١٤ وفي سير اعلام النبلاء : (وكان له مجلس يجتمع اليه المخالفون ويناظرون بحضرته، وكان يتوسط بينهم ويتكلم بينهم بكلام سديد) ١٦ / ٢٠٦ .

(٢) مختصر المفقي الكبير للمقريزي ص : ٢٧٧ .

(٣) مختصر المقفي الكبير ص : ٢٧٧

(٤) مختصر المقفي الكبر ص : ٢٧٢

(٥) الديباج ١ / ٣٠٦ طبعة الاحمدي ابو النور، المقفي الكبير ص٢٧٧ .

(٦) مختصر المقفي الكبير ص : ٢٧٨ .

(٧) مختصر المقفي الكبر ص : ٢٧٨، شجرة النور ٩١ .

(٨) ترتيب المدارك ٥ / ٢٦٩ .

كتابان: فضائل مالك (ووضع في مناقب مالك نحو عشرين جزءا)[١] وله كتاب فضائل المدينة والحجة بها[٢].

من خلال ما نقل عياض نستنتج أن له مناظرات مع الشافعية في التفضيل بين المذاهب، (قال التستري: قال أبو عبد الله الزبيري - ونحن نتذاكر المذاهب -: يستغنى بمذهب مالك عن مذهبهم، ولا يُستغني بمذهب أحد منهم عن مذهبه[٣].

بكر بن محمد بن العلاء أبو الفضل القشيري (ت ٣٤٤):

كان بكر بن العلاء من أفذاذ هذه الطبقة في الجدل الفقهي والخلاف، حصل كتب إسماعيل بالإجازة، وكان رجل حديث وسماع[٤] وفقه ونظر[٥]، وكان عمدة في المذهب (حدث عنه من لا يعدّ من المصريين والأندلسيين والقرويين وغيرهم)[٦]، كما كان رجل أصول ألف في أصول الفقه ثلاثة كتب شهيرة هي مآخذ الأصول وأصول الفقه وكتاب القياس[٧].

في الجدل المذهبي كان لبكر عدة مشاركات في هذا المجال:

فقد رد على الظاهرية وألف في القياس كما ذكرت، وهو أعمق مسألة خلافية بين أهل الظاهر وما سواهم من المذاهب الفقهية.

---

(١) ترتيب المدارك ٥/٢٦٣ قال عياض في موطن اخر مبينا (له في ذلك (أي مناقب مالك) نحو من ثلاثة مجلدات) ترتبب المدارك ١/٩ .

(٢) ترتيب المدارك ٥/٢٦٩ والمؤلفين لمؤلفين ٣/٨٨ (١١٨٩٦).

(٣) ترتيب المدارك ١/١٥٩ .

(٤) انظر شيوخه في الحديث في سير اعلام النبلاء ١٥/٥٣٨ .

(٥) وصفه القرطبي في تفسيره بانه من المفسرين والعلماء الراسخين ١٤/١٩١ .

(٦) ترتيب المدارك ٥/٢٩١ .

(٧) ترتيب المدارك ٥/٢٧١ الديباج ١٦٥(١٨٨).

وألف رداً على الشافعي في مسألة خلافية شهيرة بين المذهبين، وهي الصلاة علي النبي ﷺ في الصلاة ، إذ يقول الشافعي بوجوبها ويخالفه المالكية وغيرهم ، وفيها ألف بكر كتاب : الرد على الشافعي في وجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة ، كما ألف كتاباً في مسألة بسم الله الرحمن الرحيم ، وهي من مسائل الخلاف الأصولية والفقهية بين مالك والشافعي، فأصحاب مالك يرون أنها ليست من القرآن والشافعية ينصرون قول إمامهم أنها منه، وألف في الرد عل الشافعية الرد على المزني .

ومما ألف بكر في الجدل مع المذهب الحنفي كتاب الأشربة، وهو كتابه في الرد على أبي جعفر الطحاوي، ولا يبعد عن أن يكون ألف هذا الكتاب بعد مناظراته لحنفية مصر، إذ دخلها واستوطنها سنة ٣٣٠، أي بعد وفاة الطحاوي بتسع سنين ، فالتقى ولا شك بتلاميذه بها .

وألف بكر أيضاً في تفضيل مالك والحجة لمذهبه رسالة إلى من جهل قدر مالك بن أنس من العلم[١] ، ولا أدري هل هذه الرسالة إمتداد لكتب فضائل مالك وتفضيل مذهبه أو لها سبب خاص، لأن في طبقة القشيري ألف بعض الظاهرية كتاباً ناقض فيه مالكاً وأشبع فيه التهم له بقلة العلم والتناقض ومخالفة السنة ، على غير عادة من العلماء في إجلالهم له وإن ردوا عليه، وهذا الظاهر ي هو الذي ألف عليه ابن أبي زيد كتاب الذب عن مذهب مالك فلا أدري هل هذه الرسالة يقصد بها هذا الرجل فيكون القشيري قد اطلع على كتابه أو لا يكون الأمر كذلك.

وألف بكر كتاب اختصار أحكام القرآن للقاضي إسماعيل مع الزيادة أثنى عليه الإمام القرطبي (ت ٦٧١) في جامعه ، ووصف صاحبه بأنه (من أهل التحقيق من

(١) لعل هذا الكتاب فضائل مالك الذي اعتمد عليه عياض في المدارك ١ /٨- ١ /١١ .

المفسرين والعلماء الراسخين)[١] والكتاب الآن في طور التحقيق كما ذكرت

طبقة الأبهري (ت٣٥٧) :

في طبقة الأبهري نضج تيار النظر الفقهي في مذهب مالك حيث ظهر بالأندلس الإمام الأصيلي وأنجبت القيروان تلاميذ ابن الحداد المناظرين ، وظهر خلف بن عمر الشهير بابن اخي هشام وأبو العباس الأبياني وابن أبي زيد وطبقتهم من المناظرين كما كان بمصر أبو إسحاق بن شعبان وأبو الذكر الفقيه وأبو بكر النعالي، وكان درسهم الجدلي نشطا بإحياء من طرف نفر من البغداديين كبكر بن العلاء وأبي الطاهر الذهلي وغيرهما .

وقد تبلور في هذه الأثناء مذهب أبي الحسن الأشعري وانتشرت كتب علم المناظرة وصناعة الجدل ، وكان يقوم به أئمة نظار من منتسبي مذهبي الشافعي ومالك بالعراق، على رأسهم المالكي البغدادي المتكلم أبو عبد الله بن مجاهد الطائي ت٣٧٠ .

كان للمالكية من هذه الطبقة مجالس للنظر ، وكان أبرزها مجلس أبي بكر محمد ابن صالح الابهري (ت٣٧٥) كان درسهم متصلاً ومترابطاً، وكان مقر هذا المجلس هو حلقة محمد بن صالح أبي الحسن ابن أم شيبان (ت٣٦٩) ، وهو من تلاميذ إبراهيم بن حماد (كان كبير القدر إماما كثير الطلب حسن التصنيف ينظر في فنون العلم)[٢] (وعنده كان يجتمع اصحاب ابي بكر الابهري ببغداد للنظر)[٣] .

استفاد هذا الرعيل من تحصيله النظر والفقه من طبقة تلاميذ إسماعيل القاضي ، فسلكوا نفس السلوك في الحجاج المذهبي والجدل مع اتجاهات الرأي الكثيرة ببغداد، فكانت لهم على صعيد الحجاج ومسائل الخلاف والردود على المذاهب الأخرى عدة

---

(١) الجامع ١٤ /١٢٣ الاحزاب الاية ٢٧ المساله ١ وانظر النقل عنه في الجامع ٧ /٧٨ الآية ١٤٥ المسالة ١ .

(٢) سير اعلم النبلاء ١٦ /٢٧٧ .

(٣) ترتيب المدارك ٦ /١٩٤ .

مشاركات ومؤلفات؛ فقد ألف في الرد على الشافعية منهم أحمد بن عبد الوهاب أبو علي ابن أبي يعلى الحمادي، صنف كتاباً في الرد على الشافعي[١]، وأحمد بن محمد بن عمر الدهان البصري (من أئمة المالكية بالمشرق) وله كتاب في نقض كتاب الشافعي في رده على مالك ستة أجزاء، قال ابن حارث : وله غير ذلك من التواليف[٢].

وألف في مناظرة الظاهرية عبد العزيز بن محمد أبو العلاء البصري ألف كتاباً في إثبات القياس[٣].

وألف منهم في الذب عن أصول المذهب وتعليل أحكامه علي بن ميسرة أبو الحسن الآخذ عن طبقة أبي الحسين الحمادي مؤلف الرد على من أنكر إجماع أهل المدينة ، فتابع التأليف في هذا المنحى بتأليفه لـ "كتاب في إجماع أهل المدينة "[٤] ، ومحمد بن احمد أبو عبد الله بن رجاء البصري ، وهو "فقيه نظار محقق ، له كتاب في أصول الربا وتعليله على مذهب مالك أجاد فيه . وألف في مسائل الخلاف كل من أبي بكر بن علوية الأبهري" كان من الفقهاء النظار المحققين وجلة أئمة المالكية"[٥] "له كتاب في مسائل الخلاف"[٦] وعبد العزيز بن محمد أبي العلاء البصري، ألف كتاب في مسائل الخلاف[٧] وأبي عبد الله الواسطي "ألف مسائل الخلاف[٨] وأبي علي الدهان"له أيضا كتاب في مسائل

---

(١) ترتيب المدارك ٦ /١٨٢ .

(٢) ترتيب المدارك ٦ / ٢٠٠ .

(٣) ترتيب المدارك ٦ /١٦٦ .

(٤) ترتيب المدارك ٦ /١٩٥ .

(٥) ترتيب المدارك ٦ /١٩٣ .

(٦) ترتبيب المدارك ٦ /١٩٣ .

(٧) ترتيب المدارك ٦ /١٦٦ .

(٨) ترتيب المدارك ٦ /٢٠٠ .

الخلاف"[١] ومحمد بن جعفر البصري المعروف بالخفاف "له مسائل الخلاف"[٢].

وكان من أعيان هذه الطبقة وأعلامها أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مجاهد المتكلم، وهو وإن غلب عليه الأصول والكلام بتتلمذه على أبي الحسن الاشعري وتبريزه في مذهبه، حيث تخرج عليه أبو بكر الباقلاني "وعليه درس أبو بكر الباقلاني الأصول"[٣] فقد كان في مذهب مالك " إماما فيه مقدما"[٤]، وكان حلقة وصل بين مدرسة العراق ومدرسة القيروان، فمن جهة رحل صاحبه وتلميذه عبد الرحمن بن القاسم المكي المتكلم إلى إفريقية " سكن القيروان، وصحب أبا محمد بن أبي زيد وغيره من أئمتها، وناظرهم وذاكرهم وأثنوا عليه وأخذ عنه الناس"[٥] ومن جهة أخرى كان بعض تلاميذ ابن أبي زيد القيرواني يرحلون إلى ابن مجاهد ويحملون إليه كتب ابن أبي زيد القيرواني منهم ابن عزرة وأبو بكر الأندي، وقد استجاز ابن مجاهد ابن أبي زيد القيرواني نوادره ومختصره، وأجازه هذا الأخير في رسالتين بقيتا محفوظتين[٦]. ونستفيد من جواب أبي محمد أن ابن مجاهد كان ذابا عن المذهب، مشاركا في الخلاف والجدل عليه، حيث قال: "وعندنا من أخبار الشيخ ما تعم مسرته من نصرته هذا المذهب وذبه عنه ومحاماته عليه، حماه الله عز وجل مكروهه برحمته"[٧].

---

(١) ترتيب المدارك ٦/٢٠١.

(٢) وفيات الاعيان ٤/٢٦٩.

(٣) ترتيب المدارك ٦/١٩٦.

(٤) ترتيب المدارك ٦/١٩٦.

(٥) ترتيب المدارك ٦/١٨١.

(٦) رسالته لابن ابي زيد وجواب هذا الاخير عليه مخطوطه ضمن كتاب الذب عن مذهب مالك لابن ابي زيد القيرواني بسستر بيتي بدبلن بإيرلندة عدد ١٠٠ ج ٢ لوحة ٩٩-١٠٠-١٠١ وقد أوردها عياض في ترتيب المدارك ٦/١٩٧-١٩٨.

(٧) ترتيب المدارك ٦/١٩٨.

أبو بكر محمد بن عبد الله بن صالح الابهري (ت٣٧٥) :

يعد الأبهري واسطة عقد هذه الطبقة في مسائل الخلاف والحجة، وصل المذهب المالكي بالعراق بعهد القاضي إسماعيل في كثرة تلاميذه ودرجة اجتهاده والسؤدد الحاصل للمذهب في وقته. وكان موصوفا من المخالفين والموالفين بأنه "شيخ الفقهاء"[(١)] .

وقد قام على الدرس المالكي متفرغا سنين عددا "قال القاضي أبو العلاء الواسطي : وسمعته يقول كتبت بخطي المبسوط لإسماعيل والاحكام له ، واسمعة ابن القاسم وأشهب وابن وهب ، وموطأ مالك، وموطأ ابن وهب ، ومن كتب الفقه والحديث نحو ثلاثة آلاف جزء . قال غيره عنه : قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمسمائة مرة والأسدية خمساً وسبعين مرة والموطأ خمساً وأربعين مرة ، ومختصر البرقي سبعين مرة "[(٢)] .

كانت المناظرة والمذاكرة في مجلس الأبهري عظيمة وجليلة وكان فقهاء الوقت يعظمون إحاطة الأبهري بأقاويل أهل العلم، ويلخص هذا المعنى قول الخطيب البغدادي عنه في تاريخه"كان أبو بكر الأبهري معظماً عند سائر علماء وقته، لا يشهد محضراً إلا كان المقدم فيه، وإذا جلس قاضي القضاة المعروف بابن أم شيبان الهاشمي أقعده عن يمينه والخلق كلهم من القضاة والشهود والفقهاء وغيرهم دونه . وذكر أبو القاسم الوهراني أبا بكر الأبهري في جزء أملا عبارة فقره فقال: ولم يعط أحد من العلم والرياسة فيه ما أعطي الأبهري في عصره من الموالفين والمخالفين، ولقد رأيت أصحاب الشافعي وابي حنيفة إذا اختلفوا في أقوال ائمتهم يسألونه فيرجعون إلى قوله ، وكان يحفظ قول الفقهاء حفظا مشبعا وكان أبو إسحاق الطبري من أصحابنا وحفاظ الحديث يجالسه ويسأله عن أحاديث كثيرة فيقول له : من قطع حديث كذا؟ ومن وقف حديث كذا؟ ومن وصله؟ فيجيبه .

---

(١) سير اعلام النبلاء ١٦/ ٢٦ .

(٢) النص من ترتيب المدارك ٦/ ١٨٥-١٨٦ وهو مختصر في تاريخ بغداد ٥/ ٤٢ .

وكان الموافقون والمخالفون يقرون بفضله"[١] وقال الدارقطني (ت٣٨٥) :"رايته يذاكر بالأحاديث الفقهيات ويذاكر بحديث مالك"[٢].

وللأبهري مصنفات في مسائل الخلاف والاحتجاج ، قال الخطيب "وله التصانيف في شرح مذهب مالك والاحتجاج والرد على من خالفه"[٣] ومن مصنفات الأبهري في المذهب والحجة والخلاف كتاباه في شرح مختصري ابن عبد الحكم الصغير والكبير[٤] وكتاب الرد على المزني ، ذكره ابن النديم في الفهرست بعنوان : الرد على المزني في ثلاثين مسألة[٥] وإجماع أهل المدينة وكتاب فضل المدينة على مكة[٦].

والنقول عن الأبهري لا تكاد تنحصر كثرة في الأصول والفروع ، مبثوثة في جل مصنفات المذهب وكثير من مصنفات الأصول والخلاف العالي وأحكام القرآن.

لكن ما وقفت عليه من ردوده على المذاهب قليل ، ومنه رده على الحنفية في مسألة العرية، قال أبو المطرف القنازعي : "قال النعمان : إنما جاز شراء العرية بالثمرة إلى أجل لأنها عطية لم تقبض ، ولو شاء المعري أن يمنع منها المعرى لمنع فلما أعطاه بخرصها تمرا إلى الجذاذ كان أيضا ذلك بمنزلة الأول، صلة من المعرى فلذلك جوزناه . قال الأبهري : هذا القول غلط لأن النبي ﷺ رخص في بيع العرايا فكيف يكون أن يبيع المعري شيئا لا

---

(١) ترتيب المدارك ٦/ ١٨٤-١٨٥ .

(٢) سير اعلام النبلاء ١٦/ ٣٣٢ .

(٣) ترتيب المدارك ٦/ ١٨٣ .

(٤) اشير إلى أن شرح الابهري على مختصر ابن عبد الحكم الكبير قد دخل الاندلس في حياة المؤلف، إثر تاليفه، اذ بعث الحكم المستنصر في شرائه واقتني له . انظر نفح الطيب ١/ ٣٦٩ .

(٥) الفهرست ص:٣٤١ .

(٦) ترتيب المدارك ٦/ ١٨٨ معجم المؤلفين ٣/ ٥٤٤ (١٤٣٥٧) .

يملكه، أو يشتري المعري ملكا قد ملكه غيره ، من غير أن يبيعه مالكه[1] .

طبقة تلاميذ الأبهري وشيوخ القاضي عبد الوهاب :

تميزت هذه الطبقة بأن ضمت عدداً كبيراً من النظار لن يتفق اجتماعه فيما تبقى من طبقات هذه المدرسة وكانت الظروف السياسية والمذهبية بدأت تميد بالمذهب المالكي بالعراق ، حيث استمر تلاحق خروج المالكية إلى مصر وغيرها، في وقت كان السلاطين يتنافسون في تبني مذهب أبي حنيفة والشافعي ، وحصل من التحريش بين المذاهب الفقهية والعقدية بدءاً من هذا الزمن ما سينتج وضعا مذهبيا واجتماعيا بالغ الاحتقان خلال القرن الخامس ، وهو ما شخصته بجلاء الفتن بين الشيعة وأهل السنة بخراسان والعراق، والفتنة بين الحنابلة والأشعرية، والفتنة بين المعتزلة والأشعرية في عهد الصاحب بن عباد وما استتبعها من نكاية ومحنة بالأشعرية في عهد البيهقي والجويني والشيرازي وأبي القاسم القشيري ، في حين كان الخلاف بين الحنفية والشافعية الذي استحوذ على العراق ذا ضرر أقل لم ينتج من الفتن بين العامة ما أنتجت الخلافات العقدية التي حركها سلاطين الوقت .

في الوقت الموازي لهذه الحال التي عرفتها العراق وما وراءه من بلاد المشرق كانت الأندلس تعيش فتنتين مترابطتين : أولاهما فتنة احتضار دولة الأمويين بالأندلس بعد وفاة وزيرهم المستبد الكبير المنصور بن أبي عامر ، والثانية فتنة البربر وخراب الأندلس التي وقعت في سنة ٤٠٠ هـ وهي الفتن التي عصفت بمرابع الدرس لولا تأصل اسانيد العلم لضعف التحصيل عامة بالأندلس .

---

(١) تفسير الموطأ للقنازعي ص : ١٤٨ .

وبمصر اشتدت وطأة الفاطميين على المالكية بها وحظر المذهب من التدريس منذ سنة ٤١١ وغدا المذهب بها ضعيف الدرس ، ولم يكن ينعشه إلا مقدم الغرباء والوافدين من العراق ومن إفريقية والأندلس ونعتقد أن نزول القاضي عبد الوهاب لاحقاً بمصر ثم بعده أبو بكر الطرطوشي هو الذي حافظ للدرس المالكي على توازنه واستقراره ، لينجب أعيان علماء القرن السادس والسابع بدءاً من سند بن دينار وآل العوفي وابن الحاجب وابن المنير والأبياري والقرافي ونظرائهم من نبلاء العلماء في أعصارهم.

أما القيروان فقد تخففت من الحصار الفاطمي بتحويل دار ملكهم إلى مصر، وكان درس المالكية نشطا بالقيروان ، حيث بدأت فيه الحملة الكبرى لخدمة المدونة، من أبي زيد والبرادعي إلى الإمام المازري في القرن السادس ، وهي أجود وأغزر ما ألف على المدونة من طرف المالكية في كل الأمصار والأزمان.

برز في الجدل المذهبي بالعراق ثلة من المالكية تابعوا ما ألف قبلهم في الحجة ومسائل الخلاف ، ويوجد من علماء المالكية عدد من العلماء عرفت لهم مؤلفات ولكن مؤلفاتهم مفقودة والنقول عنهم قليلة، وأذكر منهم محمد بن عبد الله أبا جعفر الابهري الصغير الشهير بالوالي وبابن الخصاص(ت٣٦٥) ذكر له ثلاثة كتب في الجدل المذهبي قال عياض: "تفقه بأبي بكر الأبهري ... له كتاب في مسائل الخلاف كبير نحو مائتي جزء... وكتاب الرد على ابن علية فيما أنكره على مالك"(١) ، وقال ابن النديم "وله من الكتب مسائل الخلاف ، كتاب الرد على ابن علية سبعون مسألة ولم يتمه ، كتاب الرد على مسائل المزني"(٢) .

وأحمد بن محمد بن زيد أبا سعيد القزويني (ت بعد ٣٩٠)، ذكر الشيرازي أن

---

(١) ترتيب المدارك ٧ / ٧٢ .

(٢) الفهرست ص ٢٨٣ .

القزويني ألف كتاب مسائل الخلاف فقال : "وصنف في المذهب والخلاف"[١] وله في ذلك كتابان ذكرهما عياض، قال " له المعتمد في الخلاف نحو مائة جزء ، وهو من أهذب كتب المالكية . وله كتاب الإلحاق في مسائل الخلاف "[٢]، وقد ذكر عنه من هذا الكتاب الإمام المازري في شرحه على التلقين نقلاً واحداً[٣] .

وعبيد الله بن الحسن أبا القاسم بن الجلاب (ت ٣٧٨) "له كتاب في مسائل الخلاف"[٤][٥] .

وعلي بن محمد بن تمام أبا تمام البصري . الذي كان "من أصحاب الأبهري أيضاً، وكان جيد النظر والكلام، حاذقاً بالأصول ، وله كتاب مختصر في الخلاف ، سماه نكت الأدلة ، وكتاب آخر في الخلاف كبير ، وكتاب في أصول الفقه"[٦] .

وعن ابي تمام عدة نقول في الجدل المذهبي ، أذكر منها رده على الظاهرية في موضوع القياس، حيث يقول محتجا عليهم :"اجمعت الامة على القياس ، فمن ذلك أنهم أجمعوا على قياس الذهب بالورق في الزكاة ، وقال أبو بكر : أقيلوني بيعتي ، فقال علي : والله لا نقيلك ، ولا نستقيلك ، رضيك رسول الله ﷺ لديننا أفلا نرضاك لدنيانا ، فقاس الإمامة على الصلاة ، وقاس الصديق الزكاة على الصلاة وقال : والله لا افرق بين ما جمع الله وصرح علي بالقياس في شارب الخمر بمحضر من الصحابة، وقال : إنه إذا سكر هذى وإذا هذى

---

(١) ترتيب المدارك ٧ / ٧٣- ٧٤ وهذا القول من الشيرازي غير موجود في القطعة المطبوعة في طبقات الفقهاء.

(٢) ترتيب المدارك ٧ / ٧٣ -٧٤ .

(٣) اقصد في القطعة المطبوعة بتحقيق السلامي.

(٤) ذكره في معجم المؤلفين ٢ / ٦٣٩ (١٠٩٦٤) وذكره وهما وتكرار في ٢ / ٩٦ (٦٨٧٧) و ٢ / ٣٥١ (٨٧٧٠) .

(٥) ترتيب المدارك ٧ / ٧٩ .

(٦) ترتيب المدارك ٧ / ٧٦ .

افترى، نحده حد القاذف ، وكتب عمر إلى ابي موسى كتاباً فيه : الفهم الفهم فيما يختلج في صدرك، مما لم يبلغك في الكتاب والسنة، اعرف الأمثال والأشباه، ثم قس الأمور عند ذلك فاعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى وأما الآثار وآي القرآن في هذا المعنى فكثير ، وهو يدل على أن القياس أصل من أصول الدين ، وعصمة من عصم المسلمين ، يرجع إليه المجتهدون ، ويفزع إليه العلماء العاملون . وأما الرأي المذموم والقياس المتكلف المنهي عنه ، فهو ما لم يكن على هذه الأصول المذكورة.. وكل ما يورد المخالف من الأحاديث الضعيفة والأخبار الواهية في ذم القياس ، فهي محمولة على هذا النوع من القياس المذموم ، الذي ليس له في الشرع أصل معلوم"[١] .

ومن تشذيذه قول من ذهب إلى أن خبر الواحد يوجب العلم : "قال أبو تمام البصري: إن مذهب مالك في أخبار الآحاد أنها توجب العمل دون العلم ، وعلى هذا فقهاء الأمصار.."[٢] .

ومن رأي أبى تمام في قواعد الجدل الفقهي قوله في اختلاف المجتهدين : "إن مذهب مالك أن الحق في واحد من أقاويل المجتهدين ، وليس ذلك في أقاويل المختلفين، وبه قال أكثر الفقهاء، قال :وحكى ابن القاسم أنه سأل مالكاً عن اختلاف الصحابة فقال: مخطئ ومصيب، وليس الحق في جميع أقاويلهم ، وهذا القول قيل : هوالمشهور عن مالك"[٣] .

أما ما نقل عن أبي تمام في مسائل الخلاف في الفروع فأكتفي بذكر نقل واحد عنه أورده صاحب الاستذكار قال: "وذكر أبو تمام قال: قال مالك : زكاة الفطر واجبة قال : وبه

---

(١) الجامع ٧ / ١١٢ الاعراف الآية (١٣،١٧) المسالة ٤ .

(٢) احكام الفصول صك ٣٢٤ (٢٨٨).

(٣) الجامع ١١ / ٢٠٦ الانبياء الاية ٧٨-٧٩ المسالة ١٠ وانظر ايضا احكام الفصول ص : ٧٠٧ (٧٦٨) .

قال أهل العلم كلهم إلا بعض أهل العراق ، فإنه قال : هي سنة مؤكدة"[١] ، ثم قال : " وذكر أبو التمام عن مالك أنه قال : زكاة الفطر واجبة على الفقير الذي يفضل عن قوته صاع كوجوبها على الغني . قال : وبه قال الشافعي"[٢] .

محمد بن أحمد البصري أبو بكر بن خويزمنداد :

يعد ابن خويز منداد من كبار أعلام الجدل الفقهي المالكيين ببغداد وقد لاحظ فقهاء المالكية عليه في اختياراته وتأويلاته خروجات عن المذهب "وله اختيارات وتأويلات على المذهب خالف فيها في الفقه والأصول ، ولم يعرج عليها حذاق المذهب... وقد تكلم فيه أبو الوليد الباجي..." [٣] قال السيوطي : "له اختيارات اختارها لنفسه خالف فيها أهل مذهبه ، وهذا شأن المجتهدين"[٤] .

ألف ابن خويزمنداد في الحجاج المذهبي كتاب مسائل الخلاف ، وصف بأنه "كتاب كبير"[٥] وكتاب أحكام القران وهما حجة عند اللاحقين في عدة محاور في البحث الخلافي ، كالنقل على المذاهب والرد عليها وتلخيص المذهب[٦] وتأصيله[٧] وذكر روايات فيه انفرد بها أهل العراق المالكيةوتقرير استدلالاتهم في المسائل الخلافيات .

(١) الاستذكار ١٣٦٠٨ .

(٢) الاستذكار ١٣٦٣٦ .

(٣) ترتيب المدارك ٧ / ٧٧ – ٧٨ قال عياض : "كقوله في بعض ما خالفه فيه من الاصول ان العبيد لا يدخلون في خطاب الاحرار وان خبر الواحد يوجب العلم ، وفي بعض مسائل الفقه حكايته عن المذهب ان التيمم يرفع الحدث، وانه لا يعتق على الرجل سوى الاباء والابناء "ومن شذوذاته قوله ان العادم للطهارة كمن سقط عقله يرتفع عنه التكليف بالصلاة . الاستذكار ٣١٥١

(٤) الرد على من اخلد الى الارض ص : ١٩٤ .

(٥) ترتيب المدارك ٧ / ٧٧ معجم المؤلفيين ٣ / ٧٥ (١١٨١٥) .

(٦) انظر امثلة على ذلك في الاستذكار ٤٤٩٠-٤٤١٢-٤٢٩٧-٤٩٥٦-٣٩١٦ وانظر امثلة عن توجيه القول عن المذهب وتاويله في الاستذكار ٣٢١٢١ .

(٧) تاصيلات ابن خوزمنداد للمذهب كثيرة منها امثلة في الاستذكار كقوله : "الاصل من قول مالك في القراض الفاسد انه يرد الى اجرة المثل الا مسائل يسيرة مثل القارض على جزء مجهول من الربح" ٣٠٨٥٣ انظر أيضا : ١٥١٧٧-١٠١٢٣-٢٤٠٧٩-٣٢١٢١ .

فمن أمثلة ما نقل من ذبه عن المذهب قوله: "إن قول مالك فيمن شك الحدث وأيقن الطهارة أن عليه الوضوء استحباب واستحسان " وهذا ذب منه عن قول مالك الذي "خالفه أكثر العلماء في ذلك فلم يروا الشك عملا"[١].

كما ذب عن المذهب لما عرف الاستحسان بأنه "الاخذ بأقوى الدليلين"[٢]، إذ المعروف أن الشافعي قد انتقد الاستحسان على مالك، معتبرا إياه من التشهي والقول بدون دليل.

ومنه نصرته قول مالك في منع اشتراك النفر في البدنة في الحج قال ابن عبد البر: "واحتج ابن خويزمنداد بالإجماع على أنه لا يجوز أن يشترك في الكبش الواحد النفر، فكذلك الإبل والبقر"[٣].

ومنها نصرته للمذهب في مسالة التحريم بما سوى الجماع من وجوه الاستمتاع، بناء على حديث: (لا ينظر الله إلى رجل نظر إلى فرج امرأة وابنتها) الحديث، ولم يفصل بين الحلال والحرام وقوله ﷺ (لا ينظر الله إلى من كشف قناع امرأة وابنتها) قال ابن خويزمنداد: "ولهذا قلنا إن القبلة وسائر وجوه الاستمتاع ينشر الحرمة"[٤].

محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني(ت ٤٠٣):

المعلوم من تاريخ العلم بالضرورة، أن الباقلاني شيخ الأصول ولسان الأمة في الكلام وإثبات السنة لا نطيل بإثبات هذا والإفاضة فيه.

---

(١) الاستذكار ١٥٩٣ انظر في موطن اخر قول ابن خويزمنداد: إن قول مالك بإعادة الصلاة في الوقت استحباب واستحسان.. الاستذكار ٣٠١٣ .

(٢) احكام الفصول ص : ١٧٤ (٨) .

(٣) الاستذكار ٢١٥٠٩ .

(٤) الجامع ٥/٧٦ النساء ٢٣ المسالة ٤ .

آلت إلى الباقلاني رياسة المدرسة البغدادية لمذهب مالك، وكان رمزها الأول في الجدل المذهبي والاجتهاد والعلم بالمذاهب والأقاويل ،"قال أبو الحسن بن جهضم: . . كان شيخ المالكيين في وقته، وعالم عصره المرجوع إليه فيما أشكل على غيره. قال غيره: وإليه انتهت رئاسة المالكيين في وقته وكان حسن الفقه عظيم الجدل . ذكر أبو عبد الله بن سعدون الفقيه أن سائر الفرق رضيت بالقاضي أبي بكر في الحكم بين المتناظرين"[1] وكان موصوفا بجودة النظر والاستنباط وسرعة الجواب"[2] "ما صنف أحد كلاماً إلا احتاج أن يطالع كتب المخالفين، غير أبي بكر ، فإن جميع ما يذكره من حفظه "[3] ويذكر أن الباقلاني " كان يقرئ المذاهب الأربعة ويذكر كل مذهب وحجته ، ثم يرجح مذهب مالك"[4] .

وكذلك له مناظرات عديدة [5] يحكيها عنه تلميذه أبو محمد عبد الوهاب (ت٤٢٢) قال عياض: "وتفقه عنده القاضي أبو محمد بن نصر، وعلق عنه وحكى عنه في كتبه ما شاهده من مناظرته في الفقه بين يدي ولي العهد ببغداد للمخالفين"[6] .

والباقلاني إضافة إلى هذه يعد من الرواد الأصوليين الذين قعدوا علم الجدل الفقهي وأسسوا أركانه ، وطوروا إصطلاحاته ومفاهيمه وقيمه المنهجية إذ استوى هذا العلم في عهده على سوقه وتبلورت قضاياه المنهجية .تكميلاً لما بدأه قبله في هذا المضمار أبو بكر

---

(١) ترتيب المدارك ٧ / ٤٥ .

(٢) وفيات الاعيان ٤ / ٢٦٩ .

(٣) ترتيب المدارك ٧/ ٤٧ .

(٤) الفكر السامي ٣ / ١٢٢ .

(٥) بالنسبة لمناظرات الباقلاني مع المتكلمين ومع النصارى فانها مبسوطة في كتاب تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص:

(٦) ترتيب المدارك ٧ / ٤٧ .

الصيرفي والقفال الشاشي الشافعي وأبو الحسن الاشعري وابن مجاهد وأضرابهم، ومما نقل من كتبه في هذا المجال نصوص نفيسة، اقتصر منها على نقل واحد عنه اخترته من البحر المحيط للزركشي دال على المقصود هنا: "قال القاضي [أي الجرجاني]: وسألت القاضي أبا بكر الأشعري عن ذلك [أي أحد أنواع النقض في العلة، وهو من أوجه الجدل] فقال : له وجه في الاحتمال، مثل أن يقول: مهر المثل ينتصف بالطلاق قبل الدخول ، لأنه يستقر بالدخول ، فوجب أن ينتصف بالطلاق قبله، أصله المسمى في العقد فيقول المسؤول من اصحاب ابي حنيفة: هذا ينتقض إلى أصلي بالمسمى بعد العقد، فإنه يستقر بالوطء ، ولا ينتصف بالطلاق قبله ، وإنما يسقط جميعه ، كما يسقط مهر المثل ، أو يقول المخالف : لا يجب للمتوفى عنها زوجها السكنى لأنه لا نفقة لها قياساً على المعتدة من وطء الشبهة فيقول الشافعي : هذا ينتقض بالمطلقة البائن الحائل ، فانه لا نفقة لها يجب السكنى [(١)] .

وللباقلاني إضافة إلى كتبه في الكلام والجدل والأصول، كتاب أمالي إجماع أهل المدينة [(٢)] .

علي بن عمر أبو الحسن ابن القصار (ت ٣٩٨):

تميز ابن القصار بكونه صاحب المصنف الأشهر والأكبر في مسائل الخلاف عند مالكية البغداديين ، قال عنه أبو ذر الهروي عن فقهه : "هو أفقه من رأيت من المالكين" [(٣)] وقال عنه أبو إسحاق الشيرازي : "كان أصوليا نظارا" [(٤)] .

---

(١) البحر المحيط ٥ /٢٦٨ .

(٢) ترتيب المدارك ٧ /٦٩ .

(٣) ترتيب المدارك ٧ /٧٠ .

(٤) ترتيب المدارك ٧ /٧٠ .

ومصنفه في مسائل الخلاف عيون الأدلة وإيضاح الملة في الخلافيات(١) وصفه أهل الشأن بأوصاف دالة على مستواه الكبير، نجد منها قول أبي إسحاق الشيرازي "وله كتاب في مسائل الخلاف ، لا أعرف للمالكيين كتاباً في الخلاف أحسن منه"(٢) ونجد منهاما نقله عبد الوهاب عن أبي حامد الشافعي الفقيه، حيث يقول "تذاكرت مع أبي حامد الاسفراييني الشافعي في أهل العلم، وجرى ذكر أبي الحسن بن القصار وكتابه في الحجة لمالك، فقال لي : ماترك صاحبكم لقائل ما يقول(٣) .

وهذا الكتاب وجدت منه قطع وأجزاء تدل على كبر حجمه(٤) كما تدل على نفس استقصاء الحجج والأدلة والاعتراض والجواب ، على رسم الجدليين ، لكن فيه حضور جيد للحديث ، وانفصال بمعانيه ودلالاته، وصدره بمقدمة أصولية طبعت مفردة بتحقيق د. السليماني(٥) وقد جرده تلميذه عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي ، في كتاب سماه : رؤوس المسائل(٦) .

---

(١) معجم المؤلفين ٢ / ٣٩١ (٩٠٩٩)

(٢) ترتيب المدارك ٧ / ٧٠

(٣) ترتيب المدارك ٧ / ٧١

(٤) مخطوطة اجزاء منه بالاسكوريال تحت عدد ١٠٨٨ وبالقرويين بفاس تحت عدد ٤٦٧-١١٤٣-١١٤٥، وهي مصورة بالخزانة العامة بالرباط تحت عدد: ٣٠٤٠-٢٢٤٩-٢٢٦٣ .

(٥) مقدمة في الاصول لابن القصار تحقيق محمد- السليماني ط دار الغرب الاسلامي.

(٦) قال القاضي عبد الوهاب في اخره :"هذه اخر مسألة في كتاب عيون المجالس ، جردتها في هذا الجزء ليقرب وهو قليل ، حفظها ويسهل عليها لمن التمس مسالة منه بعينها. ولمن اراد حفظ المذهب فقط فان طلبت الحجة على المسالة فارجع الى الاصل ، وقد نقلت لفظ القاضي رحمه الله ، حرفا حرفا، الا في بعض مسائل، اختصرت نقلها بعض الاختصار ، وقدمت بعضا واخرت بعضا ، من غير اخلال بالمعنى ، وقد تركت فصولا لم نعدها مسائل لدخولها في المسائل ، وسميت فصولا مسائل لوقوع الاختلاف فيها ، وعددها الف مسألة واربعمائة واربعون مسألة" مخطوط رؤوس المسائل لعبد الوهاب القاضي.

والملاحظ أن ابن القصار استقصى فيه الحجج من المنقول والمعقول ، واستوعب الأقاويل وأقام الخلاف على الخصوم، وأطال النفس في استخراج العلل ، وفي ايراد الاعتراض والجواب على رسم الجدليين النظار ، جامعاً في كل ذلك بين جودة الاطلاع على الحديث ، وحسن إيراد الاعتراض والتصحيح مما جعله عمدة للاحقين من علماء المذهب في مجال النظر والانفصال والتعليل للمذهب والرد على خصومه ، وهذا أكثر ما اعتمده فيه الامام المازري في شرحه على التلقين اذ اكثر النقل عنه جدا[١] .

ومن الشواهد على الطبيعة الجدلية والحجاجية للكتاب قول ابن القصار في مسألة إذا رأى الرجل من امرأة حملاً يرى أنه ليس منه ولم يلاعن: قال مالك إذا مضت ثلاث أيام ولم يلاعن فهو ولده، ليس له نفيه ، وبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة لا اعتبر مدة ، وقال أبو يوسف ومحمد أربعون يوما قال ابن القصار : والدليل لقولنا هو أن نفي ولده محرم عليه واستلحاق ولد ليس منه محرم عليه ، فلا بد ان يوسع عليه لكي ينظر فيه ويفكر هل يجوز له نفيه أو لا ، وإنما جعلنا الحد ثلاثة لأنه أول حد الكثرة وآخر حد القلة ، وقد جعلت ثلاثة أيام ليختبر فيها المصراة ، فكذلك ينبغي أن يكون هنا، وأما أبو يوسف ومحمد فليس اعتبارهم بأولى من اعتبار مدة الولادة والرضاع ، إذ لا شاهد لهم في الشريعة وقد ذكرنا نحن شاهدا في الشريعة من مدة المصراة"[٢] .

"قال ابن القصار : وأجمع التابعون ومن بعدهم بعد خلاف من قبلهم على الأخذ بحديث (اذا التقى الختانان) وإذا صح الإجماع بعد الخلاف كان مسقطاً للخلاف ..."[٣] .

---

(١) اشير الى ان المازري اعتمد ايضا على ابن القصار في كتابه المذكور في مجال الروايات داخل المذهب والنقول عن العلماء والتاويلات في الخلاف ، ولكن الاساس في نقوله ما ذكرته حسبما استقرأته من الشطر المطبوع من الكتاب بتحقيق السلامي ط دار الغرب الاسلامي .

(٢) الجامع ٢ /١٢٧ النور الآية ١٠٦ المسالة ١٧ .

(٣) الجامع ٥ / ١٣٤ النساء الآية ٤٣ المسالة ٩ .

ونلاحظ من النقول عن كتاب مسائل الخلاف أنه يسوق احتجاج المخالفين ، كما جاء في مسألة الرجل يقف وقفا على ولده وولد ولده : "قال مالك لا يدخل في ذلك ولد البنات، قال ابن القصار : وحجة من أدخل البنات في الأقارب قوله عليه السلام للحسن بن علي(ان ابني هذا سيد) ولا نعلم أحدا يمتنع أن يقول في ولد البنات : إنهم ولد لأبي أمهم ، والمعنى يقتضي ذلك، لأن الولد مشتق من التولد ، وهم متولدون عن أمهم لا محالة . وقد دار القرآن على ذلك قال ﷺ [ومن ذريته داود وسليمان]، إلى قوله [من الصالحين] فجعل عيسى من ذريته وهو ابن ابنته"[١] .

ولابن القصار أنظار مخالفة للمذهب اتباعا للنظر ، فوافق مذاهب أخرى، منها ما أورده القرطبي في المرأة يدخل بها الرجل في عدتها "قال مالك والليث والأوزاعي يفرق بينهما ولا تحل له ابدا . وقد قال القاضي أبو الحسن : إن مذهب مالك المشهور في ذلك ضعيف من جهة النظر والله اعلم"[٢] .

طبقة القاضي عبد الوهاب :

عبد الوهاب بن علي بن نصر أبو محمد القاضي (ت ٤٢٢) :

يعد عبد الوهاب القمة الثالثة لمدرسة بغداد المالكية بعد إسماعيل القاضي والأبهري، كما يعد الرجل الذي اجتمع اليه تراث العلم المالكي بالعراق ، وخلاصة الوجود العلمي لهم به .

أخذ الفقه صغيرا عن الأبهري، ثم تفقه بابن الجلاب وابن القصار ، وطبقتهما ، "قيل للقاضي عبد الوهاب مع من تفقهت ؟ قال : صحبت الأبهري وتفقهت مع أبي

---

(١) الجامع الأنعام ٨٤-٨٦ المسالة ٧٢/٢٣ .

(٢) الجامع ٣/١٢٢ البقرة ٢٣٤ المسالة ٢٣ .

الحسن بن القصار وأبي القاسم بن الجلاب، والذي فتح أفواهنا وجعلنا نتكلم القاضي أبو بكر بن الطيب "[١] .

كان عبد الوهاب من طبقة النظار الكبار في المذهب ، ظهرت نجابته في الخلاف والجدل منذ طلبه ، وفي هذا المعنى كان القاضي أبو بكر الباقلاني يقول:"لو اجتمع في مدرستي أبو عمران وعبد الوهاب لاجتمع علم مالك ، أبو عمران يحفظه وعبد الوهاب ينصره" [٢] وكان يقول أبو محمد بن حزم "لو لم يكن للمالكية بعد عبد الوهاب إلا أبو الوليد الباجي لكفاهم"[٣] وكانوا يعدونه من الرجال الستة الذين لولاهم لضاع المذهب [٤] كما عرف بتصنيف أجود مصادر الأصول المالكية وأكثرها فحولة وتنظيرا ، ككتاب التلخيص والمروزي والمفاخر والإفادة[٥] .

في الخلاف العالي يمكن ان نلخص مشاركة عبد الوهاب فيه في ثلاثة محاور:

أولاً: أنه كان من المشهود لهم من طرف الشافعية الذين حضروا دروسه ومناظراته ، بالعلم بالخلاف والنظر : فقد كان يتذاكر مع أبي حامد الإسفرائيني الشافعي (ت ٤٠٦) وقال عنه أبو بكر بن ثابت الخطيب البغدادي الشافعي (ت ٤٦٣) قال : " كتبت عنه، ولم ألق في المالكيين أفقه منه ، وكان حسن النظر جيد العبارة"[٦] وقال عنه أبو إسحاق

---

(١) الديباج ٢ /٢٦ الاحمدي ابو النور.

(٢) شجرة النور ١٠٤ .

(٣) ترتيب المدارك ٨ .

(٤) وذلك قولهم لولا القاضيان والمحمدان والشيخان لضاع المذهب ، فالقاضيان : ابن القصار و عبد الوهاب ، والشيخان : الأبهري وابن أبي زيد، والمحمدان : ابن المواز وابن سحنون . المقدمات الممهدات لابن رشد بهامش المدونة ط دار الفكر ١ /٦٤ .

(٥) مما اعتمده الزركشي لمعرفة اصول المدنيين في كتابه البحر المحيط : كتاب الإفادة، والملخص، والاجوبة الفاخرة للقاضي عبد الوهاب حيث قال عند ذكر المصنفات الاصولية التي اعتمد "ومن كتب المالكية.. الملخص للقاضي عبد الوهاب والإفادة والأجوبة الفاخرة له " ١ /٨ .

(٦) ترتيب المدارك ٧ /٢٢٠ .

الشيرازي (٤٦) "أدركته وسمعت كلامه في النظر وكان فقيهاً"[١] وقال عنه النقاد في هذا المعنى : " القاضي أبو محمد أحد أئمة المذهب ، كان حسن النظر نظارا للمذهب ، ثقة حجة نسيج وحده وفريد عصره"[٢] ومما حفظ لنا من مناظراته وتصحيحاته وقوله : "سألت بعض شيوخ الشافعية عن الترتيب في الضوء، فقال: لأنها عبادة ترجع إلى شطرها لعذر ، فكان الترتيب من شرطها ، أصله الصلاة فينقضه بغسل الجنابة ، فقال: إنما عللت لإلحاق أحد النوعين بالآخر، وهي نوع طهارة الحدث بنوع الصلاة في انه يجب ان يكون في طهارة فيها ترتيب واجب ، فأما تعيين الموضع الذي يجب فيه فلم اقصد . ."[٣] .

ومنها ما حكاه في الإشراف قال:" وحكى الاسفرائيني عنا أنا لا نجوز أن نصلي الظهر حتى يكون الفيء ذراعا ، ولا أعلم هذا قولاً لأحد من المسلمين وإذا قلنا لهم إن هذا غلط علينا ، قالوا : لا يحكي شيخنا إلا الصواب"[٤] .

ثانياً: أنه اشتهر بذبه عن المذهب وقد دافع عن المالكية لما اضطهدهم العبيديون بمصر حظروا مذهبهم من الفتوى ، وكاتب في ذلك خليفة الفاطميين[٥] في رسالة احتفظ

(١) ترتيب المدارك ٧/ ٢٢١ .

(٢) الديباج ٢/ ٢٦ تحقيق الاحمدي ابو النور .

(٣) البحر المحيط ٥/ ٢٧١ .

(٤) الاشراف في مسائل الخلاف ١/ ٥٧ .

(٥) ذكر ابوالحسن بن بسام (ت٥٤٢) انه كاتب المستنصر ، وهذا وهم لان عبد الوهاب لم يعاصره لانه تولى سنة ٤٢٧ وتوفي القاضي عبد الوهاب سنة ٤٢٢ ومن غير البعيد ان يكون الذي كاتبه عبد الوهاب من ملوك الفاطميين هو الظاهر الذي تولى بين سنتي ٤١١-٤٢٧ وقولي هنا بترجيح ان يكون الظاهر هو الخليفة الفاطمي الذي كاتبه عبد الوهاب القاضي انما هو بناء على التوافق الزمني ، واستحالة ان يكون المستنصر ، ومن جهة اخرى لا نعلم في عصر عبد الوهاب من يحمل الاسم نفسه من المالكية ويكتب بتلك اللغة الأدبية الراقية، ولكن القطع بذلك يلزمه تحقيق واستقصاء ، وقد انكر استاذنا د الروكي ان يكون عبد الوهاب القاضي هو صاحب هذه الرسالة ، انظر دراسته لحياة المؤلف في رسالته قواعد الفقه المالكي من خلال كتاب الاشراف ط مجمع الفقه الاسلامي بجدة . نص رسالة عبد الوهاب: "حصن الله =

لنا بها وبجواب الخليفة الفاطمي عليها صاحب الذخيرة [(١)] ، ومن هذا القبيل ذبه عن المذهب في موضوع الاجتهادوالتقليد على ما حكاه عنه السيوطي في كتابه ، قال : " فإن قيل أخبرونا عن مريد التفقه ما الذي يلزمه؟ قلنا : لا يسوغ لمن فيه فضل للنظر والاجتهاد وقوة على الاستدلال والاعتبار ان يعتقد التفقه الا من طريق الاستدلال الصحيح العاري من افات النظر، المانعة من استعماله على واجبه وترتيبه في حقه ، فان قيل : فهذا خلاف ما أنتم عليه من دعائكم إلى درس مذهب مالك بن أنس واعتقاده والتدين بصحته وفساد ما خالفه ؟ قلنا : هذا ظن منك بعيد واغفال شديد، لأنا لا ندعوه من ندعوه إلى ذلك الا لأمر بد عرفنا صحته وعلم صوابه بالطريق التي قد بيناها، فلم نخالف بدعائنا اليه ما قررناه،

= المؤمنين من الشيطان ، بجنن الطاعة ، ودثرهم من قر وسواسه بسرابيل القناعة ووهبهم من نعمه مددا ومن توفيقه رشدا وصيرهم الى منهج الإسلام ، وسبيله الأقوم وجعلهم من الآمنين فيما هم عليه موقوفون، وزينهم بالتثبيت فيما عنه مسئولون ، ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ كتابي اليك من الجبّ بإزاء مصرك وفناء برك ، بعد ان كانت بغداد لي الوطن ، والالفة والسكن. ولما كنت على مذهب صحيح، ومتجر ربيح كثرت على الخوارج وشق علي الماء ارتقاء المناهج ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز** ﴾ فاتيت مكة حرسها الله لكي اقضي فرض الحج من عج وثج، اسأل الله تعالى القبول ، وكيف انما يتقبل الله من المتقين . ولقد كنت عندي ذا سنة ودين ، محبا في الله تعالى وفي النبيين وفي محمد ﷺ والمهديين فورد الناطقون واتى المخبرون بخبرما انت عليه ، فذكروا انك مدحض لمذهب مالك ،موعد لاصحابه بأليم المهالك ، هيهات هيهات، ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوما القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ فأبيت القبول على امر لم يصح بيانه، لكثرة الكذب في الدنيا، واذ لا يحل لمسلم ان يموت طوعا فأردت الكشف عن ذلك بكتاب منك ، والسلام على من اتبع الهدى. وقد رد عليه المستنصر بالله (حسب ما عند ابن بسام، وهو وهم قطعا) بجواب جاء فيه : "حرس الله مهجتك وطول مدتك ، وقدم أمير المؤمنين الى المنية قبلك وخصه بها دونك. ورد كتابك المكرم ، وأتى خطابك المعظم يفصح البكم ، وينزل العصم ، وهبت عليه رياح البلاغة فنمقته ووكفت عليه سحائب البراعة فرققته فيا له من خط بهي ولفظ شهي ، تذكر فيه حسن ظنونك بنا وتثبت اثرنا ، فلما ان عَرّستَ بإزائها ورد من فسخ عليك، فخذ بظاهر ما كان عندك ورد ودع لربك علم ذات الصدور والسلام" .

(١) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة لأبي الحسن علي ابن بسام الشنتريني (ت٥٤٢) ٤ / ٥٢١ .

وعقدنا الباب عليه[١] .

ثالثاً: مصنفاته في الخلاف الجدلي .. فقد كان عبد الوهاب ممن ألف في هذا الفن فأكثر، ولم يضاه في كثرة ما صنفه في النصرة لمذهب إمام دار الهجرة، فمن كتبه في الخلاف : كتاب شرح الرسالة[٢] ، وكتاب النصرة لمذهب إمام دار الهجرة[٣] وكتاب المعونة لدرس مذهب عالم المدينة[٤] وكتاب أوائل الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الملة، وكتاب الإشراف على نكت مسائل الخلاف وكتاب الأدلة في مسائل الخلاف[٥] ، وكتاب الرد على المزني وكتاب عيون المسائل[٦] ، ولا يبعد أن تكون كتبه الأخرى في الشرح من مصنفات الخلاف العالي أيضا ،ككتابه في شرح التلقين وفي شرح مختصر ابن أبي زيد القيرواني[٧] وشرح المدونة"[٨] .

وما في كتب عبد الوهاب من الجدل والقياس يجمعه ابن بسام بقوله :"كان أبو محمد في وقته بقية الناس ، ولسان أصحاب القياس، وهو أحد من صرف وجوه المذهب المالكي بين لسان الكناني ونظر اليوناني، فقرر اصوله وحرر فصوله ، وقرر جمله وتفاصيله،

---

(١) الرد على ما اخلد الى الارض ص : ١٠٩ وانظر ايضا ص ١٠٨-١١٠ من نفس الكتاب فيها نصوص قيمة عن نظرة القاضي عبد الوهاب للاجتهاد والتقليد ..

(٢) الاجزاء ٣-٤-٥ مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ٦٢٥ ، ٦٢٩ .

(٣) قال المقري: " وقد حكى الوادآشي -حسبما رأيته خطه - إن القاضي عبد الوهاب بن نصر الغدادي المالكي ألف كتابا لنصرة مذهب مالك على غيره من المذاهب ، في مائة جزء وسماه النصرة لمذهب امام دار الهجرة فوقع الكتاب بخطه بيد بعض قضاة الشافعية بمصر فغرقه في النيل"نفح الطيب ٣ / ٢٧٤ .

(٤) مطبوع بتحقيق حميش عبد الحق ط دار الفكر ، وهو تحقيق غاية في الرداءة .

(٥) مطبوع بمطبعة الادارة في جزأين، ثم طبعته دار ابن حزم بتحقيق الحبيب بن طاهر ط ١ ١٤٢٠ - ١٩٩٩ .

(٦) ترتيب المدارك ٧ / ٢٢٢ والديباج ٢٦٢(٣٤٣).

(٧) قال في الديباج "صنع منه نحو نصفه" ٢٦٢ (٣٤٣).

(٨) ترتيب المدارك ٧ / ٢٢٢ .

ونهج فيه سبيلا كانت قبله طامسة المنار دارسة الأثار ، وكان أكثر الفقهاء ممن لعله كان أقرب سنداً وأرحب أمداً قليل مادة البيان، كليل شباة اللسان، قلما يصل في كتبه غير مسائل يلقفها ولا يثقفها ويبوبها ولا يرتبها، فهي متداخلة النظام غير مستوفاة الأقسام، وكلهم قد قلد أجر ما اجتهد وجزاء ما نوى واعتقد[١] .

والملاحظ في هذا السياق ان مؤلفه التلقين وإن كان متناً مختصرا من متون المذهب فإن عبارته جاءت متضمنة للإشارة إلى الخلاف والتنبيه على فصوله في أثناء المسائل ، وهذا ما تتبعه الإمام المازري في شرحه عليه واستخرج الخلاف من عبارته وبسط أطرافه ومآخذه في شرحه عليه[٢] .

طبقة تلاميذ عبد الوهاب القاضي فمن بعدهم:

انتهى تدريجيا بعد القاضي عبد الوهاب الدرس المالكي بالعراق ، ولم يعد لهم وجود قوي على صعيد الجدل الفقهي بمجالس العلم بها، وكان آخر المالكية المشاهير بها علمان شهيران: أولهما محمد بن عبيد الله أبو الفضل بن عمروس البزاز البغدادي (ت٤٥٠) "درس على أبي الحسن بن القصار والقاضي ابي محمد بن نصر ، وحمل عنهما كتبهما ، وحمل كتب ابي محمد ابن أبي زيد عنه إجازة " قال الخطيب: وهو آخر الفقهاء يعني ببغداد ، على مذهب مالك. وكان ثقة ديناً مشهوراً وإليه انتهت الفتوى في الفقه بمذهب مالك ببغداد . وذكره أبو إسحاق الشيرازي فقال: كان فقيهاً أصولياً. وذكره

(١) الذخيرة ٤/ ٥١٥ .

(٢) انظر تنبيهات المازري على اشارات القاضي عبد الوهاب إلى الخلاف في التلقين في شرح التلقين بتحقيق السلامي: ١٩٧-١٨٩-١٧٦-٢٠٧-٢٣٨-٢٩٤-٤١٤-٥٣٧-٥٦٦-٥٩٨-٥٩٩-٩٥٢-٩٨٨-١١٩٢ انظر تنبيهات المازري على اشارات القاضي عبد الوهاب الى الخلاف في التلقين في شرح التلقين بتحقيق السلامي: ١٩٧-١٨٩-١٧٦-٢٠٧-٢٣٨-٢٩٤-٤١٤-٥٣٧-٥٦٦-٥٩٨-٥٩٩-٩٥٢-٩٨٨-١١٩٢ .

السمنطاري : فقال : فقيه شاطر جلد ، قيم بمسائل الخلاف ، صاحب حلقة المالكيين بجامع المنصور"[١] .

وابن عمروس من علماء الخلاف المالكيين ومن نظار الجدليين على مذهبهم، فقد ألف تعليقاً في مسائل الخلاف ومختصراً أصولياً، قال عياض : "وله تعليق حسن كبير مشهور في المذهب والخلاف ، ومقدمة حسنة في أصول الفقه" .

ولابن عمروس أنظار في علم الجدل وأحكام العلل حكى بعضها عنه الإمام الباجي في كتابه أذكر منها نقلين . شاهدين: أولهما: قال الباجي في موضوع القياس المركب "وقد رأيت ببغداد وغيرها جماعة ينكرونه ،كأبي الفضل المالكي وأبي منصور الطوسي"[٢] .

والثاني : قال: "والكسر سؤال صحيح وهو من أفقه ما يجرى بين المتناظرين ، وقد اتفق المحققون على صحته وإفساد العلة به ، ويسمونه النقض من جهة المعنى ، ومتفقهة خراسان يقولون: إنه ليس بصحيح ولا تفسد العلة به ، ولا يمنع من الاستدلال بها وقد كان أبو الفضل المالكي يذهب إلى ذلك في مناظراته كثيرا"[٣] .

وثانيهما : أحمد بن محمد أبو يعلى العبدي (ت٤٨٩) :

"إمام المالكية بالبصرة وصاحب تدريسهم ، ومدار فتواهم ، وذو التآليف في وقته مذهبا وخلافا أخذ عن أبي الحسن بن هارون التميمي المالكي . كان يملي كل جمعة في جامع البصرة ، وعلى رأسه مستمليان يسمعان الناس بما يمليه .. سمع منه شيخنا القاضي أبو علي، والقاضي أبو بكر عبيد بن عمران النفزاوي وعالم عظيم.."[٤] .

---

(١) ترتيب المدارك ٨/ ٥٤ .

(٢) أحكام الفصول ص : ٦٣٩(٦٧٥).

(٣) أحكام الفصول ص : ٦٦١ (٧١٤)

(٤) ترتيب المدارك ٨/ ١٠٠ شجرة النور ١١٦(٣٢٠).

أهم مؤلفات المالكية البغداديين المتصلة بالجدل الفقهي

كتب أحكام القران

أحكام القرآن للقاضي إسماعيل.

الاحتجاج بالقرآن او حجاج القرآن للقاضي إسماعيل مجلدان.

أحكام القرآن لابن بكير.

أحكام القرآن المختصر من كتاب القاضي إسماعيل مع الزيادة عليه لبكر بن العلاء القشيري

أحكام القرآن لابن خويزمنداد

كتب الرد على المذاهب الأخرى

الرد على محمد بن الحسن "مائتا جزء ولم يتم "للقاضي إسماعيل .

الرد على محمد بن الحسن لأبي بكر بن الجهم.

الرد على أبي حنيفة للقاضي إسماعيل.

الأشربة لبكر بن العلاء القشيري ، في الرد على أبي جعفر الطحاوي.

الرد على الشافعي في مسألة الخمس وغيره للقاضي إسماعيل.

الرد على الشافعي لحماد بن اسحاق.

الرد على الشافعي في وجوب الصلاة على النبي ﷺ في الصلاة لبكر بن العلاء القشيري .

الرد على الشافعي لأحمد بن عبد الوهاب أبي علي بن أبي يعلى الحمادي.

الرد على المزني لبكر بن العلاء القشيري.

كتاب الرد على المزني للأبهري الكبير.

الرد على مسائل المزني ، لأبي جعفر الأبهري.

وكتاب الرد على المزني للقاضي عبد الوهاب.

الرد على من أنكر إجماع أهل المدينة، وهو رد على أبي بكر الصيرفي لأبي الحسين الحمادي .

الرد على ابن علية فيما أنكره على مالك ، سبعون مسألة ،لأبي جعفر الأبهري .

إثبات القياس لعبد العزيز بن محمد أبي العلاء البصري.

كتب الحجة ومسائل الخلاف

الحجة لأحمد بن المعذل.

مسائل الخلاف والحجة لمالك لأبي الحسن بن المنتاب.

مسائل الخلاف لأبن بكير.

مسائل الخلاف والحجة لمذهب مالك لأبي بكر بن الجهم.

مسائل الخلاف لبكر بن العلاء القشيري.

مسائل الخلاف لأبي عبد الله الواسطي.

المعتمد في الخلاف نحو مائة جزء لأحمد بن زيد أبي سعيد القزويني.

الإلحاق في مسائل الخلاف لأبي سعيد القزويني.

مسائل الخلاف لأبي بكر بن علوية الأبهري.

مسائل الخلاف لأبي العلاء البصري.

كتاب في مسائل الخلاف كبير نحو مائتي جزء لمحمد بن عبد الله أبي جعفر الأبهري الصغير.

مسائل الخلاف لابن خويزمنداد.

مسائل الخلاف لأبي تمام البصري.

مسائل الخلاف لعبيد الله بن الحسن أبي القاسم بن الجلاب.

مسائل الخلاف لأبي علي الدهان.

مسائل الخلاف لمحمد بن جعفر البصري المعروف بالخفاف.

عيون الأدلة في الخلافيات لابن القصار.

أوائل الأدلة في الخلاف بين فقهاء الملة للقاضي عبد الوهاب.

الإشراف على نكت مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب.

النصرة لمذهب إمام دار الهجرة للقاضي عبد الوهاب.

الأدلة في مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب.

عيون المسائل للقاضي عبد الوهاب

كتب إجماع اهل المدينة

إجماع أهل المدينة لأبي بكر الأبهري الكبير.

أمالي إجماع أهل المدينة للباقلاني.

إجماع أهل المدينة لعلي بن ميسرة أبي الحسن.

كتب فضائل مالك والمدينة

فضائل مالك لابن المنتاب.

رسالة إلى من جهل قدر مالك بن أنس من العلم ، لبكر بن العلاء القشيري.

كتاب فضل المدينة على مكة للأبهري الكبير.

فضائل مالك نحو عشرين جزءا للتستري.

فضائل المدينة والحجة بها ، للتستري.

فضائل مالك بن أنس لأبي ذر عبد بن أحمد الهروي.

لائحة بأهم مصادر البحث ومراجعه

-أخبار علماء افريقية لمحمد بن حارث الخشني

-أحكام الفصول في أحكام الأصول للباجي .ح عبد المجيد تركي ط دار الغرب الاسلامي ط ١٤٠٧-١٩٨٦ .

-أحكام الفصول لأبي الوليد الباجي ح عبد المجيد تركي ط دار الغرب الاسلامي .

– أحكام القرآن الصغرى لأبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي المعافري تحقيق سعيد اعراب ، ط ١ ١٤٢١- ١٩٩٢ ، منشورات ايسيسكو.

– لأبي بكر محمد عبد الله بن العربي المعافري (ت٥٤٣) تحقيق علي البجاوي

– أخبار الفقهاء والمحدثين بالأندلس ، لمحمد بن حارث الخشني (ت٣٦١) ط المعهد العلمي للتعاون مع العربي .

– أزهار الرياض في أخبار عياض.

– أصول الفتيا على مذهب مالك لمحمد بن حارث الخشني ص ٣٢٤ .

– إفادة النصيح بالتعريف بسند الجامع الصحيح لأبي عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن رشيد السبتي (ت٧٢١) ح محمد الحبيب بن الخوجة طبع الشركة التونسية لفنون الرسم تونس .

– الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ط دار الحديث بالقاهرة سنة ١٤٠٤ .

– الإحكام للآمدي تحقيق محمد سيد الجميلي ط دار الكتاب العربي.

– الإشراف على مسائل الخلاف للقاضي عبد الوهاب بن على المالكي (ت٤٢٢) مطبعة

الإرادة دون معلومات اخرى عن الطبع . وطبعة دار ابن حزم من تحقيق ذا الحبيب بن طاهر.

– الأم لمحمد بن ادريس الشافعي (ت ٢٠٤) ط دار الفكر بيروت .

– الاستذكار ط ، باعتناء عبد المعطي امين قلعجي ، ط دار قتيبة دمشق بيروت ،دار الونجي حلب القاهرة .

– الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء لأبي عمر يوسف بن عبد النمري ، ح عبد الفتاح ابو غدة ط ١٤١٧– ١٩٩٧ ط دار البشائر بيروت ومكتب المطبوعات الإسلامية بحلب .

– البحر المحيط في أصول الفقه لبدر الدين بن بهادر الزركشي الشافعي (ت٧٩٤) اعتناء عمر سليمان الأشقر مراجعة عبد الفتاح أبو غدة وعمر سليمان الاشقر ط سنة ١٩٩٢ وزارة الاوقاف ط الصفوة الصفاءة –الكويت .

– البرهان في أصول الفقه لأبي المعالي الجويني، تحقيق عبد العظيم الديب ط ٤ مطبعة الوفاء – المنصورة – مصر سنة ط ٣ ١٤١٢–١٩٩٢ .

– التبصرة للشيرازي تحقيق محمد حسن هيتوط دار الفكر بدمشق .

– التعليقة على المدونة للمازري محمد بن على ابي عبد الله التميمي (ت ٥٣٦) مخطوط الخزانة العامة بالرباط .

– التفريع لابن الجلاب، تحقيق حسين بن سالم الدهماني ، ط الباقلاني (ت ٤٠٣) ح د عبد الحميد بن على ابو زنيد ط مؤسسة الرسالة ط ٢ ١٤١٨ .

التلقين للقاضي عبد الوهاب ط وزارة الاوقاف المغرب

- التمهيد لابن عبد الط وزراة الاوقاف المغرب .

- الثقات لابن حبان . ط الهند ١٩٨١ .

- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي ح احمد عبد العليم الدوني ط ٢ دار الشعب القاهرة سنة ١٣٧٢ .

- الجدل على طريقة الفقهاء لابن عقيل الحنبلي (٥١٣) ط مكتبة الثقافة الدينية ببور سعيد بمصر دون تاريخ الطبع ولا عدد .

- الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي ط ١ احياء التراث ١٢٧٢-١٩٥٢ .

- الحاوي الكبير شرح مختصر المزني ح الشيخ علي محمد عوض وعادل احمد عبد الموجود ط دار الكتب العلمية ط ١ سنة ١٤١٤ .

- الحجة على أهل المدينة لمحمد بن الحسن الشيباني ط باعتناء محمد حسن الكيلاني القادري ط عالم الكتب .

- الديباج تحقيق الأحمدي أبو النور ، ونسخة أخرى ط دار الكتب العلمية .

- الذب عن مذهب مالك لابن ابي زيد القيرواني (ت٣٨٦) ، مخطوط مكروفيلم عن نسخة تشستربيت بإيرلندة تحت رقم ١٠٠ .

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢) إحسان عباس دار الثقافة للطباعة والنشر ط ١ ١٣٩٩ .

- الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الإجتهاد في كل عصر فرض لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١) تحقيق د فؤاد عبد المنعم أحمد ط سنة ١٤٤٤ مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية مصر.

- الرسالة لمحمد بن إدريس الشافعي تحقيق احمد محمد شاكر ط دار الفكر ١٣٠٩ .

- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، علمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وادبائهم لأبي القاسم خلف بن عبد الملك (ت٥٧٨) باعتناء السيد عزت العطار الحسيني مكتبة الخانجي ط ٢ ١٤٤١-١٩٩٤ .

- العواصم من القواصم تحقيق عمار الطالبي .

- الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي لمحمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي (ت ١٣٧٦) دار التراث بالقاهرة تعليق عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ ط ١ سنة ١٣٩٦هـ.

- الفنون لابن عقيل الحنبلي الذي طبع منه جزءان بتحقيق جورج المقدسي ط ١٩٩١ مكتبة لينة دمنهور.

- الفهرست لمحمد بن اسحاق أبي الفرج النديم(ت٣٨٥) ط دار المعرفة سنة ١٣٩٨ .

-الكاشف للذهبي ط ١ ح محمد عوامة ط ١٤١٣- دار القبلة للثقافة الاسلامية

- المحصول للرازي تحقيق طه جابر العلواني ط جامعة الامام بالرياض.

- المدونة الكبرى لسحنون بن سعيد التنوخي (ت ٢٤١) ط دار صادر.

- المستصفى للغزالي ط دار الفكر.

- المعلم للمازري تحقيق الشاذلي النفير.

- المعونة على مذهب عالم المدينة للقاضي عبد الوهاب البغدادي ح عبد الحق حميش ط دار الفكر دون ذكر التاريخ.

- المعيار المعرب للونشريسي خرجه جماعة من الأساتذة بإشراف د سعيد حجي ، مطبوعا وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ١٤٠١١- ١٩٨١ ط. دار الغرب الاسلامي.

- المفيد لابن هشام المفيد للحكام فيما يعرض لهم من نوازل الحكام تحقيق عبد القادر بوجلخة، نسخة مرقونة بجامعة وجدة ص :٧٢٩ .

- المقدمات الممهدات لابن رشد بهامش المدونة ط دار الفكر ١ / ٦٤ .

- المقدمة لعبد الرحمن بن خلدون الحضرمي ، (ت٨٠٨) ح عبد الواحد وافي ص ١٢٣٧ وعلى طبعة بيروت ١٩٦٧ وعليطبعة المكتبة التجارية الك ي مصر دون تاريخ.

- المنهاج في ترتيب الحجاج للباجي تحقيق عبد المجيد تركي ط دار الغرب الاسلامي.

- المواعظ والاعتبار بذاكر الخطط والآثار لتقي الدين ابي العباس احمد بن على المقريي (ت ٨٤٥) ط مكتبة المثني ببغداد ط بالاوفست.

- الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي (ت٧٩٠) دار المعرفة بيروت باعتناء عبد الله دراز ومحمد عبد الله دراز.

- الوافي بالوفيات لخليل بن أيبك الصدفي باعتناء من ديدرنغ .دار النشر فرانز شتايز بفيسادان ط ٢ ١٩٧٤ .

- تاريخ العلماء والرواة بالاندلس لابن الفرضي ط ٢ ٤٠٨ - ١٩٨٨ باعتناء السيد عزت العطار الحسيني مكتبة الخانجي بالقاهرة. واعتمدت ايضا ط دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري بتحقيق ابراهيم الابياري ط ٢ ١٤١٠- ١٩٨٩ .

- تاريخ المدرسة المالكية بالمشرق لبكير محمود باحث باللغة الفرنسية ط مطبعة الاتحاد التونسي للشغل بإذن من اكادمية باريس .

- تاريخ بغداد لأبي بكر محمد بن ثابت البغدادي (ت٤٦٣) ط ١ سنة ١٩٣١ مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد ومطبعة السعادة .

- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري لابن عساكر الدمشقي ثقة الدين أبي القاسم على بن الحسن (ت٥٧١) ط ٤ ١٤١١ - ١٩٩١ دار الكتاب العربي بيروت .

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض ط وزارة الاوقاف المغرب .

- تفسير الموطأ لابي المطرف القنازعي (ت ٤١٣) مخطوط الخزانة العامة بالرباط .

- تقريب التهذيب لأحمد بن على بن حجر العسقلاني (ت٨٦١) ح محمد عوامة ط ١ ١٤٠٦-١٩٨٦ ط دار الرشيد سوريا .

- تهذيب التهذيب لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٦١) ط ١ سنة ١٤٠٤ ، دار الفكر واعتمدت ط دار صادر ، عن دائرة المعارف النظامية بحيدرا اباد الدكن (١٣٢٧)

- تهذيب السالك في نصرة مذهب الامام مالك للفندلاوي (ت٥٤٣) تحقيق احمد البوشيخي ط وزارة الاوقاف بالمغرب ١٤١٩-١٩٩٨ .

- جامع بيان العلم لأبي عمر بن عبد النمري (ت ٤٦٣) .

- جذوة المقتبس للحميدي ت٤٨٨ .

- دراسات في مصادر الفقه المالكي لمكلوش موراني ترجمة الى العربي د سعيد البحيري

د عماد صابر عبد الجليل محمود رشاد حنفي ط ١ ١٤٠٩– ١٩٨٨ دار الغرب الاسلامي

– رؤوس المسائل لعبد الوهاب القاضي(ت ٤٢٢)، (تجريد لعيون الادلة لشيخة أبي الحسن بن القصار) .

– رسالة الصحابة لعبد الله بن المقفع .

– رسالة في صحة أصول أهل المدينة لابن تيمية .

– رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، لابن حزم ضمن رسائل ابن حزم ح احسان عباس ط ١ ، ١٩٨١ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت .

– سير أعلا النبلاء للإمام الذهبي تحقيق شعيب الأرنؤوط وغيره ط مؤسسة الرسالة .

– شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف ط دار الفكر .

– شرح التلقين لمحمد بن علي المازري ابي عبد الله الصقلي (ت ٥٣٦) مخطوط رقم ٤٩٠ خزانة ابن يوسف بمراكش المتضمن لباب القضاء ، وطبعة دار الغرب الاسلامي بتحقيق السلامي ، المتضمنة لكتاب الطهارة وكتاب الصلاة .

– شرح الرسالة للقاضي عبد الوهاب مخطوط الخزانة العادة .

– شرح تنقيح الفصول القرافي .

– طبقات الحنابلة لأبي الحسين محمد بن أبي يعلي الحنبلي (ت٥٢١) ح محمد حامد الفقي ، ط دار المعرفة بيروت .

– طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين بن السبكي (ت ٧٧١) تحقيق لحلو و الطناحي .

- طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ط١ ح عبد الله انيس الطباع سنة ١٤٠٧ – ١٩٨٧ الكتب.

- طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي (ت٤٧٦) تحقيق إحسان عباس دار الرائد العرب بيروت ط ٢ ١٤٠١–١٩٨١ واعتمدت طبعة اخرى بتحقيق خليل الميس ط دار القلم

- فصول الأحكام للباجي نسخة ضمن مجموع تحت عدد ١٠٢٤ ق واخرى ضمن مجموع تحت عدد ٣٢١٩ د بالخزانة العامةبالرباط. ونسخة اخرى بالقرويين تحت عدد ١٠٢٤ وهو مطبوع ط وزارة الاوقاف المغرب ح الباتول بن علي.

- فهرسة ابن خير الإشبيلي.

- كتب حذر منها العلماء، لأبي عبيدة مشهور بن حسن ال سلمان ط ١، ١٤١٥– ١٩٩٥دار الصميعي للنشر والتوزيع.

- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة وبكتاب جلبي (ت ١٠٦٧) هـ ط مكتبة المثني بغداد دار الفكربيروت ط ١٤٠٢ – ١٩٨٢م بالاوفست.

- لسان الميزان ح دائرة المعارف النظامية بحيدر اباد الدكن الهند مؤسسة الاعلمي للمطبوعا بيروت ط ٣ ١٤٠٦–١٩٨٦

- مباحث في المذهب المالكي بالمغرب للمرحوم الدكتور عمر الجيدي ١٩٩٣ مطبعة المعارف الجديدة.

- مختصر المقفى الكبير لتقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥) باعتناء محمد اليعلاوي ط دار الغرب ط ١ ١٤٠٧.

- مسائل الخلاف المنسوب إلى ابن الجهم المالكي (ت٣٢٩) مخطوط مكروفيلم الخزانة العامة.

- معجم المؤلفين لرضا كحالة.

- مقدمة في الأصول لأبي الحسن على بن عمر بن القصار (ت٣٩٨) تحقيق محمد السليماني ط دار الغرب الاسلامي.

- نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب لشهاب الدين المقري ، ط ١ ح محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة المكتبة التجارية الكبرى ط ١٣٦٧- ١٩٤٩ .

- وفيات الأعيان لشمس الدين بن خلكان (ت٦٨٢).

ملامح الحوار المذهبي
في الفكر الفقهي والأصولي
عند فقهاء مدرسة مالكية العراق

إعداد

أ. د. رضوان بن غربية*

* أستاذ الفقه وأصوله بجامعة الجزائر، حصل على الماجستير في الفقه وأصوله من جامعة أم القرى عام (١٩٨٥م) وكان عنوان رسالته: «دراسة وتحقيق كتاب (الإمام في بيان أدلة الأحكام للعز بن عبد السلام)» وحصل على الدكتوراه من الجامعة نفسها والتخصص نفسه عام (١٩٨٩م) بتقدير امتياز وكان عنوان رسالته: «دراسة وتحقيق كتاب (الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي لابن عبد الهادي)». له العديد من الكتب والدراسات.

مقدمة للموضوع : القيمة الحضارية للحوار المذهبي .

يطلق الحوار في أصل اللغة على الحديث الذي يجري بين شخصين أو أكثر. تقول : حاوره محاورة، وحوارا، جاوبه وجادله وفي التنزيل : ﴿**قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ**﴾(١) ومنه كذلك تحاوروا، تراجعوا الكلام بينهم و تجادلوا، قال تعالى : ﴿**وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا**﴾(٢).

فالحوار بهذا المعنى مصطلح يصدق على أفعال المشاركة التي لا يمكن للفرد أن يحققها إلا من خلال الاتصال والاحتكاك، ولهذا فالجواب فيه مطلوب .

وفي الصحاح :" والمحاورة : المجاوبة والتحاور التجاوب"(٣) .

ومن معاني الحوار ابتغاء الصواب، فانت تتعلم من محاورك ما تضيف به شيئاً إلى ما عندك، وهو من أدوات التبديل والتغيير كذلك، إذا ظهر لدى المحاور ما يثير رأيك ويدعم مقولتك، وبهذا يمكن تفسير قول الشافعي فيما اشتهر عنه" مذهبي صواب يحتمل الخطأ ومذهب غيري خطأ يحتمل الصواب" .

وقول مالك رحمه الله فيما رواه عنه معن بن عيسى قال :" سمعت مالكا يقول : إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما خالف فاتركوه" (٤).

فالحوار لا يمكن أن ينمو وينشأ بين أقوام أصيبوا بثقافة الجمود الذهني، أو في وسط من تهيكل فقههم على التقليد المطلق. فإنهم بهذا غير قادرين على الدخول في حوار جاد وإذا دخلوه فإنهم غير قادرين على الاستمرار فيه، لأن الحوار متصل بالاجتهاد والقدرة على التوليد والتجدد، وأصحاب الكسل الذهني والتقليد المطلق غير قادرين على شيء من ذلك"(٥) .

---

(١) الكهف الآية : ٣٧ .
(٢) المجادلة الآية : ١، وانظر المعجم الوسيط ١/١٠٥.
(٣) الصحاح للجوهري ٢/٦٤٠.
(٤) تاريخ الذهبي ١١/٢١٧.
(٥) فصول في التفكير الموضوعي "عبد الكريم بكار" ص ٢١٥ .

فالإنتاج في مجال الاجتهاد الفقهي كما فهمه الأوائل في عصور الازدهار عمل في غاية الأهمية يعتمد على الثقة بالنفس واستثمار الوسائل التي تدعم الإبداع في مجال الفكر والثقافة. والانفتاح في شكله الحواري عامل أساسي في تكوين العقل المنتج، حيث إن الوعي بأهمية البناء الفقهي في كثير من الأحيان يعتمد على المقارنة و الموازنة. وقطع خيوط الحوار والتواصل مع المخالف لا يشكل في نهاية المطاف إلا نموذجا للانغلاق المذهبي المقيت، **فعقلية البعد الواحد** التي يتمتع بها كثير من منتسبي المذاهب جنت على ضرورة من ضرورات التفوق العلمي والتقدم الفكري والاجتماعي، وهي حتمية الانفتاح والتكامل الاجتهادي بين المذاهب. " هذا الانغلاق قد يكون متعمداً في كثير من الأحيان من قبل جهات لا ترى إمكانية لاستمرارها في ظل الانفتاح على الآخرين، لأن وجودها غير مشروع، أو لأنها تحمل ثقافة هشة، أو أفكاراً غير مشروعة وحين تنعدم أجهزة الاتصال فإن التلاعب بالناس يصبح سهلاً ..."(١) وتفادياً لهذه الظاهرة القبيحة عمل كبار فقهاء المذهب المالكي في مدارسه المختلفة على تكريس مبدأ الانفتاح على آراء ومذاهب فقهاء الأمصار الآخرين، فرأينا الكتب التي اهتمت بالحوار الفقهي **ككتب ابن رشد(٢) (ت ٥٩٥ هـ) الحفيد، وابن العربي(٣) (ت ٥٤٣ هـ)، والقاضي ابن القصار و ابن عبد البر(٤) (ت ٤٦٣ هـ) والقاضي عبد الوهاب بن نصر وغيرهم(٥)** ممن لا يسع المجال لذكرهم.

ولقد تعلمنا من ديننا وتراثنا أننا نثبت الحقائق مهما كان مصدرها لأنها حقائق، وبغض النظر عن قائلها، فالعبرة بالقول لا بالقائل، وكم من مذهب أو اجتهاد هجر بسبب قائله، و في التاريخ نماذج على هذا التقهقر الحضاري، و الانكماش الفقهي الذي أصاب المذاهب، و انتهت فصوله بإعلان غلق باب الاجتهاد .والذريعة عند هؤلاء المتمذهبين في

---

(١) نفس المصدر ص ٢٢٧.

(٢) انظر : ترجمته في التكملة لابن الابار ٢ /٥٥٣، الوافي بالوفيات ٢ /١١٤.

(٣) انظر: ترجمته في الصلة ٢ / ٥٩١، وفيات الاعيان ٤ /٢٩٦، الوافي ٣ / ٣٣٠ .

(٤) انظر: ترجمته في ترتيب المدارك ٤ /٨٠٨،الصلة ٢ /٦٥٧، وفيات الأعيان ٧ /٦٦ .

(٥) المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته، رسالة دكتوراه: محمد المختار محمد المامي ص١٨٧.

رفضهم الحوار والانفتاح، هو اعتقادهم أن ما رآه الإمام مقدّس لا يمكن العدول عنه، وأن في مدارسة آراء المخالف تنازل، وقد يخدش في صحة الانتساب المذهبي. والأمة إذا استصعبت فتح مجال الحوار مع الذات فهي أمة تفتقر إلى الثقة بالنفس، هذه الثقة التي اكتسبها إمام دار الهجرة بعد تجربة و مخابرة طويلة لمبادئ الانفتاح والحوار مع الذات وعبر عنها في كثير من المواقع بقوله إذا سئل فيما لا يمكن الإجابة عنه : " لا أدري"(١) و لم يؤثر ذلك في اجتهاده رضي الله عنه .

بل قال مرة وكله ثقة :"جُنّة العالم : لا أدري، فإذا أغفلها أصيبت مقاتله"(٢).

واستحالة الحوار في حقيقته يتضمن رفض النقد، "لأن الذي يرفض الحوار سيكون رفضه للنقد أشد، لأن الحوار كثيرا ما يشتمل على نقد مخفف، مبطن باللباقة والكياسة، فإذا رفض الحوار فهذا يعني أن فرص عقد جلسات للنقد البناء والتناصح المخلص ستكون ضئيلة جداً" (٣) وحينئذ فإنه لا مناص من الدخول تحت قوله تعالى : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾(٤).

بذور الحوار في الفقه الاجتهادي عند مالك بن أنس رحمه الله تعالى:

لقد عرفت الأمة الإسلامية مرحلة مشرقة من الانفتاح الحضاري المشهود، والذي بموجبه تربعت على عرش القيادة في العطاء والإنتاج العلمي الغزير فترة من الزمن ليست بالقصيرة، شهد لها بذلك الأعداء قبل الأصدقاء.

فكان ذلك دليلاً ناصعاً على الوعي بالذات، ومقياساً دقيقاً بخطورة وأهمية المسؤولية المنوطة بها في مجال البناء والتنمية بمختلف أشكالها وأنماطها الفكرية منها والاجتماعية والسياسية.

---

(١) انظر : ترتيب المدارك ١/ ١٤٤,١٥٢ سير الذهبي ٨/ ٧٧.

(٢) السير للذهبي ٨/ ٧٧.

(٣) فصول في التفكير الموضوعي ص ٢١٥، ٢١٦.

(٤) المؤمنون : ٥٣.

ودخلت أمتنا بذلك في مواجهة التحديات الداخلية والمتمثلة في بناء الإنسان السوي، وإقامة المجتمع الواعي بذاته وبرسالته، الحامل لدعائم النهضة والتفوق، فكان لكل ذلك وأكثر أن هيأ الله تعالى لإنجاز هذا المشروع الضخم رجالاً وأئمة حملوا لواء هموم هذا المجتمع، فترجموا المبادئ إلى سلوكات، وتغلغلوا بعظمة إخلاصهم في نفوس الآخرين، وجسدوا مبادئ الأمة الواحدة في حدود مساحة واسعة من تعدد الآراء، وسعة الأفكار، وتنوع الاجتهادات، فهزموا بذلك منطق عقلية البعد الواحد في فهم حقائق الأشياء، ووضعوا اعتبارا لا محدوداً في **تقديم المنهج على الأشخاص**، فنتج عن هذا التلاحم والتكامل رؤية جمعية لفضاءات تشييد المشروع الرباني المنشود، وذلك في حدود ما رسمه قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾(١).

ولعل من أبرز وأهم آليات هذا المنهج والموسوم بـ" **الصراط المستقيم**" ، هو مجموعة من القيم والفضائل شاعت عند أئمتنا و فقهائنا، وأخذت مساحة واسعة من مناهجهم في التفكير والاجتهاد، واصطبغت بها أخلاقهم، فكانت مادة أساسية أضاءت صفحة من تاريخ أمتنا الثقافي والعلمي. امتدت طولاً وعرضاً وعمقاً لازالت شاهدة على نصاعة ثروتنا الفقهية رغم ما أصابها من محن وإحن، شوهت بعض أوراقه الذابلة، هذه القيم التي لا تكاد تخلو منها فترة من فترات ازدهار ثقافتنا يمثلها بكل حيوية واقتدار **الإمام مالك رحمه الله تعالى**.

لقد أسّس رحمه الله ورضي عنه لفضيلة الحوار العلمي، والمشاركة الفقهية الفعالة، وانفتح في اجتهاداته بكل ثقة ووعي على آراء ومذاهب الآخرين، إيمانا منه بالبناء الجمعي للفكر والثقافة، واستطاع بفعل هذا التبادل في النظر، والتكامل في المشاورة أن يزيل كثيراً من الشبهات، ويحقق العديد من الانتصارات في مجال إثبات صحة الرأي، وإقناع الطرف المقابل به.

ولقد أدرك الإمام رحمه الله تعالى أن أهمية الحوار لا تكمن في السعي إلى توحيد الرأي دائماً، بقدر ما هي عملية حسن تقديم وجهة نظر الأطراف المتحاورة بعضها لبعض. أي أن يُري كل طرف الطرف الآخر ما لا يراه، وإذا ما أدى الحوار إلى تضييق شقة الخلاف، ذلك

(١) الأنعام : ١٥٣.

بحسن الاختيار وآداب المناقشة فذاك هو المبتغى في تصور مالك وقناعته، وكان رحمه الله يمارس ذلك في مناظراته، أكد ذلك القاضي ابن القصار[(١)] (ت ٣٩٨ هـ) لما سئل في هذا، قال رحمه الله :"سألتموني أرشدكم الله أن أجمع لكم ما وقع إليّ من الأدلة في مسائل الخلاف بين مالك بن أنس رحمه الله وبين من خالفه من فقهاء الأمصار رحمة الله عليهم... وأن الله خصه بحسن الاختيار، ولطيف الحكمة، وجودة الاعتبار..."[(٢)].

ولإمام دار الهجرة تجارب في إدارة فن الحوار والمشاركة في المساجلات العلمية في مجال الفقه والأصول والسياسة والإفتاء، حتى في التعليم والتربية وتبقى المراسلة العلمية والأخوية التي تمت بينه وبين الفقيه المصري الليث بن سعد[(٣)] (ت ١٧٥هـ) تحمل من الدلالات والإشارات الواضحة على قدرة الإمام في انتزاع الموافقة، وإقناع خصمه بصواب مذهبه وقوة اختياراته في مجال الأصول مع الأدب الجم في الخطاب والمناقشة.

قال رحمه الله بعد السلام و التحية : "... فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، أما بعد عصمنا الله وإياك بطاعته في السر و العلانية، وعافانا وإياك من كل مكروه، واعلم رحمك الله أنه بلغني أنك تفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس، عندنا ببلدنا الذي نحن فيه وأنت في إمامتك وفضلك ومنزلتك من أهل بلدك وحاجة من قِبلك إليك واعتمادهم على ما جاءهم منك..."[(٤)].

هذه أصول للمناظرة ساقها مالك، و صدّر بها كلامه ورسالته، تحمل معاني عالية في السلوك الحسن والذوق الرفيع في الخطاب والمحاورة.

ثم بعد الانتهاء من مضمون الرسالة وموضوع الحوار، ينهي مالك حديثه بقوله من نفس جنس مقدمته :"فانظر رحمك الله فيما كتبتُ إليك فيه لنفسك، واعلم أني أرجو أن لا يكون دعائي إلى ما كتبت به إليك إلاّ النصيحة لله تعالى وحده والنظر لك والظن بك،

---

(١) انظر : ترجمته في (ترتيب المدارك ٤/٦٠٢، شجرة النور ١/٩٢).

(٢) انظر : المقدمة الأصولية ص ٣ .

(٣) انظر : ترجمته في (طبقات ابن سعد ٧/٥١٧، مشاهير علماء الأمصار ص ١٩١، السير للذهبي٨/١٣٦).

(٤) انظر : ترتيب المدارك ١/٦٤، ٦٥ .

فانزل كتابي منك منزلته، فإنك إن فعلت تعلم أني لم آلك نصحاً، وفقنا الله وإياك لطاعته وطاعة رسوله في كل حال..." (١).

وكان جواب الليث رحمه الله تعالى عن هذه الرسالة فائقاً في لغته وأسلوبه، جامعاً لمعاني وأهداف الحِوار، برهن على مقدرته في الانفتاح على مذهب محاوره والتسليم بوجهة نظر مالك في اعتماد مذهب أهل المدينة أصلاً من أصول الاستدلال قال رحمه الله تعالى: "... وقد أصبت بالذي كتبت من ذلك إن شاء الله، ووقع مني بالموقع الذي تحب، وما أجد أحداً ينسب إليه العلم أكرَهَ لشواذ الفتيا ولا أشدَ تفضيلاً لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ولا آخذَ لفُتياهم فيما اتفقوا عليه مني والحمد لله رب العالمين..."(٢).

لقد برهن مالك رحمة الله عليه من خلال هذه المراسلة على أنه محاور ناجح أسّس لهذا المنهج مبكراً، ودعمه بما وقع له من حوار وانفتاح مع ذاته وعلمه واجتهاده، حيث ظهرت بوادر النقد وهي ممارسة حوارية مع الامام مالك إذ نهج سبيل النقد في أحاديث موطئه، حتى صارت أحاديثه تناهز الست مئة في النسخ المتأخرة بعد أن كان يضم عشرة آلاف حديث في نسخه الأولى. وتأكيداً لهذا النهج الحواري قال يحيى بن سعيد القطان(٣) (ت ١٩٨ هـ): "كان علم الناس في زيادة وعلم مالك في نقصان، ولو عاش مالك لأسقط علمه كله من كثرة التحري" (٤).

وعلى هذا السنن البيّن سار أئمة المذهب وحُذّاقه من بعده، فقد وقف عبد الرحمن ابن القاسم أشهر تلاميذ مالك مستدركاً على شيخه ومخالفاً له لكثير من الآراء التي ذهب إليها، وحاوره بكل أدب في أحكامها، وألّف العلاّمة المالكي أبو عبيد الجبيري (ت ٣٧٨هـ) في ذلك كتابا سمّاه: (التوسط بين مالك وابن القاسم في المسائل التي اختلفا فيها من مسائل المدونة)، والكتاب كما في مقدمة ابن القصار، جمع من مسائل الخلاف بين الإمامين واشترط فيه مصنفه رحمه الله أن يكون عادلاً محاوراً لكلا الطرفين بما تيسر من علم الكتاب والسنة(٥).

---

(١) انظر: نفس المصدر ١/ ٦٤، ٦٥.

(٢) ترتيب المدارك ١/٦٥، وانظر: الرد الكامل لليث في إعلام الموقعين ٣/٨٣ و بعدها.

(٣) انظر ترجمته في طبقات ابن سعد ٧/٢٩٣، تاريخ بغداد ١٤/١٣٥.

(٤) انظر ترتيب المدارك ٢/٧٣، شرح الزرقاني على الموطأ ١/٧.

(٥) مقدمة ابن القصار ص ٢١٤.

وفي هذا الإطار فسح المذهب الدور لبقية المذاهب للإدلاء بآرائهم حول أصوله واجتهاداته، وذلك في حدود النقد البناء، فتعرض بجملة من الحوارات والانتقادات من جهة الحنفية والشافعية. فألف محمد بن الحسن الشيباني كتابه الشهير (الحجة على أهل المدينة) وكتاب (الرد على مالك فيما خالف فيه السنة) للشافعي وغيرها مما لا يمكن حصره في هذا المجال.

وإذا كان النقد سبيلاً لإنعاش الحوار وتطوره، فقد حازه نقاد المالكية في كثير من مصنفاتهم ولعلّ من أهم الأمثلة على ذلك ما صنعه الإمام سحنون[١] (ت ٢٤٠ هـ) مع (أسدية) أسد بن الفرات[٢] (ت ٢١٣ هـ) فلاحظ رحمه الله ضعف عزو رواياتها، واختلاط مسائلها، وعدم تذييلها بالآثار، وعدم مقابلتها بأصول ابن القاسم التي سمعها من مالك، فرحل بها إليه ليحقق نقولها وليتقن عزو مسائلها طرحاً للشك ودفعاً للاشتباه، من ثم يمكن عد عمل سحنون في تهذيب (الأسدية) وتبويبها وتصحيحها عملاً نقدياً[٣] حوارياً أجراه سحنون مع أسد، غمرته روح أخوية، كان الهدف منها تقوية المذهب وترقية اجتهاداته.

وبهذا يكون التعاون العلمي والحوار الجاد الذي دار بين الثلاثي المالكي، ابن القاسم، وأسد، وسحنون قد أسفر عن ولادة أكثر الكتب الفقهية اعتمادا عند المالكية منذ تأليفها إلى زماننا، وأصبح الثنائي ابن القاسم وسحنون حجري الزاوية في مدرسة مالك الكبرى قديماً وحديثاً، حتى إن القول بأنهما مهندسا المذهب، ومُرسخا أصوله بعد مؤسسه لا يعدو الحقيقة بحال[٤].

بالإضافة إلى اللقاءات والمناقشات التي أجراها مالك مع كبار الأئمة، الذين التقى بهم من مختلف المشارب والمذاهب.

---

(١) ترجمته في ترتيب المدارك ٤/١٢٨ ص ٦٠، السير للذهبي ٨/٥٣٥ .

(٢) ترجمته في المدارك ٢/٤٦٥، الديباج ١/٣٠٥ .

(٣) انظر: منهجية الخلاف والنقد الفقهي عند الإمام المازري رسالة دكتوراه، دار الحديث الحسنية ـ المغرب ص ١٨ .

(٤) انظر: اصطلاح المذهب عند المالكية، دور النشوء، تاليف الدكتور محمد ابراهيم علي ص ٥٢-٥٣ .

وكان على رأس هؤلاء الإمام القاضي أبو يوسف [١] (ت ١٨٢ هـ) "حيث رحل إلى مالك وأخذ عنه بعد أن ناظره في مسائل كان يقول فيها بمذهب العراقيين كزكاة الخضر ومسألة مقدار المد والصاع، فرجع لقول مالك، ثم رجع إلى العراق بأفكار أهل الحجاز فمزجها بمذهب العراقيين، ورجع عن كثير من المسائل إلى رأي مالك فهو أول من قرب بين المذهبين وأزال الوحشة ..." [٢]

وكذا الفقيه الحنفي محمد بن الحسن الشيباني [٣] (ت ١٨٩ هـ) "أخذه عن مالك كبح جماحه عن التغالي في الرأي فأدخل بسبب ذلك تعديلاً كبيراً على أهل الرأي" [٤]، وإذا كان الحوار يعتبر دعامة أساسية من دعامات الموضوعية، وإذا كان الإنصاف شكلاً من أشكال هذه الموضوعية، فإن مالكاً أدرك ذلك بفعله وثقته بنفسه وترجم لذلك بكلمة "لا أدري" في كثير من أجوبته.

وفي معرض هذا قال عبد الرحمن بن مهدي [٥] (ت ١٩٨ هـ) : كنا عند مالك فجاءه رجل فقال: جئتك من مسيرة ستة أشهر، حمّلني أهل بلادي مسألة.

قال : سل، فسأله عنها،فقال : لا أحسن.

قال : فأي شيء أقول لأهل بلادي؟.

قال : تقول : قال مالك لا أُحسن [٦] .

وهذا من ثوابت الموضوعية التي يقتضيها الحوار العلمي، وهو معرفة حدود الذات والوقوف دون نُكران موقفاً صحيحاً أمام أية مسألة أو رأي يعرض للمناقشة، إذ الجهل في هذا وخيم العواقب، حيث يؤدي في بعض الأحيان إلى الكبر والغرور والتهور وقد يؤدي في أحيان أخرى إلى نكران الذات وعدم الاستفادة من إمكاناتها المقدورة لها [٧].

---

(١) انظر: ترجمته في وفيات الأعيان ٦ /٣٧٨، تاج التراجم ص ٦٠، سير الذهبي ٨ /٥٣٥ .

(٢) انظر: الفكر السامي ١ / ٤٣٤ - ٤٣٥.

(٣) انظر: ترجمته في السير للذهبي ٩ /١٣٤، وفيات الأعيان ٤ /١٨٤ .

(٤) الفكر السامي ٤٣٥ .

(٥) انظر: ترجمته في طبقات بن سعد ٧/٢٩٧، سير الذهبي ٩ /١٩٢.

(٦) تاريخ الذهبي ١١ /٣٣٠، حلية الأولياء ٦ /٣٢٣، صفة الصفوة ٢ /١٧٩ .

(٧) فصول في التفكير الموضوعي ص ٥٠ .

فمالك رحمه الله أنصف نفسه مما لا يحسن، وترك الجواب بكل شجاعة وثقة لمن يتقنه، وإيماناً منه أن العلم تفرق بين أهله والتكامل والانفتاح هو الذي يجمعه. وفي هذا السياق ذاته، وفي إطار نقد الذات ووصفها بالقصور وعدم الكمال، وأنّه لا يمكن جمع الناس على رأي واحد أو كتاب فريد، وأنه ينبغي اعتبار كل الآراء في العمل الاجتهادي، قال للخليفة المهدي لما طلب منه هذا الأخير أن يضع كتاباً يحمل الأمة عليه: " يا أمير المؤمنين، أما هذا السقع- وأشار إلى المغرب - فقد كفيتُكَهُ، وأما الشام ففيهم الرجل الذي علِمته يعني الأوزاعي، وأما أهل العراق فهم أهل العراق" (١).

وهذا هو البعد عن الذاتية، والذي يعتبر دعامة في بناء الموضوعية في الحوار فاحترام الرأي الثاني، والتأكيد على محاورته واستملاء موقفه، وإشراكه في العملية الاجتهادية، وفي تشييد صرح المجتمع الواعي أمر تنبه إليه إمام دار الهجرة وخابر أهميته، فكان هذا الموقف الموضوعي منه، رغم الحوافز التي أحاطت بالطلب .

وقد تحادث الخليفة المنصور مع مالك في موضوع تدوين علم أهل المدينة، وإلزام أهل الأمصار به بغية منه في توحيد الرأي وجمع الاجتهاد في مذهب واحد، لكن مالكاً بثاقب عقله ورزانة علمه، وبنظرته الفقهية الاستراتيجية، رفض طلب الخليفة .

روى محمد بن سعد (٢) (ت ٢٣٠ هـ)، قال: سمعت مالك بن أنس يقول: لما حجّ أبو جعفر المنصور، دعاني فدخلت عليه، فحادثته، وسألني فأجبته، فقال: إنني عزمت أن آمر بكتبك هذه التي قد وضعت يعني "الموطأ" فتنسخ نسخاً ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوها إلى غيرها، ويدعوا ما سوى ذلك من هذا العلم المحدث، فإنني رأيت أصل العلم رواية أهل المدينة وعلمهم .

قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، سمعوا أحاديث، ورووْا روايات وأخذ كل قوم بما سيق إليهم، وعملوا به ودانوا به، من اختلاف

---

(١) الانتقاء لابن عبد البر ص ٨٠ .

(٢) ترجمته في الجرح والتعديل ٧/ ٢٦٢ سير الذهبي ١٠/ ٦٦٤ .

أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإن ردّهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم، فقال: لعمري لو طاوعتني على ذلك لأمرت به" (١) .

فانظر إلى قوله : " دع الناس وما هم عليه، وما اختار أهل كل بلد لأنفسهم. . . "فترك الاختيار في العمل بما يترجّح هو هدف الحوار، وكان مالكاً يدعو لاحترام رأي المحاور، والمخالف، وكذا الانفتاح على كل الاجتهادات، وأن ساحة العمل الفقهي تسع كل الأطراف، فلا مجال إذاً لوأدِ الإبداع والابتكار والحجر على العقول، بدعوى توحيد الرأي والقضاء على بذور الخلاف .

فكان هذا من مالك رحمه الله من أجمل مظاهر الإنصاف. . . وإنصاف المخالف بذكر ميوله واعتبارها وتقدير اختياره والانتصار له ليس بالأمر الهين أو اليسير على النفس البشرية، لكن العالم الأصبحي رضي الله عنه ـ الذي اكتسب تزكية تنويه في العلم والفقه، والذي قال في حقه النبي ﷺ " يخرج الناس من المشرق والمغرب، فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة" (٢) و في رواية: " يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم، فلا يوجد عالم أعلم من عالم المدينة" (٣) قال سفيان بن عيينة(٤) (ت ١٩٨ هـ) "إنه مالك بن أنس ـ أدرك أهمية المشاركة و المذاكرة في بناء المجتمع السّوي . وأن العمل الاجتهادي في حقل الفقه صرح لا يتأتى تشييده إلا بتوظيف كلّ الطاقات واستثمار كافة الجهود بغض النظر عن مصدرها أو قائلها، تلك هي مسؤولية أخلاقية تجلّت في المسيرة الفقهية عند مالك رحمه الله تعالى .

---

(١) انظر: الانتقاء ص ٨٠/ ٨١ .

(٢) اخرجه احمد ٢/ ٢٩٩ والترمذي رقم (٢٦٨٢)، والحاكم في المستدرك ١/ ٩١، والبيهقي ١/ ٣٦١، كلهم من حديث سفيان بن عيينة ورجاله ثقات، وقد حسّنه الترمذي، وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي.

(٣) انظر: تخريج الحديث في هامش رقم ٢ .

(٤) انظر: ترجمته في طبقات ابن سعد ٥/ ٤٩٧، سير الذهبي ٨/ ٤٥٤ .

فهو في هذا يكون رحمه الله قدّم نفسه وخصوصيته العلمية قرباناً في سبيل المنهج لحفظ حيوية الأمة، وهؤلاء لا يقِلّون بذلاً عن الذين يضحّون بأرواحهم لصيانة حياة الأمة(١).

ومن مفردات المنهج الحواري، الانتصاف من الذات و إيثار الحق على النفس فهو من الصفات المندوب إليها، حيث يعمل الفقيه المجتهد على نقد آرائه، والكشف عن خطأ حكمه في سبيل نصاعة الحقيقة، وحفظ مراشد الحق من الانطماس، فالعلم ينمو والفقه يزدهر لما تتاح له فرصة الاستمرار والحياة، والتراجع عن قول قاله عالم أو فقيه إلى الصواب مهما كان قائله يقتضيه نمو العالم وتحضره في فهم أساليب الحوار والوعي بقيمه.

ومن ذلك ما ذكرته مصادر الفقه والتاريخ عن تراجع مالك عن بعض آرائه لـمّا تبين له خطأ اختياره، ولم يمنعه ذلك من الانتصاف لنفسه، وإنصاف غيره في حوار صامت اقتنع مالك على إثره بما ورد على لسان محاوره .

فقد روى ابن وهب(٢) (ت ١٩٧ هـ) رحمه الله قال: سمعت مالكاً يسأل عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء،فقال: ليس ذلك على الناس، قال: فتركته حتى خفّ الناس، فقلت له: عندنا في ذلك سنّة فقال: وما هي؟ فقلت: حدثنا اللّيث بن سعد وابن لهيعة، وعمرو بن الحارث عن يزيد بن عمرو المعافري عن أبي عبد الرحمن الحُبلي عن المستورد بن شداد القرشي قال: " رأيت رسول الله ﷺ يدلك بخنصره ما بين أصابع رجليه"(٣) فقال: إن هذا الحديث حسن، وما سمعت به قط إلاّ الساعة، ثم سمعته بعد ذلك يُسأل فيأمر بتخليل الأصابع ." (٤) .

---

(١) الانتقاء ص ٥٢، فصول في التفكير الموضوعي ص ١٣١ .

(٢) انظر: ترجمته في طبقات ابن سعد ٧/٥١٨، ترتيب المدارك ٢/٤٢١ .

(٣) أخرجه أبو داود في باب غسل الرجلين من كتاب الطهارة ١/٣٢ ، وابن ماجه، باب تخليل الأصابع من كتاب الطهارة ١/١٥٢، والترمذي في باب تخليل الأصابع من أبواب الطهارة رقم ٤٠، ١/٥٧ .

(٤) انظر: الجرح والتعديل ١/٣١-٢ ، إرشاد السالك إلى مناقب مالك لابن عبد الهادي، مخطوط لوحة ١٠٤/أ .

وقد شارك مالك رحمه الله كذلك سياسياً، واجتماعياً بتوجيهاته ونصائحه، والتي لا تكاد تنقطع على شكل مراسلات وحوارات مباشرة، وغير مباشرة وجهها إلى الخلفاء والأمراء، واستطاع أن يمكن لنفسه بينهم بانفتاحه على أسئلتهم ومجالسته إياهم، والعمل على الاستجابة لرغباتهم فيما لا يتنافى وأوامر الشارع ونواهيه. ودعماً لهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتطييباً لقلوبهم، وحثهم على مراعاة مصالح الرعية، قَبِل عطاياهم بغية المحافظة على علاقة الودّ واستقرار المجتمع وكان لا يمنعه ذلك من إبداء الرأي الصائب في مكانه وزمانه، وقد اعتاد الدخول على الخلفاء باستمرار، ولمّا قيل له: " إنك تدخل على السلطان وهم يظلمون ويجورون، فقال: يرحمك الله فأين المتكلم بالحق"(١) ولا مجال لإنقاذ الحق والقول به إلا بالحوار والمذاكرة الدائمة، ولا حرج عندئذ في الدخول عليهم، والالتفاف بهم لأجل مناصحتهم وإقناعهم بفعل الخير، وصدّ بطانة السوء عن استلاب ذلك منهم .

وفي (ترتيب المدارك)، وصف مالك رحمه الله المشاركة في الحوار السياسي بأنه الفضل الذي ليس بعده فضل، قال :" حقّ على كل مسلم أو رجل جعل الله في صدره شيئاً من العلم و الفقه أن يدخل على ذي السلطان يأمره بالخير وينهاه عن الشر.... فإذا كان فهو الفضل الذي ليس بعده فضل"(٢) .

وقد أفرز هذا الودّ الذي انتهجه مالك في مسيرته السياسية، والفقهية مكانة تبوأها، ووجاهة مكنته من إيصال كثير من الخير للناس، كما أسس بذلك لثقافة الحوار بين الحاكم والمجتمع، وأكّد على ضرورة التعاون والتكامل في ذلك .

وإذا كان الانغلاق يعني " اللاموضوعية" في لغة علماء المناهج فإن الحوار يعني الانفتاح الواعي بكل معانيه، وقد مارسه الإمام، ووضع له عنواناً في بداية مشواره الاجتهادي، ونزع صفة التقديس على أفراد المجتهدين واختياراتهم إلا ما أعطاه الله عز

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٠ .

(٢) ترتيب المدارك ١/ ٢٠٧-٢٠٨ .

وجلّ لأسبابه وقال في ذلك قولته المشهورة: " كلّ يؤخذ من قوله و يرد إلا صاحب هذا القبر"(١) .

وهذا ما يمكن نعته اليوم بـ" المنهج فوق الأشخاص"(٢) .

وقد امتد هذا العطاء، في بناء هذه الظاهرة الحضارية والتي وضع لبنتها الأولى مالك ابن أنس رحمه الله تعالى عند نخبة ممن أنجبتهم مدرسته في أنحاء مختلفة من عالمنا الإسلامي .

وإذا كانت المذاهب الفقهية الأخرى قد أصابها من حظ الانفتاح والحوار الفقهي ما أصاب المذهب المالكي، فإن ذلك يرجع بالأساس لكون أصول هذه المذاهب هو (الموطأ) بمادته ومنهجه واجتهاداته. " فأصل مذهب الشافعي و مادة اجتهاده "الموطأ"، إنما تعقبه في بعض المواضع، وخالفه في ترجيح الروايات، ورأس المال لفقه الإمام محمد في (المبسوط) وغيره هو الموطأ(٣) .

فهو عمدة مذهب الشافعي وأحمد ورأسه، ومصباح مذهب أبي حنيفة، ونبراسه، وهذه المذاهب بالنسبة للموطأ كالشروح للمتون، وهو منها بمنزلة الدوحة من الغصون، وإن الناس وإن كانوا من فتاوى مالك في رد وتسليم، وتنكيت وتقويم، فما صفا لهم المشرب، ولا تأتّى لهم المذهب إلا بما سعى في ترتيبه، واجتهد في تهذيبه..."(٤) .

وإذا كانت جُلّ المدارس المالكية قد تشبّعت بثقافة حوارية، وانفتاح فقهي واجتهادي على نمط ما لمسناه عند مؤسسها الأول، فإن مدرسة العراق نالت قصب السبق في هذا المجال، وأبانت عن منهج متكامل يشكل امتداداً طبيعياً لسياسة المذهب التي اعتمدها مالك في أصوله وفروعه .

---

(١) سير الذهبي ٨/٩٣ .

(٢) فصول في التفكير الموضوعي ١٧٣ .

(٣) تسهيل دراية الموطأ للدهلوي ص ٢٣ .

(٤) المسوّى شرح الموطأ ١/٦٣ . وانظر كذلك اصطلاح المذهب عند المالكية، دور النشوء ص ١٠٠ .

مبادئ الحوار المذهبي في منهج فقهاء مدرسة مالكية العراق .

لقد كان الحوار أشد ظهوراً، والتزاماً، وتطبيقاً عند فقهاء مالكية العراق حيث جعلوا من الانفتاح، ومن مبادئ المشاركة والمناظرة مع غيرهم من إخوانهم فقهاء المذاهب منهجاً وسبيلاً، ترجمه بكل جدارة عميد تلاميذ مالك في العراق بعد ذلك الشافعي(١) (ت٢٠٤هـ) رحمه الله، الذي أسس لهذا المنهج بقوله :" مذهبي صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيري خطأ يحتمل الصواب"(٢) وهي لا شك ثمرة خطفها من ثقافة شيخه ورسمها بعد ذلك في فكره الأصولي والفقهي، فعدّت بعد ذلك (رسالته الأصولية) أول إنتاج في مجال الدراسات الأصولية المقارنة التي اعتمدت الحوار والموازنة والمقارنة سبيلاً لتشييد ثقافة البناء الاجتهادي، فكان حظها بعد ذلك أن نالت القبول عند الموافق والمخالف، فعكف عليها العلماء شرحاً وتعليقاً واختصاراً.

ولما كان الحوار لا يقوم إلا على إدراك المحاور، أن ليس كل ما يراه قطعياً نهائياً وأنه من خلال الحوار والانفتاح يستطيع الفقيه المجتهد أن يضيف شيئاً إلى ما عنده في صورة إثراء، أو في صورة تغيير وتبديل(٣). عمد الشافعي رحمه الله تعالى - رداً على طلب أحد أبرز تلاميذ مالك بالبصرة وهو عبد الرحمن بن مهدي - إلى مكاتبته وإجابته على بعض استفساراته فكانت (الرسالة) المذكورة(٤) .

وحيث إن البناء الفقهي يعتمد على بلورة الآراء وتجميعها، والقدرة على توسيع دائرة إقناع المحاور والمشارك في الرأي، وحشد المزيد من الثقة، فضل الشافعي تحقيقاً لذلك التخلي عن بعض حقوقه في الابتكار الاجتهادي، وتبني منهج تعميم الاجتهاد الفقهي على الناس، قال فيما اشتهر عنه وهو على فراش المرض :" وددت أن الخلق يعلمون ما في هذه الكتب، على أن لا ينسبوا إلي منها شيئاً"(٥) .

---

(١) انظر: ترجمته في تاريخ بغداد ٢/٥٦، سير الذهبي ١٠/٥ .
(٢) وكذا قوله :" إذا صحّ الحديث فهو مذهبي"، اشتهر هذا كله عن الشافعي وتناقله العلماء عنه .
(٣) فصول في التفكير الموضوعي ص ٢١٥ .
(٤) الانتقاء ص ١٢٢-١٢٣ .
(٥) الانتقاء ١٣٨ .

وهي دعوة صريحة لاعتماد ثقافة التنوع والانفتاح، واكتساب المعرفة وترقية الاجتهاد بها مهما كان مصدرها، وما دامت موافقة لأصولنا وقيمنا، ونبذ التقليد والتعصب والانسياق وراء الانغلاق العلمي الذي يؤدي لامحالة إلى تشكيل عقلية" الرؤية النصفية للأشياء" ، فقد يضرب هذا النوع من الفقهاء بستار حديدي يحول دون تمازج ثقافي وعلمي بين المذاهب، وحين ينعدم التوافق في الرؤى بين طرائق الاجتهاد فإن التلاعب بالناس يصبح سهلاً (١) .

وقد استطاع المذهب المالكي بالعراق أن يكوّن لنفسه خصوصية علمية اكتسبها عن طريق المشاركة الطويلة والمستمرة في مجال الإبداع الفقهي، والنهوض الاجتهادي، فكان التبادل الفكري والثقافي النشط الذي مارسه فقهاء العراق عاملاً مهماً في إشاعة روح الحوار والتعاون في بناء المؤسسة الفقهية المتطورة، سواء كان ذلك على المستوى الداخلي للمذهب أو بالتعاون والتكامل مع سائر المذاهب الأخرى.

أساليب الانفتاح والحوار عند فقهاء المالكية بالعراق :

أولاً : على المستوى الداخلي للمذهب :

لعّل مما لا يمكن الاختلاف حوله بين أرباب الفكر والثقافة، أن من أرقى أنواع الحوار، هو الحوار مع الذات، لأن البنية الثقافية التي تقوم عليها الذات مهما كان نوعها، تحتاج إلى نوع من الثبوت، حتى تتمكن من البقاء فتكون عاملاً مهماً في تقوية النسيج الاجتماعي، وكذلك الفقه في حياة الأمم فإنه بحاجة إلى ثبات في أصوله وكلياته، ولا يمنع بعد ذلك أن يخضع في جزئياته إلى التجدد والتطور، والانفتاح، فينغلق حيث يجب الانغلاق وينفتح حيث يفترض الانفتاح، أي أن يحدث نوع من التوازن الذاتي حتى يتمكن العمل الفقهي من القيام بوظيفته الاجتماعية والحضارية الموكلة إليه، والمحافظة على زخمها وديمومتها

---

(١) فصول في التفكير الموضوعي ١٢٦-١٢٧ .

يقتضي دعمها، وذلك من خلال توفر أطر للمنافسة والحوار والنقد المضاد إلى جانب التجديد والمحاكاة الثقافية مع المذاهب الأخرى، وهنا تتجلى عظمة وفعالية الاجتهاد والتفوق العلمي وقدرة المذهب على العطاء والتأثير واستيعاب النافع مما أنجزته المذاهب الأخرى فهو كالجسم تقاس حيويته وقدرته بالجهد المبذول وامتصاص الغذاء، والتفاعل مع الدواء [١] .

هذه الوظيفة الحضارية والإنسانية السامية للفقه الإسلامي، أخذت حيزاً كبيراً، ومساحة واسعة في الفكر الفقهي والأصولي عند فقهاء المالكية بالعراق وانطبعت في سلوكاتهم واستصحبت في كتاباتهم وحواراتهم ومناظراتهم. ففي إطار المذهب كانت الرحلة عاملاً مهماً في توسيع دائرة التواصل والتحاور بين مختلف مدارس المذهب .

فقد قام أغلب مشاهير فقهاء المغاربة والأندلس في القرن الرابع برحلات إلى العراق فعلّموا وتعلّموا، وأفادوا واستفادوا، كالفقيه أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأصيلي[٢] (ت٣٩٢هـ) الأندلسي الذي زار العراق وسمع أبا بكر الأبهري، وأبا عمران الفاسي [٣] (ت٤٣٠هـ)، الذي سمع بالعراق أبا الفتح بن أبي الفوارس[٤] (ت ٤١٢هـ)، وأبا أحمد الفرضي وأبا الحسن بن الفضل العطار، ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني، ومن الذين نزحوا إلى المغرب من أهل العراق أو أوشكوا على ذلك أبوعبد الله الحسين بن حاتم الرازي تلميذ القاضي الباقلاني، والقاضي عبد الوهاب الذي كان عازما على الالتحاق بالأندلس [٥].

وفي مجال الأصول فإن الفضل فيه يعود إلى فقهاء المدرسة البغدادية التي اتصل بها كبار فقهاء المالكية من المدارس الأخرى وأخذوا عنهم واستفادوا من طرائقهم في التأليف والنظر وكان على رأس هؤلاء عبد الله بن العاص السعدي القرطبي[٦] (ت ٣٣٠ هـ) الذي

(١) انظر مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي ص ٦١ -٦٢ .

(٢) ترجمته في تاريخ علماء الأندلس ١ /٢٤٩، ترتيب المدارك ٤ /٦٤٢ .

(٣) انظر: ترجمته في جذوة المقتبس ٣٨٨، ترتيب المدارك ٤ /٧٠٢ .

(٤) ترجمته في تاريخ بغداد ١ /٣٥٢، السير للذهبي ١٧ /٢٢٣ .

(٥) انظر: ترتيب المدارك ١ /١٥، مقدمة محقق التفريع ١ /٩٨-٩٩ .

(٦) ترجمته في : ترتيب المدارك ٦ /١٤٥، شجرة النور ٨٧-٨٨ .

وصف بكونه نظّاراً وله كتاب (الدلائل والأعلام على أصول الأحكام) حيث دخل بغداد، وسمع من ابن الجهم وأبي الفرج وأبي يعقوب الرازي (١) .

ولعّل الذي يؤكد تفوق المالكية ببغداد في هذا المجال، وأنهم نجحوا في اعتماد الحوار والمشاركة في العمل الأصولي، ما جاء أن أبا عمران الفاسي القيرواني قد أشاد بطريقتهم ومسلكهم في النظر والجدل عندما زار العراق. قال : " رحلت إلى بغداد، وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس عند أبي الحسن القابسي(٢) (ت ٤٠٣ هـ)، وأبي محمد الأصيلي،وكانا عالمين بالأصول، فلمّا حضرت مجلس القاضي أبي بكر الباقلاني، ورأيت كلامه في الأصول والفقه، مع المؤالف والمخالف حقرت نفسي وقلت: لا أعلم من العلم شيئاً، ورجعت عنده كالمبتدئ"(٣) إشارة منه إلى ما تمتلكه هذه المدرسة من قدرات علمية في مجال المناظرة والمحاورة، مع المؤالف والمخالف .

ومن أبرز من قام بمدّ جسور التلاقح والتبادل بين هذه المدارس وطريقة البغداديين بصورة واضحة وعميقة، العلامة الأصولي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (٤) (ت٤٧٤هـ) والذي استفاد كثيراً من المنهج البغدادي في الاستدلال الأصولي وانطبع بمسلك فقهاء مالكية العراق في المجال الجدلي الذي يقوم على المحاورة والنظر، فكان رائداً وممثلاً حقيقياً لنهج هذه المدرسة في الأندلس .

ومناظراته الشهيرة مع ابن حزم وغيره شاهدة على ذلك، وكان أبو بكر بن العربي يعرف ما لأبي الوليد الباجي من السبق عليه في هذا المجال فكان يقول: " لم يات قبلي إلى الأندلس بمثل ما أتيتُ به من علم المشرق إلاّ أبو الوليد الباجي" (٥).

---

(١) انظر: مقدمة محقق الإشراف ١/٥٧-٥٨ .
(٢) ترتيب المدارك ٤/٦١٦، وفيات الأعيان ٣/٣٢٠ .
(٣) المدارك ٢/٥٨٦-٥٨٧ .
(٤) ترجمته في ترتيب المدارك ٨/١١٧، شجرة النور ١٢٠ .
(٥) انظر: أعلام الفكر الإسلامي ص ٥٢، مقدمة محقق الإشراف ١/٧٥ .

وبقيت هذه الجسور متواصلة جيلاً بعد جيل تعلّماً وتعليماً، وانفتاحاً ومشاركة وذلك عن طريق القراءة والاطلاع على المؤلفات، واكتساب الإجازات التي تتصل أسانيدها بمؤلفيها (١) .

بل ذهب بعضهم إلى اختيار آرائهم وترجيح توجهاتهم وأساليبهم، كما هو معروف عند ابن عبد البر وابن العربي، والمازري، وابن رشد الحفيد وغيرهم ممن اعتنوا بالخلاف العالي (٢).

ومن هنا كان ابن أبي زيد القيرواني يوصي طلبته بالاعتماد على مصنفاتهم للوقوف على أساليب الحوار وطرق النقد قال: "وإن كان لك رغبة في الرد على المخالفين من أهل العراق والشافعي، فكتاب (ابن الجهم) إن وجدته، وإلا اكتفيت بكتاب الأبهري إن كسبته وكتاب (الأحكام) لإسماعيل القاضي، وإلا اكتفيت باختصارها للقاضي ابن العلاء(٣) (ت٣٤٤ هـ)، والكتاب (الحاوي) لأبي الفرج إن كسبته ففيه فوائد؛ وإن استغنيت عنه لقلة لهجك بالحجة، فأنت عنه غني بمختصر ابن عبد الحكم أو كتاب الأبهري... وإن دخلت العراق فاكتب في مسائل الخلاف ما تجد لأهل الوقت من الحجة والاستدلالات"(٤).

وفي إشارة إلى أهمية معاني الحوار والنقد وحسن النظر عند فقهاء مالكية العراق قال الفقيه الناقد أبو عبد الله المازري مشيداً بها: " ومن عجيب ما ينبغي أن يُتفطن له، أن هؤلاء المتأخرين من المغاربة تحوم خواطرهم على هذه المعاني التي أبرزها حذاق أهل العراق إلى الوجود"(٥)، فهذا تلميح لأسبقية مالكية العراق في فن النظر والنقد، وهما دعامتان أساسيتان للحوار الناجح والمثمر.

---

(١) انظر: لمعرفة تفاصيل هذه الإجازات فهرس ابن عطية ص ١١٠، الغنية ص ١٩٩، عنوان الدراية ص٣١٦، برنامج المجاري ص ١٠٣، وكذا مقدمة محقق الإشراف ١/٧٦-٧٧

(٢) المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته ص ٧٧ .

(٣) ترجمته في الوافي بالوفيات ١٠/٢١٧، سير الذهبي ١٥/٥٣٧ .

(٤) انظر: الذب عن مذهب مالك لابن أبي زيد، مخطوط، شيستر بيتي رقم ١٠٠، ص ١٣، و انظر: منهجية الخلاف والنقد الفقهي عند المازري ص١٣ .

(٥) انظر: شرح التلقين ٤٦٥ .

ومن ناحية أخرى، لقد كان للمدرسة المصرية تأثير واضح لا يدحض في المدرسة البغدادية، وذلك من خلال مؤلفات ابن عبد الحكم خاصة، فقد روى الأبهري سماع ابن عبدالحكم[١] وقال: "قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمس مئة مرة، و(الأسدية) خمساً وسبعين مرة"[٢] كما كان للمدونة دور في صقل الفقه العراقي، وكانت من ضمن مراجعهم، فقد قرأها الأبهري (خمساً وأربعين مرة)[٣] "بل إن سماعات ابن القاسم وآراءه لم تلبث أن أضحت هي الراجحة، حيث إن القاضي عبد الوهاب رجح مسائل المدونة؛ لرواية سحنون لها عن ابن القاسم، وانفراد ابن القاسم بمالك....." [٤] هذا الترجيح يؤكد مرة أخرى على أن الحوار بين المدارس الفقهية المالكية أنتج كتلة فقهية متماسكة في أصولها وفروعها.

وبجانب الرحلة أخذت المراسلات والمكاتبات العلمية والأخوية مكانة مرموقة في دعم أواصر الحوار والتبادل في تعاطي الآراء الفقهية ومناقشتها، قال عياض: " وكانت المراسلات بين علماء طرفي العالم الإسلامي، بغداد والقيروان توضح أن كلا البلدين كان على علم بما يجّد عند الآخر في ميدان الفكر ..." [٥] ونموذج ذلك، المراسلة التي تمت بين ابن أبي زيد القيرواني [٦] (ت ٣٨٦ هـ) وأبي بكر الأبهري ببغداد بخصوص رسالته الفقهية، فأجابه الأبهري بكتاب ألفه رداً على رسالته سمّاه (مسلك الجلالة في مسند الرسالة) كما تناولها القاضي عبد الوهاب بشرح نفيس سمّاه (شرح الرسالة) [٧] كما ضمن ابن أبي زيد القيرواني كتابه الحافل (النوادر والزيادات) من المسائل الفقهية والمنقولة عن طريق المكاتبة والمساءلة فكان رحمه الله تعالى كلما نزلت به نازلة كتب بها إلى علماء العراق وغيرهم يستفسرهم عن حقيقتها وحكمها .

(١) انظر : ومضات فكر ٢/٦٦-٦٧ .

(٢) ترتيب المدارك ٦/١٨٦ .

(٣) ترتيب المدارك ٦/١٨٦ .

(٤) ترتيب المدارك ٣/٢٤٦، اصطلاح المذهب، دور التطور ص ١٠ .

(٥) المدارك ١/١٥ .

(٦) ترجمته في المدارك ٤/٤٩٢، الديباج المذهب ١/٤٢٧ .

(٧) انظر : مقدمة محقق التفريع ١/١٠٠ .

ومن خلال هذا العرض الموجز لبعض أساليب الحوار الذي اتسّمت به المدرسة المالكية العراقية على مستوى ترشيد المذهب والقفز به نحو التفتح الذاتي تبيّن لنا مدى المكانة العلمية التي يتمتع بها المذهب في بلاد الرافدين، وأن فقهاءه قد نالوا من حظ خدمة هذا المذهب ما لم تتوفر لغيرهم، وقد شهد بعضهم لذلك حتى قال: " لولا الشيخان، والمحمدان، والقاضيان لذهب المذهب، فالشيخان: أبو محمد بن أبي زيد، وأبو بكر الأبهري، والمحمدان: محمد بن سحنون، ومحمد ابن المواز، والقاضيان: أبو محمد عبد الوهاب بن نصر، و أبو الحسن بن القصار"(١). فقد جعل القائل دورهم في خدمة المذهب مع دور بقية المدارس مناصفة (٢).

ثانياً ـ على المستوى الخارجي مع بقية المذاهب :

لقد بدأ الاتصال مبكراً بين المذهب المالكي في العراق وسائر المذاهب الأخرى خاصة المذهبين الحنفي والشافعي، ويمكن اعتبار المحاورة الهادئة التي جمعت الشافعي وهو أحد أبرز تلاميذ مالك بالفقيه الحنفي محمد بن الحسن الشيباني، والتي دارت رحاها ببغداد أول احتكاك على هذا المستوى الراقي بين المذهبين .

قال الشافعي: قال لي محمد بن الحسن: صاحبنا أعلم من صاحبكم، يعني أبا حنيفة ومالكاً، وما كان على صاحبكم أن يتكلم، وما كان لصاحبنا أن يسكت. قال فغضبت وقلت: نشدتك الله من كان أعلم بسنة رسول الله ﷺ مالك أو أبو حنيفة؟ قال: مالك، لكن صاحبنا اقيس، فقلت: نعم، ومالك أعلم بكتاب الله تعالى وناسخه ومنسوخه وسنة رسول الله ﷺ من أبي حنيفة، فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ كان أولى بالكلام .

وفي رواية قال الشافعي: ذاكرت محمد بن الحسن يوماً، فدار بيني و بينه كلام واختلاف حتى جعلت أنظر إلى أوداجه تدرّ وتنقطع أزراره، فكان فيما قلت له يومئذ:

---

(١) انظر: معالم الإيمان ٣/١٣٧.

(٢) انظر: مقدمة محقق الإشراف ١/٦٥.

نشدتك بالله، هل تعلم أن صاحبنا ـ يعني مالكاً ـ كان عالماً بكتاب الله؟ قال: اللهم نعم، قلتُ: وعالما باختلاف أصحاب رسول الله ﷺ قال: اللهم نعم"(١).

هذا النفس الحواري في استعراض محاسن المذهب ممثلاً في رئيسه، بدأ في تمدّد مستمر وتطور ملحوظ، حتى أضحى المخالف يشيد بمناقبه، ويستمع إلى مقرراته واجتهاداته بل يقدمها أحياناً على اختيارات أشياخه،وهو ما لفت إليه الرجل الثاني في المذهب الحنفي أنظار أتباعه." كان إذا حدثهم عن مالك امتلأ منزله و كثُر الناس عليه حتى يضيق بهم الموضع، وإذا حدثهم عن غير مالك من شيوخ الكوفيين لم يجئه إلا اليسير.

وكان يقول: ما أعلم أحداً أسوأ ثناء على صاحبكم منكم، إذا حدثتكم عن مالك ملأتم علي الموضع، وإذا حدثتكم عن أصحابكم - يعني الكوفيين - إنما تأتون مكرهين"(٢).

ولا يمكن تفسير ذلك من منظور علمي وموضوعي إلا بأن المذهب المالكي في الديار العراقية، قد نال قبولاً و انتشاراً بسبب رحابة فقهه واتزان أصوله لذلك لا نجد غرابة في أن يتبوأ أصحاب مالك في العراق مكانة تأهلوا من خلالها لقيادة الحياة الدستورية والقضائية وكذا العلمية فترة ليست بالقصيرة، برهنوا من خلالها على مرونة المذهب وقدرته الفائقة على استيعاب الرأي والرأي المخالف في مجال بناء الاجتهاد الفقهي وتطوره، ولما كان الخلاف باق لا ينقطع كما قال ذلك ابن القصار والأبهري، والباقلاني، وابن خويز وأبو تمام البصري وجمهور فقهاء مالكية بغداد، اتخذ هؤلاء مسلك الحوار والتذاكر والانفتاح على غيرهم لأجل تقويض أركان مساحة الاختلاف المؤدي إلى التأثيم والتضليل(٣).

وقال القاضي عبد الوهاب في هذا النسق في كتابه النفيس (الملخص أو التلخيص)

(١) الانتقاء لابن عبد البر ٥٦-٥٧.

(٢) الانتقاء ص ٥٧-٥٨.

(٣) المقدمة الأصولية لابن القصار ص ١٥٩، إحكام الفصول ٤٩٢.

"وإن كان الخلاف في مسائل الاجتهاد و الفروع... لا يجوز أن يجزموا معه بتحريم الذهاب إلى الآخر..." أي عدم الممانعة في التزام الرأي الآخر (١).

ويمكن لنا بعد هذا كلّه حصر مواقع الحوار ومسالكه عند أئمة مالكية العراق في المجالات التالية :

أولاً: في القضاء: تعتبر مؤسسة القضاء من أهم المؤسسات الدستورية التي يعتمد عليها نظام الحكم في بسط العدالة والحفاظ على الحريات وتقرير الحقوق والواجبات، فهي ملجأ المظلومين، ومحطّ أنظار عامة الناس وخاصتهم فبصلاحها تصلح الأمم وتتحقق المصالح وبفسادها تختل أنظمة الحياة كلّها فهي ميدان رحب فسيح لإشاعة روح التعاون والتكامل والتناصح، كما أنها تعدّ مدرسة لاحتكاك الأفكار ومذاكرة الآراء ومراجعتها، لذا يفترض فيمن يتولى مهمّة القضاء الإلمام بأصول الاجتهاد وآراء المذاهب، والقضاء بما يراه مناسبا ومحققا للمصالح التي قصد الشارع تحقيقها، بغض النظر عن انتمائه المذهبي واختياره الفقهي، فأتاحت هذه المؤسسة مجالاً واسعاً لنشاط فقهاء المالكية بالعراق، ودخلوا من أبوابها الفسيحة لعالم الحوار والمشاركة في بناء المجتمع فتصدر لهذه الوظيفة أعلام كان على رأسهم سليمان بن بلال(٢) (ت ١٧٦ هـ) تلميذ مالك الأول بعد تصدره للإفتاء، حيث ولاّه الرشيد قضاء بغداد، ثم تبعه في ذلك المؤرخ المشهور محمد بن عمر الواقدي(٣) (ت٢٠٧هـ) كان مستشاراً وقاضياً للرشيد والمأمون، و قتيبة بن سعيد الخراساني(٤) (ت٢٤٠هـ) الذي وُلّي قضاء بغداد، وهكذا توالت نخبة لا يمكن حصرها من أفذاذ مالكية العراق على مؤسسة القضاء والتدوين، إلى أن توج ذلك بمجيء أسرة بني حمّاد(٥) والذين

---

(١) البحر المحيط ٤/٥٣٥

(٢) انظر: ترجمته في ترتيب المدارك ٣/٣٠-٣٢، شجرة النور ص ٥٧ .

(٣) ترجمته في ترتيب المدارك ٣/٢١٠ .

(٤) ترجمته في ترتيب المدارك ٣/٣٦٠ .

(٥) تنسب هذه الأسرة لحمّاد بن زيد، وانظر ترجمته في ترتيب المدارك ٤/١٥ .

وصفهم القاضي عياض بأنهم أئمة المذهب وأعلامه بالعراق، ومنهم اقتبس، تقلدوا ببغداد المظالم والقضاء والفتيا والتدريس[١] .

وكان القاضي إسماعيل بن إسحاق[٢] (ت ٢٨٢ هـ) أبرزهم على الإطلاق أدرك أهمية القضاء في الحياة الفكرية والاجتماعية ودوره الناجح في بعث سهام التحاور والتشاور بين النخب المثقفة وشرائح المجتمع المختلفة، فكان أن تقرب من الخليفة المأمون بداية فولاه المظالم بمصر، وكانت تلك العلاقة والانفتاح على الخليفة وطبقة الحكام سببا في انتشار المذهب المالكي ببغداد، حيث تولّى القضاء مدة اثنتين وثلاثين سنة، وقيل: نيفا و خمسين سنة ما عزل عنه إلا سنتين"[٣] وابن عمّه أبي عمر محمد بن يوسف[٤] (ت ٣٢٠ هـ) الذي تصدره بعد وفاة القاضي إسماعيل إلى سنة (٣٢٠ هـ) ما عزل عنه إلا أيام فتنة ابن المعتز[٥] .

ولا شك أن تبني الدولة للمذهب وتوليتها أئمته القضاء، وبالتالي تنزيله في واقع الناس ينعشه ويقويه ويزيد من مساحة أتباعه وقرائه والتأليف فيه وتأصيله وتفريعه، إذ هو مرجع الناس في تعاملهم وخصوماتهم[٦] .

وقد تقاسم بعد ذلك فقهاء المالكية القيادة القضائية والسياسية والتعليمية، وكذا الفكرية طوال القرنين الثالث والرابع الهجريين، وحملوا راية المذهب عن طريق الحوار العلمي والتبادل الثقافي والاجتهاد التعددي فوجدوا لذلك آذانا صاغية من كل المذاهب الأخرى كالمذهب الحنفي والشافعي، وتقاسموا معهم الوظائف، ودلُّوا عليهم في أحيان أخرى .

---

(١) انظر : ترتيب المدارك ٤/٢٧٦.

(٢) ترجمته في تاريخ بغداد ٦/٢٨٤، الديباج ١/٢٨٢ .

(٣) الديباج ١/٢٨٧ .

(٤) ترجمته في تاريخ بغداد ٣/٤٠١-٤٠٢، سير الذهبي ١٤/٥٥٥ .

(٥) المدارك ٥/١٠-١٢، وابن المعتز هو عبد الله بن المعتز أحد خلفاء بني العباس تولى الخلافة يوماً وليلة فقتل سنة ٢٩٦ هـ، تاريخ بغداد ١٠/٩٥

(٦) المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته ص ٤٨ .

ومن نوادر الأدب العالي في مجال الانفتاح على الرأي المخالف ما حدّث به الحافظ أبو الحسن الدارقطني[١] (ت ٣٨٥ هـ) من أن إسماعيل القاضي دخل عنده عبدون بن صاعد الوزير وهو يمارس مهنة القضاء، وكان نصرانيا فقام له ورحّب به، فرأى إنكار الشهود لذلك فلما خرج قال: قد علمتُ إنكاركم، وقد قال الله تعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ .... الآية** ﴾[٢]، وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين، وهو سفير بيننا وبين المعتضد، وهذا من البر، فسكتت الجماعة عند ذلك"[٣]

ودعما للتكامل المذهبي بين الأئمة نصب القاضي إسماعيل الفقيه الشافعي أبا العباس أحمد بن سريج[٤] (ت ٣٠٣ هـ) كاتبا يكتب قضاءه، وهو الذي ألف كتاب (التوسط بين محمد بن الحسن وإسماعيل القاضي)[٥].

ومما يحفظ لأئمة المالكية ببغداد في مجال الاعتداد بالرأي المخالف– و اعتبار التكامل في المسؤولية، والإشارة بها لمن هو أهل لها حتى ولو كان على خلاف المذهب – ما ذكره صاحب المدارك: " سئل الأبهري أن يلي القضاء فامتنع، فاستُشير فأشار بأبي بكر الرازي[٦]....... وكان حنفي المذهب ......"[٧].

وبقيت مؤسسة القضاء بأيدي كبار فقهاء مالكية بغداد، حيث وجدوا من خلالها ضالتهم في نشر مبادئ الحوار والتبادل العلمي، والتكامل الثقافي، رغبة منهم في بناء مجتمع موحد ومنسجم في تفكيره واجتهاده، فكان لهم ذلك بما أنتجوه في عالم المعرفة من علوم وفنون لازالت شاهدة على مكانتهم وتفوقهم في مجال البحث والمناظرة.

---

(١) ترجمته في تاريخ بغداد ١٢/٣٤، سير الذهبي ١٦/٤٤٩ .

(٢) سورة الممتحنة الآية: ٨ .

(٣) المدارك ٢/٧٤ .

(٤) ترجمته في طبقات ابن السبكي ٣/٢١، سير الذهبي ١٤/٢٠١ .

(٥) المدارك ٢/١٧٨ .

(٦) هو أحمد بن علي المعروف بالجصاص، انتهت إليه رئاسة المذهب الحنفي، له أحكام القرآن وغيره، (ت٣٧٠ هـ)، انظر الجواهر للقرشي ١/٨٤، البداية والنهاية ١١/٢٥٦ .

(٧) المدارك ٦/١٨٨ .

ثانياً : في المجال الفقهي :

لقد تأثر فقهاء مالكية العراق بما وصل إليهم من إمدادات فقهية من مدرسة المدينة، عن طريق كبار الفقهاء الذين مكنتهم رحلاتهم العلمية من الاتصال بأصحاب مالك وأخذوا عنهم أقواله ورواياته، ورجع هؤلاء إلى العراق يحملون ثروة فقهية امتزجت بمبادئ الحوار، وتطورت هذه المبادئ وتشكّلت في أذهان نخبة من الفقهاء أسسوا لفن المشاركة الفقهية بكل معانيها. " فقالوا كلمتهم ورفعوا أصواتهم، وبينوا آراءهم، ودافعوا عن مذهب إمامهم، وتناولوه درسا ومدارسة وتدريسا... "[١] وتعلموا من المذاهب الأخرى، وألّفوا في الخلافيات، وتوسعوا في مناقشة المذاهب وعقد المجالسات معهم، ومقارنة أقوالهم بأقوال مالك وأصحابه، ونقد أدلتهم والردّ عليها، وكتاب (المبسوط) للعلامة إسماعيل بن إسحاق القاضي خير من يمثل هذا المنهج بكل جدارة، فقد كانت التوسعة في الاختلاف جزءا من تفكيره الاجتهادي، وهو أول من أعلن معاداة الرأي الواحد ودعاته. قال رحمه الله :" إنما التوسعة في اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ توسعة في اجتهاد الرأي، فأما أن يكون توسعة لأن يقول الناس بقول واحد منهم من غير أن يكون الحق عنده فيه فلا، ولكن اختلافهم يدل على أنهم اجتهدوا فاختلفوا "[٢] . قال أبو عمر :" كلام إسماعيل حسن جدا"[٣] .

ولأهمية كتاب (المبسوط) ضمن الدواوين التي من خلالها تُعرف طريقة البغداديين في الفقه والتأليف ولكون هذا السفر لعب دوراً بارزاً في مجال الترجيحات والمشاركة الفقهية بكل معانيها طار في الآفاق صيته وذاعت شهرته، حتى أصبح معتمداً عند سائر فقهاء مدارس المالكية بالمغرب والأندلس، فقد حفظ لنا (المنتقى)[٤] للباجي من اقتباساته ونكته، كما سجل لنا ابن أبي زيد القيرواني في كتابه الحافل (النوادر و الزيادات)[٥] من

---

(١) مقدمة محقق التفريع ١ / ٩٠-٩١ .

(٢) انظر : المقدمة الأصولية لابن القصار ص ١١٣ .

(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢ / ٨٢ .

(٤) انظر : المنتقى على سبيل المثال ١ / ٢٤، ١٣٦ ، ٢٦٣ وغيرها كثير .

(٥) انظر: دراسات في مصادر الفقه المالكي، ميكلوش ص ١٩١ -١٩٢ .

مناظراته الفقهية وحواراته العلمية النافعة ما يشفي الغليل في مجال دراسة فقه الخلاف العالي وإدارته .

ومن الذين تميزوا على أقرانهم بسعة الاطلاع على فقه المذاهب الأخرى وشاركوا في بناء الفكر الاستشاري وتطوره، القاضي أبو الحسن بن القصار، والقاضي عبد الوهاب بن نصر، والشيخ أبو بكر الأبهري وغيرهم ممن يُعدوا بمثابة بداية حقيقية لمشاركة مالكية بغداد في تأسيس وتطوير علم الخلاف(١)، الذي يقوم أساسا على الحوار المذهبي، والموازنة الفقهية والتبادل الاجتهادي بين الفقهاء، فكان هذا الإسهام سببا في الثقة التي اكتسبها فقهاء المالكية ببغداد عند غيرهم من أئمة المذاهب الأخرى واتباعهم، ومما يذكر في هذا الشأن أن أصحاب الشافعي، وأصحاب أبي حنيفة كانوا إذا اختلفوا في أقوال أئمتهم يسألون أبا بكر الأبهري، فيرجعون إلى قوله(٢) وهو إمام مالكي ببغداد بلا منازع، وكذا ابن الباقلاني الذي عُرف بحسن الاستنباط وسرعة الجواب إذ كان في المناظرة كانه خطيب، قال ابن ناجي في (معالم الإيمان) : " إنه كان يُقرئ المذاهب الأربعة، ويذكر كل مذهب وحجته، ثم يرجح مذهب مالك"(٣) .

وفي هذا السياق ذكر أبو عبد الله بن سعدون الفقيه أن" سائر الفرق رضيت بالقاضي أبي بكر الباقلاني في الحكم بين المتناظرين"(٤) .

هذه هي أوصاف هؤلاء لما تربعوا على قمة الاجتهاد الفقهي، وأنشؤوا قواعده على غرار فقهاء الأحناف والشافعية، وتناولوا المسائل الفقهية بالتحليل والتفريع وألفوا في الخلاف أسفارا، وتواليف بديعة كـ(عيون الأدلة) لابن القصار، و(الإشراف على نكت مسائل الخلاف) للقاضي عبد الوهاب، وكتاب (الحاوي) لأبي الفرج عمر بن محمد الليثي

---

(١) انظر : مقدمة محقق الاشراف ١ /٣٢، ومقدمة محقق التفريع ١ /٩٣ .

(٢) انظر: ترتيب المدارك ٦ /١٨٥ .

(٣) انظر : الفكر السامي للحجوي ٢ /١١٨ .

(٤) ترتيب المدارك ١ /٥٨٦ –٥٨٧ .

(ت ٣٣١ هـ)، و(مسائل الخلاف) و(الحجة على مذهب مالك) لأبي بكر بن الجهم المعروف بابن الورّاق المروزي[١] (ت ٣٢٩هـ) وكتاب (مسألة الجواب والدلائل والعلل) لأبي بكر الأبهري، وغيرها مما لا يمكن حصره، وما لا يسعفنا الوقت في عد مناقبه في مجال الإبداع الفقهي والنبوغ الاجتهادي الذي يعتمد كل الآراء دون إقصاء وهو ما عبر عنه ابن القصار لما سئل عن جواز النظر في الكتب وعزو ما فيها إلى أصحابها، ذكر جواز ذلك إذا كانت مما هو مشهور كـ (الموطأ)، و(الجامع) للثوري و(الأم) للشافعي، و(السنن في الفقه) للأوزاعي وغيرها، ثم قيّد ذلك بقوله : " يجوز إن كان الكتاب صحيحا مقروءا على العلماء معارضا بكتبهم"[٢] . وهذا لعمري فهم دقيق لمعنى التكامل الفقهي في العمل الاجتهادي، وهو بهذا يؤسس لما يُتكلم عنه اليوم (بالاجتهاد الجماعي) والحوار المذهبي. وكتاب (عيون الأدلة) ترجمة فعلية وعملية لهذا المنحى الذي يتحدث عنه ابن القصار في المجال النظري .

فهو عبارة عن معلمة فقهية من حق كل الفقهاء أن يفتخروا بها، جمعت آراء الأئمة والعلماء على اختلاف مذاهبهم، فعكف ابن القصار على دراسة هذه الآراء ومحاورة أصحابها من خلال منهج جاد في النظر والاستدلال، وتوّج ذلك باختيارات وترجيحات فضلها وقدمها بصرف النظر عن قائلها؛ لأن الأهم في نظر الفقيه المحاور هو القول والمذهب بغض النظر عن قائله، وقد أكد هذا المنهج في مقدمته الأصولية بقوله :" يُمنع تقليد المفضول مع وجود الفاضل بغض النظر عن انتمائه أو مذهبه، فالعلم والأمانة هما مبلغ ذلك، فمن كان أعلى رتبة في ذلك، استفتاه وقبل قوله و فتواه.... لأن هذا أوثق لدينه و أحوط لما يُقدم عليه من أمر شريعته ..."[٣] .

كان هذا شعارا للمشاركة والمشاورة التزم به صاحب (عيون الأدلة) في مشواره الفقهي ولا ضير بعد ذلك أن يتلقى رسائل التشجيع والتأييد من محاوريه اعترافا بجهوده في

---

(١) ترجمته في الديباج ٢ / ١٨٥، شجرة النور ٧٨ .

(٢) المقدمة الأصولية ٣٦ .

(٣) المقدمة لابن القصار ص ٢٦ .

مجال تنمية فقهية جماعية يشترك الجميع في تشييدها، فهذا أبو حامد الإسفرايينى[١] (ت ٤٠٦ هـ) الفقيه والأصولي الشافعي قال في مناظرة جمعته مع العلامة المالكي القاضي عبد الوهاب بن نصر في خصوص كتاب (عيون الأدلة) وأهميته في مجال الموازنة الفقهية القائمة على روح التفقه والتفهم: " ما ترك صاحبكم لقائل ما يقول"[٢]، كما حلاّه أبو إسحاق الشيرازي[٣] الأصولي الشافعي الذي انتهت إليه رئاسة الشافعية في زمانه (ت٤٧٦هـ) عندما وصف هذا الكتاب بقوله: " وله كتاب في مسائل الخلاف الكبير لا أعرف لهم كتابا في الخلاف أحسن منه"[٤] .

وبرهن ابن القصار من خلال هذا السفر الكبير أن الفقيه المالكي أكثر الفقهاء انخراطا في ساحة المذاهب، وأبعدهم عن التقوقع و أنشدهم لحرية الاختيار، وأنصفهم للرأي إذا قويت حجته وبانت شوكته .

ففي المسألة ٧٣ من كتابه" عيون الأدلة" :

اختار قول أبي حنيفة في حكم صلاة المهدوم عليه خلافا لكبار فقهاء المالكية كابن القاسم وأشهب .

وفي المسألة ١٤٨ خالف مالكا رحمه الله في صلاة الرجل إلى جنبه امرأة، فذهب إلى أنه لا يقف بجنبها، وكأنه وافق أبا حنيفة في ذلك .

وفي المسألة ٢٢٥، وردت موافقته لقول الشافعي في خطبة الإمام وحده دون من تنعقد بهم الجمعة قال: " والذي يوجبه النظر عندي أن لا تصح بحضرة الجماعة" وإلى هذا ذهب الشافعي.

وفي المسألة ٢٧١ وافق قول بعض أصحاب الشافعي وأبي يوسف ومحمد بن الحسن في عدم تغسيل المقتول في المعركة إذا عُرف أنه كان جُنبا وليس لمالك في ذلك نص .

---

(١) ترجمته في طبقات الشيرازي ١٠٣، تاريخ بغداد ٤ /٣٦٨، سير الذهبي ١٧ /١٩٣ .

(٢) ترتيب المدارك ٧ / ٧١ .

(٣) ترجمته في الأنساب ٩ / ٣٦١، سير الذهبي ١٨ / ٤٥٢ .

(٤) طبقات الفقهاء ص ١٦٨ .

وفي المسألة ٤٢٠ خالف مالكا في صيام المغمى عليه، فلم يفرق بين أن يُغمى عليه أكثر النهار أو أقله، وفرّق مالك بينهما[١] .

هذه بعض اختيارات ابن القصار والتي قدمها نتيجة محاورة مستمرة وجادة ونقاش علمي لمختلف الآراء، ولا يسع المتتبع لهذه الآراء وغيرها في المجال الفقهي إلا أن يتيقن من قدرة هذا الفقيه على الانفتاح والذوبان في مذهب غيره إذا وجد هذا الأخير ينسجم والراجح الذي ينبغي أن يُسار إليه .

وعلى نفس خطى ابن القصار واصل بكل حفاوة واقتدار رئيس مالكية العراق في وقته القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن نصر طريق الانفتاح، وأسلوب المحاورة التي ورثها عن شيخه وتفقه بها عنه، كما ذكر ذلك هو عن نفسه" صحبت الأبهري، وتفقهت على أبي الحسن بن القصار ..."[٢]، والتفقه هو التبين والتبصر في الترجيح والاختيار، وكتابه الحافل (الإشراف) يُعتبر مسرحا حقيقيا نقل فيه القاضي تجربته في مجال النظر والاستدلال والحوار والنقاش الذي دار بينه وبين فقهاء المذاهب الأخرى، وقد أهله لذلك انغماسه في مدارسة آراء المخالفين ومحاورتهم من خلال إقراء مصنفاتهم واستعراض اجتهاداتهم، فإنه لا تكاد تخلو مسألة من مسائل الكتاب إلا وفيها ذكر للمخالف، وقد شهد له كبار معاصريه بجودة قريحته وتمرسه في الخلافيات والنظر وكانت له مجالسات مستمرة في هذا الميدان حلاّه بها أبو إسحاق الشيرازي قال: " أدركته و سمعت كلامه في النظر"[٣]، وقد عدّ البعض الشيرازي وعلو شأوه في هذا المجال من تلاميذه[٤]، ويكفيه فخرا أن ابن حزم[٥] رحمة الله عليه (ت ٤٥٦ هـ) نوّه بتقدمه في النظر، كما يزيده ذلك زينة أنه أنجب في هذا

---

(١) انظر:هذه المسائل و أكثر في مقدمة محقق عيون المجالس اختصار عيون الأدلة للقاضي عبدالوهاب ١/٩٦-٩٧ .

(٢) الديباج ٢/٢٦ .

(٣) طبقات الفقهاء ص ١٦٨، المدارك ٢/٦٩٢، سير الذهبي ١٧/ ٤٣١ .

(٤) مقدمة محقق الإشراف ١/ ٦٩ .

(٥) ترجمته في وفيات الأعيان ٣/٣٢٥، سير الذهبي ١٨/ ١٨٤ .

المجال أحد المستقلين من دعاة الاجتهاد، العلامة النّظار الناقد أبا عبد الله المازري(١) (ت٥٣٦ هـ) الذي قاد لواء الحوار المذهبي والنقد الفقهي في الغرب الإسلامي فكان ثمرة يانعة لم تقر بها أعين المذاهب الأخرى في مجال البحث الفقهي المتطور.

إن القاضي عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كل مؤلفاته أكد على ضرورة من ضرورات الاجتهاد وهي أن الفقيه المستنبط هو من يتعامل مع الأقوال تعامل الناقد الأمين والمرجح الذكي، يبحث عما هو أقرب إلى الحق وأدعى للقبول، متوخيا في كل هذا وجود الدليل فهو يدعو إلى الاجتهاد، ويدعو معه إلى الترجيح بمقتضى الدليل دون اعتقاد الحق في أقاويل المخالفين في قول فلان دون قول غيره، ولا في مذهب دون ما سواه من المذاهب(٢).

وبالجملة فإن أفضل ما يمثل المنهج البغدادي في الدراسات المقارنة، والتي اهتمت بالخلاف العالي هي مصنفات القاضي عبد الوهاب، والتي أضحت محل اهتمام المتأخرين من فقهاء مدارس المالكية الأخرى، وطارت كتبه وأفكاره واستحسنت طريقته المستقلة في النقد عند الحذاق من الفقهاء، وكتابه (التلقين) كان خير سفير لهذه الأفكار، فشرحه أئمة عظام أمثال: " المازري(٣) في القيروان وابن العربي في الأندلس، وهو أحد الكتب الخمسة التي عليها المعول في ضبط مسائل المذهب وفق فروعه، حسب عبارة القرافي (ت٦٨٤ هـ) في مقدمة ذخيرته(٤) والله أعلم .

---

(١) ترجمته في وفيات الأعيان ٤/٢٨٥، الديباج ٢/٢٥٠ .

(٢) انظر : قوله في وجوب الاجتهاد والترجيح بمقتضى الدليل المعونة ٣/١٧٤٧ ، وانظر مقدمة محقق عيون المجالس ١/٧٠ .

(٣) صدر كتاب الصلاة منه في ثلاثة مجلدات بتحقيق المختار السلامي عن دار الغرب ١٩٩٧، وحقق قسماً منه زكي عبد الرحيم بخاري، وجمال عزون بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

(٤) انظر: مقدمة الذخيرة للمؤلف ١/٣٦ .

ثالثاً : في المجال الأصولي :

يقوم المذهب المالكي على أصول اجتهادية، وخطط تشريعية تضمنت مقرراتها اعتبار المصالح التي يقوم عليها المجتمع السوي، ودرء المفاسد التي تخل بوظيفته الإنسانية، فكان مؤدى ذلك أن تبنى المذهب قواعد ومناهج اجتهادية تأسست في مجملها على اعتبار المآل في التصرفات، بغية منها في تجميع شتات المذاهب في الاجتهادات، وإلجاء الاختلافات المزعومة إلى أضيق السبل وذلك بصرف الأنظار إلى خدمة الهدف، وتوجيه سهام المنافسة إلى ترقيته وتطوره.

فدخل رجال المذهب ومنظروه من نافذة هذه الأصول في محاورات مذهبية عرفت نقاشا حادا، وإثراء لا مثيل له في تاريخ الحركة الفقهية قديما وحديثا. وأفضى هذا الإثراء في نهاية المطاف عن ميلاد مناهج تشريعية أسهمت معظمها في تدعيم سياسة الحوار المذهبي التي انتهجها مالك رحمه الله تعالى في أولى خطاه الاجتهادية (١) .

وما حدث حول حُجية عمل أهل المدينة من نقاش معتبر و ثري، وما قدمه فقهاء مالكية العراق في بيان حقيقته والاستدلال بالعمل به لشاهد على الموضوعية العالية التي تمتع بها فقهاء المالكية، فقد شاركوا بكل فعالية وإنصاف في بيان صحة الاحتجاج بهذا الأصل، وفندوا الحجة في صحة العمل الاجتهادي، وأنكروا وجود نقل عن مالك يفيد حجية هذا القسم عنده. قال القاضي عبد الوهاب :" وإجماع أهل المدينة من طريق الاستنباط والاجتهاد ليس بحجة عند كافة البغداديين، وهو الذي كان يقول به الشيخ أبو بكر الأبهري؛ لأن أهل المدينة وعلماءها بشر يخطئ ويصيب، والعصمة إنما تثبت لجميع الأمة دون بعضها، فلا يؤمن معه وقد وقع الخطأ في بعض ما اجتهدوا فيه"(٢).

---

(١) ومن أبرز هذه المناهج الحوارية" مراعاة الخلاف، والاستحسان، والحكم بأقل ما قيل، واعتبار العادة والعرف، والقضاء بما جرى به العمل وغيرها" .

(٢) مسائل في أصول الفقه من كتاب المعونة للقاضي عبد الوهاب ص ٢٤٤ -٢٤٥ والملخص له. انظر المقدمة الأصولية ص ٢٥٤ .

لقد استبق القاضي رحمه الله تعالى المخالف في انتقاد ما يجب انتقاده من مذهبه، ولم يمنعه ذلك من التأكيد على وقوع الخطأ فيما طريقه الاجتهاد، وفي مضمار الإنصاف المطلوب في الحوارات الجادة والمثمرة والذي اتخذه فقهاء مالكية العراق مسلكا لهم في مناظراتهم، ولما احتج على مالك في عمل أهل المدينة وإجماعهم بعمل أهل مكة وإجماعهم، لأنهم شاهدوا النبي ﷺ كما شاهده أهل المدينة، فهل يجب اعتبار إجماعهم وعملهم؟.

قال القاضي ابن القصار في: (مقدمته الأصولية) " إن اتفق لهم ذلك كانوا هم وأهل المدينة سواء فيما نقلوه عنه ﷺ." (١).

وقد نالت مسألة إجماع أهل المدينة حظا وافرا، وانتزعت مساحة واسعة في مصنفات أصول مدرسة مالكية بغداد، فقد تناولها القاضي عبد الوهاب بأسلوب حواري مفعم بالأدب العالي، الذي أضفى على المناقشة روحا من المسؤولية تنبئ عن تفقه تميز به القاضي في كل مداخلاته العلمية، فقد أجلى أسئلة المعارض على لسانه، ثم أجوبته العلمية الهادئة مع الأمانة في نقل أدلة المعارض دون شطط، حيث صدّر بها المسألة، وقدمها على مذهبه مستعملا ألفاظا حوارية تليق بمقام المناظرة كقوله:" فإن قيل: فقد أجيب، وإن قال: قيل له، وقال: هذا غلط، والظاهر كذا...، مع توظيف لغة الاتباع بدل التقليد، والأمة الواحدة بدل الجماعة، والمعتقد يوجب العمل، وقول المخالف أظهر في النظر وأطرد في الاستدلال...."(٢)، مع ضرب الأمثلة باستمرار للوقوف بكل إنصاف على رأي المخالف بحيثياته وأوصافه.

فالرسالة صورة حية في أدب الجدال والمناظرة، ارتقى في موضوعها القاضي إلى مصاف المبدعين في لغة التحاور الفقهي والأصولي، وليس هذا بالأمر المستغرب منه، وقد قال في (ملخصه الأصولي): باب القول في صحة النظر: "اعلم أن النظر صحيح و مثمر للعلم

(١) المقدمة الأصولية ص ٧٩.

(٢) الإجماع للقاضي عبد الوهاب عن مقدمة ابن القصار ص ٢٥٩ -٢٩٦.

بالمنظور فيه، ومفيد لحقيقته، إذا رُتب على سننه، واسُتوفي على واجبه، وهو قول كافة أهل العلم..."(١).

والمقصود بقوله: (إذا رُتب على سننه ...) هو آدابه في الاختلاف، وذكر الآراء والمذاهب، وتعميم أسلوب التحاور في اكتساب المخالف دون قهر أو ظلم أو تعسف وخروج عن سنن التآلف وهدي السنة في التنوع والتعدد.

هذه مواضعات لا تكاد تخلو منها مصنفات الخلاف العالي في الفقه والأصول عند مالكية العراق بشكل عام، رسمها القاضي ابن نصر رحمه الله تعالى منهجا في كتاباته، وأسلوبا في مناقشاته ومحاوراته.

وفي كتابه (المقدمات في أصول الفقه) ساق القاضي من الألفاظ والمصطلحات ما يكفل لأن يصنف هذا المجتهد الحاذق ضمن دعاة الانفتاح، فقد ورد على لسانه من مفردات النظر ما لا يحصى، ومعاني الاعتبار، والتدبر، والتبين، والتفهم، وكذا الاستدلال، ونبذ التقليد، والعدول عن الانقياد إلى قول من لا يعلم..." لأن صحة المذهب لا تتبين من فساده باعتقاد المعتقد له، وشدة تمسكه به، و إنما يتميز صحيح المذاهب من فاسدها، و حقها من باطلها بالأدلة الكاشفة عن أحوالها، والمميزة بين أحكامها...)(٢).

وفي هذا وغيره انحياز تام للقاضي للحق واتباعه، بغض النظر عن قائله ومذهبه ونبذ التقليد والتعصب حتى ولو كان ذلك للمذهب وإمامه، وهو عين التكامل والتكافل المذهبي، الذي يؤسس له القاضي في نظرة انفتاحية مبكرة على الرأي الآخر، واحتجاج القاضي دائما في هذا بما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم من الاحتجاج والاستدلال في مسائل الأحكام ومناظرة بعضهم لبعض، حتى اتهم – لكثرة تأكيده في درسه وكتاباته على هذه المعاني – أنه يدعو إلى ترك التمذهب بما هو عليه المذهب المالكي، قال رحمه الله: فإن قيل: فهذا خلاف ما أنتم عليه من دعائكم إلى درس مذهب مالك بن أنس... قلنا هذا ظن منك

(١) انظر: فصول مختارة في أصول الفقه مع المقدمة الأصولية ص ٢٩١ .

(٢) المقدمات في أصول الفقه مع المقدمة لابن القصار ص ٣٠٠-٣٠٢ .

بعيد، وإغفال شديد، لأنا لا ندعو من ندعوه إلى ذلك إلا إلى أمر قد عرفنا صحته، وعلمنا صوابه بالطريق التي قد بيناها...)[١].

هذه بعض مسالك هذه المدرسة في الاحتجاج لمذهب مالك ونصرة اختياراته والتي تقوم على النظر والتمرس على الحوار ومدارسة أصول وقواعد مذاهب الأئمة، ونبغوا في ترجيح أقوالهم منطلقين في ذلك من منهج نظري عقلي يعتمد على التحليل المنطقي للصور الفقهية والاستدلال الأصولي، متأثرين في ذلك بالبيئة الفقهية في العراق، والتي كان منهج أهل الرأي السائد فيها[٢]، وهو ما يشار إليه عند المالكية المتأخرين بطريقة العراقيين ويمثلهم في ذلك تمثيلا حسنا ما أنجزه ابن القصار في (المقدمة الأصولية)، والتي كما أشرنا نالت حظا وافرا من امتداح الفقهاء لها أثناء المذاكرات والحوارات التي أنجزت في العراق بين مختلف المذاهب.

وكذا القاضي أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) والذي يعتبر أحد أهم المنعطفات في تاريخ أصول الفقه بعد الإمام الشافعي، حيث أقحم هذا الفن في دائرة المناظرة والجدل بشكل أوسع، كما أدخل عليه الكلام ووسع من مساحة الحوار في مسائله وقواعده، وكتابه (التقريب والإرشاد) حافل بما لا يمكن الحديث عنه في غضون هذه الورقات، فكان ابن الباقلاني بحق شيخا ينسب إليه فضل التطور الأصولي في القرنين الرابع والخامس الهجريين.

وقد اشتهر القاضي أبو بكر بمناظراته وحواراته الكثيرة التي دارت بينه وبين رؤساء الفرق والمذاهب في المجال الكلامي والفقهي والسياسي، وقد عقد القاضي عياض لذلك فصلا استعرض فيه تفاصيل هذه المناظرات فانظرها[٣].

ومن هؤلاء النخبة الفقيه الناقد محمد بن خويز منداد[٤] (ت ٣٩٠ هـ) صاحب الاختيارات المشهورة في المذهب، وأحد المجتهدين الحذاق الذين نبذوا التقليد، فقد وصفه

---

(١) الرد على من أخلد إلى الأرض ص ١٠٧-١١٠ .

(٢) انظر : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ٣/٢٢ .

(٣) ترتيب المدارك ٢/٥٨٩ وبعدها .

(٤) انظر: ترجمته في ترتيب المدارك ٢/٦٢٦، الديباج ٢/٢٢٩ .

في تعريفه: (بأنه رجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه، وذلك ممنوع في الشريعة، والاتباع ما ثبت عليه الحجة... والاتباع في الدين مسوغ، والتقليد ممنوع)(١). وهي عبارات تنضح بالوعي الفقهي الذي كان يتمتع به هذا العلم، ولفرط التحرر الذي عرف به وكثرة الانفتاح على آراء ومذاهب العلماء من غير المالكيين، نسب رحمه الله تعالى إلى الشذوذ في اعتناق الاجتهادات الفقهية، قال ابن حجر: " وعنده شواذ عن مالك، واختيارات وتأويلات لم يعرج عليها حذاق المذهب"(٢)، لكن المتتبع لآرائه واختياراته يلحظ مدى قوة ترجيحاته المبررة بالدليل المقنع بغض النظر عن موافقتها أو مخالفتها لما استقر عليه المذهب(٣)، ويكفيه فخرا تتلمذه فقهيا على شيخ مالكية العراق أبي بكر الأبهري وهو واحد من الذين شدت إليهم الرحال في طلب العلم من المشرق والمغرب.

عوامل انتشار الانفتاح ولغة التحاور عند فقهاء مدرسة مالكية العراق

أولاً: العامل العلمي:

لقد بلغ ذروته في القرن الرابع الهجري، والذي عرف بالقرن الذهبي، حيث ضرب فيه العلماء والفقهاء بسهم كبير، فكانت لهم الحظوة عند أولي الأمر، فتسابق الفقهاء في الإبداع في مجالات مختلفة من علوم الشريعة وغيرها، وولع الخلفاء والأمراء بالعلم والثقافة، ففتحوا أبواب قصورهم للفقهاء، وأضحوا نصيرين لهم، وقربوهم ومكنوهم من وسائل البحث، وبعثوا فيهم روح المنافسة، وأقاموا بينهم المناظرات، فأصبحت بغداد تعج ثقافة ونموا فكريا لا نظير له، واستقبلت عاصمة الخلافة طلاب العلم ومنحتهم جوءا علميا مكنهم من أن ينهلوا من مواردها المختلفة... ووفرت الأسباب، وأسست لذلك مراكز مختلفة وبعضها متخصصة

---

(١) انظر: الرد على من أخلد إلى الأرض ص ١٠٦ ،إعلام الموقعين ٢ /١٧٨ .

(٢) لسان الميزان ٥ /٢٩١ .

(٣) انظر: هذه الاختيارات ضمن رسالة دكتوراه للأخ الدكتور ناصر قارة و عنوانها "ابن خويز منداد و آراؤه الأصولية"،جامعة الجزائر .

من (بيت الحكمة)، و(دار العلم)، ومساجد بغداد العامرة، التي كانت لا تنقطع عن حلقات العلم المختلفة يديرها علماء من مختلف المذاهب[١]

وقد عرفت الحركة العلمية تقدما متواصلا واهتماما بالغا في بغداد آنذاك حيث كانت من أكبر المراكز التي نشطت فيها التيارات العلمية والثقافية والسياسية، فعملت كل طائفة على عرض بضاعتها، واتخذت لذلك وسائل وأساليب كثيرة كان من أبرزها المناظرات والحوارات والمساجلات العلمية بين الفقهاء والمذاهب، وكان هذا النمو السريع الذي شكّل وجها مشرقا للفقه والتطور الاجتهادي من جراء المنافسة الشريفة، والاحتكاك الإيجابي، فقد كان ذلك عاملا مهما في بروز أعلام كثيرين من مختلف المذاهب والتيارات أسسوا لعلم المناظرة وآداب الخلاف ووضعوا المناهج المتفوقة لذلك، وكان على رأس هؤلاء فقهاء بارزين أنجبتهم مدرسة مالكية بغداد، رصد معظمهم العلامة المؤرخ الحافظ الخطيب البغدادي[٢] (ت ٤٦٣ هـ) في كتابه الحافل (تاريخ بغداد)، حيث سجل طرفا من هذه الأسماء اللامعة في عالم الفقه والأصول، وما أنجزته في مجال الاجتهاد، وما أضافوه لآداب المناظرة والمذاكرة من دعامة فاقت كل التصورات عند المهتمين بتاريخ العلوم وتطورها[٣].

ثانياً : عامل التأثر بمدرسة المدينة

لقد كان للارتباط الوثيق الذي جمع فقهاء مالكية بغداد بمدرسة المدينة المنورة أثره الواضح في تكوين المسار الاجتهادي للمدرسة العراقية، وقد كان لفعل الرحلة إليها عاملا مهما في هذا التكامل بأصحاب مالك حيث أخذوا عنهم أقوال مالك وفقهه ورواياته بكل ما كانت تحمله من أوصاف وآداب ونكت في الاجتهاد والتعليم والفتوى، وحتى في مجال السجال الحواري والمناظرات ذات الطابع الأصولي والفقهي، والتي دارت رحاها بين مالك وفقهاء المدينة وغيرهم من الوافدين إليها من كل أسقاع الأرض. فنقلوا هذه الثروة العلمية

---

(١) انظر: مقدمة محقق التفريع ١ / ٥٠ .

(٢) انظر: ترجمته في طبقات الشافعية ٣ / ١٢، سير أعلام النبلاء ١١ / ٤١٣ .

(٣) انظر : مقدمة محقق الإشراف ١ /١٥-١٦ .

المدنية إلى بغداد، والتي أسسها مالك على هدى من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة، وأضفى عليها طابعا حضاريا وتربويا ظهر جماله بشكل واضح في عرض مذهبه وتسويق آرائه، وبيان اجتهاداته. فكانت مناظراته وحواراته الفردية والجماعية، والتي تعددت أشكالها وتنوعت مضامينها مادة علمية جاهزة نسج على منوالها فقهاء بغداد بعد ذلك، منهجهم في نشر المذهب وتوسيع دائرة أنصاره في العراق، فكان أن خُصّ أعلامه بتقلد المظالم والقضاء والفتيا والتدريس(١).

ومن خلال هذا الاهتداء الفقهي الذي تطبع به فقهاء بغداد، وُلد مسار جديد في التأليف عند مالكية العراق، يتمثل في الاحتجاج للمذهب، وحسن إدارة أدلته بالمناظرة والحوار البناء، كما تمثل ذلك في مناقشة المذاهب الأخرى خاصة المذهب الحنفي والشافعي، ومقارنة أقوالهم بأقوال مالك ونقد أدلتهم والردّ عليها(٢).

ثالثاً: عامل التكامل النقلي والعقلي في الاستدلال

توظيف النقل والعقل في عملية الاستدلال لمسائل الفقه والأصول، منهج اعتمده فقهاء مالكية العراق بالأصالة في الاحتجاج للمذهب ودفع أدلة خصومهم ونقض أقوالهم بالنظر والجدال، ولعل التفقه العقلي هو السبيل الوحيد لفسح المجال أمام الرأي الآخر للإفصاح عن قناعته وعرض أدلته، وقد نبغ فقهاء المالكية في هذا الشأن، وقويت شوكتهم وحجتهم في الممارسة الاجتهادية، ودخلوا ميدان المناظرة مع المذاهب الأخرى فحصل لهم بذلك تفوق علمي في المناظرة والخلاف بشقيه الأدنى والأعلى، واستمعوا لغيرهم وجالسوا نظراءهم من الفقهاء والعلماء وأعني بهم الحنفية الذين ملكوا مسلك النظر العقلي وتوسعوا في لغته وأسسوا للقواعد والأصول ومقارنة الأقوال بعضها ببعض وترجيح بعضها على بعض(٣).

(١) انظر: ترتيب المدارك ٤/٢٧٤.

(٢) انظر: مقدمة محقق الإشراف ١/٢٨-٣٠-٣١.

(٣) نفس المصدر ١/٣٢، ٣٦.

هذا المنهج الذي تفوقت فيه المدرسة البغدادية عن سائر المدارس الأخرى والذي وطن للعمل الاجتهادي على أُسس من النظر، وفتح المجال أمام لغة التحاور بلغ ذروته على أيدي طبقة من الأشياخ الذين تولوا زمام قيادة المذهب بعد ذلك كان على رأسهم قاضي القضاة إسماعيل بن إسحاق "وهو أول من بسط قول مالك واحتج له وأظهره بالعراق"(١) .

قال عياض: " وصنف في الاحتجاج له والشرح له ما سار لأهل هذا المذهب مثالا يحتذونه وطريقا يسلكونه" (٢) .

وعلى نهجه نسج تلاميذه فألفوا في الخلاف الأصولي والفقهي، وتمرسوا في النظر والمناظرة، وتمكنوا من الحوار وآدابه في صد آراء المخالفين، وأسسوا بذلك "لعلم أصول الفقه المالكي "فألفوا فيه وانتصروا لمنازع اختياراتهم وردوا على مخالفيهم من المذاهب..."(٣) .

رابعاً: عامل التّحضر

فإن للرقي الحضاري دوره الفعال في إرساء مبادئ الانفتاح و أسس و آداب الحوار بين كل طبقات المجتمع، ناهيك عن النخبة المثقفة التي تقوده، لقد وفر هذا العامل المهم كثيرا من الفرص والمساحات لفقهاء مالكية بغداد، ولغيرهم من فقهاء المذاهب في تكوين العقل الموضوعي الواعي بضرورة الانفتاح والمشاركة في البناء العلمي القائم على المنافسة الشريفة في المجال الاجتهادي والاختيار الفقهي .

فالاستقرار الاجتماعي والنمو الاقتصادي، والاعتناء بالمجال الثقافي والعلمي الذي عرفته عاصمة الخلافة آنذاك فتق مساحات واسعة أمام التفكير العقلي السليم الذي يؤمن بمبدأ المقارنة والموازنة بين الآراء، ثم ليصدر بعد ذلك بشأنها القرار المناسب(٤)، وهي صيغة موضوعية لعلاج فعال للاختلاف بين وجهات النظر .

---

(١) ترتيب المدارك ٤/ ٢٨٠، ٢٨١ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(٣) مقدمة محقق الإشراف ١/ ٣٥ .

(٤) فصول في التفكير الموضوعي ص ٢٧٥ .

فالمتحضر هو من يملك القدرة على كسب المزيد من الثقة بطرق الحوار والمناقشة المفعمة بالحجج المقنعة، وبالاعتدال والإنصاف لآراء المحاور، فهو بهذا التصرف يعبر عن استقرار علمي واجتماعي، وحياة اقتصادية ماتعة وفرت له كل أسباب التفكير السليم القائم على روح التعاون والتبادل في مجالات الحياة كلها. " حيث إن خلفاء بني العباس لم يألوا جهدا في إمتاع دولتهم بالسعادة والرخاء... عاملين بما أوتوا من إمكانات على تثقيف الأذهان فبلغ العرب في عهدهم درجة رفيعة من الحضارة، فحاولوا.... أن يفوقوا الروم في التجارة والصناعة والفنون والآداب والعلوم ..."(١).

ولعل أسرة بني حماد التي استوطنت البصرة وملكت ما يربو من ست مئة بستان، كانت في سعة كبيرة من الرزق والغنى أنجبت لنا نخبة من العلماء عكفوا على دراسة المذهب تعلما وتعليما ونشرا وتأليفا، فحصل لهم بسبب هذا التفوق الدنيوي والديني هيبة وقربة لدى السلطان والناس، فمُكّنوا من مناصب القضاء والفتيا(٢) وأعانهم ذلك على الاحتكاك الشديد والتغلغل الإيجابي في أوساط عامة الناس وخاصتهم، فكونوا بذلك في بيئة حضارية مع مخالفيهم من المذاهب الأخرى ببغداد مزاجا عاما يمثل نقطة التعادل والتبادل، وهي الخلاصة المركزة لكل أوجه التشابه والتخالف بين أفراد تلك البيئة(٣). قال الفرغاني: " لا نعلم أحدا بلغ ما بلغ آل حماد بن زيد، ولم يبلغ أحد ممن تقدم من القضاة من اتخاذ المنازل والضياع والكسوة والآلة، ونفاذ الأمر في جميع الأقطار.... وكان فيهم على اتساع الدنيا رجال صدق وخير وأبهة وورع وعلم وفضل، فانظر رحمك الله كيف كانت بيوت العلم في الإسلام"(٤) .

---

(١) عن مقدمة محقق التفريع ١/٤٣ .

(٢) الفكر السامي ٢/١٠٣،مقدمة محقق التفريع ١/٩١، ترتيب المدارك ٢/١٦٦ .

(٣) فصول في التفكير الموضوعي ٢٦٧ .

(٤) المدارك ٢/١٦٧،الفكر السامي ٢/١٠٤ .

إن ما سجلناه من ملامح لمظاهر الحوار الفقهي والمذهبي عند فقهاء مدرسة مالكية العراق يعتبر في حقيقته امتدادا طبيعيا للمنهج الاجتهادي الذي أُسس عليه المذهب، فمن خلاله برهن فقهاء العراق على سعة دائرة تفكيره في بناء العمل الفقهي على نمط الحوار والانفتاح، الذي شيد عليه مالك رحمه الله تعالى آراءه واجتهاداته الأولى والله تعالى أعلى وأعلم .

أ.د رضوان بن غربية
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر
التاريخ : ٨ جمادى الثانية ١٤٢٣ هـ الموافق لـ ١٦ أوت ٢٠٠٢

ثبْت المصادر والمراجع :

١- أحكام الفصول في أحكام الأصول، لأبي الوليد الباجي (ت ٤٧٤هـ)، ت: عبدالمجيد تركي، ط/١، دار الغرب، بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

٢- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض - أحمد بن محمد المقري (ت ١٠٤١ هـ)، ت: عبد السلام هراس، سعيد أعراب، صندوق إحياء التراث الإسلامي، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٣- أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، محمد الفاضل بن عاشور، تونس مكتبة النجاح.

٤- الأنساب، عبد الكريم السمعاني(ت ٥٦٢هـ)، ت: عبد الرحمن المعلمي، ط/٢، نشر محمد أمين دمج، بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٥- ابن خويز منداد و آراؤه الأصولية، د. ناصر قارة، دكتوراه كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر .

٦- الإجماع للقاضي عبد الوهاب بن نصر (ت ٤٢٢ هـ) مطبوع ضمن المقدمة الأصولية .

٧- إرشاد السالك إلى مناقب مالك، يوسف بن حسن بن عبد الهادي (ت ٩٠٩ هـ)، مخطوط مكتبة الأسد دمشق .

٨- الإشراف على نكت مسائل الخلاف، للقاضي عبد الوهاب، ت: الحبيب بن طاهر، ط/١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، دار ابن حزم بيروت.

٩- إصطلاح المذهب عند المالكية - د. محمد إبراهيم علي - مطبوع على الآلة الراقنة.

١٠- إعلام الموقعين عن ربّ العالمين - ابن قيم الجوزية(٧٥١هـ)، ت: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل بيروت .

١١- الانتقاء في فضائل الأئمة، أبو عمر بن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ)، ت : عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، دار البشائر الإسلامية بيروت ١٤١٧هـ/١٩٩٨م .

١٢ - البحر المحيط، بدر الدين الزركشي(ت ٧٩٤هـ)، ت: عمر سليمان الأشقر، ط/٢، وزارة الأوقاف الكويتية ١٤١٥هـ/١٩٩٢م.

١٣ - البداية والنهاية ، إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤ هـ)، القاهرة ١٣٥١ / ١٣٥٨ م .

١٤- برنامج المجاري، أبو عبد الله المجاري الأندلسي (ت ٨٦٢هـ)، ت: أبو الأجفان، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط/١ ، ١٩٨٢م.

١٥- تاج التراجم، قاسم بن قطلوبغا (ت ٨٧٩ هـ)، بغداد ١٩٦٢ م.

١٦- تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعبل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣ هـ)،ت: أحمد عبد الغفور عطار، القاهرة ١٩٥٦ م .

١٧- تاريخ الإسلام، شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨ هـ)، ت: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي بيروت، ط/٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

١٨- تاريخ بغداد، أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ)، القاهرة ١٩٣١م

١٩- تاريخ علماء الأندلس، أبو الوليد ابن الفرضي، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦م.

٢٠- ترتيب المدارك، عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤ هـ)، ت : أحمد باكير محمود ـ مكتبة الحياة، بيروت، وكذلك ط وزارة الأوقاف المغربية، ت: مجموعة من العلماء.

٢١-تسهيل دراية الموطأ، صدر به كتاب المسوى، ولي الله الدهلوي، الحجاز مكة المكرمة، المطبعة السلفية ١٣٥١هـ.

٢٢- التفريع، لابن الجلاب(ت ٣٧٨هـ)، ت: حسين الدهمان، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط/١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

٢٣ - جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر ابن عبد البر(ت ٤٦٣هـ)، ت: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، ط/٢ ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

٢٤- الجامع الصحيح " سنن الترمذي" محمد بن عيسى الترمذي (ت ٢٧٩ هـ): أحمد شاكر وجماعته، القاهرة ١٩٢٨ -١٩٦٢ م .

٢٥ - جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس،محمد بن فتوح الحميدي (ت ٤٨٨هـ)، القاهرة ١٩٥٦ م

٢٦– الجرح والتعديل، عبد الرحمن بن أبي حاتم (ت ٣٢٧ هـ).

٢٧– الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، عبد القادر القرشي (ت ٧٧٥ هـ)، ت: عبدالفتاح الحلو، القاهرة .

٢٨ – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ)، القاهرة .

٢٩– دراسات في مصادر الفقه المالكي، ميكلوش موراني، دار الغرب الإسلامي .

٣٠– الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ابن فرحون (ت ٧٩٩ هـ)،ت: محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة ١٣٥١ هـ.

٣١ –الذب عن مذهب مالك، لابن أبي زيد القيرواني مخطوط شستربتي، دبلن إرلندا رقم ١٠٠.

٣٢– الذخيرة، شهاب الدين القرافي، ت: محمد حجي، ط/١ دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩٤م .

٣٣– الرّد على من أخلد إلى الأرض، السيوطي (ت ٩١١هـ)، ت: فؤاد عبد المنعم أحمد، ط/١ مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، مصر ١٩٨٤م.

٣٤ – رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا، عبد الله بن محمد المالكي (ت ٤٥٣ هـ)، القاهرة ١٩٥١ م .

٣٥– السنن، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني (ت ٢٧٥ هـ)، ت: عزت عبيد الدعاس حمص ١٩٦٩/١٩٧٠م

٣٦– السنن الكبرى، البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية الهند ١٣٥٢هـ.

٣٧– السنن لابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني(ت ٢٧٥هـ)، ت:محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة العلمية بيروت.

٣٨– سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ)، ت:مجموعة من الأساتذة، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٠٩ هـ–١٩٨٨ م

٣٩ – شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكية، محمد مخلوف (ت ١٣٦٠ هـ)، القاهرة ١٣٤٩ هـ.

٤٠– شرح التلقين، لأبي عبد الله المازري(ت ٥٣٦هـ)، ت: الشيخ محمد المختار السلامي، ط/١ دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٧٩م.

٤١– شرح الموطأ، محمد بن عبد الباقي الزرقاني (ت ١١٢٢ هـ)، صححه جماعة من العلماء، دار الفكر للطباعة والنشر ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٤٣– صفة الصفوة، عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، ت: فاخوري والقلعجي، بيروت ١٩٧٩ م.

٤٤– الصلة في تاريخ أئمة الأندلس، ابن بشكوال، (ت ٥٧٨ هـ)، القاهرة ١٩٦٦ م.

٤٥– طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب بن السبكي (ت ٧١٧ هـ)، ت: الحلو، الطناحي، القاهرة ١٩٦٤/١٩٧٦ م.

٤٦– طبقات الفقهاء، إبراهيم بن علي، أبو إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦ هـ)، ت:إحسان عباس، ط/٢، بيروت ١٩٨١ م.

٤٧– الطبقات الكبرى، محمد بن سعد (ت ٢٣٦ هـ)، دار الصادر بيروت.

٤٨– عنوان الدراية لمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، الغبريني، ت:محمد بن أبي شنب ط/الثعالبية الجزائر ١٩١٠.

٤٩– عيون المجالس، اختصار عيون الأدلة، القاضي عبد الوهاب بن نصر (ت٤٢٢هـ)، رسالة ماجستير، ت: سمية بوسرية، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر.

٥٠– الغنية، للقاضي عياض، ت:ماهر زهير جرار، ط/١ دار الغرب الإسلامي،١٤٠٢هـ/١٩٨٢ م.

٥١– فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)، السلفية ١٣٩٠هـ.

٥٢– فصول في التفكير الموضوعي، د. عبد الكريم بكار، دار القلم دمشق، ط/١ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٥٣- الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي (ت ١٣٧٦هـ)، ت/ القاري ط/ ١، المكتبة العلمية المدينة المنورة.

٥٤- فهرس ابن عطية، ت: محمد أبو الأجفان، محمد الزاهي،ط/ ٢ دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٣م.

٥٥- لسان الميزان، أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ).

٥٦- المذهب المالكي مدارسه ومؤلفاته، خصائصه وسماته، محمد المختار المامي، رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الراقنة جامعة محمد بن سعود الإسلامية الرياض.

٥٧- المستدرك، محمد بن عبد الله الحاكم (ت ٤٠٥ هـ)، حيدر أباد الهند ١٣٤١هـ.

٥٨- المسند، أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، الميمنية مصر ١٣١٣ هـ.

٥٩- المسوى، شرح الموطأ، ولي الله الدهلوي، الحجاز، مكة مطبعة السلفية ١٣٥١هـ.

٦٠- مشاهير علماء الأمصار، محمد بن حبان البستي، عني بتصحيحه فلا يشهمر، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر١٣٧٩ هـ/ ١٩٥٩م.

٦١-معالم الإيمان، في معرفة أهل القيروان، عبدالرحمن بن محمد الدباغ (ت٦٩٩هـ)، الخانجي ١٩٧٠م.

٦٢- المعجم الوسيط، مجموعة من المؤلفين، دار أمواج بيروت، ط/ ٢ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧ م.

٦٣- المعونة، على مذهب عالم المدينة، القاضي عبد الوهاب، ت: د. عبد الحق حميش، دار الفكر.

٦٤- المقدمة الأصولية، أبوالحسن بن القصار، ت:محمد السليماني، دار الغرب الإسلامي، ط/ ١، ١٩٩٦م.

٦٥- المقدمات في أصول الفقه، القاضي عبد الوهاب، مطبوع ضمن مقدمة ابن القصار .

٦٦- مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبد الكريم بكار، دار القلم دمشق، ط/١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٦٧- الملخص (التلخيص في أصول الفقه)، القاضي عبد الوهاب، مطبوع ضمن المقدمة الأصولية لابن القصار.

٦٨- المنتقى شرح الموطأ، لأبي الوليد الباجي (ت ٤٧٤ هـ)، دار الكتاب العربي بيروت ١٣٣٢هـ.

٦٩- منهجية الخلاف والنقد الفقهي عند الإمام المازري، رسالة دكتوراه، دار الحديث الحسنية المغرب.

٧٠- الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، تصدرها جمعية المستشرقين الألمانية، بيروت ١٩٦٢/١٩٨٣م.

٧١- وفيات الأعيان، أحمد بن محمد بن خلكان (ت ٦٨١ هـ)، بيروت ١٩٧٨ م.

٧٢- ومضات فكر، محمد الفاضل ابن عاشور، الدار العربية للكتاب ١٩٨١، ليبيا تونس.

ثَبْت موضوعات البحث

التأثير المتبادل
بين المدرسة المالكية بالعراق
والمدرسة المالكية بالقيروان

إعداد

د. نعيم عبد العزيز الكثيري*

* أستاذ مساعد في أكاديمية شرطة دبي. ولد بالسعودية عام (١٩٦٦م)، حصل على الماجستير من جامعة الزيتونة بتونس في الفقه، عام (١٩٩٤) وكان عنوان رسالته: «مجالس القضاء والحكام للقاضي المكناسي - دراسة وتحقيق»، وحصل على الدكتوراه من الجامعة نفسها والتخصص نفسه عام (١٩٩٩م) وكان عنوان رسالته: «العفو وأثره في إسقاط العقوبة». له العديد من البحوث والدراسات.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه وأسعد خلقه سيدنا محمد ﷺ القائل في الحديث عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: «من يرد الله به خيراً يفقه في الدين»[١].

أما بعد :

فإن الفقه الإسلامي من أفضل العبادات التي يتقرب بها إلى الله عز وجل، ومعرفة فضل الفقهاء وإكرامهم والإشادة بأعمالهم مما حمدته الشريعة الإسلامية في أكثر من موضع. وإن هذا المؤتمر الذي يعقد في هذا الإطار لهو عمل مشكور وجهد محمود، جزى الله القائمين عليه خير الجزاء.

وقد ارتأيت أن يكون موضوع مشاركتي المتواضعة حول التأثير المتبادل بين المدرسة المالكية بالعراق والمدرسة المالكية بالقيروان. وعائد ذلك على المذهب المالكي بصفة عامة من حيث سعة انتشاره، وتكريس تطبيقه في العالم الإسلامي، وقد حاولت في هذه الورقة أن أجيب على هذه الإشكالية التي يطرحها هذا البحث. والتي تتمثل فيما يلي:

أي المدرستين المالكيتين أثّرت في الأخرى؟ وما جوانب ذلك التأثير؟ وهل استمر ذلك التأثير أم توقف في مرحلة زمنية معينة؟

وللإجابة على هذه الإشكالية اخترت تناول البحث من خلال مقدمة، وخمسة مباحث ونتائج للبحث.

---

(١) موطأ الإمام مالك: ٢٤١.

* خطة البحث.

* **المقدمة.**

* **المبحث الأول**: الرحلات العلمية بين القيروان وبغداد.

* **المبحث الثاني**: المشيخة والتلمذة، وفيه خمسة مطالب:

- المطلب الأول: مشيخة المدرسة المالكية بالعراق ومن تتلمذ عليها من القيروانيين.
- المطلب الثاني: مشيخة المدرسة المالكية بالقيروان ومن تتلمذ عليها من العراقيين.
- المطلب الثالث: أصحاب المشيخة المشتركة.
- المطلب الرابع: من استقر بالقيروان من العراقيين.
- المطلب الخامس: من استقر بالعراق من القيروانيين.

* **المبحث الثالث**: المكاتبات والإجازات العلمية، وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: المكاتبات.
- المطلب الثاني: الإجازات العلمية.

* **المبحث الرابع**: انتقال المؤلفات العلمية وعناية أقطاب المدرستين بها، وفيه مطلبان:

- المطلب الأول: انتقال المؤلفات العلمية.
- المطلب الثاني: العناية العلمية بتآليف أقطاب المدرستين.

* **المبحث الخامس**: المناظرات والمذكرات العلمية.

* نتائج البحث.

المقدمة

نشأة المذهب المالكي بالعراق والقيروان

يعود انتشار المذهب المالكي في العراق إلى عدد من تلاميذ الإمام مالك الذين أخذوا عنه في المدينة المنورة أمثال:

١ ـ أبو أيوب سليمان بن بلال قاضي بغداد، ت ١٧٦ هـ[١].

٢ ـ أبو عبدالرحمن عبد الله بن المبارك، ت ١٨١ هـ[٢].

٣ ـ أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي العنبري البصري المحدث، ت ١٩٨هـ[٣].

٤ ـ أبو العباس الوليد بن مسلم بن السائب الدمشقي، ت ١٩٩ هـ[٤].

٥ ـ أبو زكريا يحيى بن يحيى بن بكير التميمي النيسابوري، ت ٢٢٦هـ[٥].

وفي القرن الثالث الهجري استمر انتشار المذهب المالكي بالعراق عن طريق طلبته الذين أخذوا عن أصحاب مالك المدنيين، وعادوا بفقهه، وبما رووا عنه من أحاديث لينشروها بالعراق، ومنهم: أبو الفضل أحمد بن المعذل البصري[٦]، وازدهرت المدرسة المالكية بالعراق في القرن الرابع على يد أعلام مشاهير كابن الجهم وأبي بكر الأبهري وبكر بن العلاء وغيرهم، اهتموا بالمدونة ومختصر ابن عبد الحكم وغيرها من أمهات الكتب ونصروا المذهب.

أما بالنسبة لنشأة المذهب المالكي في القيروان فإن انتشاره يرجع إلى المحدثين والفقهاء القيروانيين الذين رحلوا إلى الإمام مالك وأخذوا عنه بالمدينة، وقد وصل عددهم إلى أكثر من

(١) الديباج: ١/٣٧٣، شجرة النور الزكية: ٥٧.

(٢) الديباج: ١/٤٠٧.

(٣) تاريخ بغداد: ١٠/٢٤.

(٤) شجرة النور الزكية: ٥٨.

(٥) ن، م: ٥٨.

(٦) شجرة النور الزكية: ٦٤ ـ ٦٥، وانظر مقدمة الفروق الفقهية لأبي الفضل مسلم بن علي الدمشقي: ١٣ ـ ١٥.

٣٠ رجلاً، ومن هؤلاء: عبد الله بن فروخ ت ١٧٥ هـ، والبهلول بن راشد ت ١٨٣هـ، وعلي ابن زياد التونسي ت ١٨٣ هـ، وأبو عبدالرحمن عبدالله بن عمر بن غانم ت ١٩٠هـ، ومعاوية ابن الفضل الصمادحي[١]، وأبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي ت ٢١٠هـ[٢].

وقد انبنت المدرسة القيروانية على فقه الموطأ المؤسس على الدعائم الصحيحة من الحديث والآثار وغير ذلك مما وقف عليه مالك بن أنس. وبنى عليه مذهبه المدعم بما عليه الجماعة بالمدينة المنورة[٣].

ثم ازدهرت المدرسة المالكية ووصلت إلى أوج عطائها في القرن الرابع على يد الشيخ أبي محمد بن أبي زيد القيرواني، ومن بعده تلامذته كما سيظهر ذلك في هذه الورقة.

المبحث الأول

الرحلات العلمية بين القيروان وبغداد

إن التواصل العلمي بين القيروان وبغداد عن طريق الرحلات المباشرة أو غير المباشرة (رحلات الحج)، أو الهجرة للاستقرار بأحدهما قد ابتدأ في مرحلة زمنية مبكرة، وبالتحديد في بداية القرن الثاني الهجري على يد خالد بن أبي عمران القيرواني ت ١٢٧ هـ، وعبدالرحمن بن زياد ت ١٤٠ هـ، وابن فروخ ت ١٧٥ هـ، وعلي بن زياد ت ١٨٣هـ «أحد رواد المدرسة القيروانية إن لم يكن رائدها»، الذي أخذ الموطأ عن مالك بالمدينة ثم ذهب إلى العراق وأخذ عن سفيان مسنده، فكان أول من أدخل إلى المغرب الموطأ وجامع سفيان، وفي الاتجاه الآخر قدم إلى القيروان علماء عراقيون في بداية القرن الثاني الهجري كأبي كريب عبدالرحمن البصري ت ١٣٩ هـ واستقر بها، ومن بعده يحيى بن سلام صاحب التفسير

(١) معالم الإيمان: ١/ ٢٣١.

(٢) معالم الإيمان: ١/ ٢٤١.

(٣) موطأ الإمام مالك قطعة منه برواية علي بن زياد: ٤٦ ـ تقديم وتحقيق: محمد الشاذلي النيفر ـ الدار التونسية للنشر.

(ت: ٢٠١ هـ)، واستمر هذا التبادل الثقافي بين المدرستين. لكن من الملاحظ أن الرحلة بين القيروان والمشرق كانت في الغالب لها صبغة دينية علمية، فهي تتوجه إلى الحجاز مروراً بالديار المصرية لأداء مناسك الحج، وحضور مجالس العلماء أخذاً وعطاءً، ثم تتواصل إلى العراق[١]، بحثاً عن أقوال مالك من خلال الالتقاء بتلاميذه أو من أخذ عنهم، أو رجالات المدرسة المالكية بالعراق فيما بعد. وفي بداية هذا الشأن يقول ابن خلدون: (الرحلة لا بد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد، والكمال بلقاء المشائخ ومباشرة الرجال)[٢].

بينما كانت الرحلة من بغداد إلى القيروان يطغى عليها الجانب السياسي في بعض الأحيان. فبعض أهل العراق قد نزح إلى القيروان واستقر بها. بعد أن ملّ من ضعف الخلافة العباسية وتقسيمها إلى دويلات، وكثرة الانتفاضات المذهبية، نزحوا باحثين عن الاستقرار في بلد يسود فيه دين واحد ومذهب واحد وعقيدة واحدة[٣]، فكان من كبار المالكية الأشاعرة النازحين إلى القيروان أبو عبد الله الأذري تلميذ القاضي الباقلاني، والقاضي عبد الوهاب كان قد خاطب فقهاء القيروان في الوصول إليها، واستقر بعد ذلك في مصر.

وسأحاول أن أحصي رحلات القيروانيين والبغداديين المباشرة وغير المباشرة، وأبين تاريخ حصولها قدر استطاعتي على النحو التالي:

(أ) رحلات علماء المدرسة القيروانية:[٤]

١ - رحل أبو محمد عبد الله بن فروخ إلى العراق قبل نهاية سنة ١٥٨ هـ[٥].

٢ - رحل علي بن زياد إلى العراق في طلب العلم[٦].

---

(١) الدهماني حسين سالم، مقدمة التفريع: ١/ ٩٧ - ٩٨.

(٢) ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون: ٥٤١.

(٣) انظر مقدمة المدارك: ١/ ١٥ - تحقيق: أحمد بكير محمود - منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دار الفكر، طرابلس ليبيا.

(٤) وقد أوردتهم حسب تاريخ وفاتهم.

(٥) معالم الإيمان: ١/ ٢٣٨ وما بعدها.

(٦) المدارك: ٣/ ٨١.

٣ ـ رحل أبو عمرو البهلول بن راشد إلى العراق في حدود منتصف القرن الثاني الهجري[١].

٤ ـ رحل أبو عبد الرحمن عبد الله بن غانم إلى العراق في طلب العلم قبل سنة ١٧١هـ[٢].

٥ ـ رحل أسد بن الفرات إلى المشرق سنة ١٧٢هـ[٣].

٦ ـ رحل أبو جعفر أحمد بن معتب بن أبي الأزهر إلى العراق بعد منتصف القرن الثاني الهجري[٤].

٧ ـ رحل أبو عبدالله بن أبي المنظور إلى العراق في حدود سنة ٢٧٥ هـ، وكتب في رحلته علماً كثيراً[٥].

٨ ـ رحل أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني للحج، وسمع في رحلته هذه قبل نهاية سنة ٣٢٩ هـ تقريباً[٦].

٩ ـ رحل أبو عمران الفاسي القيرواني إلى العراق سنة ٣٩٩ هـ، وحضر مجلس أبي بكر الباقلاني وسمع منه ومن غيره[٧]، وأثبت أبو عمران الفاسي سماعه من القاضي أبي بكر الباقلاني، أملاه في رمضان من سنة اثنين[٨]، أي ٤٠٢ هـ فيما أظن، ثم رحل مرة أخرى سنة ٤٢٦ للحج، ولقي بمكة أبا ذر الهروي[٩].

---

(١) المدارك: ٣/٨٧.

(٢) انظر المدارك: ٣/٦٥ وما بعدها، وانظر: معالم الإيمان: ١/٢٩١ وما بعدها.

(٣) رياض النفوس: ١/٢٥٦.

(٤) معالم الإيمان: ٢/١٧٧.

(٥) رياض النفوس: ٢/٣٥٧.

(٦) معالم الإيمان: ٣/١٠٩، الديباج: ١/٤٢٨، شجرة النور الزكية: ٩٦.

(٧) معالم الإيمان: ٣/١٦٠.

(٨) المدارك: ٧/٤٦، ٤٩.

(٩) معالم الإيمان: ٣/١٦٣.

١٠ ـ رحل أبو الحسن القابسي إلى المشرق يوم السبت لعشر مضين من شهر رمضان سنة ٣٥٢هـ[١].

١١ ـ رحل أبو عمر أحمد بن سعدي المهدوي إلى العراق قبل نهاية ٣٧٥[٢].

١٢ ـ رحل أبو محمد عبد الحق الصقلي القيرواني إلى المشرق فلقي القاضي عبدالوهاب وأبا ذر الهروي. ولعله سمع منهما قبل سنة ٤٢٢هـ[٣].

١٣ ـ رحل أبو عبد الله محمد بن أبي الفرج المازري إلى العراق قبل نهاية ٤٦٠هـ[٤].

(ب) رحلات علماء المدرسة العراقية:

١ ـ رحل أبو كريب عبد الرحمن البصري إلى القيروان في بداية القرن الثاني الهجري[٥].

٢ ـ رحل يحيى بن سلام البصري المفسر إلى القيروان قبل سنة ١٧٦ هـ[٦].

٣ ـ رحل أبو معمر عباد بن عبد الصمد البصري إلى القيروان في منتصف القرن الثاني الهجري تقريباً[٧].

٤ ـ رحل سليمان بن عمران الملقب بخروفة إلى القيروان قبل سنة ٢٤٠ هـ[٨].

٥ ـ رحل أبو طاهر البغدادي إلى القيروان في القرن الثالث الهجري[٩].

٦ ـ رحل المسدد بن أحمد ابن الخزرج البصري إلى القيروان في القرن الرابع الهجري[١٠].

---

(١) وفيات الأعيان: ٣/ ٣٢٠.

(٢) شجرة النور الزكية: ١٠٦.

(٣) انظر المدارك: ٨/ ٧٢، الديباج: ٢/ ٥٦.

(٤) معالم الإيمان: ٣/ ٢٠٣ ـ ٢٠٣.

(٥) انظر طبقات أبي العرب: ٢١٧، ٢١٩.

(٦) طبقات أبي العرب: ١١١، ١١٣.

(٧) انظر طبقات أبي العرب: ٩٤.

(٨) قضاة قرطبة وعلماء أفريقيا: ٢٣٦ ـ ٢٤٠.

(٩) تبيين كذب المفتري: ١٢١.

(١٠) انظر المدارك: ٧/ ٢٢٨ .

٧ - رحل أبو عثمان أحمد بن إبراهيم بن حماد إلى المشرق وحج في بداية القرن الرابع الهجري، حيث حدث عنه ابن أبي زيد[١].

٨ - رحل أبو عبدالله الأذري إلى القيروان بعد سنة ٤٠٣هـ[٢].

٩ - رحل أبو ذر الهروي إلى المشرق وحج سنة ٤٢٦، ولقي أبا عمران الفاسي[٣].

المبحث الثاني

المشيخة والتلمذة

إن المشيخة والتلمذة واستقرار علماء المدرستين في بغداد أو القيروان تعتبر نتيجة طبيعية للرحلات العلمية التي وصلت بين المدرستين، سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة (رحلات الحج)، والتي سبق ذكرها، وساهمت في تكوين جيل درس منهج المدرسة المالكية العراقية التي اعتمدت على الاستدلال لمسائل المدونة، ومنهج المدرسة القيروانية التي اعتمدت البحث عن ألفاظ المدونة. وتحقيق ما احتوته بواطن الأبواب، وتصحيح الروايات، وبيان وجوه الاحتمالات مع انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار[٢]. وينتظم الكلام في هذا المبحث في عدة مطالب:

* المطلب الأول: مشيخة المدرسة المالكية بالعراق. ومن تتلمذ عليها من القيروانيين.
* المطلب الثاني: مشيخة المدرسة المالكية بالقيروان. ومن تتلمذ عليها من العراقيين.
* المطلب الثالث: أصحاب المشيخة المشتركة.
* المطلب الرابع: من استقر بالقيروان من العراقيين.
* المطلب الخامس: من استقر بالعراق من القيروانيين.

---

(١) ن، م: ٥/٢٦٤-٢٦٥.

(٢) تبيين كذب المفتري: ١٢٠-١٢١.

(٣) معالم الإيمان: ٣/١٦٣.

(٤) أزهار الرياض: ٣/٢٢.

المطلب الأول

مشيخة المدرسة المالكية بالعراق ومن تتلمذ عليها من القيروانيين

ويشمل فرعين:

الفرع الأول: شيوخ هذه المدرسة:

- أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن حماد الأزدي، أصله من البصرة، استوطن بغداد، شيخ المالكية بالعراق، سمع من إسماعيل بن أبي أويس، وعلي بن المديني وغيرهما، وممن تفقه عليه وروى عنه وسمع منه إبراهيم بن حمّاد، وأبو الفرج القاضي، وأبو عبدالله محمد بن أبي المنظور القيرواني، كان عالماً متفنناً، إماماً في العربية، شرح المذهب المالكي ولخّصه، ولي قضاء بغداد وغيرها، له تآليف كثيرة منها: المبسوط في الفقه. وكتاب الأموال، وشواهد الموطأ، توفي سنة ٢٨٢هـ[١].

- أبو عثمان أحمد بن إبراهيم بن حماد بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد، روى عن أبيه، وأبي جعفر الطحاوي، وأبي بكر بن عبدالعزيز العمري، حدّث عنه أبو محمد بن أبي زيد، فهو من شيوخه، وخلف أبو عثمان أخاه على قضاء مصر إلى سنة ٣١٦ هـ، كان مشهوراً بالحياء وخفض الصوت، وفي ولايته حكم بتوريث ذوي الأرحام وورد الكتاب بالأمر بذلك من بغداد، توفي بمصر سنة ٣٢٩هـ[٢].

- أبو الفرج عمر[٣] بن محمد الليثي البغدادي، القاضي الفقيه، الحافظ العمدة، الثقة، اللغوي، تفقه بالقاضي إسماعيل، وكان من كتابه، وصحب غيره من المالكيين، وعنه أخذ أبوبكر الأبهري وابن السكن وغيرهما، ولي قضاء طرطوس وغيرها، له الحاوي في مذهب مالك واللمع في أصول الفقه، توفي سنة ٣٣١ هـ[٤].

---

(١) الفهرست: ٤٢٤ - ٤٢٥، تاريخ بغداد: ٦/ ٢٨٤ - ٢٩٠، الديباج: ١/ ٢٨٢ وما بعدها.

(٢) المدارك: ٥/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٣) في الديباج: (٢/ ١٢٧): عمرو.

(٤) الديباج: ٢/ ١٢٧، شجرة النور الزكية: ٧٩.

- أبوبكر محمد بن أحمد بن الجهم المروزي، يعرف بابن الوراق، صحب إسماعيل القاضي وسمع منه وتفقه معه، وروى أيضاً عن إبراهيم بن حماد، ومحمد بن عبدوس، وعبدالله بن محمد النيسابوري، روى عنه أبو بكر الأبهري، وإسحاق الدينوري، وذكره الشيخ ابن أبي زيد ضمن شيوخه، كان صاحب حديث وسماع وفقه، وعلم واسع، له عدة كتب جليلة، منها: مسائل الخلاف والحجة لمذهب مالك، والرد على محمد بن الحسن، وبيان السنة. توفي سنة ٣٢٩، وقيل: ٣٣٣ هـ(١).

- أبو الفضل بكر بن محمد بن زياد بن الوليد بن العلاء القشيري، أصله من البصرة. من كبار فقهاء المالكية راوية للحديث، عالماً به، تولى القضاء ببعض نواحي العراق، لكنه خرج منها لأمر اضطره فنزل مصر قبل الثلاثين والثلاثمائة، وأدرك فيها رئاسة عظيمة، سمع من كبار أصحاب إسماعيل بن إسحاق وإبراهيم بن حماد وغيرهما، وحدّث عنه من لا يعد من المصريين والأندلسيين والقرويين، وهو من شيوخ ابن أبي زيد القيرواني، له عدة مؤلفات منها كتاب الأحكام، والمختصر من كتاب إسماعيل بن إسحاق بالزيادة عليه، توفي بمصر سنة ٣٤٤هـ(٢).

- أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح الأبهري التميمي، سكن بغداد، كان فقيهاً، عالماً بالحديث، حافظاً، أحد أئمة القراء، ثقة، أميناً، مستوراً صالحاً، ورعاً، عاقلاً، إليه انتهت الرئاسة في مذهب مالك وعنه انتشر المذهب في البلاد، تفقه على القاضي أبي الفرج، وأبي بكر بن الجهم، والطيالسي وغيرهم، وحدّث عن أبي عروبة الحراني، ومحمد بن محمد الباغندي، وخلق سواهما من البغداديين والغرباء، وعليه تفقه ناس كثير، وذكره ابن أبي زيد القيرواني ضمن شيوخه، وخرّج له جملة من الأئمة بأقطار الأرض من العراق ومصر وأفريقيا، كأبي سعيد القزويني، وأبي القاسم الجلاب، وابن القصار، وأبي عمر بن سعدي الأندلسي نزيل المهدية، وأبي محمد الأصيلي وغيرهم. له عدة مؤلفات مهمة، منها: شرح المختصر

---

(١) النوادر والزيادات: ١/ ١٥، تاريخ بغداد: ١/ ٢٨٧، الديباج: ٢/ ١٨٥ - ١٨٦.

(٢) النوادر والزيادات: ١/ ١٤، المدارك: ٥/ ٢٧٠ - ٢٧٢، حسن المحاضرة: ١/ ٤٥٠، الديباج: ١/ ٣١٣ - ٣١٥.

الكبير والصغير لابن عبد الحكم، وكتاب في الأصول، وكتاب إجماع أهل المدينة، توفي ببغداد سنة ٣٧٥[١].

- أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد الباقلاني، يلقب بشيخ السنة ولسان الأمة، المتكلم على مذهب أهل السنة وأهل الحديث، وطريقة الأشعري، من أهل البصرة، سكن بغداد، إليه انتهت الرئاسة في مذهب مالك، كان موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب، فاضلاً مقاوماً للبدع والمعتزلة، أخذ عن ابن مجاهد، وأبي بكر الأبهري، وابن أبي زيد[٢] وغيرهم، وأخذ عنه جماعة لا تعد كأبي ذر الهروي، والقاضي أبو محمد عبدالوهاب، وأبوعمر بن سعدي، وأبو عمران الفاسي القيرواني وغيرهم. قال أبو عمران الفاسي: كان سيد أهل السنة في زمانه، وإمام متكلمي الحق في وقتنا. له تآليف كثيرة منها: كتاب الإبانة، وشرح أدب الجدل، وأمالي إجماع أهل المدينة، وكتاب على المعتزلة فيما اشتبه عليهم من تأويل القرآن، توفي سنة ٤٠٣هـ[٣].

- أبو محمد عبدالوهاب بن علي بن نصر القاضي البغدادي، كان فقيهاً، مالكياً حافظاً حجة، نظاراً متأدباً، شاعراً، تولى القضاء في عدة جهات من العراق، ثم مصر، أخذ عن أبي بكر الأبهري، وابن القصار، وابن الجلاب، وأبوبكر الباقلاني وغيرهم، وبه تفقه ابن عمروس، وأبو الفضل مسلم الدمشقي وغيرهما، وروى عنه جماعة منهم: عبدالحق بن هارون الصقلي القيرواني، له عدة تآليف مهمة، منها: كتاب التلقين، وشرحه لكنه لم يتم، وشرح المدونة، والإشراف على نكت مسائل الخلاف، والإفادة في أصول الفقه وغيرها، توفي بمصر سنة ٤٢٢هـ[٤].

---

(١) الفهرست: ٤٢٦، النوادر والزيادات: ١٤ وما بعدها، طبقات الفقهاء: ١٦٨ - ١٦٩، تاريخ بغداد: ٥/٤٦٢ - ٤٦٣، المدارك: ٦/١٨٣ - ١٩٢.

(٢) شجرة النور الزكية: ٩٢.

(٣) تاريخ بغداد: ٥/٣٧٩ وما بعدها، المدارك: ٧/٤٤ وما بعدها، معالم الإيمان: ٣/١٦٠، شجرة النور الزكية: ٩٢ - ٩٣.

(٤) تاريخ بغداد: ١١/٣١ - ٣٢، طبقات الفقهاء: ١٧٠ - ١٧١، المدارك: ٧/٢٢٠ - ٢٢٧.

ـ أبو ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الهروي الأنصاري[١]، أصله من هراة، سكن الحرم وجاور فيه إلى أن مات، الإمام المحدث، الحافظ، الثقة، الحجة، النظّار، غلب عليه الحديث فكان إماماً فيه، جال في بلاد خراسان والعراق ورحل إلى الحجاز ومصر، أخذ عن أعلام عدة منهم: القاضي أبو الحسن بن القصار، وأبو سعيد الأبهري، وأبو إسحاق الدينوري، وأبو بكر الباقلاني وغيرهم، وسمع منه عالم لا يحصى منهم: أبو الحسن القابسي، وأبو عمران الفاسي القيروانيان، والأصيلي الأندلسي وغيرهم، له تآليف كثيرة: كتابه الكبير في المسند الصحيح المخرّج على البخاري ومسلم، والجامع، توفي سنة خمس أو أربع وثلاثين وأربعمائة[٢].

الفرع الثاني: تلاميذها القيروانيين:

ـ يزيد بن محمد الجُمَحي القيرواني، لقي مالك بن أنس، وإبراهيم بن محمد بن أبي يحيى من أهل المدينة وغيرهما، كان ثقة، كثير الحديث، سمع من أبي بكر بن عياش الكوفي المحدث وجماعة من أهل الكوفة والبصرة والشام، سمع منه موسى بن معاوية الصُّمادحي، وأكثر أحمد بن يزيد السماع منه[٣].

ـ أبو جعفر أحمد بن معتب بن أبي الأزهر، كان فقيهاً، ثقة، ثبتاً، عالماً بالحديث والرجال، حسن التقييد، نبيلاً، سمع من سحنون، وهو من فقهاء أصحابه، ومن أبي الحسن الكوفي، ولقي إسماعيل القاضي، وقد سمع عنه الناس بالقيروان، توفي سنة ٢٧٧هـ[٤].

ـ أبو عبد الله محمد بن أبي المنظور عبد الله بن حسان الأنصاري القيرواني، الفقيه العالم الأصولي، أصله من الأندلس، سمع بالعراق من إسماعيل القاضي، وابن قتيبة، والحارث بن أبي أسامة وغيرهم، وسمع منه أحمد بن عبدالرحمن القصري، وعبدالله بن أبي هاشم وغيرهما، كان له إدراك وسماع كثير، وعلم مشهور، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولي

---

(١) وفي شجرة النور الزكية (١٠٤) يقال حميد بن محمد.

(٢) المدارك: ٧/ ٢٢٩ ـ ٢٣٣، شذرات الذهب: ٣/ ٢٥٤، الديباج: ٢/ ١٣٢ ـ ١٣٣، شجرة النور الزكية: ١٠٤.

(٣) طبقات أبي العرب: ١٦٨، معالم الإيمان: ٢/ ٦٩، رياض النفوس: ١/ ٢٣٩.

(٤) الديباج: ١/ ١٤٧، معالم الإيمان: ٢/ ١٧٧ ـ ١٨٤.

قضاء القيروان لإسماعيل بن أبي القاسم بن عبيدالله سنة ٣٣٤ وهو ابن تسعين سنة، ولم يأخذ على القضاء أجراً، توفي سنة ٣٣٧ بالقيروان[١].

- أبو محمد عبد الله بن أبي زيد، قيرواني المولد، نفزي النسب، عرف بمالك الصغير، إمام المالكية في وقته، كان واسع العلم، كثير الحفظ والرواية، فصيح القلم، ذابّاً عن مذهب مالك، قائماً بالحجة عليه، بصيراً بالرد على أهل الأهواء، إليه كانت الرحلة من الأقطار، تخرج على كبار شيوخ أفريقيا كأبي بكر ابن اللباد، وشيوخ الأندلس كالأصيلي، وشيوخ العراق كأبي بكر الأبهري والقاضي إبراهيم من آل حماد، وتفقه عليه جلة من القرويين والأندلسيين والعراقيين كابن مجاهد الطائي، وكان مع تقدمه في العلم ذا بر وإيثار وإنفاق على الطلبة وغيرهم، وصلة للعلماء، له مؤلفات عدة خدمت المذهب أيما خدمة، وصلت إلى أكثر من ثلاثين منها: النوادر والزيادات على المدونة، ومختصر المدونة، وتهذيب العتبية، والرسالة الفقهية، والاقتداء بأهل المدينة، وتفسير أوقات الصلوات، توفي سنة ٣٨٦هـ بعد أن عاش ستاً وسبعين سنة[٢].

- أبو عمران موسى بن عيسى بن أبي حاج[٣] الغفجومي الفاسي القيرواني، نزيل القيروان، حصلت له بها رئاسة العلم. كان من أحفظ الناس وأعلمهم، طارت فتاواه في المشرق والمغرب، وأثنى عليه العلماء، تفقه بأبي الحسن القابسي القيرواني، والأصيلي الأندلسي وغيرهما، دخل العراق وحضر مجلس أبي بكر الباقلاني القاضي وسمع منه ودرس عليه الأصول وسمع من غيره، أخذ عنه جماعة كثيرة، له كتاب التعليق على المدونة، لم يكمله، وخرج من عوالي حديثه نحو مائة ورقة[٤].

- أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري، المعروف بابن القابسي، كان فقيهاً أصولياً، نظاراً، عالماً بالحديث وعلله ورجاله، أخذ عن أبي زيد المروزي، وأخذ عن الفقيه

---

(١) المدارك: ٥/٣٢٩ـ٣٣٠، رياض النفوس: ٢/٣٥٧ـ٣٦١.

(٢) معالم الإيمان: ٣/١٠٩ـ١٢١، المدارك: ٦/٢١٥ـ٢٢٢، الديباج: ١/٤٢٧ـ٤٣٠، سير أعلام النبلاء: ١٧/١٠ـ١٣، أعلام الفكر الإسلامي: ٤٤ـ٤٩.

(٣) وفي الديباج (٢/٣٣٧): حجاج.

(٤) الديباج: ٢/٣٣٧، معالم الإيمان: ٣/١٥٩.

العراقي أبي ذر الهروي، وعليه تفقه أبو عمران الفاسي.

جاء في شجرة النور الزكية: (أنه أول من أدخل رواية الإمام البخاري إلى أفريقيا وسنده وسند أبي ذر الهروي وسند من أخذ عنهما مذكور في أوائل فتح الباري)[١]. له عدة مؤلفات، منها: كتاب الممهد في الفقه، وملخص الموطأ، توفي بالقيروان سنة ٤٠٣ هـ ودفن بباب تونس[٢].

ـ أبو عمر أحمد بن محمد بن سعدي الأشبيلي المهدوي، أصله أندلسي أشبيلي، نزيل المهدية، وعليه دارت الفتيا بها، كان فقيهاً صالحاً، أخذ عن ابن أبي زيد القيرواني وغيره، وسمع من جماعة مصر والعراق، ولقي بها أحمد بن أبي يعلى الحمادي، وحدث عنه أبو محمد بن الوليد، وأبو القاسم بن محرز، توفي بالمهدية ودفن بها وكان حياً سنة ٤١٠هـ[٣].

ـ أبو محمد عبد الحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي الصقلي القيرواني، تفقه بشيوخ القيروان كأبي بكر بن عبد الرحمن، وأبي عمران الفاسي، وعبد الله بن الأجدابي وغيرهم، لقي القاضي عبد الوهاب، وأبا ذر الهروي في حجه، ألف كتاب النكت والفروق لمسائل المدونة. وتهذيب الطالب ، وله استدراك على مختصر البراذعي، وله جزء في بسط ألفاظ المدونة، توفي بالأسكندرية سنة ٤٦٦ هـ[٤].

---

(١) مخلوف: ٩٧.

(٢) المدارك: ٧/ ٩٢ ـ ١٠٠، وفيات الأعيان: ٣/ ٣٢٠ ـ ٣٢٢، شجرة النور الزكية: ٩٧.

(٣) المدارك: ٧/ ١٠١ ـ ١٠٢، شجرة النور الزكية: ١٠٦.

(٤) المدارك: ٨/ ٧١ ـ ٧٤.

المطلب الثاني
مشيخة المدرسة المالكية القيروانية ومن تتلمذ عليها من العراقيين

ويشمل فرعين:

الفرع الأول
شيوخ هذه المدرسة

ـ أبو محمد عبد الله بن فروخ الفارسي، أصله من الأندلس، سكن القيروان، كان فقيهاً مبايناً لأهل البدع، سمع وتفقه بالمشرق على جماعة من العلماء والمحدثين كمالك بن أنس وأبي حنيفة، وزكريا بن أبي زائدة، وعبد الملك بن جريج، والثوري وغيرهم، وكان اعتماده في الحديث والفقه على مالك بن أنس، لكنه كان يميل إلى النظر والاستدلال وربما مال إلى قول أهل العراق عندما يتبيّن له منه الصواب، وبعد عودته من المشرق أخذ يعلم الناس ويحدثهم بسنة رسول الله ﷺ، توفي بمصر سنة ١٧٥ وقيل ١٧٦ هـ[١].

ـ أبو الحسن علي بن زياد التونسي العبسي، أصله من العجم، كان بارعاً في الفقه، ثقة، مأموناً، خيراً، متعبداً، سمع بأفريقيا من خالد بن أبي عمران وغيره، تردد بين مصر والحجاز والعراق، أخذ عن مالك بن أنس، والليث بن سعد، وسفيان الثوري، وبه تفقه، وروى عنه الموطأ أسد بن الفرات وسحنون وغيرهما، وهو أول من أدخل إلى المغرب الموطأ وجامع سفيان، وانتصب يدرس الفقه ويفسر أقوال مالك، ألف كتاباً أسماه «خير من زنته»، توفي سنة ١٨٣ هـ[٢].

(١) طبقات أبي العرب: ١٠٧ وما بعدها، المدارك: ٣/١٠٢ ـ ١١٠، معالم الإيمان: ١/٢٣٨ وما بعدها.

(٢) طبقات الفقهاء: ١٥٦، المدارك: ٣/٨٠ وما بعدها، أعلام الفكر الإسلامي: ٢١.

- أبو عمرو البهلول بن راشد، كان ثقة مجتهداً ورعاً، صاحب علم كثير، معروفاً بالعبادة، سمع من مالك، والثوري، وعبد الرحمن بن زياد، والليث بن سعد وغيرهم، أخذ الجامع الكبير عن علي بن زياد ودوّن الناس عنه، وقام بفتياهم، سمع منه سحنون وخالد ابن يزيد ويحيى بن سلام البصري وغيرهم، توفي سنة ١٨٣هـ(١).

- أبو عبدالله أسد بن الفرات بن سنان مولى بني سليم بن قيس، أصله من نيسابور، أخذ عن علي بن زياد، سمع من مالك الموطأ، ودخل العراق بعد وفاة أبي حنيفة، فلقي أبا يوسف، ومحمد بن الحسن، وأسد بن عمرو بن عامر البجلي وغيرهم من أصحاب أبي حنيفة وتفقه بهم، وكتب الحديث بالعراق، وسمع الفقه بمصر على عبد الرحمن بن القاسم وعنه دوّن الأسدية، وقدم بها القيروان فسمعها منه خلق كثير ومنهم سحنون، وعنه أخذ أبو يوسف موطأ مالك، توفي سنة ٢١٣هـ وقيل غير ذلك(٢).

- الشيخ أبو محمد بن أبي زيد(٣).

الفرع الثاني: تلاميذها العراقيون(٤)

- أبو زكرياء يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التميمي البصري، سكن القيروان، العالم الحافظ، المفسر الثقة الثبت، لقي من العلماء ثلاث مائة وثلاثة وستين عالماً سوى التابعين، وروى عن جماعة من العلماء شرقاً وغرباً، كمالك بن أنس، والليث بن سعد وسواهما، وكان يقول: كل من رويت عنه العلم روى عني إلا القليل، وعنه أخذ أحمد بن نصر الهواري القيرواني وغيره، سمع من ابن فروخ سنة ست وسبعين ومائة، له كتاب في التفسير،

---

(١) المدارك: ٣/ ٨٧.

(٢) طبقات أبي العرب: ١٦٣، المدارك: ٣/ ٢٩١ - ٣٠٩، رياض النفوس: ١/ ٢٥٥ وما بعدها، معالم الإيمان: ٢/ ٣ وما بعدها، الديباج: ١/ ٣٠٥.

(٣) انظر: ص:

(٤) لقد درس على ابن أبي زيد القيرواني، جماعة من البغداديين غير ما ذكرت، لكن لم تعنيهم كتاب التراجم فيما وقفت عليه منها.

واختيارات في الفقه. توفي بمصر سنة ٢٠١ هـ تقريباً(١).

ـ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي البغدادي، من أهل البصرة، سكن بغداد، الإمام الفقيه الأصولي العالم النظار المتكلم، صاحب الشيخ أبي الحسن الأشعري المالكي، ويعتبر من تلاميذ الشيخ ابن أبي زيد القيرواني حيث أجازه، له عدة تآليف، منها: كتاب أصول الفقه على مذهب مالك، ورسالته المشهورة في الاعتقادات على مذهب أهل السنة، وسماعه في كتاب الأصيلي بخطه وغيرها، توفي سنة ٣٧٠ هـ(٢).

ـ أبو الفضل محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن عمروس البزار، بغدادي، درس على القاضي أبي الحسن بن القصار، والقاضي ابن نصر، وحمل عن ابن أبي زيد القيرواني كتبه إجازة، كان إماماً فقيهاً، أصولياً، فاضلاً، قيماً بمسائل الخلاف، إليه انتهت الفتوى في الفقه على مذهب مالك ببغداد، له تعليق حسن مشهور في المذهب والخلاف، ومقدمة حسنة في أصول الفقه، توفي سنة ٤٥٢هـ، وكانت ولادته سنة ٣٧٢ هـ وفق ما جاء في المدارك(٣).

المطلب الثالث

أصحاب المشيخة المشتركة

وأعنى بهم الغرباء الذين نزلوا القيروان فأخذوا عن شيوخها، ثم رحلوا إلى بغداد وأخذوا عن شيوخها، سواء كانوا من الأندلس أو من غيرها، وهم على سبيل المثال لا الحصر:

ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن خالد بن مسافر الوهراني البجاني، يعرف بابن الخراز، كان صاحب سنة، صالحاً، له رحلة قديمة امتدت نحو عشرين سنة، دخل القيروان،

---

(١) طبقات أبي العرب: ١٠٩، ١١١ ـ ١١٤، معالم الإيمان: ١/ ٣٢١ ـ ٣٢٨، الديباج: ١/ ١٥٨.

(٢) تاريخ بغداد: ١/ ٣٤٣، الديباج: ٢/ ٢١٠ ـ ٢١١، شذرات الذهب: ٣/ ٧٤ ـ ٧٥، معجم المؤلفين: ٥/ ١٩ ـ ٢٠، شجرة النور الزكية: ٩٢.

(٣) المدارك: ٨/ ٥٣ ـ ٥٤، الديباج: ٢/ ٢٣٨.

وسمع بها عن أبي العباس بن أبي العرب وغيره، وأخذ عن مشايخ كثيرة بالعراق كالأبهري، وروى عنه كتبه، ولقي بها جماعة سواه، وسمع بمصر والحجاز وغيرها، وأخذ عنه جماعة بالأندلس كحاتم الطرابلسي، ومحمد بن غلبون الخولاني وغيرهم(١).

ـ أبو محمد عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأصيلي، أصله من الأندلس وبها تفقه وبالقيروان، ولقي شيوخ أفريقيا كأبي العرب، وعلي بن مسرور، والشيخ أبو محمد عبدالله ابن أبي زيد، وكتب عنه ابن أبي زيد عن شيوخه الأندلسيين، ودخل مصر والعراق ولقي بها الأبهري رئيس المالكية وأخذ عنه الأبهري ثم رجع إلى بلده الأندلس، كان من حفاظ مذهب مالك، والمتكلم على الأصول، ترك التقليد، من أعلم الناس بالحديث وأبصرهم بعلله ورجاله، أكثر الجمع والرواية، متفننا نبيلاً، ولي قضاء سرقسطة، وقام بالشورى بقرطبة حتى كان نظير ابن أبي زيد بالقيروان وعلى هديه، صنف كتاب الآثار والدلائل في الخلاف، وكتاباً على الموطأ سماه بالدليل، وتوفي بالأندلس سنة ٣٧٢ هـ(٢).

ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد المؤمن، مكي، من المتكلمين على مذهب أهل السنة، دخل العراق، فأخذ عن أبي عبد الله بن مجاهد البصري الفقيه وغيره، وسكن آخراً القيروان، وصحب أبا محمد بن أبي زيد وغيره من أئمتها، وناظرهم وذاكرهم وأثنوا عليه، وأخذ عن الشيخ ابن أبي زيد، وله بالقيروان بها أخبار معروفة(٣).

المطلب الرابع

من استقر بالقيروان من العلماء العراقيين

إن هؤلاء الذين نزحوا من العراق لأسباب مختلفة، ونزلوا القيروان، أثروا الحركة الفقهية فيها، وتخرج على أيديهم عدد من علماء القيروان الذين يشار إليهم بالبنان، كمحمد بن سحنون وغيره، وساهموا في تكريس تطبيق المذهب المالكي وانتشاره، خاصة ممن تولى منهم منصب القضاء في القيروان أو في نواحيها، وهم على النحو التالي:

---

(١) المدارك: ٧/٢١٨ ـ ٢١٩.

(٢) طبقات الشيرازي: ١٦٦، الديباج: ٢/٤٣٣ ـ ٤٣٤، جذوة المقتبس: ٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(٣) المدارك: ٦/١٨١.

ـ أبو كريب عبد الرحمن بن كريب البصري، كان رجلاً صالحاً، ثقة، مأموناً، عدلاً، فاضلاً، ولي قضاء القيروان، روى عن أبي عبد الرحمن الحبلي وغيره، وروى عنه جماعة من العلماء، مات مقتولاً سنة ١٣٩هـ(١).

ـ أبو معمر عبّاد بن عبد الصمد التميمي، أصله من البصرة، من جملة التابعين، سكن القيروان واستوطنها، ثم خرج إلى قسطنطينة وبها أدركته المنية، روى عن غير واحد من التابعين، وروى عنه من أهل القيروان أبو زكرياء يحيى بن سليمان، ورباح بن ثابت الأزدي، وجعفر بن محمد بن عياض، ويحيى بن سليمان المعافري وغيرهم، ويقال إن بعض الناس قد ترك الأخذ عنه، لأنه أغرب عن أنس بن مالك رضي الله عنه بأحاديث لم تُسمع إلا منه، ومع ذلك كان مشهوراً بكثرة من أخذ عنه، ودخل كامل المغرب(٢).

ـ أبو طاهر البغدادي، كان عالماً، متكلماً، أصولياً، مدرساً، واعظاً، منقطعاً في طرق البلد، أخذ عن القاضي أبو بكر الباقلاني، قال الكلاعي: أدركته بالقيروان لا يدرس لكبره. وقال أبو عمران الفاسي القيرواني: لو كان علم الكلام طيلسانا ما تطيلس به إلا أبو طاهر البغدادي. أخذ عنه محمد بن سحنون، وابن الحداد وغيرهما. ولم يكن بالقيروان عالم بعلم الأصول إلا وقد أخذ ذلك عنه(٣).

ـ أبو عبد الله الأذري، كان ذا علم وأدب، أخذ عن القاضي أبي بكر الباقلاني، نزل القيروان وانتفع به أهلها، وترك تلاميذ مبرزين مشاهير من بعده، توفي بالقيروان غريباً(٤).

ـ أبو الربيع سليمان بن عمران الملقب بخروفه(٥)، أصله من العراق، تولى الكتابة لسحنون لما وليّ القضاء، ولاّه سحنون قضاء باجة بعد ذلك، ثم تولى قضاء أفريقيا بعد موت

---

(١) طبقات أبي العرب: ٢١٧ ـ ٢١٩، معالم الإيمان: ١ / ٢٢٤ ـ ٢٢٩.

(٢) طبقات أبي العرب: ٩٤، معالم الإيمان: ١ / ٢٢١ ـ ٢٢٣.

(٣) ابن عساكر، تبيين كذب المفتري: ١٢١.

(٤) ن، م: ١٢٠ ـ ١٢١.

(٥) وإنما لقب بخروفه، لأنه كان لا يلقي أسد بن الفرات في موضع إلا ويلقى أسد ماشياً وراءه، فشبه أتباعه له باتباع الخروف لأمه فشبه بذلك. (ابن حارث أبو عبدالله محمد بن أسد، قضاة قرطبة وعلماء إفريقيا: ٢٣٦، صححه وراجع أصله: عزت العطار الحسيني ـ ط ح ـ نشر: مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

سحنون ، وقضى فترة من الزمن لا يقضي قضاءً بباجة حتى يشاور سحنون، كان من أحضر فقهاء إفريقيا جواباً، وألطفهم حساً، وأحدّهم ذهناً، وكان يقول: لو شئت أن أقضي بين الخصمين بلا بينة لفعلت، توفي بالقيروان سنة ٢٧٠ هـ[١].

ـ المسدد بن أحمد بن جعفر بن الحسين بن دلامة ابن الخزرج البصري، كان من أهل العلم، سمع بالعراق والبصرة وشيراز من شيوخها؛ كابن الجلاب «خاله»، وأبي علي السلمي القاضي، وأبو بكر الطهراني، وغيرهم، استجازه ابن الحصار وابنه أبو القاسم فأجازهما، روى عنه الدلائي وغيره، دخل المغرب فاستوطن القيروان وبها مات[٢].

المطلب الخامس

من استقر بالعراق من القيروانيين

لقد أثرى هؤلاء الحركة العلمية في بغداد وتتلمذ على أيديهم عدد من الطلبة البغداديين، وقد وقفت في كتب التراجم على واحد فقط من هؤلاء، وهو: أبو عبد الله محمد بن أبي الفرج المازري.

ـ أبو عبد الله محمد بن أبي الفرج المازري، المعروف بالذكي، الفقيه الفاضل المتقدم في علم المذهب واللسان، صقلي الأصل، نزل القيروان، أخذ عن شيوخ بلده وشيوخ القيروان، كأبي القاسم السيوري وغيره، دخل بغداد فوجد مذهب مالك قد درس فلم يحصل له رئاسة بها، ولم يكن له تلاميذ بالعراق، كما جاء في المدارك ومعالم الإيمان[٣]، لكنه اشتغل بالنحو وعلم اللسان، ثم أشخصه الملك أبو الفتح إلى أصبهان لتدريس بنيه النحو، ألف عدة تآليف منها: الاستيلاء في علم القرآن، وله تعليق كبير في المذهب خرج على ألف سؤال، توفي بأصبهان سنة ٥١٦ هـ[٤].

(١) قضاة قرطبة: ٢٣٦ ـ ٢٤٠، شجرة النور الزكية: ٧٠ ـ ٧١.
(٢) المدارك: ٧/٢٢٨.
(٣) الدباغ: ٣/٢٠٣، عياض: ٨/١٠٢.
(٤) المدارك: ٨/١٠١ ـ ١٠٣، معالم الإيمان: ٣/٢٠٢ ـ ٢٠٣، شجرة النور الزكية: ١٢٥.

المبحث الثالث

المكاتبات والإجازات العلمية

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: المكاتبات بين علماء المدرستين.

المطلب الثاني: الإجازات العلمية.

إن المراسلات بين علماء بغداد والقيروان كانت قائمة، وقد تناولت موضوعات مختلفة كالإجازات العلمية والنوازل الفقهية والردود العلمية على أفكار اعتزالية، وإرسال كتب فقهية جديدة، وصلات اجتماعية إنسانية، وهي تكشف في مجموعها عن مدى الارتباط الوثيق بين المدرستين، وتوضح الصلات الوشيجة التي تجمع علمائهما، بحيث يعلم كل بلد ما يطرأ في البلد الآخر في ميدان الفكر خاصة والحياة عامة.

وشواهد ذلك كثيرة:

أولاً: أن ما ضمّه كتاب النوادر والزيادات من أقوال وروايات منسوبة إلى بكر بن العلاء القشيري خاصة فيما يتعلق بروايته لمختصر ابن عبد الحكم، وأبي بكر الأبهري، كان طريقها مكاتبتهم بها إليه(١).

قال ابن أبي زيد: «وما ذكرت فيه لبكر بن العلاء وأبي بكر الأبهري وأبي إسحاق ابن القُرطي فقد كتبوا إليّ به»(٢).

ثانياً: كتب محرز بن خلف القيرواني(٣) في نازلة واقعة بالقيروان إلى أبي بكر الأبهري، يسأله عما يأخذ بنو عبيد(٤) من الزكاة، هل تجزئ؟ فأجاب بأنها لا تجزئ(٥).

(١) ترتيب المدارك: ٥/ ٢٧٠-٢٧٢، الديباج: ١/ ٣١٣-٣١٥، مقدمة النوادر: ١/ ١٤.

(٢) ن، م: ١/ ١٤/ ١٥.

(٣) أبو محمد محرز بن خلف بن أبي رزين التونسي، المعروف بالعابد، روى عن أبي إسحاق الدينوري وغيره، وعنه روى حاتم، كان من خاتمة صلحاء علماء أفريقيا وزهادها، متقشفاً، فاضلاً، زاهداً في الدنيا، مستجاب الدعوة، عاش في القرن الرابع الهجري (المدارك: ٧/ ٢٦٤).

(٤) حكموا القيروان فترة من الزمن، وكانوا فاطميين شيعة، ظالمين للرعية، مفسدين.

(٥) المدارك: ٧/ ٢٦٦-٢٦٧.

ثالثاً: أن علي بن أحمد بن إسماعيل المعتزلي البغدادي نزيل مصر، كتب إلى فقهاء القيروان رسالة يدعوهم فيها إلى الاعتزال، والقول بالقدر، والقرآن مخلوق، وغير ذلك من مذهب المعتزلة، فجاوبه ابن أبي زيد القيرواني برسالة أخرى أسماها (مناقضة رسالة البغدادي المعتزلي) ظهر فيها علمه وقوته في علم الكلام بالرد على أهل الأهواء، ونفى عن مالك وأصحابه جميع ما نسب إليهم. واحتج على نقض قوله في القدر من كلام الإمام مالك البديع في رسالته في القدر إلى ابن وهب(١).

رابعاً: أن الشيخ ابن أبي زيد لما فرغ من تأليف الرسالة كتب منها نسختين، وبعث بواحدة إلى أبي بكر الأبهري ببغداد، والأخرى إلى القاضي ابن زرب الفقيه الأندلسي(٢).

خامساً: وفي إطار الصلات الاجتماعية الإنسانية خاطب القاضي أبو محمد عبدالوهاب فقهاء القيروان في الوصول إليها بعد أن غادر العراق فرغبه في ذلك أبو عمران الفاسي، وكسره أبو بكر بن عبدالرحمن(٣). ولما وصل القاضي أبو محمد إلى مصر خاطبه

---

(١) محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين: ٢/٤٤٧ ـ ط ١ ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، لبنان ١٩٨٢م.

ـ أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي من أهل مصر، روى عن أربعمائة عالم منهم، مالك والليث ابن سعد، من جلة الناس وثقاتهم، قال عنه ابن عدي: لا أعلم له حديثاً منكراً، جمع بين الفقه والرواية والعبادة، له تآليف كثيرة منها سماعه عن مالك، موطاه الكبير، توفي سنة ١٩٧ هـ. (الفهرست: ٤٢٤، العبر: ١/٢٥١).

(٢) معالم الإيمان: ٣/١١١ ـ ١١٢.

ـ أبو بكر محمد بن زرب القرطبي، الإمام الحافظ المشاور، كان أحفظ زمانه لمذهب مالك، بصيراً بالعربية والحساب، ولي قضاء قرطبة في أيام المؤيد الأموي، من آثاره: الخصال في فروع المالكية وغيره، توفي سنة ٣١٨هـ (جذوة المقتبس: ١٠٠).

(٣) المدارك: ٧/٢٢٦.

ـ أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله القيرواني، شيخ المالكية، تفقه بأبي الحسن القابسي، وعليه تفقه أبو القاسم بن محرز، كان فقيهاً، حافظاً للمذهب، حاز الذكر ورئاسة الدين في المغرب، توفي سنة ٤٣٢ هـ (طبقات الشيرازي: ١٦١، سير أعلام النبلاء: ١٧/٥١٩ ـ ٥٢٠).

ابنا الشيخ محمد بن أبي زيد بعد وفاة والدهما، وقد انعقد بينه وبينهم صلة، بسبب شرحه تواليف أبيهم، ووصلوه بمال، واستدعوه لدخول الغرب، فكتب إليهم:

أنا ذاك الصديق لكن قلبي عند قرب الديار ليس بقلب
ما انتفعنا بقربكم ثم لا لو م عليكم وإنما الذنب ذنبي
أنا في خطة وأسأل ربي في خلاصي من شرها ثم حسبي(١)

ـ وكتب أبو بكر الأبهري إلى ابن أبي زيد القيرواني رسالة ضمنها مجموعة من الأبيات الشعرية وهي:

أعجب ما في الأمور عندي إظهار ما تدعي القلوب
تأبى نفوس نفوس قوم وما لها عندهم ذنوب
وتصطفي أنفس نفوساً وما لها عندهم عيوب
ما ذاك إلا لمضمرآت يعلمها الشاهد الرقيب(٢)

ورسالة أبي بكر هذه رداً على رسالة ابن أبي زيد التي أخبره فيها بموقف القاضي محمد بن زرب الفقيه الأ ندلسي، عندما بعث له بنسخة من الرسالة الفقهية، فأخفاها ابن زرب لما وصلت إليه، وشرع في تأليف كتاب «الخصال على مذهب مالك» عوضها، معارضاً به كتاب الخصال لابن كابس الحنفي(٣). والملاحظ أن رسالة أبي بكر الأبهري هذه تحمل في مضمونها المواساة والمشاركة الوجدانية، فيما ألم بالشيخ ابن أبي زيد من حزن وأسى نتيجة فعل القاضي ابن زرب، وأخبره أن هذه الظاهرة تواجه كل من له عطاءات متميزة وإبداعات مستمرة في كل الأزمنة، فخفف ذلك عنه، وهذه الحادثة تعكس مدى التواصل الروحي بين أعلام المدرستين، فضلاً عن التواصل المادي.

---

(١) المدارك: ٧/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.
(٢) معالم الإيمان: ٣/ ١١٢.
(٣) شجرة النور الزكية: ١٠٠.

المطلب الثاني

الإجازات العلمية

إن الإجازة أسلوب من الأساليب التي تثبت الإحاطة بعلم من العلوم، ومنها العلوم الشرعية بصفة خاصة، وطريق غير مباشر في انتقال مؤلفات العلماء فيما بينهم، وانتشارها بين طلبة العلم بعد ذلك، فكانوا يطلبونها ويسعون للحصول عليها من العلماء المبرزين، سواء كانت الاستجازة مباشرة أو بالمراسلة.

قال الإمام المقري: «ولم يزل الفضلاء من الأئمة والنبهاء من أعلام هذه الأمة، يستجيزون الأشياخ عند تعذر اللقاء وبُعد الديار»[١]. وهذا التوجه كان قائماً بين مدرستي المالكية بالعراق والقيروان، والأمثلة على ذلك متعددة:

(أ) الإجازات التي نالها الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني من لدن أعلام المدرسة المالكية بالعراق.

١ - أبو الفضل بكر بن محمد بن العلاء القشيري ت ٣٤٤ هـ أجاز ابن أبي زيد في روايته لمختصر ابن عبد الحكم عن طريق المراسلة[٢].

٢ - أجاز أبو بكر محمد بن عبد الله الأبهري ت ٣٧٥ هـ ابن أبي زيد عندما استجازه[٣].

٣ - استجاز أبو زيد المروزي فأجازه[٤].

٤ - أجازه جماعة من علماء بغداد[٥].

---

(١) أزهار الرياض: ٣/ ١٧١.

(٢) انظر مقدمة النوادر والزيادات: ١/ ١٤/

(٣) المدارك: ٦/ ١٨٤، معالم الإيمان: ٣/ ١٠٩.

(٤) شجرة النور الزكية: ٩٦.

(٥) معالم الإيمان: ٣/ ١٠٩.

(ب) الإجازات التي منحها الشيخ ابن أبي زيد لبعض رجالات المدرسة العراقية، من أمثال:

١ - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مجاهد الطائي ت ٣٧٠ هـ حيث استجاز ابن أبي زيد في كتاب المختصر والنوادر برسالة مؤرخة سنة ٣٦٨ هـ فأجازه[١].

٢ - أبو الفضل محمد بن عبد الله بن عمروس البزار البغدادي، حيث حمل كتب أبي محمد ابن أبي زيد إجازة[٢].

٣ - أجاز غير واحد من أصحاب ابن مجاهد البغداديين[٣].

(ج) إجازات أبي عمران الفاسي لمن لم يلقه بعد أن استجازوه[٤].

---

(١) الديباج: ٢/ ٢١٠، شجرة النور الزكية: ٩٢.

(٢) المدارك: ٨/٥٣.

(٣) الديباج: ١/٤٢٨.

(٤) الديباج: ٢/٣٣٧.

المبحث الرابع

انتقال المؤلفات العلمية والعناية بها من المدرستين

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: انتقال المؤلفات العلمية بين بغداد والقيروان.

المطلب الثاني: العناية العلمية بتآليف أقطاب المدرستين.

إن انتقال المؤلفات العلمية المتميزة لأعلام المدرستين بين بغداد والقيروان كان عن طريق طلبة العلم[١] وغيره من الوسائل التي نجهلها، وكانت هذه المؤلفات معتمدة كمناهج للدرس في حلق كبار العلماء، أقبل الطلاب عليها خاصة والناس عامة، لثناء العلماء عليها وعلى مؤلفيها ومدحهم لها وحثهم على شرائها، ومن هذه المؤلفات القيمة ما يلي:

١ ـ الأسدية لأسد بن الفرات ت ٢١٣ هـ، كانت متداولة بين أئمة المدرسة المالكية بالعراق، وتحتل مكانة مرموقة عندهم. قال أبو بكر الأبهري فيما نقله عياض: «قرأت الأسدية خمساً وسبعين»[٢].

٢ ـ التفريع لابن الجلاب[٣]، كان من المناهج التي يعتمدها الفقيه القيرواني ابن ناجي في التدريس، وهو لم ينقل عنه أنه غادر القطر التونسي، فلا بد أن يكون الكتاب قد وصل إليه[٤]. وكان يُدرس أيضاً بجامع الزيتونة، فقد ذكر القلصادي في رحلته: أن أبا عبد الله

---

(١) كأبي عمر أحمد بن سعدي الأشبيلي المهدي الذي لزم أبا بكر الابهري بالعراق، وحمل عنه كتبه وتفقه عليه (المدارك: ٧/١٠١ ـ ١٠٢). وكذلك الحال بالنسبة لأبي الفضل محمد بن عمروس البغدادي الذي درس على القاضي أبي الحسن القصار والقاضي أبي نصر، وحمل عنهما كتبهما، ثم قدم القيروان، فأخذ عن أبي محمد بن أبي زيد وحمل عنه كتبه إجازة (المدارك: ٨/٥٣).

(٢) المدارك: ٦/١٨٦.

(٣) أبو القاسم عبد الله بن الحسن بن الجلاب، من أهل العراق، الإمام الفقيه الأصولي، الحافظ، كان من احفظ أصحاب الأبهري وانبلهم، وبه تفقه القاضي عبد الوهاب وغيره، له كتاب في مسائل الخلاف، توفي سنة ٣٧٨هـ (الديباج: ١/٤٧١، شجرة النور الزكية: ٩٢).

(٤) إعلام الفكر الإسلامي: ١٠٥.

محمد بن إبراهيم بن عباس[١] المدرس بجامع الزيتونة «شيخ القلصادي» كان يدرس الجلاب، وكان القلصادي يحضر تلك الدروس[٢]، بل وكان المدار على التفريع في القيروان إلى فترة متقدمة.

٣ ـ الرسالة لابن أبي زيد القيرواني ت ٣٨٦ هـ، وقد حظيت بانتشار واسع قلّ أن يكون له مثيل في العالم الإسلامي. قال الشيخ أبو زيد الدباغ: «انتشرت الرسالة في سائر بلاد المسلمين حتى بلغت العراق واليمن والحجاز والشام ومصر وبلاد النوبة وصقلية وجميع بلاد إفريقيا والأندلس والمغرب وبلاد السودان، وتنافس الناس في اقتنائها حتى كتبت بالذهب، وأول نسخة نسخت منها بيعت ببغداد في حلقة أبي بكر الأبهري بعشرين ديناراً ذهباً»[٣].

ولما وصلت إلى الشيخ أبي بكر الأبهري نسخة منها من مؤلفها، أظهر الفرح بها، وأشاع خبرها بين الناس، وأثنى عليها وعلى مؤلفها، وأمر ببيعها ليحسن بثمنها إلى الواصل بها، فبيعت بمائتي دينار.

ومدحها القاضي أبو محمد عبد الوهاب البغدادي في مجموعة من الأبيات مبينا قيمتها العلمية:

رسالة علم صاغها العلم النهد ... قد اجتمعت فيها الفراض والزهد
أصول أضاءت بالهدى فكأنما ... بدى لعيون الناظرين بها الرشد
وفي صدرها علم الديانة واضحاً ... وآداب خير الخلق ليس لها ندّ
لقد أمّ بانيها السداد فذكره ... بها خالد ما حجّ واعتمر الوفد[٤]

---

(١) كان إماماً فقيهاً جليلاً، اخذ عن الإمام ابن عرفة وله تتلمذ، توفي سنة ٨٥١ هـ (القرافي بدر الدين، توشيج الديباج: ٢٢٨).

(٢) رحلة القلصادي: ١٢١.

(٣) معالم الإيمان: ٣/ ١١١.

(٤) معالم الإيمان: ١١١ ـ ١١٢.

٤ ـ كتاب الإمامة لمحمد بن سحنون[١] الذي انتشر انتشاراً كبيراً، وبلغ التقدير الذي ناله أن كتب بماء الذهب وأهدي إلى الخليفة[٢].

المطلب الثاني
العناية العلمية بتآليف أقطاب المدرستين

لقد تجلت هذه الرعاية العلمية في شرح هذه الكتب الفقهية، أو عمل تعاليق على بعض الشروح من قبل علماء المدرستين، مما أكسبها قيمة علمية إضافية «تمثلت في استدلال نقلي أو عقلي لبعض المسائل الواردة فيها، أو شرح لمصطلحات فقهية أو ما شابه ذلك». وانشاراً أوسع، وتنتظم هذه العناية في فرعين:

الفرع الأول: عناية المدرسة العراقية بمؤلفات القيروانيين:

لقد أولى رجالات وأعلام المدرسة المالكية بالعراق اهتماماً خاصاً بكتابات أئمة القيروان كابن أبي زيد القيرواني، فقام العلامة أبو بكر الأبهري ت ٣٧٥ هـ بتوثيق الرسالة الفقهية من خلال كتاب أسماه «مسلك الجلالة في مسند الرسالة»[٣]. فتتبع فيه جميع مسائل الرسالة التي بلغت أربعة آلاف مسألة، فرفع لفظها ومعناها إلى رسول الله ﷺ أو إلى أصحابه رضي الله عنهم[٤]. ولعله اقتدى في ذلك وتأسى بالإمام القيرواني سحنون حين احتج لمسائل المدونة بالأحاديث والآثار، ويعتبر هذا مظهر من مظاهر التأثير القيرواني في المدرسة العراقية، ثم سار على نهجه القاضي أبو محمد عبد الوهاب البغدادي ت ٤٢٢هـ،

---

(١) أبو عبد الله محمد بن سحنون بن عبد السلام، تفقه بأبيه، كان إماماً في الفقه، ثقة، عالماً بالذب عن مذاهب أهل المدينة، جلس مجلس أبيه بعد موته، وكان يناظر أباه، له تآليف عدة منها: الجامع، وتفسير الموطأ، وغيرها، توفي سنة ٢٥٦ هـ (طبقات الشيرازي: ١٥٧ ـ ١٥٨).

(٢) معالم الإيمان: ٢/١٢٧.

(٣) انظر المدارك: ٦/١٨٣ وما بعدها.

(٤) مقدمة الرسالة الفقهية لمحمد أبو الأجفان: ٤٣.

فشرح الرسالة في نحو من ألف ورقة منصوري[١]، وقد سلك في شرحه مسلك الإسهاب والإطناب[٢].

وقد لقي هذا الشرح شهرة كبيرة ورواجاً عظيماً في أقطار العالم الإسلامي حتى بيعت أول نسخة منه بمائة مثقال ذهباً[٣]، ولا عجب في ذلك فالمؤلف والشارح علمان يشار إليهما بالبنان، الرسالة كان من بين أهداف تأليفها توعية شريحة مهمة من شرائح المجتمع ألا وهي أولاد المسلمين.

وتتابع الاهتمام من لدن القاضي أبو محمد عبد الوهاب بمؤلفات الشيخ ابن أبي زيد فشرح مختصره في كتابه الموسوم بـ « الممهد في شرح مختصر أبي محمد » لكنه لم يكمله، وصنع فيه نصفه[٤].

الفرع الثاني: اهتمام المدرسة القيروانية بمؤلفات العراقيين

لقد بذل علماء المدرسة المالكية بالقيروان جهداً طيباً في خدمة مؤلفات أئمة المدرسة العراقية، ثم شرح الإمام أبو عبدالله المازري[٥] كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب. وقد أثنى على هذا الشرح صاحب الديباج (٢ / ٢٥١) بقوله: « ليس للمالكية مثله، لكنه لم يكمله ».

---

(١) معالم الإيمان: ٣ / ١١٢، وانظر المدارك: ٧ / ٢٢٢ أما عن سبب شرحه لها فهو ان ابن أبي زيد القيرواني كان قد بعث إليه بألف دينار عيناً على سبيل الهدية، فقال: هذا رجل وجبت علي مكافاته، فشرح الرسالة (معالم الإيمان: ٣ / ١١٣).

(٢) مقدمة الرسالة الفقهية لمحمد ابو الأجفان: ٤٣.

(٣) معالم الإيمان ٣ / ١١٢.

(٤) المدارك: ٧ / ٢٢٢، الديباج: ٢ / ٢٨، شجرة النور الزكية: ١٠٤.

(٥) محمد بن علي بن عمر التميمي، لقب بالإمام، خاتمة العلماء المحققين والأئمة الأعلام، الحافظ، النظار، المجتهد، أخذ عن أبي الحسن اللخمي وعبد الحميد الصائغ وغيرهما، وعنه أخذ أبو محمد عبد السلام البرجيني وغيره، اشتغل بالطب، كان حسن الخلق، وقلمه في العلم أبلغ من لسانه، له عدة تآليف منها: المعلم شرح صحيح مسلم، وإيضاح المحصول في برهان الأصول، توفي سنة ٥٣٦ هـ. (الديباج: ٢ / ٢٥٠ - ٢٥١، شجرة النور الزكية: ١٢٧ - ١٢٨).

وتواصل الاهتمام بالتلقين على يد الفقيه أبي العباس بن عبد الجبار التونسي[١] الذي أكمل ما فات المازري على التلقين[٢]. واستمر التواصل العلمي في هذا الميدان على يد الفقيه القيرواني ابن ناجي ت ٨٣٧ هـ عندما شرح التفريع لابن الجلاب[٣].

المبحث الخامس

المناظرات والمذاكرات العلمية

إن المناظرات والمذاكرات والحوارات العلمية التي كانت تعقد في بغداد أو القيروان من طرف أعلام المدرستين، قد تعددت أطرها واهتماماتها، لكن يمكن حصرها فيما يلي:

الإطار الأول: مناقشة أصحاب المذاهب الإسلامية كالمذهب الحنفي أو الشافعي في بعض المسائل الفقهية. مثال ذلك: أنه لما وصل الفقيه أبو عمران الفاسي القيرواني إلى بغداد، واتجه إلى مسجد القاضي أبي بكر الباقلاني شيخ المالكية بالعراق، جرت مسائل في المسجد فأجاب عنها أبو عمران، ثم سأل رجل شافعي، عن مسألة من الاستحقاق، فأجابه أبو عمران بجواب صحيح لكنه مجرد عن الدليل، فطلبه السائل بالحجة عليه، فأطرق الشيخ، فقام شاب من أهل بغداد من المالكية، فقال للسائل: أصلحك الله، هذا شيخ من كبار شيوخنا، ومن الجفاء أن تكلفه المناظرة من أول وهلة، ولكن أخدمه أنا في نظر هذه المسألة وأنوب عنه فيها، وقام بالرد عليه حتى أقر الشافعي بما قال[٤].

الإطار الثاني: انتصار أئمة المدرستين كل لمنهجه وطريقته الفقهية، فمن ذلك أن أبا القاسم عبد الرحمن بن عبد المؤمن، المكي الأصل، الذي صاحب المشيخة المشتركة والذي

---

(١) أحمد بن عثمان الملياني، الشيخ الجليل الفقيه الحافظ المحصّل المجتهد، رحل إلى المشرق ولقي الفضلاء، له في التلقين تقدم ونظر لم يكن لغيره، ولم يكن له مثله في غيره من الكتب، وله عليه تقييد فيه تنبيهات خفية. (توشيح الديباج ٧٢ - ٧٣).

(٢) ن، م: ٧٣.

(٣) أعلام الفكر الإسلام: ١٠٥.

(٤) معالم الإيمان: ٣/ ١٦٠.

استقر بالقيروان، ناظر الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني وغيره من أئمة القيروان. وذاكرهم وذاكروه[١].

الإطار الثالث: النوازل الفقهية التي تقع في أحد البلدين، ومثال ذلك: أنه لما كتب الفقيه محرز بن خلف إلى الفقيه أبي بكر الأبهري يسأله عما يأخذه بنو عبيد من الزكاة. أجاب إنها لا تجزئ، فوقعت مذاكرات بين فقهاء القيروان حول هذا الموضوع ما بين موافق لفتوى الأبهري كالجبنياني والقابسي معللين ذلك بأن بني عبيد لا يقرون بالزكاة المفروضة، وإنما يأخذونها على أنها جزية وهم على غير الإسلام، وخالفهم في ذلك ابن أبي زيد القيرواني، وأفتى بإجزائها نظراً للمصلحة، فقال: لأنا لو قلنا إنها لا تجزئ لم يؤدوا شيئاً، فلأن يؤدوا بتأويل خير من تركها عامدين. ثم قال: وكنت أستحب ذلك إذا كانوا يشحون بيت المال، وقد أعطوا ذلك اليهود والنصارى، وأنفقوها في الخمور، وحالوا بينها وبين أهلها فلا تجزئ، ويكون ما أخذوا منها كما غصبه الغاصب، وعلى أهل الأموال إخراج ما بقي، إن كان فيه ما فيه الزكاة[٢].

الإطار الرابع: الدفاع عن أعلام المذهب المالكي في مواجهة من يريد التشكيك في عقيدتهم ودحض الشبهات التي أثيرت حولهم، سواء كان ذلك بحسن نية أو سوء نية، حيث دارت حوارات علمية ساخنة بين علماء المدرسة المالكية بالعراق من ناحية، وبعض فرق الصوفية وبعض أصحاب الحديث من ناحية أخرى بسبب دعوى هذه الفرق أن الشيخ ابن أبي زيد القيرواني أنكر كرامات الأولياء في كتابيه كشف التلبيس والاستظهار في الرد على البكرية[٣]، وتصدوا للرد على هؤلاء بإصدار مؤلفات تبطل دعواهم هذه، وتصلح ما حدث من خطأ وقصور في فهم كلام الشيخ، فهو إنما أنكر على أبي القاسم عبد الرحمن بن محمد البكري الصقلي الفقيه الصوفي كرامة الأولياء من قلب الأعيان ورؤية الله عز وجل في اليقظة، وفكرة خوارق العادات التي تقر التواكل وتقلل من أهمية ربط الأسباب بمسبباتها في هذا

(١) المدارك: ٦/١٨١.

(٢) المدارك: ٧/٢٦٦-٢٦٧.

(٣) وقد أخطأ صاحبي المدارك والديباج حينما سمياه: الاستظهار في الرد على الفكرية كما جزم بذلك الأستاذ محفوظ في كتابه (تراجم المؤلفين التونسيين: ٢/٤٤٤-٤٤٥).

الكون، وكان أرشد الموجهين لكلام ابن أبي زيد، القاضي أبو بكر الباقلاني.

جاء في المدارك: «وأشاعوا أنه نفى الكرامات وهو رضي الله عنه لم يفعل، بل من طالع كتبه عرف مقصده، وكان أرشدهم في ذلك وأعرفهم بغرضه ومقداره، إمام وقته القاضي أبوبكر الباقلاني، فإنه بيّن مقصوده»(١).

نتائج البحث

لقد توصلت من خلال هذا البحث إلى مجموعة من النتائج التي تبرز عمق التأثير المتبادل بين المدرستين المالكيتين العراقية والقيروانية وهي كما يلي:

١ ـ ابتدأت الرحلات العلمية بين القيروان وبغداد في وقت مبكر، في القرن الثاني الهجري وازدهرت في القرن الرابع، ثم بدأت تتراجع في آخر القرن الخامس وبداية القرن السادس، لما ضعف المذهب المالكي في العراق، وقل طلابه بعد وفاة كبار علماء تلك المدرسة، وذهب سلطان القضاء من تحت أيديهم إلى المذاهب الأخرى.

٢ ـ إن الرحلة في طلب العلم تجاه العراق كانت أكثر منها تجاه القيروان.

٣ ـ إن أعداد الطلبة القيروانيين الذين أخذوا عن شيوخ المدرسة المالكية بالعراق وصل إلى ثمانية أشخاص نصت عليهم كتب التراجم فيما وقفت عليه، ويضاف إليهم على العلماء المالكيين العراقيين الذين استقروا بالقيروان، أما عدد الطلبة العراقيين الذين وفدوا إلى القيروان، وعينتهم كتب التراجم فعددهم كان أقل.

٤ ـ إن اللقاءات بين علماء البلدين في الرحلات، وثقت الصلة الفكرية بني المدرستين، وأوجدت حلول لمعضلات فقهية واجهت المدرسة المالكية بالعراق، فمن ذلك ما أورده صاحب معالم الإيمان (٣/ ٥٥) أن أبا عبد الله محمد بن مجاهد الطائي ت ٣٧٠هـ، لقي أبا القاسم بن الكاتب الفقيه القيرواني ت ٤٠٨هـ بمصر، وسأله عن فروق أجوبة في مسائل مشتبهة من المذهب، فقال الطائي: وقد كان أعضل جوابها كل من لقيت من علماء العراق،

(١) عياض: ٦/ ٢١٩.

فأجابني فيها أبو القاسم ارتجالاً على ما كان عليه من شغل البال بالسفر، وقد وقفت على جوابه في جزء منطو على واحد وأربعين فرقاً.

وهذه الواقعة تؤكد أن المدرسة القيروانية لم تخل من منظرين للمذهب، ومجتهدين اجتهاداً مقيداً يماثلون نظرائهم من مالكية العراق.

٥ - إن المناخ العلمي الذي سعت إلى تحقيقه المدرسة المالكية بالقيروان وفر أرضية خصبة للمناظرات والمذاكرات الفقهية، مما دفع بعض أعلام المدرسة المالكية بالعراق إلى الاستقرار في القيروان، من أمثال المسدد بن أحمد بن الخزرج البصري، وأبي طاهر البغدادي الأصولي، وذلك أوجد تلاقياً فكرياً بين المدرستين، وأثر إيجاباً على التقارب بينهما.

٦ - إن مؤلفات أئمة المدرسة المالكية بالعراق والتي وصلت إلى القيروان كالتفريع لابن الجلاب، والتلقين للقاضي عبد الوهاب، لقيت نفس الاهتمام الذي نالته مؤلفات أئمة المدرسة المالكية بالقيروان التي وصلت إلى العراق، كالرسالة والمختصر لابن أبي زيد من حيث اعتمادهما كمناهج للدرس، وشرحها والتعليق عليها.

٧ - لقد ظهر تأثير المدرسة المالكية بالعراق على المدرسة القيروانية من خلال عدة نقاط:

أ - موضوعات التأليف:

إن البيئة العلمية في العراق بما ضمته من مذاهب متعددة وتيارات فكرية متباينة، والتي نشأت فيها هذه المدرسة، فرضت عليها طرح موضوعات لم تكن تشغل بال أعلام المدرسة القيروانية كالتأليف في الخلاف، ونصرة المذهب، والرد على المخالفين ومناقب إمام المذهب ومناقب أهل المدينة، وإجماع المدينة لدعم مكانة المذهب المالكي وتكريس تطبيقه في العراق مما جعل أعلام هذه المدرسة يتفوقون في هذا الجانب إلى أواخر القرن الخامس الهجري، وهذا لا يعني أنه لا توجد مؤلفات للمدرسة القيروانية في هذا المجال، إنما وجدت بأعداد أكثر في القرن الرابع الهجري لا سيما في أصول الفقه، لكنها تأثرت بالدراسات المالكية العراقية باعتبارها أسبق كما ذهب إلى ذلك د. بدوي عبد الصمد في منهج كتابة الفقه المالكي ص (١٩٠ - ١٩٦).

ويقر بهذا الرأي علم من أعلام المدرسة القيروانية ألا وهو أبو عمران الفاسي القيرواني ت ٤٠٣ هـ، فيقول كما جاء في المدارك (٧ / ٤٦ ـ ٤٧) : « رحلت إلى بغداد، وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس عند أبي الحسن القابسي وأبي محمد الأصيلي وكانا عالمين بالأصول، فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر ـ الباقلاني ـ ورأيت كلامه في أصول الفقه والموالف والمخالف حقرت نفسي، وقلت : لا أعلم من العلم شيئاً، ورجعت عنده كالمبتدئ » .

ب ـ منهج التأليف :

إن ظاهرة المختصرات الفقهية منهج مشترك في كتابة الفقه المالكي بين المدرستين، وقد لاقت رواجاً كبيراً بين طلاب العلم، وكانت الرسالة الفقهية لابن أبي زيد القيرواني أول مختصر ظهر في المذهب بعد تفريع ابن الجلاب، ولعل الشيخ ابن أبي زيد تأثر بابن الجلاب في فكرة اختصار الفقه الإسلامي .

جـ ـ منهج الاستدلال :

إن الإمام ابن أبي زيد القيرواني استفاد في كتابه « النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات » مما وصلته من روايات عن أعلام المدرسة العراقية بطريقة المكاتبة أو الإجازة أو السماع، ومما وقف عليه من آرائهم في كتبهم كالمبسوط وغيره، مما أثرى هذا الكتاب الفقهي الجامع، ودعم بعض مسائله بالدليل النقلي والعقلي ـ منهج المدرسة المالكية بالعراق ـ وأكسبه ذلك الصيت الواسع لدى المالكية في جميع الأقطار .

وسأورد بعض النقول من النوادر التي تؤكد هذا التوجه عنده :

جاء في النوادر (١ / ٦٢٣) : « ومن كتاب المبسوط لإسماعيل القاضي، قال إسماعيل القاضي : ولا بأس بالصلاة على الجنازة في المسجد إن احتيج إلى ذلك، وما أنكر الناس من أمر سعد، دليل على أن العمل الدائم الصلاة على الجنائز في موضع الجنائز بقرب المسجد ؛ ولعل الصلاة على سهيل كانت قبل أن يتخذ ذلك الموضع، ولعلهم إنما صلوا على عمر في المسجد لأنه أوسع عليهم، لكثرة من صلى عليه، وهذا كله واسع إذا احتيج إليه، وأما ما حدثنا به عاصم بن علي قال حدثنا ابن أبي ذئب، عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ :

« من صلى على جنازة فلا شيء له » فهذا إسناده ضعيف، ولا بأس بذلك إذا احتيج إليه ».

وجاء في النوادر أيضاً في مسألة تتعلق بالرضاع (٥ / ٧٥) : « قال عبد الملك عن مالك : يحرم بعد الحولين مثل الشهر ونحوه. وقال سحنون.

وفي كتاب أبي الفرج البغدادي عن مالك : مثل اليوم واليومين، وما تنقصه الشهور، إذ لا يتفق أن تكون سالمة من النقصان، ولقول الله سبحانه : ﴿ **كاملين** ﴾ .

وكذلك في المبسوط لإسماعيل القاضي عن عبد الملك : أنه إذا جاوزت الحولين بالشيء القليل يعدو زيادة الشهور ونقصانها فكذلك الحكم ».

٨ ـ تأثر إمام المالكية الشيخ ابن أبي زيد القيرواني في بداية تكوين شخصيته العلمية بمنهج المدرسة العراقية خاصة، بالإضافة إلى مناهج المدارس الأخرى حيث إنه درس على الشيخ أبي بكر الأبهري وإبراهيم بن حماد مما انعكس على فقهه وكتاباته.

وفي هذا المعنى يقول الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور في أعلام الفكر الإسلامي (ص ٤٧) « وكان اتجاهه إلى تفريع الفقه وتحقيقه، وضبط مبالغه التقدمية، فعقد صلاته الفكرية منذ نشأته الأولى بمراكز الثقافة الفقهية، وارتوى من منابعها، فكانت صلات أخذه على شيوخ أفريقيا كأبي بكر ابن اللباد، وشيوخ الأندلس كالأصيلي، وشيوخ العراق كأبي بكر الأبهري، فاجتمعت لديه بذلك نفائس الآثار وتلاقي كنفه متباعد الأنظار ».

لكنه بعد ذلك أثر في المدرسة المالكية بالعراق أيما تأثير، من خلال كتبه التي لاقت كل التقدير العلمي من أئمة المدرسة العراقية، كما ذكرت ذلك في أثناء البحث، ومن خلال جماعات الطلبة العراقيين الذين درسوا على يديه، أو استجازوه بطريق غير مباشر.

وفي الختاج أود التأكيد على أن فقهاء المدرستين المالكيتين العراقية والقيروانية، تكاملوا في كثير من الجوانب الفقهية، فأتم كل منهم ما حدث من نقص عند الآخر، وأسهموا بذلك مساهمة واضحة في النهوض والارتقاء بالمذهب المالكي، وقد شهد لهم بذلك أعلام بارزون.

جاء في معالم الإيمان (٣ / ١١٠): «لولا الشيخان أبو محمد بن أبي زيد، وأبو بكر الأبهري، والمحمدان محمد بن سحنون ومحمد بن المواز، والقاضيان أبو الحسن القصار وأبو محمد عبد الوهاب لذهب المذهب المالكي».

ونقل صاحب معالم الإيمان (٣ / ١٦٠) عن القاضي أبي بكر الباقلاني: «لو اجتمعت في مدرستي أنت - أبو عمران الفاسي - وعبد الوهاب بن نصر لاجتمع فيكما علم مالك، أنت تحفظه وهو ينصره، لو رآكما مالك لسر بكما».

والحمد لله رب العالمين

فهرس المصادر والمراجع

ـ ابن الجلاب، أبو القاسم عبد الله بن الحسين.

التفريع ـ تحقيق: حسين الدهماني ـ ط ١ ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

ـ الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي.

تاريخ بغداد ـ دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان.

ـ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد.

مقدمة ابن خلدون ـ دار القلم ـ بيروت لبنان ١٩٨١م.

ـ ابن حارث، أبو عبد الله محمد بن أسد الخشني.

قضاة قرطبة وعلماء أفريقيا ـ عني بنشره وصححه وراجع أصله: عزت العطار الحسيني ـ ط ٢ ـ نشر: مكتبة الخانجي. القاهرة ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

ـ الحميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي.

جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ـ الدار المصرية للتاليف والترجمة ١٩٦٦م.

ـ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ـ تحقيق: د. إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت لبنان.

ـ الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد.

معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ـ أكمله وعلق عليه: أبو الفضل ابن ناجي ـ تحقيق وتعليق: عدد من الأساتذة ـ نشر: المكتبة العتيقة ، تونس ـ مكتبة الخانجي، مصر.

ـ الدمشقي، أبو الفضل مسلم بن علي.

الفروق الفقهية ـ ط ١ ـ دراسة وتحقيق: محمد أبو الأجفان وحمزة أبو فارس ـ ط ١ ـ دار الغرب الإسلامي ـ بيروت لبنان، ١٩٩٢م.

ـ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد.

- العبر في خبر من غبر - تحقيق: فؤاد سيد - ط ٢ مصورة - مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤م.

- ميزان الاعتدال - تحقيق: مجموعة من العلماء بعدة طبعات - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان.

- ابن أبي زيد، أبو محمد عبد الله القيرواني.

- النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات - تحقيق: جماعة من الأساتذة - ط ١ - دار الغرب الإسلامي - ١٩٩٩م.

- الرسالة الفقهية - معها غرر المقالة في شرح غريب الرسالة - تحقيق: الهادي حمو ومحمد أبو الأجفان، ط ١ - دار الغرب الإسلامي، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن.

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - ط ١ - دار إحياء الكتب العربية ١٣٧٨هـ / ١٩٦٧م.

- الشيرازي، أبو إسحاق إبراهيم.

طبقات الفقهاء - مط، معه طبقات الشافعية لأبي بكر بن هداية الله - تصحيح ومراجعة: خليل الميس - دار القلم - بيروت - لبنان.

- الطاهر، بدوي عبد الصمد.

منهج كتابة الفقه المالكي بين التجريد والتدليل - دار البحوث الإسلامية وإحياء التراث، دبي ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

- ابن عاشور، محمد الفاضل.

إعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي - نشر وتوزيع: مكتبة النجاح - تونس، الجمهورية التونسية ١٩٧٠م.

- أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم.

طبقات علماء أفريقيا وتونس - تقديم وتحقيق: علي الشابي ونعيم حسن اليافي - ط ٢ - الدار التونسية للنشر، تونس المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ١٩٨٥م.

- **ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن هبة الله.**

تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري - ط ٢ - دار الفكر، دمشق ١٣٩٩هـ.

- **ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي.**

شذرات الذهبي في أخبار من ذهب - ط ٢ منقحة - دار الميسرة - بيروت لبنان ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩م.

- **عياض، أبو الفضل بن موسى السبتي.**

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك - وزارة الأوقاف المغربية.

- **ابن فرحون ، إبراهيم بن علي.**

الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب - تحقيق وتعليق: د. محمد الأحمدي أبو النور - دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، مصر.

- **القرافي، بدر الدين محمد بن يحيى.**

توشيح الديباج وحلية الابتهاج - تحقيق وتقديم : أحمد الشتيوي - ط ١ - دار الغرب الإسلامي - بيروت، لبنان ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م.

- **القلصادي**، رحلة القلصادي - دراسة وتحقيق: محمد أبو الأجفان - الشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٨م.

- **كحالة ، عمر رضا.**

معجم المؤلفين - نشر: مكتبة المتنبي - بيروت دار إحياء التراث العربي - بيروت لبنان.

- **مالك، بن أنس الأصبحي.**

الموطأ - مط، معه إسعاف المبطأ برجال الموطأ للسيوطي - فهرسة وتقديم: قسم الدراسات بدار الكتاب العربي - ط ١ - دار الريان للتراث، القاهرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

- **الموطأ برواية علي بن زياد.**

تحقيق وتقديم: محمد الشاذلي النيفر - الدار التونسية للنشر.

ـ المالكي ، أبو بكر عبد الله بن محمد .

رياض النفوس ـ تحقيق : بشير البكوش ـ مراجعة محمد العروسي المطوي ـ دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

ـ محفوظ ، محمد .

تراجم المؤلفين التونسيين ـ ط ١ ـ دار الغرب الإسلامي ، بيروت لبنان ١٩٨٢م .

ـ مخلوف ، محمد .

شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

ـ المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد .

أزهار الرياض في أخبار عياض ـ طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين حكومة المغرب ودولة الإمارات .

ـ ابن النديم ، محمد بن إسحاق .

الفهرست ـ تحقيق : ناهد عباس عثمان ـ ط ١ ـ دار قطري بن الفجاءة ١٩٨٥م .

صلات القاضي عبد الوهاب العلمية بمدرسة القيروان وجهوده في خدمتها من خلال شرحه لبعض كتب ابن أبي زيد

إعداد

د. حمزة أبو فارس*

* أستاذ مساعد في قسم الشريعة بكلية القانون بجامعة الفاتح، طرابلس - ليبيا. ولد عام (١٩٤٥م) في مسلاتة بليبيا. حصل على الماجستير في الفقه المقارن من كلية التربية بجامعة الفاتح عام (١٩٨٤م) وكان عنوان رسالته: «عدة البروق للونشريسي - دراسة وتحقيق»، وحصل على الدكتوراه من جامعة الزيتونة بتونس في التخصص نفسه عام (٢٠٠٠م) وكان عنوان رسالته: «منهج القاضي عبدالوهاب البغدادي في شرحه لرسالة ابن أبي زيد القيرواني». له العديد من الكتب والدراسات.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين.

أما بعد فأبدأ بشكر من كان سبباً في كتابة هذه الورقة، وهي دار البحوث ممثلة في مديرها العالم فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد نور سيف ومساعديه من العلماء الكرام الذين أتاحوا لي فرصة المشاركة في هذا المؤتمر الكريم، وأنوه بما تبذله هذه الدار من جهود في إحياء للتراث الإسلامي عموماً، والفقه المالكي خصوصاً، راجياً من الله أن يثيب القائمين عليها ثواباً جزيلاً وأن يوفقهم في مشاريعهم الواسعة.

اخترت لورقتي هذه النقطة الرابعة من المحور الثاني؛ لأني رأيتها جديرة بالدراسة، لما لها من أهمية؛ إذ إنها تلقي الضوء على الرباط الوثيق الذي يربط جناحي المدرسة الفقهية المالكية ومساهمة القاضي عبد الوهاب البغدادي في تثبيت هذه الصلة وتقويتها، على الرغم من بعد المسافة بينه وبين مدرسة القيروان، ولكن العلم لا يعرف المسافات ولا الحدود.

ورأيت أن أقسم هذه الورقة إلى ثماني نقاط تصل بنا - بعون الله - إلى تكوين فكرة عن العلاقات الوثيقة بين المدرسة العراقية المالكية والمدرسة القيروانية المالكية، وتوضح لنا مكانة القاضي عبد الوهاب، وجهده في تقوية هذا الاتصال.

النقطة الأولى: المدرسة العراقية المالكية من نشأتها إلى عهد القاضي عبد الوهاب: شيوخ ومدونات.

لا أراني بحاجة إلى الحديث عن المدرسة المالكية عموماً، ونشأتها في المدينة المنورة، ولا إلى الحديث عن تفرعها إلى مدارس فقهية متنوعة، فهذا يلزمه بحث مستقل، بل أبحاث كثيرة، وإنما أقصر الحديث عن المدرستين المقصودتين بالبحث، فأبدأ بالمدرسة العراقية، والكلام فيها يشمل أمرين، الشيوخ والمدونات.

أ- شيوخ هذه المدرسة:

دخل المذهب المالكي إلى العراق عن طريق تلاميذ مالك العراقيين، الذين شدوا الرحال إليه فرووا وأخذوا عنه الحديث والفقه، وأهم هؤلاء التلاميذ:

١- عبد الله بن مسلمة القعنبي: أصله مدني، وسكن البصرة، فهو في عداد البصريين، أخذ عن مالك، لزمه عشرين سنة، وابن أبي ذئب، ومخرمة بن بكير، وشعبة والحجاج وغيرهم.

روى عنه أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان وأبو داود السجستاني. وأخرج عنه البخاري ومسلم، توفي سنة ٢٢١هـ(١).

والقعنبي رغم أنه اعتنى بالموطأ، لكن ذكر ابن عبد البر له في عداد تلاميذ مالك الفقهاء يدل على أن له اعتناء بالمسائل أيضاً(٢).

٢- ويمكن أن نضيف هنا **أبا أيوب سليمان بن بلال**، مع أنه توفي قبل شيخه مالك، فقد كان من أجل أصحابه وأخصهم به، تولى قضاء بغداد للرشيد، ومات وهو عليه سنة ١٧٦هـ(٣).

وذكرناه هنا بعد القعنبي؛ لأن القعنبي أشد تأثيراً في إدخال المذهب إلى العراق، ولأن أصحاب التراجم يذكرونه ويجعلونه أهم شيخ في تكوين شخصية أحمد بن المعذل وفقهه. وأما أبو أيوب فنفترض ـ ويعضد افتراضنا الوقائع ـ توليه القضاء جعل منه شخصية يقتدى بها، ولما كان مالكيا، تبعه كثير من الناس وطبقوا مذهبه.

٣- عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري، كنيته أبو سعيد معدود في طبقات علماء البصرة.

سمع السفيانين ومالكاً وغيرهم. ورغم أنه اعتنى كل الاعتناء بالحديث والرجال، إلا أنه كان فقيهاً على مذهب مالك. قال عياض: لازم مالكاً فأخذ عنه كثيراً من الفقه والحديث. ونقل عن ابن المديني قوله: كان ابن مهدي يذهب إلى قول مالك.

---

(١) ينظر الانتقاء لابن عبد البر، ص٦١-٦٢، والمدارك للقاضي عياض ٣/١٩٨-٢٠١.
(٢) المدارك ٣/٢٠١.
(٣) الديباج ١/٣٧٣.

ولما كان استقراره بالبصرة نحسب أنه ساهم مساهمة كبيرة في نشر المذهب الذي يذهب إليه، وهو مذهب مالك. توفي بالبصرة سنة ١٩٨هـ(١).

ونرى أن هؤلاء جميعاً مع غيرهم ممن هم أقل أثراً أدخلوا أصول مالك ومسائله إلى العراق، ولكن أكثرهم تأثيراً ـ كما سبق ـ هو القعنبي.

- ثم انتقل علم القعنبي إلى أحمد بن المعذل الذي اجتمع له الأخذ أيضاً عن ابن الماجشون.

وأحمد بن المعذل هذا أصله من الكوفة، فقيه مفوه، سمع من إسماعيل بن أبي أويس. لم أقف على تاريخ وفاته.

ولا شك أن ابن المعذل كان الواسطة التي انتقل بها مذهب مالك إلى طائفة من علماء العراق، وقد وصفه المترجمون وصفاً يدل على مكانته حيث قالوا: لم يكن لمالك بالعراق أرفع منه، ولا أعلى درجة، ولا أبصر بمذاهب أهل الحجاز منه(٢).

- ثم انتقل علم مالك إلى أسرة آل حماد حيث ساهمت في نشر مذهبه والتمكين له وساعدها على ذلك تقلدها خطة القضاء سنين طويلة. قال عياض أثناء حديثه عن أخبار آل حماد: (كانت هذه البيت ـ على كثرة رجالها وشهرة أعلامها ـ من أجل بيوت العلم بالعراق، وأرفع مراتب السؤدد في الدين والدنيا، وهم نشروا هذا المذهب هناك، ومنهم اقتبس)(٣).

نكتفي بالكلام عن أشهرهم في خدمة المذهب، وأكثرهم أثراً في نشره:

القاضي إسماعيل بن إسحاق، أصله من البصرة، وبها نشأ، واستوطن بغداد، وسمع كثيراً من الناس. ولد سنة مائتين(٤)، لكن الذي تفقه على يديه هو ابن المعذل، وقد نقل الشيرازي أن القاضي إسماعيل كان يقول: أفخر على الناس برجلين بالبصرة بابن المعذل يعلمني الفقه، وابن المديني علمني الحديث(٥).

---

(١) م. ن ١/٤٦٣-٤٦٤. والمدارك ٣/٢٠٢-٢٠٩.

(٢) المدارك ٤/٥-١٤. والديباج ١/١٤١-١٤٣.

(٣) المدارك ٤/٢٧٦ وينظر تاريخ المدرسة المالكية بالمشرق (بالفرنسية) لأحمد باكير ص١٠٠. ومقدمة تحقيق الفروق الفقهية لمسلم الدمشقي ص١٣-١٤.

(٤) المدارك ٤/٢٩٣.

(٥) طبقات الفقهاء ص ١٦٤.

روى عنه وسمع منه كثيرون. وأوجز عبارة قالها عياض تبين لنا مكان الرجل ودوره في نشر المذهب بعد أن ذكر بعض تلاميذه: قال القاضي عياض: (وبه تفقه أهل العراق من المالكية)(١). وحمل من البصر إلى بغداد وولي القضاء، وعنه انتشر مذهب مالك بالعراق(٢). والذي ساعده في نشر المذهب توليه لقضاء بغداد مدة طويلة زادت على ثلث قرن، إذا استبعدنا قول من رأى أن مدة قضائه زادت على خمسين سنة.

وأوضح لنا الخطيب البغدادي جهود القاضي إسماعيل في نشر مذهب مالك بالعراق بقوله: (ونشر مذهب مالك وفضله ما لم يكن بالعراق في وقت من الأوقات، وصنف في الاحتجاج لمذهب مالك والشرح له ما صار لأهل المذهب مثالاً يحتذونه، وطريقاً يسلكونه)(٣).

– ثم قام بهذه المهمة تلاميذ القاضي إسماعيل من أمثال أبي محمد يوسف بن يعقوب، شارك ابن عمه القاضي إسماعيل في كثير من الشيوخ، وكان الغالب عليه الحديث. ولي القضاء ببغداد. توفي سنة ٢٩٧هـ(٤).

– ثم ابنه أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب. تفقه بابن عم أبيه القاضي إسماعيل. قلد قضاء القضاة، فازداد نفوذه، وساهم ذلك في خدمة مذهب مالك وانتشاره. توفي سنة ٣٢٠هـ(٥). ويذكر هذه الطبقة القاضي أبو الفرج المتوفى سنة ٣٣١هـ وأبو أيوب الرازي المتوفى سنة ٣٣٤هـ(٦).

– ثم تلاميذ أولئك وهم طبقة شيوخ القاضي عبد الوهاب وأهمهم ثلاثة:

١ – **أبو بكر الأبهري**، تفقه ببغداد على القاضي أبي عمر محمد بن يوسف وغيره.

---

(١) المدارك ٤/٢٨٠.
(٢) م. ن ٤/٢٨٠. وطبقات الفقهاء ص ١٦٥.
(٣) تاريخ بغداد ٦/٢٨٥.
(٤) المدارك ٤/٢٩٥–٣٠٠.
(٥) م. ن ٥/٢–١٢.
(٦) تنظر طبقات الفقهاء ص ١٦٥–١٦٦.

وقد ساهم في التمكين لمذهب مالك في العراق، يدلنا على ذلك أقوال مترجميه، من ذلك قول الشيرازي: (وانتشر عنه مذهب مالك في البلاد)[١].

ونحسب أن الذي ساعده في نشر المذهب ما كان يتمتع به من احترام في الوسط الاجتماعي على اختلاف طبقاته. يدلنا على ذلك قول الخطيب البغدادي: (كان أبو بكر الأبهري معظماً عند سائر علماء وقته، لا يشهد محضراً إلا كان المقدم فيه)[٢].

أما تمكنه من فقه المذهب وأصوله والاحتجاج له فاشهر من أن يذكر. قال الخطيب: (وله تصانيف في شرح مذهب مالك بن أنس والاحتجاج له، والرد على من خالفه. وكان إمام أصحابه في وقته... وانتهت إليه الرياسة في مذهب مالك)[٣].

قال عياض: ولم ينجب أحد ـ بالعراق ـ من الأصحاب ـ بعد إسماعيل القاضي ـ ما أنجب أبو بكر الأبهري[٤].

هذه العبارات من المؤرخين الثقات ـ ومنهم من ليس على مذهبه الفقهي ـ غير محتاجة إلى إضافة لتبين جهود هذا الفقيه في نشر مذهب مالك في العراق وغيره من أقطار الأرض. توفي الأبهري سنة ٣٧٥هـ.

٢- **أبو القاسم عبيد الله بن الحسين** المعروف بابن الجلاب البصري، تفقه بالأبهري. له كتاب في مسائل الخلاف ،كتاب التفريع. توفي سنة ٣٧٨هـ[٥].

٣- **أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد** المعروف بابن القصار البغدادي، تفقه بالأبهري. له كتاب في مسائل الخلاف سماه: عيون الأدلة. قال فيه الشيرازي: لا أعرف للمالكيين كتاباً في الخلاف أحسن منه[٦]. تولى قضاء بغداد. وقال فيه أبو ذر: وهو من أفقه من رأيت من المالكيين. توفي سنة ٣٩٨هـ[٧].

---

(١) طبقات الفقهاء ص١٦٧.

(٢) تاريخ بغداد ٥/ ٤٦٣.

(٣) م. ن ٥/ ٤٦٢.

(٤) المدارك ٦/ ١٨٧-١٨٨.

(٥) م. ن ٧/ ٧٦. ومقدمة تحقيق التفريع ١/ ١٠٦.

(٦) طبقات الفقهاء ص ١٦٨.

(٧) المدارك ٧/ ٧٠-٧١.

هؤلاء الثلاثة هم أهم فقهاء المالكية في طبقة شيوخ القاضي عبد الوهاب الذين كان لهم دور كبير في نشر المذهب والذود عنه ومناظرة مخالفيه بالكتاب واللسان.

ووصل علم هؤلاء إلى تلميذهم القاضي عبد الوهاب الذي كاد ينفرد في طبقته بالدفاع عن مذهب مالك؛ لأن تلاميذ الأبهري تتابع موتهم من بعده، ولذلك كبرت مسؤولية القاضي، وانبرى ينافح عن المذهب كتابة وشفاها، فأكثر من التأليف في فقه الخلاف، كما سنعرف بعد قليل.

ثم اضطرته الظروف إلى مغادرة العراق فدب الضعف إلى المذهب بعده، لفقدان القضاء أولاً، ولفقدان علماء من طراز القاضي عبد الوهاب ثانياً، وبدأ المذهب ـ هناك ـ يمر بمرحلة أخرى لا تعنينا في هذه الورقة.

مدونات هذه المدرسة:

بعد أن عرفنا نماذج من الشيوخ الذين خدموا المذهب في العراق ـ ومكنوا له، وكثّروا أتباعه، نذكر هنا أهم المدونات التي اعتمدتها هذه المدرسة فكانت لها أساساً متيناً يقف عليه أصحابها، وسداً منيعاً يثبت للمناظرين:

١- الموطأ:

لسنا بصدد الحديث عن تأليف الموطأ وترتيبه ورواياته وانتشاره شرقاً وغرباً، وإنما يهمنا هنا دخوله العراق فنقول:

دخل موطأ مالك العراق مبكراً، فقد أدخله ثلة من أتباع مالك في مذهبه الفقهي إلى جانب بعض أتباع غيره. أما الأولون فيمثلهم عبد الله بن مسلمة القعنبي، وأما الآخرون فيمثلهم محمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٩هـ) صاحب أبي حنيفة.

هكذا دخل الموطأ العراق فدخل بذلك فقه مالك مصاحباً لأدلته، وانتشر في هذه البلاد وساهم رواة الموطأ في التأسيس لمذهب مالك وتعريف الناس به، فتوسعت قاعدته، ونشأ بذلك مذهب أثري استدلالي تأصيلي خاص بهذه المدرسة[١].

٢- مختصرات ابن عبد الحكم:

سمع عبد الله بن عبد الحكم من مالك سماعاً نحو ثلاثة أجزاء، وسمع الموطأ، ثم روى

(١) مقدمة الإتحاف بتخريج أحاديث الإشراف: ١/ ٧١.

عن أصحاب مالك ابن القاسم وأشهب وابن وهب كثيراً من رأي مالك، وصنف كتاباً اختصر فيه تلك الأسمعة، ثم اختصر من ذلك الكتاب كتاباً صغيراً.

قال ابن عبد البر: وعليهما مع غيرهما عن مالك يعول البغداديون من المالكيين في المدارسة، وإياهما شرح الشيخ الأبهري[١].

والحقيقة أن لابن عبد الحكم ثلاثة مختصرات: كبير وأوسط وصغير، فالصغير قصره على علم الموطأ. واللذان شرحهما الأبهري هما الكبير والصغير. قال عياض: ذكر بعضهم أن مسائل المختصر الكبير ثماني عشرة ألف مسألة، وفي الأوسط أربعة آلاف، وفي الصغير ألف ومائتا مسألة[٢]. توفي سنة ٢١٤هـ.

ويدلنا على عناية الناس بمختصرات ابن عبد الحكم ـ زيادة على شرح الأبهري للكبير والصغير ـ أن الأبهري نقل عنه قوله: قرأت مختصر ابن عبد الحكم خمسمائة مرة[٣]. ومعنى ذلك أنه كان يدرسه للناس.

ومن عناية هذه المدرسة بمختصرات ابن عبد الحكم أن المختصر الكبير شرحه أيضاً الخفاف[٤]، وأبو جعفر الجصاص[٥]. وشرح الصغير أيضاً ابن الجهم بشرح كبير.

٣- الأسدية:

والأسدية كانت حاضرة في العراق، فقد اعتنى فقهاء هذه المدرسة بها، يدلنا على ذلك قول الأبهري ـ فيما نقل عنه ـ أنه قرأ الأسدية خمساً وسبعين مرة[٦].

ولا أعرف إن كان المقصود ـ هنا ـ الأسدية نفسها، أم اختصارها لابن عبد الحكم، فقد كان له فيها اختصار[٧].

---

(١) الانتقاء، ص٥٣.
(٢) المدارك: ٣/٣٦٥-٣٦٧.
(٣) م. ن ٦/١٨٦.
(٤) محمد بن جعفر البصري، ذكره عياض ولم يتحقق طبقته، المدارك: ٦/٢٠١.
(٥) هكذا في المدارك ولا اعرف له ترجمة.
(٦) المدارك: ٦/١٨٦.
(٧) م. ن ٣/٢٩٩.

٤- المبسوط:

ولما ألف القاضي إسماعيل كتابه المبسوط، صار هذا الكتاب من مصادر هذه المدرسة يقرؤه علماؤها ويدرسونه، فها هو الأبهري ينقل عنه أنه قرأه ثلاثين مرة، وأنه كتبه بخطه[١].

٥- التفريع:

ألفه ابن الجلاب، وهو كتاب مختصر، ولكنه جامع لفقه مالك، جعله صاحبه مجرداً عن الأدلة.

كتب له الانتشار، وأصبح العلماء حريصين على قراءته بالسند المتصل إلى مؤلفه[٢].

أما كتب المغاربة التي اعتنت بها هذه المدرسة فزيادة على الأسدية التي ذكرناها قبل قليل، وصلت المدونة وبعض مختصراتها، وكتب ابن أبي زيد القيرواني، فأصبحت مصادر المدرسة العراقية المالكية مزيجاً من مؤلفات المشارقة والمغاربة، واستفاد علماؤها من المنهجين كما سنذكر قريباً.

النقطة الثانية: المدرسة المالكية بالقيروان أهم شيوخها ومدوناتها إلى عصر القاضي عبد الوهاب:

كانت إفريقية وما وراءها من المغرب الغالب عليها مذهب الكوفيين إلى أن أدخل مذهب مالك رجال تتلمذوا له، فأخذ به كثير من الناس، ولم يزل يفشو إلى أن جاء سحنون فغلب في أيامه، وفض حلق المخالفين، واستقر المذهب بعده في أصحابه[٣].

أ- أهم شيوخ هذه المدرسة:

قال ابن حارث الخشني: (كانت إفريقية قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن أنس؛ لأنه رحل منها أكثر من ثلاثين رجلاً، كلهم لقي مالك بن أنس وسمع منه، وإن كان الفقه والفتيا إنما كانا في قليل منهم)[٤].

---

(١) م. ن ٦/١٨٥-١٨٦.

(٢) ملء العيبة ٢/٢١٩-٢٢١.

(٣) المدارك: ١/٢٥-٢٦.

(٤) المدارك: ٤/٥١.

أما الذين كان الفقه والفتيا فيهم، ووطنوا لمذهب مالك من هؤلاء التلاميذ فنترجم لخمسة منهم باختصار شديد، لأنهم يمثلون الطبقة الأولى لفقهاء المذهب في هذه المدرسة:

١- عبد الله بن عمر بن غانم: رحل إلى الحجاز، وسمع من مالك، وعليه اعتماده. سمع منه القعنبي وغيره. ولي القضاء لإبراهيم بن الأغلب(١). توفي سنة ١٩٠هـ(٢).

٢- علي بن زياد: ولد بأطرابلس، ثم رحل إلى الحجاز، فسمع مالكاً، وروى عنه الموطأ، وكتب عنه أسمعة: وهو من أوائل من أدخل الموطأ إلى إفريقية سمع منه البهلول بن راشد، وأسد بن الفرات، وسحنون وغيرهم. توفي سنة ١٨٣هـ(٣).

وعلي بن زياد يجعله الشيخ محمد الشاذلي النيفر صاحب الفضل كله في تأسيس المدرسة الإفريقية بالقيروان وغيرها إذ هو الذي أدخل مذهب مالك الديار المغربية وعرف به وشرحه للناس وبين قواعده(٤).

٣- أبو مسعود بن أشرس: اختلف في اسمه. سمع من مالك. وصفه تلميذه سحنون بأنه كان أحفظ على الرواية(٥). لم أقف على تاريخ وفاته.

٤- البهلول بن راشد: شيخ القيروان وعالمها. سمع مالكاً وسفيان الثوري. سمع الموطأ وجامع سفيان الكبير من علي بن زياد. مات سنة ١٨٣هـ(٦).

٥ - أسد بن الفرات: تفقه بعلي بن زياد، ثم رحل إلى المشرق فسمع الموطأ من مالك، ورحل إلى العراق فلقي أبا يوسف ومحمد بن الحسن، وسمع منه أسمعة، وسمع من

---

(١) كان أميراً على القيروان سنة ١٨٤هـ من قبل هارون الرشيد وراجع عن دولة الأغالبة. أطروحة الدكتور محمد الطالبي التي ترجمها المنجي الصيداوي، دار الغرب الإسلامي ١٩٨٥م. والمؤنس لابن أبي دينار، ص٤٨-٤٩.

(٢) تراجع ترجمته في الانتقاء، ص٦٠، وطبقات علماء أفريقية لأبي العرب، ص٤٣-٤٤. والمدارك: ٣/ ٦٥-٧٩.

(٣) تنظر ترجمته في الانتقاء، ص٦٠، وطبقات أبي العرب ٢٥١، والمدارك: ٣/ ٨٠ ومقدمة تحقيق قطعة من موطأ ابن زياد للشيخ محمد الشاذلي النيفر.

(٤) مقدمة تحقيق موطأ ابن زياد، ص٣٦.

(٥) طبقات أبي العرب، ص٢٥٣، والمدارك: ٣/ ٨٥.

(٦) تنظر ترجمته في طبقات أبي العرب (ط. تونس)، ص١٢٦-١٣٨، والمدارك ٨٧/ ١٠١.

ابن القاسم بعد موت مالك. ولما رجع دون أسمعته وتداولها الناس، وأصبحت تعرف بالأسدية. تولى القضاء. توفي وهو يحاصر سرقوسة من غزوة صقلية سنة ٢١٣هـ(١). هؤلاء هم أهم العلماء الذين أدخلوا علم مالك إلى إفريقية، انتقل علمهم وعلم كثير غيرهم إلى إمام القيروان، بل إمام المذهب بلا منازع، عبد السلام بن سعيد التنوخي يلقب بسحنون، ولذلك لابد من الوقوف عند ترجمته:

الإمام سحنون:

ولد سنة ١٦٠هـ بالقيروان، ونشأ فيها، وأخذ عن شيوخها: البهلول بن راشد، وعبد الله بن غانم، وابن أشرس، ومعاوية الصمادحي، وأسد بن الفرات، وفي تونس أخذ عن علي بن زياد، وفي مصر أخذ عن ابن القاسم وغيره. وذكر بعضهم أخذه عن بعض تلاميذ مالك في المدينة(٢).

أخذ سحنون الأسدية عن صاحبها، وذهب بها إلى ابن القاسم فصححها وعدلها عليه، ثم رجع بها، ودونها وألحق بها الآثار(٣)، إلا أنه توفي قبل أن يكمل ذلك سنة ٢٤٠هـ(٤)، أما مساهمة سحنون في التمكين لمذهب مالك في إفريقية فيمثله أمران:

١- المدونة وقبول الناس لها وانتشارها.

٢- كثرة تلاميذه، فقد سمع منه من لا يحصون عدداً.

وقد لخص الشيرازي ذلك حيث قال: إليه انتهت هذه الرئاسة في العلم بالمغرب، وعلى قوله المعول به. وصنف المدونة، وعليها يعتمد أهل القيروان، وحصل له من الأصحاب ما لم يحصل لأحد من أصحاب مالك(٥) ووصف ابن حارث أصحاب سحنون بأنهم سرج أهل القيروان(٦).

---

(١) تنظر ترجمته في طبقات أبي العرب، ص١٨٤-١٨٧، والمدارك: ٣/ ٢٩١-٣٠٩.

(٢) المدارك: ٤/ ٤٦.

(٣) ينظر في تاليف المدونة وعلاقتها بالأسدية ورحيل سحنون في تاليفها بحثنا الموسع المنشور في محاضرات ملتقى الإمام سحنون مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان ١٩٩٣م.

(٤) تنظر ترجمته في طبقات أبي العرب، ص١٨٤-١٨٧ (ط. تونس). والمدارك: ٤/ ٤٥-٨٨.

(٥) طبقات الفقهاء، ص١٥٦-١٥٧.

(٦) المدارك: ٤/ ٥١.

تلاميذ سحنون:

استقر المذهب في تلاميذ سحنون، وهم كثر، نكتفي بذكر ثلاثة منهم:

١- محمد بن سحنون:

تفقه بأبيه، وسمع من ابن أبي حسان، وموسى بن معاوية. ورحل إلى المدينة فلقي بها أبا مصعب وابن كاسب. كان إماماً في الفقه والنظر، عالماً بالآثار والحجة، ذاباً عن مذهب مالك.

كثر الآخذون عنه. تآليفه كثيرة، بعضها ألفه في حياة والده. توفي سنة ٢٥٦هـ[١].

٢- يحيى بن عمر:

رحل من الأندلس، وسكن القيروان. سمع من سحنون، وأبي زكرياء الحفري، وفي مصر سمع من ابن بكير، والحارث بن مسكين، وأبي مصعب الزهري وكثير من أصحاب ابن القاسم وابن وهب. توفي سنة ٢٨٩هـ في القيروان على قول ابن حارث[٢]، وفي سوسة على قول ابن الفرضي[٣] وأيده محقق كتاب النظر والأحكام في أحوال السوق ليحيى بن عمر[٤]. وعليه صاحب المدارك[٥].

٣- ابن الحداد:

أبو عثمان سعيد بن محمد بن الحداد، سمع من سحنون، واختص به، وسمع من أبي الحسن الكوفي بطرابلس. سمع منه ابنه وأبو العرب وأحمد بن موسى التمار. توفي سنة ٣٣٠هـ[٦].

ثم انتقل الحفاظ على المذهب بنشره والذب عنه من هؤلاء إلى تلاميذهم من أمثال:

١- أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح المعروف بابن اللباد. أخذ عن كبار أصحاب سحنون، وعنه أخذ كثيرون. وكان عليه اعتماد ابن أبي زيد في الفقه، إليه انتهت

(١) المدارك: ٤/٢٠٤-٢٢١.

(٢) طبقات علماء إفريقية، ص١٣٤.

(٣) تاريخ علماء الأندلس: ٢/٩٠٧.

(٤) كتاب أحكام النظر، ص١٣.

(٥) المدارك: ٤/٣٦٤.

(٦) رياض النفوس ٢/٥٧-١١٥، وطبقات ابن حارث، ص١٩٨-٢١٢، والمدارك: ٥/٧٨-٩٠.

رئاسة المالكية بالقيروان بعد ابن الحداد. توفي سنة ٣٣٣هـ(١).

٢- أبو محمد عبد الله بن قاسم بن مسرور التجيبي المعروف بابن الحجام، سمع من محمد بن سحنون وغيره. ومنه سمع خلق منهم ابن أبي زيد. توفي سنة ٣٤٦هـ، حبس ثلث كتبه على يد تلميذه ابن أبي زيد(٢).

٣- أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم. شيوخه زادوا على المائة والعشرين. وعنه أخذ جماعة منهم ابن أبي زيد. توفي سنة ٣٣٣هـ(٣).

٤- أبو العباس عبد الله بن أحمد بن إبراهيم الإبياني. تفقه بيحيى بن عمر روى عنه وسمع منه خلق منهم ابن أبي زيد. كان من حفاظ المذهب، عالم إفريقية غير مدافع. توفي سنة ٣٥٢هـ(٤).

ثم جاء دور الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني الذي كان أمة، خلف مشائخه بل وزملاءه الأفذاذ الذين توفي كثير منهم في وقعة واحدة، فأصبحت المهمة الملقاة على عاتقه كبيرة، فجدد المذهب بعد أن كاد يندرس.

والحق أن أبا محمد قد رسخ للمذهب طريقتين:

الأولى: جلوسه للتدريس فترة طويلة حيث تخرج عليه عشرات العلماء، فعوضوا ما فقده المذهب خلال وقعة سنة ٣٣٣هـ.

والثانية: تآليفه الكثيرة التي كتب لها النفع والقبول فانتشرت شرقاً وغرباً زمن حياته، وبعد مماته(٥).

وخير ما وجدته معبراً عن دور ابن أبي زيد تجاه المذهب المالكي ما قاله الشيخ العلامة محمد الفاضل ابن عاشور ـ بعد أن ذكر الأخطار والأتعاب التي واجهها المذهب خلال حكم العبيديين ـ إذ قال (لولا أن جهداً خارقاً للعادة وموهبة عبقرية كانت قد حدبت على تراث المذهب المالكي في تلك الفترة، التي هو مشتغل فيها بسل ثيابه من العبيديين، فحفظته

(١) طبقات الفقهاء، ص١٦٠، والمدارك: ٥/٢٨٦-٢٩٥، والديباج: ٢/١٩٦.

(٢) رياض النفوس: ٢/٥٧-١١٥، وطبقات ابن حارث، ص١٧٦-١٧٧، والمدارك: ٥/٣٣٠.

(٣) رياض النفوس: ٢/٣٠٦-٣١٢، والمدارك: ٥/٣٢٣-٣٢٦.

(٤) المدارك: ٥/٣٤٧، ومقدمة تحقيق كتابه مسائل السماسرة للدكتور أبو الأجفان، ص٦-٩.

(٥) انظر ترجمة ابن أبي زيد المطولة في أطروحتا (النسخة المرقونة)، ص١٥١-٢٠٨.

ونمته... ولمت شعته... فلم يخلص من محنته تماماً إلا وقد وجد نفسه على أكمل ما كان ينتظر من نفسه وينتظر الناس منه، كانت تلك العبقرية هي عبقرية الشيخ أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن النفزاوي، المعروف بابن أبي زيد)[١].

ب - أهم مدونات هذه المدرسة:

١ - **الموطأ** وقد سمعه كثير ممن ارتحل من طلبة هذه المدرسة إلى المدينة، وعادوا به إلى وطنهم يسمعونه، وينشرونه. والمشهور أن أول من أدخله علي بن زياد، فوضع بذلك اللبنة الرئيسة في البناء الشامخ في هذه المدرسة.

٢ - **الأسدية** لأسد بن الفرات، وقد مر بنا الحديث عنها، والمهم هنا أن نعرف أن أسداً بدأ يدرس كتابه هذا الذي جمع فيه أقوال مالك بترتيب العراقيين وطريقتهم.

٣ - **المدونة** للإمام سحنون، وقد ذكرنا بإيجاز وأحلنا على مصادر فيها تفصيل قصة تأليف هذا الكتاب، وهنا نقول إن المدونة أصبحت ـ إلى جانب الموطأ ـ هي الأساس لفقه هذه المدرسة، ولقد بلغ حب الناس لها ـ بل وإعجاب صاحبها بها ومدحه لها ـ مبلغاً كبيراً، ويكفي أن ننقل هنا كلام سحنون حاثاً على الأخذ بها: (عليكم بالمدونة، فإنها كلام رجل صالح[٢] وروايته)[٣].

٤ - **المجموعة** لمحمد بن إبراهيم بن عبدوس المتوفى سنة ٢٠٦هـ. وهو أحد تلاميذ الإمام سحنون[٤].

٥ - كتاب ابن سحنون:

ألف محمد بن سحنون كتاباً كبيراً أصبح من ضمن مصادر هذه المدرسة، ووقع التنافس بينه وبين مجموعة ابن عبدوس كان أبو سعيد ابن أخي هشام، (ت٣٩١هـ) يميل إلى الأول، وابن شبلون، (ت٣٩١هـ) يميل إلى الثاني. استمر الأمر كذلك إلى القرن الرابع حيث ألف ابن أبي زيد تآليف كثيرة انتشرت شرقاً وغرباً، أشهرها ثلاثة، راعى فيها المستويات المختلفة لأهل العلم:

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي، ص٤٦.

(٢) يقصد ابن القاسم شيخه.

(٣) المدارك: ٣/٣٠٠.

(٤) ينظر المدارك: ٤/٢٢٣.

٦ - **الرسالة**: ألفها ابن أبي زيد لأطفال المسلمين بطلب من الشيخ محرز، أو الشيخ السبائي على اختلاف في ذلك، فجاءت جامعة نافعة تضمنت العقيدة والعبادات والمعاملات والآداب، بأسلوب واضح لا تعقيد فيه، وضمنها أدلة من الكتاب والسنة في أكثر المواضع، فرزقت قبولاً لدى الناس في أقطار كثيرة، فعكفوا عليها قراءة وتدريساً وشرحاً، ففاقت شروحها المائة(١).

٧ - **مختصر المدونة**: ألفه ابن أبي زيد للمتوسطين، وقد اختصر فيه مدونة سحنون الكبرى، فأعجب الناس بهذا المختصر، فدرسوه وشرحوه، بل واختصره بعض علماء القرن الخامس، وهو ابن الأشيري المتوفى سنة ٤٣٥هـ(٢).

٨ - **النوادر والزيادات**: وهو جامع لأكثر أقوال علماء المذهب، وصفه ابن خلدون بقوله: (وجمع ابن أبي زيد جميع ما في الأمهات من المسائل والخلاف والأقوال في كتاب النوادر، فاشتمل على جميع أقوال المذهب، وفرع الأمهات كلها في هذا الكتاب)(٣).

قال فيه وفي الذي قبله القاضي عياض: (وعلى هذين الكتابين المعول ـ بالمغرب ـ في التفقه)(٤).

النقطة الثالثة: العلاقة بين المدرستين (التلمذة والشروح):

انسجمت المدرستان ـ على بعد الشقة ـ تمام الانسجام، وتعاونتا أشد ما يكون التعاون، لأن الأصول واحدة، وإن اختلفت طرق العرض والتعامل مع النصوص. وقد أخذ هذا التعاون اتجاهين:

الأول: التلمذة ويمثلها موسى بن أبي حاج الغفجومي، المعروف بأبي عمران الفاسي، الفقيه المالكي المعروف. أصله من فاس، وتفقه بها. ورحل إلى العراق، فدرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني، ومر بمصر فسمع جماعة بها منهم القاضي عبد الوهاب. والباقلاني وعبد الوهاب من أئمة المدرسة العراقية المالكية. توفي سنة ٤٣٠هـ(٥).

---

(١) ينظر الكلام عن الرسالة وشروحها أطروحتا (النسخة المرقونة)، ص٢١٠-٣٢٨.
(٢) الصلة لابن شكوال: ١/٩٥.
(٣) المقدمة، ص٣٧٦.
(٤) المدارك: ٦/٢١٧.
(٥) م. ن. ٨/٧١-٧٤.

واستجاز ابن أبي زيد أبا بكر الأبهري[١]، كما استجاز الأبهري ابن أبي زيد فأجازه وأرسل إليه كتبه[٢].

واستجاز ابن مجاهد الطائي ـ وهو من أهل البصرة، سكن بغداد ـ ابن أبي زيد في كتابيه المختصر والنوادر فأجازه، وجرت بينهما مراسلات في ذلك[٣].

الثاني: المصنفات:

عرفنا كيف وصلت الأسدية إلى المدرسة العراقية المالكية، ثم وصلت المدونة، وما أن ألف ابن أبي زيد كتبه خصوصاً الرسالة والمختصر والنوادر حتى أسرع مالكية العراق للحصول عليها وعكفوا عليها نسخاً وتدريساً وشرحاً، وقد مر بنا قبل أسطر كيف طلبها الأبهري، وابن مجاهد من مؤلفها ويذكر لنا بعض المؤرخين أن ابن أبي زيد عندما ألف الرسالة بعث بنسخة منها إلى ابن زرب (ت٣٨١هـ) في الأندلس فأخفاها، وألف على منوالها كتاب الخصال، وبعث بنسخة أخرى إلى الأبهري فاحتفى بها، وأذاعها، فتألم الشيخ أبو محمد من صنيع ابن زرب وبعث برسالة إلى الأبهري يبثه فيها شكواه. فأجابه الأبهري برسالة ضمنها بعض الأبيات فيها:

(أعجب ما في الأمور عندي ... إظهار ما تدعي القلوب

تأبى نفوس نفوس قوم ... وما لها عندهم ذنوب)

وبلغ من احتفاء الأبهري بالرسالة أن نوه بمؤلفها، وباع نسخة منها بالمزاد العلني، فاشتريت بعشرين مثقالاً في مجلسه أعطاها للرسول الذي جاء بها[٤].

كما أن القاضي عبد الوهاب هو الآخر أعجبته الرسالة إعجاباً شديداً فمدحها بقصيدة جاء فيها:

(رسالة علم صاغها العلم النهد ... قد اجتمعت فيها الفرائض والزهد)[٥]

---

(١) م. ن ٦/٢١٧.

(٢) ينظر الجامع تحقيق عبد المجيد تركي فقرة ٢٨٩.

(٣) المدارك: ٦/١٩٦-١٩٩.

(٤) معالم الإيمان: ٣/١١٢

(٥) م. ن ٣/١١٢.

(أئمة المدرسة المالكية في العراق يشرحون الرسالة :)

لم يكتف الأبهري وتلميذه عبد الوهاب بالإشادة والتنويه بالرسالة، بل شرحاها شرحاً موسعاً، أما الأول فدللها بالآثار وسمى شرحه (مسالك الجلالة في إسناد أحاديث الرسالة(١) .

وأما الثاني فشرحها شرحاً موسعاً تعرض فيه لمسائل الخلاف وأدلتها منتصراً لمذهبه في الغالب، ولعله استوحى كتابه التلقين منها .

وهكذا تلاقحت المدرستان في كتاب الرسالة فالتأليف قيرواني والشروح عراقية .

النقطة الرابعة : التعامل مع المدونة السحنونية بين المدرستين :

ذكرنا أن أصل المدونة الأسدية لأسد بن الفرات، لكن مؤلفها عرضها على ابن القاسم فاضرب عن بعض ما كتبه أسد وعدل بعضه، وأضاف أموراً ظهرت له باجتهاده، فرجع بها سحنون إلى القيروان ودونها، وذيلها بالآثار معتمداً على موطأ ابن وهب، وألحق فيها بعضاً من خلاف كبار أصحاب مالك، إلا أنه لم يتم ذلك، فقد اخترمته الوفاة قبل إكمال خطته فبقيت أبواب منها على الاختلاط(٢) .

ومنذ رجوعه بها من مصر، وحتى قبل ترتيبها وتنظيمها كان سحنون يسمعها للطلبة كلما مر بمركز علمي يرغب الناس فيه في سماعها، وقد حدث ذلك في أجدابية وطرابلس(٣) .

ويدل على تهافت الناس عليها منذ وصول سحنون إلى القيروان أنه بدأ بإسماعها الناس على هيئتها من الاختلاط . وممن سمعها على هذه الحالة عبد الله بن محمد بن خالد بن مرتنيل(٤) .

وبعد وفاة سحنون استمر اعتناء الناس بالمدونة في القيروان وغيرها اختصاراً وشرحاً وتهذيباً . وأول من شرحها فيما يظهر ابنه محمد، فقد ذكر الدباغ أنه شرح كتباً منها من

---

(١) شرح الرسالة لابن ناجي ١ /١٧-١٨ .

(٢) المدارك : ٣ /٢٩٩ .

(٣) طبقات أبي العرب، ص١٨٦، والمدارك : ٤ /٤٧ .

(٤) جذوة المقتبس : ١ /٣٨٨، وتاريخ علماء الأندلس : ١ /٣٦٩ .

بينها كتاب المرابحة(١). وذكر عياض لابن عبدوس شرحاً لمسائل المدونة(٢) لكن أشهر اختصارين لها مختصر الشيخ أبي محمد ومختصر أبي سعيد البرادعي. فقد كثرت عليهما الشروح.

أما دخول المدونة العراق فلا نعلم تاريخه على وجه التحديد. لكننا لم نر من تحدث عنها قبل القرن الرابع.

وعلى كل حال فالذي يهمنا هنا أن نقرر الخلاف بين المدرستين في التعامل مع المدونة، بل وفي التعامل مع التأليف في فروع المذهب عموماً.

ولا نجد عبارة توضح هذا خيراً من عبارة المقري (ت١٠٤١هـ) ـ رحمه الله، فقد قال ملخصاً الفرق بين الطريقتين: (وقد كان للقدماء رضي الله عنهم، في تدريس المدونة اصطلاحان:

اصطلاح عراقي، واصطلاح قروي. **فأهل العراق** جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس، وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس، ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات، ومناقشة الألفاظ، ودأبهم القصد إلى إفراد المسائل، وتحرير الدلائل، على رسم الجدليين، وأهل النظر من الأصوليين. وأما **الاصطلاح القروي** فهو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الروايات، وبيان وجوه الاحتمالات، والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف، على حسب ما وقع في السماع، وافق ذلك عوامل الإعراب أو خالفها)(٣).

وكلام المقري يبين الفرق بين منهجي المدرستين.

ولا نستطيع ـ هنا ـ أن ندرس سبب اختلاف المنهج عند المدرستين ـ مع أن مواد المصدر واحدة، فذلك يلزمه بحث مستقل(٤).

---

(١) معالم الإيمان: ٢/١٣٤، وانظر قائمة بمختصريها في ابن رشد وكتابه المقدمات للدكتور التليلي، ص٣٦٧-٣٧٩.

(٢) المدارك: ٤/٢٢٥.

(٣) أزهار الرياض: ٣/٢٢.

(٤) ينظر مقدمة الإتحاف بتخريج أحاديث الإشراف للدكتور بدوي عبد الصمد: ١/٦٥-٨٢.

النقطة الخامسة: صلة القاضي بمدرسة القيروان:

أما صلة القاضي بهذه المدرسة فيوضحها الأمور الآتية:

١ - تتلمذ أحد أئمة المدرسة القيروانية للقاضي عبد الوهاب، وهو أبو عمران الفاسي، وقد ذكرنا ذلك.

٢ - وما ذكره بعض المترجمين من استجازة القاضي عبد الوهاب الشيخ أبا محمد صاحب الرسالة، وخصوصاً وأن القاضي يصفه أثناء الشرح بشيخنا، فهو إذن شيخه بالإجازة. وما ذكروه أيضاً من مكافأة ابن أبي زيد القاضي على شرحه لرسالته بألف دينار، إن صحت رواية أن شرحه للرسالة كان في حياة مؤلفها.

٣ - الصلة الوثيقة بين القاضي وابني الشيخ أبي محمد بسبب شرحه بعض تآليف أبيهما، ودعوتهما إياه للرحيل إلى القيروان إذ ذكر القاضي عياض ذلك قائلاً:

(وخاطبه ابنا الشيخ أبي محمد ـ وقد انعقد بينه وبينهم وصلة، بسبب شرحه تواليف أبيهما، ووصلوه بمال لم يرضه ـ واستدعوه للدخول إلى المغرب ...)[١]. فاعتذر ولم يذهب.

٤ - ويبدو أن القاضي كانت له رغبة في الذهاب إلى القيروان، فكاتب علماءها، فشجعه على ذلك تلميذه أبو عمران الفاسي، وأثناه عن هذه الفكرة أبو بكر بن عبد الرحمن[٢]، ويظهر أن ذلك كان أثناء وجوده في مصر فاخترمته المنية قبل أن يختار أحد الاقتراحين.

النقطة السادسة: جهوده في خدمتها:

وهي فرع للنقطة السابقة لأن جهوده في خدمة هذه المدرسة تعكس صلته بها.

يمكن تلخيص هذه الجهود في الأمور الآتية:

١ - الاعتناء بمدونة سحنون، وسار في ذلك على اتجاهين:

أ - شرحه لها. ذكر ذلك مترجموه، وقد ذكر عياض أنه لم يتمه[٣].

---

(١) المدارك: ٧/ ٢٢٥-٢٢٦.

(٢) م.ن: ٧/ ٢٢٦.

(٣) م.ن: ٧/ ٢٢٢.

ب - ترجيح القاضي لمسائل المدونة على المسائل التي وردت في غيرها من أمهات المذهب، لأسباب ذكرها القاضي عياض في مداركه(١).

٢ - الاعتناء بكتب ابن أبي زيد:

ومما يدلل لنا على جهود القاضي في خدمة هذه المدرسة أنه شرح أهم تآليف إمامها في وقته ابن أبي زيد:

أولاً: المختصر: سبق أن ذكرنا أن الشيخ أبا محمد اختصر المدونة، وذكرنا أيضاً أن القاضي شرح المدونة ولم يتم شرحه هذا، ونقول هنا إنه شرح مختصر الشيخ أبي محمد بشرح سماه (الممهد في شرح مختصر الشيخ أبي محمد). قال عياض: وصل فيه إلى نحو نصفه(٢).

توجد نسخة من هذا الشرح تمثل الجزء الخامس في مخطوطات مكتبة الأزهر، ومنها صورة في دار الكتب المصرية على ميكروفيلم، وقد اطلعت عليهما أثناء زيارتي لمصر.

كما أن لهذه النسخة نفسها صورة في مخطوطات جامعة أم القرى بمكة المكرمة(٣).

ثانياً: الرسالة: وقد شرحها القاضي شرحاً مسهباً، فبعد أن كانت مرجعاً في أمور الديانة لأطفال المسلمين أصبحت بهذا الشرح مرجعاً للعلماء في فقه الخلاف ومسائله.

ثم ألف المعونة لتكون مدخلاً لكتابيه الكبير الممهد وشرح الرسالة(٤). وذلك يدخل في جهوده لخدمة المدرسة القيروانية.

ولعل سؤالاً يطرح نفسه: لماذا لم يكمل شرح المختصر وشرح المدونة، وإنما أكمل المعونة وشرح الرسالة؟

والجواب: لم نر من تعرض لذلك، ويمكن أن يكون السبب أن القاضي بدأ بشرح مدونة سحنون خدمة للمذهب، ثم وصله مختصرها لابن أبي زيد، فلم يكمل ما بدأه، وإنما رأى أن شرحه للمختصر ينوب عن ذلك، خصوصاً وأن المختصر مرتب ومنظم المسائل فيسهل

---

(١) م.ن: ٣/ ٢٤٦.

(٢) م.ن: ٧/ ٢٢٢.

(٣) مقدمة تحقيق المعونة للأستاذ خميس عبد الحق: ١/ ٤١. وأصول الفقه عند القاضي عبد الوهاب للأستاذ الريس، ص٩٠ من النسخة المرقونة.

(٤) المعونة: ١/ ١١٥-١١٦.

شرحه، ولما وصل فيه نحو النصف وصلته الرسالة، فأعجب بها، وقرر أن يترك ما بدأه من الشروح السابقة، واتجه إلى شرحها بتوسع. فلما أكمله، طلب إليه بعض الطلبة أن يؤلف كتاباً وسطاً يكون فيه زبدة شرحه للرسالة، ويكون مدخلاً لكتبه المطولة، فأجابه إلى ذلك، ونحسب أنه أضرب عن تكملة شرحيه للمدونة والمختصر لما رأى أن شرحه للرسالة يقوم بما أراد تبيانه في كتابيه الآخرين. والله أعلم.

لكن يعكر على ما ذكرناه أن الرسالة كانت قد وصلت العراق قبل وفاة الشيخ الأبهري، أي قبل أن يبدأ القاضي تأليفه.

النقطة السابعة: شرحه للرسالة وأثره في خدمة هذه المدرسة:

لا شك أن القاضي عبد الوهاب شرح رسالة ابن أبي زيد فقد أجمع على ذلك مترجموه، ولكن هل شرحها لأن مؤلفها بعث إليه مبلغاً من المال كما ذكر بعضهم؟

لا أظن ذلك يقوم سبباً منطقياً لتأليفه هذا الشرح، بل الذي أراه سبباً هو أنه لما وصلت كتب ابن أبي زيد إلى العراق، وكتب لها الانتشار، وكان القاضي إذ ذاك يتأهب للتأليف في مسائل الخلاف على عادة علماء مدرسته(١)، رأى أن شرحه لكتب ابن أبي زيد أو بعضها يفي بالغرض.

ونتحدث الآن عن هذا الكتاب في عبارات موجزة تناسب هذه الورقة فنقول:

١ - يعتبر هذا الشرح من أوائل شروح الرسالة، بل أولها على الإطلاق إذا استثنينا تخريج آثارها للشيخ أبي بكر الأبهري.

٢ - لا نعرف على وجه التحديد متى ألفه.

٣ - ألف شرحه مرتين فقد ذكر في شرحه الذي وصلنا أنه أتم شرحه الأول ولم يكن لديه إلا أصل واحد للكتاب فاستعير منه وضاع.

٤ - أنه ألف في حالة سفر، ولما لم تكن مصادره معه، أملاه من حفظه، ففاته بعض الأدلة التي لم يتذكر نصوصها، أو لم يتذكرها بطولها فاقتصر على بعضها.

٥ - وهذا الشرح موسع جداً وصفه المترجمون بأنه في ألف ورقة منصوري.

---

(١) ينظر عن فقه الخلاف وقائمة الكتب التي ألفها علماء العراق المالكيون فيه أطروحتنا القاضي عبد الوهاب البغدادي ومنهجه في شرح الرسالة، ص٤١-٤٥.

٦ - يعرض هذا الشرح للمذاهب الفقهية المختلفة مثل مذاهب الأوزاعي، والشعبي، والثوري، وأبي ثور، وابن أبي ليلى، وطاوس، وداود الظاهري، زيادة على المذاهب الأربعة المتبوعة ولا يتعرض لمذاهب الصحابة إلا نادراً.

٧ - كما يعرض أيضاً للروايات والأقوال داخل المذاهب ويناقش أدلتها النقلية والعقلية، مرجحاً بعضها في بعض الأحيان، ساكتاً عن الترجيح في بعض المواضع.

٨ - يشرح مسائل الرسالة بعبارات تختلف طولاً وقصراً، فيشرح بعضها بما يمكن أن يكون كتاباً مستقلاً بينما لا يتعدى شرح بعضها بضع كلمات(١).

أما عن دور هذا الشرح في خدمة المدرسة القيروانية فيمكن تلخيصه في الآتي:

١ - النقل عن المدونة في هذا الشرح، إما بذكرها أو بذكر سحنون، وقد حدث هذا مرات كثيرة.

٢ - النقل عن كتاب النوادر والزيادات لابن أبي زيد، ويسميه الكتاب الكبير. فمن ذلك قوله في حديثه عن علة الربا: (ورأيت كلام أبي محمد بن أبي زيد في كتاب الكبير يدل على هذه الطريقة)(٢).

٣ - النقل عن ابن أبي زيد دون ذكر كتابه، وذلك مثل ما فعله أثناء كلامه عن منع بيع الحنطة في سنبلها، حيث قال: (فأما بيع السنبل نفسه إذا اشتد ويبس، واستغنى عن الماء فجائز، وهو معنى قول أبي زيد ...)(٣).

وهكذا رأينا في هذه العجالة كيف احتفظ لنا هذا الشرح بأقوال وآراء كثيرة لأئمة المدرسة القيروانية، فدل ذلك على أمور:

الأول: الترابط الوثيق بين المدرستين المالكيتين في العراق والقيروان.

الثاني: صلة القاضي نفسه بمدرسة القيروان وإعجابه بمؤلفاتها.

الثالث: أهمية أقوال فقهاء مدرسة القيروان، والتعويل عليها في مؤلفات القاضي، وخصوصاً في شرح الرسالة.

---

(١) م. ن، ص٣٧١-٣٨١.

(٢) شرح الرسالة مخطوط تمكروت: ٤/ ٢٤٥.

(٣) م. ن: ٤/ ٢٨٥.

خاتمة

هذا ما حضرني فيما يتعلق بهذه النقطة في هذا المحور ولم أرد أن أتوسع أكثر مما تحمله ورقة في مؤتمر يشارك فيه كثير من المتخصصين، ولذا أختم كلامي بالتوصيات الآتية:

١ - الاعتناء بمؤلفات القاضي خصوصاً المخطوط منها بالبحث عنها وتحقيقها تحقيقاً علمياً ونشرها حتى يستفاد منها.

٢ - وضع موسوعة تحوي تراجم فقهاء المدرسة المالكية منذ نشأتها حتى عصرنا الحاضر وذلك بتفريغ كتب التراجم الخاصة بالمالكية فيها وفهرستها فهرسة علمية تمكن من الاستفادة منها. وكنت قد دعوت إلى إعادة تحقيق كتاب (ترتيب المدارك) من جديد اعتماداً على مخطوطات متعددة والرجوع إلى كتاب الأستاذ محمد الطالبي (تراجم أغلبية) إذ قد ذكر المؤلف مجموعة من المخطوطات لهذا الكتاب. فإن هذا الكتاب يعرف من مارسه في البحث أنه قد شوه تشويهاً كبيراً في طبعتيه تحريفاً وتصحيفاً وسقطاً، وازداد الأمر سوءاً بفساد فهارسه، فأثر على استفادة الباحثين من هذا الكتاب القيم.

٣ - الاعتناء بمؤلفات أئمة المدرسة العراقية بالبحث في مكتبات العالم - في وقت سهل فيه التواصل - عمّا وجد منها مخطوطاً وإخراجه للوجود، ويمكن أن أمثل بكتاب (الإشراف) لابن عمروس تلميذ القاضي عبد الوهاب[١]، حتى تكتمل الفكرة عن منهج المدرسة العراقية المالكية.

٤ - تكرار مثل هذه المؤتمرات والندوات التي تتيح اللقاء بين العلماء وتبرز ما كان مخبوءاً - في بعض الأحيان - عن معلومات من تراثنا الثقافي، وخصوصاً الفقه المالكي الذي يظن كثير من الأغرار أنه خال عن الدليل، وإنما هو أقوال قالها علماؤه، فلا قيمة لها، ولا يلتفت إليها، وقد سمعنا ذلك كثيراً في مناسبات مختلفة.

وأخيراً أختم هذه الأسطر بتكرار الشكر لدار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ممثلة في مديرها العام فضيلة الأستاذ الدكتور أحمد محمد نور سيف.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) كتبت بحثاً قصيراً عن ابن عمروس وكتابه الإشراف ونشر في مجلة آفاق الثقافة والتراث، تصدر عن دائرة البحث العلمي بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، السنة التاسعة، العدد ٣٣، ص١٢٠-١٣٠.

مصادر البحث

١ – ابن رشد وكتابه المقدمات: المختار التليلي، الدارالعربية للكتاب ١٩٨٨م.

٢ – أزهار الرياض: في أخبار القاضي عياض (الأجزاء الثلاثة الأولى تحقيق مصطفى السقا ومن معه).

٣ – أصول الفقه عند القاضي عبد الوهاب: عبد المحسن بن محمد الريس، أطروحة دكتوراه مرقونة جامعة محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٤ – أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي: محمد الفاضل بن عاشور، مكتبة النجاح تونس د.ت.

٥ – الإتحاف بتخريج أحاديث الإشراف: بدوي عبد الصمد الطاهر صالح. دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث. الإمارات العربية المتحدة ـ دبي ـ الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

٦ – الانتقاء: في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء، لابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت د.ت.

٧ – التفريع لابن الجلاب، تحقيق حسين الدهماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

٨ – الجامع لابن أبي زيد: تحقيق محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ ١٩٨٥م.

٩ – الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (١–٢)، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة ١٩٧٢م.

١٠– الفروق الفقهية لمسلم الدمشقي: تحقيق محمد أبو الأجفان وحمزة أبو فارس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.

١١– القاضي عبد الوهاب ومنهجه في شرح الرسالة: حمزة أبو فارس أطروحة مرقونة بجامعة الزيتونة ـ تونس.

١٢- المدارك: عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق جماعة من العلماء، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، الرباط. انتهى طبعه ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

١٣- المعونة: على مذهب عالم المدينة (١-٣)، تحقيق حميش عبد الحق، طبعة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

١٤- المؤنس: لابن أبي دينار، تحقيق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، الطبعة الثالثة ١٣٨٧هـ.

١٥- تاريخ المدرسة المالكية بالمشرق: أحمد بكير، طبعة الاتحاد التونسي للشغل تونس، ١٩٦٢م.

١٦- تاريخ بغداد: أحمد بن علي، الخطيب البغدادي، دار الفكر، بيروت، د.ت.

١٧- تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي: تحقيق إبراهيم الإبياري (١-٢)، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

١٨- جذوة المقتبس: محمد بن فتوح الحميدي، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

١٩- رياض النفوس: عبد الله بن محمد، المالكي، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

٢٠- شرح الرسالة: نسخة الخزانة العامة، الرباط.

٢١- شرح الرسالة لابن ناجي: (بهامش شرح الرسالة لزروق ١-٢) تصوير دار الفكر، بيروت.

٢٢- طبقات الفقهاء للشيرازي: تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت ١٩٧٨م.

٢٣- طبقات علماء إفريقية لابن حارث الخشني: تحقيق محمد بن شنب، دار الكتاب اللبناني، بيروت د.ت.

٢٤- طبقات علماء إفريقية لأبي العرب: تحقيق علي الشابي ونعيم اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثانية ١٩٨٥م.

٢٥- كتاب أحكام النظر ليحيى بن عمر، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ١٩٧٥م.

٢٦- محاضرات ملتقى الإمام سحنون، القيروان ١٤١٢هـ، ١٩٩١م، ص٩٧-١٣٣، مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، الطبعة الأولى ١٩٩٣م.

٢٧- مسائل السماسرة لأبي العباس الأبياني، تحقيق محمد أبو الأجفان.

٢٨- معالم الإيمان للدباغ: تحقيق محمد ماضور. المكتبة العتيقة، تونس، ومكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧٨م.

٢٩- ملء العيبة لابن رشيد السبتي الجزء الثاني تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الدار التونسية للنشر سنة ١٩٨٢.

٣٠- مجلة آفاق الثقافة والتراث: مركز جمعة الماجد، دبي، السنة التاسعة العدد ٣٣، ٢٠٠١م.



القاضي عبدالوهاب البغدادي وأثره في المدرسة المالكية بالغرب الإسلامي

إعداد

د. قطب الريسوني*

* أستاذ الفقه المقارن بالقسم الجامعي لمعهد العلوم الإسلامية والعربية بنواكشوط، حصل على الماجستير من جامعة غرناطة، كلية الآداب والفلسفة عام (١٩٩٧م) وكان عنوان رسالته: «شرح منظومة غرامي صحيح في ألقاب الحديث لابن قنفذ – دراسة وتحقيق»، وحصل على الدكتوراه في الفقه الإسلامي من جامعة كومبلوتنسي بمدريد عام (٢٠٠٠م) وكان عنوان رسالته: «نوازل ابن بشتغير اللورقي – دراسة وتحقيق». له العديد من الكتب والدراسات.

مقـــدمة

لا يسع المؤرخ للفقه المالكي والباحث في نصوصه وأعلامه إلا أن يشيد بما اضطلعت به المدرسة العراقية من دور بالغ الخطورة والشأن في إثراء مباحث هذا الفقه، وتنشيط دواعي روايته ودرسه والتأليف فيه، ويكفي أن نستحضر أسماء فقهاء مشهورين مثل: أبي بكر الأبهري والباقلاني وبكر بن العلاء وابن عمروس وغيرهم، لنستبين صحة هذا القول وسداده.

بيد أن القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي[١]. حاز من ذيوع الصيت وجهارة الشأن ما لم يحزه غيره من فقهاء المدرسة العراقية، ذلك أن شهرته تجاوزت حدود موطنه وبلده إلى آفاق من الدنيا واسعة متراحبة، هشت لفقهه، وبشت لآثاره، حتى أصبح حجة في الفقه المالكي، ومرجعاً يعول عليه في الفتاوى وأحكام الحلال والحرام، وهذه الشهرة تضافرت عليه - في رأيي - خمسة عوامل:

١ - تمتع القاضي عبدالوهاب بقدرة كبيرة على التأليف والتصنيف، فهو الفقيه الأصولي المحقق الأديب الشاعر، صاحب الكتب النافعة الماتعة في فروع المالكية، وشرح الأمهات، والخلاف الفقهي، والأصول، ونصرة المذهب، مع ما امتاز به من بلاغة وطول قلم أهّلاه أن يقتعد حيزاً في عالم الكلمة الشعرية المجنحة الرفافة. وقد جمع في نتاجه بين الوفرة والتنوع والجودة، وهذا لا يستقيم لمؤلف إلا في النزر اليسير.

٢ - سلامة بعض كتبه النفيسة من عوادي الزمن وأسباب الضياع، وكم من فقيه وعالم خمل ذكره، وخفي شأنه بسبب ضياع ما ألف وصنف، فلم يقف الناس على منزلته في العلم، ولا تبينوا قيمة منشآته وتحقيقاته.

---

(١) شيخ المالكية بالعراق، وصاحب التآليف النافعة الماتعة، كـ(التلقين) و(الإشراف على مسائل الخلاف)، و(عيون المسائل) و(المعونة على مذهب عالم المدينة)، و(شرح المدونة) و(الممهد في شرح مختصر الشيخ أبي محمد)، و(الإفادة في أصول الفقه)، تفقه بأبي بكر الباقلاني، وأبي الحسن القصار، وأبي القسام الجلاب، وتفقه عليه ابن عمروس، وأبو عبدالله المازري، وعبد الحق الصقلي، وغيرهم. ترجمته في ترتيب المدارك: ٧/ ٢٢٠ - ٢٢٧.

٣ ـ عدّ القاضي عبد الوهاب من رجال التنظير والتأسيس في المذهب المالكي، ومما يستشهد به في هذا الصدد أن الباقلاني كان يعجبه حفظ أبي عمران الفاسي ويقول له: «لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب لاجتمع علم مالك، أنت تحفظه، وهو ينصره»[١].

٤ ـ قيامه على نصرة المذهب قياماً تاماً، إذ ألف فيه كتاباً مستقلاً يعزى إليه في كتب الطبقات ومعاجم الرجال التي ترجمت به.

٥ ـ حرص تلامذته البررة على نشر فقهه، ورواية كتبه، وتدريس مصنفاته حيثما حلوا وارتحلوا، فيحلقون للفقه اعتماداً على "التلقين"، ويحدثون به وبغيره العلماء والرواة، ويقبسون منه ويفيدون في تحرير فتوى، وتفسير آية، ووضع شرح، وهكذا دواليك ..

وإذا كان فقه القاضي عبدالوهاب قد شرق وغرب، وصال وجال، منظراً لمذهب المالكية، وناصراً له، ومحبباً فيه، فإننا سنقتصر في عرضنا هذا على تلمس وجوه تأثيره في المدرسة المالكية بالغرب الإسلامي، لا سيما أن من أهل الأندلس والمغرب وإفريقية فقهاء كباراً أفسحوا للقاضي أبي محمد حيزاً غير يسير في حلقهم ومروياتهم وكتبهم، ومنهم من أخذ عنه وسمع منه مباشرة، ومنهم من حمل عن أصحابه وتلامذته، ومنهم من اتصل سنده في الرواية به.

مهما يكن من أمر فإننا نستطيع أن نجمل وجوه هذا التأثير فيما يلي:

١ ـ مجال المشيخة والتكوين العلمي:

لا شك أن شهرة القاضي عبد الوهاب بالتضلع من فقه المالكية والقيام التام على أصوله ومسائله، فضلاً عن دوره التنظيري والتأسيسي في المذهب، عوامل حفزت فقهاء الغرب الإسلامي على شد الرحلة إليه إثراء للمحصول، وتوسيعاً لدائرة السماع والرواية، وقد استقام لبعضهم ذلك، فجلس إلى الرجل متعلماً مستفيداً، وروى عنه كتبه ومؤلفاته التي حمل فقهها إلى الجناح الغربي من العالم الإسلامي، ودارت عليها المرويات وأسانيد العلماء.

---

(١) انظر أعلام المغرب العربي لعبد الوهاب بن منصور: ٢/٩٦-٩٧.

ومن تلامذة القاضي الأندلسيين والمغاربة:

١ ـ محمد بن الحبيب بن طاهر بن علي بن شماخ الغافقي (ت ٤٥٩ هـ)، من قضاة الأندلس وأفاضل فقهائها، حج سنة (٤٢١هـ) وسمع من أبي ذر الهروي، ثم لقي القاضي عبد الوهاب بمصر، وحمل عنه تواليفه، وأجازله ما رواه وألفه(١).

٢ ـ مهدي بن يوسف الوراق صاحب ابن شماخ الغافقي، أجاز له القاضي عبدالوهاب أيضاً ما رواه وألفه(٢).

٣ ـ أبو الحسين يحيى بن إبراهيم بن أبي زيد اللواتي المرسي (ت ٤٩٦ هـ) الفقيه المقرئ، رحل إلى مصر وسمع التلقين من عبدالوهاب سنة (٤٢١هـ)(٣).

٤ ـ أحمد بن إبراهيم اللواتي المرسي رحل إلى مصر هو وأخوه يحيى، وقرأ على القاضي عبد الوهاب بجامع الفسطاط كتاب "التلقين" وكتاب "المعونة"، وأجاز لهما كل كتبه ومروياته(٤).

٥ ـ أبو محمد عبدالحق بن محمد بن هارون الصقلي (ت ٤٦٦هـ)، شيخ المالكية في وقته، وصاحب التآليف الماتعة ككتاب "النكت والفروق لمسائل المدونة"، حج سنة ٤١٨هـ ولقي القاضي عبد الوهاب، وروى عنه فهرسته وتصانيفه ومروياته(٥).

والذي يبدو أن الشيخ عبد الحق أسبق من غيره في لقاء القاضي عبدالوهاب والرواية عنه، إذ إن حجته الأولى كانت سنة (٤١٨هـ)، وفيها تم اللقاء بالشيخ والحمل عنه، وهذا ملحظ يحملنا على القول بأن عبدالحق من الحملة الرواد لفقه القاضي، وعلى يده عجل برواية كتب هذا الفقه ونشرها في آفاق الغرب الإسلامي، ولا سيما أن الطلبة الذين سعدوا بالتحلق حول عبد الحق وحمل مروياته ليسوا من صقلية فحسب، بل فيهم مغاربة

(١) ترجمته في ترتيب المدارك: ٨/١٦٥، والصلة ٢/٥١٢.

(٢) انظر ترتيب المدارك: ٧/٢٢٢.

(٣) ترجمته في فهرس ابن عطية: ٨٣ ـ ٨٤، والصلة: ٢/٦٠٩.

(٤) ترجمته في التكملة: ١/٤٠ ع ١١٢، والذيل والتكملة: ١/٦٦ ع ٥٣، وأعلام المغرب العربي: ٣/٤٩.

(٥) ترجمته في ترتيب المدارك: ٨/٧١ ـ ٧٤، وفهرس ابن عطية: ٩٣، ٩٩، ١٠٦، والغنية: ٢٢٩.

وأندلسيون .. ومع هذا لا نستطيع القطع في مسألة الأولية، أو تعيين فقيه بذاته رائداً لا ينازع في حمل فقه القاضي عبد الوهاب إلى العدوتين، لأن المعلومات التي بين أيدينا ليست من الوفرة وقوة الدلالة بالدرجة التي تسعف على الخوض في هذا الموضوع بصفة قطعية حاسمة.

وبعيداً عن مسألة الأولية أرى من المجدي الوقوف عند ملمح مضيء في شخصية القاضي عبد الوهاب العلمية، ألا وهو التقدير المتميز الذي كان يكنه لطلبته الأندلسيين والمغاربة، إذ أجاز لهم جميع مروياته، وكتبه، حفاظاً على سند العلم، وتمتيناً لعرى الرواية وحلقاتها بين المشرق والمغرب. ولا شك أن الطلبة المجازين ممن توسم فيهم الكفاية العلمية، ومتانة الدين، وحسن الخلق، وهذه خصال يشار إليها في ترجماتهم وينوه بها.

وشيخ هذا شأنه لا بد أن يبادله طلبته حباً جماً، ويحرصون على خدمة فقهه ونشر كتبه وفاء بالدين، ورداً للجميل، ولعل في رغبة القاضي عبدالوهاب في الانتقال إلى العدوتين حين ضاقت به سبل العيش بمصر ما يجلو لنا شيئاً من هذا الحب المتبادل، يقول القاضي عياض: «وكان خاطب فقهاء القيروان في الوصول إليها فرغبه في ذلك أبو عمران .. وخاطب أيضاً مجاهد الموفق صاحب دانية في الوصول إلى الأندلس»[١].

بات من الواضح والجلي، إذن، أن آثار القاضي عبد الوهاب قد وجدت طريقها إلى الغرب الإسلامي بواسطة فقهاء رواة، تحملوا وأدوا، واستفادوا وأفادوا، ثم أتيحت لها أسباب الحظوة ودواعي الاحتفال بوسيلتين اثنتين:

أ ـ الرواية:

إن العناية برواية آثار القاضي عبد الوهاب لم تنقطع بين طلاب العلم وشيوخه منذ أن وقعت لهم هذه الآثار في أوائل العقد الثالث من القرن الخامس الهجري، إلى آخر عصور الازدهار العلمي بالعدوتين على نحو ما نتبين ذلك من أسانيد رواية كتاب "التلقين" وغيره من كتب القاضي ومروياته، وفيما يلي نماذج من سلسلة هذه الأسانيد:

---

(١) انظر ترتيب المدارك: ٧/٢٢٧.

١ ـ نموذج أول لسند رواية كتاب "التلقين"

أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية (ت ٥٤٦ هـ)

↓

أبو الحسين يحيى بن إبراهيم اللواتي المرسي (ت ٤٩٦هـ)

↓

القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي (ت ٤٢٢ هـ).

٢ ـ نموذج ثان لسند رواية "التلقين"

أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤ هـ)

↓

أبو علي الحسين بن محمد بن فيره المعروف بابن سكرة (ت ٤٩٢ هـ)

↓

القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي (ت ٤٢٢ هـ).

٣ ـ نموذج ثالث لسند رواية "التلقين"

أبو عبد الله محمد المجاري الأندلسي (ت ٨٦٢ هـ)

↓

محمد بن محمد بن علي الكناني القيجاطي (ت ٨١١ هـ)

↓

أبو عبدالله محمد بن محمد البيري (ت ٧٨٢ هـ)

↓

أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الغافقي (ت ٧١٠ هـ)

↓

أبو الحسين بن أبي الربيع (ت ٦٨٨ هـ)

↓

أبو علي الشلوبين (ت ٦٤٥هـ) - أحمد بن يزيد بن عبدالرحمن بن أحمد بن بقي القرطبي (ت ٦٢٥ هـ)

↓

أبو القاسم خلف بن عبد الملك المعروف بابن بشكوال (ت ٥٧٨ هـ)

↓

أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عتاب (ت ٥٢٠ هـ)

↓

أبو عبدالله محمد بن الحبيب الغافقي (ت ٤٥٩ هـ)

↓

القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي (ت ٤٢٢ هـ).

١ ـ نموذج أول من سند رواية فهرسة القاضي عبد الوهاب وكتبه ومروياته:

أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤ هـ)

↓

أبو محمد عبد الرحمن بن محمد عتاب (ت ٥٢٠ هـ)

↓

أبو عبد الله محمد بن الحبيب الغافقي (ت ٤٥٩ هـ)

↓

القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي (ت ٤٢٢ هـ).

٢ـ نموذج ثان لسند رواية فهرسة القاضي عبد الوهاب وكتبه ومروياته:

أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت ٥٤٤ هـ)

↓

أبو المطرف عبد الرحمن بن سعيد بن هارون السرقسطي (ت ٥٢٢ هـ)

↓

أبو محمد عبد الحق بن محمد بن هارون الصقلي (ت ٤٦٦ هـ)

↓

القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن نصر البغدادي (ت ٤٢٢ هـ).

وليس من شرط هذا العرض أن يستكثر من نماذج هذه الأسانيد ويستقصي طرقها في كتب الفهارس والبرامج، وحسبه أن يمثل لاعتناء مالكية الغرب الإسلامي برواية آثار القاضي عبد الوهاب، ويدرس سلسلة الأسانيد المستشهد بها في ضوء قراءة متأنية، واستنطاق رصين. ولا شك أن تأمل هذه الأسانيد يسمح باستخلاص جملة من الملاحظ:

١ - إن كتاب "التلقين" يستأثر بنصيب الأسد في مرويات فقهاء الغرب الإسلامي، بالقياس إلى غيره من آثار القاضي عبدالوهاب، وهذه الحظوة التي ظفر بها "التلقين" مردها إلى الطبيعة العلمية والمنهجية للكتاب الذي يعد من أهم مختصرات المذهب المالكي، وأنفع مراجع الفقه الابتدائي، فضلاً عن استيعابه الموضوعي وميله إلى العبارة الواضحة السلسة.

٢ - يمكننا أن نركز في الرواة الأول لآثار القاضي عبد الوهاب على طبقتين كان لهما دور بارز في التحمل والأداء:

الأولى: تلقت هذه الآثار من منشئها مباشرة، ومن فقهائها الرواة: ابن شماخ الغافقي (ت ٤٥٩ هـ)، ومهدي بن يوسف الوراق، وأحمد بن إبراهيم اللواتي المرسي، وأبو الحسين يحيى بن إبراهيم اللواتي المرسي (ت ٤٩٦)، وعبد الحق الصقلي (ت ٤٦٦ هـ)، ونقدر أن يكون عددهم أكبر من هذا.

ورجال هذه الطبقة موصوفون بالصلاح والفضل والخير، مع حظ غير يسير من الفقه والعلم، ومما جاء في تزكيتهم وتعديلهم:

أ - قول الحافظ ابن بشكوال في حق ابن شماخ الغافقي: «وكان من أهل الخير والفضل والدين، والتواضع والطهارة، والأحوال الصالحة»[١].

ب - وقول القاضي عياض عن عبد الحق الصقلي: «كان فقيهاً، فهماً، صالحاً، ديناً، مقدماً، بعيد الصيت، شهير الخير، مليح التأليف»[٢].

ولا أعلم من جرح منهم بشيء إلا يحيى بن إبراهيم اللواتي المرسي، فقال فيه ابن عطية: «وكان رحمه الله رجلاً صالحاً إلا أنه اختلط آخر عمره، وحدث بما ليس من روايته»[٣]. وقال ابن بشكوال: «وسمعت بعضهم يضعفه وينسبه إلى الكذب وادعاء الرواية عن أقوام لم يلقهم ولا كاتبوه، ويشبه أن يكون ذلك في وقت اختلاطه، والله أعلم،

---

(١) الصلة: ٢/٥١٢.

(٢) انظر ترتيب المدارك: ٨/٧٢-٧٣.

(٣) انظر فهرس ابن عطية: ٨٤.

لأنه اختلط في آخر عمره»[١]. وعلى تضعيف ابن بشكوال اعتمد الذهبي في (ميزان الاعتدال)[٢].

والحق يقال أن هذا الجرح لا يقدح في رواية الرجل لكتاب "التلقين" وغيره، لأنه تأكد بما لا يدع مجالاً للشك سماعه من القاضي عبد الوهاب وحمله عنه سنة (٤٢١هـ)، وعمره آنذاك لا يتجاوز العقدين، وهو سن تفتح الذهن وتيقظ الفكر، فلا شك، إذن، أنه عني برواية "التلقين" في فترة مبكرة من نشاطه العلمي، والاختلاط إنما أصابه في آخر عمره كما يفيد ذلك علماء الجرح والتعديل.

ويجدر الإيماء هنا إلى أن أعلم رجال هذه الطبقة هو عبد الحق الصقلي (ت٤٦٦) وتكفيه تحلية الذهبي: «الإمام شيخ المالكية»[٣].

الثانية: تلقت آثار القاضي عبد الوهاب من تلامذته، وقد عرفنا من فقهاء هذه الطبقة: أبا محمد عبد الرحمن بن عتاب الأموي الفقيه المفتي الراوية (ت٥٢٠هـ)[٤]، والحافظ القاضي الشهيد أبا علي الحسين بن محمد بن فيره بن حيون الصدفي المعروف بابن سكرة (ت٤٩٢هـ)[٥]، وأبا المطرف عبد الرحمن بن سعيد ابن هارون السرقسطي المقرئ (ت٥٥٢هـ)[٦]، وأبا الأصبغ عيسى بن سهل الأسدي الأندلسي (٤٨٦هـ) الفقيه المفتي صاحب كتاب "الأحكام الكبرى"[٧]، وأبا محمد عبد الحق بن غالب بن عطية (ت٥٤٦هـ) صاحب التفسير الحافل الماتع: "المحرر الوجيز"[٨].

ورجال هذه الطبقة - فضلاً عن تدينهم وعدالتهم - مشهورون بالتقدم في العلوم، والعكوف على الرواية، وهم في الجملة أعلم من رجال الطبقة الأولى باستثناء الإمام عبد الحق

(١) انظر الصلة: ٢/٦٠٩.

(٢) ميزان الاعتدال: ٤/٣٦٠.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١٨/٣٠١.

(٤) ترجمته في الصلة: ١/٣٤٢، وفهرس ابن عطية: ٨٠.

(٥) ترجمته في الغنية: ١٢٩-١٣٨. وفهرس ابن عطية: ٧٤-٧٦.

(٦) ترجمته في الغنية: ١٦٨، والصلة ٢/٣٥١.

(٧) ترجمته في الديباج: ١٨١، والشجرة: ١٢٢.

(٨) ترجمته في الديباج: ١٧٤، والشجرة: ١٢٩.

الصقلي (ت٤٦٦هـ)، وثناء العلماء عليهم في كتب الطبقات ومعاجم الرجال لا يعد ولا يحصى.

وعنايتنا برواة هاتين الطبقتين دون غيرهما معللة بما لهم من فضل السبق والريادة، ومع هذا فلسنا ننكر دور فقهاء الطبقات المتأخرة في نشر فقه القاضي عبد الوهاب والتمكين له، ولاسيما إذا عرفنا أن من رجال الطبقة الثالثة ـ مثلاً ـ علماء بارزين كالقاضي عياض، والحافظ ابن بشكوال وغيرهما.

٣- إن المزايا العلمية والخلقية لهؤلاء الرواة حببت طلبة العلم في الإقبال على رواية آثار القاضي عبد الوهاب ودرسها، فراجت سوق "التلقين"، على وجه الخصوص، في حلق الفقه ومجالسه، لحاجة المبتدئ إليه من جهة، وشهرة مؤلفه في مضمار العلم من جهة ثانية، وتميز مدرسيه ورواته بخصال عالية تجمع بين العدالة والضبط من جهة ثالثة.

ب ـ الدرس:

لا شك أن الحملة الأول لآثار القاضي عبد الوهاب كانوا حين يحلقون للفقه ويجلسون لإسماعه في شتى حواضر الغرب الإسلامي، يقرئون كتاب "التلقين" ويروونه ويجيزون به، كما يقرئون ويروون ويجيزون بغيره من كتب القاضي كـ "المعونة على مذهب عالم المدينة" و "الإشراف على مسائل الخلاف"، ومن مجالس هؤلاء الرواة ذاع فقه القاضي عبد الوهاب وشاع، وتعددت أسانيد روايته وطرق حمله بدءاً من أوائل القرن الخامس الهجري.

وإذا كنا لا نغنم أحياناً من تراجم بعض الرواة الأول لآثار القاضي إشارات صريحة تفيد عكوفهم على تدريس "التلقين" وغيره، فإننا لا نعدم في تراجم من تلاهم من فقهاء العدوتين حرصاً على إيلاء "التلقين" حظاً من العناية في حلق الفقه، ومن أشهر هذه الحلق:

١- حلقة الشيخ الفقيه العالم أبي محمد عبد الكبير بن الفقيه أبي بكر الغافقي الإشبيلي (ت٦١٧هـ)، قرأ عليه الفقيه القاضي أبو الحسن علي الرعيني المعروف بابن الفخار (ت٦٦٦هـ) كتاب "التلقين" تفقهاً بإشبيلية [١].

---

(١) انظر برنامج شيوخ الرعيني: ٣٩.

٢- حلقة الشيخ الفقيه العالم أبي الحسن محمد بن القاضي الأنصاري المعروف بابن زرقون الإشبيلي (ت٦٢١هـ) ، قرأ عليه أبو الحسن علي الرعيني (ت٦٦٦هـ) كتاب (التلقين) تفقهاً بإشبيلية [١] .

٣- حلقة الشيخ الفقيه المقرئ النحوي أبي الحسين بن أبي الربيع (ت ٦٨٨هـ)، أحد أعلام سبته وشيوخها المشهورين بالتفنن في العلوم ، وصاحب كتاب (القوانين) في النحو، درس عليه القاسم التجيبي (ت٧٣٠هـ) كتاب (التلقين) تفقها بسبتة [٢] .

٤- حلقة الشيخ المفسر الفقيه الأصولي أبي القاسم محمد بن أحمد بن جزي (ت٧٤١هـ)[٣] ، صاحب التآليف الماتعة النافعة ، كـ(القوانين الفقهيه) و (الوصول إلى علم الأصول) ، وممن درس عليه كتاب (التلقين) وغيره من آثار القاضي عبد الوهاب الفقيه النحوي عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري المالقي الفاسي (ت٧٨٤هـ) [٤] .

٥- حلقة الشيخ أبي العباس أحمد بن قاسم القباب (ت٧٧٩هـ)[٥] ، من أشهر فقهاء فاس المحققين، وصاحب الشرح الحافل على قواعد القاضي عياض، درس عليه (التلقين) الفقيه المفتي المتفنن عبد الله بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني الحسني (ت٧٩٢هـ) [٦] .

٦- حلقة الشيخ الفقيه المقرئ النحوي أبي عبد الله محمد الكناني القيجاطي (ت٨١١هـ)، سمع عليه أبو عبد الله محمد المجاري (ت٨٦٢) بعض التلقين تفقهاً بغرناطة [٧] .

---

(١) نفسه: ٣٢.

(٢) انظر برنامج التجيبي: ٣٨.

(٣) ترجمته في نثير الجمان: ١٦٥، وشجرة النور الزكية: ٢١٣.

(٤) انظر نيل الابتهاج: ٢٢٢.

(٥) ترجمته في الإحاطة: ١/١٨٧-١٨٨، وشجرة النور: ٢٣٥.

(٦) انظر نيل الابتهاج: ٢٢٦.

(٧) انظر برنامج المجاري: ١٠١.

٧- حلقة الشيخ الفقيه الفرضي النحوي أبي جعفر أحمد بن الشيخ الولي أبي البشر آدم الشقوري، سمع عليه أبو عبد الله المجاري فرائض (التلقين) بغرناطة [١].

٨- حلقة الشيخ الفقيه الصالح أبي الحسن علي الزيات من شيوخ ابن أبي جمرة، كان يقرئ في حاضرة إفريقية كتب المذهب، ومنها كتاب (التلقين) [٢].

٩- حلقة الشيخ الفقيه الأصولي النحوي المتفنن ابن مرزوق الحفيد العجيسي التلمساني (ت٨٤٢هـ)، درس عليه أبو الحسن علي بن محمد القلصادي (ت٨٩١هـ) كتاب (التلقين) [٣].

١٠- حلقة الشيخ الفقيه المفتي المؤقت علي بن موسى اللخمي البسطي المعروف بالقرباري (ت٨٤٤ هـ) درس عليه كتاب (التلقين) الفقيه الرحالة القلصادي [٤].

١١- حلقة الشيخ الفقيه المفتي محمد بن محمد بن محمد الأنصاري السرقسطي (ت٨٦٥هـ)، درس عليه القلصادي كتاب (التلقين) بغرناطة [٥].

١٢- حلقة الشيخ الفقيه المفتي قاضي الجماعة أبي عبد الله بن علي بن علاق (ت٨٠٦هـ)، درس عليه أبو عبد الله المجاري كتاب (التلقين) [٦].

وفي ضوء هذه المعطيات نستطيع التأكيد على ثلاثة جوانب تفيد في استجلاء مكانة (التلقين) في حلق التدريس:

الأول: له بعد مكاني يتجلى في دوران فقه القاضي عبد الوهاب ممثلاً في كتاب (التلقين) بحلق غرناطة وإشبيلية وسبتة وفاس وتلمسان وشتى حواضر إفريقيا، ومن هذه الحلق ذاع صيت القاضي وطارت شهرة آثاره.

الثاني: له بعد علمي يتمثل في تميز الشيوخ المدرسين لـ(التلقين) بالتقدم في الفقه، والقيام التام على أصوله وفروعه.

---

(١) انظر برنامج المجاري: ١٢٥.

(٢) انظر نيل الابتهاج: ٣٢١.

(٣) نفسه: ٥٠٤

(٤) نفسه: ٣٣٤.

(٥) نفسه: ٥٤٠.

(٦) انظر برنامج المجاري: ١٢٣.

الثالث: له بعد تعليمي يكمن في حرص الطالب على درس (التلقين) على شيوخ كثيرين، وبصفة علمية مدققة من بعض صيغ التحمل المصرح بها في كتب الفهارس والبرامج، كصيغة: (قرأت عليه كتاب التلقين تفقهاً).

٢- مجال التأليف الفقهي:

لم تقتصر عناية مالكية الغرب الإسلامي بآثار القاضي عبد الوهاب على الرواية والدرس، بل تجاوزتهما إلى التأليف والتصنيف، ولا شك أن ما ناله (التلقين) من استحسان الفقهاء مدرسين ورواة ومؤلفين كان كافياً لتحريك الأقلام وحفز القرائح إلى وضع شروح وتقاييد على هذا المختصر النبيل في فقه المالكية، وممن عني بذلك:

١- القاضي أبو بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ)، له (التقريب والتبيين في شرح كتاب التلقين)[١].

٢- عبد العزيز بن إبراهيم التميمي التونسي المعروف بابن بزيزة (ت٦٧٣هـ)، له كتاب (روضة المستبين في شرح التلقين)[٢].

٣- أبو العباس أحمد بن عثمان بن عبد الجبار التونسي الملتاني (ت٦٤٤هـ)، له تقييد على (التلقين)[٣]

٤- محمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن محرز (ت٦٥٥هـ)، يذكر أن له تقييداً على (التلقين)[٤].

٥- إبراهيم بن يخلف التسني المطماطي، له شرح على (التلقين) في عشرة أسفار ضاع في حصار تلمسان[٥].

---

(١) ينسب هذا الكتاب إلى أبي بكر بن العربي، وأخبرني أحد الإخوة أن نسخة منه توجد في الإسكوريال بمدريد.

(٢) توجد منه نسخة بالخزانة الملكية بالرباط، ونسختان بمركز إحياء التراث بجامعة أم القرى، إحداهما: ناقصة، والأخرى: كاملة، وهما مصورتان عن أصلين بالمغرب.

(٣) انظر نيل الابتهاج: ٧٩.

(٤) نفسه: ٣٨٠.

(٥) انظر أعلام المغرب العربي: ١/١٠٦.

٦- أبو الفضل السجلماسي له (تحصيل ثلج اليقين في حل معتقدات التلقين)[١] .

٧- الحسين بن داود بن بلقاسم الرسموكي السوسي، له (مسلك التبيين لمعاني التلقين)[٢] .

٨- علي بن محمد بن محمد القرشي الشبطي المعروف بالقلصادي (ت ٨٩١هـ)، له شرح على (التلقين)[٣] .

أما غير كتاب (التلقين) من آثار القاضي عبد الوهاب، فلم أقف على من اعتنى بها من فقهاء العدوتين شرحاً أو تقييداً أو تذييلاً، إلا ما كان من اختصار عبيد الله الجد الفهري اللبلي لكتاب (الإشراف على مسائل الخلاف)[٤]. ومع هذا فإنني أرجح أن تكون هناك أعمال أخرى عنيت بآثار القاضي على نحو من الأنحاء ، والكشف عن عناوينها أو أسماء مؤلفيها بصورة مستوفاة يحتاج إلى تتبع دقيق واستقصاء بالغ لا يتسع لهما حيز هذه الدراسة.

كتاب (تحصيل ثلج اليقين في حل معتدات التلقين) لأبي الفضل السجلماسي :

وحتى لا يكون كلامنا عارياً عن روح التطبيق الحي، والتمثيل النابض، ندير الحديث عن عمل جليل عني بشرح (التلقين) هو كتاب (تحصيل ثلج اليقين في حل معتقدات التلقين، مع ما انضاف إلى تهذيبه، من تفسير مشكل غريبه) للعلامة أبي الفضل السجلماسي أحد أعلام القرن الثامن الهجري بسجلماسة المعروفة بتاريخها العلمي الحافل، وعطاء أبنائها الثر.

---

(١) له نسخة فريدة بخزانة القرويين، قام بتحقيقها الأخوان: الفقيه العلامة محمد بوخبزة الحسني التطواني، والأستاذ بدر العمراني الطنجي، والعمل منجز سيرى النور قريباً.

(٢) توجد منه نسخة بخزانة الباحث المجتهد مصطفى ناجي رحمه الله، وقف عليها شيخنا العلامة محمد بوخبزة ونقل عنها أثناء تحقيقه لكتاب (تحصيل ثلج اليقين).

(٣) انظر نيل الابتهاج: ٣٣٩.

(٤) نفسه: ٢٣٧.

لكن ما يؤسف عليه أننا لا نظفر بترجمة للرجل في كتب الطبقات ومعاجم الرجال، وكل ما يعرف من اسمه الكنية والنسبة إلى البلد، كما أفاد ذلك تلميذه أبو عمران موسى الزناتي[١] في رسالته (انتقال المهل من محل إلى محل)[٢]، والفقيه الحسين بن داود بن بلقاسم الرسموكي السوسي في كتابه (مسلك التبيين لمعاني التلقين)، وقد نقل فيه عن (تحصيل ثلج اليقين) نقل واقتباس وإفادة.

ويبدو أن أبا الفضل كان على ولع كبير بشرح غريب الفقه المالكي، إذ أعمل قلمه في شرح غريب رسالة ابن أبي زيد، ولم نعرف عمله هذا إلا من خلال كتاب (التحصيل) نفسه الذي ترد فيه أحياناً إشارات من هذا القبيل: (وقد أشبعت القول في المذي والودي في "غريب الرسالة").

ولا شك أن أبا الفضل كان ممن لا يقعقع له بالشنان في علوم اللغة وفنون الأدب، فضلاً عن نبله في الفقه وقيامه عليه أتم ما يكون القيام، وطبيعة تكوينه العلمي دفعته دفعاً من حيث يدري أو لا يدري إلى العناية بالشروح والتآليف فيها، تعينه على ذلك مؤهلاته الممتازة، وترفده معارفه الواسعة، وما شرحه لمقامات الحريري[٣] إلا دليل ناهض على ميل الرجل العلمي ومنزعه الأثير في التأليف[٤].

أما كتاب (تحصيل ثلج اليقين في حل معتقدات التلقين) فله نسخة فريدة بخزانة القرويين بفاس، عبث فيها التصحيف والتحريف، وكثر السقط والبتر، وقد قيض الله لها رجلاً من أهل العلم والصنعة هو شيخنا الفقيه العلامة محمد بو خبزة الحسني التطواني، فبث فيها روح الحياة والتوثب بما وُهب من نفس علمي رصين، وخط جميل رائق، وذيلها بتعليقات تصحح المتن، وتثري موضوعه على عادته في تخريج المخطوطات وضبطها.

---

(١) ترجمته في الإعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام لابن إبراهيم: ٧/٢٩٩ - ٣٠٠.

(٢) أفاد الأخ الأستاذ بدر العمراني في مقدمة تحقيقه لكتاب (تحصيل ثلج اليقين) أن نسخة من هذه الرسالة توجد بالخزانة العامة بالرباط ضمن مجموع محفوظ تحت رقم: ١٥٨٨ د، وقد أرشده إليها الأخ الأستاذ عبداللطيف السملالي، جزى الله الأخوين خير الجزاء.

(٣) نص عليه موسى الزناتي في رسالته (انتقال المهل) كما أفاد ذلك الأستاذ بدر العمراني.

(٤) إن مادة غير يسيرة من ترجمة أبي الفضل السجلماسي أفدتها من مقدمة تحقيق (التحصيل) التي أعدها الأستاذ بدر العمراني.

ثم تلقف الأخ الأستاذ الباحث بدر العمراني الطنجي الأصل المحفوظ ونسخة الشيخ أبي خبزة، وبذل جهداً مشكوراً في إتمام ما نقص من ضبط، وسد ما تلوح من ثغرات التعليق، فضلاً عما تجشمه من نصب وعناء في تصحيح الأصل من جهة، وانتشال تعليقات الشيخ أبي خبزة من وهدة الإهمال والضياع من جهة ثانية.

وبين يدي العمل الآن مرقونا في صورته المثلى ينتظر الخروج إلى عالم النور بتحقيق الأخوين المذكورين، وقد أفدنا منه إفادة غير يسيرة في استجلاء صورة عن كتاب (التحصيل) وقيمته العلمية، ولاسيما أن ذلك لم يكن من شرط عمل المحققين، وإنما اجتزأ بالإشارة الطفيفة إلى ميزة الكتاب وإمامة صاحبه في الفقه واللغة.

وفيما يلي نقدم عرضاً مقتضباً عن الكتاب يعنى بمضمونه ومنهجه ومصادره وأسلوبه وقيمته، والنقائص التي يؤاخذ بها.

أ- موضوعه ومنهجه:

وفق المؤلف إلى انتقاء عنوان مناسب للكتاب، ومناسبته تأتي من مطابقته التامة لمضمون العمل ومنهجه في الآن عينه، ذلك أن العنوان يمكن تقسيمه إلى قسمين:

الأول: حل معقدات التلقين، والتعقيد المقصود هنا هو ما يعرف عند علماء البلاغة بالتعقيد اللفظي الناتج عن خلل في النظم، كتقديم وتأخير وإضمار مما لم تقم عليه قرينة لفظية أو معنوية ظاهرة.

الثاني: شرح غريب اللفظ. والغرابة عند علماء البلاغة أن لا يظهر معنى الكلمة إلا بعد الرجوع إلى المعجمات وكتب اللغة.

وعمل المؤلف لم يحد عن هذين الخطين، إذ كان يبدأ بشرح المعنى الغامض أو الفكرة المضمرة في فقه الباب، خاصة وأن نص التلقين يحتاج إلى تقدير حذف وتقديم وتأخير على نحو يستقيم معه ترتيب الكلام وتحصيل المعنى المراد منه، يقول أبو الفضل: (**قوله**: وترخيصنا للمسافر إذا أراد الرحيل وخاف أن يجد به السير أن يجمع بين الظهر والعصر، عقيب الزوال، وإذا كان راكباً أن يؤخر المغرب الميل ونحوه، وكرخصة الجمع بين الصلاتين في المطر، **هو منه إشارة** إلى وقت العذر والرخصة، فإن فعل هذا كله من غير عذر كان ممنوعاً منه، فإن فعله من عذر كان مندوباً إليه، وهو المعني بقوله: إما حظراً وإما ندباً، ألا ترى أنه

مندوب إلى تأخير المغرب إذا أراد الجمع بين الصلاتين بالمزدلفة إلى أن يمضي جزء من وقت العشاء، وهو مع ذلك في صورة وقت العذر، وهو أيضاً مع ذلك فضيلة وسنة، ولولا العذر ما ساغ له التأخير، وكذلك الجمع بين الظهر والعصر بعرفة للسنة الواردة في ذلك مندوباً إليه، **وتقدير قوله**: لولاه لم يكن له إما حظراً وإما ندباً: لولا العذر لم يكن له التأخير إما لأجل المنع منه وإما لأجل الندب إليه، **وقد قيل في الكلام تقديم وتأخير تقديره**: وفائدة الفرق بين العذر والرخصة، وبين الإباحة والتوسعة أنه له تأخير الصلاة عن وقت الفضيلة إلى وقت الإباحة والتوسعة ابتداءً من غير عذر كتأخير الصلاة عن أول الوقت إلى آخره، وليس كذلك في العذر والرخصة لأنه إنما أبيح لوجود العذر أو لتوقعه على......لولاه لم يكن له إما حظراً وإما ندباً مع صحة أدائه في الوقت المختار وإمكانه، كترخصنا إلى آخر كلامه، **هذا وجه ترتيبه**)[1].

هذا من حيث معالجة التعقيد المانع من تحصيل معنى الخطاب من طريق ميسور، أما من حيث معالجة اللفظ مستقلاً ومنعزلاً عن سياقه، فقد عني في مواضع كثيرة بشرح غريب الباب معدداً ما يقع فيه من كلمات صعبة تحتاج إلى استفتاء المعاجم المبسوطة، ومن أمثلة ذلك أنه لما بين المجمل والعام من أحكام باب الطهارة، انتقل إلى شرح غريبه، فوقف على كلمات غير يسيرة مثل: (العنفقة، الخضخضة، الارفاغ، المعقوص، القلس، السرار، بنات وردان..).

ومنهج الرجل في العمل أن يأتي بنص التلقين مصدراً بكلمة (قوله)، ثم يردف ذلك بشرحه، وغالباً ما يستهله بصيغة: (هو منه إشارة)، وفي بعض الأحيان يستعمل كلمة (ومعناه)، وكلمة (يريد) بوصفها مفتاحين للشرح.

بيد أن المادة الفقهية للكتاب ليست مقصورة على فقه القاضي عبد الوهاب وحكراً على (تلقينه)، وإنما تلفي فيها من فقه السجلماسي قسطاً غير يسير، ذلك أن الرجل يغني شرحه أيضاً بنكت فقهية جليلة تدل على علو كعب، وطول باع، ومن ذلك عنايته بفقه الفروق: كالفرق بين الخليط والشريك عند مالك، والفرق بين القطاعة والكتابة، والفرق بين

---

(١) تحصيل ثلج اليقين (نسخة مرقونة)، تحقيق: محمد بوخبزة، وبدر العمراني، ص ١١-١٢.

شرط الصحة وشرط الأداء في العبادة، وخوضه في المسائل الدقيقة كتخصيص العمومات بالعادة في الإيمان.

ب - مصادره:

إن مصادر (التحصيل) ليست من الوفرة والكثرة بالدرجة التي تتطلب الاستقراء التام والتتبع الدقيق، وتسمح في الآن عينه بتلمس وجوه الاستفادة وطرائقها من هذه المصادر، ومع ذلك فإننا نستطيع التمييز بين أصناف من شواهد الكتاب:

- **الشاهد القرآني**: وهو يسير ومصدره معروف.
- **الشاهد الحديثي**: وهو يسير أيضاً ومصدره معروف.
- **الشاهد الفقهي**: مستقى من كتاب (المنتقى) للباجي، وكتاب (المعونة على مذهب عالم المدينة) للقاضي عبد الوهاب، وكتاب (وثائق ابن سهل)..
- **الشاهد اللغوي**: مستمد من كتاب (تهذيب الألفاظ) لابن السكيت، وكتاب (العين) للخليل بن أحمد، وكتاب (غريب الحديث) لأبي عبيد..
- **الشاهد الأدبي**: وموارده دواوين الشعراء المشهورين، وكتاب (الحماسة) للأعلم الشنتمري، وغيرها.

ج- أسلوبه:

إن أول ما يستلفت النظر في أسلوب المؤلف ميله إلى السهولة والليونة، وتجنبه التعقيد والالتواء، وهذا منزع في التأليف مطلوب بل واجب اتباعه في عمل مهمته شرح الغوامض، وفك المعقدات، وتوضيح المبهمات.. ولم تكن السهولة لتسقط الكلام في ضعف وفسولة، وإنما احتفظت العبارة بجزالتها ورونقها، مؤدية المعنى في أوضح صورة، وأصح قالب.

د- مآخذ على الكتاب:

يؤاخذ المؤلف بأربعة أشياء:

أولاً: إدراجه كلمات ميسورة متداولة في باب الغريب، مثل: (النية، الذقن، المغمى عليه، شاطئ البحر، المعالم، الشفق، المدد)، وبعض هذه الكلمات -كما ترى- لا يخفى معناها على الصبي المميز، فكيف يسوغ عدها من الغريب؟

ثانياً: يحتاج شرح بعض الكلمات إلى الوقوف عند دلالاتها الشرعية استيفاء للبيان والتوضيح، ومنه كلمة (الاستنكاح) التي شرحها المؤلف بقوله: (الملازمة، وأصله: دخول

الشيء في الشيء)، وكان عليه أن يضيف : (والمستنكح : هو الموسوس الذي يكثر شكه في وضوئه أو صلاته) .

ثالثاً : في شرح بعض الكلمات نقص ظاهر، مثل كلمة (الشغار) شرحها المؤلف بقوله : (ارتفاع الصداق)، والشرح الصحيح الكامل هو : (أن يزوج الرجل قريبته رجلاً آخر على أن يزوجه هذا الآخر قريبته بغير صداق منهما) .

رابعاً : لم يصن المؤلف كتابه عن حديث ضعيف هو حديث : (إذا بال أحدكم فلينثر ذكره ثلاث مرات)، وآفته عيسى بن يزداد، قال أبو حاتم : (لا يصح حديثه وليس لأبيه صحبه) [١] .

هـ ـ قيمته :

للكتاب قيمة مزدوجة تابعة لطبيعة مضمونه، ومتفرعة عن خصوصية مادته، بمعنى أن عوائده تصب في مجالين :

– **مجال لغوي** : تكمن فوائده فيما حرره المؤلف من شروح للغريب أغناها بشواهد أوابد من محفوظه الشعري، ووشاها بطريف نقول عن أئمة في اللغة، إلى ما عني به من ضبط الكلمات وأسماء الأمكنة، عارضاً لاختلاف اللغات، ووجوه الصواب في المسألة الواحدة .

– **مجال فقهي** : تتمثل فوائده في فك معميات (التلقين) سياقاً ولفظاً، وتيسير مضمونه الفقهي على نحو يجلو مرامي الخطاب في الصورة التي أرادها المؤلف، وخفيت على القارئ أحياناً نتيجة اختصار معنى، واكتناز الأدلة، وانفصال القرائن . .

وعلى العموم فإن شرح السجلماسي اضطلع بمهمة البيان على أتم وجه وأكمل صورة، إذ خاض في جميع وجوه الإجمال والإبهام والإطلاق والعموم، رفعاً للقيود المانعة من الإبلاغ والتواصل، ومن أمثله ذلك :

– تخصيصه للعموم في نص التلقين : (**قوله** : وليس كل الفروض من شروط الصحة ، **هو منه إشارة إلى** الخشوع في الصلاة، إذ قد تصح الصلاة دونه وإن كان واجباً . .) [٢] .

---

(١) انظر ميزان الاعتدال : ٣ / ٣٢٧ .

(٢) تحصيل ثلج اليقين (نسخة مرقونة) : ١٢ .

- تفصيله للمجمل في نص التلقين: (**قوله**: ومنه ما يشتركان في جنسه دون تعيينه وهو الأقراء والشهور، **وهو منه إشارة** إلى أن عدة الحرة من وفاة زوجها: أربعة أشهر وعشر، وعدة الأمة: شهران وخمس، كما أن عدة الحرة في الحيض ثلاثة قروء، والأمة قرءان، فقد اشتركا في الخمس، واختلفا في التعيين، وهو كل ما يلزم واحدة منها من الأقراء والشهور)[١].

- توضيحه للمبهم: (**قوله**: ولا يقطع استدامتها، وإنما استصحاب ابتداء. **وهذا منه إشارة** إلى أن النية التي نوى بها صوم الشهر كله، لا تقطع حكماً، وإنما ينقطع استصحاب الحال الواجب اتصاله) [٢].

وهكذا اضطلع فقهاؤنا ـ منذ أن وقع لهم التلقين وملأ عليهم السمع والفؤاد ـ بدور تيسير خطابه ومصطلحه ، تمكيناً للفقه المالكي أولاً، وخدمة لفقه القاضي عبد الوهاب ثانياً، وكتاب (تحصيل ثلج اليقين) مفيد في بابه، جليل في مادته، يتصدر الشروح الفقهية المحررة على متن (التلقين)، بل ويفضل عنها بالميزة اللغوية التي أطرف بها المؤلف وأمتع، مجلياً نفيس التحقيقات، ورائق التخريجات.

ومما يجدر الإيماء إليه هنا أن وضع الشروح والتقاييد على كتاب التلقين كان بدافع تعليمي حيناً، وبدافع علمي حر لا علاقة له بمقتضيات التدريس والإقراء حيناً آخر، وفي كلتا الحالتين نتصور مكانة هذا المختصر عند مالكية الغرب الإسلامي، ونتلمس أثره القوي الذي لا يعادله إلا أثر الرسالة لابن أبي زيد القيرواني (ت٣٨٦هـ)، ومختصر المدونة لابن البراذعي (ت٣٧٢هـ) والتفريع لابن الجلاب (٣٧٨هـ).

وإذا فات بعض فقهاء العدوتين أن يدون شرحاً مستقلاً لـ (التلقين) أو يضع عليه تقييداً نافعاً، فإنهم أفادوا منه نقلاً واقتباساً في تفسير آية، أو تحرير فتوى، أو وضع شرح فقهي، وهذا ما سنعنى بالحديث عنه في الفقرات التالية.

---

(١) تحصيل ثلج اليقين (نسخة مرقونة):: ٣٢.

(٢) نفسه: ١٨.

إن المطالع لكتب التفسير الفقهي، ومجامع النوازل، ومصنفات الشروح الفقهية، مما أنتجته يراعة الفقيه المالكي بالعدوتين يقف على مادة غير يسيرة من فقه القاضي عبدالوهاب، استثمرت في ثلاثة مستويات:

١- **مستوى مصدري**: لا يتجاوز النقل عن كتب القاضي والاقتباس منها في سياق الاستشهاد وتأكيد المقال، ومن ذلك:

أ- قول الإمام القرطبي في تفسيره عند الحديث عن دية الجراح: (قال القاضي عبدالوهاب: وكل ما فيه من جمال منفرد عن منفعة أصلاً ففيه حكومة، كالحاجبين وذهاب شعر اللحية وشعر الرأس وثديي الرجل وإليته)[١].

ب- ما جاء في جواب القاضي ابن رشد الجد حين سئل عن القرى التي تجب فيها الجمعة: (وقال أبو محمد عبد الوهاب: حد ذلك أن يكونوا عدداً يمكنهم الثواء، وتتقرى بهم القرية)[٢].

ج- قول المواق في (التاج والإكليل) عند الحديث عن موجبات الغسل: (انظر على ما قاله عبد الوهاب: إن مقتضى المذهب فيمن تقدمته لذة ثم بعد سكونها خرج المني أنه لا غسل عليه)[٣].

ويعد كلام القاضي عبد الوهاب حجة دامغة عند ناقليه، تحل الإشكال، وتحسم الخلاف، وهاهو الفقيه المشهور أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق يقول في جوابه عن مسألة فقهية شائكة: (وهذا القاضي عبد الوهاب قد حكى الخلاف، وهو ممن لا يقعقع له بالشنان)[٤].

٢- **مستوى توضيحي**: ونقصد به ما لنا في آثار الأندلسيين والمغاربة من فقرات تعنى بشرح فقه عبد الوهاب على نحو يوضح المبهم، ويبين المشكل، ويفصل المجمل، ومن هذا القبيل ما سئل عنه ابن رشد الجد من توضيح قول عبد الوهاب في (التلقين):

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٢٠٧.

(٢) انظر فتاوى ابن رشد: ٢/ ١٠١٠.

(٣) انظر التاج والإكليل لمختصر خليل بهامش مواهب الجليل: ١/ ٣٠٧.

(٤) انظر المعيار للونشريسي: ٥/ ٣٧٦.

(ويفسد الصلاة اثنتا عشرة خصلة: قطع النية عنها جملة. أما تغييرها ونقلها فله تفصيل) فأجاب: (أما قطع النية فهو رفضها وإبطالها، ومن فعل ذلك فقد أفسد صلاته، لأنه قطعها، وخرج عنها، لأن شأن الصلاة أن يتصل عملها إلى آخرها على النية التي أحرم بها، وإن سها عن استصحابها لم يضر ذلك لبقائه على حكمها ......)، وبعد أن استوفى شرح المسألة قال: (فهذا تفسير ما أجمله القاضي أبو محمد عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ من هذا اللفظ في تلقينه) (١).

٣- **مستوى نقدي**: لا يكتفي فيه المؤلف بالنقل عن القاضي إفادة واقتباساً، أو التعليق على كلامه شرحاً وتفسيراً، وإنما يتعقبه بالنقد إذا خولف مشهور المذهب، ومن هذا الوادي تعقيب القاضي عياض على نص (التلقين): (ما لا نفس له سائلة كالزنبور والعقرب والخنفساء والصرار وبنات وردان وشبه ذلك، حكمه حكم دواب البحر، لا ينجس في نفسه، ولا ينجس ما مات فيه من مائع أو ماء، وكذلك ذباب العسل والباقلاء ودود الخل)، بقوله: (في قول التلقين نظر، والصواب أن لا يؤكل ما لا نفس له سائلة إذا كان مختلطاً بالطعام وغالباً عليه، وإن تميز الطعام منه أكل الطعام دونه، إذ لا يؤكل الخشاش على الصحيح من المذهب إلا بذكاة) (٢).

والمواضع التي استثمر فيها فقه القاضي غزيرة المادة، متباينة المشرب، يحتاج استيعابها إلى دراسة مستقلة برأسها، وما اجترأنا به من أمثلة كاف للاستدلال على حضور الشاهد الفقهي من (التلقين) وغيره في كتابات فقهائنا المغاربة والأندلسيين، وإسهامه في دعم المذهب المالكي وتقوية شوكته بهذا الصقع النائي من أصقاع العالم الإسلامي.

٣- أدوار التأثير في المدرسة المالكية بالغرب الإسلامي:

إن وجوه العناية التي ظفرت به آثار القاضي عبد الوهاب بالغرب الإسلامي لا تعكس ـ في حقيقة الأمر ـ إلا التأثير القوي لفقه الرجل الذي استطاع أن يشق طريقه إلى حلق الدرس، وأسانيد الرواية، وميدان التأليف، بخطى ثابتة لا تعرف التباطؤ والتلكؤ. وقد كان لهذا التأثير أدوار أثرت المدرسة المالكية بالغرب الإسلامي، يمكن إجمالها فيما يلي:

---

(١) انظر فتاوى ابن رشد: ١/٥٥٨ ـ ٥٦١.

(٢) انظر التاج والإكليل بهامش مواهب الجليل: ١/٨٧.

أ ـ دور التوجيه:

تصوره خير تصوير أستاذية القاضي عبد الوهاب وحرصه على تكوين طائفة من فقهاء العدوتين، وإجازته لهم بمروياته ومؤلفاته، ولاشك أن القاضي الشيخ كان يدرس طلبته الأندلسيين والمغاربة الفقه المالكي الأصيل المبني على المشهور من روايات المذهب والصحيح من أقواله. ويوجههم إلى قراءة المصادر النافعة والكتب المليحة، لذلك كان (التلقين) مما يقرئه للطالب ويجيز به، كما نقدر أن يكون مدار الدرس في حلقه على الأمهات والمختصرات كالمدونة ورسالة ابن أبي زيد، ولعل شرحه عليهما كان بدافع تعليمي محض.

ب ـ دور التأصيل:

وهو الدور المرموق الذي اضطلع به القاضي عبد الوهاب في المدرسة المالكية بالغرب الإسلامي، إذ أسهم الرجل في تحبيب الفقهاء في حفظ كتب المذهب، وتحفيزهم على التأليف في الفقه المالكي، فضلاً عن التأطير العلمي للطلبة، وفتح آفاق الرواية، وتعميم عرف الإجازة.

وقد أخبرتنا كتب الفهارس أن الفقيه أبا زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن منتيل السرقسطي (ت٥١٥هـ) كان يحفظ (التلقين) عن ظهر قلب، ويشغف به بالغ الشغف، ونظم في الإشادة به هذين البيتين:

سأقطع نفسي عن علائق جمة وأشغل بـ (التلقين) نفسي وباليا

وأجعله أنسي وشغلي وهمتي وموضع سري والحبيب المناجيا [١]

وإذا فات بعض فقهائنا الحفظ المتقن لـ (التلقين)، فقد أشير إلى البعض الآخر بالقيام التام عليه، ومن الأوصاف التي ذكرت للفقيه أحمد بن عثمان بن عبد الجبار التونسي الملتاني (ت٦٤٤هـ) أنه صاحب (تقدم في التلقين، ونظر لم يكن لغيره، ولم يكن له مثله في غيره من الكتب، وهو وإن كان إماماً في الفقيه لكنه في هذا الكتاب آصل من غيره)[٢].

(١) الغنية: ١٦٧.

(٢) انظر نيل الابتهاج: ٧٨.

كما أخبرتنا كتب الطبقات ومعاجم الرجال عن عدد من الفقهاء الذين عنوا بشرح (التلقين)، ومن أنبل هذه الشروح شرح ابن بزيزة التونسي، وشرح أبي الفضل السجلماسي الذي خصصنا للحديث عنه موضعاً من هذه الدراسة.

ومن ثم فقد كان كتاب (التلقين) أحد كتب القاضي عبد الوهاب نفعاً وعائداً على الفقه المالكي بالغرب الإسلامي في مجال التأطير والتأليف، إذ قامت به معارف الفقيه، واستقام جواب المفتي، واطرد قول المؤلف والشارح على ما يحب ويشتهي.

ودور التأصيل يتجلى في رسوخ فقه الرجل داخل المنظومة الفقهية المغربية الأندلسية على تعدد مشاربها، وتباين وسائلها، هذا الرسوخ مكن للفقه مهاداً نظرياً، وأتاح له قوةً مرجعية، وهيأ له حملة ورواة تتسع بهم دوائر الانتشار، وتوطأ أكناف القبول.. حتى إذا سئل مالكي مغربي أو أندلسي: ما هو مرجعكم في كذا، أو ما رأيكم في كذا، لم يعدم الجواب، وبين يديه مختصرات نبيلة كـ (التلقين) و (الرسالة) وغيرهما.

٣ ـ دور الحوار:

إن ما يستتبعه دور التوجيه والتأصيل أن يقوم حوار حي بين المدرستين: مدرسة العراق، ومدرسة الغرب الإسلامي، والقاضي عبد الوهاب اضطلع بمدّ جسور هذا الحوار وتمتين عراه، حين درس أندلسيين ومغاربة، وأجاز لهم ما رواه وألفه، وخصوصاً كتاب (التلقين) الذي أصبح مادة أساسية في حلق الفقه، وكعبة مقصودة للشراح والمؤلفين.

ومن ثم كان للشيخ العراقي حضور أي حضور في مدرسة الغرب الإسلامي، تعكسه مستويات متعددة: التدريس، والرواية، والتأليف، وهذا الحضور ـ في حقيقة أمره ـ تجل من تجليات الحوار بين المدرستين الذي يحتاج إلى توسع وإفاضة لا تفي بحقهما إلا دراسة مستقلة تستبين وجوه التبادل المعرفي والثقافي بين العراق والعدوتين من خلال التركيز على المشيخة، وكتب الدرس، وحركة التأليف، وما يتفرع عن ذلك من أبعاد خلقية واجتماعية وعلمية.

وبعد:

فإن القاضي عبد الوهاب من الروافد السخية التي ضخت دماء حارة متوثبة في شرايين المدرسة المالكية بالغرب الإسلامي، وليس فضله عليها إلا كفضل الأب على الابن، يغمره بعطائه الفياض، ورعايته المثمرة..

فانعم به من أب يرعى حقوق ولده..وينفق عليه من وقته وعلمه وذوب جنانه..

وأكرم به من ولد بار بوالده، لا ينسى الفضل، ولا ينكث العهد.. وليست (روضة المستبين) لابن بزيزة، و(تحصيل ثلج اليقين) للسجلماسي، و(مسلك التبيين) للرسموكي إلا ثماراً دانية من قطاف هذا البرور .. وجني ذلك الوفاء ..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم.

المصادر والمراجع

١ ـ **أبحاث أندلسية**: حسن الوراكلي، الناشر: المطابع المغربية الدولية، طنجة، ط ١، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

٢ ـ **الإحاطة في أخبار غرناطة**: لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: محمد عبدالله عنان، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

٣ ـ **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**: العباس بن إبراهيم، الناشر: المطبعة الملكية، الرباط.

٤ ـ **أعلام المغرب العربي**: عبدالوهاب بنمنصور، الناشر: المطبعة الملكية، الرباط، ج١، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م، ج٢، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ج ٣، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م.

٥ ـ **برنامج التجيبي**: القاسم التجيبي، تحقيق: عبد الحفيظ منصور، الناشر: الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٨١.

٦ ـ **برنامج شيوخ الرعيني**: أبو الحسن علي بن محمد الرعيني الإشبيلي، تحقيق: إبراهيم شبوح، الناشر: مديرية إحياء التراث القديم، وزارة الثقافة، دمشق، ١٣٨١هـ / ١٩٦٢م.

٧ ـ **برنامج المجاري**: أبو عبد الله محمد المجاري، تحقيق: محمد أبي الأجفان، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨٢م.

٨ ـ **التاج والإكليل لمختصر خليل بهامش مواهب الجليل**: محمد بن يوسف بن أبي القاسم العبدري (المواق)، مطبعة السعادة، مصر، ط ١، ١٣٢٨هـ.

٩ ـ **التجيبي المحدث السبتي بين الرواية والدراية**: محمد المنتصر الريسوني، الناشر: جمعية البعث الإسلامي، تطوان، ط ١، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

١٠ ـ **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**: القاضي عياض بن موسى السبتي، ج ٧، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ج ٨، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

١١ ـ **التكملة لكتاب الصلة**: محمد بن أبي بكر ابن الأبار القضاعي، ط القاهرة، ١٩٥٦م.

١٢ ـ **الجامع لأحكام القرآن**: أبو عبد الله محمد الأنصاري القرطبي، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر، (د. ت).

١٣ ـ **الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب**: برهان الدين إبراهيم بن فرحون المدني، مطبعة السعادة، مصر، ط ١، ١٣٢٩هـ.

١٤ ـ **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**: محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي، ط. بيروت.

١٥ ـ **سير أعلام النبلاء**: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.

١٦ ـ **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، محمد بن محمد مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت، (د. ت).

١٧ ـ **الصلة**: خلف بن عبدالملك بن بشكوال، عني بنشره وصححه وراجع أصوله عزت العطار الحسيني، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

١٨ ـ **الغنية** (فهرست شيوخ عياض)، القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي، تحقيق: ماهر زهير جرار، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م.

١٩ ـ **فتاوى ابن رشد**: أبو الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد، تقديم وتحقيق وجمع وتعليق: المختار بن الطاهر التليلي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

٢٠ ـ **فهرس ابن عطية**: عبد الحق بن غالب بن عطية، تحقيق: محمد أبي الأجفان ومحمد الزاهي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

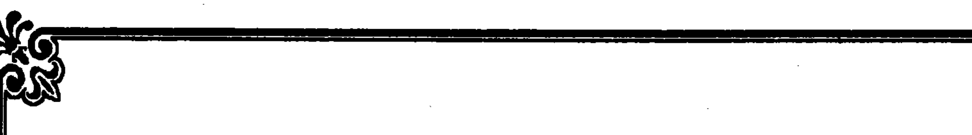
٢١ ـ **كتاب تحصيل ثلج اليقين في حل معقدات التلقين**: أبو الفضل السجلماسي، (نسخة مرقونة)، تحقيق محمد بو خبزة الحسني وبدر العمراني الطنجي.

٢٢ ـ **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب:** أبوالعباس أحمد بن يحيى الونشريسي، تخريج: جماع من الأساتذة بإشراف محمد حجي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامي، الرباط، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١.

٢٣ ـ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال:** محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار المعرفة ، بيروت، ط ١، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م

٢٤ ـ **نثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان:** أبو الوليد إسماعيل يوسف «ابن الأحمر»، تحقيق: محمد رضوان الداية، الناشر : مؤسسة الرسالة، مطابع دار الفلان، ط ١، ١٩٧٦م.

٢٥ ـ **نيل الابتهاج بتطريز الديباج:** أحمد بابا التنبكتي، إشراف وتقديم: عبدالحميد عبد الله الهرامة، الناشر : كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ١٩٨٩م.




أسباب تعدد المدارس في المذهب المالكي وأهم ميزات المدرسة البغدادية

إعداد

الأستاذ : الحبيب بن طاهر*

* واعظ ومدرس بالجوامع والمساجد بتونس. ولد سنة (١٩٥٨م) حصل على شهادة الأستاذية في العلوم الإسلامية من المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية بجامعة الزيتونة سنة (١٩٩٢م)، تلقى العلوم الشرعية على ثلة من علماء الزيتونة. ألف كتاب: «الفقه المالكي وأدلته» في أربعة أجزاء، وحقق كتاب: «الإشراف» للقاضي عبد الوهاب، وله غير ذلك من المؤلفات.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي المصطفى الكريم

وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

وبعد : فإن من أعظم ما يميز أمة الإسلام عن غيرها من الأمم أن مسيرتها العلمية مترابطة حلقاتها ، من أول انطلاقتها إلى أن يرث الله الأرض وما عليها ؛ يسعى اللاحق من علمائها إلى دراسة ما خلفه سلفه تقويماً وتصحيحاً وبناء عليه . فلا تجد قطيعة ولا صراعاً بين أجيال هذه الأمة . بل إن المتأخر منها لا يجد هويته ولا تتحقق ذاته إلا بانتمائه لمن سبقه .

وسيظل هذا التواصل قائماً بين الأجيال ما بقي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . إذ هما يمثلان معاً المرجع الوحيد الذي تأسس عليه علوم المسلمين ومعارفهم على اختلافها وتنوعها .

ومن هنا كان كل عالم من علماء الإسلام ونابغة من نوابغه محل افتخار كل جيل من أجيال المسلمين ، وكل عصر من عصورهم .

وكان حقاً على المسلمين الاعتراف لهم بالجميل وإحياء ذكراهم ، بالتعريف بهم وبجودهم في خدمة الإسلام وعلومه ، ونشر تراثهم ، حتى يكونوا منارات اهتداء في حياة المسلمين .

وإلى جانب علماء سائر المذاهب الفقهية ، فإنَّ علماء المذهب المالكي وعلى رأسهم إمام المذهب مالك بن أنس – رضي الله عنه – يمثلون تياراً مهماً ومتميزاً في تأسيس وبناء

النظام التشريعي في حياة الأمة ، وتمكين المسلمين من التصرف على وفق أحكام الشريعة الإسلامية في جميع مجالات حياتهم .

ومن أهميته وتميزه الثراء التشريعي الذي ينطوي عليه ، وتعدد مدارسه ، واختلاف أنظار روادها في تطبيق المذهب ، وتحرير أصوله ، ودراسته ، وتدوينه .

وسيتناول هذا البحث بالدراسة أسباب تعدد المدارس داخل المذهب المالكي ، وما امتازت به إحداهما – وهي المدرسة العراقية – عن غيرها .

والله الموفق للصواب

ومنه عَزَّ وجَلَّ استمد العون والتوفيق

تمهيد

لقد كان لدار الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلوات ، فضل كبير على الإمام مالك (٩٣هـ - ١٧٩هـ) - رحمه الله تعالى - من خلال بيئتها العلمية وموقعها الديني في قلوب المسلمين .

فقد وفرت المدينة المنورة للإمام مالك جميع وسائل المعرفة الشرعية . إذ كانت في عهده تزخر بالروايات المنقولة عن النبي ﷺ ، وبآثار الصحابة وفتاويهم ، متفوقة في ذلك على سائر الأمصار ، ومتميزة عنها بسلامتها من نفوذ الوضاعين والمدلسين فيها . فلم يكن هؤلاء « بالذين تنفق بالمدنية خزعبلاتهم ، ولا تروج ترهاتهم . إذ كانت المدينة مكتظة بأهل العلم والأثر ، هجيرانهم الرواية والتحديث ، ودراسة العلم . ودينهم التمسك بالحق الصريح . فلو رمى أحد الوضاعين بين ظهرانيهم بحصاة لنفوه فإن المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها »[1] . ومن أحق من أهل المدينة بضبط السنة وتمحيص مروياتها « فإنَّها ما زالت يومئذ عاضة على السنن بنواجذها ، مقتفية هدي رسول الله ﷺ وخلفائه وخاصَّة أصحابه »[2] .

كما كانت المدينة في عهد مالك ميداناً للحوار الفقهي ومركزاً عظيماً لحركة الاجتهاد، أبدى أعلامها من التابعين جهداً كبيراً في متابعة الحوادث بالإفتاء ، وإسعاف المجتمع الإسلامي المتحرك بما يحتاجه من نظام تشريعي متكامل مغط لجميع مجالات الحياة ومؤسس على مصادر الإسلام الأولى : القرآن والسنة .

وقد خلص كل ذلك إلى مالك بن أنس - رحمه الله - واستقرَّ عنده ، ممَّا جعل تكوينه العلمي متسماً بالشمولية قائماً - في المجال التشريعي - على الحديث النبوي في

(١) كشف المغطى . محمد الطاهر بن عاشور : ص٨ . الشركة التونسية للتوزيع تونس سنة ١٩٧٥ .
(٢) كشف المغطى : ص ٨ .

أصح رواياته ، وآثار الصحابة من جهة ، وعلى التفقه وإعمال الرأي من جهة أخرى ، دون أن تميل عنده كفة على الأخرى . قال الشيخ أبو زهرة : « لعلك لا تجد عالما قد اجتمعت له الصفتان بقدر كامل ، ويكاد يكون متساوياً في الناحيتين كمالك رضي الله عنه ، فهو الحافظ المحدث الذي كان أول من نبه لضرورة تمييز مراتب الرجال لقبول أحاديثهم ، ودرس المرويات دراسة ناقد فاحص ، وهو إلى هذا إمام دار الهجرة في الفقه والإفتاء » [(١)] .

وقد أهله ذلك لأن يعتبر بحق وارث علم جيلي الصحابة والتابعين بكل اتجاهاته ومشاربه الاجتهادية . وقد تمخض من خلال هذا الميراث مذهبه واضحاً في أصوله جلياً في معالمه .

ومن فضل المدينة المنورة – أيضاً – على هذا العالم أن وفر له موقعها في نفوس المسلمين فرصة التعريف به وبمذهبه لدى زائريها الذين ما إن تحققوا إمامته حتى أقبلوا عليه من كل البلاد والأصقاع ، راغبين في الإفادة من علمه ، والتفقه عليه ، والرواية عنه ، والشرف بملاقاته . ولا « يعرف أن إماماً من الأئمة كان له من التلاميذ مثل عدد تلاميذ الإمام مالك رضي الله عنه » [(٢)].

وبذلك يكون هذا الإمام قد تحققت فيه نبوءة النبي ﷺ ، كما ذهب إلى ذلك غير واحد من أساطين العلماء [(٣)] بأنه المقصود بقوله ﷺ : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل يطلبون العلم ، فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة » [(٤)] .

---

(١) « مالك » حياته وعصره – آراؤه وفقهه . محمد أبو زهرة : ص ١٦٨ . دار الفكر العربي القاهرة .

(٢) « مالك » . محمد أبو زهرة : ص ١٩٤ .

(٣) كسفيان بن عيينة وعبد الرازق (انظر : صحيح الترمذي ، كتاب العلم باب ما جاء في عالم المدينة والتمهيد لابن عبد البر ١/ ٨٤) .

(٤) أخرجه الترمذي في العلم باب ما جاء في عالم المدينة وأخرجه ابن عبد البر بسنده في التمهيد :١/ ٨٥ ، وعزاه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور للبيهقي والحاكم والشافعي (كشف المغطى : ص ٩) .

لقد تلقى عن الإمام مالك مذهبه جمهور غفير من التلاميذ القادمين من أنحاء متعددة ، لازموه وأخذوا عنه العلم بشقية الحديثي والفقهي ، والتزموا مسلكه الاجتهادي . ولما رجعوا إلى بلدانهم حملوا معهم هذا المنهج الشمولي في الدراسات الشرعية ، فحملوا موطأه ، وهو حصيلة جهده في جمع السنة النبوية ونقد مروياتها ، مع ما تضمنه من آثار لبعض الصحابة والتابعين ؛ وحملوا معهم فقهه وأقواله ومسلكه في التفقه ، وهو حصيلة اجتهاده ، كما حملوا معهم في نفوسهم إجلالاً وتقديراً لإمامهم .

وأخذوا ينشرون كل ذلك في بلدانهم لكونهم رجعوا علماء تصدوا للتدريس والإفتاء ، ورواية السنة ، وبعضهم تولى خطة القضاء ؛ فانتشر بذلك المذهب المالكي في عدة بلدان ، فكان في بعضها مهيمناً على كل البلاد لا يزاحمه أي مذهب آخر ، وهذا شأن المدينة المنورة ، والحجاز ، ومصر ، وإفريقية ، والقيروان ، وبلاد المغرب ، والأندلس ، وكان في البعض الآخر مزاحماً لغيره من المذاهب ، وهذا شأن العراق . وقد كان ظهور مذهب مالك في هذه البلدان قد بدأ وانتشر في حياة الإمام رحمه الله تعالى .

هذا الانتشار الواسع للمذهب ساعد عدة أسباب على إحداث منازع مختلفة في الفتوى والاجتهاد والتأليف . لم تلبث أن تطورت هذه المنازع إلى مدارس .

فما هي الأسباب المؤثرة في ظهور هذه المدارس ؟ وما هو أهم ما يميز المدرسة العراقية عن غيرها ؟ فهذان مبحثان اثنان .

***

المبحث الأول
أسباب تعدد المدارس في المذهب المالكي

إذا أمكن الوقوف – بكل يسر – على اسباب الاختلاف بين الفقهاء المجتهدين بعد وفاة صاحب الشريعة – عليه الصَّلاة والسَّلام – ؛ وعلى أسباب تطور اختلافهم إلى مذاهب متعددة ، تتميز عن بعضها في بعض أصولها وفروعها ؛ فإنَّه من الأيسر تحديد أسباب الاختلاف داخل المذهب الواحد ، وتحديد عوامل تطور هذا الاختلاف إلى مدارس تقوم بينها فوارق دقيقة .

على أنَّ المذهب المالكي هو المذهب الذي يظهر فيه بجلاء هذا الاختلاف المتطور إلى مدارس . وهو في ذلك يمتاز عن المذاهب الأخرى .

فقد اعتبر البعض ذلك ميزة للمذهب المالكي يعبر عن ثراء المنهج الأصولي المنتج لثروة تشريعية هامة تضم بين أجنحتها آراء المذاهب الأخرى ، فلا تجد – في الغالب – قولاً خارج المذهب إلا وتجد داخله – من فقهائه – من ينصره ويؤيده [(١)] فكان ذلك « جناباً خصيباً يجد فيه الباحث في الفقه ثمرات فكرته ناضجة ، ومنازع فقهية صالحة ، وآراء توافق البيئات المختلفة ، وكان ذلك من مظاهر الحيوية والقوة والصَّلاحية »[(٢)] .

هذا الثراء ، له جذور تتصل بمنهج إمام المذهب في تقويمه ما يصدر عنه من اجتهادات ، والتثبت من صحة فتاويه ، التي كانت تنقل عنه تباعاً إلى البلدان المتفرقة عن طريق سامعيها . كما تتصل بمنهجه في إعمال الأحاديث النبوية ، فكيف كان يقوم الإمام بتقويم اجتهاده ؟ وكيف كان منهجه في إعمال الأحاديث ؟ وما علاقة هذين العنصرين بنشوء المدارس وتعددها داخل المذهب .

---

(١) الاختلاف الفقهي في المذهب المالكي . مصطلحاته واسبابه . عبد العزيز بن صالح الخليفي : ص ١٤٥ – ١٤٩ ط ١ سنة ١٩٩٣ م .

(٢) « مالك » محمد أبو زهرة ص ٣٧٩ .

المطلب الأول : منهج إمام المذهب في تقويم اجتهاده وعلاقته بتعدد المدارس

لقد كان للعمر الطويل[1] الذي قضاه مالك – رحمه الله – في الإفتاء والتدريس ورواية الحديث النبوي أثره في بلورة منهج في تقويم اجتهاده ، يقوم على المراجعة وإعادة النظر المستمرين . وذلك في أمرين :

الأمر الأول : في اجتهاداته وفتاويه ، كلما استجد له ما يقتضي إعادة النظر في المسألة ، بإعمال دليل طارئ قوي عنده ، أو إلغاء دليل ظهر له ضعفه .

وكان صدور قول له في المسألة غير مانع له – رحمه الله – من أن يعيد النظر فيها من جديد ، وأن يعلن عن نتيجة بحثه الجديدة ، مهما كانت موافقة أو مخالفة للسابق[2] .

الأمر الثاني : في روايته للسنة النبوية ، التي ضمنها موطأه . فقد كان كلما أعاد روايته إلا كان له فيه مراجعة وتنقيح ، بإسقاط بعض الأحاديث والآثار ، وتغيير آرائه الفقهية التي فيه . فعن عتيق الزبيري قال : « وضع مالك الموطأ على نحو من عشرة آلف حديث . فلم يزل ينظر فيه سنة ويسقط منه ، حتى بقي هذا . ولو بقي قليلاً لأسقطه كله »[3] . وعن القطان قال : « كان علم النَّاس في الزيادة وعلم مالك في النقصان . ولو عاش مالك لأسقط علمه كله »[4] .

---

(١) عمر الإمام نحو ست وثمانين سنة . وقضى في التدريس ما يقارب الستين عاماً (« مالك » محمد أبو زهرة: ص ١٩٤) .

(٢) اصطلاح المذهب عند المالكية . محمد إبراهيم احمد علي . مجلة البحوث الفقهية المعاصرة . السنة ٤ العدد ١٥ . ص ٥٣ والاختلاف الفقهي في المذاهب المالكي : ص ٢٣٧ ، ٢٣٩ .

(٣) ترتيب المدارك . عياض بن موسى السبتي (نقلاً عن كتاب : الاختلاف الفقهي في المذهب المالكي ص ٧٦ – ٧٧) .

(٤) المصدر السابق .

وهذا لما عرف عنه من شدة التحري في رواية السنة وصرامة منهجه في ذلك [١].

وكان هذا العمل يتم منه في حلقات الدروس ، بحضور أصحابه وطلبة العلم بنوعية الفقهي والحديثي ، المتوافدين من مختلف الأقطار .

إلا أن هذا المنهج - منهج التنقيح والمراجعة للروايات والفتاوى - كان له التأثير البالغ في نشوء المدارس داخل المذهب ، عندما اقترنت به عوامل ، يمكن حصرها فيما يلي :

الأول : قيام نشاط تدويني لموطأ الإمام في الجانب الحديثي ، ولفتاويه في الجانب الفقهي .

ففي الجانب الحديثي فقد بلغ عدد رواة الموطأ عن مالك ألفاً وثلاثمائة ، حسب الإحصاء الذي قام به القاضي عياض[٢]. ولا شك أن هذا العدد الكبير كان له أثر كبير في اختلاف الموطآت إذ قد علم هذا الاختلاف بين الموطآت التي اشتهرت واطلع عليها العلماء وأحصوا ما فيها من الروايات [٣]. وسيأتي في العاملين المواليين أسباب هذا الاختلاف .

وفي الجانب الفقهي ، فقد قام بهذه المهمة نبغاء أصحابه ، ممن اشتهر بطول ملازمته . فعبد الرحمن بن قاسم (ت ١٩١ هـ) له سماع من مالك بلغ عشرين كتاباً [٤]. وعبد الله بن وهب (ت ١٩٧هـ) له سماع من مالك بلغ ثلاثين كتاباً [٥]. وأشهب بن عبد العزيز (ت ٢٠٤ هـ) له سماع بلغ عشرين كتاباً [٦]. وعبد الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤ هـ) له سماع

(١) انظر في ذلك ما كتبه ابن عبد البر في التمهيد : ١/٦١ - ٨١ . وما كتبه ابن عاشور في كشف المغطى : ص ٩ - ٣٦ .

(٢) كشف المغطى : ص ٧ .

(٣) كشف المغطى : ص ٤٢ .

(٤) ترتيب المدارك : ٣/٢٥١ ، وشجرة النور ص ٥٨ .

(٥) ترتيب المدارك ٣/٢٤٢ ، وشجرة النور ص ٥٩ .

(٦) ترتيب المدارك ٣/٢٦٤ ، وشجرة النور ص ٥٩ .

دونه في مختصراته إضافة للموطأ [١] . ومعن بن عيسى القزاز (ت ١٩٨ هـ) له سماع معروف ذكره ابن عبدوس (ت ٢٦٠ هـ) في المجموعة [٢] . وزياد بن عبد الرحمن الملقب بشبطون (ت ١٩٣ هـ) له سماع يعرف بسماع زياد [٣] . وعلي بن زياد (ت ١٨٣ هـ) له سماع بلغ ثلاثة كتب [٤] . وعبد الملك بن الماجشون (ت ٢١٢ هـ) له سماع دونه في كتاب [٥] .

فهذه أسمعة بعض أصحاب الإمام . ولغيرهم أسمعة أخرى ، حفظوها ورتبوها ونشروها بين طلابهم . فكان لهذا التدوين الموسع منهم الفضل الأكبر في بناء المذهب ونشره .

على أن تدوين الأصحاب لأسمعتهم امر لا اختلاف فيه بين المؤرخين . فقد جاء في رياض النفوس أن مالكاً كان « إذا سئل عن مسألة كتبها أصحابه ، فيصير لكل واحد منهم سماع [٦] » .

ولم يتوقف هذا النشاط عند هذا الحد . فقد استمر مع تلاميذ الأصحاب ، فدونوا أسمعة أصحاب الإمام ، سواء الذين دونوا بأنفسهم أسمعتهم ، أو الذين لم يفعلوا ذلك . كما قام هؤلاء التلاميذ بتدوين آراء الأصحاب وفتاويهم ، جنباً إلى جنب مع أقوال الإمام وفتاويه . وقد أفرز هذا الجهد التدويني في عهد تلاميذ الأصحاب ظهور مصنفات فقهية ، ضمت فقه إمام المذهب وآراء كبار أصحابه . وأهم هذه المصنفات :

١- مختصرات عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤ هـ) .

---

(١) ترتيب المدارك : ٣/٣٦٤ ، وشجرة النور : ص ٥٩ .

(٢) ترتيب المدارك : ٣/١٤٨ ، وشجرة النور : ص ٥٦ .

(٣) ترتيب المدارك : ٣/١١٦ ، وشجرة النور : ص ٦٣

(٤) ترتيب المدارك : ٣/٨٠ .

(٥) ترتيب المدارك : ٣/١٤٠ .

(٦) نقلاً عن الاختلاف الفقهي في المذهب المالكي : ص٨٠ .

٢- الواضحة لعبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ هـ) .

٣- مدونة سحنون بن سعيد (ت ٢٤٠ هـ) .

٤- المستخرجة من الأسمعة (العتبية) : لمحمد العتبي (ت ٢٥٥ هـ) .

٥- المجموعة : لمحمد بن عبدوس (ت ٢٦٠ هـ) .

٦- الموازية : لمحمد بن المواز (ت ٢٦٩ هـ) .

٧- المبسوط : لإسماعيل بن إسحاق (ت ٢٨٢ هـ) .

وقد عدت هذه المصنفات أمهات المذهب ودواوينه .

ويلاحظ أن هذا الجهد الذي أفاد في جمع آراء الإمام واستقصائها ، قد كشف في كثير من المسائل عن اختلاف وتضارب في أقوال مالك فيها . وهو ما سنبينه في العامل التالي .

الثاني : اختلاف الأصحاب في زمان الأخذ عن الإمام .

فمع كثرة التلاميذ الذين أخذوا عن الإمام مالك ، واختلاف جهاتهم ، وتباعد بلدانهم ، فقد كانوا غير متفقين بصفة منتظمة في فترات الأخذ والتفقه عن الإمام ؛ فما يسمعه البعض قد لا يسمعه البعض الآخر . وعند ذلك قد تختلف أو تتضارب أسمعة وروايات كل فريق ، بناء على ما قدمناه من المراجعة والتنقيح الدائمين من الإمام لآرائه الفقهية ورواياته الحديثة . ومما يشير إلى ذلك ما ذكره ابن القاسم قال : « ما ضن أحد بعلمه فافلح ، لقد كنت أحضر مجلس مالك فاسمع منه ، فإذا لم يحضر أصحابي سألوني ما سمعت ، فاخبرهم ، ويحضرون ولا احضر ، فاسالهم فلا يخبرونني »[1] . وذكر القاضي

---

(١) ترتيب المدارك : ٣/ ٢٥٠ .

عياض أن ابن القاسم وأشهب اختلفا في قول مالك في مسألة ، وحلف كل واحد على نفي قول الآخر ، فسألا ابن وهب ، فأخبرهما أن مالكاً قال القولين جميعاً [١] .

الثالث : قيام أصحاب الإمام بالاجتهاد في ضوء أصول إمامهم وقواعده . وكان اجتهادهم متفرعاً إلى نوعين :

النوع الأول : الاجتهاد في القضايا والنوازل التي لم يكن فيها نص للإمام – على حد علم الواحد منهم – مما جعلهم وجهاً لوجه أمام واجب الإفتاء ، لإسعاف مجتمعاتهم بإجابات شرعية لهذه القضايا ، فقاموا به معتمدين أصول إمام المذهب[٢] .

ومما يتعلق بهذا النوع من الاجتهاد ، تفسيرهم لأقوال الإمام وبيان محاملها . وصور تطبيقها ، وتقدير الوقائع ، والرجوع بها إلى أدلتها الإجمالية [٣] .

وبحسب ما بين الأصحاب من اختلاف في سماعاتهم عن الإمام ، واختلافهم في إدراك أصوله الاجتهادية وفهم قواعده ، وفي بيان احتمالات أقواله ، فقد مثلت آراؤهم واجتهاداتهم عنصراً هاماً في تكثيف المادة الفقهية [٤] التي كانت أساساً لنشوء المدارس وتميزها عن بعضها .

النوع الثاني : الاستدراك على إمام المذهب في مسائل رأوا أنه جرى فيها على غير أصوله ، فخالفوه فيها ولم يلتزموا قوله[٥] .

---

(١) ترتيب المدارك : ٣/٢٦٠ .

(٢) انظر المحاضرات المغربيات محمد الفاضل بن عاشور : ص ٦٧ الدار التونسية للنشر ١٩٧٤ . والاختلاف الفقهي في المذهب المالكي : ص ٨٨ .

(٣) انظر المحاضرات المغربيات : ص ٧٨ .

(٤) قد ظهرت في مرحلة تلاميذ الأصحاب وما بعدها مؤلفات اعتنت بذكر أقوال الأصحاب سواء المتفق منها والمختلف . كما ظهرت مؤلفات اعتنت بذكر الخلاف بين مالك وأصحابه (انظر : الاختلاف الفقهي في المذهب المالكي ص ٨٨ – ٨٩) .

(٥) انظر المحاضرات المغربيات : ص ٧٦ .

حكى البقاعي عن شرف الدين يحيى الكندي أنه سئل : ما لمذهبهم كثير الخلاف؟ قال : لكثرة نظاره في زمن إمامه [١] . ويؤيد هذا أيضاً ما جاء في « ترتيب المدارك »[٢] أن أسداً أتى إلى أشهب فسأله ، فأجابه ، فقال له : من يقول هذا ؟ فقال أشهب : هذا قولي . فدار بينهما كلام ، وذهب إلى ابن القاسم . وروى كذلك أن أشهب جلس يوماً بمكة إلى ابن القاسم ، فسأله رجل مسألة ، فتكلم فيها عبد الرحمن . فمعر له أشهب وجهه وقال : ليس كذلك ، ثم أخذ يفسرها ويحتج فيها . فقال ابن القاسم : الشيخ يقوله – عافاك الله – يعني مالكاً . فقال أشهب : لو قاله ستين مرة [٣] .

إنَّ العوامل الثلاث وما تفرع عنها ، كانت مؤثرة في توجيه منهج الإمام في تقويم اجتهاده ، القائم على المراجعة والتنقيح ، نحو نشوء المدارس داخل المذهب ، وذلك بـ :

أ– تمسك كل صاحب بما تلقى وسمع ، واعتقاده أنه الحق من قول مالك .

ب– اعتقاد كل صاحب بأن اجتهاده – بنوعية – هو المعبر عن حقيقة مذهب إمامه .

جـ– تمسك أهل كل بلد بما سبق إليهم من أقوال الإمام ورواياته ، وبما وصل إليهم عن طريق أئمة بلدهم من اجتهادات أصحاب مالك الذين تأثروا بهم .

وقد ضمت المصنفات التي ذكرناها كل هذا الثراء التشريعي ، وبذلك كانت دراسة كل بلد للمذهب تدور حول المصنف الذي أنتجته جهود عالمه أو علمائه ، الذين نقلوا إليه سماعات وروايات الأصحاب الذين تلقوا عنهم فقه مالك ورواياته . كما نقلوا اجتهادات هؤلاء الأصحاب وآراءهم .

***

(١) نيل الابتهاج للتنبكتي (نقلاً عن الاختلاف الفقهي في المذهب المالكي: ص ٦) .

(٢) ترتيب المدارك : ٣/٢٩٧ .

(٣) ترتيب المدارك : ٣/٢٦٦ .

المطلب الثاني : منهج إمام المذهب في إعمال الأحاديث النبوية وعلاقة ذلك بنشوء المدارس

لا شك أن الأحاديث المروية عن النبي ﷺ تمثل في جملتها أصلاً من أصول الاجتهاد لدى جميع المجتهدين ، وإن اختلفوا في مدى العمل بها في تفصيلاتها ، بحسب ما تحصل لديهم من صحيح السنة ، سواء كانت من تصحيحهم أو من تصحيح المحدِّثين ، وبحسب ما أقاموا لأنفسهم من قواعد للترجيح فيما بينها من جهة ، وبينها وبين بقية المصادر من جهة أخرى ، عند قيام التعارض .

فإذا جئنا للإمام مالك الجامع بين إمامتي الحديث والفقه ، رأيناه مستقلاً في مجال الحديث بمنهج خاص لنقد مروياته ، كما هو مستقل في مجال الفقه بمنهج اجتهادي خاص به . ومن هذا المنهج مسلكه في الترجيح بين الأدلة .

ونكتفي هنا بذكر جزئية من نسيج فكره الاجتهادي ، لها علاقة بالبحث ، وتتعلق بمنهجه في تصحيح السنة النبوية ، ومسلكه في الترجيح بين مروياتها ، وبينها وبين بعض الأدلة الأخرى ، وخلاصة مذهبه في ذلك أنه كان يخضع متون الأحاديث – بعد تيقن صحة أسانيدها إلى عملية نقدية صارمة تقوم على ما يلي :

- عرضه على عمل أهل المدينة من الصحابة والتابعين .
- عرضه على قواعد الشريعة ومقاصدها .
- عرضه على القياس الجلي .

فإذا تعارض الحديث مع واحد من هذه الأمور ، فلا يعمل به ويرده ، هكذا ذكر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور [1] لكن اختلف علماء المذهب في نسبة رد الحديث

(١) كشف المغطى : ص ١٠ – ١١ .

بالقياس إلى مالك[١] . وأمَّا رده بعمل أهل المدينة وبقواعد الشريعة فهو مؤكد النسبة إليه بذلك .

يرجع الإمام مالك تقديم العمل على الحديث إلى عهد الصحابة والتابعين أنفسهم . ويؤكد أنه في ذلك لهم مقلد غير مبدع . قال مالك : « أعجبني عزم عمر في ذلك » [٢] ، وهو يعني بذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر : « أحرج بالله على رجل روى حديثاً العمل على خلافة »[٣] .

وجاء في العتبية [٤] وكتاب الجامع[٥] أنَّ محمد بن أبي بكر بن عمرو بن حزم كان قاضياً ، وكان أخوه عبد الله بن أبي بكر كثير الحديث ، وكان رجل صدق ؛ فكان إذا قضى محمد بالقضية قد جاء الحديث مخالفاً للقضاء ، يقول له أخوه : « لم لم تقض بحديث كذا » ، فيقول : « لم أجد النَّاس عليه » ، ونقل ابن أبي زيد[٦] عن النخعي قوله : « لو كانت الصحابة يتوضؤون إلى الكوعين لتوضأت كذلك . وأنا أقرؤها : إلى المرافق » .

وحتى لا يكون في الأمر غموض ، ربما يؤول عنهم بأنهم لم يكونوا مطلعين على الأحاديث المخالفة للعمل ، فإنه يؤكد ويصرح بأن « العمل أثبت من الأحاديث »[٧] . وينقل عمن يقتدى به قوله : « إنه لضعيف أن يقال في مثل ذلك : حَدَّثني فلان عن فلان . وكان

---

(١) انظر المقدمة الأصولية لأبي الحسن علي بن عمر بن القصار : ص ١١٠ – ١١١ دار الغرب الإسلامي ١٩٩٦ . وانظر ما علق المحقق به على هذه المسالة والمصادر التي أحال عليها . وانظر : « مالك » محمد أبو زهرة : ص ٢٥١ – ٢٥٩ .

(٢) كتاب الجامع في السنن والآداب والحكم والمغازي والتاريخ لأبي محمد عبد الله بن ابي زيد القيرواني . ص ١٤٩ تحقيق عبد المجيد تركي . دار الغرب الإسلامي سنة ١٩٩٠ .

(٣) ترتيب المدارك (نقلا عن تعليقات محقق كتاب الجامع ص ١٤٩) .

(٤) البيان والتحصيل لابن رشد الجد : ١٧ / ٣١ . دار الغرب الإسلامي .

(٥) كتاب الجامع : ص ١٥٠ .

(٦) نفس المصدر .

(٧) كتاب الجامع ص ١٥٠ .

رجال من التابعين يبلغهم عن غيرهم الأحاديث فيقولون : ما نجهل هذا ، ولكن مضى العمل على غيره »[(١)] قال ابن أبي زيد : « وذلك لأنهم لا يتهمون في ترك السنن ، وهم أرباب العلم وأحرص خلق الله على اتباع سنة رسول الله ﷺ . ولا يظنن بهم ذلك أحد إلا ذو ريبة في دينه »[(٢)] .

قال أبو زهرة : « ترى أن مالكاً – رضي الله عنه – لم يبتدع ذلك المنهاج ابتداعاً ، بل سلك سبيلاً قد سبقه إليه غيره من التابعين وأهل العلم ، ولكن اشتهر به هو ؛ لأنَّه لكثرة ما ابتلي به من الإفتاء ؛ ولأنَّه دون بعض ما أفتى به مخالفاً للخبر الذي رواه هو ؛ وكان في عصور الإسلام المتعاقبة أشهر من أخذ به ؛ فنسب المنهج إليه ، ولكنه فيه كان متبعاً ، ولم يكن مبتدعاً »[(٣)] ، وفلسفة مالك – رحمه الله – في مسلكه هذا تنبني على عنصرين :

العنصر الأول : يتعلق بالقائم على استنباط الحكم من الحديث .

فلا يكفي فيه أن يكون محدثاً فقط ، بل لابد أن يكون فقيهاً . فالفقهاء – عنده – هم الأقدر على فهم الأحاديث ووضعها في سياقها العام مع مصادر التشريع الأخرى ، لأنَّ عملهم المتمثل في استنباط الأحكام التفصيلية من أدلتها الإجمالية يقوم على النظر في هذه الأدلة[(٤)] . وهو ما عد من شأن الفقهاء الذين تتوفر فيهم شروط النظر الاجتهادي ، لا من شأن المحدِّثين الذين اقتصرت دراستهم للسنة على الرواية والتصحيح . قال مالك : « ليس يسلم رجل حَدَّثَ بكل ما يسمع ، ولا يكون إماماً أبداً »[(٥)] . وقيل لمالك : « أرأيت من أخذ بحديث حدثه به ثقة عن أحد من الصحابة ، أتراه في سعة ؟ » قال : « لا والله حتى

---

(١) كتاب الجامع ، ص ١٥٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) « مالك » ص ٢٨٠ .

(٤) المحاضرات المغربيات : ص ٩٠ .

(٥) كتاب الجامع : ص ١٧٧ .

يصيب الحق . وما الحق إلا واحد . قولان مختلفان لا يكونان جميعاً صواباً » . وذكر عن الليث مثله[١] . أي نهي هو والليث عن العمل بالحديث إلا إذا كان الحديث متضمناً للحق في نظر الفقيه . لذلك كان المجتهدون في عصره بالمدينة لا يروون من الأحاديث المختلفة إلا المدعومة بالعمل . قال مالك : « لم يكن بالمدينة قط إمام أخبر بحديثين مختلفين » ، قال أشهب : « يعني لا يحدث بما ليس عليه العمل » [٢] .

ومثلما كان يشترط هذا الشرط في أحاديث التشريع ، فهو يشترطه أيضاً في أحاديث العقائد ، فقد قيل له : فمن يحدث بالحديث : إن الله خلق آدم على صورته [٣] وإن الله يكشف عن ساقه يوم القيامة [٤] . فأنكر ذلك إنكاراً شديداً . ونهى أن يتحدث به قيل : قد تحدث به ابن عجلان ! قال : لم يكن من الفقهاء [٥] .

وبهذا الاعتبار كان إمام المذهب يفرق بين قطبين من أقطاب تلاميذه . فقد سئل عن ابن القاسم وابن وهب . فقال : ابن وهب عالم . وابن القاسم فقيه [٦]، ونقل عن الحارث بن أسد القفصي أنه قال : لما أردنا وداع مالك ، دخلت عليه أنا وابن القاسم وابن وهب . فقال لابن وهب : اتق الله وانظر عمن تنقل . وقال لابن القاسم : اتق الله وانشر ما سمعت . وقال لي : اتق الله وعليك بتلاوة القرآن . قال الحارث : لم يرني أهلاً للعلم[٧] .

---

(١) كتاب الجامع : ص ١٧٦ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٧٥ .

(٣) البخاري في الاستئذان باب بدء السلام ، ومسلم في البر .

(٤) البخاري في تفسير القرآن باب يوم يكشف عن ساق .

(٥) كتاب الجامع : ص ١٥٦ .

(٦) ترتيب المدارك : ٣/٣٤٥ .

(٧) ترتيب المدارك : ٣/٣٢٢ .

ولم يكن هذا الشرط مما انفرد به مالك ، بل كان له أنصار في عصره وما بعده . قال ابن عيينة : « الحديث مضلة إلا الفقهاء » ، قال ابن أبي زيد : « يريد أن غيرهم قد يحمل شيئاً – أي من الحديث – على ظاهره وله تأويل من حديث غيره أو دليل يخفى عليه أو متروك أوجب تركه غير شيء مما لا يقوم به إلا من استبحر وتفقه »(١) . وقال ابن وهب : « كل صاحب حديث ليس له إمام في الفقه فهو ضال . ولولا أن الله أنقذنا بمالك والليث لضللنا »(٢) .

العنصر الثاني : ويتعلق بمدى مطابقة كل من العمل والحديث للواقع . فقد صرح مالك بأن « العمل أثبت من الأحاديث »(٣) . ووجه ذلك عنده أن الخبر الذي يوجب العلم يكون مضمونه مطابقاً للواقع ، هو ما كان نقله على جهة التواتر(٤) . فإذا كان نقله من جهة الآحاد فإنه لا يوجب العلم بصدق ما تضمنه ، ولا القطع بمطابقته للواقع ، وإنما يفيد الظن بذلك فحسب(٥) .

ولما كان عمل أهل المدنية الذي طريقه النقل التوقيفي عن النبي ﷺ يجري مجرى ما نقل التواتر من الأخبار ، وكانت الأحاديث أخبار آحاد : فلابد – في ميزان الترجيح بين الأخبار – أن يعد العمل أقوى من حديث الآحاد(٦) .

ويقال مثل هذا في تقديم الإمام القواعد والمقاصد(٧) ، وكذلك تقديمه لعمل

---

(١) كتاب الجامع : ص ١٥٠ .

(٢) كتاب الجامع : ص ١٥١ ، والتمهيد لابن عبد البر : ١/٦٢ .

(٣) كتاب الجامع : ص ١٥٠ .

(٤) انظر المقدمة في الأصول : ص ٦٥ .

(٥) انظر المقدمة في الأصول : ص ٦٧ – ٦٩ ، وإحكام الفصول . أبو الوليد الباجي : ص ٣٢٤ دار الغرب الإسلامي .

(٦) المقدمة في الأصول : ص ٧٧، وإحكام الفصول ص ٤٨٠، والبيان والتحصيل :٥/٣٤٩، ١٧/٣٣١ .

(٧) كشف المغطى : ص ١٠ ، وعارضة الأحوذي . أبو بكر العربي : ٢ / ٣٠١ . دار الكتاب العربي ببروت .

الشيخين على الحديث [١] لأنها جميعاً تتعلق بالروايات وتصحيحها وترجيح بعضها على بعض [٢] .

إن مسلك الإمام في العمل بالروايات الحديثية لم يؤخذ عنه من قبل بعض أصحابه وتلاميذهم بنفس الدقة التي كان يعالج فيها تطبيق الأحاديث النبوية في مجال الاجتهاد . فقد كان تطبيقهم لهذه القاعدة في اجتهادهم مختلفاً عنه .

ويرجع ذلك إلى أن أصحاب الإمام لم يكونوا جميعاً على مستوى متماثل في التأثر بمكونات المنهج الاجتهادي للإمام ، القائم على الشمولية والتوازن بين علم الحديث كواحد من عدة مصادر تشريعية يعتمد الرواية وتصحيحها ، وبين علم الفقه كعمل عقلي يعتمد المصادر التشريعية مجتمعة ، فهماً ومقارنة وترجيحاً .

فكان من أصحابه من غلب عليه الرواية ، وانحسر في فكره جانب التفقه في الحديث . ومن ثم ألغى ما اعتبر مسلكاً اجتهادياً في منهج الإمام يقوم على إعمال الأحاديث على ضوء التطبيقات العملية المنقولة عن النبي ﷺ ، واستمر عليها عمل الصحابة والتابعين بالمدينة المنورة .

على أن هذا الانحسار الذي ذكرناه من هؤلاء الأصحاب كان إما على سبيل المخالفة للإمام في مسلكه هذا عدم اقتناعهم به ، وإما على سبيل الاختيار من بين أقواله ما كان معتمداً ظاهر الحديث ، دون اعتبار للعمل .

***

---

(١) « مالك » : ص ٢٥٩ - ٢٦٨ .

(٢) ما ذكرناه من تقديم الإمام مالك لعمل أهل المدينة وعمل الشيخين والقواعد على حديث الآحاد يحتاج إلى أكثر بسط واستدلال . وإنما اكتفينا بالقدر الذي يبين المنحى الفقهي عند الإمام في فهم السنة النبوية حتى نخلص للحديث عن السبب الثاني من أسباب تعدد المدارس داخل المذهب .

المطلب الثالث : المدارس الفقهية المالكية - المدرسة العراقية -

تقدم في المطلب الأول ان مراجعة الإمام مالك لآرائه الفقهية وتنقيحه لها بصورة مستمرة جعلت روايات أصحابه وسماعاتهم عنه تختلف . ومن ثم اختلف تكوينهم الفقهي ، وما انبنى عليه من الاجتهادات التي جروا فيها على ما فهموه من مذهب إمامهم ، وما ترجح لديهم من أقواله . وبانتقال هذا الرصيد الذي أنتجه الأصحاب إلى تلاميذهم ، واختلاف البلدان التي ينتمي الأصحاب وتلاميذهم إليها ، توسعت دائرة الاختلاف داخل المذهب المالكي ، كشف عنه ما قام به بعض التلاميذ من تدوين المصنفات المتضمنة لما انتهوا إليه من توثيق أقوال إمام المذهب وأقوال أصحابه . وتحددت بذلك معالم المدارس التي نشأت وتكونت داخل المذهب في عهد أصحاب إمام المذهب وتلاميذهم .

المدرسة المدنية :

أبرز أعلام هذه المدرسة من أصحاب مالك : ابن الماجشون (ت ٢١٢ أو ٢١٤ هـ)، ومطرف (ت ٢١٩ أو ٢٢٠ هـ)، وابن نافع (ت ١٨٦ هـ)، وابن مسلمة (ت ٢١٦ هـ)، وابن دينار (ت ١٨٢ هـ)، وابن أبي حازم (ت ١٨٢ هـ)، وابن كنانة (ت ١٨٦ أو ١٨٥هـ)، ومعن بن عيسى القزاز (ت ١٩٨ هـ)، وإسماعيل بن أبي أويس (ت ٢٢٦ هـ)، وعبد الجبار بن سعيد المساحقي (ت ٢٢٦ هـ)، وأبو مصعب أحمد الزهري (ت ٢٤٢ هـ).

ومن تلاميذهم المدنيين : أبو بكر بن وثاب المدني من أصحاب محمد بن مسلمة وعبد الملك بن الماجشون[١]، ويعقوب بن عيسى (ت ٢١٣ هـ) ، وكان من جلساء فقهاء أهل المدينة بعد مالك[٢].

---

(١) ترتيب المدارك : ٤/٣ .

(٢) نفس المصدر : ٤/٣ .

المدرسة المصرية :

وأبرز أعلامها من أصحاب مالك : ابن القاسم (ت ١٩١ هـ)، وأشهب (ت ٢٠٤ هـ)، وابن وهب (ت ١٩٧ هـ)، وعبد الله بن عبد الحكم (ت ٢١٤ هـ) . ومن تلاميذهم المصريين : ابن المواز (ت ٢٦٩ هـ) ، وأصبغ (ت ٢٢٤ هـ)

المدرسة الأفريقية القيراونية :

وأبرز أعلامها من أصحاب الإمام : علي بن زياد (ت ١٨٣ هـ) ، وأسد بن الفرات (ت ٢١٣ هـ) ، وعبد الله بن غانم (ت ١٩٠ أو ١٩٦ هـ) ، وعبد الله بن فروخ (ت ١٧٥ أو ١٧٦ هـ) . ومن تلاميذهم سحنون بن سعيد (ت ٢٤٠ هـ)

المدرسة الأندلسية :

وأشهر الأصحاب زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون (ت (١٩٣ هـ)، والغازي بن قيس (ت (١٩٩ هـ)، ويحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤ هـ) .

ومن تلاميذ الأصحاب الأندلسيين : عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨ هـ)، ومحمد العتبي (ت ٢٥٥ هـ).

المدرسة العراقية :

كان المذهب المالكي قد أخذ طريقه إلى العراق عن طريق جماعة من أصحاب مالك، الذين وضعوا اللبنات الأولى للتعريف به في هذا الصقع، ومن هؤلاء نذكر سبعة :

فالأول دخل بغداد وهو سليمان بن بلال (ت ١٧٦ هـ)، وهو أول من جلس إلى مالك عندما تحول الإمام عن مجلس ربيعه وتصدى للتدريس. وقد ولاه الرشيد قضاء بغداد[١].

(١) ترتيب المدارك : ٣/٣ ، وشجرة النور : ص ٥٧ .

والثاني والثالث سكنا البصرة عبد الرحمان بن مهدي (ت ١٩٨ هـ)، وعبد الله بن مسلمة القعنبي (ت ٢٢١ هـ) ، والثاني من رواة الموطأ [١] .

والرابع : محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧ هـ) ، سكن بغداد وتولى القضاء بها للرشيد والمأمون .

والخامس : يحيى بن يحيى بن بكير النيسابوري (ت ٢٢٦ هـ)، وهو من رواة الموطأ [٢] .

والسادس : قتيبة بن سعيد الخراساني (ت ٢٤٠ هـ) وولي القضاء ببغداد .

والسابع : هارون بن عبدالله بن الزهري المكي (ت ٢٣٢ هـ) نزل بغداد وولي قضاء العسكر بها .

والجدير بالذكر أن هؤلاء الأصحاب وغيرهم من أصحاب مالك العراقيين – من خلال ما ذكر أصحاب التراجم – كانوا علماء في الحديث ورواة له . ومنهم من هو من رجال أسانيد صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة ؛ كما كانوا فقهاء ، بحيث إنَّهم أخذوا عن إمام المذهب اختصاصه الجامع بين إمامتي الفقه والحديث . وهو ثنائية ستظل متواصلة عبر طبقات فقهاء المذهب بالمدرسة العراقية ، إلى أن نجدها متمثلة في القاضي عبد الوهاب بن نصر البغدادي [٣] .

ومن تلاميذ الأصحاب بالعراق اشتهر أحمد بن المعذل (لم تعرف سنة وفاته) . وقد بلغ درجة من العلم حتى قيل : لم يكن لمالك بالعراق أرفع منه ولا أعلى درجة ، ولا أبصر بمذهب أهل الحجاز منه [٤] .

(١) ترتيب المدارك : ٣/١٩٨، وشجرة النور : ص ٥٧ .

(٢) ترتيب المدارك : ٣/٢١٦، وشجرة النور : ص ٥٨ .

(٣) الإشراف على نكت مسائل الخلاف . القاضي عبد الوهاب البغدادي . مقدمة التحقيق : ص٣٥-٣٦، ٦٩-٧٠ .

(٤) ترتيب المدارك : ٤/٧، وشجرة النور : ص ٥٦ ، وطبقات الفقهاء : ص ١٤٨ .

ومنهم يعقوب بن شيبة (ت ٢٦٢ هـ) . وهو أحد أئمة المسلمين وأعلام الحديث المسندين . وقد ذكر أنه لم يتكلم على علل الحديث بمثل كلام يعقوب، وعلى بن المديني، والدارقطني[١] ، وقد لقي جماعة من أصحاب مالك [٢] .

وممن اشتهر وذاع صيته ويعد من تلاميذ الأصحاب ببلده إسماعيل بن إسحاق (ت ٢٨٤ أو ٢٨٢ هـ) الذي نبغ حتى صار إماماً علامة في سائر الفنون والمعارف . فقد جمع القرآن ، وعلوم الحديث ، وآثار العلماء ، والفقه ، والكلام ، والمعرفة بعلم اللسان . وبلغ من العمر ما صار واحد عصره في علو الإسناد . وقد قال الباجي أثناء حديثه عن مرتبة الاجتهاد: « لم تحصل هذه الدرجة بعد مالك إلا لإسماعيل القاضي » [٣]، وقد أخذ عن القعنبي[٤] الذي استوطن البصرة كما تقدم .

***

إن هذه المدارس وإن سميت بأسماء البلدان ، إلا أن اختلاف النقل عن إمام المذهب الذي ذكرنا سببه – فيما تقدم – هو أساس تكون المدارس . وإلا فإن ما اتفقت عليه من أقواله لا فضل فيه لمدرسة على أخرى .

فأهم ما يميز هذه المدارس عن بعضها هو المادة الفقهية التي تنفرد بها كل واحدة عن الأخرى ، سواء تلك المنسوبة إلى إمام المذهب أو إلى كبار تلاميذه المجتهدين .

ولا يمكن اعتبار هذا التقسيم للمدارس قائماً على الأساس الجغرافي واختلاف البلدان، لما هو معروف من أن الطبقة التي تلت طبقة الأصحاب لم يكتف علماء كل بلد منها

---

(١) ترتيب المدارك : ٤/ ١٥١، وشجرة النور : ص ٦٥ .
(٢) ترتيب المدارك : ٤/ ١٥٠ .
(٣) ترتيب المدارك : ٤/ ٢٨٢ .
(٤) ترتيب المدارك : ٤/ ٢٧٩ .

بالأخذ عن أصحاب مالك الذين ينتمون إلى بلدهم ، بل سعى كثير من رجالها عبر رحلاتهم إلى الالتقاء بأصحاب الإمام بالبلدان الأخرى أو بتلاميذهم فيها للإفادة والسماع منهم . ورجعوا إلى بلدانهم يحملون ثروة علمية لم يكونوا يعرفونها من قبل ؛ إذ لم يكن الأصحاب الذين تفقهوا عليهم ببلدانهم يعرفونها أيضاً ضرورة أنهم في غالبهم غادروا المدينة المنورة تاركين مالكاً حياً يواصل الاجتهاد والإفتاء والرواية ، ويداوم المراجعة لآرائه والتنقيح لرواياته .

فمن الأندلس رحل ابن حبيب ، فأخذ بمصر عن عبد الله بن عبد الحكم وأصبغ بن الفرج . وأخذ بالمدينة عن ابن الماجشون ومطرف وغيرهما [(١)] . وكان خلاصة رحلته وما تلقاه عن علماء بلده ، هو كتاب « الواضحة » . كما رحل محمد العتبي فأخذ عن سحنون وأصبغ بعد أن أخذ عن علماء بلده كيحيى بن يحيى وسعيد بن حسان . وقد أثمر جهده تدوين كتاب " المستخرجة من الأسمعة (العتبية)[(٢)] .

ومن إفريقية والقيروان رحل أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد ، وأخذ كل منهما عن ابن القاسم وابن وهب وأشهب . وقد أنتجت هذه الرحلة منهما "المدونة" التي تعاقبت عليها جهودهما [(٣)] .

ومن مصر رحل ابن المواز ، فأخذ بالمدينة عن ابن الماجشون ، ودون في "الموازية" سماعات الأصحاب المصريين والمدنيين واجتهاداتهم وآراءهم [(٤)] . ورحل الحارث بن مسكين

---

(١) ترتيب المدارك : ٤/ ١٢٣ ، وشجرة النور :ص ٧٤ .

(٢) ترتيب المدارك : ٤/ ٢٥٣ ، وشجرة النور : ص ٧٥ .

(٣) انظر مراحل تدوين المدونة وما اتصل بذلك : ترتيب المدارك : ٣/ ٢٩٦ – ٣٠٠ ، وشجرة النور : ص ٦٩ .

(٤) ترتيب المدارك : ٤/ ١٦٧، وشجرة النور : ص ٦٨ .

المصري (تـ ٢٥٠ هـ) المتفقة على كبار أصحاب مالك المصريين ، كابن القاسم وابن وهب وأشهب ، إلى بغداد واستقر بها ست عشرة سنة . وكان ينشر بها أسمعة شيوخه [(١)] .

ومن بغداد رحل أحمد بن المعذل إلى المدينة ، وتفقه على المدنيين من أصحاب مالك ، كمحمد بن مسلمة (تـ ٢١٦ هـ) وابن الماجشون [(٢)] .

ورحل يعقوب بن شيبة (تـ ٢٦٢ هـ) بعد أخذه عن الحارث بن مسكين إلى مصر ، واتصل بأصبغ بن الفرج (تـ ٢٢٥ هـ) تلميذ ابن القاسم وأشهب وابن وهب ، وأخذ عنه ، كما لقي جماعة من أصحاب مالك [(٣)] .

ورحل إسماعيل بن اسحاق إلى المدينة ، وتفقه بمن أدرك من أصحاب مالك بها ، كإسماعيل بن أبي أويس (تـ ٢٢٦ هـ)، وعبد الجبار بن سعيد المساحقي (تـ ٢٢٦ هـ) ، وأبي مصعب أحمد بن القاسم الزهري قاضي المدينة (تـ ٢٤٢ هـ) ، كما أخذ عن جماعة كبيرة من تلاميذ الأصحاب المدنيين [(٤)] . وقد أنتج جهده العلمي « كتاب المبسوط » ، وضمنه أيضاً ما وصل إليه من سماعات المصريين عبر رحلات مشائخه إليهم .

***

ومن خلال ما تقدم ، من عرض حول نشوء هذه المدارس ، ورحلة علمائها في عهد تلاميذ الأصحاب ، وما أنتجته جهودهم من مصنفات ، فإن هذه المصنفات يراعى لنسبتها لمدرسة دون أخرى ، القدر الذي ساهمت به هذه المدرسة أو تلك في إملائها أو تدوينها أو تبنيها .

---

(١) ترتيب المدارك : ٤ / ٢٦ – ٢٧، وشجرة النور : ص ٦٧ .

(٢) ترتيب المدارك : ٤ / ٧، وشجرة النور : ص ٥٦، وطبقات الفقهاء : ص ١٤٨ .

(٣) ترتيب المدارك : ٤ / ١٥٠ .

(٤) ترتيب المدارك : ٤ / ٢٧٩ .

فمختصرات ابن عبد الحكم ، وإن سمع صاحبها مباشرة من الإمام مالك بعض أجزائها، فإن بقيتها تعتبر مصرية الإملاء ، مع كونها مصرية التدوين والتبني .

والواضحة ، من ناحية المادة الفقهية ، أندلسية مدنية مصرية ، ومن ناحية التدوين والتبني فهي أندلسية .

والعتبية أندلسية قيروانية مصرية ، من ناحية مادتها الفقهية ، ومن ناحية التدوين والتبني هي أندلسية .

والمدونة مصرية الإملاء والتبني إفريقية قيروانية التدوين والتبني .

والمجموعة قيروانية الإملاء والتدوين والتبني .

والموازية مدنية مصرية في مادتها الفقهية ، ومصرية من ناحية تبنيها .

والمبسوط عراقي مدني مصري مادة ومضموناً ، عراقي التبني .

على أن تبني المدارس لهذه المصنفات إنما كان على عهد مؤلفيها وبعده بقليل . وفي أثناء ذلك كانت تخضع للنقد والتصحيح والمقابلة والترجيح ، رغبة في استخلاص أصح الأقوال المنسوبة لإمام المذهب وأقومها بأصوله . وقد تم ذلك داخل المدرسة الواحدة فيما بين يديها من مصنفات ، كما تم بين المدارس حين انفتحت على بعضها .

وباعتماد هذا المعيار في التقويم ، تقدمت مصنفات وتأخرت أخرى . فبعد المبسوط اعتمد علماء المدرسة العراقية على مختصرات ابن عبد الحكم ، وعولوا عليها وقدموها على غيرها [١] . فكانوا « إذا وجدوا في المسألة قولين قدموا قول ابن الحكم »[٢] .

---

(١) ترتيب المدارك : ٣/٣٦٤ .

(٢) شرح التفريع . قاسم ابن ناجي . مخطوط بالمكتبة الوطنية رقم ٥٨٠٨ ورقة ١٧ .

وقد بدأت عناية هذه المدرسة بمختصرات ابن عبد الحكم على يد أبي عبد الله البريكاني (ت ٣١٩ هـ) من أصحاب القاضي إسماعيل بن إسحاق – وقد قام بشرح المختصر الكبير، والاستدلال لمسائله من القرآن الكريم والسنة النبوية [١].

وشرح أبو بكر ابن الجهم (تـ ٣٢٩ هـ) – وهو أيضاً من أصحاب القاضي إسماعيل – المختصر الصغير [٢]. ثم شرح الشيخ أبو بكر الأبهري المختصرين. وكان شرحه للصغير سنة ٣٢٩ هـ، وللكبير سنة ٣٤٥ هـ [٣].

وفي الأندلس اتجه الاهتمام إلى العتيبة، وتأخرت الواضحة فقد « اعتمد أهل الأندلس كتاب العتبية وهجروا الواضحة وما سواها » [٤].

كما اتجه لها علماء إفريقية والقيروان، قال ابن رشد الجد في العتبية : « كتاب عول عليه الشيوخ المتقدمون من القيروانيين والأندلسيين » [٥]. وقبله قال ابن حزم : « لها بإفريقية القدر العالي والطيران الحثيث » [٦].

وكانت « المجموعة » قد أخذت موقعاً مع المدونة في إفريقية والقيروان. كما لقيت حظوة لدى المصريين، قال فيها محمد عبد الله بن عبد الحكم (ت ١٦٨ هـ) : « هذا كتاب رجل أتى بمذهب مالك على وجهه » [٧].

---

(١) ترتيب المدارك : ٥/١٦، وشجرة النور : ص ٧٨ .
(٢) ترتيب المدارك : ٥/١٨ وشجرة النور : ص ٧٨ .
(٣) ترتيب المدارك : ٣/١٨٨ .
(٤) مقدمة ابن خلدون : ص ٤١٦ .
(٥) البيان والتحصيل : ١ / ٢٨ – ٢٩ .
(٦) ترتيب المدارك : ٤/٢٥٤ .
(٧) ترتيب المدارك ٤ / ٢٠٦ .

وأمّا الموازية فقد وجدت إقبالا من بعض الإفريقيين ، من ذلك أن أبا الحسن القابسي كان يرى ترجيحها على سائر الأمهات .

***

ومع الغزارة في المادة الفقهية المختلف فيها عن إمام المذهب ، وفي آراء أصحابه المختلفين معه حيناً ، وفيما بينهم حيناً آخر ، التي تكشفت بوضوح لدى علماء ما بعد تلاميذ الأصحاب في مجال المقارنة ، نحا هؤلاء العلماء بمعيار التقويم والترجيح إلى نوع من الصرامة، وذلك بالبحث عن مسلك يكون أكثر دقة وضبط في النقل عن إمام المذهب ، وأكثر ملاءمة لأصوله وقواعده عند الاجتهاد .

وقد استخلص علماء هذه المرحلة ومن بعدهم ، أنَّ عبد الرحمان بن القاسم أقرب من توفرت فيه هذه الشروط فهو قد لازم مالكاً مدة طويلة زادت على العشرين سنة ، وفي طول هذه المدة لم يكن يغيب عن مجلسه إلا لعذر ، ولم يخلط به غيره ، خلافاً لغيره من أصحاب مالك ، حيث انشغلوا معه بغيره (١) . وبذلك فهو أعلم أصحاب مالك باختلاف مالك ، وبالمتقدم والمتأخر من قوله (٢) .

كما استخلصوا أن سحنون بن سعيد مع ابن القاسم بمنزلة ابن القاسم من مالك (٣) فاحتلت بذلك مدونته المنزلة الأولى بعد « الموطأ » في توثيق الروايات عن مالك وآراء ابن القاسم .

ومما يعطي صورة عن هذا الاتجاه في الترجيح ما ذكر « أن أهل قرطبة أشد محافظة على العمل بأصح الأقوال المالكية ، حتى إنهم كانوا لا يولون حاكماً إلا بشرط أن لا يعدل

(١) ترتيب المدارك : ٣/٢٤٦ .

(٢) الاختلاف الفقهي في المذهب المالكي : ص ٢٥٠ .

(٣) ترتيب المدارك : ٣/٢٤٦ .

في الحكم عن مذهب ابن القاسم »[١] . وروي أن عبد الملك بن حبيب أراد من قاضي قرطبة يحيى بن معمر (ت ٢٢٦ هـ) أن يعدل عن رأي ابن القاسم إلى رأي غيره فكان جواب القاضي : « والله لا أفعل ، ولا أخالف ما وجدت عليه أهل البلد من العمل على قول ابن القاسم »[٢] . وروي أيضاً أن فضل بن سلمة بن حريز (ت ٣١٩ هـ) لما رجع إلى بلده « البيرة » وجد فقهاءها قد تمكن سؤددهم وتفننهم في المدونة خاصة ، فلما جالسهم وذكر لهم أقوال أصحاب مالك، قالوا: دع هذا عنك فلسنا نحتاج إليه ، طريقنا كلام ابن القاسم لا غيره »[٣].

هذا في الأندلس ، أمَّا في مصر وإفريقية والقيروان ، فالأمر واضح لا يحتاج إلى تأكيد ، فابن القاسم زعيم المدرسة المصرية ، وسحنون زعيم المدرسة الإفريقية القيروانية . قال القابسي: « سمعت أبا القاسم حمزة بن محمد الكناني[٤] يقول إذا اختلف الناس عن مالك فالقول ما قال ابن القاسم . وبحضرته جماعة من أهل بلده ، ومن الرحالين ، فما سمعت نكيراً من أحد منهم ، وهم أهل عناية بالحديث وبعلمه »[٥]. والنص واضح الدلالة في اعتماد ما قال ابن القاسم ، من عالمين جليلين ، مصري وهو ابن كنانة ، وتونسي وهو القابسي . وقد تلقى ذلك بالقبول جماعة من الثقات لهم عناية بالحديث . ورغم أن الرواية جاءت في معرض تقديم رواية ابن القاسم للموطأ ، إلا أنَّها في مجال التطبيق الفقهي أشهر منها في مجال الحديث[٦] .

---

(١) نفح الطيب ٤ / ٢٠٢ ، وتبصره الحكام ١/ ٤٥ (نقلاً عن اصطلاح المذهب مجلة البحوث الفقهية المعاصرة السنة ٦ العدد ٢٢ ص ٥١) .

(٢) ترتيب المدارك : ٤ / ١٤٨ .

(٣) ترتيب المدارك : ٥ / ٢٢٢ .

(٤) توفي سنة ٣٥٧ هـ .

(٥) اصطلاح المذهب مجلة البحوث الفقهية س ٦ ع ٢٢ ص ٥٣ .

(٦) نفس المصدر .

قال الشيرازي : « واقتصر النّاس على التفقه في كتب سحنون ... وهي أصل المذهب ، المرجع روايتها على غيرها عند المغاربة . وإياها اختصر مختصروهم وشرح شارحوهم ، وبها مناظرتهم ومذاكرتهم ... وعليها كان مدار أهل مصر »[١] .

وفي المدرسة العراقية ، فقد ابتدأ اعتماد سماعات ابن القاسم وآرائه عن طريق مختصرات ابن عبد الحكم ، التي قام العراقيون بشرحها واعتمادها ، كما ذكرنا ذلك قبل . إلا أن هذا الاعتماد لم يستمر طويلاً ، حتى وصلت إليهم الأسدية ثم المدونة ، التي احتلت مكاناً من اهتمامهم ، وزاحمت مختصرات ابن عبد الحكم . ويدل على هذا الاهتمام قول الشيخ الأبهري : « قرأت الأسدية خمساً وسبعين مرة »[٢] .

وما لبثت المدونة – مع استمرار عناية العراقيين واهتمامهم بها – أن أخذت مكان الصدارة لديهم ، وتقدمت على غيرها ، وأصبحت الراجحة على ما سواها عندهم . وكان القائم وراء هذا الترجيح لمسائلها هو القاضي عبد الوهاب البغدادي (ت ٤٢٢ هـ) ، مخالفاً بذلك ما كان عليه شيوخه ، ومن ثم قام بتغيير اتجاه المدرسة العراقية لتلتقي مع المدارس الأخرى المصرية والأفريقية والقيروانية والأندلسية في اعتماد ابن القاسم مرجعاً أساسياً لأقوال مالك[٣] .

وأمّا المدرسة المدنية فمن علمائها الذين جنحوا إلى مدرسة ابن القاسم ، أبو ثابت محمد بن عبد الله بن محمد بن يزيد بن أبي يزيد (لم تعرف سنة وفاته) ، تفقه بابن القاسم وغيره من المصريين[٤] .

---

(١) نقلاً عن ترتيب المدارك : ٣/٢٩٩ .

(٢) ترتيب المدارك : ٦/١٨٦ .

(٣) انظر الإشراف على نكت مسائل الخلاف . مقدمة التحقيق ١/٤٥-٤٦ .

(٤) انظر ترتيب المدارك : ٤/٢ .

تقسيم آخر للمدارس :

إنَّ ما ذكرناه من تدوين المصنفات وتعدد المدارس بحسبها ، إنَّما هو باعتبار ما تضمنته من مادة فقهية كما بيناه . فإذا نظرنا إلى هذه المصنفات باعتبار المنهج الاجتهادي واختلاف بعض الفقهاء من أصحاب مالك مع إمامهم ، نرى أن هناك تقسيماً آخر للمدارس.

كان أنصار المسلك المخالف لمسلك الإمام في العمل بالحديث النبوي ، موزعين بحسب اختلاف البلدان المنتشر فيها المذهب في عهد الأصحاب ، فكان منهم أصحاب الإمام المدنيين ، وعلى رأسهم عبد الملك بن الماجشون . كما كان منهم من مصر عبد الله بن وهب. وعن طريق هؤلاء أخذ هذا المسك يجد أنصاراً بين أتباع المذهب في عهد تلاميذ الأصحاب، ويصبح بذلك أحد العناصر المكونة للمدارس التي تأسست في الآفاق بالاعتبار التي ذكرناه فيما مضى .

وكان يجري حوار وتجاذب بينهم وبين المحافظين على مسلك إمام المذهب بزعامة ابن القاسم . يقول يحيى بن يحيى الليثي : « كنت آتي عبد الرحمن بن القاسم ، فيقول لي : من أين يا أبا محمد ؟ فأقول : من عند عبد الله بن وهب . فيقول لي : اتق الله فإن أكثر هذه الأحاديث ليس عليها العمل. ثم آتي عبد الله بن وهب ، فيقول لي: من أين ؟ فأقول: من عند ابن القاسم . فيقول لي : اتق الله يا أبا محمد فإن أكثر هذه المسائل رأي »[١] .

ونجد هذا المسلك في المدرسة العراقية متمثلاً في طبقة التلاميذ الذين تفقهوا بالمدنيين وتأثروا بهم ، وأشهرهم القاضي إسماعيل بن إسحاق ، الذي ضمن كتابه : « المبسوط » حصيلة فقه المدنيين .

---

(١) ترتيب المدارك : ٣/ ٣٨٧ .

كما نجده في مصر متمثلاً في أصحاب ابن وهب كأبي علي بن مقلاص (ت ٢٣٤هـ)[١] ، وأبي يحيى زكريا الوقار (ت ٢٠٧ هـ) [٢]، وعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٥٧ هـ) [٣]، وغيرهم ، ممن عدوا من كبار أصحاب ابن وهب . وقد احتوت « الموازية » فقه أصحاب هذا المسلك إذ كان ابن المواز تلميذاً لابن الماجشون[٤] وتلميذاً لأصبغ والحارث بن مسكين الذين تتلمذا على ابن وهب [٥].

ويمثله في المدرسة القيروانية حماد بن يحيى السلجماسي (معاصر لسحنون) ، قال فيه القاضي عياض : « هو أول من قدم بفقه ابن الماجشون القيروان »[٦] ، وزيد بن بشير الأزدي (ت ٢٤٢)، وهو من أكابر أصحاب ابن وهب من أهل تونس [٧]، ومحمد بن تمتم العنبري (ت ٢٦٠ هـ) من أهل قفصة ، تتلمذ على ابن وهب ويحيى بن عبد الله بن بكير المصري[٨]، ثم مالك بن عيسى القفصي (ت ٣٠٥) كان يقال : « لو عاش لغلب الحديث على أهل القيروان » [٩].

ولعلَّ الأنشط في توجيه المدرسة التي ينتمي إليها نحو هذا المسك هو ابن حبيب [١٠]

---

(١) ترتيب المدارك : ٤/ ٢٤ .

(٢) ترتيب المدارك : ٤/ ٣٧ .

(٣) ترتيب المدارك : ٤/ ١٦٥ .

(٤) ترتيب المدارك : ٤/ ١٦٧ .

(٥) نفس المصدر ٤/ ١٦٧، ٣/ ٢٢٩ .

(٦) ترتيب المدارك ٤/ ٩٧ .

(٧) ترتيب المدارك : ٤/ ٩٩ .

(٨) ترتيب المدارك : ٤/ ١٩٢ .

(٩) ترتيب المدارك : ٥/ ١٢٥ .

(١٠) انظر محاولاته التأثير على القاضي يحيى بن معمر القرطبي لتبني اتجاهه والرجوع عن اتجاه ابن القاسم ، وما ذكره القاضي عياض في ترتيب المدارك ٤/ ١٤٨ .

صاحب « الواضحة » التي قال فيها العتبي : « ما أعلم أحداً ألف على مذهب أهل المدينة تأليفه » [١].

وكذلك أبو زيد عبد الرحمان بن إبراهيم بن عيسى المعروف بابن تارك الفرس (ت ٢٥٨ هـ) الذي دون ما تلقاه عن مشائخه - ابن الماجشون وابن كنانة ومطرف ونظرائهم من المدنيين - في ثمانية كتب ، أصبحت تعرف بثمانية أبي زيد[٢] .

***

ومن هنا ، فإنَّ ظهور هذا المسلك على عهد الأصحاب ، وما وجده من القبول على عهد تلاميذهم ، كان قد أحدث تقسيماً آخر داخل المذهب المالكي ، باعتبار منهج العمل بالأحاديث النبوية ، يقوم على مدرستين اثنتين :

- مدرسة ترى تقديم العمل على أحاديث الآحاد ، وتفسيرها على مقتضاه وزعيم هذه المدرسة إمام المذهب نفسه . ثم حمل مشعلها ابن القاسم . ويمكن تسميتها بالمدرسة العملية [٣] ، نسبة للعمل المرجح عندها .

- مدرسة ترى تقديم أحاديث الآحاد وإعمالها ، ولا تعترف بالعمل مسقطاً لها . وقد تقدم لنا ذكر من وراء هذا الاتجاه . ويمكن تسميتها بالمدرسة الحديثية .

وحين كانت المصنفات الفقهية تخضع للنقد لانتخاب أصدقها تعبيراً عن أقوال الإمام، كانت تتم عملية تمحيص للكشف عن منهجه الاجتهادي وعمن يمثله أدق تمثيل . فلما قام

---

(١) ترتيب المدارك : ٤ / ١٢٦ .

(٢) ترتيب المدارك : ٤ / ٢٥٨ .

(٣) اختيار هذه التسمية دون تسمية « الأثرية » لما تحدثه هذه التسمية من لبس . إذ جرى استعمال الباحثين لها في المذاهب التي تعتمد الأثر (الأحاديث وأقوال الصحابة) وتضيق من دائرة الرأي . والمعروف من مذهب مالك أنه يفسح مجال إعمال العقل كما يفسح ذلك للأثر وإن تقديمه العمل على الأثر - الأحاديث - هو من باب إعمال العقل .

فقهاء المدارس بترجيح « المدونة » تباعاً ، كما ذكرنا ذلك سابقاً فذلك يعني أنَّهم قاموا أيضاً بترجيح اتجاه المدرسة العملية – القاسمية – على المدارس الحديثية ، داخل المذهب .

***

إذا كان هذا المبحث قد تناول بالدراسة تعدد المدارس داخل المذهب المالكي من حيث الموضوع الذي يقوم عليه المذهب ، وهو الفقه وأصوله وقد أسفر عن تقسيم المذهب إلى خمس مدارس باعتبار المادة الفقهية ، وما اختصت به كل مدرسة من أقوال إمام المذهب وآراء أصحابه وتلاميذهم المؤثرين فيها ، وإلى مدرستين باعتبار مسلك العمل بالأحاديث النبوية المتعلق بأصول الاجتهاد .

إذا كان كذلك فالأمر يتطلب أن نتناول بالبحث تعدد المدارس من حيث المنهج الذي اعتمد في دراسة المذهب ، ونشره ، والتأليف فيه . وسنتناول ذلك من خلال المدرسة العراقية ، بإبراز أهم ميزاتها على باقي المدارس لنرى هل يمكن الحديث عن مدارس في هذا المجال داخل المذهب أم لا ؟

***

المبحث الثاني
أهم ميزات المدرسة المالكية العراقية

لا شَكَّ أن تباعد الأقطار بين رجال المدارس[(١)] يضعف الاتصال بينهم ، وخاصة بين المدارس التي لم يقم بينها تبادل الرحلات العلمية . ونعني بها القيروان والأندلس ومصر من جهة ، والعراق من جهة أخرى ؛ مما يجعل جهودهم في دراسة المذهب والتأليف فيه تقوم على الانفراد ، ويسهم في جعلها غير جارية على منهج واحد . ومن ثم ، فإن امتلاك مدرسة من المدارس لمنهج معين في دراسة المذهب ، يعود لجهود علمائها واتساع معارفهم ، وقدرتهم على الخوض في جميع العلوم الشرعية - النقلية والعقلية - .

على أن أهم سبب في ارتقاء مناهج البحث والدراسة لدى العلماء ، هو وجودهم في محيط علمي متنوع المعارف ومختلف المذاهب والاتجاهات .

وقد توفر هذا السبب لعلماء المدرسة العراقية ، إذ كانوا قد نشأوا في محيط حركة علمية ضخمة ، أبرز معالمها استفادة العلوم بعضها من بعض ، وتأثير بعضها في بعض ، والاهتمام بالبحث في أصول العلوم بقدر الاهتمام بالبحث في فروعها ، وسعي المذاهب والفرق إلى التعريف بآرائهم ، ونصرتها والاحتجاج لها ، ودحض الشبه عنها ، وإيصال آراء مخاليفهم .

وبذلك وجد فقهاء المذهب المالكي بالعراق أنفسهم منخرطين في سياق هذه الحركة الفكرية، فتسلحوا بأسلحتها المنهجية في دراسة المذهب والتأليف فيه ، لإثبات وجودهم ، والدفاع عن مذهبهم ، وبيان أصوله والاحتجاج لها ولفروعها ، ومناقشة مذاهب المخالفين ونقدها .

وبهذا تكون المدرسة العراقية المالكية قد توفر لها لتطوير مناهجها ما لم يتوفر لبقية

---

(١) تستعمل في هذا المبحث تسمية « المدارس » باعتبار التقسيم على أساس الاختلاف في المادة الفقهية الذي تحدثنا عنه في المبحث الأول ، حتى نصل في خاتمة هذا المبحث إلى تقسيم آخر للمدارس .

المدارس . ومن ثم كان لها بذلك عليها ميزات صاحبتها من أول نشأتها إلى أخر حلقة فيها، والذي يمثل هذه الحلقة الأخيرة أحسن تمثيل كل من القاضي عبد الوهاب البغدادي (ت ٤٢٢ هـ) وتلميذه محمد بن عمروس (ت ٤٥٢ هـ).

ويمكن إرجاع ما تتميز به المدرسة العراقية في منهجها في دراسة المذهب والتأليف فيه إلى أساسين :

- الأول : التأصيل .
- الثاني : الخلاف والجدل .

فكيف تمثلت هاتين الميزتين في هذه المدرسة . وما تأثير المدرسة العراقية في المذاهب عموماً، وفي بقية المدارس خصوصاً . نتناول ذلك - إن شاء الله تعالى - في ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : التأصيل

لا شَكّ أن الإمام مالكاً - كغيره من مجتهدي عصره - ما استقام له الاجتهاد، وسلم له بذلك ، إلا لامتلاكه نسقاً متكاملاً لمنهج اجتهادي . ومنظومة واضحة فيه ، مكنته من التعامل مع النص عند وجوده ، كما مكنته من الاستنباط عند غيابه ، وما يتطلب ذلك من اعتماد طريق بين للخروج من تعارض الأدلة ، وترتيب دقيق فيما بينها ، وإعمال ماله الأولية على غيره .

قال الشيخ محمد الفاضل بن عاشور : « فمسائل أصول الفقه كانت مبحوثة قبل الإمام الشافعي ، وقواعدها كانت مقعدة ولكنها لم تكن مضموماً بعضها إلى بعض ، بصورة تعرض الآراء المختلفة في القضية الواحدة من القضايا الراجعة إلى أصول الاستدلال »[1].

وقد عرف كبار أصحاب مالك منه هذا المنهج ، سواء بتصريحه لهم به ، أو بفهمهم الثاقب لفتاواه وآرائه ، وما تحمله من خلفية أصولية ، ضرورة أن مسائل الأصول وقواعد

(١) ومضات فكر : ص ٤٧ .

الاستنباط وحجية العمل بها كانت مثار جدل بين المجتهدين في عصرهم . يفيدنا هذا أن القرن الثاني امتلأ « مراجعات ومجادلات بين أئمة المذاهب حول الاحتجاج بنوع من أنواع تلك الأدلة ، وعدم الاحتجاج ، على ما يرى أحد الأئمة ، أو ما يرى الآخر ... ولم تبق مجادلات الفقهاء حول الفتاوى والمسائل ، بل أصبحت حول القواعد الاستدلالية ، وحول ما يعتبر من الأصول دليلاً يعتمد عليه في استخراج الأحكام ، وما لا يعتبر كذلك . وإنا لنجد مثل هذا المظهر الجديد الذي ظهر به الفقه في القرن الثاني واضحاً فيما كان يدور بين أئمة المذاهب من مراسلات كتابية ، ومحاورات شفهية تتمثل لنا في المراسلة الواردة بين إمام المدينة مالك بن أنس ، وإمام مصر الليث بن سعد رضي الله عنهما ، جدالاً في الاحتجاج بعمل أهل المدينة ، على النحو الذي يثبته به مالك وينفيه الليث . أمَّا ما ورد في كتاب « الأم » للإمام الشَّافعي من محاورات بينه وبين الإمام مالك في مسألة عمل أهل المدينة ، وبينه وبين الإمام محمد بن الحسن الشيباني فقيه العراق ، وصاحب الإمام أبي حنيفة في مسألة الاستحسان[1] .

ومما يؤكد معرفة أصحاب الإمام مالك لمنهج إمامهم الاستنباطي ما هو معروف من أن بعضهم معدود في درجة الاجتهاد المذهبي المقيد بأصول إمام المذهب . وهي درجة تخول لصاحبها الاجتهاد في الفروع بالتخريج على أقواله إمامه أو الاستنباط من نصوص الشارع على مقتضى أصوله[2] ، ومن هو أهل لذلك لا يعقل أن تكون أصول إمامه مجهولة لديه ، لأنَّها غير معلومة لإمامه ، كيف يمكن ذلك ! ؟.

ولم يعد مقبولاً أن يقال إنَّ أئمة المذاهب – عدا الإمام الشافعي – لم تكن لهم أدلة واضحة ولم يكن منهجهم الاستنباطي معروفاً « وأنهم ما كان لهم قانون كلي يرجعون إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضتها وترجيحاتها ، فاستنبط الشافعي علم أصول

---

(١) ومضات فكر : ص ٤٦ .

(٢) انظر المحاضرات المغربيات ص ٧٥ ، والاختلاف الفقهي في المذهب ص ١٢٩ .

الفقه ووضع للخلق قانوناً كلياً يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع »[١]، فهذا القول يخطئه البحث التاريخي في أطوار التشريع ، ذلك أن تميز المذاهب عن بعضها إنما نشأ عن تميز مناهج أئمتها والاختلاف فيما بينهم ، وإلا لم يمكن تسميتها بالمذاهب ، ولكانت أقوال كل واحد منهم مجرد فتاوى تلقى ، لا يقوم بينها رابط ولا تصدر عن تفكير منهجي، ولا يختلف الأمر عن الاجتهاد في عهد التابعين .

كما إن الإمام الشافعي – رحمه الله – ما تسنى له التأليف في أصول الفقه وتدوين منهجه الاجتهادي ، إلا لأنَّه اختلف مع الإمامين مالك وأبي حنيفة في بعض أصولهما ، فقام بمناقشتهما في الأصول التي اختلف معهما فيها ، واحتج للأصول التي يراها صالحة لبناء الاجتهاد عليها . وبذلك يكون قد قام بتأسيس مذهب جديد يختلف عنهما في بعض أسسه وأصوله . إلا أنَّه امتاز عليهما بكونه قام بتدوين كامل لهذه الأصول والاحتجاج لها والدفاع عن وجهة نظرة فيها .

والجدير بالذكر أن الإمام مالكاً ، كان له اهتمام تدويني لأصوله ، ولو كان جزئياً وهذا الاهتمام يظهر في تلك الإشارات والبيانات لبعض قواعده التي سجلها في موطئه ؛ قال ابن العربي : « إذ بناه مالك رضي الله عنه على تمهيد الأصول للفروع ونبه فيه على معظم أصول الفقه التي ترجع إليها مسائلة وفروعه »[٢]. وقال الشيخ أبو زهرة : « إن مالكاً لم ينص على أصوله نصاً صريحاً واضحاً متصل الأجزاء كما فعل تلميذه الشافعي إذ دون أصول الاستنباط التي قيد نفسه بها ، ولكن مع ذلك يستطيع القارئ المتتبع باستقراء الموطأ أن يعرف أصول مالك التي كان يجتهد في دائرتها ، وعلى الطرائق التي حددها له لا يعدوها »[٣] كما

---

(١) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي علي حسن عبد القادر : ص ٢٦٨ .

(٢) القبس : ١/ ٧٥ .

(٣) « مالك » لأبي زهرة : ص ١٦ .

كشفت لنا كتب المذهب قديمة التأليف التي امتدت إليها يد التحقيق وأخرجتها للنَّاس حديثاً عن مجموعة هامة من القواعد الأصولية التي نقلت عن إمام المذهب ، الأمر الذي يؤكد أن قواعد أصول المذهب المالكي ليست كلها مستنبطة ومخرجة من فتاوى الإمام مالك . ومن هذه الكتب « المقدمة في الأصول »[(١)] للقاضي أبي الحسن بن القصار (ت ٣٩٧ هـ) و « إحكام الفصول في أحكام الأصول »[(٢)] لأبي وليد الباجي (ت٤٧٤ هـ) .

ولذلك فإنَّ الاهتمام المبكر بأصول الاستنباط ليس غريبا عن أصحاب مالك وتلاميذهم فقد ألف أصبغ بن الفرج المصري « كتاب الأصول »[(٣)] ، ولو كتب له البقاء ربما لوقفنا على أقوال شيوخه ابن القاسم وابن وهب وأشهب ورواياتهم عن إمامهم في هذا المجال بكل تفصيل . ويكفي أن نذكر للتدليل على هذا الاهتمام ، أن الإمام الشافعي إنما كتب « الرسالة » إلى عبد الرحمن بن مهدي[(٤)] – تلميذ مالك – وهذا يدل على الاهتمام الذي كان لدى علماء المالكية في هذا العصر بالأصول وقواعده .

إلا أن هذا الاهتمام لم يكن على درجة كبرى تليق بقيمة هذا العلم وأهميته ، وإنما اكتفى أصحاب مالك – رحمه الله – وتلاميذهم بحمله في صدورهم والاكتفاء بتطبيقه في فتاويهم ، حتى ضعف هذا الجانب العلمي فيمن تلاهم من حملة الفقه المالكي ، ولم يتطور بما تقتضيه قوانين العلوم وما تتطلبه من التوسع فيه وتدوينه وإثراء مصطلحاته وتقنينها .

ولم يشذ عن هذا الأمر من بين المدارس المالكية إلا المدرسة البغدادية ، التي كانت أنظارها متجهة أكثر إلى تأصيل الأصول ، وتقعيد القواعد . وبرز هذا الاهتمام جلياً في المؤلفات التي دونها علماء هذه المدرسة ، كما سنرى ذلك في خاتمة هذا المطلب .

---

(١) صدر عن دار الغرب الإسلامي بيروت سنة ١٩٩٦ .

(٢) صدر عن دار الغرب الإسلامي بيروت سنة ١٩٨٦ .

(٣) ترتيب المدارك : ٤ / ٢٠ ، شجرة النور : ص ٦٦ .

(٤) ترتيب المدارك ٣ / ٢٠٢ ، طبقات الفقهاء : ص ١٠٢ .

وقد كان اهتمام هذا التيار المالكي بتأصيل الأصول وتقعيد القواعد قائماً أولا على ما لديهم من تصريحات الإمام بأصوله وقواعد مذهبه . وقائماً ثانياً على دراسة فتاويه وأقواله ، والبحث عن أدلتها ومصادرها التي يظن أنَّها استقيت منها ، ثم مقارنتها وتنظيرها ، ثم استخلاص قاعدة عامة يقع تقريرها بانها أصل من أصول المذهب . وذلك كأن تجتمع لدى العلماء مجموعة من المسائل الفقهية التي أفتى فيها الإمام مالك تختلف في أبوابها الفقهية وتتفق في كون أدلتها مثلاً : أحاديث مرسلة أو دليل خطاب ، أو عموم نص ، أو عمل أهل المدينة ، أو قياساً في مقابل الخبر الواحد ، أو غير ذلك من القواعد الأصولية ، فيقررون أنها من أصول مالك التي اعتبرها في اجتهاده .

ويتتبعون كذلك – من خلال الاستقراء – قيودها وشروط العمل بها ، وتحديد ماهيتها. وهذا العمل القائم على استقراء فتاوى الإمام إنما يفيد في استكشاف القواعد الأصولية التي لم ينص عليها الإمام أو لم يشر إليها . وأمَّا ما وجد لها تصريح منه أو إشارة فإن استنباطها عن طريق هذا التتبع والاستقراء يكون لها تأكيداً على تطبيق الإمام لها ويصحح النقل عنه بقوله بها .

ثم يتولون الاحتجاج لكل هذه القواعد ، وبيان مشروعية العمل بها ، بما يتوفرون عليه من الأدلة النقلية والعقلية .

وقد تسنى لعلماء المالكية ببغداد هذا المنهج نتيجة لتأثرهم بالبيئة الفكرية التي تقوم على الرأي وإعمال العقل ، والتمرس على الأقيسة بكل أنواعه ، ونتيجة للامتزاج الذي قام في ذهن هؤلاء الفقهاء بين أدوات المعرفة والتحليل والنقد الراجعة إلى علوم الشريعة من جهة، وعلوم العقيدة من جهة أخرى .

وقد كان تأثير أساليب علم الكلام للاحتجاج ونصرة العقيدة واضحاً في أساليب الاستدلال الفقهي ونصرة المذهب . وكان الإمام الباقلاني رائد هذا المزج بين أساليب النظر

في علمي أصول الدين وأصول الفقه ، أو بالأحرى كان وراء توجيه أصول الفقه إلى الاقتباس من المناهج التي يقوم عليها علم الكلام . ومعلوم أن القاضي عبد الوهاب يعد من أبرز تلاميذ الباقلاني .

ونبادر فنقول : إنَّ كتب التراجم تحدثت عن علماء مالكيين من بقية المدارس إلى عهد القاضي عبد الوهاب ، كان لهم اهتمام بأصول الفقه ، وذكرت لبعضهم كتباً في هذا المجال ، فقد ذكر أن « أشهب كان يتكلم بأصول العلم ويفسر ويحتج »[1]، وأن أصبغ بن الفرج (ت ٢٢٥ هـ) كان يتكلم في أصول الفقه وله كتاب « الأصول »[2] إلا أن هذا الاهتمام كان في بداياته ، وتوقف عند ذلك الحد ، ولم يتواصل ، ولم ينضج ، ولم يتطور . وما نشأ بعد ذلك من حين لآخر من انشغال بعض العلماء بعلم الأصول والتخصص فيه ، فإنَّ الفضل فيه يعود إلى تأثرهم بالمدرسة البغدادية التي اتصلوا بأعلامها وأخذوا عنهم كما سنرى ذلك في المطلب الثالث .

***

وما ذكرناه في هذا الجانب من استكشاف الأصول ووضع القواعد والاحتجاج لها ، يمثل أحد الجانبين المكونين لأساس التأصيل ، الذي تميزت به المدرسة العراقية .

وأمَّا الجانب الثاني منه ، فهو الاستدلال للمسائل الفقهية ، سواء التي أفتى بها الإمام أو التي خرجوها على ما أفتى به ، أو استنبطوها من أصوله . وهذا الاستدلال قائم على بيان أدلتها وإقامة مداركها وتعليل أحكامها . وقد ساروا في ذلك على منهج تأصيل الأصول واستكشافها ، باعتماد الاستدلال والنظر العقلي معاً .

---

(١) ترتيب المدارك : ٣/ ٢٦٤ .

(٢) ترتيب المدارك : ٤/ ٢٠ .

وقد كان عنصرا التأصيل يسيران معا لدى هذه المدرسة . والحق أنَّه لا يمكن فصلهما عن بعض ، لأنَّ المسائل الفقهية هي المادة الأساسية لاستخراج قواعد الأصول التي لم ينص عليها إمام المذهب . كما أن الاستدلال للمسائل الفقهية عمل تطبيقي لقواعد الأصول .

وإذا كان الاستدلال لمسائل الفقه الصادرة عن الإمام وعلماء مذهبه لا يعدو أن يكون عملاً مرحلياً فائدته توثيق هذه المسائل وإثبات شرعيتها في ذاتها واستخرج القواعد الأصولية منها ، فإن الاحتجاج لمسائل الأصول وتحديد القواعد الاجتهادية في المذهب يعتبر عملاً له آفاق ، يفتح أمام علمائه مجال المقارنة مع المذاهب الأخرى ، ويمهد طريق النظر والاجتهاد في القضايا الطارئة التي ليس للإمام أو لأصحابه قولاً فيها ، ويبرهن على قدرة الإسلام على إحاطة حياة الإنسان بالتشريع في كل عصر ومصر .

***

إنَّ ما يتعلق بالمجال الفقهي والاستدلال لمسائله والتأصيل لها هو الوقوف على المعاني والعلل التي تقوم عليها مسائل الفقه . وتعمق علماء المدرسة العراقية في دراسة الأدلة وعلل الأحكام مكنهم من التقدم مرحلة أخرى في خدمة الفقه المالكي باستخراج القواعد الضابطة لمسائله ، وذلك بما قاموا به من المقابلة والتنظير بينها ، واستخلاص ما تتشابه صورها وتختلف أحكامها ، وإيضاح الفروق الدقيقة والمعاني المؤثرة في اختلاف الأحكام بين هذه المسائل المتشابهة .

كما استخلصوا المسائل التي تتشابه أحكامها وتختلف صورها ، وبينوا المعاني الجامعة بينها .

وبهذا التأمل الدقيق للفقة وأصوله ، استطاعوا أن يكشفوا عن فقه متماسك البناء تضبطه قواعد تقوم على المعاني الجامعة بين جزئياته .

وكـان القـاضي عبـد الوهاب البـغـدادي من أوائل من ابتكر وألف في فني النظائر والفروق ، وفي وضع القواعد الأصولية والفقهية على مستوى عموم المذاهب . وهو رائد في هذا المجال في المذهب المالكي[١] .

***

إنَّ ما يعبر عن التميز الذي للمدرسة العراقية على سائر المدارس في مجال التأصيل ، هو انشغالهم به من أول نشوء المدرسة، والتأليف فيه بكثافة، حتى إنَّ السمة الغالبة على مؤلفات علمائها قائمة على هذا المنهج كما سنرى ذلك من خلال أبرز أعلام هذه المدرسة .

فقد ابتدأ بأحمد بن المعذل ، الذي لم يكن لمالك بالعراق لا أبصر بمذاهب أهل الحجاز منه ، هذا المنهج بتأليفه « كتاب الحجة » ، وأخذ انطلاقته الواسعة والعميقة بالقاضي إسماعيل الذي كان إماماً علامة في سائر الفنون والمعارف . فقد جمع القرآن وعلوم الحديث وآثار العلماء والفقه والكلام والمعرفة بعلة اللسان . وبلغ من العمر ما صار واحد عصره في علوم الإسناد . وقد قال الباجي أثناء حديثه عن مرتبة الاجتهاد : « لم تحصل هذه الدرجة بعد مالك إلا لإسماعيل القاضي »[٢] . وتبرز أهميته في مؤلفاته المتنوعة التي وصفت بأنَّها أصول في فنونها [٣] بمعنى أنها مبتكرة لم يسبقه أحد بالتأليف في بابها . فكتبه ظاهرة في مجال التأصيل والاحتجاج للمذهب المالكي وشرحه ، وبيان أدلته وأصوله بكل بسط وتفصيل. وتعتمد النصوص الدينية - القرآن والسنة - بشرحها وتحليلها ، وإعمال النظر فيها . ومن كتبه في هذا المجال : «أحكام القرآن » و « كتاب الأصول» وكتاب « الاحتجاج بالقرآن» وكتاب « الشفعة وما ورد فيها من الآثار » وكتاب « السنن » وكتاب « المبسوط » في الفقه .

---

(١) انظر مقدمة المحقق لكتاب « الفروق الفقهية » للدمشقي ، وكتاب « التنظير الفقهي » لجمال الدين عطية .

(٢) ترتيب المدارك : ٤ / ٢٨٢ .

(٣) ترتيب المدارك : ٤ / ٢٩١ .

وتمتاز كتبه بتحرير الأصول والقواعد التي يستند إليها الفقة المالكي ، والاستدلال على مشروعيتها . والاستدلال لمسائل الفقه المالكي بمختلف الأدلة النقلية العقلية .

وقد أثر جهده في دعم مركز المذهب المالكي بالعراق أمام المذاهب الفقهية الأخرى . قال عياض مبيناً جهد القاضي إسماعيل في نصرة المذهب بما ابتكره من منهاج : « وهو أول من بسط قول مالك واحتج له وأظهره بالعراق » [١] ، كما سيكون له تأثير فيمن سيأتي بعده من علماء المالكية الذين سيرثون منهجه ويلتزمونه . قال القاضي عياض : « وصنف في الاحتجاج له والشرح له ما صار لأهل هذا المذهب مثالاً يحتذونه وطريقاً يسلكونه [٢] .

وفعلاً ، فعلى نهجه سار نخبة من العلماء . فألف القاضي أبو الحسن بن المنتاب البغدادي « كتاب الحجة لمالك » [٣] .

وقام أبو عبد الله محمد بن أحمد البريكاني (ت ٣١٩هـ) بتأصيل مسائل مختصر ابن عبد الحكيم . قال : « عرضت مختصر عبد الله بن عبد الحكم على كتاب الله وسنة رسوله ، فوجدت لكلها أصلاً ، إلا اثنتي عشرة مسألة ، فلم أجد لها أصلاً » [٤] .

وألَّف أبو الفرج عمر بن محمد الليثي البغدادي (ت ٣٣١ هـ) كتاب « اللمع في أصول الفقه »[٥] .

وألَّف بكر بن العلاء القشيري (ت ٣٣٤ هـ) كتاب « الأحكام » وكتاب « أصول الفقه » وكتاب « مآخذ الأصول »[٦] .

---

(١) ترتيب المدارك : ٤/ ٢٨٠ .

(٢) ترتيب المدارك : ٤/ ٢٨١ .

(٣) ترتيب المدارك : ٥/ ٢ .

(٤) ترتيب المدارك : ٥/ ١٦ .

(٥) ترتيب المدارك : ٥/ ٢٢ .

(٦) ترتيب المدارك : ٥/ ٢٧٠ .

وألَّف أبو بكر الأبهري «مسك الجلالة في مسند الرسالة » ، والرسالة كتاب لابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦ هـ) ، وينتمي للمدرسة القيروانية ، ألَّفها صاحبها مجردة عن الأدلة فقام الأبهري بتتبع جميع مسائلها التي تبلغ أربعة آلاف مسألة ، فرفع ألفاظها ومعانيها إلى النبي ﷺ ، أو إلى أصحابه رضوان الله عليهم [١]. وألف «إجماع أهل المدينة » وكتاب « الأصول » وكتاب « مسألة إثبات حكم القافة » وكتاب « مسألة الجواب والدلائل والعلل »[٢] .

وألَّف القاضي أبو الحسن بن القصار (ت ٣٩٨ هـ) « المقدمة الأصولية » وهي مقدمة لكتابه : «عيون الأدلة » وتناول فيها عدة مباحث تتعلق بأصول الفقه ، بين فيها آراء الإمام مالك وأصحابه فيها . واحتجَّ لها بالأدلة[٣].

ثم جاء القاضي أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) الملقب بشيخ السنة ولسان الأمة . وكان حسن الفقه عظيم الجدل ، حاز إمامة العلماء في أصول الدين وأصول الفقه . وله تأثير كبير على من جاء بعده من العلماء وخاصة تلميذه القاضي عبد الوهاب البغدادي . قال فيه القاضي عبد الوهاب مبيناً إعجابه وتأثره به : «صحبت الأبهري ، وتفقهت مع أبي الحسن بن القصار وأبي القاسم ابن الجلاب ، والذي فتح أفواهنا وجعلنا نتكلم أبو بكر الطيب »[٤]. ومن مؤلفاته الأصولية : « المقنع في أصول الفقه » و « التقريب والإرشاد في أصول الفقه» و « أمالي إجماع أهل المدينة » و« الأصول الكبير في الفقه » و « الأصول الصغير »[٥].

---

(١) انظر الرسالة الفقهية مع غرر المقالة مقدمة المحقق أبو الأجفان وحمو : ٤٣ .

(٢) ترتيب المدارك : ٦ / ١٨٨ .

(٣) طبعت بتحقيق محمد بن الحسين السليماني عن دار الغرب الإسلامي سنة ١٩٩٦ م .

(٤) الديباج : ص ١٥٩ .

(٥) ترتيب المدارك : ٧/ ٦٩ .

وأمّا القاضي عبد الوهاب فألف : «الملخص» و « الإفادة » و « المقدمات في أصول الفقه » و « المفاخر » و « المروزي في الأصول» و « المعونة على مذهب عالم المدينة » و « الإشراف على نكت مسائل الخلاف »[١] . وقد ذكرنا أن القاضي عبد الوهاب كان رائدا في استكشاف القواعد التي ينبني عليها الفقه المالكي وفي بيان المعاني الجامعة بين مسائله والفروق بينها . وقد قام القاضي بتدوين نتيجة هذا التأمل الدقيق والنظر العميق في المعاني التي تقوم عليها الأحكام الفقهية ، وذلك في تاليف مستقل ، إلا إنَّه لم يكتب له البقاء . وقد ذكره تلميذه مسلم بن علي الدمشقي في كتابه « الفروق الفقهية » ، فقد قال : « كان القاضي – رحمه الله – حَدَّثني أنَّه عمل كتاباً وسمَّاه « الجموع والفرق » وأنه تلف له ولم يعمل غيره »[٢]. وقد ذكر له الدمشقي في كتابه بعض الفروق[٣] . مما يدل على استفادة التلميذ في هذا المجال بشيخه القاضي عبد الوهاب . كما إن له كتاب « النظائر » .

وأمّا جانب القواعد العامة للفقه وأصوله ، فهو وإن لم يضع كتاباً مستقلاً في ذلك ، إلا أننا نجدها مبثوثة في كتابيه « المعونة » و « الإشراف » .

***

---

(١) ترتيب المدارك : ٧/٢٢٢ .

(٢) الفروق الفقهية : ص ٦١ .

(٣) انظر الفروق الفقهية : الفرق رقم ٥٠ ص ٩٤ ، والفرق رقم ١٠٥ ص ١١٢ .

المطلب الثاني : الخلاف والجدل

كانت بغداد موطناً لمذاهب فقهية كبرى متنافسة ، كالمذهب الحنفي والمذهب الشافعي والمذهب الحنبلي والمذهب الظاهري والمذهب المالكي .

وقد كان علماء هذه المذاهب يسعون لنشر مذاهبهم والتعريف بها، وبيان صحة أصولها وسداد آرائها .

وأمام الاتصال اليومي المستمر بين بعضهم البعض ، وانتشار كتبهم ، لم يكن متيسراً للواحد منهم عند الدرس أو التأليف أن يغمض عينيه عن مخالفة المذاهب الأخرى لمذهبه ، أو أن يصرف النظر عن الاطلاع على آرائهم ودراسة أدلتهم والرد عليها ونقضها ، كل من وجهة نظر مذهبه . لذلك أدرك علماء المذاهب أنه لا يستقيم لهم نصرة مذهبهم والإقناع بها إلا إذا قابلوها بما عند مخالفيهم ، وقاموا بالرد عليهم وإبطال احتجاجاتهم ، ثم بإقامة أدلتهم . كما قامت بينهم المناظرات ، وعقدت لأجل ذلك المجالس ، ولهم في هذا الحوار والجدال سوابق من عمل السلف تتصل بالصحابة رضوان الله عليهم ، ليس هنا مجال بيانه .

وكان هذا الحوار بينهم متصلاً بعلمي الفقه وأصوله ، وقد نشأ عن ذلك علم الخلاف والجدل . وعلم الخلاف موضوعه مسائل الفقه ، وقد عرفه ابن خلدون بقوله : « وأمَّا الخلافات ، فاعلم أن هذا الفقه المستنبط من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين ، باختلاف مداركهم وأنظارهم ، خلافاً لابد من وقوعه لما قدمناه ، واتسع ذلك في الملة اتساعاً عظيماً ، وكان للمقلدين أن يقلدوا من شاءوا منهم . ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار ، وكانوا بمكان من حسن الظن بهم ، اقتصر الناس على تقليدهم... فأقيمت هذه المذاهب الأربعة على أصول الملة ، وأجري الخلاف بين المتمسكين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص الشرعية والأصول الفقهية . وجرت

بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب إمامه ، تجري على أصول صحيحة وطرائق قويمة ، يحتج بها كلٌّ على مذهبه الذي قلده وتمسك به ، وأجريت في مسائل الشريعة كلها، وفي كل باب من أبواب الفقه . فتارة يكون الخلاف بين الشافعي ومالك ، وأبو حنيفة يوافق أحدهما، وتارة بين مالك وأبي حنيفة ، والشّافعي يوافق أحدهما ، وتارة بين الشّافعي وأبي حنيفة ، ومالك يوافق أحدهما . وكان في هذه المناظرات بيان مآخذ هؤلاء الأئمة ، ومثارات اختلافهم، ومواقع اجتهادهم. وكان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافيات [1] .

والمناظر في الخلافيات لابد له « من معرفة القواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام، كما يحتاج إليها المجتهد ، إلا أن المجتهد يحتاج إليها للاستنباط ، وصاحب الخلافيات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن يهدمها المخالف بأدلته » [2] .

وأمّا الجدل ، فموضوعه مسائل الخلاف في أصول الفقه ، يقول طاش كبرى زاده في الفرق بين الجدل وعلم الخلاف : « علم الخلاف ... الفرق بينه وبين علم الجدل بالمادة والصورة ، فإن الجدل بحث عن مواد الأدلة الخلافية ، والخلاف بحث عن صورها »[3]. وهناك فرق آخر وهو بين الجدلي والأصولي من حيث دراستها لمسائل أصول الفقه ، فالأصولي يبحث عن الدليل الإجمالي مطلقاً ، والجدلي يبحث عنه بشرط المنازعة فيه ، فموضوعه أخص من موضوع الأُصولي ، والغرض فيهما مختلف ، فإن الأصولي غرضه معرفة كيفية الاجتهاد، والجدلي غرضه إقامة الحجة لإلزام الخصم ودفع شكوكه وإبطال ما في كلامه » [4] .

---

(١) المقدمة : ص ٤٢١ .

(٢) المقدمة : ص ٤٢٢ .

(٣) مفتاح السعادة : ١ / ٤٢٦ .

(٤) انظر التعريفات : ص ٧٤ ، ومفتاح السعادة : ١ / ٢٥١ ، والجدل والمناظرة عند الفقهاء ، محمد أبو الأجفان ، ضمن سلسلة آفاق إسلامية : العدد ٥ ص ١٧٢ .

كما نشأ علم ثالث وثيق الصلة بعلمي الخلاف والجدل ، موضوعه شروط المناظرة وقواعدها ، حتى تجري على أصول سليمة ويقع الانتفاع بها، ويسمى علم «آداب البحث»، وقد عرفه ابن خلدون بقوله : « إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه ، كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره »[١]. ذلك « أنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً ، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج ، ومنه ما يكون صواباً ، ومنه ما يكون خطأ ، فاحتجاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودهما في الرد والقبول ، وكيف يكون حال المستدل والمجيب ، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً ، وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً ، ومحل اعتراضه أو معارضته ، وأن يجب عليه السكوت ، ولخصمه الكلام والاستدلال »[٢].

وأمام النشاط العلمي المتميز ببغداد على وجه الخصوص ، لم يكن للمالكية بها إلا أن يدلوا بدلوهم ، ويساهموا في تنشيط الحوار بين المذاهب والرد على مخالفيهم ونقض آرائهم، فكانت مؤلفات علماء المالكية ببغداد مطبوعة بهذا المنهج ، منهج المقارنة والنقض والاستدلال ، على أساس من النقل والعقل ، سواء في مجال الفقه ، أو في مجال أصول الفقه . وإذا استثنينا كتابي « التفريع » لابن الجلاب ، و « التلقين » للقاضي عبد الوهاب ، الذين أخذا شكلاً تلخيصياً للمذهب ينفع لتدريس المبتدئين ، فإنَّ أغلب مؤلفات المالكية بالعراق تدل عناوينها على أنَّها تدور حول مسائل الخلاف بين المالكية وبين غيرهم ، كما سنرى ذلك في خاتمة هذا المطلب . وإنَّ هذا المنهج هو طابع مميز لهم عن غيرهم من علماء المدارس المالكية الأخرى ، الذين كان التأليف فيهم في علم الخلاف نادراً ، كما كان مقتصراً على الأثر دون أن يبلغ مستوى النظر وإعمال الرأي ، ومقارعة الحجج العقلية بما يناسبها .

---

(١) المقدمة : ص ٤٢٢ .

(٢) المقدمة : ص ٤٢٢ .

على أنَّ مساهمة مالكية العراق في علم الخلاف والجدل مع مخالفيهم يستلزم سعة الاطلاع على آراء المذاهب المختلفة ، والوقوف بدقة على مداركهم وأصولهم الاجتهادية ، وأدلة مسائلهم بكل أنواعها .

فكان ذلك متوفراً فيهم بكل جدارة . مما يعد ذلك فيهم ميزة تضاف إليهم . يشير إلى هذه الموسوعية في علماء هذه المدرسة ، مما ذكره القاضي عياض نقلاً عن أحد الإخباريين قوله في أبي بكر الأبهري : « لقد رأيت أصحاب الشافعي وأبي حنيفة إذا اختلفوا في أقوال أئمتهم يسألونه ، فيرجعون إلى قوله ، وكان يحفظ قول الفقهاء حفظاً مشبعاً »[(١)] .

وكما ذكرنا في المطلب الأول ، نذكر هنا أيضاً أن مؤلفات علماء هذه المدرسة الكثيرة والمتنوعة تدل بوضوح على مدى اهتمامهم بعلمي الخلاف والجدل ، وأن تأليفهم فيه يبلغ تأليفهم في علم الأُصول والاستدلال الفقهي . كما أن اهتمامهم بهذا العلم كان مبكرا مع بدايات نشوء المدرسة بالعراق .

ونذكر فيما يلي نماذج على سبيل المثال لا الحصر :

فقد ألَّف القاضي إسماعيل كتاب « الرد على محمد بن الحسن » وكتباً في الرد على أبي حنيفة وكتباً في الرد على الشافعي[(٢)] .

وبذلك يكون القاضي إسماعيل في المدرسة العراقية من أوائل من وضع أقوال المذهب المالكي جنباً إلى جنب مع أقوال المذاهب الأخرى للمقارنة والمناقشة . ومن عهده نبدأ مشاركة مالكية العراق في تأسيس وتطوير علمي الخلاف والجدل .

---

(١) ترتيب المدارك : ٦/١٨٥ .

(٢) ترتيب المدارك : ٤/٢٩١ .

ثم ألّف القاضي أبو الحسن بن المنتاب البغدادي – وهو من أصحاب القاضي إسماعيل – كتاباً في « مسائل الخلاف »[١].

ولمحمد بن بكير البغدادي (ت ٣٠٥هـ) المتفقه على القاضي إسماعيل كتاب في « مسائل الخلاف »[٢].

ولأبي بكر بن الجهم (ت ٣٢٩ هـ) المتفقه مع القاضي إسماعيل كتاب « الرد على محمد بن الحسن » وكتاب « مسائل الخلاف »[٣].

وألّف القاضي أبو الحسن عمر بن يوسف (ت ٣٢٨هـ) المتفقه على كبار أصحاب عمه إسماعيل ، كتاباً في « الرد على من أنكر إجماع أهل المدينة ». وهو نقض لكتاب أبي بكر الصيرفي فقيه الشافعية . وقد كانت له معه مناظرات[٤].

وألّف بكر بن العلاء القشيري (ت ٣٣٤هـ) وهو من أهل البصرة ، والمتفقه على كبار أصحاب القاضي إسماعيل ، كتاب « الرد على المزني » وكتاب « الرد على الشافعي » وكتاب « الأشربة » وهو نقض كتاب الطحاوي . وكتاباً في « مسائل الخلاف »[٥].

وألّف أبو القاسم بن الجلاب (ت ٣٧٨هـ) كتاباً في « مسائل الخلاف »[٦].

وألّف القاضي ابن القصار (ت ٣٩٨هـ) كتاب « عيون الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمصار »[٧]. وفي قيمة هذا الكتاب قال الشيرازي الشّافعي : « له كتاب في مسائل

---

(١) ترتيب المدارك : ٥/١ ، وشجرة النور : ص ٧٧ .

(٢) ترتيب المدارك : ٥/١٦ ، وشجرة النور : ص ٧٨ .

(٣) ترتيب المدارك : ٥/١٩ ، وشجرة النور : ص ٧٨ .

(٤) ترتيب المدارك : ٥/٢٥٧ ، وشجرة النور : ص ٧٨ .

(٥) ترتيب المدارك : ٥/٢٧٠ ، وشجرة النور : ص ٧٩ .

(٦) ترتيب المدارك : ٧/٧٦ ، وشجرة النور : ص ٩٢ .

(٧) ترتيب المدارك : ٧/٧٠ ، وشجرة النور : ص ٩٢ .

الخلاف كبير لا أعرف لهم كتاباً في الخلاف أحسن منه »[١] . قال القاضي عبد الوهاب : « تذاكرت مع أبي حامد الإسفراييني الشافعي في أهل العلم . وجرى ذكر أبي الحسن بن القصار وكتابه في الحجة لمذهب مالك فقال لي : ما ترك صاحبكم لقائل ما يقول »[٢].

وألّف القاضي الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) « شرح أدب الجدل »[٣] .

وأمّا القاضي عبد الوهاب (ت ٤٢٢هـ) فقد بلغ اهتمامه بعلمي الفقه وأصوله ودراسته المتعمقة فيهما ، إلى أن انتهت إليه رئاسة المذهب في عصره[٤]. وكان نبوغه في الفقه والأصول قد تبعه نبوغ في الخلافيات والجدل ، لقيام الدراسة لهذين العلمين على أساس الاحتجاج للمذهب ، وتحرير مواطن الخلاف مع الغير والرد عليهم ، ونقض أقوالهم[٥]. وفي بيان هذا النبوغ المتكامل ، وتمرسه على استعمال الأدلة العقلية والأقيسة بجميع أنواعها حتى المنطقية - اليونانية - منها ، حتى أصبح الناطق بلسان حال القياسيين؛ وعبقريته في وضع الأصول وتحريرها وتمهيد السبيل في ذلك لغيره . قال ابن بسام : « كان أبو محمد في وقته بقية الناس ، ولسان أصحاب القياس . وهو أحد من صرف وجوه المذهب المالكي بين لسان الكناني ونظر اليوناني ، فقدر أصوله ، وحرر فصوله ، وقرر جمله وتفاصيله ، ونهج فيه سبيلاً كانت قبله طامسة المنار ، دارسة الآثار . وكان أكثر الفقهاء ممن لعله كان أقرب سنداً وأرحب أمداً ، قليل مادة البيان ، كليل شباة اللسان . قلما فصل في كتبه غير مسائل يلقفها ولا يثقفها . ويبوبها ولا يرتبها . فهي متداخلة النظام ، غير

---

(١) طبقات الفقهاء : ص ١٦٨ .

(٢) ترتيب المدارك : ٧/ ٧١ .

(٣) ترتيب المدارك : ٧/ ٤٤ .

(٤) الإشراف على نكت مسائل الخلاف : ١/ ٦٧ .

(٥) المصدر السابق ١/ ٦٨ .

مستوفاة الأقسام . وكلهم قلد أجر ما اجتهد، وجزاء ما نوى واعتقد »[(١)].

ومن كتبه في مجال الجدل والخلاف : كتاب « أوائل الأدلة في مسائل الخلاف » وكتاب « الرد على المزني » وكتاب « الأدلة في مسائل الخلاف » وكتاب « الإشراف على نكت مسائل الخلاف » وكتاب « المعونة على مذهب إمام المدينة »[(٢)].

المطلب الثالث : أثر المدرسة العراقية في المذهب وباقي المدارس

من خلال ما تقدم في المطلبين يتبين أن مالكية العراق ، بما اجتمع لديهم من مختلف العلوم والمعارف ، كانوا رواداً في عصرهم وأئمة في ميادينهم ، استطاعوا أن يأخذوا موقعاً ممتازاً في الحركة الفكرية ببلدهم ، اعتز بهم المذهب المالكي أيما اعتزاز .

فعلى أيديهم قويت حجة المذهب المالكي، بما بذلوه من جهد في تأصيل مسائله والاستدلال عليها ، وفي تدعيم علم أصول الفقه المالكي ، الذي كان لهم الفضل في تأسيسه وتطويره والتأليف فيه ، والانتصار للأصول التي يختلفون فيها مع غيرهم . إذ كانوا – من بين علماء المذهب – أول من كشف على هذه الأصول ، وعرف بحقائقها وأركانها وصور العمل بها وتطبيقها .

كما قويت حجة المذهب بما حصل لهم من النبوغ في علمي الجدل والخلاف ، وبدخولهم ميدان المناظرة مع المذاهب الأخرى ، بأسلحة عقلية مستندين في ذلك إلى الأدلة النقلية .

وقد استطاعوا أن يبرزوا الجانب العقلي في المذهب المالكي ، أصولاً وفروعاً ، فأبانوا عن كونه مذهباً كما يقوم على الأثر رواية ودراية، فإنَّه أيضاً يقوم على الرأي وإعمال العقل،

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : المجلد ٢ القسم ٤ ص: ٥١٥ .

(٢) انظر مقدمة تحقيق كتاب الإشراف على نكت مسائل الخلاف ١ / ٦١ .

من خلال أصوله النظرية ومنهجه في العمل بالنصوص وترجيح بعضها على بعض [١].

فالأمر المؤكد أن الاحتجاج للمذهب وتأسيس القواعد والأصول ، و نقض آراء الغير، ومناظرتهم ومجادلتهم ، ومقارنة الأقوال ببعضها ، وترجيح بعضها على بعض بمختلف الأدلة ، هو منهج نضري عقلي ، قد استقام لمالكية العراق ، ونبغوا فيه ، وكان لهم بذلك فضل على نظرائهم في المدارس المالكية الأخرى ، في دعم مكانة المذهب لا في العراق فقط، بل في كل البلاد التي ينتشر فيها ، وفي حفظه من المصير الذي آلت إليه كثير من المذاهب من الانحسار والاندثار .

وقد عرف لهم رجال المدارس المالكية هذا الدور العظيم حتى قالوا : « لولا الشيخان، والمحمديان ، والقاضيان ، لذهب المذهب . فالشيخان أبو محمد بن أبي زيد وأبو بكر الأبهري ، والمحمدان محمد بن سحنون ومحمد بن المواز ، والقاضيان أبو محمد عبد الوهاب وأبو الحسن بن القصار »[٢] فقد جعلوا دورهم في خدمة المذهب مع دور بقية المدارس مناصفة .

وأعظم من هذه الشهادة ، شهادة من كان خصماً عنيداً لجميع المذاهب الفقهية ، وخاصة للمذهب المالكي بالأندلس ، وهو ابن حزم الظاهري ، إذ قال في القاضي عبد الوهاب أحد أعلام المدرسة العراقية : « لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب، مثل أبي الوليد الباجي »[٣] . وهي شهادة لهذه المدرسة جملة ، لأنَّ الباجي فرع عنها وتلميذ لعلمائها . كما سنرى ذلك لاحقاً .

***

(١) انظر ما كتبه الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور لتاكيد ان المذهب المالكي اقرب إلى النظر والراي منه إلى الأثر (المحاضرات المغربيات ص : ٩٢) .

(٢) معالم الإيمان : ٣/١٣٧ .

(٣) الذخيرة لابن بسام : المجلد ١ القسم ٢ ، وترتيب المدارك : ٨/١١٩ .

وفي الوقت الذي كان أعلام المدرسة العراقية – من بدايات نشأة مدرستهم إلى آخر حلقة من حلقاتها المتمثلة في القاضي عبد الوهاب البغدادي (ت ٤٢٢ هـ) وتلميذه أبي الفضل محمد ابن عمروس (ت ٤٥٢ هـ) منهمكين في دراسة المذهب على المنهج الذي ذكرناه عنهم ، لا يهمهم من المادة الفقهية إلا ما ترجح لديهم ، بحسب مراحل ترجيحهم للمصنفات ؛ المبسوط ، ثم مختصرات ابن عبد الحكم ، ثم المدونة ؛ مفردين المسائل عن مصنفاتها ، دون عناية بهذه المصنفات في ذاتها من حيث غموض الألفاظ ووضوحها ، ومن حيث الترتيب والاختلاط ، ومن حيث الزيادة و النقص .

وقد عبر المقري عن منهجهم في دراسة المدونة : « فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس . وبنوا عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس . ولم يعرجوا على الكتاب – أي المدونة – بتصحيح الروايات ، ومناقشة الألفاظ . ودأبهم القصد إلى أفراد المسائل ، وتحرير الدلائل على رسم الجدليين ، وأهل النظر الأصوليين »[(١)] .

ففي هذا الوقت كان اهتمام أعلام المدارس المالكية الأخرى – في الفترة الزمنية لقيام المدرسة العراقية – منصباً على جمع المصنفات الفقهية في الفقه ، حتى في المرحلة التي ترجحت فيها المدونة على ما سواها في جميع المدارس . وكانت دراستهم للمذاهب – من خلال هذه المصنفات – تقوم على ما يلي :

– جمع روايات المذهب ، بالجمع بين المصنفات كلها أو بعضها ، في مصنف واحد ، أو بالجمع لروايات المذهب في موضوع معين .

– اختصار وتلخيص المصنفات .

– شرح المصنفات وتهذيبها ، ويتناول أثناء ذلك تفسير مجملها ، وحل مشكلها ،

---

(١) أزهار الرياض : ٣/ ٢٢ .

وإتمام ناقصها ، وبيان احتمالات ألفاظها ، وتفريق متداخلها ، والتفريع على أصول مسائلها، وتنظيم أبوابها وترتيب مسائلها .

وهو ما عبر عنه المقري حين تحدث عن منهج أهل القيروان في دراسة المدونة في مقابل منهج العراقيين ، قال : « أمّا الاصطلاح القروي ، فهو البحث عن ألفاظ الكتاب ، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب ، وتصحيح الروايات ، وبيان وجوه الاحتمالات ، والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الأبواب ، واختلاف المقالات ، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار ، وضبط الحروف على حساب ما وقع في السماع ، وافق ذلك عوامل الإعراب أو خالفها »[١] .

وأبرز ما يدل على هذا المنهج في دراسة المذهب مؤلفاتهم التي كانت في غالبيتها تدور حول ما ذكرناه لهم ، وفيما يلي نماذج وأمثلة منها :

- « جمع مسائل المدونة والمستخرجة والمجموعة » لفضل بن حريز (ت ٣١٩هـ)[٢] .

- « المبسوطة » ليحيي بن إسحاق الليثي الأندلسي . جمع فيها اختلاف مالك وأقواله[٣].

- « النوادر و الزيادات » لأبي محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ) . جمع فيه « الموازية » و « العتبية » و « الواضحة » و « المجموعة » و« كتب محمد بن سحنون » وما وصل إليه من روايات وآراء كل من بكر بن العلاء وأبي بكر الأبهري وأبي إسحاق ابن القرطي وابن الجهم[٤] .

---

(١) أزهار الرياض : ٣/٢٢ .

(٢) ترتيب المدارك : ٥/٢٢٢ .

(٣) ترتيب المدارك : ٥/١٦٠ .

(٤) مقدمة النوادر والزيادات : نسخة رقم ٥٧٢٨ بالمكتبة الوطنية بتونس ورقة ٢-٣ .

- «المنتخب في الأحكام» لمحمد بن عبد الله بن أبي زمنين المري (ت ٣٩٩هـ). جمع فيه عيوناً من مسائل الأقضية المختلفة، والأحكام، استخرجها من الأمهات [١].

- «اختصار الواضحة» لفضل بن سلمة بن حريز (ت ٣١٩هـ) [٢]. ولأبي القاسم خلف بن أبي القاسم الأزدي البرادعي المعروف بأبي سعيد البرادعي (ت ٤٣٨هـ) [٣].

- «تهذيب العتبية» لعبد الله بن زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ) [٤].

- «اختصار المستخرجة» ليحيي بن عمر (ت ٢٨٩هـ) [٥].

- «اختصار الموازية» لفضل بن سلمة بن حريز (ت ٣١٩ هـ) [٦].

- «التهذيب في اختصار المدونة» لخلف بن سعيد الأزدي القيرواني المعروف بالبرادعي (ت ٤٣٨هـ) [٧]. كما قام باختصار «المدونة» قبله كل من: فضل بن سلمة بن حريز (ت ٣١٩هـ) [٨]، ومحمد بن عيشون (ت ٣٤١هـ) [٩]، محمد بن صاعد الطليطلي (ت ٣٥٨هـ) [١٠]، محمد بن عبد الملك الخولاني البلنسي (ت ٣٦٤هـ) [١١]،

---

(١) مجلة معهد المخطوطات العربية: المجلد ٣٠ ج ١ ص: ٢٣٦ (نقلا عن اصطلاح المذهب عند المالكية مجلة البحوث الفقهية المعاصرة سنة ٦ عدد ٢٢ ص: ٩٢).

(٢) ترتيب المدارك: ٥/ ٢٢٢.

(٣) ترتيب المدارك: ٧/ ٢٥٧.

(٤) ترتيب المدارك: ٦/ ٢١٧.

(٥) ترتيب المدارك: ٥/٣٥٧.

(٦) ترتيب المدارك: ٥/ ٢٢٢.

(٧) ترتيب المدارك: ٧/٢٥٦.

(٨) ترتيب المدارك: ٥/٢٢٢.

(٩) ترتيب المدارك: ٦/١٧٣.

(١٠) ترتيب المدارك: ٦/١٧٧.

(١١) ترتيب المدارك: ٧/٢٠.

وإسماعيل بن إسحاق القيسي ثم النصري (ت ٣٨٤هـ)[١]، وعبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ)[٢] ، ومحمد بن عبد الله بن أبي زمنين المري (ت ٣٩٩هـ)[٣] وغيرهم .

- « اختصار المبسوط » لمحمد بن عمر المعروف بابن الفخار (ت ٤١٩ هـ)[٤] .

- « المنتخب المستقصى » لعبد الله بن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ) ، واختصر فيه شرح ابن الوراق لمختصر ابن عبد الحكم الصغير[٥] .

- « اختصار النوادر » لمحمد بن عمر المعروف بابن الفخار(ت ٤١٩هـ)[٦] .

- « شرح الرسالة » لمحمد بن موهب القبري (ت ٤٠٦هـ)[٧] .

***

مع هذه الجهود التي قام بها علماء المذهب المالكي - عدا مالكية العراق - في الفترة التي أشرنا إليها منذ حين ، رغم أهميتها ، في خدمة المذهب ودراسته ، فقد وجدوا أنفسهم عاجزين عن تأييد مذهبهم والاحتجاج له ، ورد الشبهات عنه ، عند أول مواجهة أو مناظرة مع المخالفين .

ويصور لنا هذا القصور الذي كانوا عليه أمام نظرائهم في المدرسة العراقية ، ما ذكر عن أبي عمران الفاسي القيرواني - معاصر القاضي عبد الوهاب - أنَّه لما دخل بغداد ، شاع

---

(١) ترتيب المدارك : ٦/٢٩٨ .

(٢) ترتيب المدارك : ٦/٢١٧ .

(٣) ترتيب المدارك : ٧/١٨٥ .

(٤) ترتيب المدارك : ٧/٢٨٨ .

(٥) ترتيب المدارك : ٥/٢٠ .

(٦) ترتيب المدارك :٧/٢٨٨ .

(٧) ترتيب المدارك : ٧/١٨٩ .

أن فقيهاً مالكياً من أهل المغرب قدم ، فقال النَّاس : لسنا نراه إلا عند القاضي أبي بكر الباقلاني ... فنهض من أهل بغداد جماعة لمجلس القاضي أبي بكر ، ومعه أصحابه ، وأبو عمران ، فجرت مسائل حتى استأنسوا ، ثم سأله رجل شافعي عن مسألة من الاستحقاق ، فأجابه أبو عمران بجواب صحيح مجرد ، فطالبه السائل بالحجة عليه ، فأطرق الشيخ أبو عمران ، فرفع رأسه شاب من أهل بغداد من المالكية ، فقال للسائل :« أصلحك الله ، هذا شيخ من كبار شيوخنا ، ومن الجفاء أن تكلفه المناظرة من أول وهلة . ولكن أنا أخدمه في نصرة هذه المسألة ، وأنوب عنه فيها ... »[(١)] .

وما روي أيضاً أن أبا عمران الفاسي كان إماماً في كل علم ، نافذاً في علم الأصول ، مقطوعاً بفضله وإمامته ، وأنه قال : « رحلت إلى بغداد ، وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس عند أبي الحسن القابسي وأبي محمد الأصيلي ، وكانا عالمين بالأصول ؛ فلما حضرت مجلس القاضي أبي بكر – الباقلاني– رأيت كلامه في الأصول والفقه مع المؤالف والمخالف ، حقرت نفسي ، وقلت : لا أعلم من العلم شيئاً ، ورجعت عنده كالمبتدئ»[(٢)] .

وقد كان الإمام سحنون يعرف الفرق بين المنهجين في دراسة المذهب وتفوق المدرسة العراقية على غيرها في ذلك ، فقد دخل على ابنه محمد – الموصوف بأن الغالب عليه الفقه والمناظرة ، وكان يحسن الحجة والذب عن السنة والمذهب – ؛ وهو يؤلف كتاب تحريم النبيذ رداً على المذهب الحنفي ، فقال له سحنون : « يا بني ، إنك ترد على أهل العراق ، ولهم لطافة أذهان وألسنة حداد ، فإياك أن يسبقك قلمك لما تعتذر منه »[(٣)] .

ويحكى القاضي عياض عن أبي عبد الله محمد بن الفرج المازني[(٤)] الفقيه الحافظ

---

(١) ترتيب المدارك : ٧/ ٢٤٧ .

(٢) ترتيب المدارك : ٧/ ٤٦ .

(٣) ترتيب المدارك : ٤ / ٢٠٧–٢٠٨ .

(٤) أصله من صقلية، وسكن قلعة بني حماد، وأخذ بالقيروان عن السيوري (ت٤٦٠هـ) (ترتيب المدارك: ٨/ ١٠١).

المدرك المتفنن في علوم القرآن وسائر المعارف المتقدم في علم اللسان ؛ بأنه لما رحل للمشرق ودخل بغداد لم يحصل له رئاسة هناك بالفقه رغم إمامته فيه . فرأس بالنحو وعلم اللسان . وسبب خموله في الفقه ببغداد ، حسب ما ذكر القاضي عياض أن المذهب قد درس وقل طالبه ، ولتقدم أهل المشرق في النظر وحذق الجدل ، الذي بذلك تقدم أئمتهم [١] .

وإذا وجد من بين رجال هذه المدارس من تذكره كتب التراجم بأنه من أهل الاحتجاج للمذهب ونصرته والاستدلال لمسائله ووضع المؤلفات في ذلك ، فإنَّ ذلك لا يعدو في الغالب أن يكون قائماً على الاستدلال بالنصوص والآثار ، لا يخرج عن دائرتها ، باعتمادها وتحليلها، وبيان وجوه محاملها ، ومقارنة بعضها ببعض ، وتفسيرها حسب مقتضيات اللغة .

ففي مقارنة سريعة وموجزة بين أساليب الاستدلال في المدرسة العراقية وأساليب غيرها من المدارس ، نذكر مثلاً على ذلك مسألة اختلفت فيها طرق الاستدلال باختلاف المنهجين في ذلك .

وهذه المسألة ، هي ما جاء من قول مالك – رحمه الله تعالى – : « لا بأس بوسم الدواب ، ما لم يكن في الوجه ، فإنَّه يكره » فقد ذكر ذلك ابن أبي زيد ولم يزد عليه[٢] . وربما في مسائل أخرى لا يزيد على الاستدلال بالآية والحديث أو بأحدهما .

وفي المقابل ، استدل القاضي عبد الوهاب لنفس المسألة فقال : « تكره السمة في الوجوه ، ولا تكره في غيره ؛ لأنَّه ﷺ نهى عن السمة في الوجه وأرخص فيها في الأذن[٣] وروي أنه ﷺ مَرَّ به حمار قد كوي في وجهه فعاب ذلك » [٤] .

---

(١) ترتيب المدارك : ٨/١٠٢ .

(٢) كتاب الجامع ص : ٢٧٢ .

(٣) مسلم في اللباس والزينة ، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه .

(٤) مسلم في اللباس والزينة ، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه .

ويجوز في غيره لأن بالناس حاجة إلى علامات يعرفون بها بهائمهم ، فجاز في الوضع الذي لا يعود بالضرر (١) .

فانظر كيف زاد القاضي عبد الوهاب على الأحاديث بالاستدلال بالمصالح الحاجية لتأكيد جواز الوسم في غير الوجه .

***

لكن قد نجد من بعض علماء هذه المدارس من امتلك بالفعل منهج العراقيين في التأصيل والمناظرة والجدل فهؤلاء – على قلتهم بالنسبة لانتمائهم لمدارس متعددة غير العراقية – يمكن تقسيمهم إلى قسمين :

الأول : هم المنتمون للمدرسة القيروانية . وقد نبغوا في المنهج العراقي من خلال توجيههم لدراسة علم الكلام بتأثير المذهب الاعتزالي الذي كان له وجود في القيروان من خلال قضاته وعلمائه في عهد المأمون والمعتصم . وقد استفاد هؤلاء العلماء من مناهج علم الكلام الاستدلالية في الدراسات الفقهية والأصولية .

وأبرز من يمثل هذا القسم أبو عثمان سعيد بن الحداد (ت ٣٠٣هـ) . فقد كان عالما بالفقه والكلام والذب والرد على الفرق . وهو من وجوه أهل العلم و مشيخة أهل النظر . وله رد على الشافعي بعث به إلى المزني(٢) . ومحمد بن فتح الرقادي (ت ٣١٠هـ) . كان يذهب مذهب الجدل والمناظرة والذب عن السنة ومذهب أهل المدينة . وهو من مشاهير المتكلمين والنظار بالقيروان (٣) .

لكن هذا القسم لم يكن بالكثافة المناسبة لهذه المدرسة ، بل كانوا نخبة حذقوا هذا الفن ، وتميزوا به داخل مدرستهم . قال القاضي عياض فيهم في مجال وصف كتب الإمام

---

(١) المعونة : ١٧٣٦/٣ .

(٢) ترتيب المدارك : ٧٩/٥ .

(٣) ترتيب المدارك : ١٢٦/٥ .

الباجي : « أبلغ ما كان فيها في الفقه وإتقانه على طريق النظار من البغداديين وحذاق القرويين »[1] .

الثاني : هم المتأثرون بعلماء العراق عموماً ، وعلماء المدرسة المالكية العراقية على وجه الخصوص ، سواء كان التأثر مباشرة عن طريق الرحلة إليهم ، أو عن طريق الاطلاع على مصنفاتهم ودراستها .

لقد كانت رحلة علماء المالكية المصريين والقرويين و الأندلسيين إلى بغداد ، واتصالهم بنظرائهم المالكيين بها ضعيفة في بداية نشوء المدارس ، لم تؤثر فيهم بقدر ما استفاد منها البغداديون ، ولم يظهر أثر هذه الرحلات واضحاً وجلياً إلا حين تكثفت ووقع الاتصال بعلماء المشرق وبغداد ، وخاصة بالشيخ الأبهري وتلاميذه من بعده ، وأهمهم القاضيان ابن القصار وعبد الوهاب .

فمحمد بن سحنون (ت ٢٥٦هـ) الذي وصف بأن الغالب عليه الفقه والمناظرة وكان يحسن الحجة والذب عن السنة والمذهب ، وله كتاب الحجة على القدرية ، وكتاب الحجة على النصارى ، وكتاب الرد على الشافعي وعلى أهل العراق ؛ فقد كانت له رحلة إلى المشرق[2] .

وعبد الله بن العاص السعدي القرطبي (ت ٣٣٠هـ) الذي وصف بكونه نظارا ، وله كتاب « الدلائل والإعلام على أصول الأحكام » وكتاب « الرد على من أنكر على مالك ترك العمل بما رواه » فإنه دخل بغداد وسمع من ابن الجهم وأبي الفرج وأبي يعقوب الرازي[3] .

---

(١) ترتيب المدارك : ٨/١١٩ .

(٢) ترتيب المدارك : ٤/٢٠٧-٢٠٨ .

(٣) ترتيب المدارك : ٦/١٤٥ .

والحافظ عبد الله الأصيلي الأندلسي (ت ٣٩٢هـ) الذي وصف بأنه كان عالما بالكلام والأصول والقيام بمذهب مالك والجدل فيه على أصول البغداديين ، وله كتاب « الدلائل على المسائل » شرح فيه الموطأ ذاكراً فيه خلاف مالك وأبي حنيفة والشافعي ؛ فقد كانت له رحلة إلى العراق لقي فيها الأبهري[١] .

وأبو الحسن علي بن محمد المعافري المعروف بابن القابسي (ت ٤٠٣هـ) ، وصف بأنه كان فقيها أصولياً متكلماً مؤلفاً مجيداً ، قد كان له رحلة إلى المشرق [٢] .

ورحل أبو عمران الفاسي إلى العراق ولقي القاضي الباقلاني وأخذ عنه . وكنا أشرنا إلى ذلك قبل .

وأبرز من قام بمد جسور التلقيح لهذه المدارس بالمنهج البغدادي بصورة واضحة وعميقة ، هو أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت ٤٧٤هـ) الذي عاد من رحلته المشرقية إلى الأندلس ، بعد أن تكون بالمنهج العراقي المالكي وغير المالكي ، في الدراسات الدينية عموماً ، والفقهية الأصولية خصوصاً .

ولعلنا ندرك حقيقة هذا الدور وصدقه حين نعرف أن المذهب المالكي تعرض لهجوم مضاد من قبل إمام المذهب الظاهري بالأندلس ، أبي محمد بن حزم ، ولولا الإمام الباجي (ت ٤٧٤هـ) الذي تكون بالمدرسة البغدادية ، وتولى التصدي له ، لكان للمذهب المالكي شأن آخر ، وذلك لما كان عليه ابن حزم من قدرة على المناظرة والجدل ، وعجز مالكية الأندلس عن مواجهته والرد عليه ونصرة مذهبهم . ويصور لنا هذا الوضع القاضي عياض عند حديثه عن الإمام الباجي ورجوعه من رحلته المشرقية ودخوله الأندلس أنه « وجد عند وروده الأندلس لابن حزم الداودي صيتاً عالياً وظاهرات منكرة ، وكان لكلامه طلاوة ، وقد أخذت قلوب الناس ، وله تصرف في فنون تقصر عنها ألسنة فقهاء الأندلس في ذلك

(١) ترتيب المدارك : ١٣٦/٧ ، ١٣٨-١٣٩ .

(٢) ترتيب المدارك : ٩٣/٧ .

الوقت ، لقلة استعمالهم النظر وعدم تحققهم به ، فلم يكن يقوم منهم أحد بمناظرته ، فعلا شأنه ، وسلموا الكلام له على اعترافهم بتخليطه . فحادوا عن مكالمته ، فلما ورد أبو الوليد الأندلس ، وعنده من التحقيق والإتقان والمعرفة بطرق الجدل والمناظرة ما حصله في رحلته أمه الناس لذلك ، فجرت له معه مجالس ، كانت سبب فضيحة ابن حزم وخروجه من ميورقة ، وقد كان رأس أهلها ، ثم لم يزل أمره في سفال فيما بعد »[1] .

وقد كان أبو بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ) يعرف ما لأبي الوليد الباجي من السبق عليه في هذا المجال؛ فكان يقول : «لم يأت قبلي إلى الأندلس بمثل ما أتيت به من علم المشرق إلا أبو الوليد الباجي »[2] .

ومن تاريخ الإمام الباجي ، ورغم توقف عطاء المدرسة العراقية عن إنجاب العلماء بوفاة القاضي عبد الوهاب (ت ٤٢٢هـ) ثم تلميذه محمد بن عمروس(ت ٤٥٢هـ) ، أخذ تأثير هذه المدرسة يتعمق في بقية المدارس ، عن طريق مصنفات المالكيين العراقيين .

فكان كثير من علماء إفريقية والمغرب والأندلس ومصر ، الذين لم يدركوا أقطاب المدرسة العراقية ، قد سعوا للحصول على مؤلفاتهم ، عن طريق تلاميذهم أو تلاميذ تلاميذهم ، فكانت لهم بذلك إجازات بهذه الكتب بأسانيدها التي تلقوا بها هذه الكتب . ونذكر على سبيل المثال كتب القاضي عبد الوهاب البغدادي التي وصلت إلى المغرب الإسلامي .

فعبد الحق بن عطية الأندلسي (ت ٥٤١هـ) يذكر في فهرسته[3] أن له إجازة بكتاب «التلقين» من الشيخ أبي الحسن يحيى بن إبراهيم المرسي (ت ٤٩٦هـ) ، الذي بدوره أخذها عن مؤلفه القاضي عبد الوهاب بمصر سنة ٤٢١ هـ.

---

(١) ترتيب المدارك : ٨/١٢٢ .

(٢) أعلام الفكر الإسلامي : ص ٥٢ .

(٣) فهرس ابن عطية : ص ١١٠- ١١١ .

كما يذكر أن له إجازة بجميع كتب القاضي عبد الوهاب ورواياته ، تتصل بالقاضي أبي عبد الله محمد بن الشماخ ، الذي أخذه بدوره عن مؤلفها بمصر سنة ٤٢١ هـ .

والقاضي عياض السبتي (ت ٥٤٤هـ) يذكر في « الغنية » أنه سمع تصانيف القاضي عبد الوهاب ورواياته عن ابن عتاب عن ابن الشماخ عن مؤلفها .

وحدثه بها أيضا أبو المطرف بن هارون ، عن عبد الحق عن مؤلفها ، وأن له سماعا آخر بكتاب « تلقين المبتدي » عن القاضي أبي علي الصدفي عن مهدي بن يوسف الوراق عن مؤلفه [١] .

ويذكر الشيخ أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي[٢] أن له أسانيد بكتاب « شرح الرسالة » وكتاب « الإشراف » وكتاب « المعونة » وكتاب « الملخص في أصول الفقه » تتصل بأبي الوليد الباجي عن تلميذ القاضي عبد الوهاب محمد بن عمروس ، عن مؤلفها .

ويذكر أيضاً أن له سنداً بكتاب « تلقين المبتدي وتذكرة المنتهي » أخذه عن القاضي أبي بكر بن العربي (ت ٥٤٣هـ) عن الشيخ الفقيه أبي القاسم مهدي بن يوسف بن فتوح ابن علي بن غلبون الوراق ، عن مؤلفه القاضي عبد الوهاب بمصر سنة ٤٢١ هـ[٣] .

ويورد أبو العباس أحمد الغبريني من أهل بجاية (ت ٧٠٤ هـ) سنداً له بكتاب « التلقين » يتصل بعبد الحق بن عطية عن أبي الحسن بن اليمان عن مؤلفه [٤] . كما يورد أبو عبد الله محمد المجاري الأندلسي (ت ٨٦٢هـ) في برنامجه سنداً له بكتاب « التلقين » يتصل بابن الشماخ عن مؤلفه[٥] .

---

(١) الغنية : ص: ١٩٩، ٢٨٦ .

(٢) فهرس أبو خير : ص ٢٤٥ ، ٢٥٦ .

(٣) فهرسة ابن خير : ص ٢٤٣ .

(٤) عنوان الدراية : ص ٣١٦ .

(٥) برنامج المجاري : ص ١٠٣ .

ومن خلال هذا العرض ، نستطيع أن ندرك مدى الاهتمام الذي توجه لمدرسة بغداد المالكية ومؤلفاتها ، من قبل بقية المدارس ، وقد ذكرنا مؤلفات القاضي عبد الوهاب ، على سبيل المثال لذلك ولما وجدته هذه المؤلفات لديهم من عناية خاصة .

***

وإذا أردنا الاستنتاج من خلال ما تم عرضه في هذا المبحث ، فيمكن القول إن الفترة الزمنية التي كانت المدرسة المالكية العراقية موجودة فيها على ساحة العطاء الفكري ، كان هناك منهجان في دراسة المذهب والتأليف فيه .

- منهج يقوم على تأصيل المسائل واستكشاف الأصول ؛ وعلى الخلاف والجدل ؛ باعتماد المواد النقلية والأساليب العقلية على السواء. وهو منهج المدرسة العراقية .

- منهج يقوم على دراسة المصنفات ، شرحاً ، واختصاراً ، وتهذيباً ، وجمعاً ، وحلاً لمشكلها ، وتنظيماً لأبوابها ، وهو منهج بقية المدارس .

ومن هنا يمكن أن نضيف تقسيماً آخر للمذهب يقوم على مدرستين باعتبار المنهجين المذكورين في دراسة المذهب والتأليف فيه .

والله أعلـــم

***

الخاتمة

لقد عرف المذهب المالكي بتعدد المدارس داخله . ومن خلال البحث تبين أن هذا التعدد قائم على اعتبارات ثلاث :

- باعتبار المادة الفقهية المنسوبة لإمام المذهب ، التي يختص بها كل بلد عما سواه .

- باعتبار اختلاف بعض أصحاب الإمام مع إمامهم . في منهج العمل بالسنة النبوية .

- باعتبار منهج دراسة المذهب والتأليف فيه .

ومن ثم فعدد المدارس التي ينقسم إليها المذهب يختلف من اعتبار إلى آخر .

١ - فأمَّا بالاعتبار الأول :- ، فتعدد المدارس يرجع إلى منهج الإمام مالك في تقويم اجتهاده القائم على المراجعة الدائمة لآرائه و فتاويه ، وعلى التنقيح المستمر لرواياته للأحاديث النبوية . وهذا المنهج صاحبته عوامل جعلته يؤثر في نشوء المدارس . وأهم هذه العوامل :

- اختلاف أصحاب الإمام - مع كثرتهم - في فترات الأخذ والتلقي عنه ، بحيث كان ما يسمعه البعض قد لا يسمعه البعض الآخر . وقد يقضي البعض مدة طلبه العلم ويعود لبلده ، ويأتي البعض الآخر ليبتدئ مدة طلبه ، فيسمع ما قد يكون الإمام رجع عنه من آراء ، فتختلف سماعات من رجع لبلده عن من جاء بعده .

- النشاط التدويني للفتاوى وللموطأ ، الذي قام به أصحاب الإمام ، واستمر في عهد تلاميذهم ، وأسفر عن تدوين المصنفات الفقهية : الواضحة والمدونة والمستخرجة والمجموعة والموازية والمبسوط .

- قيام أصحاب الإمام بالاجتهاد في ضوء أصول إمامهم ، في القضايا التي لم يكن لهم فيها نص عنه ، وفي كثير من المسائل التي رأوا أنه جرى فيها على غير أصوله ، فخالفوه فيها .

وأمام اعتقاد كل صاحب بصحة ما سمع عن مالك ، وصحة اجتهاده هو ؛ وأمام تمسك أهل كل بلد بما سبق إليهم من أقوال الإمام و فتاويه ، واجتهاد أصحابه المنتسبين لبلدهم ، أو الذين تأثروا بهم من بلدان أخرى ، من خلال الرحلات ، فقد تجمعت لدى علماء كل بلدة مادة فقهية تنسب لإمام المذهب ولأصحابه الذين أثرو فيهم ، لا توجد عند غيرهم .

وعلى ذلك تعددت المدارس داخل المذهب ، إلى مدرسة مدنية ، ومدرسة إفريقية قيروانية ، ومدرسة أندلسية ، ومدرسة عراقية .

٢ – ومن ناحية الاعتبار الثاني :– فتعدد المدارس به راجع إلى اختلاف بعض أصحاب إمام المذهب مع إمامهم في منهج العمل بالأحاديث النبوية ، إذ كان منهج مالك في ذلك أنه يترك العمل بحديث الآحاد ، ويقدم عليه عمل أهل المدينة فيما طريقه النقل عن النبي ﷺ إذا تعارضا . وذلك عنده من باب الترجيح بين الروايات ، وتقديم العمل المتواتر على الخبر الآحاد .

لكن هذا المنهج وجد معارضة من بعض أصحابه ، أبرزهم أصحابه المدنيون ، وابن وهب من مصر . وعن طريق هذين المسلكين انتشر هذا الخلاف في الجهات والبلدان التي ينتشر فيها المذهب المالكي .

وبهذا الاعتبار انقسم المذهب إلى مدرستين :–

– المدرسة العملية : نسبة للعمل المرجح عندها ،

– المدرسة الحديثة : لتقديمها الحديث الآحاد على عمل أهل المدينة .

ومع انفتاح علماء الأقطار على بعضهم ، بتكثف الاتصال فيما بينهم ، واطلاعهم على مصنفات بعضهم ، اللذان انطلقا مع تلاميذ الأصحاب واستمر بعدهم ، احتاجوا إلى

ترجيح إحدى الروايات المنقولة عن الإمام مالك من بين الروايات المختلفة ، وتوصلوا إلى اعتبار ابن القاسم هو معيار هذا الترجيح، كما اعتبروا مدونة سحنون أصح وثيقة في ذلك.

وبترجيح المدونة ، ترجحت آراء الإمام وأقوال ابن القاسم على غيرها . كما ترجح منهم الإمام في العمل بالسنة النبوية ، إذ كان ابن القاسم زعيم هذا المنهج بعد إمام المذهب.

٣ – وأمَّا سبب تعدد المدارس بالاعتبار الثالث :- فهو وجود علماء المالكية بالعراق في محيط علمي مختلف الاتجاهات الفكرية ومتعدد المذاهب . سعي أصحابها الدؤوب الاحتجاج لمذاهبهم ونصرتها ، ومناقشة آراء مخالفيهم فيما يختلفون معهم من مسائل الخلاف الفقهية والأصولية ، مما جعل حركة تأصيل الأصول وتحرير الدلائل ومجادلة المخالفين خاصة في الحركة العلمية بالعراق . فعمل علماء المالكية بهذا القطر على اكتساب هذه الخاصية والتمرس على أساليبها وقواعدها . وأصبحوا بذلك يتميزون – في دراسة المذهب والتأليف فيه – عن نظرائهم في بقية الأقطار . إذ كانت دراسة هؤلاء للمذهب تقوم على جمع الروايات واختصار المصنفات وتلخيصها وشرحها وتهذيبها وتنظيم أبوابها وترتيب مسائلها . لا يقدرون في باب الاستدلال على أكثر من إيراد النصوص الدينية . ويعجزون عن مجادلة المخالفين ورد الشبه عن المذهب ، فضلا عن نقض آرائهم .

وباعتبار منهج دراسة المذهب والتأليف فيه ، فالمذهب المالكي يقوم على مدرستين : المدرسة العراقية ، والمدرسة المقابلة لها وتضم علماء المذهب في بقية البلدان .

والله أعلم

***

المصادر والمراجع

١) الإتحاف بتخريج أحاديث الأشراف – بدوي عبد الصمد الطاهر صالح – دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث . دبي ط ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .

٢) إحكام الفصول في أحكام الأصول . أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي . تحقيق عبد المجيد تركي . دار الغرب الإسلامي . بيروت ط ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م .

٣) الاختلاف الفقهي في المذهب المالكي – مصطلحاته وأسبابه – عبد العزيز بن صالح الخليفي . ط ١– ١٩٩٣ م.

٤) أزهار الرياض في أخبار عياض . شهاب الدين أحمد المقري التلمساني . صندوق إحياء التراث – الرباط ١٩٩٨ م .

٥) الإشراف على نكت مسائل الخلاف . عبد الوهاب البغدادي . تحقيق الحبيب بن طاهر . دار ابن حزم . بيروت . ط ١ .١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م.

٦) اصطلاح المذهب عند المالكية . محمد إبراهيم أحمد علي . ضمن مجلة البحوث الفقهية المعاصرة – السنة ٤ العدد ١٥ و السنة ٦ العدد ٢٢ .

٧) أعلام الفكر الإسلامي . محمد الفاضل بن عاشور . مكتبة النجاح . تونس .

٨) برنامج المجاري . أبو عبد الله محمد المجاري الأندلسي . تحقيق محمد أبو الأجفان ، دار الغرب الإسلامي . بيروت . ط ١ . ١٩٨٢ م .

٩) البيان والتحصيل . أبو الوليد محمد بن رشد الجد . دار الغرب الإسلامي – بيروت .

١٠) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك . عياض بن موسي السبتي . تحقيق مجموعة من الباحثين . وزارة الأوقاف المغرب . ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

١١) التعريفات .علي بن محمد الجرجاني . دار الكتب العلمية .بيروت ط٣–١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

١٢) التفريع. أبو القاسم عبيد الله بن الحسين بن جلاب البصري. تحقيق حسين الدهماني. دار الغرب الإسلامي . بيروت ط ١- ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

١٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد . أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري . مطبعة فضالة . المحمدية المغرب ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

١٤) التنظير الفقهي . جمال الدين عطية .مطبعة المدينة ط ١- ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

١٥) الجدل والمناظرة عند الفقهاء . محمد أبو الأجفان . ضمن سلسلة آفاق إسلامية العدد الخامس ص: ١٧٢ .

١٦) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب . برهان الدين إبراهيم بن فرحون اليعمري المدني المالكي. مطبعة السعادة . مصر ط ١- ١٣٢٩ هـ .

١٧) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة .أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني. تحقيق إحسان عباس . الدار العربية للكتاب . ليبيا تونس ط ١- ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

١٨) الرسالة الفقهية .أبو عبد الله محمد بن أبي زيد القيرواني. تقديم الهادي حمو ومحمد أبو الأجفان – دار الغرب الإسلامي . بيروت ط ١ . ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.

١٩) شجرة النور الزكية في طبقات المالكية . محمد بن محمد مخلوف . المطبعة السلفية.

٢٠) شرح التفريع . قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي . مخطوط رقم ٥٨٠٨ . المكتبة الوطنية تونس .

٢١) طبقات الفقهاء . أبو إسحاق الشيرازي . دار صادر بيروت . ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م .

٢٢) الغنية . أبو الفض عياض بن موسى السبتي . تحقيق محمد بن عبد الكريم . الدار العربية للكتاب . ليبيا ، تونس . ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

٢٣) الفروق الفقهية . أبو الفضل مسلم بن علي الدمشقي . تحقيق محمد أبو الأجفان وحمزة أبو فارس . دار الغرب الإسلامي – بيروت – ط ١-١٩٩٢ م.

٢٤) فهرس ابن عطية – أبو محمد بن عبد الحق بن عطية الأندلسي . تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي – دار الغرب الإسلامي . بيروت ط ٢– ١٩٨٣ م.

٢٥) فهرست ما رواه عن شيوخه .أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي . تحقيق فرنشكة قدارة زيدين ومن معه . المكتب التجاري . بيروت . ومكتبة المثنى بغداد . ومؤسسة الخانجي القاهرة ط ٢– ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م.

٢٦) القبس في شرح موطأ مالك بن أنس – أبو بكر بن العربي المعافري . تحقيق محمد عبد الله ولد كريم . دار الغرب الإسلامي . بيروت ط١– ١٩٩٢ م .

٢٧) كتاب الجامع في السنن والآداب . أبو محمد عبد الله أبي زيد القيرواني . تحقيق عبد المجيد تركي . دار الغرب الإسلامي ط ٢ ١٩٩٠ م.

٢٨) كشف المغطي من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ . محمد الطاهر ابن عاشور . الشركة الوطنية للنشر بالجزائر ، والشركة التونسية للتوزيع ١٩٧٥ م .

٢٩) مالك : حياته و عصره وآراؤه . محمد أبو زهرة .دار الفكر العربي . ط٢–١٩٥٢ م.

٣٠) المحاضرات المغربيات . محمد الفاضل بن عاشور. جمع وإعداد عبد الكريم محمد . الدار التونسية للنشر . ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .

٣١) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان . عبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بالدباغ ، وأبو القاسم قاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي . المطبعة الرسمية العربية ١٣٢٠ هـ .

٣٢) المعونة على مذهب عالم المدينة . عبد الوهاب بن نصر البغدادي . تحقيق حميش عبد الحق . دار الفكر بيروت . ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م.

٣٣) مفتاح السعادة ومصباح السيادة . طاش كبرى زاده . دائرة المعارف العثمانية .

٣٤) المقدمة – عبد الرحمن بن خلدون . دار الشعب القاهرة .

٣٥) المقدمة في الأصول . أبو الحسن علي بن عمر بن القصار . تحقيق محمد بن الحسين السليماني . دار الغرب الإسلامي . بيروت ط ١-١٩٦٦ م .
٣٦) النوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات . أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني النفزي . مخطوط رقم ٥٧٢٨ المكتبة الوطنية تونس .
٣٧) ومضات فكر . محمد الفاضل بن عاشور . الدار العربية للكتاب .تونس ج ١ سنة ١٩٨١ ج ٢ سنة ١٩٨٢ م .

***

المحور الثاني

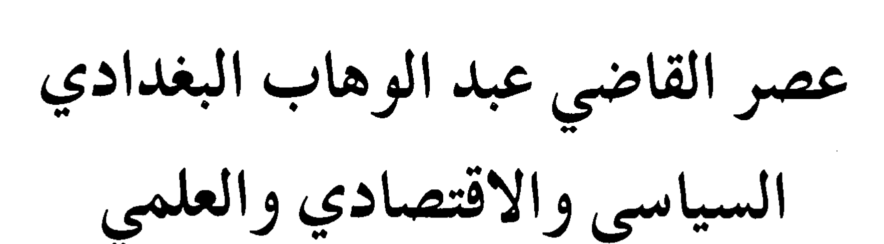
الدراسات الشخصية والعلمية للقاضي عبد الوهاب

ويتمثل في قسمين:

القسم الأول

عصره، سيرته، مكانته العلمية

١ ـ عصره وسيرته



عصر القاضي عبد الوهاب البغدادي السياسي والاقتصادي والعلمي

إعداد

أ. د. محمد أمحزون *

* أستاذ التعليم العالي في شعبة التاريخ بكلية الآداب، جامعة المولى إسماعيل، مكناس، حصل على الماجستير في تاريخ الإسلام الوسيط من جامعة الملك سعود بالرياض عام (١٩٨٤م) وعلى الدكتوراه من جامعة محمد الأول بوجدة - المغرب عام (١٩٨٩م). له العديد من الكتب والبحوث المنشورة.

لما كان موضوع هذا المؤتمر العلمي حول شخصية هامة من أبرز الشخصيات التي كان لها أثر بارز في حفظ التراث الإسلامي وخدمته، وتقديمه لطلابه والمهتمين به في أبهى صورة وأزهاها، فإنه من الضروري تقديم ـ بين يدي إلقاء الضوء على هذه الشخصية ـ دراسة موجزة للظروف التي أحاطت بها، وبيئتها التي ترعرعت في أكنافها.

ذلك أن هذه الدراسة والتنقيب في أحوال العصر يمكن الباحثين والدارسين من الوقوف على العوامل التي كان لها دور فعال في نبوغ تلك الشخصية، وفي التأثير على اتجاهاتها الفكرية وميولها العلمية؛ لأن الإنسان كما يتأثر ببيئته التي يعيش فيها ومشايخه الذين تلقى عنهم، فإنه بنفس القدر يتأثر بالأحوال والظروف المحيطة به من النواحي السياسية والاقتصادية والعلمية. إذ إن هذه الظروف والأوضاع يكون لها ـ حتماً ـ أثر بارز في المسلك الذي ينهجه من عايشها وتتبع سيرها العلمي والمنهجي.

الحالة السياسية:

عاش القاضي عبد الوهاب البغدادي في الفترة الواقعة ما بين عام اثنين وستين وثلاثمائة حيث كانت ولادته، وعام اثنين وعشرين وأربعمائة هجرية حيث كان وفاته[١].

ومعنى هذا أنه عاصر الدولة العباسية في أحلك أيامها إبان عهد الولايات المتناحرة، وحين أفل الوجود الفعلي للسلطة المركزية في بغداد.

أما بقية أنحاء العالم الإسلامي، فلم تكن أحسن حالاً من المشرق، فقد كانت مشتتة على رأس كل منها سلطان أو أمير. فالأمويون في الأندلس ينازعهم العلويون من ذرية إدريس بن عبد الله، فكانت الحال هناك في اضطراب يشبه ما كان في المشرق أو يزيد عليه[٢].

أما إفريقيا ومصر والشام، فقد تعاقب عليها في تلك الفترة أمراء فاطميون[٣]. إلى

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٢٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ج ٤، ص١٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٩٧.

غير ذلك من الانقسامات التي تميز بها ذلك العصر، مما كان له أثره البالغ في تفرق كلمة المسلمين، وإطماع أعدائهم الروم في النيل منهم[١].

ويصف ابن كثير أحوال الخلافة العباسية في القرن الرابع الهجري فيقول: «وهي أمر الخلافة جداً، واستقل نواب الأطراف ولم يبق للخليفة حكم في غير بغداد، وأما بقية الأطراف: فالبصرة مع ابن رائق، وخوزستان إلى أبي عبد الله البريدي، وأمر فارس إلى عماد الدولة ابن بويه، وكرمان مع أبي علي بن محمد بن إلياس بن اليسع، وبلاد الموصل والجزيرة وديار بكر ومضر وربيعة مع بني حمدان، ومصر والشام في يد محمد بن طخج، وبلاد إفريقية (تونس) والمغرب في يد القائم بن المهدي الفاطمي، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر الساماني، والبحرين وهجر واليمامة في يد ابن طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي»[٢].

بل إن وضع الخلافة وصل إلى أضعف مما وصفه ابن كثير؛ فسلطة الخليفة لم تتعد أحياناً أبواب قصره الذي يسكن فيه؛ فالخلفاء في بغداد ألعوبة بأيدي الخدم والمماليك الذين سرعان ما يترقون إلى أمراء للجند. بل أحياناً يعزل الخليفة ويجرد من أملاكه ويصبح عالة على الناس.

وإذا أردنا رسم صورة لحالة المسلمين السياسية في هذا العصر، فسنجد حالة مزرية من الضعف والتشرذم الذي عم العالم الإسلامي يومها، هذا العالم الذي تحول إلى فسيفساء من الدول الصغيرة المتغالبة المتناحرة، حيث سيطرت الأنانيات والطموحات الفردية سيطرة تامة. ولغة الغريزة هي التي تتكلم، والمحافظة على كرسي الحكم هو الغاية، ولو أدى ذلك إلى طلب المعونة من الكفار أو ذهاب البلد للأعداء. ولم تتحرك الهمم للتعاون فيما بين هذه الدول فضلاً عن أن تتحرك للوحدة مرة ثانية[٣].

فبعد مقتل الخليفة المتوكل عام (٢٤٧هـ) بدأت الفتن تستشري، والأحوال تضطرب، وسلطان الخلفاء يتلاشى، بسبب اعتمادهم على الترك[٤]، وظهور كثير من الطوائف المارقة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٥٤٠، ٥٥٢، ٦٠٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ١٩٧.

(٣) محمد العبدة: أيعيد التاريخ نفسه، ص ١١.

(٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج ٩، ص ٢٢٢-٢٣٠.

عن الدين، والتنافس الشديد بين قواد الجيش والوزراء، مما أدى إلى عدم الاستقرار السياسي واضطراب الأحوال اضطراباً شديداً(١).

وفي القرن الرابع الهجري نرى بوضوح حدوث الخلافات بين الأمراء في الولايات التابعة للخليفة العباسي، واقتتالهم من أجل السلطة وعدم تدخله لحسم النزاع فيما بينهم إلى حين تمام الغلبة لأحد الفريقين، فيكون تدخله حينئذ قاصراً على الاعتراف بالسلطة الجديدة التي تمت دون إرادة منه(٢).

وهذا يدل على أنه لم يكن له حول ولا طول، وأنه مغلوب على أمره. وقد بلغ من تحرج مركزه ووضعه وانتزاع سلطانه منه أن عمت الفوضى في مشرق الدولة وكثر فيها الفساد والقلاقل.

وعلى سبيل المثال، فالخليفة محمد بن أحمد الملقب بالقاهر بالله بعد أن عزل، لم يبق معه شيء من ملابسه سوى قطعة عباءة يلتف بها، وفي رجله قبقاب خشبي، ويدور على المساجد يسأل الناس(٣)، والخليفة ابن المعتز يهرب بعد إخفاقه في محاولة انقلابية، فيختفي عند أحد الوجهاء في بغداد (ابن الجصاص)، ثم يعثر عليه فيقتل بطريقة وحشية ويلف بكساء ويسلم إلى أهله(٤).

وحين حل البويهيون (شيعة زيدية) محل الأتراك في حكم فارس والعراق من ٣٣٤ إلى ٤٤٧هـ، لم تكتسب الخلافة العباسية شيئاً من وراء ذلك، إذ ظل الخلفاء كما كانوا من قبل في عهد النفوذ التركي خلفاء بلا نفوذ وهيبة، وليس لهم من السلطة إلا بعض مظاهرها الدينية كالخطبة والسكة وتعيين القضاة وخطباء المساجد، بينما استأثر البويهيون بالحكم واتخذوا لقب ملك أو شاهنشاه بدلاً من لقب أمير الأمراء الذي كان سائداً في العصر التركي السابق(٥).

(١) الخضري: تاريخ الأمم الإسلامية، ص ٤٠٤-٤٠٧، ويوسف العش، تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص ١٧٣-١٨٣.

(٢) انظر على سبيل المثال ما حدث في خراسان في النصف الأول من القرن الخامس الهجري. ابن خلدون: العبر، ج ٣، ص ٤٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ج ١١، ص ٢٢٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص٢٢٤.

(٥) أحمد مختار العبادي: التاريخ العباسي والفاطمي، ص ١٦٣.

بل إن الحال تغير عما كان عليه في السابق، إذ استولى البويهيون على جميع أملاك الخليفة وذخائره، وخصصوا له راتباً يومياً قدره خمسة آلاف درهم لم يكن يصله بانتظام، ثم قطع معز الدولة هذا الراتب وحدد له إقطاعات يعيش منها(١).

وقد بلغت الجرأة بالبويهيين إلى استعمال العنف أحياناً ضد الخليفة، فعندما قلت الأموال عند بهاء الدولة حسن له وزيره القبض على الخليفة الطائع وأطمعه في ماله، ودخل بهاء الدولة على الخليفة وأنزله عن سريره، وهو يستغيث ولا يلتفت إليه أحد، وأخذ ما في داره من الذخائر(٢). وكان سلفه معز الدولة البويهي هو الذي أهان المستكفي وأمر الجنود بشده من عمامته وسيق إلى داره، ثم أحضر الفضل بن المقتدر وبايعه بالخلافة، وأمر بالمستكفي إلى السجن، ولم يزل فيه حتى وفاته(٣).

والطريف في هذا العصر عدم الاكتراث بالأعراف السياسية والاستهانة بالرأي العام، حيث استوزر الأمير فخر الدولة البويهي ابن بقية صاحب مطبخه؛ فصار الوزير أضحوكة وموضع تندر بين الناس(٤).

وفي هذا العصر، يمكن عزو بيع المناصب العامة بما فيها مناصب القضاء، وكثرة مصادرات الوزراء والقادة والأغنياء إلى ضعف الوعي الديني وتجاوز أحكام الشريعة، حتى سادت الفوضى وكثر قطاع الطرق واللصوص ببغداد في إمارة الدولة البويهية، فعمد والي بغداد البويهي إلى تعيين كبير قطاع الطرق حمدي رئيساً لشرطة بغداد ليتقاسم معه النهب(٥).

وقصارى القول: إن عصر القاضي عبد الوهاب تميز بكثرة الدويلات المتناحرة، وانعدام السلطة المركزية، وتفشي الفساد السياسي، وكثرة القتل والنهب والترويع، الأمر الذي أقض مضاجع العلماء في هذا العصر ومنهم القاضي عبد الوهاب. ولا ريب أن فساد الحالة السياسية سينعكس سلباً على الحالة الاقتصادية كما سنبين فيما يلي.

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٢، ص ٨٥، وابن الأثير الكامل، ج ٨، ص ١٧٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ٧٩.

(٣) ابن كثير: البداية، ج ١١، ص ٢٢٦.

(٤) أكرم العمري: قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، ج ١، ص ٨٥ (نقلاً عن الثعالبي: تحفة الوزراء، ص ٥١).

(٥) المرجع نفسه، ج١، ص ٨٥.

الحالة الاقتصادية:

لقد اتضح لنا فيما سبق أن الحالة السياسية في تلك الحقبة من أيام الدولة العباسية التي عاصرها القاضي عبد الوهاب بلغت من الفوضى أقصاها. ولا شك أن عدم الاستقرار السياسي ترتب عليه تدهور الحالة الاقتصادية إلى حد بعيد، حيث سيطر الفزع والرعب على قلوب الناس حتى أصبح لا يطمئن أحد على نفسه وماله.

فمن المعلوم أن الفتن والحروب والقلاقل السياسية تحدث دائماً تأثيراً بالغاً في حياة المجتمعات التي تعاصرها؛ لأنها تنهك الاقتصاد وتقضي على موارد البلاد، وتشجع على إشاعة الفوضى[١].

فبدلاً من أن يعنى الحكام بجباية الموارد الشرعية للدولة، وترشيد النفقات، وتوزيع نتاج الموارد توزيعاً عادلاً بين الناس، نراهم يسلكون لجمع المال طرقاً غير سليمة؛ فالغنائم الحاصلة من الحروب فيما بينهم تشكل أهم الموارد لأموال الدولة، كما أن أموال الناس التي كانت تصادر لأتفه الأسباب تشكل مورداً آخر[٢].

وإذا كان الحكام يتطلعون لما في أيدي الآخرين ويتحينون الفرص لضمه لما في أيديهم، فكيف لنا أن نتصور المجتمع الذي يحكمونه إلا خائفاً متوجساً متقاعساً غير منتج!

وكان الأجناد إذا غضبوا على الحاكم تمردوا عليه، ونهبوا أمواله، ثم التفتوا إلى أموال الناس فنهبوها، وقتلوا من يقف في طريقهم كما حدث في سنة سبع عشرة وأربعمائة[٣].

ومن البدهي أن حالاً كهذه تؤكد المعاناة التي كان يعيشها الناس. فضعف السلطان كان سبباً مباشراً لشيوع شريعة الغاب بينهم في ذلك العهد، إذ استفحل أمر اللصوص، فأغاروا على المنازل في وضح النهار. فقد جاء في حوادث ٣٦١هـ، ٤١٦هـ: «وظهر العيارون، وأظهروا الفساد، وأخذوا أموال الناس، واحترقت الدور، واحترقت محلة الكرخ، وهي معدن التجار»[٤].

(١) أحمد الغامدي: البيهقي وموقفه من الالهيات، ص. ٢٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج. ٧، ص. ١٨٢، ٢٠٦.

(٣) المصدر نفسه، ج. ٧، ص. ٣٢٥.

(٤) المصدر نفسه، ج. ٧، ص. ٤٥، ٣٢٣.

واشتد أمر هؤلاء اللصوص سنة أربع وعشرين وأربعمائة، حين أخذوا أموال الناس عياناً، وقتلوا صاحب الشرطة، ونهبوا المتاجر، وأظهروا الفسق والفجور، والفطر في رمضان(١).

وقد صاحب هذه الحوادث المروعة غلاء شديد في المعيشة، حتى أكل الناس من فرط الجوع الكلاب والحمر الأهلية(٢)؛ ففي حوادث ٣٧٦هـ كان الغلاء شديداً بالعراق، وجلا أكثر الناس. كما يذكر الغلاء في السنوات ٣٨٣هـ، ٣٩٧هـ، ٤١٦هـ، ٤٢٠هـ، ٤٢٤هـ، ومع الغلاء العيارون والمفسدون(٣).

وفي هذه الظروف العصيبة، وفي هذا الوضع الاجتماعي المتدهور الذي عاشه الناس في ذلك العصر من نهب وسلب إلى قتل وانتهاك للحرمات، نلاحظ في الوقت نفسه غرائز الجمع والجشع تظهر بشكل مفرط، فأصبح تكديس الأموال والنهب من خزانة الدولة وكأنه هواية طريفة، فتجمعت الأموال الكثيرة بيد حفنة قليلة من أصحاب النفوذ والسلطان، لا تعرف حلالاً ولا حراماً.

فقد جاء في ترجمة سبكتكين الحاجب التركي مولى معز الدولة البويهي: «وقد ترك من الأموال شيئاً كثيراً جداً، من ذلك ألف ألف دينار (مليون) وصندوقاً من الجوهر»(٤). وجاء في وصف أموال الأفضل ابن أمير الجيوش الأرمني، وهو وزير الفاطميين في مصر: «ترك من الذهب والثياب والرقيق والخيل والمسك ما لا يعلم قدره إلا الله»(٥).

وبلغ الإسراف وإنفاق الأموال على الكماليات حد السفه، فقد ذكر عن عضد الدولة البويهي أنه أنشأ بستاناً بلغت النفقة عليه وعلى سَوْق الماء إليه خمسة آلاف ألف درهم (خمسة ملايين)(٦)، والوزير ابن الفرات لا يأكل إلا في ملاعق البلور، ووجد عند الوزير ابن

(١) ابن العماد: الشذرات، ج ٣، ص ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٩٢.

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٧، ص ١٦٢، ٢٣٨، ٣٢٣، ٣٤٤، ج ٨، ص ٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١، ص ٣٠١.

(٥) المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٢٠٢.

(٦) محمد العبدة: أيعيد التاريخ نفسه، ص ٢٢ (نقلاً عن المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٢٣٨).

كلس من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام، ووجد عنده من الجوهر ما قيمته أربعمائة ألف دينار[١].

وباستثناء القلة من أصحاب الجاه والسلطان، فإن الأمة كانت تعيش حياة صعبة؛ لقد أرهقوهم بالضرائب، وسلطوا الجيش عليهم، علاوة على أحداث النهب والسلب التي كان يمارسها اللصوص والمفسدون، كما مر بنا سابقاً.

ولم يستثن العلماء من هذه الحالة الاقتصادية المتدهورة، إذ نجد ـ علي سبيل المثال ـ الفقيه القاضي عبد الوهاب يغادر بغداد متأسفاً عليها، ويقول لمودعيه: «لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلديكم بلوغ أمنية»، وفي ذلك يقول:

سلام على بغداد في كل موطن ... وحق لها مني سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها ... وإني بشطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علي بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف[٢]

ويقول أيضاً:

بغداد دار لأهل المال طيبة ... وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشي في أزقتها ... كأنني مصحف في بيت زنديق[٣]

قال عنه ابن بسام في «الذخيرة»: «كان أبو محمد في وقته بقية الناس، ولسان أصحاب القياس»[٤].

وهناك ظاهرة اقتصادية تفاقمت في هذا العصر، وكان لها أثر سلبي على الاقتصاد، ألا وهي ظاهرة الإقطاع العسكري. فمن بدع البويهيين التي ما سبقهم إليها أحد إقطاعهم الأرض للقادة العسكريين وللجنود، وذلك بدلاً من الرواتب النقدية التي كانت تصرف لهم. وهذه الأرض الممنوحة ليست من أراضي الدولة أو من الأرض الموات التي تقطع لإحيائها، بل هي من الأراضي المصادرة تعسفاً وظلماً من أصحابها الفلاحين. وكان هؤلاء الجنود إذا لم

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧، ص ٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٢٢١.

(٤) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج ٨، ص ٥١٥.

تعجبهم الأرض أو لم تغل عليهم ما يريدون تركوها وأخذوا غيرها. فأدى هذا المسلك إلى تدمير الحياة الزراعية وإفقار خزينة الدولة[١].

ومن يتأمل المسألة الزراعية سوف يجد أن الملكية العقارية عرفت مخاضاً وتجاذباً بين مختلف القوى السياسية الداخلية، ومن ثم آلت مغالبة إلى الجيش، وذلك بعد تحولها من إقطاعات منفعة مشروطة تحت رقابة الدولة ووصايتها، إلى إقطاعات عسكرية دائمة أصبحت تتحكم في مختلف أشكال المعاملات العقارية، والاتجاه نحو ترسيخ مبدإ القوة والغلبة وتكريس الاستبداد[٢].

وهكذا فإن الإقطاع في هذا العصر تحول بعد تجذر الأزمة الاقتصادية الناجمة عن مفاسد الجيش، ونضوب الموارد، إلى إقطاع سلبي مشلول انعكست آثاره المتردية على غَلِّ القوى المنتجة في الريف، والحيلولة دون تطورها في الاتجاه الإيجابي الفعال.

وقد بلغ الفساد الاقتصادي قمته عندما أقرت الدولة البويهية مبدأ الضمان، وهو إعطاء الحق لبعض الأفراد بجمع الخراج من مدينة أو منطقة بكاملها لقاء مبلغ من المال يؤدونه سلفاً للدولة، ولهم الفرق بين ما يجمعونه وبين ما يؤدونه. ويتولى الضامن جباية الخراج بمساعدة السلطة أو بدون ذلك أحياناً. وطبيعي في مثل هذه الأحوال أن الضامن يهمه جمع أقصى ما يمكن من أموال الفلاحين، ولو كان ذلك بالوسائل القمعية بما يفوق طاقاتهم على التحمل، كما يحاول تأدية أقل ما يمكن للدولة مما يؤدي إلى إضعافها[٣].

ويذكر ابن الأثير المبلغ المؤدى إلى الدولة من قبل الضامن في بعض المناطق بقوله: «وضمن واسطاً أبو علي بن فضلان بمائتي ألف دينار، وضمن البصرة أبو سعيد سابور بن المظفر»[٤].

كما أن بدعة ضمان القضاء بدأت في عهد هذه الدولة. ففي سنة ٣٥٠هـ أمر معز الدولة بتسمية عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب قاضياً على بغداد، على أن يؤدي

---

(١) محمد العبدة: أبعيد التاريخ نفسه، ص ٦٦-٦٧.

(٢) محمد تضغوت: الحياة الاقتصادية في العراق، ج ٢، ص ٤٦٥.

(٣) محمد العبدة: أبعيد التاريخ نفسه، ص، ص ٢٤-٢٥.

(٤) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص٨.

مائتي ألف درهم في كل سنة. وهو أول من ضمن القضاء، ولم يعهد هذا من قبل. وقد استنكر الخليفة العباسي المطيع لله هذه الحادثة، فلم يأذن لهذا القاضي بالدخول عليه(١).

وبعد أن فتح هذا القاضي باب الضمان وسن هذه السنة السيئة، ضمنت الحسبة والشرطة في بغداد(٢). وكان هذا من أكبر أسباب خراب العمران، وكساد الاقتصاد، وضعف الدولة.

الحالة العلمية:

شهد القرنين الرابع والخامس الهجريين نهضة علمية في أرجاء العالم الإسلامي ارتفعت إلى الذروة، وهي نهضة فكرية وأدبية وفنية، أعطت الحضارة الإسلامية نضجاً ورفعة وأصالة.

فمن عجائب هذا العصر أن من يطلع على الحالة السياسية والاقتصادية، ويقف على ما وصلتا إليه من سوء الانحطاط فإنه لا يبعد بالناحية العلمية عنهما، بل يتصورها مشابهة لهما. إلا أن الواقع كان خلاف ذلك؛ فإن سوء الحالة السياسية الاقتصادية لم يكن له أي أثر سلبي على الناحية العلمية، إذ عرفت تلك الحقبة من الزمن أنها كانت من أزهى عصور الإسلام الثقافية، حيث توافر فيها عدد ضخم من رواد العلم والثقافة، وفيها عاش جهابذة علم العقيدة، وأئمة المحدثين والفقهاء، وأساطين الأدباء والكتاب، والعلماء الموسوعيين، ومشاهير الفلاسفة والجغرافيين والكيميائيين والأطباء والصيادلة، فكانت الثقافة قد بلغت أوجها، والاهتمام بالتأليف بلغ ذروته.

لكن يا ترى ما هي العوامل التي ساعدت على تنشيط الحركة العلمية؟

١ - تفرغ العلماء:

كان لتفرغ العلماء في هذا العصر أكبر الأثر في دفع الحركة العلمية دفعة قوية إلى الأمام. فلم تكن تعنيهم القلاقل والاضطرابات السيايسة والثورات الداخلية التي تنشب في أكثر الأقاليم في ذلك العصر، ولا يشتركون فيها؛ لأن أغلب أصحابها يثورون لظلم يقع عليهم أو لطلب منصب أو ولاية. بل صرفوا همهم للكتابة والتأليف، وبذل العلم لعموم الناس في المساجد، ولمن يطلبه من التلاميذ في المدارس المخصصة لهذا الغرض.

---

(١) ابن الأثير، الكامل، ج٨، ص ٥٣٦.

(٢) المصدر نفسه، ج٨، ص ٥٣٦.

٢ - استعمال الورق في الكتابة ورخص ثمنه:

كان استخدام الورق في الكتابة وتصنيف الكتب استخداماً عاماً عاملاً مهماً في ازدهار الحركة العلمية حينئذ. فقد كان العلماء من قبل يكتبون في الجلود والقراطيس المصنوعة بمصر من ورق البردي، والورق المستورد من الصين، وكان ثمنه مرتفعاً جداً. فلما أنشئ مصنع الورق منذ عصر الرشيد رخص ثمنه، وانتشرت الكتابة فيه لخفته، وسرعان ما كثرت الكتب والمصنفات، كما كثر الوراقون الذين يعيشون من نسخها. فاتخذ كثير من العلماء المحاضرين في المساجد لأنفسهم وراقين يقيدون إملاءاتهم ويذيعونها في الناس، وأنشأ كثير من الناس دكاكين للتجارة بالكتب والمصنفات العلمية، وأقبل عليها الطلاب والعلماء، لا لشراء الكتب واقتنائها فحسب، بل ليقرءوا فيها وينهلوا من مصنفاتها. وكانوا يكترونها لذلك، ويبيتون فيها ويقرءون على المصابيح، ويقيدون وينسخون ما يشاءون من الكتب والصحف والرسائل التي تزودهم بمسائل العلم الذي يريدون، أصوله وفروعه. فعمل ذلك على نهضة الحركة العلمية نهضة واسعة[(١)].

٣ - وقف المكتبات في سبيل الله:

كما كان لوجود المكتبات في كل مكان أثر كبير في تنشيط الحركة العلمية، حيث وفر الوقف مكتبات عامة في كل مكان يختلف إليها الناس، إضافة إلى المكتبات الخاصة. أما المكتبات العامة فكان على رأسها مكتبات المساجد، إذ كان كثير من العلماء يوقفون كتبهم عليها ليفيد منها طلاب العلم. وعني بعض العلماء ببناء مكتبات عامة يتزود منها الناس أزواداً علمية متنوعة، ومن أشهرها مكتبة جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي من أدباء القرن الرابع الهجري وعلمائه. وهي مكتبة ضخمة ملأها بالكتب من جميع الفنون، ووقفها على طلبة العلم، وكان لا يمنع أحداً من دخولها، فهي مفتوحة للجميع[(٢)].

٤ - المناظرات العلمية:

كذلك كان لمناظرات العلماء في المساجد وقصور الخلفاء والوزراء في علم الكلام والفقه واللغة والنحو - وغيرها من العلوم التي كان يشتد فيها الخلاف والجدل بين العلماء -

---

(١) شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص ١٢٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٢٢.

أثر كبير في إشعال جذوة المنافسة العلمية، وإمدادها بوقود جزل لا يفتر. فقد كان الطلاب يأتون لسماع هذه المناظرات «ليتعلموا قرع الحجة بالحجة، وطرق الاستدلال، وأساليب المحاورة. وتفيض كتب المتكلمين والفقهاء والنحاة بأخبار هذه المناظرات»[١].

وذكر القاضي عياض أن عضد الدولة البويهي أرسل في طلب الباقلاني وشيخه ابن مجاهد ليشغلا مكان أهل السنة والجماعة الذي كان شاغراً في مجلسه، وذلك من أجل المساهمة في المناظرات العلمية التي كانت تعقد في حضرته[٢].

٥ - نشأة المدارس النظامية:

وبلغ الاهتمام بنشر العلم في ذلك العصر إلى حد أن بعض كبار العلماء قام بإنشاء مدارس مستقلة عن المسجد لأول مرة في تاريخ الإسلام، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في الإقبال على التحصيل وتشجيع طلب العلم وصيانته عن أيدي العابثين.

ويعتبر البيهقي من أول من ساهم في إنشاء تلك المدارس، حيث قام بإنشاء مدرسة بنيسابور التي عرفت باسمه، ويعتبر ظهور المدارس في هذا العصر بشكل مستقل عن المسجد خير دليل على الاهتمام بالعلم. وكانت الأولى هي المدرسة البيهقية بنيسابور ثم تعددت فيها المدارس بعد ذلك[٣].

ويذكر تاج الدين السبكي والمقريزي عدداً من المدارس التي كانت بنيسابور في ذلك العصر، منها: المدرسة السعدية التي بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوي لما كان والياً بنيسابور، ومدرسة أبو سعد إسماعيل بن علي بن المثنى الأستراباذي، ومدرسة بنيت للأستاذ أبي إسحاق الاسفرائيني[٤].

كما قام الوزير السلجوقي نظام الملك الحسن بن علي الطوسي ببناء مدارس جديدة: مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ، ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة، ومدرسة بأصبهان، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل في طبرستان، ومدرسة بالموصل[٥]. وهذه

---

(١) شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص، ١٢٤.

(٢) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج ٧، ص ٥١-٥٦.

(٣) المقريزي: الخطط، ج ٢، ص ٣٦٣.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٣.

(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٦٣.

المدارس تعرف بالمدارس النظامية، وأشهرها مدرسة نيسابور التي كان يدرس بها إمام الحرمين الجويني[١].

وكان لتعدد المدارس في ذلك العهد أثر كبير في انتشار العلوم الإسلامية وكثرة العلماء، وليس أدل على أن البلاد الإسلامية كانت ثرية بأعلام العلماء مما أورده الحافظ الذهبي من أن الخطيب البغدادي المتوفى سنة (٤٦٣هـ) أراد الرحلة إلى ابن النحاس في مصر فاستشار البرقاني في ذلك فقال له: إن خرجت إلى مصر إنما تخرج إلى رجل واحد، فإن فاتك ضاعت رحلتك، وإن خرجت إلى نيسابور ففيها جماعة، فخرج إلى نيسابور[٢].

٦ - الحافز المادي:

كذلك كان لتشجيع السلاطين والأمراء والوزراء وحكام الأقاليم والولايات للعلم والعلماء أثر كبير في ازدهار الحركة العلمية، ويؤثر عن السلطان عضد الدولة البويهي أنه أجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين، والمتكلمين، والمفسرين، والنحاة والشعراء والنسابين، والأطباء، والحساب، والمهندسين، وبالغ في إكرام العلماء والإنعام عليهم، وصار يقربهم من حضرته ويدنيهم من خدمته ويعارضهم في أجناس المسائل[٣].

وكان بعض أعيان المدن وأثريائها يمدون العلماء بالهبات والمكافآت المجزية، ويمدون طلاب العلم بالمنح المالية تشجيعاً لهم على طلب العلم، ويوقفون عليهم كتبهم، كما حدث من أبي بكر البستي الذي بنى مدرسة لطلاب العلم على باب داره، وأوقف عليها جملة من ماله الوفير[٤].

٧ - حرية التنقل والمنافسة بين السلاطين:

من العوامل التي ساعدت أيضاً على غزارة الإنتاج العلمي في هذا العصر رغم أنه تميز بالفوضى السياسية والتدهور الاقتصادي، أن الممالك الإسلامية كانت مفتوحة الحدود؛ فالعلماء يتنقلون من قطر إلى آخر بكل حرية يستفيدون ويفيدون، وليسوا بحاجة إلى تأشيرات دخول وخروج! فالعالم آنذاك عندهم ينقسم على دار إسلام ودار حرب رغم

(١) أحمد الغامدي: البيهقي وموقفه من الإلهيات، ص٢٧.

(٢) تذكرة الحفاظ، ج٣، ص١١٣٧.

(٣) أحمد العبادي: في التاريخ العباسي، ص١٧٠ (نقلاً عن القفطي: تاريخ الحكماء، ص٢٢٢، ٤٤٠).

(٤) السبكي: طبقات الشافعية، ج٣، ص٣٣.

تشتت الدول وتفرقها. كما أن الدول الصغيرة كانت حريصة على الشهرة والمنافسة مع مثيلاتها؛ فكل ملك أو سلطان كان حريصاً على أن يكون في قصره ومجلسه من العلماء أو الأدباء أو الأطباء ما يباهي به الآخرين(١).

وبعد ذكر العوامل التي ساعدت في ازدهار المعرفة في عصر القاضي عبد الوهاب، نلقي الضوء على العلماء المشهورين الذين عاشوا في هذا العصر، وأبرز العلوم أو الفنون التي اشتغل بها أرباب الفكر والعلم في تلك الفترة.

إن الذي يرجع إلى كتب التراجم والسير في هذا العصر، سيجد آلاف العلماء منبثين في كل صقع يدرسون ويدرسون، ولا شك أن هذا مما حفظت به هذه الأمة وحفظ به هذا الدين. بل إن وجود العلماء بهذه الكثرة لهو أمر إيجابي خفف من وطأة الضعف الذي ألم بالمسلمين وقتئذ.

ففي علوم الحديث والجرح والتعديل برز علماء كبار كأبي سليمان الخطابي البستي صاحب (غريب الحديث) وشارح سنن أبي داود، وابن حبان البستي صاحب كتاب (التقاسيم والأنواع) وأحد الحفاظ الكبار المجتهدين، والحافظ الكبير عبد الرحمن بن أبي حاتم صاحب (الجرح والتعديل) وصاحب (التفسير)، وأبو أحمد بن عدي الحافظ الكبير صاحب كتاب (الكامل) في الجرح والتعديل، وأبو عبد الله الحاكم النيسابوري المحدث الكبير صاحب (المستدرك على الصحيحين)، والحافظ الدارقطني إمام دهره في علم الحديث.

وفي الفقه برز القاضي عبد الوهاب البغدادي، وكان أصولياً وفقيهاً جليلاً، وأبو حامد الإسفراييني، الذي صارت له رئاسة الشافعية، والجويني إمام الحرمين، وكان إماماً في الفقه والأصول، وأبو الحسن الماوردي الذي صنف (الأحكام السلطانية) و (أدب الدين والدنيا) و(الحاوي) في الفقه.

وفي العقيدة برز الإمام البيهقي صاحب كتاب (الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد) و(الأسماء والصفات)، والقاضي أبو بكر الباقلاني رأس المتكلمين على المذهب الأشعري.

ومن علماء اللغة والآداب: الزجاج صاحب كتاب معاني القرآن، وأبو سعيد السيرافي وابن خالويه وأبو علي القالي.

---

(١) محمد العبدة: أيعيد التاريخ نفسه، ص٢٨.

ومن الشعراء والأدباء الكبار: المتنبي، وابن العميد، والصاحب ابن عباد، وأبو إسحاق الصابي.

وفي التاريخ علا نجم الخطيب البغدادي، حيث صنف تاريخ بغداد الذي بقي نموذجاً يحتذى به في التأريخ المحلي[١].

وتميز هذا العصر بصنف من العلماء الموسوعيين الذين شاركوا في شتى حقول المعرفة فقد ورد في الفهرست لابن النديم: «أن المرزباني أبا عبد الله محمد بن عمران بن موسى (ت٣٧٨هـ) كان واسع المعرفة، صنف كتباً متعددة في اللغة، والشعر، والنحو، والكلام، والمغازي، والأغاني، والأزمنة، وأحوال الفصول، ومنازل البروج، وكتب في الثمار والورود، وذكر النحل، وجميع الفواكه، ثم كتب في الآداب العامة، والأخلاق، وفي النوادر والمواعظ، ومعاجم الشعراء، ونسخ العهود إلى القضاة، وغيرها من التصانيف»[٢].

وكان ابن العميد فيما ذكره ابن مسكويه: «من أكتب أهل عصره، وأجمعهم لآلات الكتابة، وحفظاً للغة والغريب، وتوسطاً في النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ... وكان شعره في أعلى درجات الشعر ...، ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة ... كعلوم الحيل (الميكانيكا) التي يحتاج فيها إلى علوم الهندسة والطبيعة والحركات الغريبة ومعرفة مركز الأثقال»[٣].

وفي حقل العلوم التجريبية، ساهمت اكتشافات العلماء في تقدم المعرفة، وكان لما ابتكروه أثر واضح في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة.

ففي علم الجغرافية يمثل هذا العصر الذروة في العطاء والإبداع بدليل بروز أشهر الجغرافيين فيه كالإصطخري وابن حوقل وأبي جعفر الخوارزمي والمقدسي والبيروني وناصر خسرو، الذين حفلت مؤلفاتهم بمعلومات متنوعة حول تصحيح المسافات، وتحديد الأمكنة والمواقع، والإلمام بأحوال المناخات، وقياس ضغط المياه، واحتساب المساحات، وكذا التعريف

(١) لمزيد من التوسع في تراجم هؤلاء الأئمة الأعلام، انظر: كتب السير والتراجم، كسير أعلام النبلاء ووفيات الاعيان، وشذرات الذهب وغيرها...

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص١٤٦-١٤٩.

(٣) ابن مسكويه، تجارب الامم، ص٢٢٤، ٢٧٤، ٢٧٩.

بقدرات المناطق الإنتاجية ووضعية الأسواق. بل منهم من أفرد مكانة خاصة لربط المناخ بوضعية الأراضي وحركة الرياح وآثارها في تنوع المحاصيل الزراعية(١).

كما ركز العلماء اهتمامهم على استقصاء علم الحساب والرياضيات لاحتساب العوائد والمحاصيل الزراعية ومسح الأرض، وضبط قوائم الخراج، ومن أشهر الرياضيين في هذا العصر: ابن يونس المصري والبتاني والقاضي النسوي والكرجي(٢).

وجرى كذلك الاهتمام بعلم الهندسة، وذلك لفضلها على العناية بشؤون العمارة وقياس السطوح والحجوم والمسافات، وتنظيم خطط المجال، فضلاً عن حل بعض المسائل الميكانيكية المتصلة بعمل الطواحين والنواعير. ومن أكبر علماء هذا الفن أبو الوفاء البوزجاني والحسن بن الهيثم (صاحب البصريات) وأبو القاسم مسلمة بن أحمد(٣).

وفي حقل الكيمياء أولى العلماء أهمية خاصة للتأليف في النبات ومعالجة السموم. فضلاً عن إدخال صناعة النجوم في التعرف على موطن المعادن، وتحركات الأفلاك، وتفحص المعمور. وجرى توظيف هذا العلم في معرفة شؤون الحرث وتوقعات الطقس وأحوال الغرس والإثبات(٤).

وفي حقل الطب والصيدلة، ازدهر البحث في هذين العلمين بسبب ارتباطهما بالكيمياء والبيطرة وعلوم الزراعة. وقد تألق في علم الطب ابن سينا وأبو بكر الرازي

---

(١) انظر: حسن نصر: نظريات لأبي الريحان البيروني حول معنى الطبيعة وطرق التحقيق في العلوم الطبيعية، ص١٠٨. ومحمد تضغوت: الحياة الاقتصادية في العراق وأثرها الاجتماعي والسياسي والثقافي في العصر البويهي، ج٢، ص٤٣٦.

(٢) محمد تضغوت: الحياة الاقتصادية في العراق وأثرها الاجتماعي والسياسي والثقافي في العصر البويهي، ج٢، ص٤٢١ (نقلاً عن إبراهيم الطرابلسي: كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان، ص٧٧). ومحمد عبده عبد المعطي وآخرون، تاريخ العلوم والحضارة الإسلامية، ص٢٤٦، ٢٤٧، ٢٥٥، ٢٥٦.

(٣) محمد تضغوت: الحياة الاقتصادية في العراق، ج٢، ص٤٢١ (نقلاً عن الرسالة النورية: الفصل الثالث: مدلول الألفاظ والحروف). ومحمد عبده عبد المعطي، وآخرون: تاريخ العلوم والحضارة الإسلامية، ص٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٢.

(٤) محمد تضغوت: الحياة الاقتصادية في العراق، ج٢، ص٤٢٢ (نقلاً عن الفارابي: إحصاء العلوم، ص١٠٢-١٠٣).

وأبو القاسم الزهراوي، وفي علم الصيدلة ابن وافد وعلي بن عباس المجوسي[(١)].

وعلى غرار الفنون والعلوم السابقة، فإن فن الترسل والخطابة قد حازا مكانة متميزة في أدبيات العصر. ولا شك أن شساعة الدول الإسلامية، وامتداد محيطها الاقتصادي والجغرافي والإداري، كان وراء تطوير فن الترسل والخطابة الذين ساهما في إثراء المعارف الإدارية، والكتابة الديوانية، وتوسيع دائرة الثقافة. كما ساهما أيضاً في تقعيد فن أدوات الكتابة. وازدهار لغة التخاطب بين العلماء ورجال الأدب والفكر[(٢)].

وبما أن اللغة العربية قد شكلت أسس التفاهم والتواصل الذي يجمع بين خبرات وتجارب الشعوب الإسلامية، فإن أكبر إنجاز تم على يد علماء اللغة في هذا العصر هو تخريج الاشتقاقات اللغوية، وتوسيع المصطلحات المعجمية، وتقويم اللسان، والتأليف في متغير الألفاظ[(٣)]، بحيث لم يضف علماء اللغة الذين تعاقبوا في القرون التالية شيئاً كثيراً لهذا الإنجاز.

وقد انعكست آثار هذا الاتساع في اللغة على المذاهب الفقهية الكبرى في هذه الفترة، بدليل إجماع الفقهاء على تجويز تداول القرآن الكريم بالحروف السبعة الشرعية المتفق عليها في القراءات. ولا غرو، فقد ألفت مصنفات في هذا المنحى ككتاب «الإقناع في القراءات السبع» لأبي جعفر أحمد بن علي الأنصاري المعروف بابن الباذيش[(٤)]. بل من العلماء من ذهب إلى تجاوز ذلك فألف كتاب «المنشأ في القراءات الثمان»[(٥)]، وهو فارس بن أحمد بن موسى بن عمران أبو الفتح الحمصي المقرئ الضرير.

---

(١) محمد تضغوت: الحياة الاقتصادية في العراق، ج٢، ص٤٢٤، ومحمد عبده عبد المعطي وآخرون: تاريخ العلوم والحضارة الإسلامية، ص٣٨٥، ٣٩١، ٤٠٥، ٤٠٦.

(٢) انظر: أبو حيان التوحيدي: أخلاق الوزيرين، ص١٣٦. والمقابسات، ص٥٦، وزكي مبارك: النشر الفني في القرن الرابع الهجري، ج١، ص١٣٧.

(٣) انظر: ابن فارس: الصاحبي، ص٥٧، ٨٧، وابن الجوزي تقويم اللسان، ص٥٩ وما بعدها. وابن النديم: الفهرست، ص٩٥.

(٤) نشره مركز البحث العلمي وإحياء التراث بجامعة أم القرى في مكة المكرمة، بتحقيق د. عبد المجيد قطامش، سنة ١٤٠٣هـ.

(٥) انظر السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٩٢.

كما أن الاتساع والتنوع في دلالات ومعاني اللغة أدى إلى تطوير الشعر وتجديد قصائده، إذ أمسى الشاعر يهب فنه صوراً جديدة من الحياة اليومية المرتبطة بظروف وملابسات عصره، وأصبحت الصنعة تقضي حسب رأي بعض النقاد: أن يردف الشاعر معارفه بثقافة واسعة تصحبه ليستعين بها في النظم والحبك والإبداع(١).

ولهذا فقد تم اعتبار أساليب التشبيه والاستعارة والتعريض والمقابلة والمماثلة وغيرها من الأدوات الجمالية التي تدخل في أبواب البديع ومحاسن الكلام من بين أهم المعايير التي استخدمها النقاد ـ آنئذ ـ لمحاكمة الشعر والشعراء(٢).

ولم يترك الشعراء في هذا العصر موضوعاً ولا باباً إلا تناولوه، ولا مقصداً أو غرضاً إلا طرقوه، حتى إن من المستشرقين من أشاد بأدب القرن الرابع وشبهه بالقمة التي تشرف على سائر الأدبيات المماثلة التي جاءت في القرون التي أتت بعده(٣). ونذكر أن القاضي عبد الوهاب شارك في هذا الفن، ونظم شعراً جيداً ورصيناً ذكرته كتب التراجم وأثنت عليه(٤)، إذ قال فيه ابن خلكان: «وله أشعار رائقة طريفة».

لقد تحدثت آنفاً عن العوامل التي أذكت شعلة الحركة العلمية، ومن بينها نشأة المدارس النظامية، ولأهمية هذه المدارس في تشجيع العلم، ونشره على نطاق واسع. وتنظيمه بوضع ضواط وأعراف له، سألقي الضوء على المدرسة النظامية ببغداد ـ موطن القاضي عبد الوهاب ـ والدور الذي أدته في هذا العصر، بل وفي تاريخ الحضارة الإسلامية.

والنظامية منسوبة إلى نظام الملك قوام الدين أبي علي الحسن بن علي الطوسي الشافعي الوزير السلجوقي(٥). ومن إحدى نظاميات تسع أنشأهن هذا الوزير الكبير، فازت نظامية بغداد بالشهرة الواسعة وحازت أقطار الجلالة والكمال؛ لأن المدينة التي أنشأت فيها ـ بغداد ـ كانت عاصمة الخلافة العباسية ومعدن القضاة والفقهاء ومركز العلم والوظائف القضائية

(١) أمجد الطرابلسي: نقد الشعر عند العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري، ص١١٣.

(٢) المرجع نفسه، ص١٤٣، ١٤٥.

(٣) كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص٢٢٢، ٢٢٤ (انظر على سبيل المثال الأغراض الأدبية التي طرقها أبو الفتح البستي في يتيمة الدهر، ج٤، ص٣٥٥ وما بعدها).

(٤) وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٢٠.

(٥) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٦٣.

للعالم الإسلامي؛ ففيها كرسي قاضي القضاة الذي كان مالكياً في بداية الأمر ثم صار حنفياً ثم صار شافعياً بعد ذلك، واستقر عليه الأمر منذ عهد الخليفة القادر بالله واضع العقيدة القادرية[١].

ومن التنبيه بمكان أن المدرسة النظامية ببغداد ـ على التحقيق ـ كانت أشهر المدارس في العالم الإسلامي وأبقاها أثراً في الثقافة الإسلامية، حيث طبقت شهرتها الخافقين، وقصدها طلاب المذهب الشافعي من آفاق الأرض، وانتشر طلابها في مختلف الأقطار والأصقاع، شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً، وبعداً وقرباً. درست فيها: الأصول والفقه الشافعي، والخلاف، والفرائض، والأدب، والكلام، والحديث، والتفسير، والوعظ، والجدل[٢].

وقد أنجز باحث سوري يدعى أسعد طلس رسالة جامعية عن تاريخ هذه المدرسة باللغة الفرنسية لنيل شهادة الدكتوراه[٣]، ضمنها تفاصيل دقيقة؛ واصفاً ملامحها، ومتحدثاً عن موضعها وما بقي منها، وعن شروط التعليم ووجهته فيها، وكيفية ترتيب المدرسين في غرفها وأروقتها، ومواد الدراسة، وطريقة التدريس، ودار كتبها، وأساتذتها ذوي التخصصات المختلفة؛ فمنهم أساتذة في الفقه والأصول، وأساتذة في التفسير والحديث، وأساتذة في الكلام، وأساتذة في الفرائض والحساب، كما تكلم عن المعيدين فيها، ثم تلامذتها المشهورين من أعيان ومحدثين وفقهاء وأدباء، وأنها كانت موئلاً لجماعة من كبار الأدباء والشعراء، كانوا يقطنون في بيوتها بإذن متولي أمورها[٤].

وهكذا نرى القاضي عبد الوهاب عاصر نهضة علمية جبارة كان له فيها نصيب في الفن الذي يتقنه، فاقترن اسمه بها منذ ذلك العهد، لمشاركته الإيجابية وأثره في تنوير الفكر، وتطعيم المعرفة، وتوسيع مجال البحث العلمي.

وها نحن اليوم نعيش أثر تلك النهضة العلمية الجبارة، فنستقبل كل يوم من كتب أولئك الأئمة الأعلام أسفاراً يقدمها لنا المحققون في عصرنا الحاضر، وما بين أيدينا اليوم من

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الامم والملوك، ج٨، ص١٠٩، ٢٤٩، ٣٠٧.

(٢) مصطفى جواد: المدرسة النظامية ببغداد، مجلة (سومر)، ص٨.

(٣) طبعت بفرنسا سنة ١٩٣٩.

(٤) مصطفى جواد: المرجع السابق، ص٨ (نقلاً عن اسعد طلس، تاريخ المدرسة النظامية).

تراثهم الوفير هو غيض من فيض، لأنهم قدموا لطلاب المعرفة والثقافة، وللحضارة الإنسانية عموماً والإسلامية خصوصاً، آلاف المجلدات في كل علم وفن، إلا أن الحروب الدامية لم تقتصر على إراقة دماء البشر، بل امتد أوارها حتى على كثير من مكتبات العالم الإسلامي، كما حدث إبان إغارة التتار على بغداد، التي كانت مكتباتها تزخر بدرر العلم، التي جادت بها قرائح علمائنا في عصر القاضي عبد الوهاب وقبله وبعده.

فهرس المصادر والمراجع

* ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠هـ).

- الكامل في التاريخ، بيروت: دار الفكر؟

* ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت٥٤٢هـ).

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الثقافة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م

* بك، محمد الخضري.

- محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، تحقيق محمد العثماني، بيروت، دار القلم، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

* تضغوت، محمد.

- الحياة الاقتصادية في العراق وأثرها الاجتماعي والسياسي والثقافي في العصر البويهي، (٣٣٤هـ - ٤٤٧هـ). أطروحة قدمت لنيل دكتوراه الدولة في التاريخ الإسلامي، سنة ١٩٩٨، كلية الآداب/ مكناس، المغرب.

* التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس (ت بعد ٤٠٠هـ).

- أخلاق الوزيرين، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، بيروت: دار صادر، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

- المقابسات، شرح وتعليق علي شلق؟ دار المدى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

* جواد، مصطفى.

- المدرسة النظامية ببغداد، مجلة (سومر) العراقية، المجلد ٩، السنة ١٩٥٣م.

* ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ).

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد - الهند -: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩هـ.

- تقويم اللسان، تحقيق عبد العزيز مطر، القاهرة: دار المعارف، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

* ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ).

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن صاحبهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، ١٣٤٩هـ/ ١٩٧٩م.

* ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم الإربلي (ت٦٣١هـ).

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بيروت، دار الثقافة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٧م.

* الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ).

- تذكرة الحفاظ، بيروت: دار الفكر العربي؟

* السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت٧٧١هـ).

- طبقات الشافعية، بيروت: دار المعرفة؟

* السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ).

- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

* ضيف، شوقي.

- العصر العباسي الثاني، القاهرة: دار المعارف؟

* الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الآملي (ت٣١٠هـ).

- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ط٤، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

* الطرابلسي، أمجد.

- نقد الشعر عند العرب حتى القرن الخامس الهجري، ترجمة إدريس بلمليح، الدار البيضاء، دار توبقال، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

* العبادي، أحمد مختار.

- في التاريخ العباسي والفاطمي، بيروت: دار النهضة العربية؟

* العبدة، محمد.

- أيعيد التاريخ نفسه؟ دراسة لأحوال العالم الإسلامي قبل صلاح الدين، نشر المنتدى الإسلامي، لندن، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

* العش، يوسف.

– تاريخ عصر الخلافة العباسية، بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

* ابن العماد العكري، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي (ت١٠٨٩هـ).

– شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت: دار الآفاق الجديدة؟

* العمري، أكرم ضياء.

– قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، كتاب الأمة، قطر ـ الدوحة ـ ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

* عياض، أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت٥٤٤هـ).

– ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعيان مذهب مالك، المحمدية ـ المغرب ـ مطبعة فضالة؟

* الغامدي، أحمد بن عطية.

– البيهقي وموقفه من الإلهيات، نشر المجلس العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

* ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكرياء (ت٣٩٥هـ).

– الصاحبي، تحقيق أحمد صقر، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي؟

* كاهن، كلود.

– تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين قاسم، بيروت: دار الحقيقة للطباعة والنشر، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

* ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤هـ).

– البداية والنهاية في التاريخ، بيروت: دار الفكر؟

* ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد (ت٤٢١هـ).

– تجارب الأمم، تصحيح أمدروز، القاهرة: شركة التمدن الصناعية، ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م.

* المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ).

– المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة مكتبة الثقافية الدينية، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

* ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب (ت٤٣٨هـ).

– الفهرست، بيروت: دار المسيرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

* نصر، حسين.

– نظريات لأبي الريحان البيروني حول معنى الطبيعة وظروف التحقيق في العلوم الطبيعية، مجلة الفكر العربي، السنة ٧، العدد ٤١، بيروت، معهد الإنماء العربي، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

مناقشات وتعقيبات

د. فيضي الفيضي:

بسم الله الرحمن الرحيم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لعلّي البغدادي الوحيد الذي جاء من بغداد، ليشارك في هذا المؤتمر مؤتمر القاضي البغدادي، عندي تعقيب حول قصة وداع أهل بغداد للقاضي عبدالوهاب التي ذُكرت في بعض الأبحاث يتلخص في الآتي:

١- أود أن أقول إن هذه القصة لم ترو بإسناد. بل صدّرها القاضي عياض بقوله: ويحكى، وختمها بقوله: والله أعلم بصحته.

٢- من ذكرها، نقلها عمن سبقه ولم يجزم بصحتها.

٣- ذكر القاضي عياض أنه رويت مثل هذه القصة في مثالب أهل البصرة مع النضر بن شميل من دون الشعر ولعل هذه القصة مما يتهاجى به أهل المدن وهذا معروف.

٤- لا يعقل إطلاقاً أن يكون هذا صادراً من أهل بغداد لا سيما وهو يقول كسرتين من خبز وفي لفظ خبز ذرة وهو طعام الفقراء، وهو كان قاضياً ومهما كانت جراية القاضي ضئيلة فلم يصل الأمر به إلى أنه لا يجد الكسرتين من الخبز.

٥- ورث القاضي ذهباً وكان أخوه ذا حظوة وجاه، وهذا لا يعني أنه لم يمرّ بفاقة لكن ليس الأمر بحجم تلك القصة التي رويت.

أيضاً في القصة أن القاضي يودعه الأشراف والعلماء وهو يقول لهم أبياتاً من الشعر ويصفهم بالمجبوبين والأنذال وحاشا القاضي أن يكون بمثل هذا الشيء.

وهناك من أشار أيضاً إلى أن سبب رحلته الخلاف المذهبي، والموجود في الكتب أنه خرج مختفياً بسبب كلامه على الشافعي، وهذا أيضاً مرفوض لما يلي:

١- لأن من يخرج مختفياً كيف يودع بمثل ذلك الوداع، والقصتان تتساقطان إسناداً ومعنىً.

٢- تلميذه الخطيب البغدادي الشافعي المعروف، لو كان يتحامل القاضي على الشافعي ما كان رضي البغدادي أن يكون تلميذاً له، ولم يذكر ذلك في أي من الأخبار.

- باختصار: ما هو السبب الأساسي في تلك الرحلة؟ السبب أنه جاءته عدة دعوات، من قبل علماء المغرب والأندلس وأمراء تلك البلاد وأعيانها، لغرض الإفادة من علمه في الفقه المالكي، نظر بدقة فوجد نفسه في تناوب ما بين فاقة وأحوال اجتماعية مضطربة فرأى أن يرحل لا سيما وقد دعي أن يقدم ما عنده من علم في الفقه المالكي.

- أُفَضِّل أن يكون عنوان المحور بدلاً من رحلته إلى مصر، ارتحاله من العراق، لأن عندي أدلة كثيرة ونصوص كثيرة تؤكد على قصده المغرب والأندلس وأن المراسلات جرت معه قبل رحلته. وهناك نص يقول ما إن وصل مصر ونيته المغرب، ولما وصل مصر ونيته المغرب، أما إقامته بمصر فلم تكن لتزيد كثيراً على إقامته ببلاد الشام، وشكراً، هذا باختصار.

د. نور الدين عتر:

ما طرح من موضوعات عن عصر القاضي عبدالوهاب، ألحظ أن هناك شيئاً من الإغراق في جانب عصر الشخصية التي ندرسها ليس في هذا المؤتمر العظيم القيم فحسب بل في مختلف الدراسات، بما يتجاوز حاجة البحث وحدود الدراسة العلمية للشخصية وكأن السبب في ذلك، التقليد لمنهج الأجانب والمستشرقين والأدباء أيضاً في دراسة الشعراء وتأثير الظروف المحيطة بهم على أفكارهم وأشعارهم وما إلى ذلك.

وقد جاء في بعض العبارات للإخوة الذين تقدموا ببحوث عن عصر القاضي عبدالوهاب، الإشارة إلى أنا نتلمس فيها التأثير على الجوانب الفكرية عند القاضي عبدالوهاب.

قضية العصر بالنسبة لعلماء الإسلام عكس القضية التي يتناولها الأدباء والشعراء، لأن الذي ينبغي أن يكون هو تأثير العالم في الظروف المحيطة به، أو ثباته أمامها لا أن نشير إلى تأثره هو بها، فهذا خطير، والواقع لا ينسجم مع الدراسات التي تُقدم في هذا الباب، لأنها لا تبرز تأثير

العصر أو البيئة أو الظروف الاقتصادية أو السياسية وما إلى ذلك في مؤلفاتهم إلا بإبراز ما يحكم به الشرع الحنيف حسب الأدلة التي تقدم حكمها الذي لا يتغير ولا يتأثر، بل يؤثر ويوجب على الأمة تقويم ما يطرأ عليها من عوج في أي حال كان في جوانب الحياة التي تدرس، وأنا أخشى أن يؤدي هذا أو أن يكون ذريعة لمن يقول: الفقه نتيجة ظروف وعصور فغيروا لنا هذا الفقه، وقد ظهرت دعوات ناشزة تدعو إلى إلغاء أصول الفقه، لأنه وقف حجر عثرة أمام المتمجهدين المائعين الذين يريدون العبث بالنصوص والأحكام بلا نظام ولا قواعد ولا خطام ولا زمام، فأرجو أن يتبنى المؤتمر التنبيه إلى مثل هذا في توصياته ومقرراته إن شاء الله تعالى.

وأشير إلى ما يعلمه الإخوة الحضور جميعاً أن بعض الناس يقول: لو كان النبي ﷺ في هذا العصر لغير أحكاماً كثيرة، مع أن الذي يريدون تغييره، من القضايا المجمع عليها أو التي عليها جماهير أئمة العلم وتقوم عليها دلائل الكتاب والسنة الثابتة الصريحة التي لا مجال إلى تغييرها بدلاً من أن يدعوا إلى تغيير ما آل إليه حال المسلمين بسبب الغزو الثقافي والفكري الأجنبي، ويغفل هؤلاء عن أنه ﷺ أخبر عما سيكون عليه حال الناس، فهو يشرع عن علم ولا يشرع من عند نفسه وإنما هو وحي يوحى من عالم الغيب سبحانه وتعالى.

أشير إلى أن هذه الجلسة نفسها ضمت ما يشبه التناقض ففي البحوث الأولى في الصباح والآن عن عصر القاضي عبدالوهاب وصف بالاضطراب والضعف والقلاقل والفتن إلى آخره، ويذكِّرنا الشيخ عبدالسلام الهراس(١) جزاه الله خيراً بنماذج من الإبداع في أشد الظروف الحالكة وهذا يثبت الفكرة التي بدأت بها وذكرتها عن قضية التأثير في فكر العلماء، علماء الإسلام بصورة خاصة.

- ورد في بعض عبارات الإخوة عبارة أخشى أن يساء فهمها، الحروف السبعة متمثلة في القراءات أو عبارة أخرى، أخشى أن يفهم منها أن الحروف السبعة هي عين القراءات، وقد نبه العلماء وتتابعت التنبيهات على وجوب الفصل بين القراءات وبين الأحرف السبعة. وأشكر الأخ رئيس الجلسة على ما أعطانا من الوقت والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) ينظر بحثه: جهود المغرب في بعث التراث المالكي ونحو تعاون علمي لإنجاز مشروع متكامل لإحياء هذا التراث.

تعقيب الأستاذ الدكتور امحزون على المناقشات:

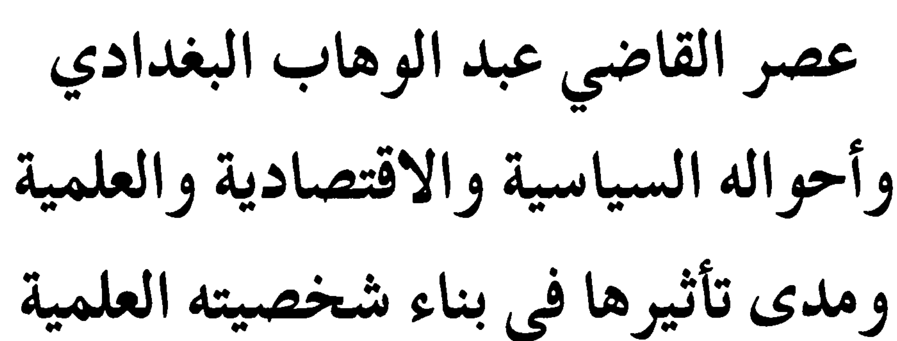
إذا كانت هذه القصة (قصة خروج القاضي من بغداد بسبب ضيق العيش) موضوعة ومنسوبة للقاضي عبدالوهاب، فلماذا نظم أبياتاً شعرية تعضد هذه القصة بقوله:

فوالله ما فارقتها عن قلى لها وإني بشطي جانبيها لعــارف

ولكنها ضاقت عليَّ بأسرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وقد أكد علماء التراجم كابن خلكان وابن بسام وابن شاكر الكتبي بأن هذه الأبيات الشعرية للقاضي عبدالوهاب، فإن كانت وجهت دعوات من المغرب والأندلس للقاضي عبدالوهاب للتوجه إليها للاستفادة من علمه فإن حالتة الاقتصادية كانت متدهورة جداً، وهي التي ضغطت عليه للخروج من موطنه الأصلي (بغداد)، إذ قال بصريح العبارة في البيتين السابقين: لو كانت الأرزاق في بغداد تساعف لما فارقتها وغادرتها إلى غيرها من البلاد، فهناك ارتباط وجداني قوي ببلده ومسقط رأسه.





عصر القاضي عبد الوهاب البغدادي وأحواله السياسية والاقتصادية والعلمية ومدى تأثيرها في بناء شخصيته العلمية

٣٦٢ - ٤٢٢هـ

إعداد

د. سالم بن محمد القرني *

* أستاذ مشارك بكلية الشريعة وأصول الدين بجامعة الملك خالد - أبها. حصل على الماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وكان عنوان رسالته: «دراسة وتحقيق الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة للقرافي» وحصل على الدكتوراه من الجامعة نفسها والتخصص نفسه وكان عنوان رسالته: «الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية للطوفي الصرصري - دراسة وتحقيق». له العديد من الكتب والدراسات.

الحمد لله حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، وأصلي وأسلِّم على عبده ورسوله محمد، ومن تبعه واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد :

فإنما يطرأ على الساحة السياسية والاجتماعية من أحداث، لابد أن يظهر أثره في سيرة علماء العصر ونتاجهم العلمي والفكري، كما أن تطور الحياة العلمية والفكرية أو ركودها، لا يقل أثراً عن الناحية السياسية والاجتماعية، بل إن معرفة العصر الذي عاش فيه القاضي عبد الوهاب البغدادي تساعد على تفسير بعض الجوانب الغامضة في سيرته، وتسد شيئاً من الفراغ الذي تركه المؤرخون فيما يتعلق بحياته وسيرته .

لذا رأيت الكتابة في هذا الموضوع الذي عنوانه : عصر القاضي عبد الوهاب البغدادي، وأحواله السياسية والاقتصادية والعلمية، ومدى تأثيرها في بناء شخصيته العلمية

وقد جعلته بعد هذه المقدمة على تمهيد وأربعة فصول وخاتمة :

الفصل الأول : الأحوال السياسية .

الفصل الثاني : الأحوال الاجتماعية .

الفصل الثالث : الأحوال الاقتصادية .

الفصل الرابع : الأحوال العلمية.

الخاتمة : أهم نتائج البحث .

فبعد هذه المقدمة تحدثت في تمهيد مختصر عن أهم الأحداث التي باشرت ولادة القاضي عبد الوهاب البغدادي .ثم عن الأحوال السياسية في عدة عناصر هي :

المقصود بدراستها، ثم السمات البارزة للأحوال السياسية في عصر القاضي عبدالوهاب، وضع الخلافة في تلك الفترة وأثرها في حياة الأمة، ثم حالة الدول المهيمنة في تلك الفترة وأثرها في الحياة السياسية، ثم الاهتمام بالفتوحات الإسلامية، ثم جهاد المسلمين للروم(النصارى)، ثم الحالة الدينية في ظل تلك الدول الحاكمة .

بعد ذلك تحدثت عن الأحوال الاجتماعية : عن اضطرابها وأسبابه، ثم أهم ما جرى على الساحة الاجتماعية المتمثل في : الصراع بين الطوائف وظهور البدع، والتعامل مع أهل الكتاب في تلك الفترة، ثم الاعتداء على الحجاج بقطع طرقهم وسلب أموالهم في كثير من

السنوات، ثم عظم البلاء بالعيارين وإفسادهم في البلاد، ثم بعض ظواهر الفسق والمجون في تلك الفترة، ثم ذكر بعض الظواهر الكونية التي كان لها أثر في حياة الناس ومعاشهم، ثم بعض الأعمال الخيرية والإصلاحية في ذلك العصر، ثم بعض العلاقات الاجتماعية والأسرية في عصر القاضي عبد الوهاب .

ثم تحدثت عن الأحوال الاقتصادية : فبينت وفرة المال عند طبقة قليلة من المجتمع، هم الخلفاء والملك والأمراء والقواد ومن في محيطهم، وقلته أو انعدامه أحياناً كثيرة عند عامة الناس وغير المفتونين بالدنيا، كالقاضي عبد الوهاب وغيره .ثم أهم مظاهر وأسباب هذه الأحوال الاقتصادية التي من أهمها : الحروب بين الدول المسيطرة وبين أمراء وملوك كل دولة من تلك الدول، وأثر ذلك على الحياة الاقتصادية، ثم الضرائب والمصادرات، ثم ثراء الخلفاء والملك ومن حولهم، وأثره على الأحوال الاقتصادية، بالإضافة إلى حدوث الجدب والمجاعات وغلاء الأسعار في تلك الفترة .

أما الأحوال العلمية : فقد بينت فيها أن الفوضى، والفرقة والفقر، وسوء الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية، لم تؤثر على الأحوال العلمية، بل إن هذه الفترة تستحق أن توصف بالفترة الذهبية للأحوال العلمية المتعددة، وأوجزت الحديث عن أسباب ذلك، ثم تحدثت عن أنواع العلوم التي اعتنى بها المسلمون في تلك الفترة من خلال جهود أصحاب تلك العلوم وفرسانها، وذلك في النقاط الآتية :

١ ـ العناية بالقرآن الكريم وتفسيره، وأشهر من اهتم بذلك .

٢ ـ العناية بالحديث وعلومه، وأشهر من اعتنى به وصنف فيه .

٣ ـ العناية بالفقه وأصوله، وأشهر علمائه والمصنفين فيه .

٤ ـ العناية باللغة العربية وآدابها، وأشهر من اعتنى بها وآدبائها .

٥ ـ العناية بالعلوم الأخرى: مثل علم النجوم، والرصد، والطب، والفلسفة، ونحوها .

وقد أوضحت في كل مباحث وفقرات هذا البحث صلة القاضي عبد الوهاب البغدادي بهذه الأحوال، وأثرها في بناء شخصيته . ثم ختمت بأهم نتائج البحث، ثم فهرس المراجع والمصادر.

علماً بأن وقت إعداده كان ضيقاً جداً مع ما زاحمه من الأعمال العلمية الأخرى من أبحاث، وفحص رسائل علمية متعددة، والمساهمة في أعمال علمية أخرى، تزامن العمل فيها مع عملي في هذا البحث، لكن حسبي أني اجتهدت . وأسأل الله التوفيق والسداد وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

د/ سالم بن محمد القرني

تمهيد :

حيث ولد القاضي عبد الوهاب البغدادي سنة ٣٦٢ هـ في خضم عدة أحداث، أهمها :

١ - في عاشر محرمها عملت الروافض من النياحة، وتعليق المسوح، وغلق الأسواق وتعطيل المعايش، ودوران النساء سافرات عن وجوههن ينحن على الحسين بن علي ويلطمن وجوههن والتبن مدور في الأسواق(١).

٢ - وفيها اجتمع جمع من العلماء بعز الدولة بختيار بن بويه(٢)، وحرضوه على غزو الروم الذين دخلوا نصيبين وقتلوا وأفسدوا حتى وصل إفسادهم إلى بغداد ومساجدها، فبعث جيشاً لقتالهم فاظفره الله بهم (٣).

٣ - و سارت الروم مع ملكهم لحصار آمد(٤) كما سيأتي .

٤ - وفيها أحرق الكرخ(٥) ببغداد وكان سببه أن صاحب المعونة ضرب رجلاً من العامة فمات، فثارت عليه العامة وجماعة من الأتراك، فهرب منهم فدخل داراً فأخرجوه مسجوناً وقتلوه وحرقوه، فركب الوزير أبو الفضل الشيرازي(٦)، وكان شديد التعصب للسنة وبعث حاجبه إلى أهل الكرخ فألقى في دورهم النار فاحترقت طائفة كثيرة من الدور والأموال من ذلك ثلثمائة دكان وثلاثة وثلاثون مسجداً، وسبعة عشر ألف إنسان فعند ذلك

---

(١) انظر البداية والنهاية ١١/ ٢٧٣ .

(٢) صاحب العراق الملك أبو منصور ابن الملك معز الدولة أحمد بن بويه قتل لما التقى وعضد الدولة في شوال سنة ٣٦٧ هـ ،فندم عضد الدولة وبكى لما جيء برأسه . انظر الكامل غ/ ٩٢،والنجوم الزاهرة ٤/ ١٢٩ .

(٣) انظر المنتظم لابن الجوزي ٧/ ٦٠ ط الأولى، دار صادر ببيروت ١٣٥٨ هـ والبداية والنهاية لابن كثير ١١/ ٢٧٥ـ ٢٧٦ ظ ٢ مكتبة المعارف ببيروت ١٩٧٧ م .

(٤) أعظم مدن ديار بكر، وهي الآن في شرق جنوب تركيا . انظر معجم البلدان ١/ ٥٦ .

(٥) محلة في بغداد كانت فيها الأسواق من حياة المنصور، وأهلها كلهم شيعة إمامية . انظر معجم البلدان ٤/ ٤٤٨ .

(٦) أبو الفرج محمد بن العباس كاتب معز الدولة، تلقب بالوزارة من المطيع ثم وليها لعز الدولة بن المعز، مات سنة ٣٧٠ هـ .انظر سير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٠٨، ٣٠٩ .

عزله بختيار عن الوزارة وولاها محمد بن بقية،(١) فتعجب الناس من ذلك، وذلك أن هذا الرجل كان وضيعاً عند الناس لا حرمة له، كان أبوه فلاحاً بقرية «كونا» وكان هو ممن يخدم عزالدولة إلى أن ولي الوزارة ومع هذا كثر في زمانه العيارون ببغداد وفسدت الأمور (٢).

٥ - وفيها وقع الخلاف بين عز الدولة وبين حاجبه سبكتكين ثم اصطلحا على دخن(٣).

٦ - وفيها كان دخول المعز الفاطمي الديار المصرية فوصل إلى اسكندرية و تلقاه أعيان مصر، فخطب الناس هنالك خطبة بليغة ارتجالاً، ذكر فيها فضلهم وشرفهم وقد كذب، فقال فيها: إن الله أغاث الرعايا بهم وبدولتهم. ثم سار إلى مصر فدخلها، فقيل إنه أول ما دخل إلى محل ملكه خر ساجداً شكراً لله عز وجل ثم كان أول حكومة انتهت إليه أن امرأة كافور الأخشيدي ذكرت أنها كانت أودعت رجلاً من اليهود الصواغ قباء من لؤلؤ منسوج بالذهب، وأنه جحدها ذلك، فاستحضره وقرره فجحد ذلك وانكره، فأمر أن تحفر داره ويستخرج منها ما فيها، فوجدوا القباء بمينة قد جعله في جرة ودفنه في بعض المواضع من داره، فسلّمه المعز إليها، فقدمته إليه، فأبى أن يقبله منها، فاستحسن الناس منه ذلك(٤) وقد ثبت في الصحيح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»(٥)

وهذه الأحداث تصور لنا مظهراً موجزاً للأحوال السياسية والاجتماعية والدينية والعقدية والاقتصادية في هذه الفترة .

---

(١) محمد بن محمد بن بقية العراقي، لقبه المطيع :بـ«النصح»، وله اخبار في الإفضال والبذل تاتي إن شاء الله .انظر العبر ٢ /٣٤٦، والنجوم الزاهرة ٤ / ١٣٠ .

(٢) انظر النجوم الزاهرة ٤ /٧٨، والمنتظم ٧ /٦٠

(٣) انظر البداية والنهاية ١١ /٢٧٣ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١١ /٢٧٣، ٢٧٤، وشذرات الذهب ٣ /٣٩، والمنتظم ٧ /٦٠، ٦١ .

(٥) أخرجه البخاري في عدة مواضع منها : كتاب «الجهاد والسير» باب «إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»، ومسلم في كتاب «الإيمان»، باب «غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه ...وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة» .

الفصل الأول : الأحوال السياسية :

ونعني بها دراسة الظروف التي تعاقبت على الأمة الإسلامية بعامة في الفترة التي عاش فيها عبد الوهاب البغدادي وهي ما بين عام ٣٦٢هـ إلى ٤٢٢هـ، وخاصة بغداد موطنه والقاهرة مرتحله، ففي هذه الفترة كانت مدينة بغداد عاصمة للخلافة العباسية، وفي حالة يرثى لها من الضعف والانحلال(١) بسبب ضعف تماسك البيت العباسي وضعف الخلفاء قي تلك الفترة، وسيطرت بني بويه الشيعة على الدولة(٢) .

فالسمات البارزة للحالة السياسية في تلك الفترة هي :

١ـ ضعف الخلافة العباسية : فقد كانت في أول أمرها قوية في شتى المجالات، وتوسعت رقعة الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً،فكانت كلها تحت خلافة واحدة مهابة الجانب، غير أنها في أواخر عهدها ـ وخاصة في هذه الفترة المشار إليها ـ تفككت وانقسمت إلى دويلات، عاش بعضها مع بعض في بعض الأحيان، وبعضها : انفردت كل دولة بسلطانها عن الأخرى، بل لقد كانت بعضها عدواً للآخر تقع بينها الحروب والقتال أحياناً .

٢ ـ كما دبت الانقسامات والمنازعات الطائفية، وتنافس القواد في السيطرة على الحكم، وظهرت العصبيات والأحقاد بين العناصر التي كانت تتولى إمرة الجيش وقيادته .

٣ ـ ضعف الخلفاء الذين اختيروا لمنصب الخلافة، فالخليفة في ذلك الزمان له السكة والخطبة، وليس له حكم نافذ ولاسلطان قائم، بل أصبح دمية توضع وتحرك بأيدي الدويلات، وخاصة القريبة منهم مثل البويهيين، بل تصدر الأوامر على الخليفة من أمراء وسلاطين تلك الدول، وعند أحسن الأحوال تصدر الأوامر وعلى الخليفة توقيعها .

٤ ـ كانت الدولة الإسلامية رغم سعتها ـ متحدة يحكمها خليفة واحد، أصبحت في هذه الفترة ثلاث دويلات متناحرة : فالبويهيون يحكمون في بغداد والبصرة والكوفة

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٨/٢١٥ .

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١١/٣٠٧ .

وخرا سان وما وراء النهر، والفاطميون يحكمون في مصر والحجاز والشام والمغرب واليمن، والحمدانيون في الشام وما جاورها بين مد وجزر .

أما الشرق ففيه الغزنويون والسلاجقة، وأما الأندلس ففيها الأمويون حتى خرج عليهم العلويون .ويمكن أن نقسم الحديث عن الحالة السياسية إلى أربعة مباحث :

الأول : وضع الخلافة في هذه الفترة وأثرها في الحياة:

تعاقب الخلافة في هذه الفترة من الزمن خليفتان :

الأول : الطائع لله: أبو بكر عبد الكريم بن المطيع لله الفضل بن المقتدر جعفر بن المعتضد العباسي. كان صالحاً نزل له أبوه عن الخلافة في يوم الثلاثاء التاسع عشر من ذي القعدة من سنة ٣٦٣ هـ،وذلك لفالج أصابه فثقل لسانه ،فسأله سبكتكين[١] أن يخلع نفسه ويولي مِنْ بعده ولده الطائع، فأجاب إلى ذلك، فعقدت البيعة للطائع بدار الخلافة على يدي الحاجب سبكتكين، وخلع أبوه المطيع لله بعد ٢٩ سنة كانت له في الخلافة .

ولم يل الخلافة من بني العباس أسن منه، كان عمره لما تولى ٤٨سنة، وكان الحل والعقد للملك عز الدولة وابن عمه عضد الدولة[٢] البويهيين .

ولما استخلف ركب وعليه البردة[٣]، وخلع من الغد على سبكتكين خلع السلطنة وعقد له اللواء ولقبه نصر الدولة، وفي عيد الأضحى ركب الطائع إلى المصلى وعليه قباء وعمامة، فخطب خطبة خفيفة بعد أن صلى بالناس، فتعرض عز الدولة لإقطاع سبكتكين، فجمع سبكتكين الأتراك فالتقوا فانتصر سبكتكين، وقامت معه العامة، وصار الناس حزبين

---

(١) كان الطائع لقبه نصر الدولة توفي سنة ٣٦٤ هكما في البداة والنهاية ١١/ ٢٨٢ وشذرات الذهب ٣/ ٤٨، وفي الكامل ٧/ ١٨٤ وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٠٠ توفي سنة ٣٨٧ هـ .

(٢) السلطان ابو شجاع فناخسرو صاحب العراق وفارس ابن السلطان ركن الدولة حسن بن بويه الديلمي، كان بطلاً شجاعاً مهيباً نحوياً أديباً عالماً جباراً عسوفاً شديد الوطاة، مات في شوال سنة ٣٧٢ هـ . انظر المنتظم ٧/ ١١٣-١١٨، ووفيات الأعيان ٤/ ٥٠-٥٥ .

(٣) كساء يلتحف به، وهي الشملة المخططة، وهي مما اعتاد الخلفاء لبسه عند تولي الخلافة، وتسمى البردة المحمدية . انظر لسان العرب ٣/ ٨٧، والمنتظم ٩/ ١٣٠ .

فكانت السنة والديلم ينادون بشعار سبكتكين، والشيعة ينادون بشعار عز الدولة، ووقع القتال وسفكت الدماء وأحرق الكرخ(١).

وكان الطائع قوياً في بدنه، زعر الأخلاق، وقد قطعت خطبته في العام الذي تولى خمسين يوماً من بغداد، فكانت الخطباء لا يدعون لإمام حتى أعيدت في رجب(٢).

وفي سنة ٣٦٤ هـ حاصر عضد الدولة بغداد، وكسر الأتراك، فأخرجوا معهم الخليفة وهربوا إلى تكريت، فأعاده عضد الدولة إلى دار الخلافة مكرماً، فنزل هو بدار الملك، واستعفى بختيار عن الخلافة، ثم قبض عليه وعلى أهله وإخوته، ففرح بذلك الطائع لله(٣).

وفي سنة ٣٦٧ هـ أقبل عضد الدولة في جيوشه وأخذ بغداد وتلقاه الطائع، وعملت قباب الزينة ثم خرج فعمل المصاف (٤)مع عز الدولة، فأسر عز الدولة ثم قتله، ونفذ إلى الطائع ألف ألف درهم وخمسين ألف دينار وخيلاً وبغالاً ومسكاً وعنبراً (٥).

وتمكن عضد الدولة، ولقب أيضاً «تاج الملة» وضربت له النوبة(٦) في ثلاثة أوقات، وعلا سلطانه علواً لا مزيد عليه، ومع ذلك الارتقاء فكان يخضع للطائع، وجاءه رسول العزيز صاحب مصر فراسله بتودد وطلب من الطائع أن يزيد في ألقابه فجلس له الطائع وحوله مئة بالسيوف والزينة ،وبين يديه المصحف العثماني، وعلى كتفه البردة وبيده القضيب، وهو متقلد السيف، وأسبلت الستارة، ودخل الترك(٧) والديلم(٨) بلا سلاح، ثم أذن لعضد

---

(١) انظر المنتظم ٧/٦٧ - ٦٨،وسير اعلام النبلاء للذهبي ١٥/١١٨ - ١١٩، وتاريخ الخلفاء للسيوطي ٢/٤٠٤، ط ١ مطبعة السعادة بمصر، تحقيق محمد محي الدين، ١٣٧١ هـ، وتكملة تاريخ الطبري للهمداني ص ٢١٥: ط ١ تحقيق البرت كنعان، المطبعة الكاثوليكية ببيروت ١٩٥٨ م .

(٢) سير اعلام النبلاء ١٥/١١٩، والمنتظم ٧/٧٥ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١١/٢٧٩ .

(٤) المصاف جمع مصف وهو موقف الحرب . انظر مختار الصحاح ص٣٦٥، والمصباح المنير ص ٤٠٥ .

(٥) انظر المنتظم ٧/٨٦-٨٧، وسير أعلام النبلاء ١٥ /١٢١

(٦) التهيأة للحرب من تهيأ القوم: جعلوا لكل واحد هياة معلومة، والمراد النوبة . انظر المصباح المنير ص ٧٩٩، والتعاريف للمناوي ٢/٧٤٥ .

(٧) جيل من الناس جمعه اتراك او ترك نسبة إلى تركستان ويمثلون السنة في تلك الفترة . انظر معجم البلدان ٢/٢٣ .

(٨) طائفة من العجم سموا بارضهم نزلوا الكرخ كما تقدم . انظر معجم البلدان ٢/٥٤٤ .

الدولة ورفعت له الستارة فقبل الأرض[١] قال: فارتاع زياد القائد وقال بالفارسية: أهذا هو الله؟! فقيل له: بل خليفة الله في أرضه. ومشى عضد الدولة وقبّل الأرض مرات سبعاً، فقال الطائع لخادمه: استدنه. فصعد وقبل الأرض مرتين: فقال: ادن إلي. فدنا حتى قبل رجله، فثنى الطائع يده عليه وأمره فجلس على كرسي بعد الامتناع، حتى قال: أقسمت لتجلسن. ثم قال: ما كان أشوقنا إليك وأتوقنا إلى مفاوضتك. فقال: عذري معلوم. قال: نيتك موثوق بها. فاوماً برأسه فقال: قد رأيت أن أفوض إليك ما وكله الله إلي من أمور الرعية في شرق الأرض وغربها، سوى خاصتي وأسبابي فتولى ذلك مستجيراً بالله . قال: يعينني الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته، وأريد كبار القواد أن يسمعوا لفظك، قال فقدموا فأعاد الطائع قوله بالتفويض، ثم ألبس الخلع والتاج، فأوماً ليقبل الأرض فلم يطق، فقال الطائع: حسبك وعقد له لواءين بيده، ثم قال يقرأ كتابه فقرىء، فقال الطائع: خار الله لنا ولك وللمسلمين، آمرك بما أمرك الله به، وأنهاك عما نهاك الله عنه، وأبرأ إلى الله مما سوى ذلك، انهض على اسم الله. ثم أعطاه بيده سيفاً ثانياً غير سيف الخلعة، وخرج من باب الخاصة وشق البلد.

وتزوج الطائع ببنت عضد الدولة، ورد العضد من همذان إلى بغداد، فتلقاه الخليفة ولم تجر بذلك عادة، ولكن بعث يطلب ذلك، فما وسع الطائع التأخر[٢].

و في شعبان من سنة ٣٦٨ هـ أمر الطائع لله أن يدعى لعضد الدولة بعد الخليفة على المنابر ببغداد، وأن تضرب الدبادب[٣] على بابه وقت الفجر وبعد المغرب والعشاء، وهذا شيء لم يتفق لغيره من بني بويه، وقد كان معز الدولة سأل من الخليفة أن يضرب الدبادب على بابه فلم يأذن له[٤].

---

(١) تحية للخلفاء خاصة ورمز للخضوع والطاعة وهي من البدع المنكرة التي تخالف الشرع كانت مفردة أو متعددة كما سيأتي .

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ١٥ / ١٢١-١٢٣ .

(٣) من الدبدبة : ضرب من الصوت إذا ضرب الطبل أو غيره . انظر لسان العرب ١ / ٣٧١، ٣٧٢ .

(٤) انظر المنتظم ٧ / ٩٢ والبداية والنهاية ١١ / ٢٩٢ .

ولما مات شرف الدولة(١) جاء الطائع يعزي أخاه بهاء الدولة أبا نصر،(٢) فقبل أبو نصر الأرض مرات، وسلطنه الطائع بالطوق والسوارين والخلع السبع، فأقر في وزارته، وكان بهاء الدولة ذا هيبة ووقار وحزم، وحاربه صمصام الدولة،(٣) وخربت البصرة والأهواز. وعظمت الفتن، وتواتر أخذ العملات ببغداد، وتحاربت الشيعة والسنة مدة ثم وثبوا على الطائع لله في داره، في تاسع عشر شعبان سنة ٣٨١، هـ وسببه أن شيخ الشيعة ابن المعلم (٤)كان من خواص بهاء الدولة فحبس، فجاء بهاء الدولة وقد جلس الطائع في الرواق متقلد السيف، فقبل الأرض وجلس على كرسي، فتقدم جماعة من أعوانه فجذبوا الطائع بحمائل سيفه، ولفوه في كساء،وأصعد في سفينته إلى دار المملكة، وماج الناس وظن الجند أن القبض على بهاء الدولة، فوقع النهب وقبض على الرئيس، وجماعة وصودروا، واحتيط على الخزائن والخدم أيضاً (٥).

فكان الطائع هم بالقبض على ابن عمه القادر بالله وهو أمير، فهرب إلى البطائح(٦) وانضم إلى مهذب الدولة (٧)وبقي معه عامين، فأظهر بهاء الدولة أمر القادر وأنه أمير المؤمنين

---

(١) السلطان صاحب العراق شيرويه بن الملك عضد الدولة بن بويه، كان فيه خير وازال المصادرات، مات في جماد الآخرة من سنة ٣٧٩ هـ. انظر الكامل ٧/١٣٨، وسير أعلام النبلاء ١٦/٣٨٤ .

(٢) السلطان أحمد وقيل فيروز وقيل خاشاد بن عضد الدولة كان ذا هيبة ووقار ظالماً سفاكاً للدماء، مات سنة ٤٠٣ هـ. انظر الكامل ٧/٢٦٨، والنجوم الزاهرة ٤/٢٣٢، ٢٣٣ .

(٣) الملك بن عضد الدولة، تملك مدة ثم زال ملكه وسملت عيناه وحبس ثم أخرج، مات سنة ٣٨٨ هـ، انظر المنتظم ٧/٢٠٤،وسير أعلام النبلاء ١٦/٥٠١ .

(٤) فقيه الشيعة ومتكلمها أبو الحسن الكوكبي كان من خواص بهاء الدولة، ثم شغبت الجند وطلبوا من بهاء الدولة أن يسلم ابن المعلم إليهم، وقالوا له اختر بقاءه أو بقاءك، فقتله سنة ٣٨٢ هـ. انظر الكامل ٧/١٥٨، شذرات الذهب ٣/١٠٢ .

(٥) انظر المنتظم ٧/١٥٦-١٥٧، وسير أعلام النبلاء ١٥/١٢٥ .

(٦) أرض واسعة بين واسط والبصرة سميت بذلك لأن المياه تبطحت فيها أي سالت واتسعت. انظر معجم البلدان ١/٤٥٠ .

(٧) علي بن نصر بن أبي الحسن صاحب بلاد البطيحة له مكارم كثيرة، كان الناس يلجؤن إلى بلاده في الشدائد توفي سنة ٤٠٩ هـ. انظر البداية والنهاية ١٢/٧ .

ونودي بذلك، وأشهد على الطائع بخلع نفسه، وأنه سلم الخلافة إلى القادر بالله، وشهد الكبراء بذلك ثم طلب القادر، واستحثوه على القدوم واستبيحت دار الخلافة حتى نقض خشبها[١].

وكتب القادر من عبد الله أمير المؤمنين القادر بالله إلى بهاء الدولة وضياء الملة أبي نصر بن عضد الدولة: سلام عليك أما بعد، أطال الله بقاءك وأدام عزك، وَرَدَ كتابك بخلع العاصي المتلقب بالطائع لبوائقه وسوء نيته فقد أصبحت سيف أمير المؤمنين المبير[٢].

ثم في السنة الآتية سلم الطائع المخلوع إلى القادر، فأنزله في حجرة موكلا به وأحسن صيانته وكان المخلوع يطلب منه أمورا ضخمة وقدمت بين يديه شمعة قد استعملت فأنكر ذلك فأتوه بجديدة وبقي مكرما إلى أن توفي[٣] وما اتفق هذا الإكرام لخليفة مخلوع مثله حتى لأبيه منه.

وكانت دولته ثماني عشرة سنة، وبقي بعد عزله أعواماً إلى أن مات ليلة عيد الفطر سنة ٣٩٣، هـ فصلى عليه القادر وكبر خمساً[٤]، ورثاه الشريف الرضي بقصيدة، وعاش ثلاثاً وسبعين سنة رحمه الله[٥].

٢ ـ القادر بالله: الخليفة أبو العباس أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر جعفر ابن المعتضد العباسي البغدادي، ولد سنة ٣٣٦ هـ.

كان أبيض كث اللحية يخضب، ديناً عالماً متعبداً وقوراً من جلة الخلفاء وأمثلهم عده ابن الصلاح في الشافعية، تفقه على أبي بشر أحمد بن محمد الهروي[٦]، قال الخطيب

(١) انظر المنتظم ٧/١٥٧، وسير اعلام النبلاء ١٥/١٢٥-١٢٦

(٢) انظر البداية والنهاية ١١/٣٠٩. والمبير: المهلك من البوار وهو الهلاك. انظر لسان لعرب ٤/٨٦.

(٣) انظر تاريخ الخلفاء ص: ٤١١، والكامل في التاريخ ٩/٩٣.

(٤) لا تسن الزيادة على أربع تكبيرات لانها المشهورة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجمع عمر الناس على أربع وقال: هو أطول الصلاة فإن كبرخمساً جاز لأن زيد بن أرقم كبر خمساً وقال: كان النبي يكبرها. انظر الكافي في فقه ابن حنبل ١/٢٦٢، قال القاضي عبد الوهاب: «وتكبيرات الجنازة أربع وبه قال الفقهاء أجمع» عيون المجالس ١/٤٦٠.

(٥) انظر سير أعلام النبلاء ١٥/١٢٦-١٢٧، وتاريخ بغداد ١١/٧٩.

(٦) يعرف بالعالم خدم القادر قبل الخلافة وتقلد قضاء عدة بلدان توفي سنة ٣٨٥ هـ. انظر تاريخ بغداد ٥/٨٨-٨٩.

البغدادي: كان من الدين وإدامة التهجد، وكثرة الصدقات، على صفة اشتهرت عنه، وصنف كتاباً في الأصول، ذكر فيه فضل الصحابة، وإكفار من قال بخلق القرآن، وكان ذلك الكتاب يقرأ في كل جمعة، في حلقة أصحاب الحديث، ويحضره الناس مدة خلافته، وهي إحدى وأربعون سنة وثلاثة أشهر [١] كان يلبس زي العامة ويقصد الأماكن المباركة [٢].

قام بخلافته بهاء الدولة كما تقدم، في سنة إحدى وثمانين، واستقدموه من البطائح فجهزه أميرها مهذب الدولة علي بن نصر، وحمله من المال والآلات والفرش بما أمكن، فلما قدم واسط أتاه الأجناد وطلبوا رسم البيعة وهاشوا[٣] فوعدهم بالجميل فرضوا، فكان مقامه بالبطيحة أزيد من سنتين، فقدم واستكتب أبا الفضل محمد بن أحمد عارض الديلم، وجعل أستاذ داره عبد الواحد الشيرازي وحلف هو وبهاء الدولة كل منهما لصاحبه، ثم سلطنه[٤].

وفي سنة ٣٩١ هـ عقد القادر بولاية العهد لابنه الغالب بالله وهو في تسع سنين، وعجل بذلك لأن أبا عبد الله بن عثمان الواثق بالله سار إلى خرا سان، وافتعل كتاباً من القادر بأنه ولي عهده، واجتمع ببعض الملوك فاحترمه وخطب له بعد القادر، ونفذ رسولاً إلى القادر بما فعل فأثبت فسق الواثقي ومات غريبا [٥].

وفي سنة ٤٠٠ هـ انبثت دعاة الحاكم في الأطراف، فأمر القادر في سنة ٤٠٢ هـ بعمل محضر يتضمن القدح في نسب العبيدية، وأنهم منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمي، وليس إلى علي بن أبي طالب،فشهدوا جميعاً، وأن جدهم لما صار إلى الغرب تسمى بالمهدي عبيد الله وهو وسلفه أرجاس أنجاس خوارج أدعياء، وأنتم تعلمون أن أحداً من الطالبيين لم يتوقف عن إطلاق القول بأنهم أدعياء، وأن هذا الناجم وسلفه كفار زنادقة ولمذهب الثنوية والمجوسية معتقدون، عطلوا الحدود وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء وسبوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادعوا الربوبية، وكتب في المحضر عدد من العلماء السنة والشيعة[٦].

---

(١) تاريخ بغداد ٤/ ٣٧ ـ ٣٨ . وسير أعلام النبلاء ١٥ /١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥ /١٢٨ .

(٣) الهوشة الفتنة والاضطراب . انظر مختار الصحاح ص٧٠١، والمصباح المنير ص٧٩٤ .

(٤) انظر المنتظم ٧/ ١٦١ .

(٥) انظر النتظم ٧/ ٢١٥، البداية والنهاية ١١ /٣٢٨ .

(٦) انظر المنتظم ٧/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦، وسير أعلام النبلاء ١٥ /١٣٢ .

ومات بهاء الدولة، وتسلطن ابنه سلطان الدولة في ربيع الأول سنة ٤٠٤ هـ[١] وجلس القادر لذلك وأحضرت الخلع والتاج والطوق والسواران واللواءان فعقدهما الخليفة بيده، وأعطى سيفاً للخادم فقال: قلده به فهو فخر له ولعقبه. وبعث بذلك إلى شيراز [٢].

وكان في الأندلس الحاكم المستنصر بالله بن الناصر لدين الله عبد الرحمن الأموي المتوفى سنة ٣٦٦ هـ ،من خيار الملوك وعلمائهم، وكان عالماً بالفقه والخلاف والتواريخ، محبا للعلماء محسناً إليهم، وفي آخر الدولة الأموية سليمان المستعين (٤٠٧ هـ)،حيث الدولة الأموية في النزع الأخير بل في آخر رمق، بعد تغلب الدولة العامرية، كما فعل الديلم في بغداد[٣].

ففيها كان ابتداء دولة العلوليين ببلاد الأندلس، وقتل سليمان بن الحكم الأموي وأبوه، وملكوا فترة، ثم ملك الأمويون ،حتى ملك أمر المسلمين علي بن يوسف ابن تاشفين[٤].

ونفذت من القادر بالله خلع السلطنة لقوام الدولة بولاية كرمان، وناب بدمشق عبدالرحيم ولي عهد الحاكم[٥].

وكان في مصر الحاكم بأمر الله الفاطمي، الذي تمكنت الباطنية في أيامه [٦].

وفي سنة ٤١١ هـ لليلتين بقيتا من شوال، فقد الحاكم، فاستبشر المؤمنون والمسلمون بذلك، لأنه كان جباراً عنيداً وشيطاناً مريداً، كان كثير التلون في أفعاله وأحكامه وأقواله جائراً، وقد كان يروم أن يدعى الألوهية كما ادعاها فرعون، أمر الرعية إذا ذكر الخطيب على المنبر اسمه أن يقوم الناس على أقدامهم صفوفاً إعظاماً لذكره واحتراماً لاسمه فعل ذلك في سائر ممالكه حتى في الحرمين الشريفين، وأمر أهل مصر على الخصوص إذا قاموا عند ذكره خروا سجداً له، حتى إنه ليسجد بسجودهم من في الأسواق من الرعاع وغيرهم ممن كان لا

---

(١) انظر الكامل ٩/ ٢٤١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٤ .

(٣) انظر الكامل ٧/ ٢٨٤، والبداية والنهاية ١١/ ٢٨٥ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٢/ ٤ .

(٥) سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٦ .

(٦) انظر سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٦، والبداية والنهاية ١٢/ ٩ .

يصلي الجمعة، وكانوا يتركون السجود لله في يوم الجمعة وغيره ويسجدون للحاكم، وأمر في وقت لأهل الكتابين بالدخول في دين الإسلام كرهاً ثم أذن لهم في العود إلى دينهم، وخرب كنائسهم ثم عمرها وخرب القمامة (١)، ثم أعادها كما تقدم، وابتنى المدارس وجعل فيها الفقهاء والمشايخ، ثم قتلهم وأخربها، وألزم الناس بغلق الأسواق نهاراً وفتحها ليلاً فامتثلوا ذلك دهرا طويلاً، حتى اجتاز مرة برجل يعمل النجارة في أثناء النهار، فوقف عليه فقال: ألم أنهكم؟! فقال: يا سيدي لما كان الناس يتعيشون بالنهار كانوا يسهرون بالليل، ولما كانوا يتعيشون بالليل سهروا بالنهار، فهذا من جملة السهر. فتبسم وتركه، وأعاد الناس إلى أمرهم الأول. وكل هذا تغيير للرسوم واختبار لطاعة العامة له، ليرقى في ذلك إلى ما هو أشر وأعظم منه، وقد كان يعمل الحسبة بنفسه فكان يدور بنفسه، في الأسواق، وكان لا يركب إلا حماراً، فمن وجده قد غش في معيشة، أمر عبداً أسوداً معه يقال له مسعود، أن يفعل به الفاحشة العظمى، وهذا أمر منكر ملعون لم يسبق إليه، وكان قد منع النساء من الخروج من منازلهن ،وقطع شجر الأعناب، حتى لا يتخذ الناس منها خمراً ومنعهم من طبخ الملوخية، وأشياء من الرعونات التي من أحسنها منع النساء من الخروج وكراهة الخمر .

وكانت العامة تبغضه كثيراً ويكتبون له الأوراق بالشتيمة البالغة له ولأسلافه في صورة قصص، فإذا قرأها ازداد غيظاً وحنقاً عليهم، حتى إن أهل مصر عملوا صورة امرأة من ورق بخفيها وإزارها، وفي يدها قصة من الشتم واللعن والمخالفة شيء كثير، فلما رآها ظنها امرأة فذهب من ناحيتها وأخذ القصة من يدها فقرأها فرأى ما فيها فاغضبه ذلك جدا فأمر بقتل المرأة فلما تحققها من ورق ازداد غيظاً إلى غيظه، ثم لما وصل إلى القاهرة أمر السودان أن يذهبوا إلى مصر فيحرقوها، وينهبوا ما فيها من الأموال والمتاع والحريم، فذهبوا فامتثلوا ما أمرهم به ،فقاتلهم أهل مصر قتالاً شديداً ثلاثة أيام والنار تعمل في الدور والحريم وهو في

---

(١) بالقدس الشريف التي سموها كنيسة القيامة، وهي عندهم مكان عظيم يقصدها النصارى من كل مكان. انظر مقدمة الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية للطوفي درسة وتحقيق الباحث ١ /٣٩ .

كل يوم قبحه الله يخرج فيقف من بعيد وينظر ويبكي ويقول من أمر هؤلاء العبيد بهذا. ثم اجتمع الناس في الجوامع ورفعوا المصاحف وصاروا إلى الله عز وجل واستغاثوا به، فرق لهم الترك والمشارقة وانحازوا إليهم وقاتلوا معهم عن حريمهم ودورهم، وتفاقم الحال جداً ثم ركب الحاكم ففصل بين الفريقين وكف العبيد عنهم، وكان يظهر التنصل مما فعله العبيد وأنهم ارتكبوا ذلك من غير علمه، وإذنه وكان ينفذ إليهم السلاح ويحثهم على ذلك في الباطن، وما انجلى الأمر حتى احترق من مصر نحو ثلثها، ونهب قريب من نصفها، وسبيت نساء وبنات كثيرة، وفعل معهن الفواحش والمنكرات، حتى أن منهن من قتلت نفسها خوفا، من العار والفضيحة، واشترى الرجال منهم من سبى لهم من النساء والحريم، ثم ازداد ظلم الحاكم حتى عن له أن يدعي الربوبية، فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون: يا واحد، يا أحد، يا محي، يا مميت قبحهم الله جميعاً.

وكان قد تعدى شره إلى الناس كلهم، حتى إلى أخته، وكان يتهمها بالفاحشة ويسمعها أغلظ الكلام، فراسلت أكبر الأمراء ابن دواس فتوافقت وهو على قتله، وتواطآ على ذلك وقتلاه [١].

وفي سنة ٤١٤ هـ أقبل الملك مشرف الدولة[٢] إلى بغداد من ناحية واسط، وطلب من القادر بالله أن يخرج لتلقيه فتلقاه، وما فعل ذلك بملك قبله، وجاء مشرف الدولة فقبل الأرض وأجلس على كرسي[٣].

ومرض القادر بالله في سنة ٤٢١ هـ ثم جلس للناس، واظهر ولاية العهد لولده أبي جعفر [٤].

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٢-٩-١٠، والمنتظم ٧/٢٩٧-٢٩٩ .

(٢) ابو علي الحسن بن بهاء الدولة بن عضد الدولة، مات سنة ٤١٦ هـ . انظر الكامل ٧/٣٢٢، والنجوم الزاهرة ٤/٢٦٢ .

(٣) انظر المنتظم ٨/١٢، وسير أعلام النبلاء ١٥/١٣٦ .

(٤) انظر سير أعلام النبلاء ١٥/١٣٧ .

وفي ذي الحجة من سنة ٤٢٢ هـ مات القادر بالله في أول أيام التشريق، وصلى عليه ابنه القائم بأمر الله، ودفن في الدار ثم بعد عشرة أشهر نقل تابوته إلى الرصافة، وعاش سبعاً وثمانين سنة سوى شهر وثمانية أيام (١).

وهذه السنة سنة وفاة الشيخ عبد الوهاب البغدادي، حيث توفي كما قيل في ليلة الإثنين الرابع عشر من صفر، وأكثر المؤرخين أنه مات في شهر شعبان من هذه السنة (٤٢٢هـ)، فيكون قد مات قبل القادر بأشهر والله أعلم .

وكان من أهم أعمال القاضي عبد الوهاب في هذا الخضم السياسي توليه القضاء في مناطق متعددة من العراق ومصر، فقد كان قاضياً في بادرايا بقرب نواحي واسط من العراق، وكان قاضياً لباكسايا بين بغداد و واسط من الجانب الشرقي في أقصى النهروان، وتولى القضاء في الدينور من أعمال الجبال بينها وبين همذان نيف وعشرون فرسخا، وكذلك ولي القضاء بمدينة أسعرد من ضواحي بغداد، وكان قاضياً في مصر حين توفي بها (٢).

المبحث الثاني :حالة الدول المهيمنة في تلك الفترة وأثرها في الحياة السياسية :

كانت كل دولة من الدول في صراع وقتال مع الأخرى، كما حصل بين الأتراك والبويهيين، وبين البويهيين والحمدانيين، وبين الحمدانيين والأتراك، وبين القرامطة والفاطميين، وبين الحمدانيين والفاطميين، فقد وقع بينها صراع شديد وقتال عنيف، تريد كل دولة توسيع دائرتها وسيطرتها على كثير من مناطق الأخرى، ومن أهم أمثلة ذلك :

لما قويت الأتراك ببغداد كما سبق ،تحير بختيار بن معز الدولة في أمره وهو مقيم بالأهواز لا يستطيع الدخول إلى بغداد، فأرسل إلى عمه ركن الدولة يستنجده فأرسل إليه بعسكر مع وزيره أبي الفتح بن العميد، وأرسل إلى ابن عمه عضد الدولة فأبطأ عليه، وأرسل

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٧.

(٢) انظر تاريخ بغداد ١١/ ٣١،ترتيب المدارك ٧/ ٢٢٠، والديباج المذهب ٢/ وشجرة النور الزكية ص١٠٣.

إلى عمران بن شاهين[١] فلم يجبه، وأرسل إلى أبي تغلب بن حمدان[٢] فأظهر نصره وإنما يريد في الباطن أخذ بغداد، وخرجت الأتراك من بغداد في جحفل عظيم ومعهم الخليفة المطيع وأبوه، فلما انتهوا إلى واسط توفي المطيع، وبعد أيام توفي سبكتكين، فحملا إلى بغداد، والتف الأتراك على أمير يقال له افتكين[٣]، فاجتمع شملهم والتقوا مع بختيار فضعف أمره جداً وقوى عليه ابن عمه عضد الدولة فأخذ منه ملك العراق، وتمزق شمله وتفرق أمره كان ذلك في سنة ٣٦٣ هـ[٤].

و لما استقر المعز الفاطمي بالديار المصرية سار إليه الحسين بن أحمد القرمطي [٥]من الأحساء في جمع كثيف من أصحابه، والتف معه أمير العرب ببلاد الشام، وهو حسان ابن الجراح الطائي في عرب الشام بكمالهم، فلما سمع بهم المعز الفاطمي أسقط في يده لكثرتهم، وكتب إلى القرمطي يستميله ويقول: إنما دعوة آبائك كانت إلى آبائي قديماً فدعوتنا واحدة، ويذكر فيه فضله وفضل آبائه، فرد عليه :«وصل كتابك الذي كثر تفضيله وقل تحصيله ونحن سائرون إليك على إثره والسلام» فلما انتهوا إلى ديار مصر عاثوا فيها قتلاً ونهباً وفساداً وحار المعز فيما يصنع، وضعف جيشه عن مقاومتهم، فعدل إلى المكيدة والخديعة، فراسل حسان ابن الجراح ووعده بمائة ألف دينار إن هو خذل بين الناس، فبعث إليه حسان يقول: أن ابعث إلي بما التزمت وتعال بمن معك، فإذا لقيتنا انهزمت بمن معي فلا يبقى للقرمطي قوة، تأخذه كيف شئت، فأرسل إليه بمائة ألف دينار في أكياسها، ولكن أكثرها زغل ضرب النحاس وألبسه ذهبا وجعله في أسفل الأكياس وجعل في رؤسها الدنانير

---

(١) وقيل الحسن بن عمران، ملك البطائح كان عليه دماء فاحتمى بالآجام يتصيد، فالتف عليه لصوص فانشأ معاقل، وعجزت عنه الدولة إلى أن مات على فراشه سنة ٣٦٩ هـ . انظر الكامل ٧/ ٩٩، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٦٧ .

(٢) ابن ناصر الدولة بن حمدان الغضنفر البطل، قتل في صفر سنة ٣٦٩ هـ . انظر الكامل ٧/ ٩٨، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٣٠٦ .

(٣) ويقال : هفتكين أحد الشجعان والأبطال من أمراء سبكتكين بالعراق، مات في أول سنة ٣٧١ هـ . انظر وفيات الأعيان ٤/ ٥٣، والعبر ٢/ ٣٤٩، ٣٥٠ .

(٤) انظر المنتظم ٧ / ٦٨ والبداية والنهاية ١١/ ٢٧٧ .

(٥) انظر شذرات الذهب ٣/ ٥٥ .

الخالصة، ولما بعثها إليه ركب في إثرها في جيشه فالتقى الناس، فانهزم حسان بمن معه، فضعف جانب القرمطي وقوى عليه الفاطمي فكسره وانهزمت القرامطة ورجعوا في أذل حال وأرذله، وبعث المعز في آثارهم القائد ابا محمود بن إبراهيم في عشرة آلاف فارس ليحسم مادة القرامطة ويطفئ نارهم عنه (١).

و لما انهزم القرمطي بعث المعز سرية وأمر عليهم أمير العرب ظالم بن موهوب العقيلي فجاؤا إلى دمشق فتسلمها من القرامطة بعد حصار شديد واعتقل متوليها أبا الهيجاء القرمطي وابنه، واعتقل رجلاً يقال له أبو بكر من أهل نابلس، كان يتكلم في الفاطميين ويقول: لو كان معي عشرة أسهم لرميت الروم بواحد ورميت الفاطميين بتسعة. فأمر به فسلخ بين يدي المعز وحشي جلده تبناً وصلب بعد ذلك. ولما تفرغ أبو محمود القائد من قتال القرامطة اقبل نحو دمشق، فخرج إليه ظالم بن موهوب فتلقاه إلى ظاهر البلد وأكرمه وأنزله ظاهر دمشق فأفسد أصحابه في الغوطة ونهبوا الفلاحين وقطعوا الطرقات، فتحول أهل الغوطة إلى البلد من كثرة النهب وجيء بجماعة من القتلى فالقوا، فكثر الضجيج وغلقت الأسواق، واجتمعت العامة للقتال، والتقوا مع المغاربة فقتل من الفريقين جماعة وانهزمت العامة غير مرة وأحرقت المغاربة ناحية باب الفراديس، فاحترق شيء كثير من الأموال والدور، وطال القتال بينهم إلى سنة ٣٦٤ هـ وأحرقت البلد مرة أخرى بعد عزل ظالم بن موهوب وتولية جيش ابن صمصامة بن أخت أبي محمود قبحه الله وقطعت القنوات وسائر المياه عن البلد ومات كثير من الفقراء في الطرقات من الجوع والعطش ولم يزل الحال كذلك حتى ولي عليهم الطواشي ريان الخادم من جهة المعز الفاطمي، فسكنت نفوس الناس(٢).

وفي سنة ٣٦٤ هـ جاء عضد الدولة إلى واسط ومعه وزير أبيه أبو الفتح بن العميد(٣) فهرب منه الفتكين في الأتراك إلى بغداد فسار خلفهم فنزل في الجانب الشرقي منها وأمر بختيار أن ينزل على الجانب الغربي وحصر الترك حصراً شديداً وأمر أمراء الأعراب أن يغيروا

(١) انظر البداية والنهاية ١١/٢٧٦.

(٢) انظر البداية والنهاية ١١/٢٧٧.

(٣) علي بن محمد بن الحسين وزير ركن الدولة الحسن بن بويه بعد أبيه عذب وقتل في ربيع الآخر من سنة ٣٦٦ هـ. انظر سير اعلام النبلاء ١٦/١٣٨.

على الأطراف، ويقطعوا عن بغداد الميرة الواصلة إليها، ثم التفت الأتراك على عضد الدولة فكسرهم وهربوا إلى تكريت، واستحوذ عضد الدولة على بغداد وما والاها من البلاد، وكانت الترك قد أخرجوا معهم الخليفة فرده عضد الدولة إلى دار الخلافة مكرماً ونزل هو بدار الملك، وضعف أمر بختيار جداً ولم يبق معه شيء بالكلية، فأغلق بابه وطرد الحجبة والكتاب عن بابه، ففرح بذلك الخليفة الطائع، وأظهر عضد الدولة من تعظيم الخلافة ما كان دارساً وجدد دار الخلافة وقتل المفسدين من مردة الترك، وكتب عضد الدولة عن الطائع إلى الآفاق بتوليته، ثم اضطرب أمره ولم يبق بيده غير بغداد، وفي هذا الوقت كانت الحرب متصلة بين جوهر المعزي وبين هفتكين بالشام، حتى جرت بينهما اثنتا عشرة وقعة (١).

وقد افتتح عزالدولة في هذه السنة وهو مقيم بالموصل أكثر بلاد أبي تغلب بن حمدان كآمد والرحبة(٢) وغيرهما ثم دخل بغداد في سلخ ذي القعدة فتلقاه الخليفة والأعيان إلى أثناء الطريق ثم مات هو في شوالها وقام ولده صمصام الدولة وجاء الخليفة فعزى ولده(٣).

وفي سنة ٣٧٦ هـ اختلف عسكر العراق ومالوا إلى شرف الدولة أخي صمصام الدولة فذل الصمصام وبادر إلى خدمة أخيه فاعتقله ثم أمر بكحله فمات شرف الدولة والمكحول في سنة ٣٧٩وكان شرف الدولة ذا رفق ودين ومن عدله رده على السيد أبي الحسن محمد بن عمر أملاكه وكان مغلها في السنة أزيد من ألف ألف دينار (٤).

وفي سنة ٣٨١ هـ ظهر أبو الفتوح الحسين بن جعفر العلوي أمير مكة وادعى أنه خليفة وسمى نفسه الراشد بالله، فمالأه أهل مكة وحصل له أموال من رجل اوصى له بها، فانتظم أمره بها وتقلد سيفاً وزعم أنه ذو الفقار، وأخذ بيده قضيباً زعم أنه كان لرسول الله ـ ﷺ، ثم قصد بلاد الرملة ليستعين بعرب الشام، فتلقوه بالرحب وقبلوا له الأرض وسلموا عليه بأمير المؤمنين، وأظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود، ثم إن الحاكم صاحب

---

(١) انظر المنتظم ٧/ ٨٣-٨٤،و سير اعلام النبلاء ١٥/ ١٢٠.

(٢) بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات . انظر معجم البلدان ٣/ ٣٤ .

(٣) انظر سير اعلام النبلاء ١٥/ ١٢٣، والبداية والنهاية ١١/ ٢٩٢ .

(٤) انظر الكامل ٩/ ٦١، وسير اعلام النبلاء ١٥/ ١٢٣ .

مصر بعث إلى عرب الشام بملطفات، ووعدهم من الذهب بألوف ومئات، وكذلك إلى عرب الحجاز، واستناب على مكة أميراً وبعث إليه بخمسين ألف دينار، فانتظم أمر الحاكم وتمزق أمر الراشد وانسحب إلى بلاده، واضمحل حاله، وانتقضت حباله، وتفرق عنه رجاله(١).

وفي ٣٨١ هـ كانت الخطبة للحاكم العبيدي، وتجدد في الخطبة أنه إذا ذكر الخطيب الحاكم يقوم الناس كلهم إجلالاً له، وكذلك فعلوا بديار مصر مع زيادة السجود له وكانوا يسجدون عند ذكره، يسجد من هو في الصلاة ومن هو في الأسواق، يسجدون لسجودهم(٢).

في سنة٣٩٧ هـ خرج أبو ركوة على الحاكم العبيدي، وملخص أمر ه أنه كان من سلالة هشام بن عبدالملك بن مروان الأموي، واسمه الوليد و لقب بأبي ركوة لركوة كان يصحبها في أسفاره على طريق الصوفية، وقد سمع الحديث بالديار المصرية، ثم أقام بمكة ثم رحل إلى اليمن ثم دخل الشام، وهو في غضون ذلك يبايع من انقاد له ممن يرى عنده همة ونهضة للقيام في نصرة ولد هشام ثم أقام ببعض بلاد مصر في محلة من محال العرب، يعلم الصبيان ويظهر التقشف والعبادة والورع، ويخبر بشيء من المغيبات، حتى خضعوا له وعظموه جداً ثم دعا إلى نفسه وذكر لهم أنه الذي يدعى إليه من الأمويين، فاستجابوا له وخاطبوه بأمير المؤمنين ولقب بالثائر بأمر الله المنتصر من أعداء الله، ودخل برقة في جحفل عظيم فجمع له أهلها نحوا من مائتي ألف دينار وأخذ رجلاً من اليهود أتهم بشيء من الودائع فأخذ منه مائتي ألف دينار أيضاً ونقشوا الدراهم والدنانير بالقابه، وخطب بالناس يوم الجمعة ولعن الحاكم في خطبته، فالتف على أبي ركوة من الجنود نحو من ستة عشر ألفاً، فلما بلغ الحاكم أمره وما آل إليه حاله، بعث بخمسمائة ألف دينار وخمسة آلاف ثوب إلى مقدم جيوش أبي ركوة وهو الفضل بن عبد الله يستميله إليه ويثنيه عن أبي ركوة، فحين وصلت الأموال إليه رجع عن أبي ركوة وقال له: إنا لا طاقة لنا بالحاكم، وما دمت بين أظهرنا فنحن مطلوبون

(١) انظر البداية والنهاية ١١/ ٣٠٩ - ٣١٠، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٣٢٧ .

(٢) انظر الكامل ٩/ ١١٨ وما بعدها، وشذرات الذهب ٣/ ١٩٣ - ١٩٤ .

بسببك، فاختر لنفسك بلداً تكون فيها. فسأل أن يبعثوا معه فارسين يوصلانه إلى النوبة فإن بينه وبين ملكها مودة وصحبة، فأرسله ثم بعث وراءه من رده إلى الحاكم بمصر، فلما وصل إليه أركبه جملا وشهره ثم قتله في اليوم الثاني، ثم أكرم الحاكم الفضل وأقطعه أقطاعاً كثيرة، واتفق مرض الفضل فعاده الحاكم مرتين فلما عوفي قتله وألحقه بصاحبه، وهذه مكافاة التمساح(١).

وكان موت مشرف الدولة في سنة٤١٦ هـ فنهبت خزائنه وخطب لجلال الدولة، ثم إن الأمراء عدلوا إلى الملك أبي كاليجار ونوهوا باسمه، وكان ولي عهد أبيه سلطان الدولة فخطب لهذا ببغداد وكثرت العملات ببغداد جداً، واستباح جلال الدولة الأهواز فنهب ما قيمته خمسة آلاف ألف دينار وأحرقت ودثرت(٢).

وفي سنة ٤١٩ هـ - وهي السنة التي هجر فيها القاضي عبد الوهاب بغداد - وقع بين الجيش وبين جلال الدولة خلاف وجرت أمور طويلة(٣).

وفي سنة ٤٢١ هـ ملك جلال الدولة واسطاً واستناب عليها ولده، وبعث وزيره ابن ماكولا إلى البطائح ففتحها، وسار إلى البصرة وعليها نائب لأبي كاليجار فهزمهم البصريون، فسار إليهم جلال الدولة بنفسه فدخلها في شعبان (٤).

المبحث الثالث : الاهتمام بالفتوحات الإسلامية :

لقد ضاع أمر الإسلام بدولة بني بويه الشيعة وبني عبيد الرافضة، وتركوا الجهاد في سبيل الله، لكن الله هيأ الأتراك السُنَّة، فقاموا بالفتوحات والغزو رغم ما يلاقون من حروب في الداخل من البويهيين وغيرهم، ففتح الله على أيديهم بلاد الهند وخاصة معاقل الوثنية وأماكن الأصنام، ومن أهم تلك المغازي :

(١) انظر الكامل ٩/١٩٧-٢٠٣، وسير أعلام النبلاء ١٥/١٣١ .

(٢) انظر الكامل ٩/٣٧٤-٣٧٦، والمنتظم ٨/٢١ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١٢/٢٤ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٢/٢٨ .

في محرم سنة ٣٩٢ هـ غزا يمين الدولة محمود بن سبكتكين بلاد الهند، فقصده ملكها جيبال في جيش عظيم، فاقتتلوا قتالاً شديداً ففتح الله على المسلمين وانهزمت الهنود، وأسر ملكهم وأخذوا من عنقه قلادة قيمتها ثمانون ألف دينار، وغنم المسلمون منهم أموالا عظيمة وفتحوا بلادا كثيرة ثم إن محموداً أطلق ملك الهند احتقاراً له واستهانة به ليراه أهل مملكته والناس في المذلة، فحين وصل إلى بلاده ألقى نفسه في النار التي يعبدونها من دون الله فاحترق (١).

وفي سنة ٣٩٦ هـ غزا يمين الدولة أيضاً بلاد الهند، فافتتح مدناً كباراً وأخذ أموالاً جزيلة وأسر بعض ملوكهم، وهو ملك كراشي، وكسر أصنامها فألبسه منطقته وشدها على وسطه بعد تمنع شديد، وقطع خنصره ثم أطلقه، إهانة له وإظاهراً لعظمة الإسلام وأهله(٢)

وفي سنة ٣٩٨ هـ غزا يمين الدولة أيضا بلاد الهند، ففتح حصوناً كثيرة وأخذ أموالاً جزيلة وجواهر نفيسة، ولما رجع إلى غزنة بسط هذه الأموال كلها في صحن داره وأذن لرسل الملك فدخلوا عليه، فرأوا ما بهرهم وهالهم(٣).

و في سنة ٤٠٢ هـ ورد على الخليفة كتاب محمود بن سبكتكين أنه غزا الكفار وهم خلق معهم ست مئة فيل، وأن الله نصره عليهم (٤).

وفي سنة ٤٠٣ هـ بعث محمود بن سبكتكين إلى القادر بالله أنه ورد إليه كتاب من الحاكم العبيدي يدعوه إلى طاعته، فحرق كتابه وبصق عليه (٥).

وفي هذه السنة عادت مملكة الأمويين ببلاد الأندلس (٦).

ومات في حدودها أيلك خان صاحب ما وراء النهر، الذي أخذ البلاد من آل سامان من بضع عشرة سنة، وكان ظالماً مهيبا شديد الوطأة، وقد وقع بينه وبين طغان ملك الترك

---

(١) انظر البداية والنهاية ١١/ ٣٣٠ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١١/٣٣٥-٣٣٦، والمنتظم ٧/ ٢٣٠-٢٣١ .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٢، والبداية والنهاية ١١/٣٣٨ .

(٤) انظر المنتظم ٧/ ٢٥٥-٢٥٦، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٣ .

(٥) انظر المنتظم ٧/ ٢٥٦-٢٥٧، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٣ .

(٦) انظر البداية والنهاية ١١/ ٣٤٨ .

حروب فورث أخوه طغان مملكته ومالأه ابن سبكتكين، فتحركت جيوش الصين لحرب طغان في أزيد من مئة ألف خركاة فالتقاهم طغان ونصره الله (١).

وفي سنة ٤٠٤ هـ غزا محمود بن سبكتكين بلاد الهند، ففتح وقتل وسبى وغنم وسلم، وكتب إلى الخليفة أن يوليه ما بيده من مملكة خرا سان وغيرها من البلاد، فأجابه إلى ما سأل(٢).

وفي سنة ٤٠٦ هـ غزا محمود بن سبكتكين بلاد الهند، فأخذه الأدلاء فسلكوا به على بلاد غريبة فانتهوا إلى أرض قد غمرها الماء من البحر، فخاض بنفسه الماء أياماً وخاض الجيش حتى خلصوا بعد ما غرق كثير من جيشه وعاد إلى خرا سان بعد جهد(٣).

وفي سنة ٤٠٩ هـ افتتح ابن سبكتكين عدة مدائن بالهند، وورد كتابه ففيه صدر العبد من غزنة في أول سنة عشر وأربع مئة وانتدب لتنفيذ الأوامر فرتب في غزنة خمسة عشر ألف فارس، وأنهض ابنه في عشرين ألفاً وشحن بلخ وطخارستان باثني عشر ألف فارس وعشرة آلاف راجل، وانتخب ثلاثين ألف فارس وعشرة آلاف راجل لصحبه راية الإسلام، وانضم إليه المطوعة فافتتح قلاعاً وحصوناً وأسلم زهاء عشرين ألفاً وأخذ نحو ألف ألف من الورق ومائة فيل وعدة الهلكى خمسون ألفاً، ووافى مدينة لهم عاين فيها نحو ألف قصر وألف بيت للأصنام ومبلغ ما على الصنم ثمانية وتسعون ألف دينار، وقلع أزيد من ألف صنم، ولهم صنم معظم يؤرخون مدته بجهالتهم بثلاث مئة ألف سنة، وحصلنا من الغنائم عشرين ألف ألف درهم، وأفرد الخمس من الرقيق فبلغ ثلاثة وخمسين ألفا واستعرضنا ثلاث مئة وستة وخمسين فيلا (٤).

وفي سنة ٤١٨ هـ ورد كتاب من محمود المذكور يذكر أنه دخل بلاد الهند أيضاً، وأنه كسر الصنم الأعظم الذي لهم وقد كانوا يفدون إليه من كل فج عميق كما يفد الناس إلى

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٣، والكامل ٩/ ٢٩٧ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١١/ ٣٥٢.

(٣) انظر المنتظم ٧/ ٢٧٦، البداية والنهاية ١٢/ ٢ .

(٤) انظر المنتظم ٧/ ٢٩٢ - ٢٩٣، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ١٣٥ - ١٣٦، والبداية والنهاية ١٢/ ٧ .

الكعبة وأعظم، وينفقون عنده النفقات والأموال الكثيرة التي لا توصف ولا تعد، وكان عليه من الأوقاف عشرة آلاف قرية ومدينة مشهورة، وقد امتلأت خزائنه أموالاً، وعنده ألف رجل يخدمونه وثلثمائة يحلقون رؤوس حجيجه، وثلثمائة يغنون ويرقصون على بابه لما يضرب على بابه الطبول والبوقات، وكان عنده من المجاورين ألوف يأكلون من أوقافه، وقد كان البعيد من الهنود يتمنى لو بلغ هذا الصنم، فوجد عليه وفيه من الجواهر واللآلئ والذهب والجواهر النفيسة ما ينيف على ما بذلوه له بأضعاف مضاعفة (١).

وفي سنة ٤٢١ هـ استحوذت السرية التي كان بعثها الملك محمود إلى الهند على أكثر مدائن الهنود وأكبرها، المدينة المسماة نرسي، دخلوها في نحو من مائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل فغنموا سوق العطر والجواهر بها نهارا كاملاً، ولم يستطيعوا أن يحولوا ما فيه من أنواع الطيب والمسك والجواهر واللآلئ واليواقيت، ومع هذا لم يدر أكثر أهل البلد بشيء من ذلك لاتساعها وذلك أنها كانت في غاية الكبر، طولها مسيرة منزلة من منازل الهند وعرضها كذلك، وأخذوا منها من الأموال والتحف والأثاث ما لا يحد ولا يوصف، حتى قيل إنهم اقتسموا الذهب والفضة بالكيل، وهذه المدينة من أكثر بلاد الهند خيراً ومالاً، بل قيل إنه لا يوجد مدينة أكثر منها مالاً ورزقاً مع كفر أهلها وعبادتهم الأصنام، وقد كانت محل الملك وأخذوا منها من الرقيق من الصبيان والبنات ما لا يحصى كثرة (٢).

المبحث الرابع : جهاد المسلمين للروم (النصارى) :

قال الله تعالى : ﴿ **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾(٣)

لم يسلم المسلمون شر أهل الكتاب في أي عصر وخاصة النصارى في هذه الفترة، فقد عملوا على الاستيلاء على البلدان وخيراتها، وإظهار دينهم الباطل وبدعهم المنكرة،

---

(١) النظر البداية والنهاية ١٢ / ٢٢ -٢٣، والمنتظم ٨ /٢٨ - ٣١ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٢ ٢٧ -٢٨

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٢٠ .

ومضايقة المسلمين المتمسكين بدينهم الحنيف، وهم دائماً يستغلون ضعف المسلمين أو اختلافهم وانقساماتهم ليصلوا إلى مآربهم، ويحققوا طغيانهم، ومع ذلك فقد قبلهم المسلمون بكل شجاعة فهزموهم وردوا كيدهم في نحورهم، ومن أمثلة ذلك :

في سنة ٣٦٢ هـ اجتمع الفقيه أبو بكر الرازي الحنفي وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني (١)وابن الدقاق الحنبلي بعز الدولة بختيار بن بويه وحرضوه على غزو الروم فبعث جيشاً لقتالهم فاظفره الله بهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وبعثوا برؤوسهم إلى بغداد فسكنت أنفس الناس(٢).

وفي نفس السنة سارت الروم مع ملكهم لحصار آمد وعليها هزر مرد غلام أبي الهيجاء بن حمدان، فكتب إلى أبي تغلب يستنصره فبعث إليه أخاه أبا القاسم هبة الله ناصر الدولة بن حمدان، فاجتمعا لقتاله فلقياه في آخر يوم من رمضان في مكان ضيق لا مجال للخيل فيه فاقتتلوا مع الروم قتالاً شديداً فعزمت الروم على الفرار، فلم يقدروا، فاستحر فيهم القتل وأخذ الدمستق أسيرا فأودع السجن، فلم يزل فيه حتى مرض ومات في السنة القابلة، وقد جمع أبو تغلب الأطباء فلم ينفعه شيء (٣).

و في سنة ٤٢١ هـ أقبل ملك الروم من قسطنطينية في مائة ألف مقاتل أو ثلاثمائة ألف ومعه المال على سبعين ناقة، فسار حتى بلغ بلاد حلب وعليها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس، فنزلوا على مسيرة يوم منها، ومن عزم ملك الروم أن يستحوذ على الشام كلها وأن يستردها إلى دين النصرانية، ولم يتم له ذلك تصديقاً لقول رسول الله ﷺ «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفس محمد بيده لتنفقن

---

(١) النحوي المعتزلي، كان يتشيع ويقول : علي افضل الصحابة . توفي سنة ٣٨٤ هـ . الفهرست لابن النديم ص ٦٣ - ٦٤، وتأريخ بغداد ١٢/١٦ - ١٧ .

(٢) انظر المنتظم ٧/٦٠ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١١/٢٧٥.

كنوزهما في سبيل الله»[١] وقيصر هو من ملك الشام من الروم مع بلاد الروم، فلما نزل من حلب كما ذكر أشرف عليهم مائة ألف فارس من الأعراب، فلبس ملكهم خفا أسود لكي يختفي، وأرسل الله عليهم عطشاً شديداً وخالف بين كلمتهم، وذلك انه كان معه الدمستق، فعامل طائفة من الجيش على قتله ليستقل هو بالأمر من بعده، ففهم الملك ذلك فكر من فوره راجعاً، فاتبعهم الأعراب ينهبونهم ليلاً ونهاراً وكان من جملة ما أخذوا منهم أربعمائة فحل محجل محملة أموالاً وثياباً للملك وأربعمائة بغل بأحمالها، وقتل وهلك أكثرهم جوعاً وعطشاً، ونهبوا من كل جانب[٢].

والقاضي عبد الوهاب البغدادي يبدو أنه في أول حياته كان منكباً على التحصيل العلمي، منشغلاً بذلك عن هذه التطورات السياسية، لكنه بعد ذلك ساهم في الحكم بتولي القضاء في عدد من المدن والأقاليم المتعددة كما سبق .

المبحث الخامس : الحالة الدينية في ظل هذه الدول الحاكمة :

اختلف حال الملوك في نصرتهم للدين وقبولهم لنصح العلماء الناصحين والوعاظ فمنهم من قبل النصح وأكرم أهله وقدرهم، ومنهم من قصر في ذلك فضايقهم وكان تأثير النصح فيه قليل، فكان ظلمه أكثر من حلمه، ومخالفته أكثر من اتباعه للحق .

يصور الحياة الدينية في بغداد هذا الموقف :قيل لعضد الدولة : إن أهل بغداد قد قلوا كثيراً بسبب الطاعون، وما وقع بينهم من الفتن بسبب الرفض والسنة، وأصابهم حريق وغرق، فقال: إنما يهيِّج الشر بين الناس هؤلاء القصاص والوعاظ، ثم رسم أن أحداً لا يقص ولا يعظ

---

(١) أخرجه البخاري في عدة مواضع من صحيحه منها في أبواب الخمس، باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم- : «أحلت لكم الغنائم» ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء» ٤/ ٢٢٣٦-٢٢٣٧ .

(٢) انظر سير الأعلام ١٥/ ١٣٧، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٨ .

في سائر بغداد، ولا يسأل سائل باسم أحد من الصحابة [١] وإنما يقرأ القرآن فمن أعطاه أخذ منه، فعمل بذلك في البلد، ثم بلغه أن أبا الحسين محمد بن أحمد المعروف بابن سمعون الحنبلي الواعظ وكان من الصالحين [٢] لم يترك الوعظ بل استمر على عادته، فأرسل إليه من جاء به، وتحول عضد الدولة من مجلسه وجلس وحده، لئلا يبدر من ابن سمعون إليه بين الدولة كلام يكرهه، وقيل لابن سمعون إذا دخلت على الملك فتواضع في الخطاب وقبّل التراب، فلما دخل دار الملك وجده قد جلس وحده لئلا يبدر من ابن سمعون في حقه كلام بحضرة الناس يؤثر عنه ودخل الحاجب بين يديه يستأذن له عليه ودخل ابن سمعون وراءه ثم استفتح القراءة بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ الآية [٣] ثم التفت بوجهه نحو دار عزالدولة ثم قرأ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [٤] ثم أخذ في مخاطبة الملك ووعظه فبكى عضد الدولة بكاء كثيرا وجزاه خيرا فلما خرج من عنده قال للحاجب : اذهب فخذ ثلاثة آلاف درهم وعشرة أثواب وادفعها له فإن قبلها جئني برأسه، قال الحاجب، فجئته فقلت : هذا أرسل به الملك إليك، فقال : لا حاجة لي به هذه ثيابي من عهد أبي منذ أربعين سنة كلما خرجت إلى الناس لبستها فإذا رجعت طويتها، ولي دار آكل من أجرتها تركها لي أبي فأنا في غنية عما أرسل به الملك فقلت : فرقها في فقراء أهلك فقال فقراء أهله أحق بها من فقراء أهلي وأفقر إليها منهم فرجعت إلى الملك لأشاوره وأخبره بما قال فسكت ساعة ثم قال الحمد لله الذي سلمه منا وسلمنا منه [٥].

ثم إن عضد الدولة أخذ محمد بن محمد ابن بقية الوزير لعز الدولة سنة ٣٦٦ هـ بحجة أنه كان سبباً في الاقتتال بينه وبين أخيه، فأمر به فوضع بين قوائم الفيلة فتخبطته

---

(١) وهذا يدل على موقف الشيعة السيء من الصحابة، ورد الفعل الجاهل من العامة من أهل السنة الذين غلوا في الصحابة مخالفة للشيعة، وكلا الأمرين بدعة وضلال والله المستعان .

(٢) توفي سنة ٣٨٧ هـ . انظر طبقات الحنابلة ٢ / ١٥٥ - ١٦٢ .

(٣) سورة هود، الآية : ١٠٢ .

(٤) سورة يونس، الآية ١٤ .

(٥) انظر طبقات الحنابلة ٢ / ١٥٩ .

بأرجلها حتى هلك، ثم صلب على رأس الجسر في شوال منها فرثاه أبو الحسين بن الأنباري بأبيات يقول فيها :

علو في الحياة وفي الممـــــات ... بحق أنت إحدى المعجـــزات
كأن الناس حولك حين قامــوا ... وفود نداك أيام الصـــــلات
كأنك واقف فيهـــم خطيـــبا ... وكلهم وقوف للصــــــلاة
مددت يديك نحوهـــم احتفـاء ... كمدهما إليهم بالهبـــــات

وهي قصيدة طويلة(١).

وكان المعز الفاطمي يعتمد في حكمه على حركات النجوم قال له منجمه مرة : إن عليك قطعاً أي خوفاً في هذه السنة فتوار عن وجه الأرض حتى تنقضي هذه المدة فعمل له سرداباً وأحضر الأمراء وأوصاهم بولده نزار ولقبه العزيز، وفوض إليه الأمر حتى يعود، فبايعوه على ذلك ودخل المعز ذلك السرداب فتوارى فيه سنة٣٦٥ هـ، فكانت المغاربة إذا رأوا سحاباً ترجل الفارس منهم له عن فرسه وأومأ إليه بالسلام، ظانين أن المعز ذلك الغمام.(٢)

بخلاف الأندلس فإن الأمويين الذين كانوا على السُنَّة يقبلون نصح العلماء وتلين قلوبهم لذلك، فهاهو الناصر لدين الله عبد الرحمن الأموي وقد فرغ من بناء المدينة الزهراء وقصورها بالأندلس، وقد بُني له قصر عظيم منيف، وقد زخرف بأنواع الدهانات وكسى الستور، وجلس عنده رؤوس دولته وأمراؤه، فجاء قاضي القضاة منذر البلوطي المتوفى سنة ٣٦٦ هـ ـ رحمه الله ـ فجلس إلى جانبه، وجعل الحاضرون يثنون على ذلك البناء ويمدحونه والقاضي ساكت لا يتكلم، فالتفت إليه الملك وقال: ما تقول أنت يا أبا الحكم. فبكى القاضي وانحدرت دموعه على لحيته وقال: ما كنت أظن أن الشيطان أخزاه الله يبلغ منك هذا المبلغ المفضح المهلك لصاحبه في الدنيا والآخرة، ولا أنك تمكنه من قيادك مع ما آتاك

---

(١) انظر النجوم الزاهرة ٤ / ١٣٠ ـ ١٣١، و وفيات الأعيان ٥ /١١٨ ـ١٢٤ .

(٢) انظر الكامل في التاريخ ٧ / ٧٢ ـ ٧٤ .

الله وفضلك به على كثير من الناس، حتى أنزلك منازل الكافرين والفاسقين، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ وَزُخْرُفاً ﴾ (١) الآية قال فوجم الملك عند ذلك وبكى وقال جزاك الله خيرا وأكثر في المسلمين مثلك (٢)

فقد كان ملوك الأندلس في تلك الفترة أحسن حالاً وأكثر التزاماً، بأحكام الدين وتقديراً لعلماء الشريعة من غيرهم من الملوك والولاة والوزراء في بقية بلدان المسلمين ـ خاصة بغداد والشام ومصر ـ ومما يؤيد ذلك، أنه لما قحطت أرض الأندلس كتب الملك ناصر الدين الأموي للقاضي منذر البلوطي قاضي قضاة الأندلس أن يستسقي للناس، فلما جاءته الرسالة مع البريد قال، للرسول كيف تركت الملك فقال تركته أخشع ما يكون وأكثره دعاء وتضرعا فقال: القاضي سقيتم والله، إذا خشع جبار الأرض رحم جبار السماء. ثم قال لغلامه: ناد في الناس الصلاة. فجاء الناس إلى محل الاستسقاء وجاء القاضي منذر، فصعد المنبر والناس ينظرون إليه ويسمعون ما يقول فلما أقبل عليهم كان أول ما خاطبهم به قال: سلام عليكم ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، ثم أعادها مرارا فأخذ الناس في البكاء والنحيب والتوبة والانابة فلم يزالوا كذلك حتى سقوا ورجعوا يخوضون الماء. (٣)

---

(١) سورة الزخرف، من الآية: ٣٣ ـ ٣٥ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١١ /٢٨٨ ـ ٢٨٩، وسير أعلام النبلاء ١٦ /١٧٧ .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ١٦ /١٧٦ ،البداية والنهاية ١١ /٢٨٩ .

الفصل الثاني : الأحوال الاجتماعية :

اضطربت الحالة الاجتماعية رد فعل للحياة السياسية والاقتصادية السائدة، وتناقضت الحياة، ونشأت الطبقية في المجتمع.

وهذه الطبقية البغيضة أدت إلى طمع الناس بعضهم في بعض فنشأ الحقد والكراهية والغش والسرقة والنهب، وكثر العيارون واقتحموا بيوت الناس نهاراً، وسرقوا ونهبوا وقتلوا ، وانتشر قطع الطريق على الحجيج وغيرهم، كما كثرت الفتن والقلاقل بين الطوائف والقبائل، بل كثيراً ما نشبت المعارك بينها . بل زاد الأمر سوأً حتى شمل الطوائف فيما بينها، وانتشرت بدع كثيرة منها النياحة في العزاء والسحر والشعبذة (١).

ولعل من أهم أسباب ذلك : كثرة الضرائب وتنوعها، ومصادرة الأموال من قبل الولاة من كل من يبغضون، وأهم من ذلك كله التقصير في تمثل أحكام الإسلام، واتباع المنهج الصحيح وتحكيمه، والانحراف العقدي، والانقسامات الطائفية التي سببت الفرقة والاختلاف، كل ذلك أسباب في عدم استقرار الحياة الاجتماعية والسياسية أيضاً، كما كان للكوارث الكونية التي كانت تنزل بالمجتمع أثر في ذلك .

ومن أهم ما جرى على الساحة الاجتماعية ما يأتي :

أولاً : الصراع بين الطوائف وظهور البدع :

كان الصراع بين الطواف في هذه الفترة على أشده خاصة بين السنة والشيعة، فوقعت فتن متعددة وقتال ضار، تؤججه البدع المنكرة مع الجهل والتعصب الأعمى، حتى وصل الأمر إلى المساجد، فضرب الخطباء وقتل الخلق ونهبت الدور، وانصرف الناس عن الجهاد في سبيل الله ومجابهة النصارى وكل أعداء الإسلام، ومن أهم أمثلة ذلك :

---

(١) انظر البداية والنهاية ١١/ ٢٧٥، ٢٨٣ .

في سنة ٣٦٢ هـ مولد القاضي عبد الوهاب، عملت الشيعة بدعتها وأحرق الكرخ ببغداد كما تقدم .

وفي عاشوراء سنة ٣٦٣ هـ عملت الرافضة بدعتها الشنعاء، ووقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والرافضة، وكلا الفريقين قليل عقل أو عديمه بعيد عن السداد، وذلك أن جماعة من أهل السنة أركبوا امرأة وسموها عائشة، وتسمى بعضهم بطلحة وبعضهم بالزبير، وقالوا: نقاتل أصحاب علي، فقتل بسبب ذلك من الفريقين خلق كثير، وعاث العيارون في البلد فساداً، ونهبت الأموال، ثم أخذ جماعة منهم فقتلوا وصلبوا فسكنت الفتنة (١).

وفيها وقعت الفتنة بالبصرة بين الديالم والأتراك فقويت الديالم على الترك، بسبب أن الملك فيهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وحبسوا رؤسهم ونهبوا كثيراً من أموالهم، وكتب عز الدولة إلى أهله : إني سأكتب إليكم أني قدمت فإذا وصل إليكم الكتاب فاظهروا النوح واجلسوا للعزاء، فإذا جاء سبكتكين للعزاء فاقبضوا عليه فإنه ركن الأتراك ورأسهم، فلما جاء الكتاب إلى بغداد بذلك، أظهروا النوح وجلسوا للعزاء، ففهم سبكتكين أن هذه مكيدة فلم يقربهم، وتحقق من عداوة عز الدولة، وركب من فوره في الأتراك فحاصر دار عز الدولة يومين ثم أنزل أهله منها ونهب ما فيها، وأحدرهم إلى دجلة وإلى واسط منفيين، وكان قد عزم على إرسال الخليفة المطيع معهم، فتوسل إليه الخليفة فعفا عنه وأقره بداره، وقويت شوكة سبكتكين والأتراك ببغداد ،ونهبت الأتراك دور الديالم وخلع سبكتكين على رؤس العامة لأنهم كانوا معه على الديلم، وقويت السنة على الشيعة، وأحرقوا الكرخ لأنه محل الرافضة حريقاً ثانياً، وظهرت السنة على يدي الأتراك (٢).

وفي محرم سنة ٣٨٦ هـ كشف أهل البصرة عن قبر عتيق فإذا هم بميت طري عليه ثيابه وسيفه، فظنوه الزبير بن العوام فأخرجوه وكفنوه ودفنوه، واتخذوا عند قبره مسجداً، ووقف عليه أوقاف كثيرة وجعل عنده خدام وقوام وفرش وتنوير(٣).

---

(١) انظر البداية والنهاية ١١ / ٢٧٥.

(٢) انظر البداية والنهاية ١١ / ٢٧٥، والمنتظم ٧ / ٦٨ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١١ / ٣١٩، والمنتظم ٧ / ١٨٧ .

وفي سنة ٣٨٩ هـ أرادت الشيعة أن يصنعوا ما كانوا يصنعونه من الزينة يوم غدير خم، وهو اليوم الثامن عشر من ذي الحجة فيما يزعمونه، فقاتلهم جهلة آخرون من المنتسبين إلى السنة، فادعوا أن في مثل هذا اليوم حصر النبي - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر في الغار فامتنعوا من ذلك، وهذا أيضا جهل من هؤلاء، فإن هذا إنما كان أوائل ربيع الأول من أول سنى الهجرة فإنهما أقاما فيه ثلاثاً وحين خرجا منه قصدا المدينة فدخلاها بعد ثمانية أيام أو نحوها، وكان دخولهما المدينة في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول وهذا أمر معلوم مقرر ومحرر .

ولما كانت الشيعة يصنعون في يوم عاشوراء مأتماً يظهرون فيه الحزن على الحسين، قابلتهم طائفة أخرى من جهلة أهل السنة فادعوا أن في الثاني عشر من المحرم قتل مصعب بن الزبير، فعملوا له مأتماً كما تعمل الشيعة للحسين، وزاروا قبره كما زاروا قبر الحسين، وهذا من باب مقابلة البدعة ببدعة مثلها، ولا يرفع البدعة إلا السنة الصحيحة.(١)

وفي عاشر رجب سنة ٣٩٨ هـ جرت فتنة بين السنة والرافضة سببها أن بعض الهاشميين قصد أبا عبد الله محمد بن النعمان المعروف بابن المعلم، وكان فقيه الشيعة في مسجده بدرب رباح، فعرض له بالسب، فثار أصحابه له واستنفر أصحاب الكرخ وصاروا إلى دار القاضي أبي محمد الأكفاني والشيخ أبي حامد الاسفراييني وجرت فتنة عظيمة، وأحضرت الشيعة مصحفاً ذكروا أنه مصحف عبد الله بن مسعود وهو مخالف للمصاحف كلها، فجمع الأشراف والقضاة والفقهاء في يوم الجمعة لليلة بقيت من رجب وعرض المصحف عليهم، فأشار الشيخ أبو حامد الاسفراييني والفقهاء بتحريقه ففعل ذلك بمحضر منهم فغضب الشيعة من ذلك غضباً شديداً، وجعلوا يدعون ليلة النصف من شعبان - ليلة البراءة عندهم - على من فعل ذلك ويسبونه، وقصد جماعة من أحداثهم دار الشيخ أبي حامد ليؤذوه، فانتقل منها إلى دار القطن وصاحوا يا حاكم يا منصور وبلغ ذلك الخليفة

---

(١) انظر المنتظم ٧/٢٠٦، البداية والنهاية ١١/٣٢٥-٣٢٦.

فغضب وبعث أعوانه لنصرة أهل السنة، فحرقت دور كثيرة من دور الشيعة، وجرت خطوب شديدة، وبعث عميد الجيوش إلى بغداد لينفي عنها ابن المعلم، فاخرج منها، ثم شفع فيه، ومنعت القصاص من التعرض للذكر والسؤال باسم الشيخين وعلي رضي الله عنهم وعاد الشيخ أبو حامد إلى داره على عادته (١).

وفي سنة(٤٠٠ هـ)ورد الخبر بأن الحاكم أنفذ إلى دار جعفر بن محمد الصادق بالمدينة، فاخذ منها مصحفاً وآلات كانت بها، وهذه الدار لم تفتح بعد موت صاحبها إلى ذلك الوقت - كما قيل - وكان مع المصحف قعب خشب مطوق بحديد ودرقة خيزران وحربة وسرير ، حمل ذلك كله جماعة من العلويين إلى الديار المصرية، فاطلق لهم الحاكم أنعاما كثيرة ونفقات زائدة ورد السرير وأخذ الباقي وقال أنا أحق به فردوا وهم داعون عليه (٢).

وفي ذي الحجة من سنة٤٠٣ هـ أعيد المؤيد هشام بن الحكم بن عبدالرحمن الأموي إلى ملكه بعد خلعه وحبسه مدة طويلة، وكانت الخطبة بالحرمين للحاكم صاحب مصر والشام (٣).

في المحرم من سنة ٤٠٢ هـ أذن فخر الملك الوزير للروافض أن يعملوا بدعتهم الشنعاء والفضيحة الصلعاء من الانتحاب والنوح والبكاء وتعليق المسوح، وأن تغلق الأسواق من الصباح إلى المساء، وأن تدور النساء حاسرات عن وجوههن ورؤسهن يلطمن خدودهم كفعل الجاهلية الجهلاء على الحسين، قال ابن كثير - رحمه الله - : «فلا جزاه الله خيرا وسود الله وجهه يوم الجزاء إنه سميع الدعاء» (٤).

وفي سنة ٤٠٢ هـ عملت الشيعة بدعتهم التي كانوا يعملونها يوم غدير خم، وزينت الحوانيت، وتمكنوا بسبب الوزير وكثير من الأتراك تمكناً كثيراً(٥).

---

(١) انظر المنتظم ٧/٢٣٧، والبداية والنهاية ١١/٣٣٨-٣٣٩ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١١/٣٤٢ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١١/٣٤٢ .

(٤) البداية والنهاية ١١/٣٤٥ .

(٥) انظر البداية والنهاية ١١/٣٤٦-٣٤٧، والمنتظم ٧/٢٥٦-٢٥٧ .

وفي ربيع الآخر من سنة ٤٠٢ هـ كتب العلماء والفقهاء ببغداد محاضر تتضمن الطعن والقدح في نسب الفاطميين ملوك مصر، وأنهم ليسوا كذلك كما سبق .

قال ابن كثير : «ومما يدل على أن هؤلاء أدعياء كذبة كما ذكر هؤلاء السادة العلماء والأئمة الفضلاء وأنهم لا نسب لهم إلى علي بن أبي طالب ولا إلى فاطمة كما يزعمون قول ابن عمر للحسين بن علي حين أراد الذهاب إلي العراق وذلك حين كتب عوام أهل الكوفة بالبيعة إليه فقال له ابن عمر: لا تذهب إليهم فإني أخاف عليك أن تقتل، وإن جدك قد خير بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا، وأنت بضعة منه، وإنه والله لا تنالها لا انت ولا أحد من خلفك ولا من أهل بيتك. فهذا الكلام الحسن الصحيح المتوجه المعقول من هذا الصحابي الجليل يقتضي أنه لا يلي الخلافة أحد من أهل البيت إلا محمد بن عبد الله المهدي الذي يكون في آخر الزمان عند نزول عيسى بن مريم رغبة بهم عن الدنيا وأن لا يدنسوا بها ومعلوم أن هؤلاء قد ملكوا ديار مصر مدة طويلة فدل ذلك دلالة قوية ظاهرة على أنهم ليسوا من أهل البيت كما نص عليه سادة الفقهاء» (١).

وقد صنف القاضي الباقلاني شيخ القاضي عبد الوهاب البغدادي كتابا في الرد على هؤلاء وسماه «كشف الأسرار وهتك الأستار» بين فيه فضائحهم وقبائحهم، ووضح أمرهم لكل أحد، ووضوح أمرهم ينبئ عن مطاوي أفعالهم وأقوالهم، وقد كان الباقلاني يقول في عبارته عنهم : هم قوم يظهرون الرفض ويبطنون الكفر المحض والله سبحانه أعلم (٢).

وفي سنة ٤٠٤ هـ وقع ببغداد بين الشيعة والسنة فتن عظمى واشتد البلاء واستضرت عليهم السنة وقتل جماعة، واستتاب القادر بالله فقهاء المعتزلة فتبرؤا من الاعتزال والرفض وأخذت خطوطهم بذلك، وقد كان للقاضي عبد الوهاب البغدادي مناقشات وردود كما في شرحه لرسالة ابن أبي زيد وغيره، وقتل الدرزي الذي ادعى ربوبية الحاكم، وامتثل ابن

(١) البداية والنهاية ١١/٣٤٦ .
(٢) انظر المنتظم ٧/ ٢٦٠-٢٦٣.

سبكتكين أمر القادر فبث السنة بممالكه وتهدد بقتل الرافضة والإسماعيلية والقرامطة والمشبهة والجهمية والمعتزلة ولعنوا على المنابر (١).

وفي سنة ٤٠٤ هـ عاثت بنو خفاجة ببلاد الكوفة فبرز إليهم نائبها أبو الحسن بن مزيد فقتل منهم خلقاً وأسر جماعة من رؤسهم وانهزم الباقون فأرسل الله عليهم ريحاً حارة فأهلك منهم خمسمائة إنسان(٢).

وفي يوم الثلاثاء مستهل المحرم من سنة ٤٠٦ هـ وقعت فتنة بين أهل السنة والروافض ثم سكن الفتنة الوزير فخر الملك على أن تعمل الروافض بدعتهم يوم عاشرواء من تعليق المسوح والنوح(٣).

وفي سنة ٤٠٧ هـ قتلت الشيعة الذين ببلاد إفريقية ونهبت أموالهم ولم يترك منهم إلا من لا يعرف(٤).

وفي سنة ٤٠٨ هـ قدم سلطان الدولة إلى بغداد، وضرب الطبل في أوقات الصلوات، ولم تجر بذلك عادة، ووقعت فتنة عظيمة بين أهل السنة والروافض ببغداد، قتل فيها خلق كثير من الفريقين (٥).

وفي سنة ٤١٣ هـ جرت كائنة غريبة عظيمة ومصيبة عامة وهي أن رجلا من المصريين من أصحاب الحاكم اتفق مع جماعة من الحجاج المصريين على أمر سوء وذلك أنه لما كان يوم النفر الأول طاف هذا الرجل بالبيت فلما انتهى إلى الحجر الأسود جاء ليقبله فضربه بدبوس كان معه، ثلاث ضربات متواليات ، وقال إلى متى نعبد هذا الحجر ولا محمد ولا علي يمنعني مما أفعله فإني أهدم اليوم هذا البيت، وجعل يرتعد فاتقاه أكثر الحاضرين وتأخروا عنه وذلك

---

(١) انظر المنتظم ٧/٢٨٣، ٢٨٧ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١١/٣٥٢ .

(٣) انظر المنتظم ٧/٢٧٦، والبداية والنهاية ١٢/٢ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٢/٥، والمنتظم ٧/٢٨٣ .

(٥) انظر المنتظم ٧/٢٨٧، والبداية والنهاية ١٢/٦ .

لأنه كان رجلاً طوالاً جسماً أحمر اللون أشقر الشعر، وعلى باب الجامع جماعة من الفرسان وقوف ليمنعوه ممن يريد منعه من هذا الفعل، فتقدم إليه رجل من أهل اليمن معه خنجر فوجاه بها، وتكاثر الناس عليه فقتلوه وقطعوه قطعاً وحرقوه بالنار، وتتبعوا أصحابه فقتلوا منهم جماعة، ونهبت أهل مكة الركب المصري وتعدى النهب إلى غيرهم وجرت خبطة عظيمة وفتنة كبيرة جدا ثم سكن الحال بعد أن تتبع أولئك النفر الذين تمالؤا على الإلحاد في أشرف البلاد، غير انه قد سقط من الحجر ثلاث فلق مثل الأظفار، فأخذ بنو شيبة تلك الفلق فعجنوها بالمسك واللك وحشوا بها الشقوق التي بدت فاستمسك الحجر(١).

و في العشرين من محرم سنة ٤١٧ هـ وقعت فتنة بين الإسفهلارية وبين العيارين وركبت لهم الأتراك بالدبابات كما يفعل في الحرب، وأحرقت دور كثيرة من الدور التي احتمى فيها العيارون وأحرق من الكرخ جانب كبير، ونهب أهله وتعدى بالنهب إلى غيرهم وقامت فتنة عظيمة ثم خمدت الفتنة في اليوم الثاني، وقرر على أهل الكرخ مائة ألف دينار مصادرة لإثارتهم الفتن والشرور(٢).

وفي يوم السبت ثالث رمضان من سنة ٤١٨ هـ دخل جلال الدولة إلى بغداد فتلقاه الخليفة ومعه الأكابر والأمراء ثم سار إلى دار الملك وعاد الخليفة إلى داره وأمر جلال الدولة أن يضرب له الطبل في أوقات الصلوات الثلاث كما كان الأمر في زمن عضد الدولة وصمصامها وشرفها وبهائها، وكان الخليفة يضرب له الطبل في أوقات الخمس، ثم صمم جلال الدولة على ذلك في أوقات الخمس(٣).

وفي سنة ٤١٨ هـ سألت الإسفهلارية الغلمان الخليفة أن يعزل عنهم أبا كاليجار لتهاونه بأمرهم، ويولي عليهم جلال الدولة فما طلهم في ذلك، وألح أولئك على الخليفة في تولية جلال الدولة، وأقاموا له الخطبة ببغداد، وتفاقم الحال وفسد النظام(٤).

---

(١) البداية والنهاية ١٢/١٣-١٤، والمنتظم ٨/ ٨-٩ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٢/ ٢٠، والمنتظم ٨/ ٢٤ .

(٣) النظر البداية والنهاية ١٢/ ٢٢-٢٣، والمنتظم ٨/ ٢٨-٣١ .

(٤) النظر البداية والنهاية ١٢/ ٢٢-٢٣، والمنتظم ٨/ ٢٨-٣١ .

وفي سنة ٤٢٠ هـ ورد كتاب محمود ابن سبكتكين أنه أحل بطائفة من أهل الري من الباطنية والروافض قتلاً وصلباً وأنه انتهب أموال رئيسهم رستم بن علي الديلمي فحصل منها ما يقارب ألف ألف دينار، وكان في حيازته نحواً من خمسين امرأة حرة ولدن له ثلاثا وثلاثين ولداً بين ذكر وأنثى ،وكانوا يرون إباحة ذلك(١).

وفي سنة ٤٢٠ هـ جرت فتنة بمسجد براثا وضربوا الخطيب السني بالآجر حتى كسروا أنفه وخلعوا كتفه، فانتصر لهم الخليفة وأهان الشيعة وأذلهم حتى جاؤا يعتذرون مما صنعوا وأن ذلك إنما تعاطاه السفهاء منهم (٢).

وفي سنة ٤٢١ هـ وقعت فتنة بين الأتراك النازلين بباب البصرة وبين الهاشميين فرفعوا المصاحف ورمتهم الأتراك بالنشاب وجرت خطبة عظيمة ثم أصلح بين الفريقين (٣)

وفي سنة ٤٢١ هـ عملت الرافضة بدعتهم في يوم عاشوراء فاقبل أهل السنة إليهم في الحديد فاقتتلوا قتالا شديدا فقتل من الفريقين طوائف كثيرة وجرت بينهم فتن وشرور مستطيرة .(٤)

وفي سنة ٤٢٢ هـ - سنة وفاة القاضي عبد الوهاب - وقعت فتنة عظيمة بين السنة والروافض، فقويت عليهم السنة وقتلوا خلقاً منهم ونهبوا الكرخ ودار الشريف المرتضى، ونهبت العامة دور اليهود لأنهم نسبوا إلى معاونة الروافض وتعدى النهب إلى دور كثيرة وانتشرت الفتنة جداً ثم سكنت بعد ذلك.

وهذه الأمور المشغلة والفتن العظيمة والبدع والضلالات، كان لها أثر في انكباب القاضي عبد الوهاب البغدادي على العلم و الاستنارة بنوره والاهتداء بهدي النبي - صلى الله عليه وسلم - حين ضل عنه كثير من الناس، ومناقشة أهل البدع في كثير من ضلالاتهم كما سيأتي، والله أعلم .

---

(١) انظر المنتظم ٨/٢٤.

(٢) انظر البداية والنهاية ١٢/٢٦ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١٢/٢٧-٢٩، والمنتظم ٨/٥٠-٥١ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٢/٢٧-٢٩، والمنتظم ٨/٥٠-٥١ .

ثانياً : التعامل مع أهل الكتاب في هذه الفترة :

كان للنصارى في بلاد الإسلام في هذه الفترة وجود في المجتمع الإسلامي - في بغداد والشام ومصر وغيرها - وكانت كنائسهم قائمة وكانوا يظهرون بدعهم في بعض الأوقات فيتصدى لهم عامة المسلمين وتحدث فتن كبيرة وقتال، ونهب للدور .

وكان بعض حكام الدويلات - وخاصة مصر - مرة يهدم كنائسهم ومرة يبنيها، ومرة يلزمهم بالدخول في الإسلام ومرة يسمح لهم بالردة .

لكن مع ذلك لم تقم لهم قائمة في بلاد الإسلام مثل بعض العصور وخاصة المتأخرة ومن أهم الأمثلة على ذلك :

في ربيع الأول سنة ٣٩٢ هـ ثارت العوام على النصارى ببغداد، فنهبوا كنيستهم التي بقطيعة الدقيق وأحرقوها فسقطت على خلق فماتوا وفيهم جماعة من المسلمين رجال ونساء وصبيان.(١)

وفي سنة ٣٩٨ هـ أمر الحاكم بتخريب قمامة وهي كنيسة النصاري ببيت المقدس، وأباح للعامة ما فيها من الأموال والأمتعة وغير ذلك، وكان سبب ذلك، البهتان الذي يتعاطاه النصارى في يوم الفصح من النار التي يحتالون بها، وهي التي يوهمون جهلتهم أنها نزلت من السماء، وإنما هي مصنوعة بدهن البلسان في خيوط الابريسم والرقاع المدهونة بالكبريت وغيره بالصنعة اللطيفة التي تروج على الطغام منهم والعوام .

وكذلك هدم في هذه السنة عدة كنائس ببلاد مصر ونودي في النصارى من أحب الدخول في دين الإسلام دخل ومن لا يدخل فليرجع إلى بلاد الروم آمناً ومن أقام منهم على دينه فليلتزم بما شرط عليهم من الشروط التي زادها الحاكم على العمرية، من تعليق الصلبان على صدورهم، وأن يكون الصليب من خشب زنته أربعة أرطال، وعلى اليهود تعليق رأس العجل زنته ستة أرطال، وفي الحمام يكون في عنق الواحد منهم قربة زنة خمس أرطال

بأجراس، وأن لا يركبوا خيلا ثم بعد هذا كله أمر بإعادة بناء الكنائس التي هدمها، وأذن لمن أسلم منهم في الارتداد إلى دينه، وقال ننزه مساجدنا أن يدخلها من لا نية له ولا يعرف باطنه - قبحه الله[١] وفي شوال من سنة ٤٠٣ هـ توفيت زوجة بعض رؤساء النصارى فخرجت النوائح والصلبان معها جهاراً، فأنكر ذلك بعض الهاشميين فضربه بعض غلمان ذلك الرئيس النصراني بدبوس في رأسه فشجه، فثار المسلمون بهم فانهزموا حتى لجأوا إلى كنيسة لهم هناك، فدخلت العامة إليها فنهبوا ما فيها وما قرب منها من دور النصارى وتتبعوا النصارى في البلد، وقصدوا الناصح وابن أبي إسرائيل فقاتلهم غلمانهم وانتشرت الفتنة ببغداد، ورفع المسلمون المصاحف في الأسواق وعطلت الجمع في بعض الأيام، واستعانوا بالخليفة فأمر بإحضار ابن أبي إسرائيل فامتنع فعزم الخليفة على الخروج من بغداد، وقويت الفتنة جدا ونهبت دور كثير من النصارى ثم احضر ابن أبي إسرائيل فبذل أموالاً جزيلة فعفى عنه وسكنت الفتنة[٢].

ثالثا : قطع طرق الحجاج وسلب أموالهم :

من آثار ضعف الخلافة، وتناحر الدويلات المهيمنة وانشغالها بذلك، والفوضى والطائفية والاستبداد بالمال، وعدم الاهتمام بالحج : قطعت طرقه وسلب أهله في أكثر السنوات وخرجت لهم عصابات الأعراب، فكان لكثير من الناس متعسراً بل متعذراً في كثير من سنوات هذه الفترة، ومن أمثلة ذلك :

في سنة ٣٦٣ هـ خرج طائفة من بني هلال وطائفة من العرب على الحجاج، فقتلوا خلقاً كثيراً وعطلوا على من بقي منهم الحج، وحج بالناس فيها الشريف أبو أحمد الموسوي، ولم يحصل لأحد حج في هذه السنة سوى من كان معه على درب العراق، وقد أخذ بالناس على طريق المدينة فتم حجهم. [٣]

---

(١) انظر المنتظم ٧/ ٢٣٩ - ٢٤٠، والبداية والنهاية ١١/ ٣٣٩ .

(٢) انظر المنتظم ٧/ ٢٦٠-٢٦٣ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١١/ ٢٧٧ .

وحج بالناس في سنة٣٦٧ هـ نائب المصريين. ولما دخل مكة اجتمع إليه اللصوص وسألوا منه أن يضمنهم الموسم هذا العام بما شاء من الاموال. فاظهر لهم الاجابة وقال لهم اجتمعوا كلكم حتى أضمنكم كلكم، فاجتمع عنده بضع وثلاثون حرامياً فقال هل بقي منكم أحد فحلفوا له إنه لم يبق منهم أحد، فأخذ بالقبض عليهم وبقطع أيديهم.(١)

وفي سنة ٣٨٠ هـ رجع ركب العراق من الطريق بعد ما فاتهم الحج، لأن الأصيفر الأعرابي الذي قد تكفل بحراستهم اعترض لهم في الطريق بزعم أن الدنانير التي أقطعت له من دار الخلافة كانت دراهم مطلية، و يريد من الحجيج بدلها، وإلا لا يدعهم يتجاوزوا، فمانعوه وراجعوه فحبسهم عن السير حتى ضاق الوقت ولم يبق ما يدركوا فيه الحج فرجعوا ولم يحج منهم أحد، وكذلك ركب الشام وأهل اليمن، وإنما حج أهل مصر والمغرب خاصة.(٢)

ولم يحج في سنة ٣٨٥ هـ والتي بعدها من العراق أحد، وكانت الخطبة في الحرمين للفاطميين (٣).

وحج بالناس في سنة ٣٨٨ هـ أمير المصريين وكانت الخطبة بالحرمين للحاكم العبيدي(٤).

وفي شهر ذي القعدة من سنة ٣٩٢ هـ قدم الحجاج من خرا سان إلى بغداد ليسيروا إلى الحجاز، فبلغهم عبث الأعراب في الأرض بالفساد وأنه لا ناصر لهم ولا ناظر في أمرهم فرجعوا إلى بلادهم ولم يحج من بلاد المشرق أحد في هذه السنة، وحج المصريون فيها بالناس.(٥)

وفي سنة ٣٩٨ هـ حج بركب العراق الشريفان الرضي والمرتضي فاعتقلهما أمير الأعراب ابن الجراح فافتديا أنفسهما منه بتسعة آلاف دينار من أموالهما فاطلقهما.(٦)

(١) انظر البداية والنهاية ١١/ ٢٩١ .

(٢) انظر تاريخ الخلفاء ٢/ ٤١٢، والبداية والنهاية ١١/ ٣١٣ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١١/ ٣١٤.

(٤) انظر البداية والنهاية ١١/ ٣٢٤، والمنتظم ٧/ ٢٠٢ .

(٥) انظر المنتظم ٧/ ٢١٩، والبداية والنهاية ١١/ ٣٣٠ .

(٦) انظر المنتظم ٧/ ٢٠٦، البداية والنهاية ١١/ ٣٢٥-٣٢٦

وفي سنة ٣٩٤ هـ خرج الركب العراقي إلى الحجاز في جحفل عظيم كبير وتجمل كثير فاعترضهم الأصيفر أمير الأعراب فبعثوا إليه بشابين قارئين كانا معهم يقال لهما أبو الحسن الرفاء وأبو عبد الله بن الزجاجي ـ وكانا من أحسن الناس قراءة ـ ليكلماه في شيء يأخذه من الحجيج ويطلق سراحهم ليدركوا الحج، فلما جلسا بين يديه قرآ جميعاً عشراً بأصوات هائلة مطربة فادهشه ذلك وأعجبه جداً وقال لهما: كيف عيشكما ببغداد فقالا: بخير لا يزال الناس يكرموننا ويبعثون إلينا بالذهب والفضة والتحف، فقال لهما: هل أطلق لكما أحد منهم بألف ألف دينار في يوم واحد فقالا: لا ولا ألف درهم في يوم واحد، قال: فإني أطلق لكما ألف ألف دينار في هذه اللحظة أطلق لكما الحجيج كله ولولاكما لما قنعت منهم بالف ألف دينار فأطلق الحجيج، كله بسببهما فلم يتعرض أحد من الأعراب لهم وذهب الناس إلى الحج سالمون شاكرون لذينك الرجلين وكانت الحجة والخطبة للمصريين كما هي لهم، من سنين متقدمة وقد كان أمير العراق عزم على العود سريعاً إلى بغداد على طريقهم التي جاؤا منها وأن لا يسيروا إلى المدينة النبوية خوفا من الأعراب وكثرة الخفارات فشق ذلك على الناس فوقف الرجلان يقرآن على جادة الطريق التي منها، يعدل إلى المدينةالنبوية وقرآ ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (١) الآيات فضج الناس بالبكاء وأمالت النوق أعناقها نحوهما فمال الناس بأجمعهم والامير إلى المدينة النبوية فزاروا وعادوا سالمين إلى بلادهم، ولما رجع هذان القارئان رتبهما ولي الأمر مع أبي بكر بن البهلول وكان مقرئاً مجيداً أيضا ليصلوا بالناس صلاة التراويح في رمضان فكثر الجمع وراءهم لحسن تلاوتهم، وكانوا يطيلون الصلاة جداً ويتناوبون في الإمامة يقرؤون في كل ركعة بقدر ثلاثين آية والناس لا يصرفون من التراويح إلا في الثلث الأول من الليل أو قريب النصف منه وقد قرأ ابن البهلول يوماً في جامع المنصور قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾(٢) فنهض

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١٦.

إليه رجل صوفي وهو يتمايل فقال كيف قلت، فأعاد الآية فقال الصوفي: بلى والله وسقط ميتاً، قال ابن الجوزي وكذلك وقع لأبي الحسن بن الخشاب شيخ ابن الرفا وكان تلميذاً لأبي بكر بن الأدمي المتقدم ذكره وكان جيد القراءة حسن الصوت أيضاً قرأ ابن الخشاب هذا في جامع الرصافة في الأحياء هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ فتواجد رجل صوفي وقال: بلى والله قد آن وجلس وبكى بكاء طويلا ثم سكت سكتة فإذا هو ميت(١).

و في سنة ٣٩٧ هـ اعترض الحجاج ابن الجراح أمير الأعراب فأعاقهم عن الذهاب ففاتهم الحج فرجعوا إلى بلادهم، وكانت الخطبة بالحرمين للمصريين(٢).

و في سنة ٣٩٩ هـ اعترض الأعراب الحجاج فصدوهم عن السبيل واعتاقوهم حتى فاتهم الحج فرجعوا، وأخذت بنو هلال طائفة من حجاج البصرة نحوا من ٦٠٠ واحد وأخذوا منهم نحوا من ألف ألف دينار، وكانت الخطبة فيها للمصريين(٣).

وفي سنة ٤٠٢ هـ لم يتمكن ركب العراق وخرا سان من الحج لفساد الطريق وغيبة فخر الملك في إصلاح الأراضي (٤).

وفي سنة ٤٠٣ هـ جيء بأمير بني خفاجة أبو قلنبة قبحه الله وجماعة من رؤوس قومه أسارى، وكانوا قد اعترضوا للحجاج في السنة التي قبلها وهم راجعون، وغوروا المناهل التي يردها الحجاج ،ووضعوا فيها الحنظل فمات من الحجاج من العطش نحو خمسة عشر ألفاً وأخذوا بقيتهم فجعلوهم رعاة لدوابهم في أسوأ حال، وأخذوا جميع ما كان معهم، فحين حضروا عند دار الوزير سجنهم ومنعهم الماء ثم صلبهم، يرون صفاء الماء ولا يقدرون على شيء منه، حتى ماتوا عطشاً جزاء وفاقاً، ثم بعث إلى أولئك الذين اعتقلوا في بلاد بني

---

(١) المنتظم ٧/٢٢٨ .

(٢) انظر المنتظم ٧/٢٣٤، والبداية والنهاية ١١/٣٣٧ .

(٣) انظر المنتظم ٧/٢٤٣ - ٢٤٤، والبداية والنهاية ١١/٣٤١ .

(٤) انظر المنتظم ٧/٢٦٠-٢٦٣ .

خفاجة من الحجاج فجيء بهم وقد تزوجت نساؤهم وقسمت أموالهم، فردوا إلى أهاليهم وأموالهم. (١)

وفي سنة ٤٠٦ هـ ورد الخبر عن الحجاج بأنه هلك منهم بسبب العطش أربعة عشر ألفاً وسلم ستة آلاف، وأنهم شربوا بول الإبل من العطش، ولم يحج فيها من العراق ركب، لفساد البلاد من الأعراب. (٢)

و في سنة ٤٠٨ هـ لم يحج أحد من أهل العراق لفساد البلاد وعيث الأعراب وضعف الدولة. (٣)

وفي سنة ٤١٢ هـ قالت جماعة من العلماء والمسلمين للملك الكبير يمين الدولة محمود بن سبكتكين أنت أكبر ملوك الأرض وفي كل سنة تفتح طائفة من بلاد الكفر وهذه طريق الحج قد تعطلت من مدة ستين وفتحك لها أوجب من غيرها. فتقدم إلى قاضي القضاة أبي محمد الناصحي أن يكون أمير الحج في هذه السنة وبعث معه بثلاثين ألف دينار للأعراب غير ما جهز من الصدقات، فسار الناس بصحبته فلما كانوا في الطريق اعترضهم الأعراب فصالحهم القاضي بخمسة آلاف دينار فامتنعوا وصمم كبيرهم وهو جماز بن عدي على أخذ الحجيج، وركب فرسه وجال جولة واستنهض شياطين العرب، فتقدم إليه غلام من سمرقند فرماه بسهم فوصل إلى قلبه فسقط ميتاً، وانهزمت الأعراب وسلك الناس الطريق فحجوا ورجعوا سالمين. (٤)

و في سنة ٤١٧ هـ لم يحج أحد من أهل العراق وخرا سان في هذه السنة لفساد البلاد وضعف الدولة. (٥)

---

(١) انظر البداية والنهاية ١١/٣٤٧-٣٤٨.

(٢) انظر المنتظم ٧/٢٧٦، والبداية والنهاية ١٢/٢.

(٣) انظر المنتظم ٧/٢٨٧، والبداية والنهاية ١٢/٦.

(٤) انظر البداية والنهاية ١٢/١١، والمنتظم ٨/٢.

(٥) انظر المنتظم ٨/٢٣-٢٤، والبداية والنهاية ١٢/٢٠.

وفي سنة ٤٢١ هـ تعطل الحج أيضا سوى شرذمة من أهل العراق ركبوا من جمال البادية مع الأعراب ففازوا بالحج.(١)

رابعاً : عظمُ البلاء بالعيارين وإفسادهم في الأرض :

لقد عظم البلاء بالعيارين : سرقوا الأموال وأحرقوا البلدان والدور والأسواق، بل ركبوا الخيل وأخذوا خفر الدولة من الأسواق والدور، وعظمت بهم المحنة، وسادوا، وزوروا، وفرقوا الناس وشتتوهم، وقتلوا الرجال والنساء والأطفال، فطلبتهم الشرط فلم يفد ذلك شيئاً، كل ذلك لضعف الدولة، وانشغال الملوك بالاقتتال والاستبداد بالأموال، وعدم الاهتمام بإقامة الشرع وتطبيق الحدود، وفساد الاعتقاد واختلاف المشارب، ومن الأمثلة على ذلك :

وفي سنة (٣٦٤ هـ)عظم البلاء بالعيارين ببغداد وأحرقوا سوق باب الشعير وأخذوا أموالاً كثيرة وركبوا الخيول، وتلقبوا بالقواد، وأخذوا الخفر من الأسواق والدور، وعظمت المحنة بهم جداً، واستفحل أمرهم حتى إن رجلا منهم أسود ـ كان مستضعفاً ـ نجم فيهم وكثر ماله حتى اشترى جارية بالف دينار، فلما حصلت عنده حاولها عن نفسها فأبت عليه فقال لها ماذا تكرهين مني قالت : أكرهك كلك، فقال : فما تحبين، فقالت : تبيعني، فقال : أو خير من ذلك، فحملها إلى القاضي فأعتقها وأعطاها ألف دينار وأطلقها فتعجب الناس من حلمه وكرمه مع فسقه وقوته . (٢)

وفي سنة ٣٧١ هـ مات قوي الخط علي بن محمد الأحدب المزور، كان له ملكة على التزوير لا يشاء يكتب على أحد كتابة إلا فعل، فلا يشك ذلك المزور عليه أنه خطه، وحصل للناس به بلاء عظيم وختم السلطان على يده مراراً فلم يقدر وكان يزور، ثم كانت وفاته في هذه السنة(٣).

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٢ /٢٧ ـ٢٩، والمنتظم ٨ /٥٠ ـ ٥١ .

(٢) انظر المنتظم ٧ /٧٥، البداية والنهاية ١١ /٢٧٩ ـ ٢٨٠ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١١ /٢٩٩.

وفي سنة ٣٨٠ هـ تفاقم الأمر بالعيارين ببغداد وصار الناس أحزاباً في كل محلة أمير، واقتتل الناس وأخذت الأموال وأحرقت دور كبار ووقع حريق بالنهار في نهر الدجاج فاحترق شيء كثير للناس (١).

وفي سنة ٣٨٤ هـ عظم الخطب بأمر العيارين حيث عاثوا ببغداد فسادا وأخذوا الأموال والعملات الثقال ليلاً ونهاراً وحرقوا مواضع كثيرة، وأخذوا من الأسواق الجبايات وتطلبهم الشرط فلم يفد ذلك شيئاً ولا فكروا في الدولة بل استمروا على ما هم عليه من أخذ الأموال وقتل الرجال وإرعاب النساء والأطفال في سائر المحال، فلما تفاقم الحال بهم فطلبهم السلطان بهاء الدولة وألح في طلبهم هربوا واستراح الناس من شرهم (٢).

وفي رمضان من سنة ٣٩٢ هـ قوي أمر العيارين وكثرت العملات ونهبت بغداد وانتشرت الفتنة(٣).

وفي سنة ٤١٦ هـ قوي أمر العيارين ببغداد ونهبوا الدور جهرة واستهانوا بأمر السلطان وكثرت الشرور ونهبت الخزائن وتفاقم أمر العيارين وكبسوا الدور ليلاً ونهاراً وضربوا أهلها كما يضرب المصادرون ويستغيث أحدهم فلا يغاث وهربت الشرطة وأحرقت دار المرتضى(٤).

وفي شعبان من سنة ٤٢٠ هـ كثرت العملات وضعفت رجال المعونة عن مقاومة العيارين(٥).

وفي سنة ٤٢١ هـ كثرت السرقات وأخذت الدور جهرة، وكثر العيارون ولصوص الأكراد(٦).

---

(١) انظر المنتظم ٧/١٥٣، والبداية والنهاية ١١/٣٠٨ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١١/٣١٢-٣١٣ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١١/٣٣٠، والمنتظم ٧/٢١٩ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٢/١٨-١٩،والمنتظم ٨/٢١ .

(٥) انظر المنتظم ٨/٣٨ .

(٦) انظر البداية والنهاية ١٢/٢٧-٢٩، والمنتظم ٨/٥٠-٥١ .

ودخل خلق كثير من الأكراد إلى بغداد يسرقون خيل الأتراك ليلاً فتحصن الناس منهم فأخذوا الخيول كلها حتى خيل السلطان(١).

وفي سنة ٤٢٢ هـ كثرت العملات وانتشرت المحنة بأمر العيارين في أرجاء البلد وتجاسروا على أمور كثيرة ونهبوا دورا وأماكن سراً وجهراً ليلاً ونهاراً (٢)والله المستعان.

خامساً: بعض ظواهر الفسق والمجون :

وجدت بعض الظواهر المخالفة للدين والمروءة، لضعف الإيمان وفساد الأخلاق ووجود الترف عند الطبقة المتحكمة من حب المردان وهتك حرمة النساء ووجود الخواطيء من النساء من أمثلة ذلك :

جرت وقعة بين عز الدولة وعضد الدولة أسر فيها مملوك أمرد لعز الدولة فجن عليه وأخذ في البكاء وترك الأكل وتذلل في طلبه فصار ضحكة، وبذل جاريتين عوادتين في فدائه(٣)، وفي سنة ٣٦٥ هـ حجت جميلة بنت صاحب الموصل في تجمل وكان معها مال وفير ...ثم في الآخر استولى عضد الدولة على أموالها وقلاعها وافتقرت لكونه خطبها فابت، وآل بها الحال إلى أن هتكها وألزمها أن تختلف مع الخواطيء لتحصل ما تؤديه فرمت بنفسها في دجلة(٤).

سادساً : الكوارث الكونية :

لقد كان للكوارث الكونية في تلك الفترة آثار سيئة على المجتمعات والشعوب وعلى الناحية الاقتصادية، ولكن قل اعتبار كثير من الناس بها، والعودة إلى الصواب وما يدعو إليه

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٢/٢٧-٢٩، والمنتظم ٨/٥٠-٥١ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٢/٣١ .

(٣) انظر المنتظم ٧/٨٣-٨٤ .

(٤) انظر سير أعلام النبلاء ١٥/١٢١ .

الإسلام الحنيف، فكان المطر إذا نزل في بعض الأحيان كان عذاباً، وينزل لبرد فيلحق الضرر بالناس والثمار والأشجار، ويحصل الجفاف والجدب الشديد فيسوء الحال وترتفع الأسعار، ومن أمثلة ذلك :

في سنة ٣٦٧ هـ كان الغرق العظيم ببغداد وبلغ الماء أحداً وعشرين ذراعاً وغرق خلق(١).

وفي ربيع الأول من سنة (٣٧١ هـ)وقع حريق عظيم بالكرخ(٢)، وسرق شيء نفيس لعضد الدولة فتعجب الناس من جراة من سرقه مع شدة هيبة عضد الدولة ثم مع هذا اجتهدوا كل الاجتهاد فلم يعرفوا من أخذه، ويقال إن صاحب مصر بعث من فعل ذلك فالله أعلم(٣).

وفي محرم سنة ٣٧٦ هـ كثرت الحميات في بغداد فهلك بسبب ذلك خلق كثير، ولسبع خلون من ربيع الأول ـ وكان يوم العشرين من تموز ـ وقع مطر كثير ببرق ورعد(٤).

وفي رجب وقع بالموصل زلزلة عظيمة سقط بسببها عمران كثير ومات من أهلها أمة عظيمة(٥).

وفي هذا الحدود جاء بالبصرة سموم حارة فمات جماعة في الطرق، وجاء ريح خرقت دجلة حتى بانت أرضها فيما قيل وهدت في جامعها واحتملت زورقاً فيه مواشي فطرحته بأرض جوخى فرأوه بعد أيام (٦).

وفي سنة ٣٨٩ هـ وقع برد شديد مع غيم مطبق وريح قوية(٧).

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١٥/١٢١، والمنتظم ٧/٨٧ .

(٢) انظر المنتظم ٧/١٠٧ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١١/٢٩٧-٢٩٨ .

(٤) انظر المنتظم غ/١٣١، والبداية والنهاية ١١/٣٠٥ .

(٥) انظر البداية والنهاية ١١/٣٠٥ .

(٦) انظر المنتظم ٧/١٤١.

(٧) انظر المنتظم ٧/٢٠٦، البداية والنهاية ١١/٣٢٥-٣٢٦.

وفي ليلة الإثنين ثالث القعدة من سنة ٣٩٢ هـ انقض كوكب أضاء كضوء القمر ليلة التمام ومضى الشعاع وبقي جرمه يتموج نحو ذراعين في ذراعين في رأي العين ثم توارى بعد ساعة(١).

وفي ليلة الجمعة مستهل شعبان (٣٩٦ هـ) طلع نجم يشبه الزهرة في كبره وكثرة ضوئه عن يسار القبلة يتموج وله شعاع على الأرض كشعاع القمر وثبت إلى النصف من ذي القعدة ثم غاب(٢).

وفي سنة ٣٩٧ هـ ثارت على الحجيج وهم بالطريق ريح سوداء مظلمة جدا (٣).

وفي الحادي عشر من ربيع الآخر سنة ٣٩٨ هـ وقع ببغداد ثلج عظيم بحيث بقي على وجه الأرض ذراعاً ونصفاً ومكث أسبوعاً لم يذب وبلغ سقوطه إلى تكريت والكوفة وعبدان والنهروان وفي هذا الشهر كثرت السرقات جهرة وخفية حتى من المساجد ثم ظفر أصحاب الشرطة بكثير منهم فقطعوا أيديهم وكحلوهم (٤).

وفي شعبان من سنة ٣٩٩ هـ عصفت ريح شديدة فالقت وحلا أحمر في طرقات بغداد و هبت على الحجاج ريح سوداء مظلمة(٥).

وفي سنة ٤٠٠ هـ فى شهر ربيع الأول نقص الماء من دجلة نقصانا لم يعهد مثله وظهرت فيها جزائر لم تكن قبل، وامتنع سير السفن فيها، وانفذ بمن كرى هذا الموضع وكان كرى دجلة مما استظرف وعجب منه لأنه لم تكر دجلة إلا في هذه السنة، وفي رمضان أرجف الناس بالخليفة القادر بأنه مات، فجلس للناس يوم جمعة بعد الصلاة وعليه البردة وبيده القضيب، وجاء الشيخ أبو حامد الاسفرايني وقرأ ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي

(١) انظر البداية والنهاية ١١/ ٣٣٠، والمنتظم ٧/ ٢١٩.

(٢) انظر المنتظم ٧/ ٢٣٠ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١١/ ٣٣٧ .

(٤) انظر ٧/ ٢٣٧، والبداية والنهاية ١١/ ٣٣٨ .

(٥) انظر المنتظم ٧/ ٢٤٣ - ٢٤٤، والبداية والنهاية ١١/ ٣٤١ .

قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ (١) الآيات فتباكى الناس ودعوا وانصرفوا وهم فراحا. (٢)

وفي رمضان من سنة ٤٠٣ هـ انقض كوكب من المشرق إلى المغرب على ضوء القمر تقطع قطعا وبقي ساعة طويلة. (٣)

وفي محرم من سنة ٤٠٦ هـ وقع وباء شديد في البصرة أعجز الحافرين والناس عن دفن موتاهم، و أظلت البلد سحابة في حزيران فأمطرتهم مطراً شديدا. (٤)

وفي ربيع الأول من سنة ٤٠٧ هـ احترق مشهد الحسين بن علي بكربلاء وأروقته وكان سبب ذلك أن القومة اشعلوا شمعتين كبيرتين فمالتا في الليل على التازير ونفذت النار منه إلى غيره حتى كان ما كان.

وفي هذا الشهر أيضا احترقت دار القطن ببغداد وأماكن كثيرة بباب البصرة واحترق جامع سامرا.

وفيها ورد الخبر بتشعيث الركن اليماني من المسجد الحرام، وسقوط جدار بين يدي قبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة، وأنه سقطت القبة الكبيرة على صخرة بيت المقدس وهذا من أغرب الاتفاقات وأعجبها. (٥)

وفي النصف من جمادى الأولى من سنة ٤٠٩ هـ فاض البحر المالح وتداني إلى الأبلة، ودخل البصرة بعد يومين. (٦)

وفي رمضان من سنة ٤١٧ هـ انقض كوكب سمع له دوي كدوي الرعد. (٧)

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٦٠ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١١/٣٤٢، والمنتظم ٧/٢٤٥-٢٤٦ .

(٣) انظر المنتظم ٧/٢٦٠ .

(٤) انظر المنتظم ٧/٢٧٦، والبداية والنهاية ١٢/٢ .

(٥) انظر البداية والنهاية ١٢/٥، والمنتظم ٧/٢٨٣ .

(٦) انظر البداية والنهاية ١٢/٧، والمنتظم ٧/٢٨٩ .

(٧) انظر المنتظم ٨/٢٣-٢٤، والبداية والنهاية ١٢/٢٠ .

وفي سنة ٤١٨ هـ وقع برد شديد حتى جمد الماء والنبيذ وأبوال الدواب والمياه الكبار وحافات دجلة.(١)

وفي رجب من سنة ٤٢٠ هـ انقضت كواكب كثيرة شديدة الضوء شديدة الصوت.(٢)

وفي سنة ٤٢٠ هـ سقط بناحية المشرق مطر شديد معه برد كبار حزرت البردة منه مائة وخمسون رطلاً وغاصت في الأرض نحواً من ذراع.(٣)

وفي سنة٤٢١ هـ جاء سيل عظيم بغزنة فأهلك كثيرا من الزورع والأشجار.(٤)

سابعاً :الأعمال الخيرية والإصلاحية :

لاشك أنه قد حصل من الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء والقواد في هذه الفترة كثير من الإصلاحات وأعمال الخير، المتمثلة في فتح المصحات، وترتيب الأطباء فيها والخدم، والإعفاء من الضرائب أحياناً، ومحاربة المفسدين، ومنع إظهار البدع واستتابة أصحابها، ومنع التنجيم وإعتاق المماليك، وعمارة المساجد ودور العلم، والإنفاق إلى العلماء والقضاة والمؤذنين، وحفر الآبار، وإصلاح المياه في طريق الحجاز، وعمارة المصانع، وإجراء الصدقات على الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل، وإزالة الظلم ورد المظالم إلى أهلها، ومنع النساء من الخروج للفتنة والرذيلة، وهذا مما يشكر للخلفاء وأهل الأمر من الوزراء ونحوهم، ومن أمثلة ذلك :

وفي المحرم من سنة ٣٧٢ هـ جرى الماء الذي ساقه عضد الدولة إلى داره وبستانه.

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٢ / ٢٢ -٢٣، والمنتظم ٨ /٢٨ ـ ٣١ .

(٢) انظر المنتظم ٨ /٤٠ .

(٣) انظر المنتظم ٨ /٣٨ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١٢ /٢٧ -٢٩، والمنتظم ٨ /٥٠ ـ ٥١ .

وفي صفر فتح المارستان الذي أنشأه في بغداد، وقد رتب فيه الأطباء والخدم، ونقل إليه من الأدوية والأشربة والعقاقير شيئاً كثيراً. (١)

وفي سنة ٣٧٤ هـ عزم صمصامة الدولة على أن يضع مكساً على الثياب الابريسميات فاجتمع الناس بجامع المنصور وارادوا تعطيل الجمعة وكادت الفتنة تقع بينهم فاعفوا من ذلك. (٢)

وفي ٣٧٥ هـ خلع الخليفة على صمصامة الدولة وسوره وطوقه وأركب على فرس بسرج ذهب وبين يديه جنيب مثله، وورد الخبر بأن اثنين من سادة القرامطة وهما إسحاق وجعفر دخلا الكوفة في حفل عظيم، فانزعجت النفوس بسبب ذلك وذلك لصرامتهما وشجاعتهما، ولأن عضد الدولة مع شجاعته كان يصانعهما وأقطعهما أراضي من أراضي واسط، وكذلك عز الدولة من قبله أيضاً فجهز إليهما صمصامة جيشاً فطردهما عن تلك النواحي التي قد أكثروا فيها الفساد وبطل ما كان في نفوس الناس منهما. (٣)

وفي سنة ٣٩٣هـ منع عميد الجيوش الشيعة من النوح على الحسين في يوم عاشوراء، ومنع جهلة السنة بباب البصرة وباب الشعير من النوح على مصعب بن عمير بعد ذلك بثمانية أيام فلله الحمد والمنة (٤).

وفي ربيع الآخر من سنة ٣٩٨ هـ أمر القادر بعمارة مسجد الكف بقطيعة الدقيق وأن يعاد إلى أحسن ما كان ففعل ذلك، وزخرف زخرفة عظيمة جداً (٥).

وبنى الحاكم في سنة ٣٩٨ هـ دارا للعلم وأجلس فيها الفقهاء ثم بعد ثلاث سنين هدمها وقتل خلقاً كثيراً ممن كان فيها من الفقهاء والمحدثين وأهل الخير، وفيها عمر الجامع المنسوب إليه وهو جامع الحاكم وتأنق في بنائه(٦).

---

(١) انظر المنتظم ٧/١١٢، والبداية والنهاية ١١/٢٩٩ .
(٢) انظر المنتظم ٧/١٢٧ .
(٣) انظر البداية والنهاية ١١/٣٠٣ .
(٤) انظر المنتظم ٧/٢٢٢، والبداية والنهاية ١١/٣٣٢ .
(٥) انظر البداية والنهاية ١١/٣٤٥ .
(٦) انظر البداية والنهاية ١١/٣٤٢ .

وفي رجب وشعبان ورمضان(٤٠٢ هـ) أجرى الوزير فخر الملك صدقات كثيرة على الفقراء والمساكين والمقيمين بالمشاهد والمساجد وغير ذلك وزار بنفسه المساجد والمشاهد وأخرج خلقاً من المحبوسين وأظهر نسكاً كثيراً وعمر داراً عظيمة عند سوق الدقيق .

وفي ٤٠٤ هـ أبطل الحاكم المنجمين من ممالكه واعتق أكثر مماليكه، وجعل ولي عهده ابن عمه عبد الرحيم، وأمر بحبس النساء في البيوت فاستمر ذلك خمسة أعوام وصلحت سيرته، ومنع ببغداد فخر الملك من عمل عاشوراء. (١)

وفي سنة ٤٠٥ هـ منع الحاكم صاحب مصر النساء من الخروج من منازلهن أو أن يطلعن من الأسطحة أو من الطاقات، ومنع الخفافين من عمل الخفاف لهن ومنعهن من الخروج إلى الحمامات، وقتل خلقا من النساء على مخالفته في ذلك، وهدم بعض الحمامات عليهن وجهز نساء عجائز كثيرة يستعلمن أحوال النساء لمن يعشقن أو يعشقهن بأسمائهن وأسماء من يتعرض لهن فمن وجد منهن كذلك أهلكها، ثم إنه أكثر من الدوران بنفسه ليلاً ونهاراً في البلد في طلب ذلك، وغرق خلقاً من الرجال والنساء والصبيان ممن يطلع على فسقهم فضاق الحال واشتد على النساء وعلى الفساق ذلك ولم يتمكن أحد منهن أن يصل إلى أحد إلا نادراً حتى أن امرأة عاشقة لرجل عشقاً قوياً كادت أن تهلك بسببه لما حيل بينها وبينه فوقفت لقاضي القضاة وهو مالك بن سعد الفارقي وحلفته بحق الحاكم لما وقف لها واستمع كلامها فرحمها فوقف لها فبكت إليه بكاء شديداً مكراً وحيلة وخداعاً وقالت له أيها القاضي إن لي أخاً ليس لي غيره وهو في السياق، وإني أسألك بحق الحاكم عليك لما أوصلتني إلى منزله لأنظر إليه قبل أن يفارق الدنيا وأجرك على الله، فرق لها القاضي وأمر رجلين كانا معه يكونان معها حتى يبلغانها إلى المنزل الذي تريده، فأغلقت بابها وأعطت المفتاح لجارتها وذهبت معهما حتى وصلت إلى منزل معشوقها فطرقت الباب ودخلت، وقالت لهما اذهبا هذا منزله فاذا رجل كانت تهواه وتحبه ويهواها ويحبها فقال لها كيف قدرت على الوصول إلي فأخبرته بما احتالت به من الحيلة على القاضي، فأعجبه ذلك من

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١٥ / ١٣٤، والبداية والنهاية ١١ / ٣٥٢ .

مكرها وحيلتها، وجاء زوجها من آخر النهار فوجد بابه مغلقاً وليس في بيته أحد فسأل الجيران عن أمرها فذكرت له جارتها ما صنعت، فاستغاث على القاضي وذهب إليه وقال له ما أريد امرأتي إلا منك الساعة، وإلا عرفت الحاكم فإن امرأتي ليس لها أخ بالكلية وإنما ذهبت إلى معشوقها، فخاف القاضي من معرة هذا الأمر فركب إلى الحاكم وبكى بين يديه، فسأله عن شأنه فأخبره بما اتفق له من الأمر مع المرأة، فأرسل الحاكم من يحضرها والرجل جميعاً على أي حال كانا عليه فوجدهما متعانقين سكارى، فسألهما الحاكم عن أمرهما فأخذا يعتذران بما لايجدي شيئاً فأمر بتحريق المرأة في بادية وضرب الرجل ضرباً مبرحاً حتى أتلفه ثم ازداد احتياطاً وشدة على النساء و لا زال هذا دأبه حتى مات. (١)

وفي رجب من سنة ٤٠٥ هـ ولي أبو الحسن أحمد بن أبي الشوارب قضاء الحضرة بعد موت أبي محمد الأكفاني، وفيها عمّر فخر الدولة مسجد الشرقية ونصب عليه الشبابيك من الحديد.

وكان ممن توفي في سنة ٤٠٥ هـ من الملوك بدر بن حسنويه بن الحسين : أبو النجم الكردي كان من خيار الملوك بناحية الدينور وهمدان وله سياسة وصدقة كثيرة كناه القادر بأبي النجم، ولقبه ناصر الدولة، وعقد له لواء وأنفذه إليه، وكانت معاملاته وبلاده في غاية الأمن والطيبة، بحيث إذا أعيى جمل أحد من المسافرين أو دابته عن حمله يتركها بما عليها في البرية، فيرد عليه ولو بعد حين لا ينقص منه شيء، ولما عاثت أمراؤه في الأرض فساداً عمل لهم ضيافة حسنة فقدمها إليهم ولم يأتهم بخبز فجلسوا ينتظرون الخبز، فلما استبطؤوه سألوا عنه فقال لهم إذا كنتم تهلكون الحرث وتظلمون الزراع فمن أين تؤتون بخبز، ثم قال لهم لا أسمع بأحد أفسد في الأرض بعد اليوم إلا أرقت دمه واجتاز مرة في بعض أسفاره برجل قد حمل حزمة حطب وهو يبكي فقال له: مالك تبكي، فقال: إني كان معي رغيفان أريد أن أتقوتهما فأخذهما مني بعض الجند، فقال له أتعرفه إذا رأيته؟ قال: نعم، فوقف به في موضع مضيق حتى مر عليه ذلك الرجل الذي أخذ رغيفيه، قال هذا هو، فأمر به أن ينزل

(١) انظر المنتظم ٧/٢٦٨ - ٢٧٠، والبداية والنهاية ١١/٣٥٢-٣٥٣.

عن فرسه وأن يحمل حزمته التي احتطبها حتى يبلغ بها إلى المدينة، فأراد أن يفتدي من ذلك بمال جزيل فلم يقبل منه حتى تأدب به الجيش كلهم، وكان يصرف كل جمعة عشرين ألف درهم على الفقراء والأرامل، وفي كل شهر عشرين ألف درهم في تكفين الموتي، ويصرف في كل سنة ألف دينار إلى عشرين نفساً يحجون عن والدته، وعن عضد الدولة، لأنه كان السبب في تمليكه، وثلاثة آلاف دينار في كل سنة إلى الحدادين والحذائين لأجل المنقطعين من همذان وبغداد يصلحون الأحذية ونعال دوابهم، ويصرف في كل سنة مائة ألف دينار إلى الحرمين صدقة على المجاورين وعمارة المصانع، وإصلاح المياه في طريق الحجاز، وحفر الآبار وما اجتاز في طريقه وأسفاره بماء إلا بني عنده قرية، وعمر في أيامه من المساجد والخانات ما ينيف على ألفي مسجد، وخان هذا كله خارجاً عما يصرف من ديوانه من الجرايات والنفقات والصدقات والبر والصلات على أصناف الناس من الفقهاء والقضاة والمؤذنين والأشراف والفقراء والمساكين والأيتام والأرامل وكان مع هذا كثير الصلاة والذكر، وكان له من الدواب المربوطة في سبيل الله ما ينيف على عشرين ألف دابة، توفي ـ رحمه الله ـ عن نيف وثمانين سنة ودفن في مشهد علي وترك من الأموال أربعة عشر ألف بدرة ونيفاً وأربعين بدرة ،والبدرة عشرة آلاف (١).

و في سنة ٤٠٨ هـ استتاب القادر بالله الخليفة فقهاء المعتزلة فأظهروا الرجوع وتبرؤا من الاعتزال والرفض والمقالات المخالفة للإسلام، وأخذت خطوطهم بذلك وأنهم متى خالفوا أحل فيهم من النكال والعقوبة ما يتعظ به أمثالهم، وامتثل محمود بن سبكتكين أمر أمير المؤمنين في ذلك، واستن بسنته في أعماله التي استخلفه عليها من بلاد خرا سان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة والاسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة وصلبهم وحبسهم، وأبعد جميع طوائف أهل البدع ونفاهم عن ديارهم وصار ذلك سنة في الإسلام (٢).

وفي سنة ٤٠٩ هـ في يوم الخميس السابع عشر من المحرم قرئ بدار الخلافة في الموكب كتاب في مذهب أهل السنة، وفيه أن من قال القرآن مخلوق فهو كافر حلال الدم (٣).

(١) انظر البداية والنهاية ١١/٣٥٣ ـ ٣٥٤ والمنتظم ٧/٢٧١ ـ ٢٧٢ .

(٢) انظر المنتظم ٧/٢٨٧، والبداية والنهاية ١٢/٦ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١٢/٧، والمنتظم ٧/٢٨٩ .

وفي سنة ٤١٣ هـ فتح المارستان الذي بناه الوزير مؤيد الملك وزير شرف الملك بواسط ورتب له الخزان والأشربة والأدوية والعقاقير وغير ذلك مما يحتاج إليه.(١)

وفي الثاني عشر من رجب سنة ٤٢٠ هـ جمع القضاة والعلماء في دار الخلافة وقرئ عليهم كتاب جمعه القادر بالله فيه مواعظ وتفاصيل مذاهب أهل البصرة، وفيه الرد على أهل البدع وتفسيق من قال بخلق القرآن، وصفة ما وقع بين بشر المريسي وعبد العزيز الكتاني من المناظرة، ثم ختم القول بالمواعظ والقول بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخذ خطوط الحاضرين بالموافقة على ما سمعوه .

وفي غرة ذي القعدة جمعوا أيضاً كلهم وقرئ عليهم كتاب آخر طويل يتضمن بيان السنة والرد على أهل البدع ومناظرة بشر المريسي والكتاني أيضاً، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفضل الصحابة وذكر فضائل أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - ولم يفرغوا منه إلا بعد العتمة، وأخذت خطوطهم بموافقة ما سمعوه، وعزل خطباء الشيعة وولي خطباء السنة.(٢)

وفي ٤٢١ هـ - أي قبل وفاة القاضي عبد الوهاب البغدادي بسنة تقريباً - في ربيع الأول توفي الملك العادل المرابط المؤيد المنصور يمين الدولة أبو القاسم محمود بن سبكتكين صاحب بلاد غزنة ومالك تلك الممالك الكبار، وفاتح أكثر بلاد الهند قهراً، وكاسر أصنامهم وندودهم وأوثانهم وسلطانهم الأعظم قهراً وقد مرض رحمه الله نحواً من سنتين لم يضطجع فيهما على فراش ولا توسد وساداً، بل كان يتكئ جالسا حتى مات وهو كذلك وذلك لشهامته وصرامته وقوة عزمه، وله من العمر ستون سنة، وقد عهد بالأمر من بعده لولده محمد فلم يتم أمره حتى عاصفه أخوه مسعود بن محمود المذكور فاستحوذ على ممالك أبيه مع ما كان يليه مما فتحه هو بنفسه من بلاد الكفار ومن البلدان الكبار والصغار فاستقرت له الممالك شرقاً وغرباً في تلك النواحي في أواخر هذا العام وجاءته الرسل بالسلام من كل ناحية ومن كل ملك همام وبالتحية والإكرام وبالخضوع التام .(٣)

---

(١) البداية والنهاية ١٢/١٣-١٤، والمنتظم ٨/ ٨-٩ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٢/٢٦، والمنتظم ٨/٣٨ .

(٣) انظر وفيات الأعيان ٥/١٧٥-١٨٢، وطبقات السبكي ٥/٣١٤-٣٢٧ .

وفي رمضان من سنة ٤٢١ هـ تصدق مسعود بن محمود بن سبكتكين بألف ألف درهم وأدر أرزاقا كثيرة للفقهاء والعلماء. (١)

ثامناً : العلاقات الاجتماعية والأسرية :

في يوم الخميس لعشر خلون من ذي القعدة سنة ٣٦٤ هـ تزوج الخليفة الطائع شاه باز بنت عز الدولة على صداق مائة ألف دينار ودخل بها سنة ٢٦٥ هـ، وكان عرساً حافلاً. (٢)

وكان محمد بن جعفر الجريري المعروف بزوج الحرة صغيراً مع مولاته الحرة زوج المقتدر، فلما توفي المقتدر وبقيت هذه المرأة سالمة من الكتاب والمصادرات وكانت كثيرة الأموال وكان هذا غلاماً شاباً حدث السن يحمل شيئا من حوائج المطبخ على رأسه فيدخل به إلى مطبخها مع جملة الخدم وكان شاباً رشيقاً حركاً، فنفق على القهرمانة حتى جعلته كاتباً على المطبخ ثم ترقى إلى أن صار وكيلاً لها على ضياعها وأموالها، ثم آل به الحال حتى صارت تحدثه من وراء الحجاب ثم علقت به وأحبته وسألته أن يتزوج بها، فاستصغر نفسه وخاف من غائلة ذلك فشجعته هي وأعطته أموالاً كثيرة ليظهر عليه الحشمة والسعادة مما يناسبها وليتأهل لذلك ثم شرعت تهادي القضاة والأكابر ثم عزمت على تزويجه ورضيت به عند حضور القضاة واعترض أولياؤها عليها فغلبتهم بالمكارم والهدايا، ودخل عليها فمكثت معه دهراً طويلاً ثم ماتت قبله فورث منها نحو ثلثمائة ألف دينار وطال عمره بعدها حتى كانت وفاته في هذه السنة (٣٧٢ هـ)(٣).

وفي رجب من سنة ٣٧٤ هـ عمل عرس في درب رياح فسقطت الدار على من فيها فهلك أكثر النساء بها، ونبش من تحت الردم فكانت المصيبة عامة (٤).

وفي ذي القعدة سنة ٣٨٠ هـ عزل الشريف الموسوي وولداه عن نقابة الطالبيين

(١) انظر البداية والنهاية ١٢ / ٢٧ ـ ٢٩، والمنتظم ٨ / ٥٠ ـ ٥١ .
(٢) انظر سير أعلام النبلاء ١٥ / ١٢٠، والمنتظم ٧ / ٧٦ .
(٣) انظر البداية والنهاية ١١ / ٣٠١، والمنتظم ٧ / ١١٨ ـ ١١٩ .
(٤) انظر المنتظم ٧ / ١٢٤، والبداية والنهاية ١١ / ٣٠٢ .

وفي يوم عرفة سنة ٣٨٠ هـ قلد الشريف أبو الحسين الزينبي محمد بن علي بن أبي تمام الزيني نقابة العباسيين، وقرئ عهده بين يدي الخليفة بحضرة القضاة والأعيان(١).

وفي سنة ٣٩٣ هـ قلد الشريف الرضى نقابة الطالبيين ولقب بالرضي ذي الحسنيين ولقب أخوه المرتضي ذا المجدين، وولي محمد بن الأكفاني قضاء جميع بغداد، وكانت الخطبة في الحرمين للحاكم العبيدي، وتجدد في الخطبة : أنه إذا ذكر الخطيب الحاكم يقوم الناس كلهم إجلالاً له، وكذا فعلوا بديار مصر مع زيادة السجود له (٢).

في سادس عشر محرم سنة ٤٠٣ هـ قلد الشريف الرضي أبو الحسن الموسوي نقابة الطالبيين في سائر الممالك،وقرئ تقليده في دار الوزير فخر الملك بمحضر الأعيان، وخلع عليه السواد، وهو أول طالبي خلع عليه السواد .

وفي يوم السبت ثالث صفر من سنة ٤٠٦ هـ تولى المرتضى نقابة الطالبيين والمظالم والحج وجميع ما كان يتولاه أخوه الرضي وقرئ تقليده بحضرة الأعيان، وكان يوماً مشهوداً(٣).

وفي سنة ٤٠٨ هـ عقد سلطان الدولة عقده على بنت قرواش على صداق خمسين ألف دينار.(٤)

---

(١) انظر المنتظم ٧/١٧٤، والبداية والنهاية ١١/٣١٣ .

(٢) انظر المنتظم ٧/٢٣٠، والبداية والنهاية ١١/٣٣٥-٣٣٦ .

(٣) انظر المنتظم ٧/٢٧٦، والبداية والنهاية ١٢/٢ .

(٤) انظر المنتظم ٧/٢٨٧، والبداية والنهاية ١٢/٦ .

الفصل الثالث : الأحوال الاقتصادية :

لقد كان المال وفيراً جداً، والترف والنعيم بالغاً أقصاه في بلاط الخلفاء وقصور الأمراء والخاصة في بغداد والشام ومصر ذلك أن أكبر مصدر للمال هو الجزية والخراج والغنائم التي كان يجمعها محمود بن سبكتكين من الفتوحات ويرسلها للخليفة، وهذه كلها كانت تدخل بيت المال تحت سلطة الخلفاء ومن إليهم، وينفق منها على مصالح الدولة وما بقي - وهو كثير - يصرف في رغباتهم من خلع على الأمراء والوزراء والحجاب ونحوهم، وهبات للشعراء والمداحين وشراء ما يعرضه تجار الجواهر والتحف، وجوائز المضحكين، والكريم منهم يمد الموائد للفقراء ويطعمهم ويكسوهم فالوف من الناس تأكل على الموائد وتنالهم الصدقات، ولهذا كانت أنظار الناس موجهة إلى هؤلاء الخلفاء والأمراء، فالعلماء إن أرادوا الغنى لم يجدوه إلا في خدمتهم، والشعراء إن أرادوا العيش لم يجدوه إلا في مديحهم، والتجار لا يجدون نفاقا لسلعهم إلا في قصورهم، والصناع إذا أحسنوا صناعة شيء فهم مقصدهم، أما سائر الناس ففقراء لا يجدون الكفاف .

وأما العلماء فزهد كثير منهم فيما في أيدي الولاة والأمراء والوزراء، واكتفوا بالقليل الموجود فكان أكثر أدم أهله الخبز المادوم بمرق الباقلاء، بل لا يجد رغيفاً يسد به جوعه كما هو حال القاضي عبد الوهاب - رحمه الله -، ولا يحصل على راتب ولاغيره إنما يأكل من عمل يده، وبعضهم لم يوجد له كفن عند موته ولم يترك شيئاً، ومن كان يمتلك مالاً كان يتعرض للمصادرة فيفقر، وبعض طلاب العلم يعيش على الاقتراض والدين حتى ينهي طلب العلم (١) . أما الأندلس فكان المال الوفير والعمارة والبناء للقصور المنيفة، والزخرفة والدهانات والستور العجيبة والتباهي بذلك(٢)، وأهم مظاهر وأسباب هذه الحالة ما يأتي :

---

(١) انظر البداية والنهاية ١١/ ٢٨٨ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١١/ ٢٧٩، والمنتظم ٧/ ٧٦ .

١ - أثر الحروب بين الأمراء والحكام على الأحوال الاقتصادية :

لقد أثرت الحروب بين الأمراء والملوك والحكام على الأحوال الاقتصادية للأمة عامة والمجتمعات والأفراد على وجه الخصوص، فسببت غلاء الأسعار وفقدان الطعام في كثير من الأحيان، ومن أمثلة ذلك :

في سنة ٣٦٤هـ سببت الحرب بين عضد الدولة والفتكين غلاء الأسعار وامتناع الناس من المعاش من كثرة العيارين والنهوب، وكبس الفتكين البيوت لطلب الطعام واشتداد الحال .

وفي رجب منها زادت الأسعار وعدمت الأقوات وبيع الكر من الدقيق الحواري بمائة ونيف وسبعين ديناراً، والعشرة الأمناء من السكر بنيف وأربعين درهماً، والتمر ثلاثة أرطال بدرهم وضاقت العلوفه فبيع الحمل من التبن بعشرة دراهم، وأخرج السلطان كراعه إلى السواد .

وضاق الحال أيضا بالرملة من قلة الطعام والشراب عند محاصرتها من الفتكين ومن معه حتى أشرف أهلها على الهلاك (١).

وفي سنة ٤٦٥ هـ حج بالناس أمير المصريين من جهة العزيز الفاطمي بعد ما حاصر أهل مكة ولقوا شدة عظيمة، حتى غلت الأسعار بها جداً (٢).

وبسبب الفتن التي تحصل في بغداد وغيرها ترتفع الأسعار جدا كما حصل في سنة ٤١٦ هـ وغيرها، فمثلاً عند موت مشرف الدولة في سنة٤١٦ هـ نهبت خزائنه وكثرت العملات ببغداد جداً واستباح جلال الدولة الأهواز فنهب ما قيمته خمسة آلاف الف دينار وأحرقت ودثرت(٢).

---

(١) انظر البداية والنهاية ١١ /٢٨٣، والمنتظم ٧ /٧٦ .

(٢) انظر الكامل ٩ /٣٧٤ - ٣٧٦، والمنتظم ٨ /٢١ .

٢ ـ الضرائب والمصادرات :

كان وضع الضرائب على السلع والممتلكات قائما في تلك الفترة وكذا مصادرة الأموال والممتلكات والاستيلاء عليها بالقوة من أهلها خاصة إذا لم يكن لهم من يسندهم في الدولة أو يهتم بشأنهم، ومن أمثلة ذلك :

في سنة ٣٧٥ هـ عزم صمصامة الدولة على ان يضع مكساً على الثياب الإبريسميات فاجتمع الناس بجامع المنصور وأرادوا تعطيل الجمعة وكادت الفتنة تقع بينهم، فاعفوا من ذلك.(١)

ومن مصادرة الأموال التي كانت تفعل ما حدث في سنة ٣٨٥ هـ حيث قبض بهاء الدولة على القاضي عبد الجبار وصادره بأموال جزيلة، فكان من جملة ما بيع له في المصادرة الف طيلسان والف ثوب معدني.(٢)

ومن ذلك أيضا ما حدث لأبي الحسن محمد بن محمد التاجر عالم الحديث ـ كما سيأتي ـ فقد كان ذا مال جزيل ولكن صودر ماله وأهل محلته، حتى لم يوجد له كفن عند موته فارسل له القادر ما كفن به .(٣)

وفي سنة ٣٦٤ هـ حصل عضد الدولة من المصادرات ألف ألف وتسعمائة وخمسون الف درهم، منها من ابي عمر بن عمر ادى كاتب سبكتكين، ألف ألف وخمسمائة ألف درهم، ومن أبي بكر الأصفهاني ألفا ألف درهم، ومن ابن قريعة مائة ألف درهم(٤)

٣ ـ أمثلة ثراء الملوك والوزراء والقواد ومن حولهم :

سببت خلع الخلفاء للأمراء والقواد والمبالغة في رواتبهم، وسلب الأموال والمصادرات والاستيلاء على المدن الأقاليم عند وقوع الحروب بين القواد والولاة، وما يقدمه هؤلاء للخلفاء

(١) انظر البداية والنهاية ١١/٣٠٥، والمنتظم ٧/١٢٧ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١١/٣١٤ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١٢/٢٥ .

(٤) انظر تكملة تاريخ الطبري ص ٢٢٣ .

للتملق وإظهار الخضوع وما يصل من غنائم الجهاد : ثراء عظيما ـ كما سبق ـ عند الخلفاء والملوك ومن حولهم، وكانت له آثار سيئة على حياة المجتمعات والأفراد ومن أمثلة ذلك :

كان راتب الملك البويهي بختيار من الشمع في الشهر عدة قناطير(١).

توفي سبكتكين الحاجب ليلة الثلاثاء لسبع بقين من المحرم من سنة ٣٦٤ هـ وقد ترك من الأموال شيئا كثيراً جداً من ذلك ألف ألف دينار وعشرة آلاف ألف درهم وصندوقان من جوهر وخمسة عشر صندوقاً من البلور، وخمسة وأربعين صندوقاً من آنية الذهب، ومائة وثلاثون كوكباً من ذهب منها خمسون وزن كل واحد ألف دينار، وستمائة مركب من فضة وأربعة آلاف ثوب من ديباج، وعشرة آلاف ديبقي وعتابي، وثلثمائة عدل معكومة من الفرش وثلاثة آلاف فرس، وألف جمل، وثلثمائة غلام، وأربعون خادماً وذلك غير ما أودع عند أبي بكر البزار وكان صاحبه(٢).

وفي سنة ٣٦٦ هـ حجت جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان في تجمل عظيم، حتى كان يضرب المثل بحجه،ا وذلك أنها عملت أربعمائة محمل وكان لا يدرى في أيها هي، ولما وصلت إلى الكعبة نثرت عشرة آلاف دينار على الفقراء والمجاورين وكست المجاورين بالحرمين كلهم وأنفقت أموالا جزيلة في ذهابها وإيابها (٣).

وقد ترك فخر الدولة عند وفاته سنة ٣٨٧ هـ من الأموال شيئاً كثيراً ومن الذهب ما يقارب ثلاثة آلاف ألف دينار، ومن الجواهر نحواً من خمسة عشر ألف قطعة، يقارب قيمتها ثلاثة آلاف دينار ذهباً . وغير ذلك من أواني الذهب زنته ألف ألف دينار ومن الفضة زنته ثلاثة آلاف ألف درهم كلها آنية، ومن الثياب ثلاثة آلاف حمل، وخزانة السلاح ألف حمل، ومن الفرش ألف وخمسمائة حمل، ومن الأمتعة مما يليق بالملوك شيئاً كثيراً . ومع ذلك لم يصلوا ليلة موته إلى شيء من المال ولم يحصل له كفن إلا ثوب من المجاورين في المسجد(٤).

(١) انظر وفيات الأعيان ١/٢٦٧ .

(٢) انظر شذرات الذهب ٣/٤٨، والكامل ٨/٦٢٩ ـ ٦٣٧ .

(٣) انظر البداية والنهاية ١١/٢٨٧.

(٤) انظر سير أعلام النبلاء ١٥/١٣٠، وشذرات الذهب ٣/١٢٤ .

ويقال إن غلات محمد بن عمر بن يحي الشريف العلوي المتوفى سنة ٣٩٠ هـ كانت تساوي في كل سنة ألفي ألف دينار .(١)

وفي سنة ٣٩٠ هـ ظهر بأرض سجستان معدن ذهب كانوا يحفرون فيه مثل الآبار ويخرجون منه ذهباً أحمر. (٢)

٤ ـ حدوث الجدب والمجاعات وغلاء الأسعار:

قحط المسلمون في كثير من سنين تلك الفترة ، وزادت الأسعار زيادة مفرطة، ولحق الناس مجاعة عظيمة، وتهدمت الأبنية وكثير من السفن، وتلف كثير من المواشي والنخيل والزيتون والزراعة، وتعطلت المخابز، وأصاب الناس عطش شديد في بعض المناطق والطرق، وجمد الماء في بعض الأوقات من شدة البرد الذي لم يعهد مثله، مما سبب في عوز كثير من الناس واضطرارهم إلى ترك بلدانهم والبحث عن لقمة العيش، كما حصل للقاضي عبدالوهاب البغدادي وغيره .

كما حصل في الأندلس سنة ٣٦٥ هـ .

وفي سنة ٣٧٣ هـ زادت الأسعار زيادة مفرطة ولحق الناس مجاعة عظيمة ،وبلغ الكر الحنطة في رمضان ثلاثة آلاف درهم تاجية، وبلغ في ذي القعدة أربعة آلاف وثمانمائة درهم، وضج الناس وكسروا منابر الجوامع ومنعوا الصلاة في عدة جمع، ومات خلق من الضعفاء جوعا على الطريق ثم تناقصت الأسعار في ذي الحجة.(٣)

وفي رجب من سنة ٣٧٦ هـ غلت الأسعار جداً، واشتد ذلك في السنة التي تليها ثم لحقه فناء كثير، وعظم الغلاء ببغداد حتى بيعت كارة الدقيق الخشكار بمئتين وأربعين درهماً(٤).

---

(١) انظر البداية والنهاية ١١/٣٢٧ .

(٢) انظر المنتظم ٧/٢٠٧، والبداية والنهاية ١١/٣٢٦ .

(٣) انظر المنتظم ٧/١٢١، والبداية والنهاية ١١/٣٠٢

(٤) انظر المنتظم ٧/١٣٢، والبداية والنهاية ١١/٣٠٥ .

وفي محرم سنة ٣٧٨ هـ كثر الغلاء والفناء في بغداد إلى شعبان، وكثرت الرياح والعواصف بحيث هدمت كثيراً من الأبنية، وغرق شيء كثير من السفن واحتملت بعض الزوارق فألقته بالأرض، وهذا أمر هائل وخطب شامل، وفي هذا الوقت لحق أهل البصرة حر شديد بحيث سقط كثير من الناس في الطرقات وماتوا من شدته . وفي السنة التي تلتها عظم الغلاء ببغداد حتى بيعت كارة الدقيق الخشكار بمئتين وأربعين درهماً. (١)

وفي سنة ٣٨٢ هـ غلت الأسعار ببغداد حتى بلغ رطل الخبز بأربعين درهما والجزر بدرهم، وكذلك في السنة التي تليها فقد ارتفعت الأسعار وضاق الحال على العيال.(٢)

وفي سنة ٣٨٩ هـ وقع برد شديد مع غيم مطبق وريح قوية بحيث أتلفت شيئاً كثيراً من النخيل ببغداد فلم يتراجع حملها إلى عادتها إلا بعد سنتين.(٣)

وفي سنة ٣٩٥ هـ كان غلاء عظيم بإفريقية بحيث تعطلت المخابز والحمامات وذهب خلق كثير من الفناء وهلك آخرون من شدة الغلاء . وفيها أصاب الحجيج في الطريق عطش شديد بحيث هلك كثير.(٤)

وفي شعبان سنة٣٩٨ هـ زلزلت الدينور زلزالاً شديداً وسقطت دور كثيرة وهلك للناس شيء كثير من الأثاث والأمتعة ،وهبت ريح سوداء بدقوقي وتكريت وشيراز فأتلفت كثيرا من المنازل والنخيل والزيتون وقتلت خلقاً كثيراً وسقط بعض شيراز ووقعت رجفة بشيراز غرق بسببها مراكب كثيرة في البحر (٥).

في ربيع الآخر من سنة ٤٠٠ هـ نقصت دجلة نقصاً كثيراً حتى ظهرت جزائر لم تعرف وامتنع سير السفن في أعاليها، فأمر بكري تلك الأماكن،ثم لخمس بقين من رجب من

---

(١) انظر البداية والنهاية ١١/ ٣٠٥ والمنتظم ٧/ ١٣٦ .
(٢) انظر البداية والنهاية ١١/ ٣١٢,٣١١ .
(٣) انظر البداية والنهاية ١١/ ٣٢٦،والمنتظم ٧/ ٢٠٦ .
(٤) انظر البداية والنهاية ١١/ ٣٣٥، والمنتظم ٧/ ٢٢٩ .
(٥) انظر المنتظم ٧/ ٢٣٨، والبدية والنهاية ١١/ ٣٣٩ .

سنة ٤٠١ هـ زادت دجلة زيادة كثيرة واستمرت الزيادة إلى رمضان وبلغت ٢١ ذراعاً وثلثاً ودخل إلى أكثر دور بغداد. (١)

وفي شوال سنة ٤٠٢ هـ عصفت ريح شديدة فقصفت أكثر من عشرة آلاف نخلة، وورد كتاب من يمين الدولة محمود بن سبكتكين بأنه ركب بجيشه إلى أرض العدو فجازوا بمفازة فاعوزهم الماء حتى كادوا يهلكون عن آخرهم عطشا فبعث الله لهم سحابة فأمطرت عليهم حتى شربوا وسقوا واستقوا ثم توافقوا هم وعدوهم فهزموا العدو وغنموا شيئاً كثيراً من الأموال. (٢)

ووقع في شوال سنة ٤١٧ هـ برد لم يعهد مثله واستمر إلى العشرين من ذي الحجة وجمد الماء طول هذه المدة وقاسى الناس شدة عظيمة وتأخر المطر وزيادة دجلة وقلت الزراعة وامتنع كثير الناس عن التصرف. (٣)

وفي ربيع الأول سنة ٤١٨ هـ وقع برد أهلك كثيراً من الزروع والثمار وخلقاً كثيراً من الدواب. (٤)

وفي سنة ٤١٩ هـ قل الرطب جداً بسبب هلاك النخل في السنة الماضية بالبرد فبيع الرطب كل ثلاثة أرطال بدينار جلالي، ووقع برد شديد أيضا فأهلك شيئاً كثيراً من النخيل وفي رجب منها غار ماء دجلة حتى لم يبق منه إلا القليل ووقفت الأرحاء عن الطحن وتعذر ذلك. (٥)

وفي هذه السنة كانت هجرة القاضي عبد الوهاب البغدادي من بغداد حتى قال لأصحابه: «لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم بلوغ

---

(١) انظر البداية والنهاية ١١ / ٣٤٢، ٣٤٤، والمنتظم ٧ / ٢٤٥.

(٢) النظر المنتظم ٧ / ٢٥٥ - ٢٥٦، والبداية والنهاية ١١ / ٣٤٧.

(٣) انظر المنتظم ٨ / ٢٥، والبداية والنهاية ١٢ / ٢٠.

(٤) انظر البداية والنهاية ١٢ / ٢٢، والمنتظم ٨ / ٢٩.

(٥) انظلر المنتظم ٨ / ٣٦، والبداية والنهاية ١٢ / ٢٤ - ٢٥.

أمنية » وفي ذلك قال شعراً :

فو الله ما فارقتها عن قلى لهـــا   وإني بشـــطي جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علي بأســـرها   ولم تكن الأرزاق فيها تســاعف (١)

وقال أيضاً :

بغداد دار لأهل المال طيبـــة   وللمفاليس دار الضنك والضيــق
ظللت حيـران أمشي في أزقتها   كأنني مصحف في بيت زنــديق (٢)

ويروى أنه قال لأصحابه لما عذلوه في السفر من بغداد : ... ولقد ترك أبي جملة دنانير ودارا أنفقتها كلها على صعاليك ممن كان ينهض بالطلب عندي ...وأنشد :

لا تطلبن من المجبـــوب أولادا   ولا الشراب لتســـقي منه ورادا
ومن يروم من الأرذال مكرمـة   كمن يوتد في الأتبان أوتـــادا (٣)

مع أنه ـ رحمه الله ـ لم يستفد كثيرا من هجرته تلك فقد كان مؤثرا للزهد في الدنيا، وإيثار بقائه في بغداد على ما حصل عليه من المال، ولعل ذلك ظاهر في قوله :

طلبت المســـتقر بكل أرض   فلم أر لي بأرض مســـتقرا
ونلت من الزمان ونـــال مني   فكان مناله حلوا ومـــرا
أطعت مطامعي فاســتبعدتني   فلو أني قنعت لكنت حـــرا (٤)

وذكر أنه قال عند موته من أكلة أكلها :(لاإله إلا الله إذا عشنا متنا).(٥)

---

(١) وفيات الأعيان ٣ / ٢٢٠، وشذرات الذهب ٣ / ٢٢٤ .
(٢) انظر وفيات الأعيان ٣ / ٢٢١، والديباج المذهب ٢ / ٢٨ .
(٣) ترتيب المدارك ٧ / ٢٢٣ .
(٤) انظر الديباج المذهب ٢ / ٢٨ .
(٥) وفيات الأعيان ٣-٢٢٠ .

الفصل الرابع : الأحوال العلمية :

بالرغم من الضعف والفوضى والفرقة التي سادت الأمة الإسلامية في عصر القاضي عبدالوهاب البغدادي، فإن الثقافة والمعرفة والحالة الفكرية والعلمية قد نمت وانتشرت انتشاراً واسعاً ،وازدهر الفكر ازدهاراً كبيراً، فتعددت الدراسات الإسلامية في مختلف الفنون مما حدا بكثير من المؤرخين أن يصف تلك الفترة بالعصر الذهبي بالنسبة للعلم والثقافة الإسلامية .

وأسباب هذا الازدهار : تقريب الملوك والأمراء لبعض العلماء والأدباء وتنافسهم في إكرامهم وضمهم إلى بلاطهم، وكذلك انتشار المكتبات العامة وإنشاء المدارس الخاصة والعامة ثم إن التعليم في ذلك الوقت لم يأت دخيلاً من خارج الأمة، أو تكون قيادته وخططه من خارج أهل القبلة كما هو الحال في بعض العصور .

ومما شارك وساهم في هذه النهضة العلمية كذلك انفتاح الحضارة الإسلامية على الحضارات اليونانية والرومانية والفارسية والهندية التي بدأت من عصر المأمون، وقد اشتغل به عدد كبير من المثقفين، حيث وجدت قبولاً بل وامتزاجاً ببعض فروع الثقافة الإسلامية على الرغم مما صاحب ذلك من مصائب وأخطار فكرية وعقدية .

وشاعت المناظرات والجدل والردود بين أرباب المذاهب وأصحابها . الذي كان القاضي عبد الوهاب أحد رجالها (١) وكانت بغداد ـ موطن ومنشأ القاضي عبد الوهاب البغدادي ـ من أكبر المراكز العلمية والثقافية والفكرية، سواء من نجب فيها من العلماء الأعلام أو لجأ إليها من طلاب العلم الذين جاءوا ينهلون من علومها ومواردها، وليستفيدوا من تراثها الثقافي بمختلف فروعه .

لقد حظيت هذه الفترة بحركة علمية واسعة شملت كل العلوم : من التفسير وعلوم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب بالإضافة إلى الفلسفة والكلام والفلك

(١) انظر طبقات الفقهاء لأبي إسحاق ص ١٤٣ وتبين كذب المفتري ص ٢٥٠ .

والرياضيات والطب والصيدلة والجراحة والفيزياء والجغرافيا وغيرها، فلم يخل فرع من فروع العلم والمعرفة إلا وكتبت فيه الكتب وصنفت فيه المصنفات، وقل أن تجد عالماً في هذه الفترة إلا وقد أسهم بأكثر من كتاب في فن أو عدة فنون .

فلا غرابة أن تنعكس هذه النهضة الفكرية على نفس القاضي عبد الوهاب الذي كان يلم شتى أنواع العلوم والفنون كما هو واضح من مؤلفاته وسيرته العلمية المتميزة، كما كانت الدولة تقوم بتوليته القضاء وغير ذلك .كما قام أساتذة المدارس الفقهية بوضع أسسها وتدوين فقه أئمتها، إلا أنه بنهاية القرن الرابع ركدت حركة الاجتهاد حتى أصبح الفقيه لا يستطيع الاجتهاد إلا في المسائل الجزئية القليلة، ويمكن الحديث عن الحالة العلمية في المباحث الآتية :

أولاً : العناية بالقرآن الكريم وعلومه :

لقد كانت العناية بالقرآن الكريم حفظاً وتفسيراً من أهم ما اعتنى به العلماء، ومن هؤلاء : أبو عبد الله الحسن بن علي بن ثابت المقري وقد سبق الشاطبي إلى قصيدة عملها في القراءات توفي سنة ٣٧٨ هـ[١]، و أبو الفضل عبد الكريم بن عبد الكريم بن بديل الخزاعي الجرجاني كانت له عناية بالقراءات وصنف في أسانيدها توفي سنة ٣٨٠ هـ[٢]، وشيخ القاضي عبد الوهاب البغدادي أبو حفص عمر بن أحمد بن شاهين تلميذ البغوي له في التفسير ألف جزء والمسند في ألف وخمسمائة جزء توفي سنة ٣٨٥ هـ[٣]، وزاهر بن عبدالله السرخسي المقري المتوفى سنة ٣٨٩ هـ[٤]، وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الطبري المالكي شيخ القراءات المتوفى سنة ٣٩٣ هـ[٥]، وأبو أحمد عبد الرحمن ابن محمد الفرضي المقري المتوفى سنة ٤٠٦ هـ[٦]، وأبو القاسم هبة الله بن سلامة الضرير المقرىء المفسر كان

---

(١) انظر البداية والنهاية ١١/٣٠٦ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١١/٣٠٨، وتاريخ جرجان ١/٢٤١ .

(٣) انظر تاريخ دمشق ١٠/٦٠٩، والعبر ٢/١٦٧ .

(٤) انظر النجوم الزاهرة ٤/٢٠٠ .

(٥) انظر البداية والنهاية ١١/٣٢٢ .

(٦) انظر البداية والنهاية ١٢/٢ .

من أعلم الناس وأحفظهم للتفسير توفي سنة ٤١٠ هـ(١)، وعلي ابن عيسى الفارسي المعروف بالسكري الشاعر، كان يحفظ القرآن ويعرف القراءات وأكثر شعره في مدح الصحابة وذم الرافضة توفي سنة ٤١٣ هـ(٢)، وأبو الحسن علي بن أحمد المقري الحمامي تفرد بأسانيد القراءات وعلوها في وقته، توفي سنة ٤١٧ هـ(٣) وغيرهم كثير .

ثانياً : العناية بالحديث وعلومه :

لقد كثرت الرحلة في طلب العلم وخاصة في الحديث، فكانت العناية بالحديث فائقة، فبرع في هذا العلم كثير من العلماء وأنفقوا في ذلك أوقاتهم وأموالهم، وعلموا الناس، وأنشأوا لذلك المجالس الكبيرة للإملاء والسماع، وقد أخذ القاضي عبد الوهاب بحظ من هذا العلم فروى عن الحسين بن محمد بن عبيد العسكري المتوفى سنة ٣٧٥ هـ، وعن عمر ابن سنبك المتوفى سنة ٣٧٦ هـ، وغيرهما (٤)، وله في الحديث إسناد إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال البغدادي : أخبرنا أبو محمد بن نصر في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة أخبرنا عمر بن محمد بن إبراهيم البجلي(ابن سنبك)، حدثنا محمد بن محمد بن سليمان الباغندي، حدثنا علي بن عبد الله المدني، حدثنا يحي بن سعيد، حدثنا ابن أبي ذئب حدثنا عبد الرحمن بن مهران عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله «الأبعد فالأبعد إلى المسجد أعظم أجراً » .

ومن أشهر أولئك الذين اشتغلوا بالحديث : محمد بن أبي أحمد الجرجاني المعروف بابن عدي الحافظ الكبير المتوفى سنة ٣٦٥ هـ(٥)، وأبو علي الحسين بن محمد

(١) انظر البداية والنهاية ١٢/ ٨ .

(٢) انظر البداية والنهاية ١٢/ ١٥ .

(٣) انظر شذرات الذهب ٣/ ٢٠٨، والكامل في التاريخ ٧/ ٣٢٧ .

(٤) انظر تاريخ بغداد ١١/ ٢٦١، والديباج المذهب ٢/ ٢٦ .

(٥) انظر طبقات السبكي ٣/ ٣١٥ـ٣١٦، وطبقات الحفاظ ص٣٨٠ .

الماسرجسي الذي صنف مسنداً في ألف وثلاثمائة جزء بطرقه وعلله وغير ذلك وتوفي سنة ٣٦٥ هـ[١]، ومحمد بن عيسى الجلودي راوي صحيح مسلم المتوفى سنة ٣٦٨ هـ[٢]، وعبد الله بن محمد المري الواسطي المعروف بابن السقا تلميذ أبي يعلى وأبي داود والبغوي توفي سنة ٣٧٣ هـ[٣]، و شيخ القاضي عبد الوهاب شيخ المالكية أبو بكر محمد ابن عبد الله التميمي الأبهري المتوفى سنة ٣٧٥ هـ،قال عنه الدار قطني :«إليه الرحلة من أقطار الدنيا »[٤]، و شيخ القاضي عبد الوهاب : أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبيد العسكري الدقاق المتوفى سنة ٣٧٥ هـ[٥]، وشيخ القاضي عبد الوهاب : القاضي أبو القاسم عمر بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن سنبك البجلي المتوفى سنة٣٧٦ هـ[٦]، و شيخ القاضي عبد الوهاب البغدادي : أبي حفص عمر بن أحمد المعروف بابن شاهين الواعظ المتوفى سنة ٣٨٥ هـ[٧]، وعلي بن عمر الدارقطني الحافظ الكبير المتوفى سنة ٣٨٥ هـ[٨]، وشيخ القاضي عبد الوهاب : يوسف بن عمر القواس تلميذ البغوي وأبي داود وغيرهما توفي سنة ٣٨٥ هـ[٩]، وأحمد بن إبراهيم بن محمد بن يحيى بن سحنويه النيسابوري الذي قال عنه الحاكم :«وعندي أن الملائكة لم تكتب عليه خطيئة» توفي سنة ٣٨٦ هـ[١٠]، و أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري المتوفى سنة ٣٨٧ هـ[١١] ، و أبو القاسم عبد الله بن محمد المعروف بابن حبابة الذي صلى عليه أبو حامد الأسفراييني

(١) انظر المنتظم ٧ / ٨١، والنجوم الزاهرة ٤ / ١١١ .

(٢) انظر سير اعلام النبلاء ١٦ / ٢٤٣، والمعين في طبقات المحدثين ٢ / ١١٤ .

(٣) انظر تاريخ بغداد ١٠ / ١٣٠-١٣٢، والعبر ٢ / ٣٦٥ .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٦ / ٣٣٢ .

(٥) انظر ترتيب المدارك ٤ / ٦٩٢،وتاريخ بغداد ١١ / ٣١ .

(٦) انظر العبر ٢ / ١٤٧، وشذرات الذهب ٣ / ٨٧ .

(٧) انظر العبر ٢ / ١٦٧، وسير أعلام النبلاء ١٦ / ١٢٧ .

(٨) انظر سير أعلام النبلاء ١٦ / ٤٤٩، طبقات الحفاظ ص ٣٩٣-٣٩٤ .

(٩) انظر تاريخ بغداد ١٤ / ٣٢٥-٣٢٧، العبر ٣ / ٣١ .

(١٠) البداية والنهاية ١١ / ٣١٩ .

(١١) انظر طبقات الحنابلة ٢ / ١١٤-١٥٣، العبر ٣ / ٣٥ .

شيخ الشافعية سنة ٣٨٩ هـ[١]، وأبو نصر عمر بن إبراهيم المعروف بالكتاني المقري المتوفى سنة ٣٩٠ هـ[٢]، والمعافى بن زكريا المعروف بابن طرار الجريري لأنه اشتغل على ابن جرير الطبري توفي سنة ٣٩٠ هـ[٣] ، وأبو القاسم عيسى بن الوزير البغدادي من كبار الوزراء توفي سنة ٣٩١ هـ[٤]، وشيخ القاضي عبد الوهاب البغدادي : أبو ظاهر محمد بن عبدالرحمن بن العباس البغدادي المعروف بالمخلص المتوفى سنة ٣٩٣ هـ[٥]، وأبونصر محمد ابن أحمد المعروف بالملاحمي حدث عنه الدارقطني توفي سنة ٣٩٥ هـ[٦]، والحافظ محمد ابن أحمد النيسابوري الحيري الذي رحل إلى الآفاق في طلب العلم توفي سنة ٣٩٦ هـ[٧]، والحافظ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن منده الأصفهاني المشهور المتوفى سنة ٣٩٦ هـ[٨]، وشيخ المالكية شيخ القاضي عبد الوهاب البغدادي :القاضي أبو الحسن علي بن عمر البغدادي ابن القصار المتوفى سنة ٣٩٧ هـ[٩]، وأبو مسعود إبراهيم بن محمد بن عبود الدمشقي مصنف كتاب الأطراف على الصحيحين المتوفى سنة ٤٠١ هـ[١٠]، وأبو عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي صاحب المنهاج في أصول الديانة المتوفى سنة ٤٠٣ هـ[١١]، وأبو محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن الأكفائي الذي أنفق على طلب العلم مائة ألف دينار المتوفى سنة ٤٠٥ هـ[١٢] ، ومحمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري صاحب المستدرك

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١٦ /٥٤٨ .
(٢) انظر تاريخ بغداد ١١/٢٦٩، المنتظم ٧/٢١١ .
(٣) انظر طبقات الحفاظ ص ٤٠٠ - ٤٠١ والنجوم الزاهرة ٤/٢٠١-٢٠٢ .
(٤) انظر سير أعلام النبلاء ١٦/٥٤٩ .
(٥) انظر شذرات الذهب ٣/١٤٤، والعبر ٢/١٨٥ .
(٦) انظر المنتظم ٧/٢٣٠، وسير أعلام النبلاء ١٧/٨٦ .
(٧) انظر البداية والنهاية ١١/٣٣٦ .
(٨) انظر طبقات الحنابلة ٢/١٦٧، وطبقات الحفاظ ص ٤٠٨ .
(٩) انظر ترتيب المدارك ٤/٦٩٢، وشجرة النور الزكية ص ٩٠ .
(١٠) انظر طبقات الحفاظ ص ٤١٦ -٤١٧، وسير أعلام النبلاء ١٧/٢٢٧-٢٣٠ .
(١١) انظر تاريخ جرجان ص١٥٦، وطبقات السبكي ٤/٣٣٣-٣٤٣ .
(١٢) انظر شذرات الذهب ٣/١٧٤، وسير أعلام النبلاء ١٧/١٥١ .

المتوفى سنة ٤٠٥ هـ[١]، وأبو الحسن محمد بن أحمد البزار المعروف بابن زرقويه شيخ الطيب البغدادي توفي سنة ٤١٢ هـ[٢]، وأبو عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي شيخ البيهقي توفي سنة ٤١٢ هـ[٣]، وأبو عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي البصري راوي سنن أبي داود عن أبي علي اللؤلؤي المتوفى سنة ٤١٤ هـ[٤]، وأبو القاسم هبةالله بن الحسن اللالكائي المتوفى سنة ٤١٨هـ[٥]، وأبو الحسن محمد بن محمد التاجر تفرد بعلوالإسناد توفي سنة ٤١٩هـ[٦]، والحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني صاحب حلية الأولياء المتوفى سنة ٤٢٩ هـ[٧]، والإمام ابو بكر أحمد بن الحسين البيهقي تلميذ الحاكم توفي سنة ٤٥٨ هـ[٨] .

وكانت العناية بتمحيص رواية الحديث فائقة عند الدارقطني وغيره، ومما تبين لي أن هذه الفترة قد تبارى فيها العلماء في طلب الحديث وعلومه والتصنيف فيهما ولعل من أهم أسباب ذلك ظهور المبتدعة وقوة دعوتهم وجرأتهم في وضع الأحاديث التي تؤيد تلك البدع في هذا القرن والذي قبله، والله أعلم .

---

(١) انظر تبين كذب المفتري ص٢٢٧ ـ ٢٣١، ووفيات الأعيان ٤ / ٢٨٠، ٢٨١ .

(٢) انظر تاريخ بغداد ١ /٣٥١، والمنتظم ٨ /٤، ٥ .

(٣) انظر النجوم الزاهرة ٤ /٢٥٦، وشذرات الذهب ٣ /١٩٦، ١٩٧ .

(٤) انظر المنتظم ٨ / ١٤، ١٥، وسير اعلام النبلاء ١٧ /٢٢٥ .

(٥) انظر مقدمة كتابه شرح أصول إعتقاد اهل السنة والجماعة بتحقيق د /أحمد سعد حمدان ١ /٧٩.

(٦) انظر شذرات الذهب ٣ /٢١٤، والبداية والنهاية ١٢ /٢٥ .

(٧) انظر طبقات السبكي ٤ /١٨ ـ ٢٥، وطبقات الحفاظ ص ٤٢٣ .

(٨) طبقات السبكي ٤ /٨ ـ ١٦، وطبقات الحفاظ ص ٤٣٣,٤٣٤ .

ثالثاً : العناية بالفقه وأصوله :

وأما الفقه فقد كان على كل مذهب من المذاهب الأربعة عدد من الفقهاء، وكانت مدارسهم مشهورة والتنافس بينها مستمر والمناظرات بينها جارية، ومن هؤلاء الفقهاء وأهل الأصول : أبو الحسن علي بن أحمد بن المرزبان الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٣٦٦ هـ(١)، وأبو بكر القاضي محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن قريعة القائل :

لي حيلة في من ينـــم   وليـس في الكذاب حيلـــة
من كان يخلق ما يقــو   ل فحيلتي فيه قليــــــلة

توفي سنة ٣٦٧ هـ(٢)، وأبو بكر أحمد بن علي الرازي الحنفي المتوفى سنة ٣٧٠هـ(٣)، وأبو الحسن عبدالعزيز بن الحارث التميمي الفقيه الحنبلي المتوفى سنة ٣٧١هـ(٤)، أبو زيد محمد بن أحمد المروزي شيخ الشافعية في زمانه المتوفى سنة ٣٧١ هـ، وأبو القاسم عبد العزيز الداركي أحد أئمة الشافعية في زمانه المتوفى سنة ٣٧٥ هـ، وشيخ القاضي عبد الوهاب البغدادي : أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد التميمي الأبهري الفقيه المالكي إليه انتهت رئاسةمذهب مالك توفي في شوال سنة ٣٧٥ هـ(٥)، أبو سليمان حمد ويقال أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي البستي أحد المشاهير الأعيان والفقهاء المجتهدين المكثرين، له من المصنفات معالم السنن وشرح البخاري وغير ذلك، وله شعر حسن فمنه قوله :

ما دمت حيــا فدار النـاس كلهــم   فإنما أنت في دار المـــــداراة
من يدر داری ومن لم يدر سوف يرى   عما قليل نديماً للندامـــــات

---

(١) انظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/١٤٢، وطبقات الشيرازي ٢/١٢٥ .

(٢) انظر المنتظم ٧/٩١، ٩٢، وتكملة تاريخ الطبري ص٢٢٨ .

(٣) انظر شذرات الذهب ٣/٧١، والبداية والنهاية ١١/٢٩٧ .

(٤) انظر طبقات الحنابلة ٢/١٣٩ .

(٥) انظر الديباج المذهب ٢/٢٠٦، وترتيب المدارك ٤/٤٦٦ .

توفي بمدينة (بست) في ربيع الأول سنة ٣٨٨ هـ[١]، والإمام القدوة الفقيه عالم أهل المغرب أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المالكي المتوفى سنة ٣٨٩ هـ[٢]، والذي شرح القاضي عبد الوهاب رسالة له في العقيدة الصحيحة، ورأيت في مواضع من شرحه حينما يورد كلامه يقول : قال شيخنا. وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الفقيه المالكي مقدم المعدلين ببغداد وشيخ القراءات، سمع الكثير من الحديث وخرج له الداقطني خمسمائة جزء حديث وكان كريماً مفضلاً على أهل العلم توفي سنة ٣٩٣ هـ وقد سبق ذكره، وأبو بكر محمد بن موسى الخوارزمي شيخ الحنفية وفقيههم المتوفى سنة ٤٠٣ هـ[٣]، و شيخ القاضي عبد الوهاب البغدادي في الأصول : القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني الشافعي رأس المتكلمين من أكثر الناس تصنيفاً في الكلام ومناظرة للنصارى والخوارج والمعتزلة والرافضة توفي سنة ٤٠٣ هـ[٤]، والشيخ أبو حامد أحمد بن محمد الإسفرايني إمام الشافعية في زمانه المتوفى سنة ٤٠٦ هـ[٥] وتلامذته في بغداد كثير، وشيخ القاضي عبدالوهاب البغدادي : القاضي أبو عمر القاسم بن جعفر بن عبد الواحد الهاشمي العباسي المتوفى سنة ٤١٤ هـ[٦]،وأبو الحسن أحمد بن محمد القدوري الحنفي صاحب الكتاب المشهور في مذهب أبي حنيفة توفي سنة ٤١٨ هـ[٧]، والأستاذ أبو منصور عبد القاهر ابن طاهر البغدادي الفقيه الشافعي أحد الأئمة في الأصول والفروع وله الفرق بين الفرق توفي سنة ٤٢٩ هـ[٨]، والشيخ أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله الطائي الجويني إمام الشافعية في زمانه كان فقيهاً نحوياً مفسراً، وهو أبو إمام الحرمين توفي سنة ٤٣٨ هـ[٩] .

---

(١) انظر طبقات السبكي ٣/٢٨٢ - ٢٩٠، ووفيات الأعيان ٢/٢١٤-٢١٦.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ١٧/١٠، شذرات الذهب ٣/١٣١ .

(٣) انظر طبقات الفقهاء للشيرازي ٢/١٥١، وتاريخ بغداد ٣/٢٤٧ .

(٤) انظر كذب المفتري ٢١٧ - ٢٢٦ .

(٥) انظر طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/١٧٢، وطبقات الشيرازي ٢/١٣١ .

(٦) انظر العبر ٢/٢٢٧،وشذرات الذهب ٣/٨٧ .

(٧) انظر تاريخ بغداد ٤/٣٧٧، وشذرات الذهب ٣/٢٣٣ .

(٨) انظر تبين كذب المفتري ص ٢٥٣، وطبقات ابن قاضي شهبة ص ٩٤ .

(٩) انظر طبقات السبكي ٥/٧٣-٩٣، وسير أعلام النبلاء ١٧/٦١٧.

رابعاً :العناية باللغة العربية وآدابها :

وكان الاهتمام باللغة فائقاً فهي وعاء الدين، وكان من أبرز من اهتم بها : أبو الحسن أحمد بن زكريا اللغوي المتوفى سنة ٣٦٩ هـ صاحب كتاب المجمل في اللغة وغيره، وهو القائل قبل موته بيومين :

يا رب إن ذنوبي قد أحطت بها — علماً وبي وبإعلاني وأسـراري
أنا الموحد لكني المقر بهـــا — فهب ذنوبي لتوحيدي وإقراري (١)

وأبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه النحوي اللغوي أعرب ثلاثين سورة من القرآن ومصنفاته متعددة توفي سنة ٣٧٠ هـ(٢)، وإمام النحو أبو علي الحسن بن محمد الفارسي صاحب المصنفات الكثيرة المتوفى سنة ٣٧٧ هـ(٣)، وأبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري أحد الأئمة في اللغة والأدب والنحو والنوادر توفي سنة ٣٨٣ هـ(٤)، وأبو الحسن علي بن عيسى المعروف بالرماني له يد طولى في النحو واللغة والمنطق والكلام توفي سنة ٣٨٤ هـ (٥)، وأبو محمد يوسف بن أبي سعيد السيرافي الذي تمم شرح أبيه لكتاب سيبويه توفي سنة ٣٨٥ هـ(٦)، و إمام العربية أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي النحوي اللغوي صاحب التصانيف في النحو واللغة، توفي سنة ٣٩٢ هـ(٧)، والعلامة البليغ بديع الزمان أحمد بن الحسين الهمذاني صاحب المقامات المتوفى ٣٩٨ هـ(٨)، وأبو عبيد أحمد ابن محمد العبدي الهروي اللغوي البارع في اللغة، المجالس لأهل اللذة والطرب، المتوفى سنة

---

(١) البداية والنهاية ١١/٢٩٦ .
(٢) انظر شذرات الذهب ٣/٧١، ٧٢ .
(٣) انظر معجم البلدان ٤م٢٦١، ووفيات الأعيان٢/٨٠ـ٨٢ .
(٤) انظر وفيات الأعيان ١/٨٣ـ٨٥ .
(٥) انظر البداية والنهاية ١١/٣١٤، ووفيات الأعيان ٣/٢٩٩ .
(٦) انظر وفيات الأعيان٧/٧٢ـ٧٤، والبداية والنهاية ١١/٣١٩ .
(٧) انظر المنتظم ٧/٢٢٠، ٢٢١، وسير اعلام النبلاء ١٧/١٧ـ١٩ .
(٨) انظر وفيات الأعيان ١/١٢٧ـ١٢٩،والنجوم الزاهرة ٤/٢١٨، ٢١٩ .

٤٠١ هـ[١]، وأبو بكر محمد بن الحسن بن فورك النحوي الأديب المتكلم الواعظ المتوفى سنة ٤٠٦ هـ[٢]، وأبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي صاحب يتيمة الدهر، وله التصانيف الكبار في النظم والنثر والبلاغة والفصاحة توفي سنة ٤٣٠ هـ[٣]، أبو الحسن علي ابن إبراهيم الحوفي النحوي له كتاب كبير في النحو وإعراب القرآن في عشر مجلدات توفي سنة ٤٣٠ هـ[٤].

وأما الشعراء فكان منهم من هداه الله فكانوا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات : سخروا شعرهم في قول الحق والدعوة إلى تقوى الله والزهد في الدنيا وملذاتها، والاتجاه إلى العلم والتزود للدار الآخرة[٥] كما هو واضح من شعر القاضي عبد الوهاب البغدادي ـ رحمه الله ـ.

وحتى وإن كان بعضهم ينتسب إلى بعض الطوائف المنحرفة في الاعتقاد، فقد كان في شعره ما يدعو إلى الرجولة والعفة والمحافظة وعدم الوقوع في الرذائل والمعاصي، من ذلك مثلاً ما قاله الحسين بن أحمد الجنابي القرمطي المتوفى سنة ٣٦٦ هـ :

إني امرء ليس من شأني ولا أربي ... طبل ولا نأي ولاعود

ولااعتكاف على خمر ومخمرة ... وذات دل لها غنج وتفنيد

ولا أبيت بطين البطن من شبع ... ولي رفيق خميص البطن مجهود

ولاتسامت بي الدنيا إلى طمع ... يوما ولا غرني فيها المواعيد [٦]

ومن هؤلاء : علي بن محمد البستي الشاعر المشهور المتوفى سنة ٣٦٣ هـ[٧]، والقاضي منذر البلوطي قاضي قضاة الأندلس المتوفى سنة ٣٦٦ هـ[٨]، وأبو الفرج عبدالواحد

(١) انظر شذرات الذهب ٣/ ١٦١، ووفيات الأعيان ١/ ٩٥، ٩٦ .

(٢) انظر تبيين كذب المفتري ص٢٣٢، وطبقات السبكي ٤/ ١٢٧ - ١٣٥ .

(٣) انظر العبر ٣/ ١٧٢، شذرات الذهب ٣/ ٢٤٦، ٢٤٧ .

(٤) انظر سير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٢١، والنجوم الزاهرة ٥/ ٧٦، ٧٧ .

(٥) انظر البداية والنهاية ١١/ ٢٧٨ .

(٦) البداية والنهاية ١١/ ٢٧٨ .

(٧) انظر المنتظم ٧/ ٧٢، ووفيات الأعيان ٣/ ٣٧٦ - ٣٧٨ .

(٨) انظر نفح الطيب ١/ ٣٧٢ - ٣٧٦، ٢/ ١٦ - ٢٢، وشذرات الذهب ٣/ ١٧ .

ابن نصر المخزومي الملقب بالببغاء المتوفى سنة ٣٩٨ هـ[١]، وأبو نصر عبد العزيز بن عمر ابن نباتة القائل البيت المشهور :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تنوعت الأسباب والموت واحد[٢]

ومحمد بن طاهر الشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ هـ[٣]، وعلي بن محمد التهامي أبو الحسن المتوفى سنة ٤١٦ هـ، له ديوان مشهور وله مرثاة في ولده وكان قد مات صغيراً أولها :

حكم المنية في البرية جـــــاري ما هذه الدنيا بدار قــــــرار

ومنها :

إني لأرحم حاسدي لحـــــــرما ضمت صدورهم من الأوغـــار

نظروا صنيع الله بي فعيونهـــم في جنة وقلوبهم في نـــــار

ومنها في ذم الدنيا :

جبلت على كـــدر وأنت ترومهـــا صفـــواً مـن الأقـــذار والأكـــدار

ومكلف الأيـــام ضد طباعهـــــا متطلب في المـــاء جذوة نـــار

وإذا رجـــوت المستـــــحيل فإنما تبنـــي الرجاء على شـــفير هار

ومنها قوله في ولده بعد موته :

جاورت أعــــــدائي وجاور ربه شـــــتان بين جواره وجـــواري

و ذكر ابن خلكان أنه رآه بعضهم في المنام في هيئة حسنة فقال له بعض أصحابه : بم نلت هذا، فقال بهذا البيت :

.... شـــتان بين جـــواره وجـــواري[٤].

---

(١) انظر المنتظم ٧ / ٢٤١، وشذرات الذهب ٣ / ١٥٢، ١٥٣ .

(٢) انظر تاريخ بغداد ١٠ / ٦٦، ووفيات الأعيان ٣ / ١٩٠ -١٩٣ .

(٣) انظر وفيات الأعيان ٤ / ٤١٤ - ٤٢٠ .

(٤) البداية والنهاية ١٢ / ١٩, ٢٠،وانظر وفيات الأعيان ٣ / ٣٧٨ - ٣٨١ .

ومن هؤلاء أيضا أخو القاضي عبد الوهاب البغدادي : أبو الحسن محمد بن علي فقد كان من الشعراء المذكورين، ولي الكتابة لجلال الدولة ثم نفذه رسولاً مات بواسط سنة ٤٣٧هـ(١).

وأما جزء كبير منهم فقد كانوا يتكسبون بشعرهم في المدائح للخلفاء والأمراء والوزراء حتى لو كان ذلك على حساب الدين والأخلاق والعفة والمروءة ، بل لقد وصل بعضهم إلى الكفر ـ والعياذ بالله فيمدح البشر كقول بعضهم في مدح المعز الفاطمي :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقوله:

.... لطالما زاحمت تحت ركابه جبريلا (٢)

ومن هؤلاء : الشاعر الأندلسي صاحب المعز الفاطمي محمد بن هانىء، كفره غير واحد بسبب شعره السابق توفي سنة٣٦٢ هـ، وأبو الحسن محمد بن عبد الله بن محمد السلامي المتوفى سنة ٣٩٣ هـ القائل :

عضد الدولة وابن ركنها ملك الأملاك غلاب القدر (٣)

وأبو الحسين الشاعر الماجن محمد بن عبد الله بن سكرة المتوفى سنة ٣٨٥ هـ يقال إنه قال في قينة سوداء تسمى خمرة أكثر من عشرة آلاف بيت (٤)، والحسين بن أحمد ابن الحجاج الشاعر الماجن الشيعي المقذع في نظمه المتوفى سنة ٣٩١ هـ(٥)، وصريع الدلال أبو الحسن محمد وقيل : علي بن عبد الواحد البغدادي الشاعر الماجن قتيل الغواني المتوفى سنة ٤١٢ هـ(٦) .

(١) انظر سير اعلام النبلاء ١٧/ ٤٣٢ .

(٢) البداية والنهاية ١١/ ٢٧٤ .

(٣) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٥٠، وانظر وفيات الأعيان ٤/ ٤٠٣ ـ ٤٠٩ .

(٤) انظر تاريخ بغداد ٥/ ٤٦٥، ووفيات الأعيان ٤/ ٤١٠ ـ ٤١٤ .

(٥) انظر شذرات الذهب ٣/ ١٣٦، والبداية والنهاية ١١/ ٣٢٩ .

(٦) انظر الداية والنهاية ١٢/ ١٣، وشذرات الذهب ٣/ ١٩٧ .

خامساً : العناية بالعلوم الأخرى :

وقد اشتغل بعض الناس بعلم النجوم وعلم الرصد مثل : أبي الحسن علي بن أبي سعيد عبد الرحمن الصدفي المصري المتوفى سنة ٣٩٩ هـ، وهو صاحب الزيج المصري الحاكمي، عمله للعزيز العبيدي صاحب مصر [١]، وأبي الخطاب حمزة بن إبراهيم المنجم المتوفى سنة ٤١٩ هـ[٢].

واشتغل بعضهم بعلم الطب ومن أشهر الئك الحسن بن عبد الله بن سينا الطبيب المتوفى سنة ٤٢٨هـ.[٣]

واشتغل بعضهم بالفلسفة مثل : ابن سينا السابق وغيره.

وقد كثر التصوف في هذه الفترة وانغمس فيه كثير من الناس من أ شهرهم : أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري شيخ المتصوفة ببغداد المتوفى سنة ٣٧١ هـ[٤]، وأبو الحسن محمد بن أبي إسماعيل علي بن الحسين العلوي دخل الشام فصحب الصوفية حتى صار من كبارهم توفي سنة ٣٩٥ هـ[٥]، وأبو الفتح محمد بن الحسين الشيباني العطار المتوفى سنة ٤٣٤هـ[٦].

وكان مذهب القرامطة منتشراً في تلك الفترة وكان لهم دولة في الأحساء وغيرها كما سبق في الحالة السياسية، وكان من أبرز علمائهم : ملك القرامطة المتقدم ذكره في غزو مصر : أبو يعقوب يوسف بن الحسين الجنابي صاحب هجر المتوفى سنة ٣٦٧ هـ[٧]، وأبو محمد الحسن وقيل : الحسين بن أحمد الجنابي القرمطي المتوفى سنة ٣٦٦ هـ[٨]وغيرهما.

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء ١٧/١٠٩، ووفيات الأعيان ٣/٤٢٩ - ٤٣١ .

(٢) انظر المنتظم ٨/٣٦، البداية والنهاية ١٢/٢٥ .

(٣) انظر سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٣١ ـ٥٣٦ ،إغاثة اللهفان ٢/٢٦٦ .

(٤) انظر البداية والنهاية ١١/٢٩٨ .

(٥) انظر المنتظم ٧/٢٣٠ .

(٦) انظر المنتظم ٨/١١٦، والبداية والنهاية ١٢/٥١ .

(٧) انظر تكملة تاريخ الطبري ص ٢٣٥، وشذرات الذهب ٣/٥٨ .

(٨) انظر البداية والنهاية ١١/٢٨٦، وشذرات الذهب ٣/٥٥ .

وبهذا يتضح أن القاضي عبد الوهاب البغدادي أحد هؤلاء المحدثين والفقهاء والشعراء الذين أثروا الحياة العلمية بمناظراتهم واجتهاداتهم في أبواب الأحكام، والذب عن الإسلام والحكم به في ذلك الوقت، الذي كثر فيه الخوض بالحق تارة وبالباطل تارات، وكتابه شرح رسالة ابن أبي زيد في بيان مذهبه الصحيح وبيان الاعتقاد المبني على الكتاب والسنة لا يخفى على القارىء .

الخاتمة : وتشتمل على أهم نتائج البحث :

١ ـ أن للاضطرابات السياسية أثر كبير على الحياة في تلك الفترة، فقد ظهرت في المجتمع الإسلامي بوادر الانفصام والتفكك، وذلك لكثرة المفارقات التي اعترته من عصبيات جنسية واختلافات عقدية ومذهبية، وفوارق مادية .

٢ ـ حصل في تلك الفترة في أهل الإسلام من الوهن ما لم يعرف من قبل حتى استولت النصارى على ثغور الإسلام، وانتشرت القرامطة في أرض مصر والمغرب والمشرق وغير ذلك، وجرت حوادث كثيرة كما سبق، ولما كانت مملكة محمود بن سبكتكين كان الإسلام في مملكته أعز، ونشر من العدل ما لم ينشر مثله .

٣ ـ مع أن الأمراء والملوك والوزراء في تلك الفترة كانوا على مشارب عقدية مختلفة، إلا أن الله حقق على أيدي بعضهم ما فيه خير للإسلام، وإن كان لا يدوم أمر من يفعل الخير حتى يعزل من قبل الأمراء والولاة .

٤ ـ كان مع ضعف الخلافة والتهاء دولة البويهيين والفاطميين بالقتال بينهم، وعدم تمكن أهل السنة التمكن الكامل من قيادة الأمة، إلا أن قواد الجيوش من السنة قد أحيوا الجهاد في سبيل الله، وقضوا على الوثنية وعبادة الأصنام في شبه القارة الهندية .

٥ ـ كثر طمع النصارى(الروم)في استباحة دماء المسلمين و الاستيلاء على بلدانهم، ونشر عقائدهم وممارسة شعائرهم وزيادة بناء كنائسهم في بلاد الشام ومصر وغيرهما .

٦ - اتضح أن بعض الطوائف قويت في تلك الفترة وجرأت في إظهار بدعها المتعددة المخالفة للكتاب والسنة، بسبب تمكن بعض الولاة المتعاطفين معهم أو المشاركين لهم في تلك البدع .

٧ - مع سوء الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية كان العلم مصاناً محترماً كثرت في تعلمه وتعليمه الجهود، وانقطع لذلك العلماء دون التفات لما في الساحة من معوقات أو مثبطات فقد كثر التصنيف في كل فن، والجمع، والمناظرات، حتى وصل تصنيف بعض العلماء في تلك الفترة إلى مئات المجلدات، وخدمت كتب العلم بالشروح وتوسع فيها، حتى إنه ليجمع في كتاب واحد مائة مجلد أو أكثر كما سبق .

٨ - ومن معرفة حال هذا العصر العلمية تبين كثرة الخلاف والتمذهب، حتى وصل الأمر إلى مناقشة الناس في معرفة مذاهبهم ليحكم عليهم بها ويصنفون من خلال ذلك، فكان الأمر كما قال البستي الشاعر المشهور المعايش للقاضي عبد الوهاب البغدادي :

يا أيها الســـــائل عن مذهبي　　ليقتـــدي فيه بمنهاجـــــــي
منهاجي الحق وقمع الهــــوى　　فهل لمنهــاجي من هاجـــــي (١)

٩ - لقد تأثرت الحالة الاقتصادية بالاضطرابات السياسية والاجتماعية التي حلت بالدولة الإسلامية، وكان لذلك أثر كبير على حياة العلماء ومنهم القاضي عبد الوهاب البغدادي وغيره من مستوري الحال غير الناظرين إلى حال أهل الجاه والمال حتى كان مما يحكي حالهم قول أبي الفتح السابق :

إذا قنعت بميســــور من القوت　　بقيت في الناس حراً غير ممقوت
يا قوت يومي إذا ما در خلفك لي　　فلست آسي على در وياقوتـــي (٢)

١٠ - صقلت هذه الأحداث القاضي عبد الوهاب البغدادي في نشأته وترعره وجعلته في أول حياته ينصرف إلى العلم النافع ويعتصم به من الفوضى والفتن السابقة، والانحرافات

---

(١) البداية والنهاية ١١/٢٧٨ .
(٢) البداية والنهاية ١١/٢٧٨ .

التي وقع فيها كثير من الناس الجهال في تلك الفترة، فالعلم خير طريق لمعرفة الحق وسلوك طريق الهداية كما قال الله ـ تعالى ـ :﴿ وَاعتَصِمُواْ بِحَبلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذكُرُواْ نِعمَتَ اللهِ عَلَيكُم إِذ كُنتُم أَعداءً فَأَلَّفَ بَينَ قُلُوبِكُم فَأَصبَحتُم بِنِعمَتِهِ إِخوَانًا وَكُنتُم عَلَى شَفَا حُفرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِنهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُم ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُم تَهتَدُونَ ﴾[1] والنفس بحاجة إلى بناء وإعداد حتى تكون قادرة على مواجهة أحوال الدهر وأحداثه .

١١ ـ أنبتت هذه الأحداث في القاضي عبد الوهاب : قوة الإرادة وصدق العزيمة والإقدام وسلوك طريق العلم والرشد، والاتصال بالعلماء الربانيين وتربية النفس على الشرع والدين الحق، والتنافس في طلب العلم، والقدرة على المناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن .

١٢ ـ الأحوال السياسية المتقلبة المتصارعة والفوضى الاجتماعية والانقسامات وظهور الطائفية والبدع ومخالفة طريق السلف الصالح، تدفع إلى البحث عن طريق الحق فتسلك ووجوب الاقتداء بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتباعه، ويساعده ذلك على إظهار عور البدعة وإقامة صاحبها على الهدي النبوي . وهذا ما وصل إليه القاضي عبد الوهاب البغدادي ـ رحمه الله ـ .

١٣ ـ إن هذه الأحداث لا يمكن أن يتعامل معها المسلم إلا بعلم وافر، وحكمة راجحة، وأخذ بالأسباب المشروعة، ورضى بالقضاء، واحتساباً للأجر من الله مدبر الكون وعالم أسرار العباد ومقاصدهم، وهذا ما أحسب القاضي عبد الوهاب بلغه بطلبه للعلم وتعليمه وهو ظاهر فيما أثر عنه من مصنفات علمية .

١٤ ـ التعامل مع الناس حاكماً أو محكوماً عالماً أو جاهلا مسلماً أو نصرانياً أو كافراً يحتاج إلى مسلم يقظ، وعالم فطن وحكيم رحيم بالناس، يعرفهم طريق الحق والنهج القويم، مع تحمل الأذى والصبر على مرارة العيش معهم .

١٥ ـ الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاش فيها القاضي عبدالوهاب تحتاج إلى نفس غنية زاهدة فيما في أيدي أهل المال والجاه، عفيفة قانعة بما

---

(١) سورة آل عمران، الآية : ١٠٣ .

يسره الله، فاعلة الأسباب، متوكلة على الله راضية بتقديره، وهذا ما تفيده أحواله ومعاناته بالفقر والحاجة وتحمل مشقة الأسفار وهجر البلد والدار والخلان والأصحاب كما تقدم .

١٦ - إن المطلع على أحوال عصر القاضي عبد الوهاب البغدادي والقارىء لسيرته والمطلع على مؤلفاته ليعلم حقاً أثر هذه الأحوال في بناء شخصيته العلمية، فكل من هذه الأحوال لها وقع في شخصية القاضي - رحمه الله - فجعلت منه الرجل العالم الفقيه بأدواء عصره ودوائها، لقد كتب وأفتى وناظر وألف وبحث مسائل تتعلق بعصره، فلو أمعنت النظر في سائر ما كتبه لأدركت أن ما من قضية أو مسالة ظهرت الحاجة إلى القول الحق فيها إلا كانت له مساهمة فاعلة في بحثها في ضوء الدليل من الكتاب والسنة، كما في شرحه لرسالة ابن أبي زيد وعيون المجالس وغيرهما .

هذا ما تيسر جمعه وكتابته في هذا الموضوع المهم، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

أهم المصادر والمراجع

١ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية، دار المعرفة ببيروت .

٢- الانتصارات الإسلامية في كشف شبه النصرانية للطفي، بتحقيق د/ سالم القرني .

٣ - البداية والنهاية لأبي الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير، ط : ٢، مكتبة المعارف ببيروت .

٤ - تأريخ بغداد للخطيب البغدادي،دار الكتب العلمية ببيروت .

٥- تاريخ جرجان، لحمزة الجرجاني، عالم الكتب ببيروت .

٦- تاريخ الخلفاء، لجلال الدين السيوطي، ط : ١، مطبعة السعادة بمصر .

٧- تأريخ دمشق،للحافظ علي بن الحسن المعروف بابن عساكر، مكتبة الدار بالمدينة .

٨- تبيين كذب المفتري لأبي القاسم علي بن الحسين بن عساكر، دار الكتاب العربي ببيروت .

٩ - ترتيب المدارك ...لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض،دار مكتبة الحياة ببيروت .

١٠- تكملة تاريخ الطبري لمحمد بن عبد الملك الهمداني، المطبعة الكاثوليكية ببيروت.

١١- التلقين في الفقه المالكي للقاضي عبد الوهاب البغدادي، دار الفكر ببيروت .

١٢- التوقيف على مهمات التعاريف لمحمد المناوي، دار الفكر، ودار الفكر المعاصر ببيروت ودمشق .

١٣- الجامع الصحيح المسند للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير ببيروت.

١٤ - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون، مكتبة دار التراث بالقاهرة .

١٥ - سير أعلام النبلاء لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة .

١٦ ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، لمحمد بن محمد مخلوف،دار الفكر للطباعة والنشر ببيروت

١٧ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب للمؤرخ عبد الحي بن العماد الحنبلي منشورات دار الآفاق الجديدة ببيروت .

١٨ـ صحيح مسلم، دار الفكر ببيروت

١٩ـ طبقات الحنابلة للقاضي أبي يعلى، دار المعرفة ببيروت .

٢٠ـ طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة، عالم الكتب ببيروت .

٢١ ـ طبقات الشافعية الكبرى لأبي نصر السبكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٣٨٤ هـ

٢٢ـ طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي،دار القلم ببيروت .

٢٣ـ العبر في خبر من غبر لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي،دار الكتب العلمية ببيروت .

٢٤ ـ عيون المجالس للقاضي عبد الوهاب البغدادي، مكتبة الرشد بالرياض .

٢٥ـ الفهرست لمحمد بن النديم،دار المعرفة ببيروت .

٢٦ـ الكامل في التاريخ لأبي الحسن علي بن الأثير،دار الكتاب العربي ببيروت .

٢٧ ـ مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي، دار الفكر ببيروت .

٢٨ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد بن محمد المقري الفيومي،دار الكتب العلمية ببيروت .

٢٩ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي، دار الفكر ببيروت .

٣٠ ـ المعونة للقاضي عبد الوهاب البغدادي،مكتبة نزار الباز بمكة .

٣١ ـ المنتظم في تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزي، دار صادر ببيروت .

٣٢ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لجمال الدين يوسف الأتابكي، دار الكتب بمصر .

٣٣ـ وفيات الأعيان وأنباء الزمان، دار صادر ببيروت ١٣٩٧ هـ.

فهرس المحتويات